المواهب اللدنية

بالمنح المحمدية

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد القسطلاني

المتوفى سنة ٩٢٣هـ

حققه وعلق عليه

مأمون بن محيي الدين الجنان

طبعة جديدة كاملة

الجزء الثاني

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

المواهب اللدنية

بالمنح المحمدية

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد القسطلاني
المتوفى سنة ٩٢٣هـ

شرحه وعلق عليه
مأمون بن محيي الدين الجنان

طبعة جديدة كاملة

الجزء الثاني

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

المقصد الثالث

وفيه أربعة فصول

- فيما فضله الله تعالى به من كمال خلقته وجمال صورته
- وكرمه تعالى به من الأخلاق الزكية وشرفه به من الأوصاف المرضية
- وما تدعو ضرورة حياته إليه ﷺ

في كمال خلقته وجمال صورته[1] صلى الله عليه وسلم وشرفه وكرمه

اعلم أن من تمام الإيمان به ﷺ الإيمان بأن الله تعالى جعل خلق بدنه الشريف على وجه لم يظهر قبله ولا بعده خلق آدمي مثله، فيكون ما يشاهد من خلق بدنه آيات على ما يتضح لك من عظيم خلق نفسه الكريمة، وما يتضح من عظيم أخلاق نفسه آيات على ما تحقق له من سر قلبه المقدس، ولله در الأبوصيري حيث قال:

فهو الذي تم معناه وصورته ... ثم اصطفاه حبيباً بارىء النسم
منزه عن شريك في محاسنه ... فجوهر الحسن فيه غير منقسم

يعني: حقيقة الحسن الكامل كائنة فيه، لأنه الذي تم معناه دون غيره، وهي غير منقسمة بينه وبين غيره، وإلا لما كان حسنه تاماً، لأنه إذا انقسم لم ينله إلا بعضه فلا يكون تاماً.

وفي الأثر: أن خالد بن الوليد خرج في سرية من السرايا، فنزل ببعض الأحياء فقال له سيد ذلك الحي: صف لنا محمداً فقال: أما إني أفصل فلا، فقال الرجل: أجمل، فقال: الرسول على قدر المرسل، ذكره ابن المنير في أسرار الإسرار.

فمن ذا الذي يصل قدره أن يقدر قدر الرسول، أو يبلغ من الإطلاع على مأثور أحواله المأمول والمسؤول؟!

وقد حكى القرطبي - في كتاب الصلاة - عن بعضهم أنه قال: لم يظهر لنا تمام حسنه ﷺ، لأنه لو ظهر لنا تمام حسنه لما أطاقت أعيننا رؤيته ﷺ. ولقد أحسن الأبوصيري أيضاً حيث قال:

أعيى الورى فهم معناه فليس يرى ... للقرب والبعد فيه غير منفحم
كالشمس تظهر للعينين من بعد ... صغيرة وتكل الطرف من أمم

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٣١٥ والبداية والنهاية ٦/ ١٣ ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٠١.

وهذا مثل قوله أيضاً:

إنما مثلوا صفاتك للنا ... س كما مثل النجوم الماء

وأشار بقوله «تظهر» إلى وجه التشبيه بالشمس لا مطلقاً، ولقد بين عيب التشبيه بها على الإطلاق أبو النواس[1] حيث قال:

تتيه الشمس والقمر المنير ... إذا قلنا كأنهما الأمير
لأن الشمس تغرب حين تمسي ... وأن البدر ينقصه المسير

وهذه التشبيهات الواردة في حقه ﷺ إنما هي على سبيل التقريب والتمثيل، وإلا فذاته أعلى ومجده أغلى.

فأما رأسه[2] الشريف المقدس فحسبك ما ذكره الترمذي في جامعه بسنده إلى هند بن أبي هالة قال: كان رسول الله ﷺ عظيم الهامة.

وقال نافع بن جبير: وصف لنا علي رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال: كان عظيم الهامة.

وأما وجهه الشريف[3] فحسبك ما روى الشيخان من حديث البراء قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خلقاً، ليس بالطويل الذاهب، ولا بالقصير البائن[4].

وعن أبي هريرة: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجري في وجهه[5] رواه الترمذي والبيهقي وأحمد وابن حبان.

قال الطيبي: شبه جريان الشمس في فلكها بجريان الحسن في وجه ﷺ، قال: ويحتمل أن يكون من تناهي التشبيه جعل وجهه مقراً ومكاناً للشمس ولله در القائل:

لم لا يضيء بك الوجود وليله ... فيه صباح من جمالك مسفر

---

(١) هو الحسن بن هانيء بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء أبو نواس (١٤٦ ـ ١٩٨ هـ) شاعر توفي ببغداد. الأعلام ٢/ ٢٢٥ تهذيب ابن عساكر ٤/ ٢٥٤ خزانة الأدب ١/ ١٦٨ وفيات الأعيان ١/ ١٣٥ تاريخ بغداد ٧/ ٤٣٦ والشعر والشعراء ٣١٣.
(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢١٦ وطبقات ابن سعد ١/ ٣١٥.
(٣) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٧ ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٩٤ وطبقات ابن سعد ١/ ٣١٥.
(٤) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٤٩).
(٥) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٣٨٠ وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٠٩ والترمذي كتاب المناقب باب (١٢) رقم الحديث (٣٦٤٨).

فبشمس حسنك كل يوم مشرق وببدر وجهك كل ليل مقمر

وفي البخاري: سئل البراء: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ فقال: لا، بل مثل القمر[1].

وكأن السائل أراد مثل السيف في الطول، فرد عليه البراء فقال: بل مثل القمر، أي في التدوير، ويحتمل أن يكون أراد مثل السيف في اللمعان والصقالة، فقال: بل فوق ذلك، وعدل إلى القمر لجمعه الصفتين من التدوير واللمعان.

وقال الحافظ النسابة أبو الخطاب بن دحية رحمه الله تعالى في كتابه «التنوير في مولد البشير النذير»[2] ﷺ وشرف وعظم وكرم، عند إيراد حديث البراء المذكور ما لفظه: ففي هذا الحديث من العلم أن التشبيه ممن لا يحسنه لا يصلح الإقرار عليه، لأن السائل شبه وجه رسول الله ﷺ بالسيف، ولو شبهه بالشمس لكان أولى، فرد عليه البراء قوله وقال: بل مثل القمر، وأبدع في تشبيهه، لأن القمر يملأ الأرض بنوره، ويؤنس كل من يشاهده، ونوره من غير حر يفزع، ولا كلل ينزع، والناظر إلى القمر متمكن من النظر بخلاف الشمس التي تغشي البصر وتجلب للناظر الضرر. انتهى.

وفي رواية مسلم من حديث جابر بن سمرة، وقال له رجل أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ فقال: لا، بل مثل الشمس والقمر وكان مستديراً[3].

وإنما قال: مستديراً للتنبيه على أنه جمع الصفتين، لأن قوله: مثل السيف يحتمل أن يريد به الطول، ويحتمل أن يريد به اللمعان كما تقدمت إليه الإشارة فيما سبق من العبارة، فرده المسؤول رداً بليغاً، ولما جرى التعارف به من أن التشبيه بالشمس إنما يراد به غالباً الإشراق، وبالقمر إنما يراد به الملاحة دون غيرهما، فقوله وكان مستديراً، أشار به إلى أنه أراد به التشبيه بالصفتين معاً: الحسن والاستدارة.

وقال المحاربي عن أشعث عن أبي إسحاق عن جابر بن سمرة.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٥٢) وفي الترمذي كتاب المناقب أيضاً باب (٨) رقم الحديث (٣٦٣٦) وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٩٥ والدارمي في المقدمة. والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ٢٨١ و٥/ ١٠٤.

(٢) وقع في كشف الظنون ١/ ٥٠٢ التنوير في مولد السراج المنير لأبي الخطاب المعروف بابن دحية الكلبي المتوفي سنة (٦٣٣ هـ).

(٣) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٥٢). والترمذي كتاب المناقب باب (٨) رقم الحديث (٣٦٣٦) وأحمد بن حنبل في المسند ٤/ ٢٨١ و٥/ ١٠٤ والبداية والنهاية ٦/ ١٤ وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٩٥.

أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إضحيان وعليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو كان أحسن في عيني من القمر، وفي رواية: بعد قوله حمراء: فجعلت أماثل بينه وبين القمر.

وروى الترمذي والبيهقي عن علي أنه نعته ﷺ فقال: لم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم، كان في وجهه تدوير[1]. والمكلثم: المدور الوجه، أي لم يكن شديد تدوير الوجه بل في وجهه تدوير قليل.

وفي حديث علي عند أبي عبيد في الغرائب: وكان في وجهه تدوير قليل، قال أبو عبيد في شرحه: يريد أنه ما كان في غاية التدوير، بل كان فيه سهولة وهي أحلى عند العرب.

وفي حديث أبي هريرة عند الذهلي[2] في الزهريات في صفته ﷺ: كان أسيل الخدين. قال ابن الأثير: الأسالة في الخد: الإستطالة وأن لا يكون مرتفع الوجنة. قال شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر: ولعل هذا هو الحامل لمن سأله أكان وجهه مثل السيف.

وأخرج البخاري عن كعب بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا سرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه[3]. أي الموضع الذي يتبين فيه السرور وهو جبينه.

وقالت عائشة رضي الله عنها: دخل النبي ﷺ يوماً مسروراً تبرق أسارير وجهه[4]. ولذلك قال كعب كأنه قطعة قمر. وفي حديث جبير بن مطعم عند الطبراني: التفت إلينا رسول الله ﷺ بوجه مثل شقة القمر، فهذا محمول على صفته عند الالتفات.

وقد أخرج الطبراني حديث كعب بن مالك من طرق في بعضها: كأنه دارة قمر.

ويسأل عن السر في التقييد بالقطعة مع كثرة ما ورد في كثير من كلام البلغاء من تشبيه الوجه بالقمر بغير تقييد. وقد كان كعب بن مالك قائل هذا من شعراء الصحابة، فلا بد من التقييد بذلك من حكمة، وما قيل في أن ذلك من الاحتراز من السواد الذي في القمر ليس بقوي، لأن المراد بتشبيهه ما في القمر من الضياء والاستنارة وهو في تمامه لا يكون فيها

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب المناقب باب (٨) رقم الحديث (٣٦٣٨).

(٢) هو محمد بن يحيى بن عبد الله الذهلي مولاهم النيسابوري أبو عبد الله (١٧٢ ـ ٢٥٨ هـ) من حفاظ الحديث. الأعلام ٧/ ١٣٥ تاريخ بغداد ٣/ ٤١٥ تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٣٠ رقم الترجمة (٥٤٩).

(٣) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٥٦ ـ ٤٤١٨) وفي البداية والنهاية ٦/ ١٤ وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٩٧.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الفرائض باب (٣١) رقم الحديث (٦٧٧٠ ـ ٣٥٥٥ ـ ٣٧٣١ ـ ٦٧٧١) وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٩٨.

أقل مما في القطعة المجردة، فكأن التشبيه وقع على بعض الوجه فناسب أن يشبه ببعض القمر.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: كان وجه رسول الله ﷺ كدارة القمر[1]، أخرجه أبو نعيم.

وروى البيهقي عن أبي إسحاق الهمداني عن امرأة من همدان ـ سماها ـ قالت: حججت مع النبي ﷺ مرات فرأيته على بعير له يطوف بالكعبة بيده محجن عليه بردان أحمران يكاد يمس شعره منكبه إذا مر بالحجر استلمه بالمحجن ثم يرفعه إلى فمه فيقبله. قال أبو إسحاق: فقلت لها شبهيه قالت: كالقمر ليلة البدر، لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ[2].

وروى الدارمي والبيهقي وأبو نعيم والطبراني عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: قلت للربيع بنت معوذ صفي لي رسول الله ﷺ، قالت: لو رأيته لقلت: الشمس طالعة[3]، وفي لفظ: يا بني لو رأيته رأيت الشمس طالعة.

وروى مسلم عن أبي الطفيل أنه قيل له: صف لنا رسول الله ﷺ فقال: كان أبيض مليح الوجه[4].

وفيما أخرجه الترمذي من حديث هند بن أبي هالة: كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر[5].

وقالت أم معبد حين وصفته لزوجها: متبلج الوجه، يعني: مشرقه مضيئه، ومنه تبلج الصبح إذا أسفر، وما أحسن قول سيدي علي بن وفا حيث قال:

---

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٨٥٢٦) وفي الجامع الكبير ٢/ ٣٠١.

(٢) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ١/ ١٩٩. وابن كثير في البداية والنهاية ٦/ ١٧.

(٣) أخرجه الدارمي في المقدمة رقم الحديث (١٠). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٨٠. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٧٩٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل رقم الحديث (٩٨). وفي سنن أبي داود كتاب الأدب باب (٣٠) رقم الحديث (٤٨٦٤). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٤٥٤. وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٠٥. والبداية والنهاية ٦/ ١٦. وفي طبقات ابن سعد ١/ ٣٢١.

(٥) ذكره البغوي في شرح السنة ٣/ ٢٧٠ وطبقات ابن سعد ١/ ٣٢٤ ومجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٧٣ وفي الشمائل للترمذي ٩ ـ ١٩ ـ ١٦٥ وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٨٦ والبداية والنهاية ٦/ ٣٣ وكنز العمال (١٧٨٠٧). وفي دلائل النبوة لأبي نعيم صفحة ٥٥١ مختصر تاريخ دمشق ١/ ٣٢٩ تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ٣١١ وفي كتاب شمائل الرسول لابن كثير صفحة (٥٠) والخصائص الكبرى للسيوطي ١/ ٧٦ عيون الأثر ٢/ ٤٠٥.

ألا يـا صـاحـب الـوجـه المليـح ... سـألتك لا تغيب عني فـأنـت روحـي
متـى مـا غـاب شخصـك عـن عيـانـي ... رجعـت فـلا تـرى إلا ضـريحـي
بحقـك جـد لـرقـك يـا حبيبـي ... وداو لـوعـة القلـب الجـريـح
ورقَّ لمغـرم فـي الحـب أمسـى ... وأصبـح بـالهـوى دنفـاً طـريـح
محـب ضـاق بـالأشـواق ذرعـاً ... وآوى منـك للكـرم الفسيـح

وفي النهاية: أنه عليه السلام كان إذا سر فكأن وجهه المرآة، وكأن الجدر تلاحك وجهه. قال: الملاحكة، شدة الملاءمة، أي يرى شخص الجدر في وجهه صلى الله عليه وسلم. وفي حديث ابن أبي هالة: يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر. وذلك: لأن القمر يملأ الأرض بنوره ويؤنس كل من شاهده، وهو يجمع النور من غير أذى ويتمكن من النظر إليه بخلاف الشمس التي تغشي البصر فتمنع من تمكن الرؤية، والتشبيه بالبدر أبلغ في العرف من التشبيه بالقمر، لأنه وقت كماله، كما قال الفاروق رضي الله عنه حين رآه أو كلما رآه:

لـو كنـت مـن شـيء سـوى بشـر ... كنـت المنـور ليلـة البـدر

وقد صادف هذا التشبيه تحقيقاً، فمن أسمائه ﷺ: البدر. ولهذا أنشدوا لما قدم المدينة:

طلـع البـدر علينـا ... مـن ثنيـات الـوداع

ولقد أحسن من قال:

كـالبـدر والكـاف إن أنصفـت زائـدة ... فيـه فـلا تظننهـا كـافـاً لتشبيـه

وما أحلى قول ابن الحلاوي:

يقـولـون يحكي البدر في الحسن وجهـه ... وبـدر الـدجى عـن ذلـك الحسـن ينحـط
كمـا شبهـوا غصـن النقـا بقـوامـه ... لقـد بالغوا فـي المـدح للغصـن واشتطـوا

فقد حصل للبدر والغصن غاية من الفخر بهذا التشبيه، على أن هذه التشبيهات الواردة في صفاته ﷺ إنما هي على عادة الشعراء والعرب، وإلا فلا شيء في هذه التشبيهات المحدثات يعادل صفاته الخُلقية والخلقية، ولله در إمام العارفين سيدي محمد وفا الشاذلي المالكي [1] حيث قال:

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد السكندري أبو الفضل أو أبو الفتح المعروف بالسيد محمد وفا الشاذلي (٧٠٢ ـ ٧٦٥ هـ) رأس الوفائية بمصر مالكي المذهب. توفي بالقاهرة. الأعلام ٧/٣٧ شذرات=

كم فيه للأبصار حسن مدهش
كم فيه للأرواح راح مسكر

سبحان من أنشاه من سبحاته
بشراً بأسرار الغيوب يبشر

قاسوه جهلا بالغزال تغزلاً
هيهات يشبهه الغزال الأحور

هذا وحقك ما له من مشبه
وأرى المشبه بالغزالة يكفر

يأتي عظيم الذنب في تشبيهه
لولا لرب جماله يستغفر

فخر الملاح بحسنهم وجمالهم
وبحسنه كل المحاسن تفخر

فجماله مجلى لكل جميلة
وله منار كل وجه نير

جنات عدن في جنى وجناته
ودليله أن المراشف كوثر

هيهات ألهو عن هواه بغيره
والغير في حشر الأجانب يحشر

كتب الغرام علي في أسفاره
كتباً تؤول بالهوى وتفسر

فدع الدعي وما ادعاه في الهوى
فدعيه بالهجر فيه يهجر

وعليك بالعلم العليم فإنه
لخطيبه في كل خطب منبر

وأما بصره الشريف(١) ﷺ فقد وصفه الله في كتابه العزيز بقوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ [النجم: ١٧].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يرى بالليل في الظلمة كما يرى في النهار في الضوء(٢). رواه البخاري.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يرى في الظلماء كما يرى في الضوء(٣). رواه البيهقي.

وعن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «هل ترون قبلتي ها هنا، فوالله ما يخفى علي ركوعكم ولا سجودكم، إني لأراكم من وراء ظهري»(٤). رواه البخاري ومسلم.

وعند مسلم من رواية أنس أنه ﷺ قال: «أيها الناس، إني أمامكم فلا تسبقوني

= الذهب ٦/ ٢٠٦ والدرر الكامنة ٤/ ٢٧٩ رقم الترجمة (٧٨٣).

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢١٠ والبداية والنهاية ٦/ ١٧.

(٢) قال الزرقاني في الشرح: «لم أجده في البخاري» وهو في الدلائل للبيهقي ٦/ ٧٥.

(٣) ذكره أيضاً البيهقي في الدلائل ٦/ ٧٥.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب (٤٠) رقم الحديث (٤١٨ و٧٤١) وهو عند مسلم كتاب الصلاة رقم الحديث (١٠٩) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٢/ ٣٠٣ ـ ٣٦٥ ـ ٣٧٥ وفي مسند أبي عوانة (١٣٨) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٧٣ وفي الدر المنثور ٥/ ٩٨ وشرح السنة للبغوي ١٣/ ٢٨٩ وفي كنز العمال (٢٠٤٨١ ـ ٣١٦٩٢). وفي مسند الحميدي ٢/ ٤٢٧ رقم الحديث (٩٦١).

بالركوع ولا بالسجود، فإني أراكم من أمامي ومن خلفي»[1].

وعن مجاهد: في قوله تعالى: ﴿الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين﴾ [الشعراء: ٢١٨ ـ ٢١٩] قال: كان ﷺ يرى من خلفه من الصفوف، كما يرى من بين يديه[2]، رواه الحميدي في مسنده، وابن المنذر في تفسيره.

وهذه الرؤية رؤية إدراك: والرؤية لا تتوقف على وجـود آلتها التي هي العين ـ عند أهل الحق ـ ولا شعاع ولا مقابلة، وهذا بالنسبة إلى القديم العالي، أما المخلوق فتتوقف صفة الرؤية في حقه على الحاسة والشعاع والمقابلة بالاتفاق، ولهذا كان خرق عادة في حقه ﷺ، وخالق البصر في العين قادر على خلقه في غيرها.

قال الحرالي[3]: وهذه الآية قد جعلها الله تعالى دالة على ما في حقيقة أمره في الاطلاع الباطن لسعة علمه، ومعرفته لما عرف بربه لا بنفسه أطلعه الله على ما بين يديه مما تقدم من أمر الله، وعلى ما وراء الوقت مما تأخر من أمر الله، فلما كان على ذلك من الإحاطة في إدراك مدركات القلوب جعل الله تعالى له ﷺ مثل ذلك في مدركات العيون، فكان يرى المحسوسات من وراء ظهره كما يراها من بين يديه كما قال ﷺ. انتهى.

ومن الغريب ما ذكره الزاهدي بختيار محب بن محمود[4]، شارح القدوري في رسالته الناصرية أنه ﷺ كان له بين كتفيه عينان كسم الخياط يبصر بهما، ولا تحجبهما الثياب؟؟؟[5].

وقيل: بل كانت صورهم تنطبع في حائط قبلته كما تنطبع في المرآة أمثلتهم فيها، فيشاهد أفعالهم وهذا إن كان نقلاً عن الشارع عليه السلام بطريق صحيح فمقبول وإلا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة رقم الحديث (١١٢) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٩٢ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٣٢٨ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (١١٣٧) وفي صحيح ابن خزيمة (٩٥٨٧) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٧٤ وفي كنز العمال (٢٠٤٩٥).

(٢) انظر تفسير البغوي ٣/ ٣٤٣ وفي مسند الحميدي ٢/ ٤٢٧ رقم الحديث (٩٦٢) وفي الدر المنثور ٥/ ٩٨.

(٣) هو علي بن أحمد بن الحسن الحرالي التجيبي أبو الحسن. مفسر من علماء المغرب. توفي في حماه (سورية) سنة (٦٣٨ هـ). الأعلام ٤/ ٢٥٦ نفح الطيب ١/ ٤١٧ ميزان الإعتدال ٢/ ٢١٨ لسان الميزان ٤/ ٢٠٤ طبقات المفسرين للداودي ١/ ٣٩٢ رقم الترجمة (٣٣٨).

(٤) هو مختار بن محمود بن محمد أبو الرجا نجم الدين الزاهدي الغزميني. فقيه حنفي. توفي سنة (٦٥٨ هـ). الأعلام ٧/ ١٩٣ الفوائد البهية ٢١٢ كشف الظنون ١/ ٦٢٨.

(٥) انظر فتح الباري ١/ ٦٧٧.

فليس المقام مقام رأي، على أن الأقعد في إثبات كونه معجزة حملها على الإدراك من غير آلة والله أعلم.

وقد ذهب بعضهم إلى أن هذه الرؤية رؤية قلبه الشريف. وعن بعضهم: المراد بها العلم إما بأن يوحي الله إليه كيفية فعلهم، وإما بأن يلهم، والصحيح والصواب ما تقدم. وقد استشكل على قول من يقول: إن المراد بذلك العلم، ما ذكره ابن الجوزي في بعض كتبه بغير إسناد أنه ﷺ قال: «إني لا أعلم ما وراء جداري هذا» فإن صح فالمراد منه نفي العلم بالمغيبات، فكيف يجتمعان؟

وأجيب: بأن الأحاديث الأُوَل ظاهرها ينطق باختصاص ذلك بحالة الصلاة، ويحمل المطلق منها على المقيد. وأما إذا ذهبنا إلى الإدراك بالبصر ـ وهو الصواب ـ فلا إشكال، لأن نفي العلم هنا عن الغيب وذاك عن مشاهدة.

وفي «المقاصد الحسنة» للحافظ شمس الدين السخاوي حديث: «ما أعلم ما خلف جداري هذا»[1] قال شيخنا ـ يعني شيخ الإسلام ابن حجر ـ: لا أصل له. قلت: ولكنه قال في تلخيص تخريج أحاديث الرافعي عند قوله في الخصائص: «ويرى من وراء ظهره كما يرى من قدامه». هو في الصحيحين وغيرهما من حديث أنس وغيره، والأحاديث الواردة في ذلك مقيدة بحالة الصلاة وبذلك يجمع بينه وبين قوله: لا أعلم ما وراء جداري هذا. انتهى.

قال شيخنا، وهذا مشعر بوروده، وعلى تقدير وروده لا تنافي بينهما لعدم تواردهما على محل واحد. انتهى.

قال شيخنا، وهذا مشعر بوروده، وعلى تقدير وروده لا تنافي بينهما لعدم تواردهما على محل واحد.

فإن قيل: يشكل على هذا ـ أيضاً ـ إخباره ﷺ بكثير من المغيبات التي في زمانه وبعده، ووقعت كما أخبر صلى الله عليه وسلم.

فالجواب: إن نفي العلم في هذا ورد على أصل الوضع، وهو أن علم الغيب مختص بالله تعالى، وما وقع منه على لسان نبيه ﷺ وغيره فمن الله تعالى، إما بوحي أو إلهام، ويدل على ذلك الحديث الذي فيه: أنه لما ضلت ناقته ﷺ تكلم بعض المنافقين وقال: إن محمداً يزعم أنه يخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال ﷺ لما

---

(١) ذكره الفتني في تذكرة الموضوعات ٨٧ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٢٥٠ وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري (٣٠٠).

بلغه ذلك: «والله إني لا أعلم إلا ما علمني ربي، وقد، دلني ربي عليها وهي في موضع كذا وكذا» حبستها شجرة بخطامها فذهبوا فوجدوها كما أخبر صلى الله عليه وسلم.

فصح أنه لا يعلم ما وراء جداره ولا غيره إلا ما علمه ربه تبارك وتعالى.

وذكر القاضي عياض ـ في الشفاء ـ أنه ﷺ كان يرى في الثريا أحد عشر نجماً، وعند السهيلي، اثني عشر.

وفي حديث ابن أبي هالة: وإذا التفت التفت جميعاً[1] خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء جل نظره الملاحظة.

وهي مفاعلة من اللحظ: وهو النظر بشق العين الذي يلي الصدغ، وأما الذي يلي الأنف فالموق والماق. وقوله: إذا التفت التفت جميعاً أراد أنه لا يسارق النظر، وقيل: لا يلوي عنقه يمنة ولا يسرة إذا نظر إلى الشيء، وإنما يفعل ذلك الطائش الخفيف ولكن كان يقبل جميعاً ويدبر جميعاً. قاله ابن الأثير.

وعن علي قال: كان رسول الله ﷺ عظيم العينين، أهدب الأشفار، مشرب العين بحمرة[2]، رواه البيهقي.

وعن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله ﷺ ضليع الفم أشكل العينين منهوس القدمين[3]، رواه مسلم.

والشكلة: الحمرة تكون في بياض العين وهو محمود محبوب، وأما الشهلة: فإنها حمرة في سوادها. وهذا هو الصواب: لا ما فسره بعضهم، بأنه طول شق العين.

وعند الترمذي في حديث عن علي، أنه نعت رسول الله ﷺ فقال: كان في وجهه تدوير أبيض مشرب بحمرة، أدعج العينين، أهدب الأشفار[4] الحديث.

والأدعج: الشديد سواد الحدقة.

والأهدب: الطويل الأشفار: وهي شعر العين.

---

(١) انظر [سنن الترمذي (٣٦٤٥) ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٩٧ و١٠٥ والمستدرك للحاكم ٢/ ٦٠٦ ومصنف ابن أبي شيبة ٩/ ١١٤ والشمائل (١١٤) وتهذيب ابن عساكر ١/ ٣٢٢].

(٢) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ١/ ٢١٢.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل رقم الحديث (٩٧) وفي الترمذي كتاب المناقب باب (١٢) رقم الحديث (٣٦٤٧) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ١٩٧ ـ ١٠٣.

(٤) أخرجه الترمذي كتاب المناقب باب (٨) رقم الحديث (٣٦٣٨) وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢١٣.

وعنده ـ أيضاً ـ عن علي قال: كان أسود الحدقة أهدب الأشفار.

وعن علي: بعثني النبي ﷺ إلى اليمن فقمت لأخطب يوماً على الناس، وحبر من أحبار اليهود واقف بيده سفر ينظر فيه، فلما رآني قال: صف لي أبا القاسم، فقلت: ليس بالطويل البائن ولا بالقصير. الحديث، وفيه: قال علي: ثم سكت، فقال الحبر وماذا: قلت: هذا ما يحضرني، قال الحبر: في عينيه حمرة حسن اللحية، ثم قال علي: هذه والله صفته، قال الحبر: فإني أجد هذه الصفة في سفر آبائي، وإني أشهد أنه نبي وأنه رسول الله إلى الناس كافة. الحديث.

وأما سمعه الشريف فحسبك أنه قال ﷺ «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجد لله تعالى»[1] رواه الترمذي من رواية أبي ذر.

وما رواه أبو نعيم عن حكيم بن حزام، بينما رسول الله ﷺ في أصحابه إذ قال لهم: «تسمعون ما أسمع» قالوا: ما نسمع من شيء، قال: «إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم».

وأما جبينه الكريم[2] ﷺ فقد كان واضح الجبين، مقرون الحاجبين. بهذا وصفه علي، كما عند ابن سعد وابن عساكر فقال: مقرون الحاجبين صلت الجبين[3] أي: واضحه، والقرن: اتصال شعر الحاجبين.

وعند البيهقي عن رجل من الصحابة قال: رأيت رسول الله ﷺ، فإذا رجل حسن الجسم عظيم الجبهة رقيق الحاجبين. ولله در القائل:

جبينه مشرق من فوق طرته	يتلو الضحى ليله والليل كافره
بالمسك خطت على كافور جبهته	من فوق نوناتها سينا ضفائره
مكحل الخلق ما تحصى خصائصه	منضر الحسن قد قلت نظائره

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب الزهد باب (٩) رقم الحديث (٢٣١٢) وفي ابن ماجه كتاب الزهد أيضا باب (١٩) رقم الحديث (٤١٩٠) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ١٧٣ وفي المستدرك للحاكم ٢/ ٥١٠ و٤/ ٥٤٤ ـ ٥٧٩ وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٢/ ٢٣٦ وفي شرح السنة للبغوي ١٤/ ٣٧٠ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٣٤٧) وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٢٦٥ و٥/ ٢٩٣ و٦/ ٢٩٧ وفي دلائل أبي نعيم (١٥٨) وكنز العمال (٢٩٨٢٩ ـ ٢٩٨٣٨) والأطيط: صوت الرحل والإبل من ثقلها. انظر القاموس المحيط ٢/ ٣٦٢ مادة (أط).

(٢) انظر دلائل النبوة ١/ ٢١٤ والبداية والنهاية ٦/ ١٧.

(٣) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٣١٦.

وقال ابن أبي هالة: أزج الحواجب ـ وفسر: بالمقوس الطويل الوافر الشعر ـ ثم قال: سوابغ من غير قرن بينهما عرق يدره الغضب، أي يمتلىء دما إذا غضب كما يمتلىء الضرع لبناً إذا در. قاله في النهاية.

وعن مقاتل بن حيان[1] قال: أوحى الله إلى عيسى عليه الصلاة والسلام: اسمع وأطع يا ابن الطاهرة البتول، إني خلقتك من غير فحل، فجعلتك آية للعالمين، فإياي فاعبد، وعلي فتوكل، فسر لأهل سوران أني أنا الله الحي القيوم، الذي لا أزول، صدقوا النبي الأمي، صاحب الجمل والمدرعة والعمامة والنعلين والهراوة، الجعد الرأس، الصلت الجبين، المقرون الحاجبين، الأهدب الأشفار، الأدعج العينين، الأقنى الأنف، الواضح الخدين، الكث اللحية، عرقه في وجهه كاللؤلؤ، وريح المسك ينفح منه، كأن عنقه إبريق فضة الحديث.

والأنجل: الواسع شق العينين. والقرن: بالتحريك: التقاء الحاجبين. وما وصفه به ابن أبي هالة مخالف لما في حديث مقاتل بن حيان وما في حديث أم معبد فإنها قالت: أزج أقرن، أي مقرون الحاجبين، قال ابن الأثير: والأول هو الصحيح في صفته، يعني: سوابغ في غير قرن. والقنى في الأنف: طوله ورقة أرنبته مع حدب في وسطه. وقد وصفه ﷺ غير واحد: بأنه عظيم الهامة، أي الرأس، كذا في حديث ابن أبي هالة المشهورة. وقال علي بن أبي طالب ـ في حديث رواه الترمذي وصححه والبيهقي ـ: ضخم الرأس. وكذا قال أنس في رواية البخاري.

وكان ﷺ أيضاً ضخم الكراديس، وهي رؤوس العظام، كما وصفه به علي في حديث الترمذي. وقال أيضاً في رواية للترمذي: جليل المشاش والكتد[2]. وفسر برؤوس العظام كالركبتين والمرفقين والمنكبين، أي عظيمها. والكتد ـ بفتحتين ويجوز كسر التاء ـ مجمع الكتفين.

وكان ﷺ دقيق العرنين، أي أعلى الأنف، كما وصفه به علي في رواية ابن سعد وابن عساكر. وفي رواية أيضاً عن ابن عمر من وصف علي له أيضاً: أقنى الأنف، وفسر بالسائل المرتفع وسطه، وقال ابن أبي هالة: أقنى العرنين له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشمّ، والأشم: الطويل قصبة الأنف.

---

(١) هو مقاتل بن حيان النبطي البلخي الخزار، أبو بسطام محدث مفسر. توفي قبل العام (١٥٠ هـ). انظر الكاشف ٣/ ١٥١ رقم الترجمة (٥٧١٣) وتذكرة الحفاظ ١/ ١٧٤ رقم الترجمة (١٦٨) والتهذيب ١٠/ ٢٧٧ وميزان الإعتدال ٤/ ١٧١ وطبقات المفسرين للداودي ٢/ ٣٢٩ رقم الترجمة (٦٤١) وفيه أنه توفي بأرض الهند.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب باب (٨) رقم الحديث (٣٦٣٧ ـ ٣٦٣٨).

وأما فمه الشريف[1] ﷺ ففي مسلم من حديث جابر أنه ﷺ كان ضليع الفم يعني واسعه. وكذا وصفه به ابن أبي هالة، وزاد يفتتح الكلام ويختم بأشداقه يعني لسعة فمه، والعرب تمدح به وتذم بصغر الفم. وقال شمر[2]: عظيم الأسنان.

وفي حديث عند البزار والبيهقي قال أبو هريرة: كان رسول الله ﷺ أسيل الخدين واسع الفم.

ووصفه ﷺ ابن أبي هالة فقال: أشنب مفلج الأسنان. والشنب: رونق الأسنان وماؤها. وقيل: ر نها وتحديدها. وأفلج الأسنان أي متفرقها.

وقال علي مبلج الثنايا، بالموحدة، أخرجه ابن سعد من حديث أبي هريرة. وعند ابن عساكر: عز علي: براق الثنايا.

وعند ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أفلج الثنيتين، إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من ثناياه[3]، رواه الترمذي في الشمائل، والدارمي، والطبراني في الأوسط.

وكان ﷺ أحسن عباد الله شفتين وألطفهم ختم فم.

بحر من الشهد في فيه مراشفه ... يا قوته صدف فيه جواهره

وعن أبي قِرْصافة[4] قال: بايعنا رسول الله أنا وأمي وخالتي، فلما رجعنا قالت لي أمي وخالتي: يا بني، ما رأينا مثل هذا الرجل أحسن وجهاً ولا أنقى ثوباً ولا ألين كلاماً، ورأينا كالنور يخرج من فيه.

وأما ريقه الشريف،[5] ففي الصحيحين عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله» فلما أصبح الناس غدوا على رسوله الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، قال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: «فأرسلوا إليه» فأتي به، فبصق رسول ﷺ في عينيه فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع[6] الحديث متفق عليه.

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢١٤.

(٢) هو شمر بن عطية الأسدي. انظر الكاشف ٢/ ١٤ رقم الترجمة (٢٣٣٠).

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٧٩ والبيهقي في الدلائل ١/ ٢١٥.

(٤) هو جندرة بن خيشة أبو قرصافة الكناني. صحابي. الإصابة ١/ ٢٦٣ رقم الترجمة (١٢٢٩).

(٥) انظر دلائل النبوة ٦/ ٢٢٦ وما بعدها.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد باب (١٠٢) رقم الحديث (٢٩٤٢ ـ ٢٩٧٥ ـ ٣٧٠٩ ـ ٤٢١٠) وفي مسلم كتاب الجهاد باب (٤٥) رقم الحديث (١٣٢) وفي الترمذي (٣٧٢٤) وفي ابن ماجه (١٢١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٥٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٣١ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٠٨ و٢١٣ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٢٣ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٨/ ٢٣٧ =

وأتي بدلو من ماء، فشرب من الدلو، ثم صب في البئر، أو قال: «مج في البئر» ففاح منها مثل رائحة المسك[1] رواه أحمد وابن ماجه من حديث وائل بن حجر.

وبزق في بئر في دار أنس، فلم يكن بالمدينة بئر أعذب منها، رواه أبو نعيم.

وكان ﷺ يوم عاشوراء يدعو برضعائه ورضعاء ابنته فاطمة فيتنقل في أفواههم ويقول للأمهات «لا ترضعنهم إلى الليل» فكان ريقه يجزئهم [2]. رواه البيهقي.

ودخلت عليه عميرة بنت مسعود هي وأخواتها يبايعنه وهن خمس فوجدنه يأكل قديداً فمضغ لهن قديدة فمضغنها كل واحدة منهن قطعة قطعة فلقين الله وما وجدن لأفواههن خلوف، رواه الطبراني.

ومسح ﷺ بيده الشريفة بعد أن نفث فيها من ريقه على ظهر عتبة وبطنه وكان به شرى، فما كان يشم أطيب منه رائحة. رواه الطبراني. وأعطى الحسن لسانه ـ وكان قد اشتد ظمؤه ـ فمصه حتى روي. رواه ابن عساكر. ولله در إمام العارفين سيدي محمد وفا الشاذلي حيث يقول:

جنـى النحـل فـي فيـه وفيـه حياتنـا ... ولكنـه مـن لـي بلثـم لثـامـه
رحيـق الثنـايـا والمثـانـي تنفسـت ... إذا قـال فـي فيـح بطيـب ختـامـه

وأما فصاحة لسانه[3] وجوامع كلمه، وبديع بيانه وحكمه، فكان ﷺ أفصح خلق الله، وأعذبهم كلاماً، وأسرعهم أداء، وأحلاهم منطقاً، حتى كان كلامه يأخذ بمجامع القلوب ويسلب الأرواح.

ينظـم در الثغـر نثـر مقـولـه ... بـا حسنـه فـي نثـره ونظـامـه
ينـاجي فينجي مـن ينـاجي مـن الجـوى ... فكـل كليـم بـرؤه فـي كـلامـه

ففصاحة لسانه ﷺ غاية لا يدرك مداها، ومنزلة لا يداني منتهاها، وكيف لا يكون ذلك وقد جعل الله تعالى لسانه سيفاً من سيوفه، يبين عن مراده، ويدعو به إليه عباده،

= وفي التمهيد لابن عبد البر ٢/ ٢١٨ وفي إتحاف السادة المتقين ١/ ١٠٦ و٧/ ١٨٨ وحلية الأولياء لابي نعيم ٤/ ٣٥٦ وفي المستدرك للحاكم ٣/ ٤٣٧.

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطهارة باب (١٣٦) رقم الحديث (٦٥٩ ـ ٦٦٠). وأحمد بن حنبل في المسند ٤/ ٣١٥.

(٢) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٢٢٦ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٣/ ١٨٦ وفي المطالب العالية لابن حجر (١٠٠٨) وفي الإصابة في تمييز الصحابة ٨/ ٨١ رقم الترجمة (٤١٧).

(٣) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٨٣ ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٧٩ والبداية والنهاية ٦/ ٣٠ وما بعدها، والشفا للقاضي عياض ١/ ٧٠.

فهو ينطق بحكمه عن أمره، ويبين عن مراده بحقيقة ذكره.

أفصح خلق الله إذا لفظ، وأنصحهم إذا وعظ، لا يقول هجراً، ولا ينطق هذراً، كلامه كله يثمر علماً، ويمتثل شرعاً وحكماً، لا يتفوه بشر بكلام أحكم منه في مقالته، ولا أجزل منه في عذوبته.

وخليق بمن عبر عن مراد الله بلسانه، وأقام به الحجة على عباده ببيانه، وبين مواضع فروضه وأوامره ونواهيه، وزواجره ووعده ووعيده وإرشاده أن يكون أحكم الخلق جناناً وأفصحهم لساناً، وأوضحهم بياناً.

وقد كان ﷺ إذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبين، يعده العاد، ليس بهذا مسرع لا يحفظ، قالت عائشة رضي الله عنها: ما كان ﷺ يسرد سردكم هذا، كان يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه[1] وكان يعيد الكلمة ثلاثاً لتفهم عنه[2].

وكان يقول: «أنا أفصح العرب»[3].

وقد قال له عمر بن الخطاب: يا رسول الله، مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟ فقال: «كانت لغة إسماعيل قد درست فجاءني بها جبريل فحفظنيها».[4] رواه أبو نعيم.

وروى العسكري في الأمثال من حديث علي بسند ضعيف جداً قال: قدم بنو نهد على النبي ﷺ: الحديث وفيه: ذكرخطبتهم وما أجابهم به النبي ﷺ قال: فقلنا: يا نبي الله، نحن بنو أب واحد، ونشأنا في بلد واحد، وإنك تكلم العرب بلسان ما نفهم أكثره، فقال: «إن الله عز وجل أدبني فأحسن أدبي، ونشأت في بني سعد بن بكر»[5].

وعن محمد بن عبد الرحمن الزهري عن أبيه عن جده قال: قال رجل: يا رسول الله، أيدالك الرجل امرأته؟ قال: «نعم إذا كان مفلجاً» فقال له أبو بكر: يا رسول الله، ما قال لك، وما قلت له؟ قال: قال «أيماطل الرجل أهله» قلت له: « نعم إذا كان مفلساً»

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٦٨) ومسلم في فضائل الصحابة رقم الحديث (١٦٠) وأبو داوود كتاب العلم باب (٧) رقم الحديث (٣٦٥٥) وفي الترمذي كتاب المناقب باب (٩) رقم الحديث (٣٦٣٩). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/١١٨ ـ ١٣٨ ـ ١٥٧ ـ ٢٥٧.

(٢) أخرجه الترمذي كتاب المناقب باب (٩) رقم الحديث (٣٦٤٠).

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٢٣٢ و٢/ ٨٥٠ وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٢/ ٣٦٤ وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري ١١٧ وفي الشفا ١/ ٨٠.

(٤) ذكره العراقي في المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٣٦٤ وكنز العمال (٣٥٤٦٢).

(٥) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٨٦٧٣).

قال أبو بكر: يا رسول الله، لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك، قال: «أدبني ربي ونشأت في بني سعد» رواه السرقسطي في الدلائل بسند واه. وكذا أخرجه ابن عساكر. قال في القاموس: ودالكه أي ماطله[1] انتهى.

وقوله: «ملفجاً» بضم الميم وفتح الفاء، اسم فاعل من «ألفج الرجل» فهو ملفج، إذا كان فقيراً، وهو غير مقيس. ومثله أحصن فهو محصن، وأسهب فهو مسهب، في ألفاظ شذت، والقياس الكسر، قاله ابن مرزوق. لكن قال ابن الأثير: لم يجيء إلا في ثلاثة أحرف، أسهب وأحصن وألفج.

وقال غيره: معناه: أيداعب الرجل امرأته، يعني قبل الجماع؟ وسماه مطلا لكون غرضها الأعظم الجماع. قال: إذا كان عاجزاً، ليكون ذلك محركاً لشهوته، ولعجزه سمي مفلساً. وقال ابن الأثير: يماطلها بمهرها إذا كان فقيراً. وأما ما يروى: «أنا أفصح من نطق بالضاد»[2] فقال: ابن كثير: لا أصل له. انتهى لكن معناه صحيح والله أعلم.

وقد حدوا الفصاحة: بخلوص الكلمة من التنافر والغرابة ومخالفة القياس. والمراد بالتنافر: تقارب مخارج الحروف كقوله: غدائره مستشزرات إلى العلا فإن السين والتاء والزاي كلها متقاربة المخارج. والغرابة: كون الكلمة لا تدل على المراد من أول وهلة لاحتمال معنى آخر. ومخالفة القياس: استعمال الكلمة على غير قياس، كإبقاء وجود المثلين من كلمة واحدة من غير إدغام. كقوله: الحمد لله العلي الأجلل. والفصاحة: يوصف بها الكلام والكلمة والمتكلم. والبلاغة: أن يطابق الكلام مقتضى الحال مع فصاحته، الجزالة خلاف الركاكة.

ففصاحته ﷺ إلى الحد الخارق للعادة، البالغ نهاية المزية والزيادة التي تصدع القلوب قبل الأذهان، وتقرع الجوانح قبل الآذان، مما يروق ويفوق، ويثبت له على سائر البشر الحقوق التي لا تقابل بالعقوق، فهو صاحب جوامع الكلم وبدائع الحكم، وقوارع الزجر وقواطع الأمر، والأمثال السائرة، والغرر السائلة، والدرر المنثورة والدراري المأثورة والقضايا المحكمة، والوصايا المبرمة، والمواعظ التي هي على القلوب محكمة، والحجج التي هي للد الخصماء مفحمة ملجمة.

وقليل هذا الوصف في حقه ﷺ وزاده فضلاً وشرفاً لديه، وقد روى الحاكم في مستدركه وصححه من حديث ابن عباس : إن أهل الجنة يتكلمون بلغة محمد ﷺ

---

(١) انظر القاموس المحيط للفيروز آبادي ٣/ ٣١٢ مادة (دلكه).

(٢) ذكره السيوطي في الدرر المنتثرة ٢٣ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٢٣٢ وتذكرة الموضوعات للفتني ٨٧ والأسرار المرفوعة لعلي القاري ١١٦ والفوائد المجموعة للشوكاني ٣٢١.

وبالجملة فلا يحتاج العلم بفصاحته إلى شاهد، ولا ينكرها موافق ولا معاند، وقد جمع الناس من كلامه الفرد الموجز البديع الذي لم يسبق إليه دواوين، وفي كتاب الشفاء للقاضي عياض من ذلك ما يشفي العليل.

كقوله ﷺ: «المرء مع من أحب»[1].

وقوله: «أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين».

وقوله: «السعيد من وعظ بغيره»[2]. ومما لم يذكره القاضي رحمه الله.

قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» رواه الشيخان وغيرهما.

وقوله: «ليس للعامل من عمله إلا ما نواه».

وتحت هاتين الكلمتين كنوز من العلم لهذا قال الشافعي رحمه الله: حديث الأعمال بالنيات يدخل في نصف العلم، وذلك أن للدين ظاهراً وباطناً، والنية متعلقة بالباطن، والعمل هو الظاهر، وأيضاً: فالنية عبودية القلب، والعمل عبودية الجوارح. وقال بعض الأئمة: حديث الأعمال بالنيات ثلث الدين، ووجهه: أن الدين: قول وعمل ونية.

وقوله: «نية المرء خير من عمله»[3] رواه الطبراني. لكن قال بعضهم لا يصح رفعه قال: ورواه القضاعي عن إسماعيل بن عبد الرحمن الصفار، أخبرنا علي بن عبد الله الفضل حدثنا محمد بن الحنفية الواسطي، حدثنا محمد بن عبد الله الحلبي، حدثنا يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «نية المؤمن أبلغ من عمله»[4]. قال: وهذا إسناد لا ضوء عليه ويوسف بن عطية متروك الحديث.

---

(١) أخرجه أبو داوود في كتاب الأدب باب (١١٣) رقم الحديث (٥١٢٧) ورواه الشيخان [م ٢٠٣٤ ـ ب ٦١٦٨] والكامل في الضعفاء لابن عدي ٢/ ٥٩٠ والترمذي (٢٣٨٦) وفي مسند أحمد بن حنبل ١/ ٣٩٢ والشفا للقاضي عياض ١/ ٧٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٩٣ وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٢٣٥ وفي الدر المنثور ٢/ ٢٢٥ وفي سنن ابن أبي عاصم ١/ ٧٨ وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري ٢١٦ وفي الفوائد المجموعة للشوكاني (٤٥٦) وتذكرة الموضوعات للفتني (٢٠٠). وفي الشفا ١/ ٨٠ وفي مناهل الصفا ص ٥٢ رقم الحديث (١٢٠).

(٣) هو عند الطبراني في المعجم الكبير ٦/ ٢٢٨ وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/ ١٥ وفي حلية الأولياء ٣/ ٢٥٥ وفي الدرر المنتثرة (١٦٦) وكشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٤٣٨ وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٤/ ٣٥٥.

(٤) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ١٥.

ورواه عثمان بن عبد الله الشامي من حديث النواس بن سمعان وقال: «نية المؤمن خير من عمله، ونية الفاجر شر من عمله»(١) وقال ابن عدي: عثمان بن عبد الله الشامي له أحاديث موضوعات، هذا من جملتها، وقال ابن الجوزي: لا يصح رفعه، قال: ومعناه: أن النية سر، والعمل ظاهر، [وعمل] السر أفضل، وهو يقتضي أنه لو نوى أن يذكر الله أو يتفكر، تكون نية الذكر والتفكير خيراً منه، وليس بصحيح.

وقيل: إن النية بمجردها خير من العمل بمجرده دون النية، وهذا بعيد، لأن العمل إذا خلا عن النية لم يكن فيه خير أصلاً.

وقيل: إن النية عمل القلب، والفعل عمل الجوارح، وعمل القلب خير من عمل الجوارح، فإن القلب أمير الجوارح، وبينه وبينها علاقة، فإذا تألمت تألم القلب، وإذا تألم القلب تألمت فارتعدت الفرائص وتغير اللون، فإنه الملك الراعي والجوارح جيشه ورعيته، وعمل الملك أبلغ من عمل رعيته.

وقيل: لما كانت النية أصل الأعمال كلها وروحها ولبها. والأعمال تابعة لها تصح بصحتها وتفسد بفسادها، وهي التي تقلب العمل الصالح فتجعله فاسداً، وغير الصالح تجعله صالحاً مثاباً عليه، ويثاب عليها أضعاف ما يثاب على العمل، فلذا كانت نية المؤمن خيراً من عمله. وقال أبو بكر بن دريد في مجتباه: المعنى ـ والله أعلم ـ أن المؤمن ينوي الأشياء من أبواب البر نحو الصدقة والصوم وغير ذلك فلعله يعجز عن بعض ذلك وهو معقود النية عليه، فنيته خير من عمله(٢).

وقوله: «يا خيل الله اركبي»(٣).

رواه أبو الشيخ في الناسخ والمنسوخ عن سعيد بن جبير، والعسكري عن أنس، وابن عائذ في المغازي عن قتادة ولفظه عند ابن عائذ: قال بعث رسول الله ﷺ يومئذ ـ يعني يوم الأحزاب ـ منادياً ينادي: يا خيل الله اركبي.

قال العسكري وابن دريد في مجتباه، وهذا على المجاز والتوسع، أراد: يا فرسان خيل الله اركبي، فاختصره.

---

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ١٥ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ٦١ و١٠٩ وتاريخ بغداد للخطيب ٩/ ٢٣٧.

(٢) قال في فتح الباري: الهم ترجيح قصد الفعل وهو فوق مجرد خطور الشيء بالقلب. ١١/ ٣٩٣ راجع البخاري رقم الحديث (٦٤٩١) ومسلم إيمان [٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٢٥٩] والترمذي تفسير سورة الانعام [٦] باب ١٠) والدارمي رقاق (٧٠) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٧٩.

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٣٩٠، ٥٣١ وفي الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ٧٧٩ وتفسير الطبري ٦/ ١٣٣ وكنز العمال (٤٣٦٣).

وقوله: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»[1].

رواه الشيخان وغيرهما، والمعنى - والله أعلم - أن حظ العاهر الحجر ولا شيء له في الولد، وقيل: أراد أن حظه الغلظة والخشونة من إقامة الحد التي نهايتها رميه بالحجر. وقيل: أراد بالحجر هنا الكناية عن رجوعه بالخيبة على الولد إذا لم تكن المرأة زوجاً له، والله أعلم.

وقوله: «كل الصيد في جوف الفرا».

وهو بفتح الفاء، حمار الوحش، رواه الرامهرمزي[2] في الأمثال، وسنده جيد، ولكنه مرسل، ونحوه عند العسكري وقال: جوف أو جنب.

وهذا خاطب به النبي ﷺ أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب حين جاءه مسلماً بعد أن كان عدواً له وهجاه كثير الهجاء مقذعاً فيه، فكأنه يقول ﷺ إن الحمار الوحشي من أعظم ما يصاد، وكل صيد دونه، كما أنك من أعظم أهلي وأمسهم رحماً بي، ومن أكرم من يأتيني وكل دونك. انتهى.

وقوله: «الحرب خدعة».

رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: سمى النبي ﷺ الحرب خدعة. وليس عند مسلم «سمى»، وقوله: «خدعة» مثلث الخاء، أشهرها: فتح الخاء وإسكان الدال، قال ثعلب وغيره: وهي لغة النبي ﷺ، والثانية، ضم الخاء وإسكان الدال. والثالثة: ضم الخاء وفتح الدال.

وقد قال ذلك ﷺ يوم الأحزاب، لما بعث نعيم بن مسعود وأمره أن يخذل بين قريش وغطفان واليهود، وأشار بذلك إلى أن المماكرة أنفع من المكاثرة.

قال النووي: اتفق العلماء على جواز خداع الكفار في الحرب كيف أمكن إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحل.

وقوله: «إياكم وخضراء الدمن».

---

(١) أخرجه البخاري كتاب البيوع باب (٣) رقم الحديث (٢٠٥٣ - ٢٢١٨ - ٢٧٤٥ - ٤٣٠٣ - ٦٨١٧) وفي أبو داوود (٢٢٧٣) وابن ماجه (٢٠٠٦) والترمذي (١١٥٧) وأحمد بن حنبل ١/ ٥٩ والموطأ (٧٣٩) والدارمي ٢/ ١٥٢ ومسند الحميدي (١٠٨٥) والدر المنثور ٢/ ٣٣٥ ومجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٣ و٧/ ٢٥١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٨٦ ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٨٩.

(٢) هو الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي الفارسي أبو محمد. محدث أديب قاض. توفي نحو سنة (٣٦٠ هـ) الأعلام ٢/ ١٩٤ تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٠٥ رقم الترجمة (٨٧٠) ويتيمة الدهر ٣/ ٤٩٠ رقم الترجمة (٥٨).

رواه الرامهرمزي والعسكري في الأمثال، وابن عدي في الكامل، وأبو بكر بن دريد[1] في المجتبى والقضاعي في مسند الشهاب والديلمي من حديث الواقدي قال: حدثنا محمد بن سعيد بن دينار عن أبي وجزة يزيد بن عبيد عن عطاء بن يزيد الليثي عن أبي سعيد مرفوعاً: قيل يا رسول الله وماذا؟ قال: «المرأة الحسناء في المنبت السوء»[2] قال ابن عدي: تفرد به الواقدي.

ومعناه: أنه كره نكاح الفاسدة، وقال: إن أعراق السوء تنزع أولادها، وتفسير حقيقته: أن الريح تجمع الدمن، وهو البعر، في البقعة من الأرض، ثم يركبه السافي فإذا أصابه المطر أنبت نبتاً غضاً ناعماً، يهتز وتحته الأصل الخبيث، فيكون ظاهره حسناً وباطنه قبيحاً فاسداً. والدمن جمع دمنة وأنشد زفر بن الحارث:

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا

ومعنى البيت: أن الرجلين قد يظهران الصلح والمودة، وينطويان على البغض والعداوة، كما ينبت المرعى على الدمن. وهذا أكثري أو كلي في زماننا، أشار إليه شيخنا.

وقوله: «الأنصار كرشي وعيبتي»[3].

رواه البخاري، أي إنهم بطانته وموضع سره، والعيبة كذلك، لأن المجتر يجمع علفه في كرشه، والرجل يضع ثيابه في عيبته. وقيل: هم الذين أعتمد عليهم وأفزع إليهم وأقوى بهم، وقيل أراد بالكرش الجماعة، أي جماعتي وصحابتي، ويقال: عليه كرش من الناس أي جماعة، ووقع في رواية الترمذي: «ألا إن عيبتي التي آوي إليها أهل بيتي وإن كرشي الأنصار»[4].

وقوله: «ولا يجني على المرء إلا يده».

---

(1) هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أبو بكر (٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ) لغوي أديب. توفي في بغداد. الأعلام ٦/ ٨٠ ومعجم الأدباء ٥/ ٢٩٦ رقم الترجمة (٨٤٩) وفي وفيات الأعيان ١/ ٤٩٧ وطبقات الشافعية ٢/ ١٤٥ ونزهة الألباء (٣٢٢) معجم الشعراء (٤٦١) تاريخ بغداد ٢/ ١٩٥ خزانة الأدب ١/ ٤٩٠.

(2) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٩/ ٨٩ والأحكام النبوية للكحال ٢/ ٢٢ وتذكرة الموضوعات للفتني (١٢٧).

(3) أخرجه البخاري كتاب مناقب الأنصار باب (١١) رقم الحديث (٣٨٠١) وفي الترمذي (٣٩٠٧) وفي المسند لابن حنبل ٣/ ١٥٦ و١٨٨ و٢٠١. وفي مسند الحميدي (١٢٠١) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٣٧ وشرح السنة للبغوي ١٤/ ١٧٢ والدر المنثور ٣/ ٢٧٠.

(4) أخرجه الترمذي كتاب المناقب باب (٦٥) رقم الحديث (٣٩٠٤).

رواه الشيخان، ولأحمد وابن ماجه من حديث عمرو بن الأحوص: «لا يجني جان إلا على نفسه»(١) وقد أراد ﷺ بهذا: أنه لا يؤخذ إنسان بجناية غيره، إن قتل أو جرح أو زنى، وإنما يؤخذ بما جنته يده، فيده هي التي أدته إلى ذلك.

وقوله: «ليس الشديد من غلب الناس إنما الشديد من غلب نفسه»(٢).

رواه ابن حبان في صحيحه، ورواه الشيخان بلفظ (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)(٣) يعني أنه إذا ملكها كان قد قهر أقوى أعدائه وشر خصومه. ولذلك قال: «أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك»(٤). وهذا من باب المجاز، ومن فصيح الكلام، لأنه لما كان الغضبان بحالة شديدة من الغيظ وقد ثارت عليه شدة الغضب فقهرها بحلمه، وصرعها بثباته كان كالصرعة الذي يصرع الرجال ولا يصرعونه.

وقوله: «ليس الخبر كالمعاينة»(٥).

رواه أحمد وابن منيع والطبراني والعسكري.

وقوله: «المجالس بالأمانة»(٦).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٤٩٩ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٧/ ٣٢ وكنز العمال (٤٠١٠٦).

(٢) ذكره الهيثمي في موارد الظمآن (٢٥١٨) وفي مشكل الآثار للطحاوي ٢/ ٢٥٤ وشرح السنة للبغوي ١٣/ ١٦٠ والترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٤٧٧ وكشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٢٣٨.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب (٧٦) رقم الحديث (٦١١٤) ومسلم في البر والصلة باب (٣٠) رقم الحديث (١٠٧ و١٠٨) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٢٣٦، ٢٦٨، ٥١٧ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٢٣٥ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٢/ ٢٥٤ وفي الموطأ (٩٠٦) ومشكاة المصابيح للتبريزي (٥١٠٥) وفي إتحاف السادة المتقين ٤/ ١٦٨ وتاريخ جرجان للسهمي ٤٥١ وفي تفسير القرطبي ٤/ ٢٠٨.

(٤) ذكره العراقي في المغني ٣/ ٤ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ٢٠٦ و٩/ ٣٣.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٢٧١ وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢٠٨٧) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ١٥٣ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٧٣٨) وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٣٦٣ والتمهيد لابن عبد البر ٤/ ٣٣٤ وتاريخ جرجان للسهمي ٧٣ و٥٠٥ وتاريخ بغداد ٣/ ٣٦٠ و٦/ ٥٦ و٨/ ١٢ وتفسير القرطبي ٣/ ٢٩٨ و٢٠/ ١٧١. وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ١/ ٣٠٣ و٤/ ١٥٨٠ و٧/ ٢٤٩٣. وفي الدرر المنتثرة ١٣٤. وفي تذكرة الموضوعات للفتني ٢٠٤. وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٢٣٦ وفي كنز العمال (٤٤١١٠ ـ ٤٤١٢٦).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٣٤٢ وأبي داود كتاب الأدب باب (٣٢). رقم الحديث (٤٨٦٩). وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٢٤٧. وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢١٦، ٨/ ٣٢٣.ـ

رواه العقيلي في ترجمة حسين بن عبد الله بن ضمرة عن أبيه عن جده عن علي رفعه، وعن جابر بن عتيك «إذا حدث الرجل ثم التفت فهي أمانة»[1] ورواه أبو داود في سننه والترمذي في جامعه وابن أبي الدنيا في الصمت. وغيرهم.

ففي هاتين الكلمتين من الحمل على آداب العشرة وآداب الصحبة وكتم السر، وحفظ الود وحسن العهد، وإصلاح ذات البين والتحذير من النميمة بين الإخوان، الموقعة للشنآن ما لا يكاد يخفى على مبادي الأذهان.

وقوله: «البلاء موكل بالمنطق»[2].

رواه ابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب المفرد، من رواية إبراهيم عن ابن مسعود، ورواه الديلمي عن أبي الدرداء مرفوعاً: «البلاء موكل بالمنطق» وأورده ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أبي الدرداء وابن مسعود. قال شيخنا في المقاصد الحسنة: ولا يحسن مع مجموع ما ذكرناه الحكم عليه بالوضع، ويشهد لمعناه قوله ﷺ للأعرابي الذي دخل عليه يعوده. وقال: «لا بأس طهور» فقال الأعرابي: بل هي حمى تفور على شيخ كبير تزيده القبور، فقال ﷺ: «فنعم إذاً»[3]. وأنشد في معناه:

= وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٠٩٣) وفي فتح الباري ١١/ ٩٧. وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٢/ ٧٦. وكشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٢٧٧ وفي كنز العمال (٢٥٣٧٩ ـ ٢٥٣٧٧ ـ ٢٥٤٣٤).

(١) أخرجه الترمذي كتاب البر والصلة. باب (٣٩) رقم الحديث (١٩٥٩). وأبي داود كتاب الأدب باب (٣٢) رقم الحديث (٤٨٦٨). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٣٠٨. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٠٦١). وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٩٠ وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٢٢٦. وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢١٦ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٢٤٧. والمغني للعراقي ٢/ ١٧٦. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٩٨ وفي المطالب العالية لابن حجر (٢٦٣٧) وفي مشكل الآثار للطحاوي ٤/ ٣٣٦. وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ١٩١ وفي كنز العمال (٥٣٧٨).

(٢) ذكره ابن حجر في الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف (١٥٧) وفي الدرر المنتثرة للسيوطي (٥٨). وفي الموضوعات لابن الجوزي. ٣/ ٨٣. وفي الفوائد المجموعة للشوكاني (٣٢٠) وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ٢/ ٢٩٦. وكشف الخفاء للعجلوني ١/ ٣٤٣ و٣٤٤. وفي تذكرة الموضوعات للفتني (١٧٠). وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٣/ ٢٧٩. وفي اللآلىء المصنوعة للسيوطي ٢/ ١٥٨. وفي جمع الجوامع للسيوطي (١٠٣١٦) وفي كنز العمال (٤٦٤٠٠).

(٣) أخرجه البخاري. كتاب المناقب باب (٢٥) رقم الحديث (٣٦١٦ ـ ٥٦٥٦ ـ ٥٦٦٢ ـ ٧٤٧٠). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٦/ ٤٢٤ وفي الأدب المفرد للبخاري رقم الحديث (٥١٤). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٣٨٣. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (١٥٢٩). وفي شرح السنة للبغوي ٥/ ٢٢٣. وفي المعجم الكبير للطبراني ١١/ ٣٤٢ وفي الأذكار النووية (١٢٥). وفي زاد المسير لابن الجوزي ٩/ ٢١٨ وفي تهذيب خصائص علي للنسائي (٧٠).

لا تنطقن بما كرهت فربما نطق اللسان بحادث فيكون

وقوله ﷺ: «ترك الشر صدقة»(١).

رواه بعضهم، ومعنى ذلك أن من ترك الشر وأذى الناس فكأنه تصدق عليهم، وعلم من ذلك أن فضل ترك الشر كفضل الصدقة.

وقوله «وأي داء أدوأ من البخل»(٢).

رواه البخاري، والبخل قد جعله ﷺ داء، وليس بداء مؤلم لصاحبه، وإنما شبهه بالداء إذ كان مفسداً للرجل مورثاً له سوء الثناء، كما أن الداء يؤول إلى طول الضنا وشدة العنا، والقصد من هذا النهي عن البخل أعاذنا الله منه.

وقوله: «لا ينتطح فيها عنزان»(٣).

أي لا يجري فيها خلف ولا نزاع.

وقوله: الحياء خير كله»(٤) متفق عليه.

وقوله: «اليمين الفاجرة تدع الديار بلا قع»(٥).

رواه في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة.

وقوله: «سيد القوم خادمهم»(٦).

رواه أبو عبد الرحمن السلمي في «آداب الصحبة» له عن عقبة بن عامر رفعه، وفي سنده ضعف وانقطاع. ورواه غيره أيضاً.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣٦٠.

(٢) ذكره العراقي في المغني ٣/ ٢٤٩ وفي تاريخ بغداد ٤/ ٢١٧ وفي مكارم الأخلاق للخرائطي ٥٩ وكنز العمال (٣٦٨٥٨ ـ ٣٦٨٥٩).

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٥٢٤ وتاريخ بغداد ١٣/ ٩٩ والعلل المتناهية لابن الجوزي ١/ ١٧٥ وكنز العمال (٤٤١٣١).

(٤) أخرجه مسلم كتاب الإيمان رقم الحديث (٦١) وفي أبي داوود (٤٧٩٦) وفي مسند أحمد بن حنبل ٤/ ٤٢٦ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٦ والمعجم الكبير للطبراني ١٨/ ١٧١ إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٠٧ وحلية الأولياء ٢/ ٢٥١ و٦/ ٢٦٢ كنز العمال (٥٧٦٢ ـ ٥٧٨٥).

(٥) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٣٥ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٦٢٢ وفي الدر المنثور للسيوطي ٢/ ٤٥ وفي جامع مسانيد أبي حنيفة ١/ ١١٤ و٢٥٩ وفي كنز العمال (٤٦٣٨٨).

(٦) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٥٦١ و٥٦٢ وفي تاريخ بغداد ١٠/ ١٨٧ وفي الدرر المنتثرة ٩٥ والحاوي للفتاوي للسيوطي ٢/ ١٠١ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٩٢٥) وكنز العمال (١٧٥١٦ ـ ٢٤٨٣٤ ـ ٢٤٨٣٥).

وقوله: «فضل العلم خير من فضل العبادة»[1]. رواه الطبراني والبزار.

وقوله: «الخيل في نواصيها الخير».

متفق عليه من حديث مالك عن نافع عن ابن عمر رفعه بلفظ: «الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» وفي لفظ لغيرهما: «معقود بنواصيها الخير»[2].

وقوله: «أعجل الأشياء عقوبة البغي».

وقوله: «إن من الشعر لحكما».

رواه أبو داود من رواية صخر بن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن جده سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من البيان لسحراً، وإن من العلم جهلاً، وإن من الشعر حكماً»[3] فقال صعصعة بن صوحان: صدق رسول الله ﷺ. أما قوله: «إن من البيان لسحراً» فالرجل يكون عليه الحق، وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق. وأما قوله: «إن من العلم جهلاً، فتكلف العالم إلى علمه ما لم يعلم يجهله» وأما قوله: «إن من الشعر حكماً» في هذه المواعظ والأمثال التي يتعظ بها الناس. ومفهومه: أن بعض الشعر ليس كذلك. لأن من تبعيضية. وفي البخاري: إن من الشعر حكمة. أي قولاً صادقاً مطابقاً للحق.

قال الطبري: وفي هذا الحديث رد على من كره الشعر مطلقاً، واحتج بقول ابن مسعود: الشعر مزامير الشيطان. وعن أبي أمامة ـ رفعه ـ أن إبليس لما أهبط إل الأرض

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٩٢ وفي حلية الأولياء ٢/ ٢١٢ وكشف الخفاء للعجلوني ٢/ ١١١ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ١٢٠ وفي الدر المنثور ١/ ٣٥٠ وفي المعجم الكبير للطبراني ٣٨/١١ وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ١/ ٦٧ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٤/ ١٥١٤ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ١/ ٩٣ و٢/ ٥٦٠.

(2) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب (٢٣) رقم الحديث (٢٨٤٩ ـ ٣٦٤٤) وابن ماجه (٢٧٨٧ ـ ٢٧٨٨) والنسائي كتاب الخيل باب (٧) وفي مسلم الإمارة (٩٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٨/٢ وفي الموطأ (٤٦٧) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٨١ و٦/ ٣٢٩ وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ٣٠٦ وتفسير القرطبي ١/ ٨٠ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ٢٥٩ و٢٦١ وفي حلية الأولياء ٩/ ٤٣ وفي كنز العمال (٣٥٢٥٨).

(3) أخرجه أبو داوود كتاب الأدب باب (٨٧) رقم الحديث (٥٠١٠ ـ ٥٠١١ ـ ٥٠١٢) وفي البخاري رقم (٦١٤٥) وابن ماجه كتاب الأدب باب (٤١) رقم الحديث (٣٧٥٥ ـ ٣٧٥٦). وفي مسند الدارمي الإستئذان (٦٨) والترمذي أدب (٦٩) ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٤٥٦ و٥/ ١٢٥ وفي تاريخ بغداد ٣/ ٩٨ وفي تاريخ ابن عساكر ٦/ ٤٢٥ وفي الضعفاء للعقيلي ١/ ٣٠٠ وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (٢٤١ ـ ٢٢٥٩) وحلية الأولياء ٨/ ٣٠٩.

قال: رب اجعل لي قرآناً، قال: قرآنك الشعر. ثم أجاب عن ذلك: بأنها أحاديث واهية. وهو كذلك. فحديث أبي أمامة فيه: علي بن زيد الألهاني، وهو ضعيف. وعلى تقدير قوتها فهو محمول على الإفراط فيه والإكثار منه.

ويدل على الجواز أحاديث كثيرة، منها: ما أخرجه البخاري في الأدب المفرد، عن عمرو بن الشريد عن أبيه: استنشدني رسول الله ﷺ من شعر أمية بن أبي الصلت فأنشدته مائة قافية[1].

وقوله: «الصحة والفراغ نعمتان»[2]. رواه البخاري.

وقوله: «استعينوا على الحاجات بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود»[3].

رواه الطبراني في معاجمه الثلاثة عن معاذ بن جبل رفعه، وأخرجه الخلعي عن علي مرفوعاً، «استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان لها».

وقوله: «المكر والخديعة في النار»[4].

رواه الديلمي عن أبي هريرة، ومعناه: أن ذا المكر والخداع لا يكون تقياً ولا خائفاً لله، لأنه إذا مكر غدر، وإذا غدر خدع، وإذا فعلهما أوبق وهذا لا يكون في تقي، فكل خلة جانبت التقى فهي في النار.

---

(١) أخرجه مسلم في الشعر رقم الحديث (١) وابن ماجه في كتاب الأدب باب (٤١) رقم الحديث (٣٧٥٨) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٣٨٨ ـ ٣٩٠ وفي الأدب المفرد للبخاري (٢٩١ رقم الحديث ٨٧٢).

(٢) أخرجه البخاري بلفظ آخر في كتاب الرقاق باب (١) رقم الحديث (٦٤١٢) وفي مسند الإمام أحمد ابن حنبل ١/ ٣٧٢ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٣٩٢ وفي الأحكام النبوية في الصناعة الطبية للكحال ١٢٧ وفي تهذيب ابن عساكر ١/ ٤٤٥ وفي فتح الباري ١١/ ٢٧٦.

(٣) ذكر بألفاظ متقاربة في: تاريخ جرجان للسهمي ٢٢٣ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ١٣٥ وفي إتحاف السادة المتقين ٨/ ٥٤ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ١٩٥ وفي الموضوعات لابن الجوزي ٢/ ١٦٥ وحلية الأولياء ٦/ ٩٦ وفي التمهيد لابن عبد البر ١٠/ ١٥٢ والدرر المنتثرة للسيوطي ١٤ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٣/ ١٢٤٠ وتذكرة الموضوعات للفتني ٢٠٥ واللآلىء المصنوعة للسيوطي ٢/ ٤٣ وفي المغني للعراقي ٣/ ١٨٤ وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (٢٢٥٨) وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ٢/ ١٣٥ وفي كنز العمال (١٦٨٠٠ ـ ١٦٨٠٩).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٦٠٧ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ١٠٢ وفي الدر المنثور ١/ ٣٠ وفي تغليق التعليق لابن حجر (٧٥٢) وفي البداية النهاية ٨/ ١٠٥ والكامل في الضعفاء لابن عدي ٢/ ٥٨٤ و٦/ ٢٠٩٢ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ١٦٩ وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ٤٨٦ والترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٥٧٢ وموارد الظمآن للهيثمي ١١٠٧ وكنز العمال (٤٣٧٢٥). وفي مراسيل أبي داوود ٢٠.

وقوله: «من غشنا فليس منا»[1] رواه مسلم في صحيحه.

وقوله: «المستشار مؤتمن»[2].

رواه أحمد وغيره. ومعناه: أن من أفضى إليك بسره وآمنك على ذات نفسه فقد جعلك بموضع نفسه، فيجب عليك أن لا تشير عليه إلا بما تراه صواباً، فإنه كالأمانة للرجل الذي لا يأمن على إيداع ماله إلا الثقة في نفسه، والسر الذي ربما كان في إذاعته تلف النفس أولى بأن لا يجعل إلا عند الموثوق به.

وقوله: «الندم توبة»[3] رواه الطبراني في الكبير.

وقوله: «الدال على الخير كفاعله»[4].

رواه العسكري وابن جميع، ومن طريقه المنذري عن ابن عباس في حديث مرفوع بلفظ: «وكل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة اللهفان» والمعنى:

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأيمان رقم الحديث (١٦٤) وأحمد بن حنبل في المسند ٣/٤٩٨ والدارمي ٢/٢٤٨ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٥/٢٥٥ وفي المستدرك للحاكم ٢/٩ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/١٦٩ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٥٧١ ومجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ٧٨ و٧٩ وتفسير القرطبي ٣/ ٢٥٢ و٧/ ١٥٠ حلية الأولياء ٤/١٨٩ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٤١١ وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٤٠.

(٢) أخرجه أبو داوود في كتاب الأدب باب (١١٣ ـ ١١٤) رقم الحديث (٥١٢٨) وفي الترمذي (٢٨٢٢ ـ ٢٨٢٣) وابن ماجه (٣٧٤٥ ـ ٣٧٤٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٢٧٤ وفي الدارمي ٢/٢١٩ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/١١٢ وفي المستدرك للحاكم ٤/ ١٣١ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/٤٠٩ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/٩٦، ٩٧ وحلية الأولياء ٦/ ١٩٠ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/٢٨٧ وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ٢٦٠ وفي الدرر المنتثرة ١٤٢ وفي كنز العمال (٢٠٩٤٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد باب (٣٠) رقم الحديث (٤٢٥٢) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/٣٧٦ و٤٢٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/١٥٤ وفي المستدرك للحاكم ٤/٢٤٣ وفي مسند الحميدي ١/٥٩ رقم الحديث (١٠٥) وفي شرح السنة للبغوي ٥/ ٩١ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٣٥ وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (١٨١٦ ـ ١٨٤١ ـ ١٨٨٩ ـ ١٩١٨) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ١٩٩ وحلية الأولياء ٨/ ٢٥١ و١٠/٣٩٨ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ١/ ٢٠٤ و٤/١٣٢٩ وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ٢/٤٣٦.

(٤) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ٦/ ٢٣٠ و١٧/ ٢٢٧ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ١٦٦ و٣/ ١٧٣. وفي تفسير القرطبي ٦/ ٤٦. وفي إتحاف السادة المتقين ١/ ١١٥ و٤/ ٥٠١ وفي حلية الأولياء ٦/ ٢٦٦ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٤٨٠ وفي الدرر المنتثرة (٨٣) وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٢/ ٥٧٣ و٣/ ١١٤٥، و٥/ ١٧٤٤ وفي المغني لابن عراقي ١/ ١٢ والترغيب والترهيب للمنذري ١/ ١٢٠ وفي كنز العمال (١٦٠٥٢ ـ ١٦٠٥٥ ـ ١٦٣١٩).

أن من دلك على الخير وأرشدك إليه فنلته بإرشاده فكأنه فعل ذلك الخير.

وقوله: «حبك الشيء يعمي ويصم»(١).

رواه أبو داود والعسكري من حديث بقية بن الوليد، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم عن خالد بن محمد الثقفي عن بلال بن أبي الدرداء عن أبيه مرفوعاً، ولم ينفرد به بقية بل توبع عليه. وابن أبي مريم ضعيف. وقد حكم الصغاني عليه بالوضع. وتعقبه العراقي وقال: إن ابن أبي مريم لم يتهمه أحد بكذب، ويكفينا سكوت أبي داود عليه، فليس بموضوع، بل ولا شديد الضعف، فهو حسن.

قال العسكري: أراد النبي ﷺ أن من الحب ما يعميك عن طريق الرشد، ويصمك عن استماع الحق، وأن الرجل إذا غلب الحب على قلبه ولم يكن له رادع من عقل أو دين أصمه حبه عن العذل وأعماه عن الرشد، ولذا قال بعض الشعراء:

وعين الرضى عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدي المساويا

أشار إليه شيخنا في المقاصد الحسنة.

وقوله ﷺ: «العارية مؤداة والمنحة مردودة والدين مقضي والزعيم غارم»(٢). رواه الترمذي وأبو داود.

وقوله: «سبقك بها عكاشة»(٣) رواه البخاري.

---

(١) أخرجه أبو داوود في كتاب الأدب باب (١١٦) رقم الحديث (٥١٣٠) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ١٩٤ و٦/ ٤٥٠ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ٢٧٦ و٩/ ٦٨٤ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي ٩/ ٦٨٤ و(٤٩٠٨) وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٤١٠ وتذكرة الموضوعات للفتني ١٩٩ وفي تنزيه الشريعة ١/ ٤٠٣ وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري ١٧٧ وكنز العمال (٤٤١٠٤) والدرر المنتثرة ٧١ وفي الكامل لابن عدي ٢/ ٤٧٢.

(٢) أخرجه أبو داوود في كتاب البيوع باب (٨٨) رقم الحديث (٣٥٦٥) وفي الترمذي (١٢٦٥) وفي ابن ماجه (٢٣٩٨ ـ ٢٣٩٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٢٦٧ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٨٩ وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ١٦٠ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ١٤٥ وفي شرح السنة للبغوي ٨/ ٢٢٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٩٥٦) وفي سنن الدارقطني (١٦٥) وفي حلية الأولياء ٩/ ١٦٣ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٦٧ وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري ٢٤٣ وكنز العمال (١٤٥٧٤ ـ ٢٩٨١٣ ـ ٢٩٨١٦).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب (٥٠) رقم الحديث (٦٥٤١ ـ ٦٥٤٢) وفي مسلم الإيمان باب (٩٤) رقم الحديث (٣٦٧ ـ ٣٧١ ـ ٣٧٤) وفي الترمذي (٢٤٤٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٧١ و٤٠١ و٢/ ٣٠٢ و٤/ ٤٣٦ وفي الدارمي ٢/ ٣٢٨ وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٥٧٧ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٦ و١٨/ ١٧٠ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ١٣ وفي إتحاف السادة=

وقوله: «عجب ربك»(١). من كذا.

روي في عدة روايات عند البخاري وغيره. ومعناه كما قاله ابن الأثير: عظم ذلك عنده وكبر لديه، أعلم الله أنه إنما يتعجب الآدمي من الشيء إذا عظم موقعه عنده وخفي عليه سببه، فأخبرهم بما يعرفون ليعلموا موقع هذه الأشياء عنده.

وقيل معنى عجب ربك أي رضي وأثاب، فسماه عجباً مجازاً وليس بعجب في الحقيقة. والأول أوجه.

وقوله: «قتل صبراً» رواه غير واحد.

وقوله: «ليس المسؤول بأعلم من السائل»(٢) رواه مسلم وغيره.

وقوله: «ولا ترفع عصاك عن أهلك أدباً»(٣).

رواه أحمد، أي لا تدع تأديبهم وجمعهم على طاعة الله، يقال شق العصا، أي فارق الجماعة، وليس المراد. الضرب بالعصا، ولكنه جعله مثلاً، وقيل: لا تغفل عن أدبهم ومنعهم من الفساد، قاله ابن الأثير.

وقوله: «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم»(٤).

رواه البخاري، وذكره ابن دريد وقال: إنه من الكلام الفرد الوجيز الذي لم يسبق

= المتقين ٤/ ٤٢٤ وفي شرح السنة للبغوي ١٤/ ٣٠٠ وفي الدر المنثور ٦/ ١٥٩ وفي الدرر المنتثرة للسيوطي ٩٥.

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩٨ ـ ٣٠١٠). وفي إتحاف السادة المتقين ٩/ ٦٢. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٩٦٠) وفي شرح السنة للبغوي ١١/ ٧٦. وفي تفسير القرطبي ٥/ ٧١. وفي كنز العمال (١٠٦٦٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم الحديث (١) وفي سنن أبي داوود كتاب السنة باب (١٦) رقم الحديث (٤٦٩٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٥١ وفي صحيح البخاري كتاب الإيمان باب (٣٧) رقم الحديث (٥٠ ـ ٤٧٧٧) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٣٢٥ وفي التمهيد لابن عبد البر ٩/ ٢٤٨ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢) وفي الترغيب والترهيب للمنذري ١/ ١٤٩ وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٩٥ وفي الدر المنثور ١/ ٢١٠ و٣/ ٦٩ وفي صحيح ابن خزيمة ١/ ٣٠٦٥ وفي موارد الظمآن للهيثمي ١٦ وفي كنز العمال (٣٨ ـ ٤٠ ـ ١٣٥٨).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٢٣٨ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ١٠٥ و٨/ ١٠٦ وحلية الأولياء ٧/ ٣٢٢ وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٤١ وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٣٩٢ وفي علل الحديث للرازي (١٢٥٤) وفي كنز العمال (٤٤٩٩٦).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الزكاة باب (٤٧) رقم الحديث (١٤٦٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٩١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ١٩٨ والدر المنثور ٦/ ٨.

ﷺ إلى معناه. أي كل ما أنبت الجدول، وإسناد الإنبات إليه مجاز، والمنبت في الحقيقة هو الله تعالى، وليست «من» للتبعيض، وحبطا: بفتح المهملة والموحدة والطاء المهملة أيضاً، وهو انتفاخ البطن من كثرة الأكل حتى ينتفخ فيموت، ويلم: بضم الياء، أي يقرب من الهلاك. وهو مثل للمنهمك في جمع الدنيا، المانع من إخراجها في وجهها.

وقوله ﷺ: «خير المال عين ساهرة لعين نائمة».

ومعناه: عين ماء تجري ليلاً ونهاراً وصاحبها نائم، فجعل دوام جريانها: سهراً لها.

وقوله: «خير مال المرء مهرة مأمورة أو سكة مأبورة»(١).

رواه أحمد والطبراني عن سويد بن هبيرة. ومعنى مأمورة: أي كثيرة النتاج، وسكة مأبورة: أي طريقة مصطفة من النخل، ومنه قيل للأزقة: سكة، والتأبير: تلقيح النخل. انتهى.

وقوله ﷺ: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

وقوله: «زر غباً، تزدد حباً»(٣).

رواه البزار، والحارث بن أبي أسامة عن أبي هريرة مرفوعاً، وفي بعض أحاديث الباب، أنه قيل له: «يا أبا هريرة أين كنت أمس» قال: زرت ناساً من أهلي، فقال: «يا أبا هريرة زر غباً تزدد حباً».

وقوله: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»(٤).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٤٦٨ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ٢٥٨ وفي فتح الباري ٨/ ٥٠٣.

(٢) أخرجه أبو داود. كتاب العلم باب (١) رقم الحديث (٣٦٤٣). وابن ماجه في المقدمة باب (١٧) رقم الحديث (٢٢٥). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٥٢. وفي موارد الظمآن للهيثمي (٧٨) وفي تفسير القرطبي ١/ ٨.

(٣) ذكره الحاكم في المستدرك ٣/ ٣٤٧، ٤/ ٣٣٠. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٧٥. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٣٦٦. وفي المعجم الكبير للطبراني ٤/ ٢٦. وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/ ١٦٢ ـ ١٦٣ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٥٢٨. وفي فتح الباري ١٠/ ٦١١. وفي حلية الأولياء ٣/ ٣٢٢. وفي الدرر المنتثرة للسيوطي (٩١). وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (٢١٧٢ ـ ٢٤٣١). وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ٢٥٣. وفي المطالب العالية لابن حجر (٢٥٩٦). وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/ ٢٨٨ وفي كنز العمال (٢٤٧٧٨).

(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٢. وفي فتح الباري ١٠/ ٥٦٢ وفي المطالب العالية لابن حجر=

رواه أبو يعلى والبزار من طرق، أحدها حسن بلفظ : إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق.

وقوله: «الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد، والخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل» [1] رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبيهقي.

وقوله: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» [2].

رواه البزار والحاكم في علومه، والبيهقي في سننه، كلهم من طريق محمد بن سوقة عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعاً.

وهو مما اختلف فيه على ابن سوقة في إرساله ووصله، وفي رفعه ووقفه، ثم في الصحابي، أهو جابر أو عائشة أو عمر. ورجح البخاري في تاريخه من حديث ابن المنكدر الإرسال، ومعناه: أنه بقي في طريقه عاجزاً عن مقصده، ولم يقض وطره، وقد أعطب ظهره.

والوغول: الدخول، فكأنه قال: إن هذا الدين ـ مع كونه يسيراً سهلاً شديد، فبالغوا فيه بالعبادة، لكن اجعلوا تلك المبالغة مع رفق، فإن من بالغ بغير رفق وتكلف من العبادة فوق طاقته يوشك أن يمل حتى ينقطع عن الواجبات، فيكون مثله كمثل الذي يعسف الركاب ويحملها على السير على ما لا تطيق رجاء الإسراع، فينقطع ظهره، فلا هو الذي قطع الأرض التي أراد، ولا هو أبقى ظهره سالماً ينتفع به بعد ذلك.

وقوله ﷺ: «من شاد هذا الدين غلبه».

رواه العسكري عن بريدة، وللبخاري من حديث معن بن محمد الغفاري عن سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعاً: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا

= (٢٥٣٩). وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٢٠ و٧/ ٣٢٠ ـ ٣٣٧. وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٣/ ٤٩.

(١) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٣٨٨. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٤. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٤١١. وفي كنز العمال (٥١٣٢ ـ ٥١٣٣).

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٦٢. وفي فتح الباري ١١/ ٣٥٩ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ١٨ ـ ١٩. وفي الزهد لابن المبارك (٤١٥) وفي إتحاف السادة المتقين ٤/ ٢٦٤ و٦/ ٣٦٨. وفي الدر المنثور ١/ ٩٢. وفي التمهيد لابن عبد البر ١/ ١٩٥. وفي المغني للعراقي ٤/ ٧٧. وفي كنز العمال (٥٣٥٠ ـ ٥٣٥١).

وقاربوا وبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»[1].

وقوله: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»[2].

رواه الحاكم عن شداد بن أوس، وقال: صحيح على شرط البخاري، وتعقبه الذهبي بأن فيه ابن أبي مريم وهو واه. وكذا رواه العسكري والقضاعي والترمذي وابن ماجه.

وقوله: «ما حاك في نفسك فدعه»[3].

رواه الطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة.

وقوله ﷺ: «تنكح المرأة لجمالها ومالها ودينها وحسبها فعليك بذات الدين تربت يداك»[4]. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وقوله: «الشتاء ربيع المؤمن، قصر نهاره فصامه وطال ليله فقامه»[5] رواه البيهقي

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب (٢٩) رقم الحديث (٣٩ ـ ٥٦٧٣ ـ ٦٤٦٣ ـ ٧٢٣٥) وفي إتحاف السادة المتقين ٦/٣٦٨ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (١٢٤٦) وفي جمع الجوامع للسيوطي (٥٤٨٤) وفي التمهيد لابن عبد البر ٥/ ١٢١ وفي كنز العمال (٥٣٤٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد باب (٣١) رقم الحديث (٤٢٦٠) وفي الترمذي كتاب القيامة باب (٢٥) رقم الحديث (٢٤٥٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٢٤ وفي فتح الباري ٩/٤٢٨ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/٣٦٩ وفي المستدرك للحاكم ١/٥٧ و٤/٢٥١ وفي المعجم الكبير للطبراني ٧/٣٣٨ و٣٤١ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ٤٤ و٨/٤٢٨ وفي شرح السنة للبغوي ١٤/٣٠٨ وفي المعجم الصغير للطبراني ٢/٣٦ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٢٨٩) وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ٢٥٢ وفي حلية الأولياء ١/٢٦٧ و٨/ ١٧٤ وكشف الخفاء للعجلوني ٢/ ١٩٦ وفي المغني للعراقي ٢/ ٣٢٦ و٣/٣٦٨ وفي الدرر المنتثرة للسيوطي (١٢٧).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢٥٥ وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/١٣٨, وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٧/٢٩٨ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/٢٩٨ وفي مصنف عبد الرزاق (٢٠١٠٤).

(٤) أخرجه ابن ماجه. كتاب النكاح باب (٦) رقم الحديث (١٨٥٨) وفي البخاري. كتاب النكاح باب (١٦) رقم الحديث (٥٠٩٠) وفي أبي داود رقم الحديث (٢٠٤٧). والنسائي. كتاب النكاح باب (١٣). وفي صحيح مسلم كتاب الرضاع رقم الحديث (٥٣) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/٤٢٨. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/٧٩. وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ٣٤٠. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٠٨٢) وفي حلية الأولياء ٨/ ٣٨٣. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٤٥ وفي سنن الدارقطني ٣/٣٠٣ رقم الحديث (٢١٣). وفي المطالب العالية لابن حجر (١٥٧٠) وفي شرح السنة للبغوي ٩/ ٨ وفي المغني للعراقي ٢/ ٣٩. وفي الدر المنثور ١/ ٢٥٧. وفي سنن سعيد ابن منصور (٥٠٦). وفي كنز العمال (٤٤٥٥٢).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٧٥. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٢٩٧. وفي مجمع=

وأحمد وأبو نعيم مختصراً، والعسكري بتمامه، كلهم من حديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد، وله شواهد.

وإنما كان الشتاء ربيع المؤمن لأنه يرتع فيه في بساتين الطاعات، ويسرح في ميادين العبادات، ويتنزه قلبه في رياض الأعمال الميسرة فيه من الطاعات، فإن المؤمن يقدر على صيام نهاره من غير مشقة ولا كلفة ولا يحصل له جوع ولا عطش، فإن نهاره قصير بارد فلا يحصل فيه مشقة الصيام.

وقوله: «القناعة مال لا ينفد وكنز لا يفنى»[١].

رواه الطبراني في الأوسط من حديث المنكدر بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر، والقضاعي يدون: «وكنز لا يفنى» عن أنس.

وفي القناعة أحاديث كثيرة، ولو لم يكن في القنع إلا التمتع بالعز لكفى صاحبه، وكان من دعائه ﷺ: «اللهم قنعني بما رزقتني»[٢] وأنشد بعضهم:

ما ذاق طعم الغنى من لا قنوع له ... ولن ترى قانعاً ما عاش مفتقراً

وقوله ﷺ: «ما خاب من استخار ولا ندم من استشار، ولا عال من اقتصد»[٣] رواه الطبراني في معجمه الأوسط من حديث أنس.

وقوله ﷺ: «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة، والتودد إلى الناس نصف العقل، وحسن السؤال نصف العلم»[٤].

= الزوائد للهيثمي ٣/٢٠٠ وفي حلية الأولياء ٥/٢٢٤. وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ١/٣١٣ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/٦ ـ ١٤٠. وفي الدرر المنتثرة (٩٧) وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٣/٩٨١. وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/٢٢٤. وفي كنز العمال (٣٥٢٠٨ ـ ٣٥٢٠٩).

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢/١٥١. وفي الدر المنثور ٤/١٣٠ وفي أمالي الشجري ٢/١٩٨. وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٤/١٥٠٧ وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (١٨١٣). وفي الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ٢/٤٩. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ١/٥٩٠.

(٢) ذكره الحاكم في المستدرك ١/٥١٠ و٢/٣٥٦ ـ ٣٥٧. وفي الدر المنثور ٤/١٣٠ وفي تاريخ جرجان للسهمي (٩١). وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/١٥١. وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (٢٠٥٢). وفي تلخيص الحبير لابن حجر ٢/٢٤٨. وفي جمع الجوامع للسيوطي (١٠٠٣٠).

(٣) ذكره الطبراني في المعجم الصغير ٢/٧٨. وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/٢٦٠. وفي فتح الباري ١١/٢٢٠. وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣/٥٤. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٢/٢٨٠ و٨/٩٦. وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٨/١٦٤ والأسرار المرفوعة لعلي القاري (١٩٥). والدر المنثور للسيوطي (٩٠) ولسان الميزان لابن حجر ٤/١٣٤.

(٤) ذكره التبريزي في مشكاة المصابيح (٥٠٦٧) وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/٦١ وفي مجمع=

رواه البيهقي في الشعب، والعسكري في الأمثال، وابن السني[1] والديلمي من طريقه والقضاعي كلهم من حديث نافع عن ابن عمر مرفوعاً. وضعفه البيهقي، لكن له شاهد عند العسكري من حديث خلاد بن عيسى عن ثابت عن أنس رفعه: «الاقتصاد نصف العيش، وحسن الخلق نصف الدين». وكذا أخرجه الطبراني وابن لال. ومن شواهده أيضاً: ما للعسكري عن أنس رفعه: «السؤال نصف العلم، والرفق نصف المعيشة، وما عال امرؤ في اقتصاد» وللديلمي من حديث أبي أمامة رفعه: «السؤال نصف العلم والرفق نصف المعيشة».

وفي صحيح ابن حبان من حديث طويل عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال له: «يا أبا ذر، لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق» وهذا اللفظ عند البيهقي في الشعب. وله أيضاً وللعسكري عن علي مرفوعاً: «التودد نصف الدين، وما عال امرؤ قط على اقتصاد»[2] أي: ما افتقر من أنفق قصداً ولم يجاوزه إلى الإسراف.

وقوله ﷺ: «المؤمن من أمنه الناس»[3]. رواه الترمذي.

وقوله: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما حرم الله»[4]. متفق عليه عن ابن عمرو، به مرفوعاً، وعن أبي موسى، ومسلم عن جابر.

= الزوائد للهيثمي ١/ ١٦٠ والدر المنثور للسيوطي ١٧٨/٤. وكشف الخفاء للعجلوني ١٧٩/١. وعلل الحديث للرازي (٢٣٥٤). وميزان الإعتدال (٨٣٩٩). ولسان الميزان لابن حجر ٤/ ١٣٤ و٦/ ٣٥ وكنز العمال للمتقي الهندي (٥٤٣٤).

(١) هو أحمد بن محمد بن إسحاق بن ابراهيم بن اسباط الدينوري أبو بكر ابن السني (٢٨٤ ـ ٣٦٤ هـ). محدث من تلاميذ النسائي الأعلام ١/ ٢٠٩. طبقات الشافعية ٢/ ٩٦. وشذرات الذهب ٣/ ٤٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٤٣. وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ١٨٠. وفي إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٦٤ و١٦٨.

(٣) أخرجه الترمذي. كتاب الإيمان باب (١٢) رقم الحديث (٢٦٢٧) وابن ماجه رقم الحديث (٣٩٣٤) وفي النسائي. كتاب الإيمان باب (٨). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣٧٩ و٣/ ١٥٤ و٦/ ٢٢ وفي المستدرك للحاكم ١/ ١١. وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٥٤. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ٥٤ و٣/ ٢٦٨. وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٤٠٨. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٣٥٣. وفي المغني للعراقي ٢/ ١٩٢ وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢٦). وفي التمهيد لابن عبد البر ٩/ ٢٤٤. وفي كنز العمال (٧٤٨).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب (٢٦) رقم الحديث (٦٤٨٤) والترمذي كتاب الإيمان باب (١٢) رقم الحديث (٢٦٢٨). وفي أبي داود رقم الحديث (٢٤٨١) وفي صحيح مسلم كتاب الإيمان رقم الحديث (٦٥ ـ ٦٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ١٦٣ و١٩٥ و٢٠٥ و٢١٢ و٣/ ١٥٤ وفي سنن الدارمي ٢/ ٣٠٠ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ١٨٧ وفي مسند الحميدي ٢/ ٢٧١ رقم=

وقوله: «قلة العيال أحد اليسارين»[1].

رواه صاحب مسند الفردوس لفظه: «التدبير نصف المعيشة، والتودد نصف العقل والهم نصف الهرم، وقلة العيال أحد اليسارين».

وقوله ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»[2].

رواه أبو داود والترمذي من رواية شريك وقيس بن الربيع، كلاهما عن أبي صالح والحارث من رواية الحسن، كلاهما عن أبي هريرة. وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وأخرجه الدارمي في مسنده، والدارقطني والحاكم وقال: إنه صحيح على شرط مسلم، ولكن أعله ابن حزم وكذا ابن القطان والبيهقي. وقال أبو حاتم: إنه منكر، وقال الشافعي: إنه ليس بثابت عند أهله. وقال أحمد: هذا حديث باطل لا أعرفه عن النبي ﷺ من وجه صحيح. قال شيخنا لكن بانضمامها يقوى الحديث. انتهى.

وقوله: «الرضاع يغير الطباع»[3] رواه أبو الشيخ من حديث ابن عمر.

وقوله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له»[4]. رواه أحمد وأبو

= الحديث (٥٩٥). وفي المستدرك للحاكم ١/ ١٠ و٣/ ٥١٧ وفي المعجم الكبير للطبراني ١/ ٣٥٦ و١٨/ ٣٠٩ وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٥٣ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ٥٤ و٥٦. وحلية الأولياء ٤/ ٣٣٣. وفي التمهيد لابن عبد البر ٩/ ٢٤٤ ومشكاة المصابيح للتبريزي ٦/ ٣٣. وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢/ ٤٦١ وفي تغليق التعليق لابن حجر (٢٢). وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٥/ ١٣٩. وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢٥ ـ ٢٦) وفي كنز العمال (٧٣٨ ـ ٧٣٩ ـ ٧٤٠).

(1) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٧٩ وإتحاف السادة المتقين ٨/ ١٦٥ و٥/ ٢٩١. وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ١٤٨ وتذكرة الموضوعات للفتني (١٣٢) والمغني عن حمل الأسفار للعراقي ١/ ٢٤. وكنز العمال (٤٤٥٠٦).

(2) أخرجه الترمذي كتاب البيوع باب (٣٨) رقم الحديث (١٢٦٤) وفي أبي داود كتاب البيوع باب (٧٩) رقم الحديث (٣٥٣٤ ـ ٣٥٣٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٤١٤. وفي سنن الدارقطني ٣/ ٣٥ وفي المعجم الكبير للطبراني ١/ ٢٣٤ و٨/ ١٥٠. والمعجم الصغير للطبراني ١/ ١٧١. والسنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٢٧١. والمستدرك للحاكم ٢/ ٤٦. ومشكاة المصابيح للتبريزي (٢٩٣٤) ومجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ١٤٥. ولسان الميزان لابن حجر ٤/ ١٤٣٧. وميزان الإعتدال (٤٠٢٦). وكشف الخفاء للعجلوني ١/ ٧٥. وحلية الأولياء ٦/ ١٣٢ وفي شرح السنة للبغوي ٨/ ٢٠٦ والدر المنثور ٢/ ١٧٥. والتاريخ الكبير للبخاري ٤/ ٣٦٠. والعلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ١٠٢ و١٠٣. وكنز العمال (٥٤٩٤).

(3) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٥١٩. وفي مسند شهاب (٣٥) والأحكام النبوية في الصناعة الطبية للكحال ٢/ ٢٢ وفي كنز العمال (١٥٦٥٣).

(4) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ١٣٥ و١٥٤ و٢١٠ و٢٥١. وفي المعجم الكبير للطبراني=

يعلى في مسنديهما، والبيهقي في الشعب عن أنس.

وقوله: «النساء حبائل الشيطان»[1] رواه في مسند الفردوس عن عقبة بن عامر.

وقوله ﷺ: «حسن العهد من الإيمان»[2].

رواه الحاكم في مستدركه (عن عائشة قالت: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي فقال لها «من أنت؟» فقالت: جثامة المزينة قال: «أنت حسانة، كيف أنتم، كيف حالكم، كيف كنتم بعدنا» قالت: بخير بأبي أنت وأمي، فلما خرجت قلت: يا رسول الله، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ قال: «إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان»[3] وقال: إنه صحيح على شرط الشيخين وليس له علة.

وقوله ﷺ: «الخمر جماع الإثم»[4].

وقوله ﷺ: «جمال الرجل فصاحة لسانه»[5].

رواه القضاعي من حديث الأوزاعي والعسكري من حديث المنكدر بن محمد بن المنكدر، كلاهما عن محمد بن المنكدر، عن جابر مرفوعاً. وأخرجه أيضاً الخطيب وابن طاهر، وفي إسناده أحمد بن عبد الرحمن بن الجارود الرقي والديلمي من حديث جابر رفعه: «الجمال صواب المقال، والكمال حسن الفعال بالصدق».

= ٨/ ٢٣٠. ومجمع الزوائد للهيثمي ١/ ٩٦. وفي الدر المنثور للسيوطي ١/ ٤٢ و٢/ ١٧٥. وكشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٤٨٥ وفي التمهيد لابن عبد البر ٩/ ٢٥٥. وشرح السنة للبغوي ١/ ٧٥. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٥) وتاريخ جرجان للسهمي (١٠٥). وفي حلية الأولياء ٣/ ٢٢٠. والترغيب والترهيب للمنذري (٢٤١) وفي موارد الظمآن للهيثمي (٤٧) وكنز العمال (٥٥٠٣).

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٤٣٦. في الدر المنثور للسيوطي ٢/ ٢٥. وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ٢٨٠ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٢٥٧. وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٣/ ٩٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١/ ٤٢. وفي التاريخ الكبير للبخاري ١/ ٣١٥ وفي الدرر المنتثرة للسيوطي (٧٤) وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٤١٤ و٤٣١. وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري (١٨٢). وفي كنز العمال (١٠٩٣٧)

(٣) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٣٥. وفي أمالي الشجري ٢/ ١٥٢. وفي الجامع الكبير ٢/ ٧٤١. وفي مسند شهاب (٧٩٢). وفي كنز العمال (٣٤٣٤٤).

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢٢٥. وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٤٦٠. وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٨/ ٥٤١. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٢١٢). وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٢٥٧.

(٥) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣٩٩. وفي تذكرة الموضوعات للفتني (٢٠٤). وفي كنز العمال (٢٨٧٧٥).

وعند العسكري من حديث العباس: قلت يا نبي الله ما الجمال في الرجل: قال «فصاحة لسانه».

وقوله ﷺ: «منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا»[1].

رواه الطبراني في الكبير والقضاعي عن ابن مسعود، وهو عند البيهقي في المدخل: عن القاسم قال: قال ابن مسعود: منهومان لا يشبعان طالب علم وصاحب الدنيا. ولا يستويان، أما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان، وأما صاحب العلم فيزداد من رضى الرحمن. وقال: إنه موقوف منقطع. وكذا رواه البزار والعسكري وغيرهما وبمجموعها يتقوى، وإن كانت مفرداته ضعيفة، والله أعلم.

وقوله ﷺ: «لا فقر أشد من الجهل، ولا مال أكثر من العقل، ولا وحشة أشد من العجب»[2] رواه ابن ماجه.

وقوله ﷺ: «الذنب لا ينسى، والبر لا يبلى، والديان لا يموت، فكن كما شئت»[3] رواه في مسند الفردوس عن ابن عمر.

وقوله ﷺ: «ما جمع شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم»[4].

رواه العسكري في الأمثال من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي مرفوعاً بزيادة: «وأفضل الإيمان التحبب إلى الناس، ثلاث من لم تكن فيه فليس مني ولا من الله، حلم يرد به جهل الجاهل، وحسن خلق يعيش به في الناس، عفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله تعالى بها عزاً».

وعنده أيضاً من حديث جابر مرفوعاً: «ما أوى شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، وصاحب العلم غرثان إلى حلم».

---

(١) ذكره الحاكم في المستدرك ١/ ٩٢. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٢٢٣. وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٣٩٨. وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٨/ ١٥٨ و٢٤٢. وفي تذكرة الموضوعات للفتني (٢١ ـ ١٧٧) وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري (٩٥) وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ١/ ٨٦، و٨٧. والدرر المنتثرة للسيوطي (١٦٢) وفي تفسير ابن كثير ٨/ ٤٥٩. وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٣/ ٢٣٢ و٢٧٤. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٦٠) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ١٣٥. وفي كنز العمال (٢٨٩٣٢ ـ ٢٨٩٣٣ ـ ٤٤١١٣ ـ ٢٨٩٣٤).

(٢) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ٦٨. وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٤٩٩. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٢٨٣. وفي حلية الأولياء ٢/ ٣٦. وفي البداية والنهاية لابن كثير ٨/ ٤١. وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤/ ٢٢١. وفي كنز العمال (٤٤١٣٥ ـ ٤٤٢٣٧ ـ ٤٤٣٨٩).

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ١٨٣.

(٤) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٤١٦ و٤١٧ و٤٥٩. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ١٢١.

وقوله ﷺ: «التمسوا الرزق في خبايا الأرض»[1].

رواه في جزء ب ي ب ي [2] عن ابن أبي شريح والمراد الزرع، وأنشدوا:

تتبـع خبـايـا الأرض وادع مليكهـا لعلـك يـومـاً أن تجـاب فتـرزقـا

وقوله ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك في أهل القبور»[3] رواه البيهقي في الشعب والعسكري من حديث ابن عمر مرفوعاً: وأخرجه البخاري والترمذي وغيرهم.

وقوله ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفىء غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر»[4]. خرج الطبراني في الكبير بسند حسن.

وقول ﷺ: «العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، والتواضع لا يزيده إلا رفعة. وما نقص مال من صدقة»[5].

وروى مسلم: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[6].

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٢٠٣. وفي كنز العمال (٩٣٠٣).

(٢) كذا بخط المصنف مقطع الحروف وهي بنت عبد الصمد بن علي بن محمد الهرثمية وجزؤها من عوالي الأجزاء.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب (٣) رقم الحديث (٦٤١٦). وفي الترمذي رقم الحديث (٢٣٣٣). . وفي سنن ابن ماجه (٤١١٤) وفي شرح السنة للبغوي ١٤/ ٢٣١. وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٢٣٦. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ٣٩٩ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٢٧٤). وفي التاريخ الصغير للطبراني ١/ ٣٠. وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ١٩٤. وفي حلية الأولياء ١/ ٣١٣ و٣/ ٣٠١. وفي الزهد لابن المبارك (٥). وفي آمالي الشجري ٢/ ١٩٣. وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/ ١٧٤. وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٤/ ٩٦ و١٣/ ٤٧٣. وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٣١٩.

(٤) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٣١٢. وفي الدر المنثور للسيوطي ١/ ٣٥٤ و٣/ ٢٥٦. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٣/ ١١٥ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٢٩ و٤٢. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٣٠ وفي مسند شهاب (١٠١ ـ ١٠٢) وفي كنز العمال (١٥٩٦٥ ـ ١٥٩٦٦ ـ ١٥٩٧٣).

(٥) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٩ و٣٥٣.

(٦) أخرجه الترمذي. كتاب البر والصلة باب (٨٢) رقم الحديث (٢٠٢٩) وفي صحيح مسلم. كتاب البر والصلة رقم الحديث (٦٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٣٥ ـ ٣٨٦. وفي سنن الدارمي. كتاب الزكاة رقم الحديث (٣٤) وفي المعجم الكبير للطبراني ١١/ ٤٠٥. وفي شرح السنة للبغوي ٦/ ١٣٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٢٣٥ و٤/ ١٨٧. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٣/ ١١٠ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٥، ٣/ ٣٠٧ وفي كنز العمال (١٥٧٦٧).

وروى القضاعي عن أبي سلمة عن أم سلمة مرفوعاً: «ما نقص مال من صدقة ولا عفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله تعالى بها عزاً».

وروى الديلمي من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «والذي نفس محمد بيده لا ينقص مال من صدقة» رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

وقوله ﷺ: «اللهم إني أعوذك من شر سمعي، ومن شر بصري، ومن شر لساني، ومن شر قلبي ومن شر منيي»(١) أخرجه أبو داود في جامعه والحاكم في مستدركه عن شكل.

وقوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من شر فتنة الغنى»(٢) رواه الترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه.

وقوله ﷺ: «إن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك عادل قادر، يحق فيها الحق ويبطل الباطل، فكونوا أبناء الآخرة ولا تكونوا أبناء الدنيا. فإن كل أم يتبعها ولدها»(٣) رواه أبو نعيم في الحلية من حديث شداد.

وقوله ﷺ: «أخسر الناس صفقة من أذهب آخرته بدنيا غيره»(٤). وعند ابن النجار من حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه وهو مما بيض له الديلمي: «أخسر الناس صفقة رجل أخلق يديه في آماله ولم تساعده الأيام على أمنيته، فخرج من الدنيا بغير زاد وقدم على الله بغير حجة».

وقوله ﷺ: «إن من كنوز البر كتمان المصائب»

وقوله ﷺ: «اليمين حنث أو ندم».

---

(١) أخرجه الترمذي. كتاب الدعوات باب (٧٤) رقم الحديث (٣٤٩٢). وفي أبي داود. كتاب الصلاة باب (٣٢) رقم الحديث (١٥٥١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٤٢٩. وفي المستدرك للحاكم ١/ ٥٣٢. وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ٨٥ ـ ٣٠٣. وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٩١٢) وفي المغني للعراقي ١/ ٣٢٥. وفي مكارم الأخلاق للخرائطي (٩٤) وفي مصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ١٩٣ و١٥/ ١٣٠ وفي كنز العمال (٣٦٤١ ـ ٣٧١١).

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الدعوات باب (٣٩) رقم الحديث (٦٣٦٨) وفي صحيح مسلم كتاب الذكر رقم الحديث (٤٩) وفي الترمذي كتاب الدعوات باب (٧٦) رقم الحديث (٣٤٩٥). وابن ماجه. كتاب الدعاء باب (٣) رقم الحديث (٣٨٣٨). وفي أمالي الشجري ٢/ ٢١١.

(٣) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٢١٦ وفي مسند الشافعي (٦٧) وفي ميزان الإعتدال (٣٢٠٨).

(٤) ذكره السيوطي في جمع الجوامع (٨٣١).

رواه أبو يعلى وابن ماجه إلا أنه قال: «إنما الحلف»[1].

وقوله ﷺ: «لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك»[2]. رواه الترمذي من حديث مكحول عن واثلة، وقال: حسن غريب، وهو عند الطبراني أيضاً، وفي رواية لابن أبي الدنيا: «فيرحمه الله» بدل: فيعاقبه الله. وروى الترمذي مرفوعاً: «من عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله»[3].

وقوله ﷺ لأبي هريرة «جف القلم بما أنت لاق»[4].

قال صاحب فتح المنة بشرح الأخبار لمحيي السنة: هو كناية عن جريان القلم بالمقادير وإمضائها والفراغ منها، فإن الفراغ بعد الشروع يستلزم جفاف القلم عن مداده، فهو من إطلاق اللازم على الملزوم، وهذا اللفظ لم يوجد في كلام العرب، بل هو من الألفاظ التي لم يهتد إليها البلغاء، بل اقتضتها الفصاحة النبوية.

وقوله ﷺ: «اليوم الرهان وغداً السباق والغاية الجنة والهالك من دخل النار»[5].

وقوله ﷺ: «من ضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه ضمنت له على الله الجنة»[6].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الكفارات باب (٥) رقم الحديث (٢١٠٣) وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٤٣٧ و٢/ ٥٥٨ ومسند الشهاب (١١٦٩) وفي موارد الظمآن للهيثمي (١١٧٥) وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٨٧ وفي المعجم الصغير للطبراني ٢/ ١١٢ وفي ميزان الإعتدال (١١٧٩) وفي كنز العمال (٤٦٣٩٧).

(٢) رواه الترمذي كتاب صفة القيامة باب (٥٤) رقم الحديث (٢٥٠٦) وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ١٤١ وفي اللآلىء المصنوعة للسيوطي ٢/ ٢٢٨ وفي الدرر المنتثرة (١٧٨) وفي إتحاف السادة المتقين ٨/ ٥٣ وفي تذكرة الموضوعات لابن القيسراني (٩٥٤) وكشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٤٩٨ وفي الفوائد المجموعة للشوكاني (٢٦٥) وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ٢/ ٣٦٩ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣١١) وفي الحاوي للفتاوي ١/ ٥٥٦ وحلية الأولياء ٥/ ١٨٦ وفي تذكرة الموضوعات للفتني ٢١٧ وفي المغني للعراقي ٣/ ١٨٤.

(٣) أخرجه الترمذي كتاب القيامة باب (٥٣) رقم الحديث (٢٥٠٥) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٨٥٥) وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٣٦٥ وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ١٤٠ وفي تذكرة الموضوعات للفتني (١٧١) وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ٢/ ٢٩٥ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٣١٠ وفي اللآلىء المصنوعة للسيوطي ٢/ ١٥٧ وفي الموضوعات لابن الجوزي ٣/ ٨٢ وفي المغني للعراقي ٣/ ١٢٨ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ٥٠٤ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٦/ ٢١٨١.

(٤) أخرجه البخاري كتاب القدر باب (٢) رقم الحديث (٦٥٩٦ ـ ٧٥٥١) وفي فتح الباري ١١/ ٦٠١ وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١/ ٣٩٣.

(٥) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ١١٩.

(٦) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٠٠ وفي كنز العمال (٤٣٢٠٥).

رواه جماعة، منهم العسكري عن جابر، وفي البخاري والترمذي عن سهل بن سعد بلفظ: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة». والمراد بما بين لحييه: اللسان وما يأتي به النطق، وما بين رجليه: الفرج، وقال الداودي: المراد بما بين اللحيين: الفم، فيتناول الأقوال والأكل والشرب وسائر ما يأتي بالفم.

وفي لفظ: «من توكل لي ما بين فقميه ورجليه أتوكل له بالجنة». والفقم: بالضم والفتح: اللحى.

وفي لفظ آخر: «من تكفل لي تكفلت له».

وللديلمي ـ بسند ضعيف ـ عن أنس رفعه: «من وُقي شر قبقبه وذبذبه ولقلقه وجبت له الجنة» ولفظ الإحياء: وقي يعني البطن من القبقبة، وهو صوت يسمع في البطن، وكأنها حكاية ذلك الصوت، ويجوز أن يكون كناية عن أكل الحرام وشبهه، والذكر واللسان.

فهذا وأشباهه، مما يعسر استقصاؤه. يدلك على ذلك أنه ﷺ قد رقى من الفصاحة وجوامع الكلم درجة لا يقاس بها غيره، وحاز مرتبة لا يقدر فيها قدره صلى الله عليه وسلم.

ومما عد من وجوه بلاغته: ما ذكر أنه جمع متفرقات الشرائع وقواعد الإسلام في أربعة أحاديث وهي:

حديث «إنما الأعمال بالنية» رواه الشيخان.
وحديث «الحلال بين والحرام بين»[1] رواه مسلم.
وحديث «البينة على المدعي واليمين على من أنكر»[2].
وحديث «لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[3] رواه الشيخان.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب المساقاة رقم الحديث (١٠٨) والترمذي (١٢٠٥) وفي مشكل الآثار للطحاوي ١/ ٣٢٤ وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٧٦٢) وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٤٥٤ وفي مسند أبي حنيفة (١٢٠) وفي التمهيد لابن عبد البر ٩/ ٢٠١ وفي الكامل لابن عدي ٤/ ١٦٢٩.

(2) أخرجه الترمذي كتاب الأحكام باب (١٢) رقم الحديث (١٣٤١) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ٢٧٩ وفي شرح السنة للبغوي ١٠/ ١٠١ وفي المطالب العالية لابن حجر (١٢٣٠) وفي تلخيص الحبير لابن حجر ٤/ ٣٩ و٢٠٨ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٧٦٩) وفي نصب الراية للزيلعي ٤/ ٩٥ وفي سنن الدارقطني ٤/ ١٥٧ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٣٤٢ وفي جمع الجوامع للسيوطي (١٠٣٧) وفي كنز العمال (١٥٢٨٢ ـ ١٥٢٨٣).

(3) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب (٧) رقم الحديث (١٣) بلفظ: «لا يؤمن أحدكم» وفي مسلم=

فالحديث الأول: يشتمل على ربع العبادات.

والثاني: على ربع المعاملات.

والثالث: على ربع الحكومات وفصل الخصومات.

والرابع: على ربع الآداب والمناصفات ويدخل تحته التحذيز من الجنايات. قاله ابن المنير.

ومما عدَّ أيضاً من أنواع بلاغته كلامه ﷺ مع كل ذي لغة بليغة بلغته اتساعاً في الفصاحة، واستحداثاً للألفة، فكان ﷺ يخاطب أهل الحضر وبكلام ألين من الدهن وأرق من المزن، ويخاطب أهل البدو بكلام أرسى من الهضب وأرهف من العضب.

فانظر إلى دعائه لأهل المدينة وقد سألوه ذلك فقال: «اللهم بارك لهم في مكيالهم وبارك لهم في صاعهم ومدهم»[1] وفي حديث آخر: «اللهم بارك لنا في تمرنا وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا. اللهم إني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك إبراهيم لمكة ومثله معه».

ثم انظر دعاءه لبني نهد وقد وفدوا عليه في جملة الوفود، فقام طهفة بن رهم النهدي يشكو الجدب فقال: أتيناك يا رسول الله من غورى تهامة، بأكوار الميس، ترتمي بنا العيس، نستحلب الصبير، ونستخلب الخبير، ونستعضد البرير، ونستخيل الرهام، ونستجيل الجهام، من أرض غائلة النطا، غليظة الوطا، قد نشف المدهن، ويبس الجعثن، وسقط الأملوج، ومات العسلوج، وهلك الهدي، ومات الودي، برئنا إليك يا رسول الله من الوثن والعنن وما يحدث الزمن، لنا دعوة السلام وشريعة الإسلام، ما طمى البحر وقام تعار، ولنا نعم همل، أغفال ما تبل ببلال، ووقير كثير الرسل، قليل الرسل، أصابتها سنية حمراء مؤزلة، وليس لها علل ولا نهل.

= كتاب الإيمان باب (١٧) رقم الحديث (٧١) وفي الترمذي (٢٥١٥) وفي النسائي ٨/ ١١٥ و١٢٥ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٧٦ وفي سنن الدارمي ٢/ ٣٠٧ وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٩١ و٧/ ٣٥٨ و٥٣٠ وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ٦٠ وفي مسند أبي عوانة ١/ ٣٣ والترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٥٧٨ وفي كنز العمال (٩٤ ـ ٩٦) وفي ابن ماجه (٦٦).

(١) أخرجه البخاري كتاب البيوع باب (٥٣) رقم الحديث (٢١٣٠ ـ ٦٧١٤ ـ ٧٣٣١) وفي مسلم كتاب الحج رقم الحديث (٤٦٢ ـ ٤٦٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٥٩ وفي سنن الدارمي ٢/ ٢٥٧ وفي موطأ الإمام مالك رقم الحديث (٨٨٥) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٣٠٤ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٦٩٩) وفي التمهيد لابن عبد البر ١/ ٢٧٨ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٢/ ٩٧ وفي كنز العمال (٣٤٨٧٦).

فقال لهم رسول الله ﷺ: «اللهم بارك لهم في محصنها ومخضها ومذقها، وابعث راعيها في الدثر بيانع الثمر، وافجر له الثمد، وبارك له في المال والولد، من أقام الصلاة كان مسلماً، ومن آتى الزكاة كان محسناً، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً، لكم يا بني نهد ودائع الشرك، ووضائع الملك، لا تلطط في الزكاة، ولا تلحد في الحياة، ولا تتثاقل عن الصلاة»[1].

ثم كتب معه كتاباً إلى بني نهد: «بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى بني نهد بن زيد، السلام على من آمن بالله عز وجل ورسوله، لكم يا بني نهد في الوظيفة الفريضة، ولكم الفارض والفريش، وذو العنان الركوب، والفلو الضبيس، لا يمنع سرحكم، لا يعضد طلحكم، ولا يحبس دركم ما لم تضمروا الإماق، وتأكلوا الرباق، من أقر بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة، ومن أبى فعليه الربوة». وتحتاج هذه الألفاظ البالغة أعلى أنواع البلاغة إلى تفسير:

فالميس: شجر صلب تعمل منه أكوار الإبل ورحالها. نستحلب ـ بالحاء المهملة ـ الصبير: بفتح الصاد المهلمة وكسر الموحدة، وهو سحاب أبيض متراكب متكاثف. أي نستدر السحاب. ونستخلب ـ بالخاء المعجمة ـ الخبير: بالخاء المعجمة أيضاً ثم الموحدة: النبات والعشب، شبه بخبير الإبل وهو وبرها، واستخلابه: احتشاشه بالمخلب وهو المنجل، والخبير: يقع على الوبر والزرع والأكار قاله ابن الأثير.

ونستعضد البرير: أي نقطعه ونجنيه من شجره للأكل، هـو بموحدة وراءين بينهما مثناة تحتية، ثمر الأراك إذا اسود وبلغ، وقيل: وهو اسم له في كل حال، وكانوا يأكلونه في الجدب. ونستخبل ـ بالخاء المعجمة ـ الرهام: بكسر الراء، وهي الأمطار الضعيفة، واحدتها رهمة، أي نتخيل الماء في السحاب القليل، وقيل: الرهمة أشد وقعاً من الديمة. ونستجيل: بالجيم، أي نراه جائلاً تذهب به الريح ها هنا وها هنا. والجهام: بالجيم، أي السحاب الذي فرغ ماؤه. ومن روى نستخيل ـ بالخاء المعجمة ـ فهو نستفعل من «خلت، أخال» إذا ظننت، أراد لا نتخيل في السحاب حالاً إلا المطر وإن كان جهاماً لشدة حاجتنا إليه، ومن رواه بالحاء المهملة ـ وهو الأشهر ـ أراد: لا ننظر من السحاب في حال إلا جهام من قلة المطر.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/١٧٩ والسيوطي في جمع الجوامع (٩٩٢٧) وفي الشفا ١/ ٧٢ وفي كنز العمال (٢١٦٠٧ ـ ٣٠٣١٧ ـ ٣٠٣٢٥). وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٢٧ وأبو نعيم في معرفة الصحابة، والديلمي في مسند الفردوس من حديث عمران بن حصين وأبو نعيم من حديث حذيفة بن اليمان.

وأرض غائلة ـ بالغين المعجمة ـ والنطا ـ بكسر النون ـ أي مهلكة للبعد، يقال: بلد نطي، أي بعيد، ويروى المطي وهو مفعل منه. والمدهن: نقرة في الجبل. والجعثن: بالجيم والمثلثة، أصل النبات، ويقال: أصل الصليان خاصة وهو نبت معروف. والعسلوج: بضم العين وبالسين المهملتين، آخره جيم، وهو الغصن إذا يبس وذهبت طراوته، وقيل: هو القضيب الحديث الطلوع، يريد أن الأغصان يبست وهلكت من الجدب، وجمعه: عساليج.

والأملوج: بالضم والجيم، ورق شجر يشبه الطرفاء والسرو، وقيل: هو ضرب من النبات ورقه كالعيدان، وقيل: هو نوى المقل. وفي رواية: وسقط الأملوج من البكارة ـ بالكسر ـ جمع البكرة ـ بالفتح ـ يريد أن السمن الذي قد علا بكارة الإبل بما رعت من هذه الشجرة قد سقط عنها، فسماه باسم المرعى، إذ كان سبباً له.

وهلك الهدي: بفتح الهاء وكسر الدال المهملة والتشديد، كالهدي بالتخفيف، وهو ما يهدى إلى البيت الحرام من النعم لتنحر، فأطلق على جميع الإبل لم وإن لم تكن هديا، تسمية للشيء ببعضه، يقال: كم هدي بني فلان؟ أي كم إبلهم.

ومات الودي: بالتشديد، فسيل النخل، يريد هلكت الإبل ويبست النخيل. وبرئنا إليك من الوثن والعنن: الوثن: الصنم، والعنن، الاعتراض، يقال: عنّ لي الشيء أي اعترض، كأنه قال: برئنا إليك من الشرك والظلم، وقيل: أراد به الخلاف والباطل. وما طمى البحر: أي ارتفع بأمواجه. وتعار: بكسر التاء المثناة الفوقية، يصرف ولا يصرف، اسم جبل. ولنا نعم همل: أي مهملة لا رعاء لها، ولا فيها ما يصلحها ويهديها، فهي كالضالة. والإبل الأغفال: لا لبن فيها.

وقوله عليه الصلاة والسلام. في محضها: بالحاء المهملة والضاد المعجمة، أي خالص لبنها.

ومخضها: بالمعجمة، ما مخض من اللبن وأخذ زبده. ومذقها: بفتح الميم وسكون المعجمة وبالقاف، أي ممزوج بالماء.

وابعث راعيها في الدثر: بالمهملة المفتوحة ثم المثلثة الساكنة ثم الراء، المال الكثير، وقيل: الخصب والنبات الكثير.

وافجر له الثمد: بفتح المثلثة، الماء القليل، أي صيره كثيراً.

وودائع الشرك: قيل المراد بها العهود والمواثيق، يقال: توادع الفريقان، إذا أعطى كل واحد منهم عهده للآخر لا يغزوه، وقيل: ما كانوا استودعوه من أموال الكفار الذين

لم يدخلوا في الإسلام، أراد إحلالها لهم لأنها مال كافر قدر عليه من غير عهد ولا شرط.

ووضائع الملك: جمع وضيعة، وهي الوظيفة التي تكون على الملك، وهي ما يلزم الناس في أموالهم من الزكاة والصدقة، أي لكم الوظائف التي تلزم المسلمين لا تتجاوز عنكم ولا نزيد عليكم فيها شيئاً.

ولا تلطط، بضم المثناة الفوقية، ثم اللام الساكنة ثم طاءان، الأولى مكسورة والثانية مجزومة على النهي، أي لا تمنعها. ولا تلحد في الحياة: بضم المثناة الفوقية وإسكان اللام وكسر الحاء المهلمة آخره دال مهملة، أي: لا تمل عن الحق ما دمت حياً. قال بعضهم: كذا رواه القتيبي: لا تلطط ولا تلحد على النهي للواحد، ولا وجه له لأنه خطاب للجماعة، ورواه غيره ما لم يكن عهد ولا موعد ولا تثاقل عن الصلاة، ولا تلطط في الزكاة ولا تلحد في الحياة. قال الحافظ أبو السعادات الجزري، وهو الوجه، لأنه خطاب للجماعة واقع على ما قبله.

وقوله: «ولا نتثاقل عن الصلاة» أي لا نتخلف. والوظيفة: الحق الواجب. والفريضة: أي الهرمة المسنة، أي لا تأخذ في الصدقات هذا الصنف كما أنا لا نأخذ خيار المال.

والفارض: ـ بالفاء والضاد المعجمة ـ المريضة. والفريش: بفتح الفاء آخره شين معجمة، وهي من الإبل كالنفساء من بنات آدم، أي لكم خيار المال وشراره، ولنا وسطه. وذون العنان: بكسر العين، سير اللجام. والركوب: بفتح الراء، أي الفرس الذلول. والضبيس، بفتح المعجمة وكسر الموحدة آخره مهملة، المهر العسر الصعب. امتن عليهم بترك الصدقة في الخيل جيدها ورديئها. ولا يمنع ـ بضم المثناة التحتية وفتح النون ـ، سرحكم ـ بفتح السين المهملة وسكون الراء وبالحاء المهملة ـ ما سرح من المواشي، أي لا يدخل عليكم أحد في مراعيكم. ولا يعضد طلحكم: أي لا يقطع. ولا يحبس دركم: أي لا تحبس ذوات الدر عن المرعى إلى أن تجمع الماشية ثم تعد، أو أنا منعناه أن يأخذها لما في ذلك من الإضرار.

والإماق: بالميم، أي ما لم تضمروا الغيظ، والبكاء، مما يلزمكم من الصدقة، قاله في القاموس. وقال الزمخشري: المراد إضمار الكفر والعمل على ترك الاستبصار في دين الله، وفي رواية: الرماق ـ بالراء والميم ـ أي النفاق، يقال: رامقته رماقاً، وهو أن تنظر إليه شزراً نظرة العداوة، يعني ما لم تضق قلوبكم عن الحق، يقال: عيش رماق، أي ضيق، وعيش رمق ومرمق: أي يمسك الروح، والرمق: بقية الروح وآخر النفس.

وتأكلوا الرباق: ـ بكسر الراء وبالموحدة المخففة ـ أي إلا أن تنقضوا العهد، واستعار الأكل لنقض العهد لأن البهيمة إذا أكلت الربق ـ وهو الحبل تجعل فيه عرى وتشد به ـ خلصت من الرباط.

والربوة: ـ بكسر الراء وفتحها وضمها ـ أي الزيادة. يعني: من تقاعد عن إعطاء الزكاة فعليه الزيادة في الفريضة عقوبة له.

فانظر إلى هذا الدعاء والكتاب الذي انطبق على لغتهم، وجاد وزاد عليها في الجزالة والبداوة وأين هذا من كتابه ﷺ لأنس في الصدقة، وأين ذلك من كتابه بين قريش والأنصا (١) أنهم أمة واحدة دون الناس من قريش على رباعتهم، يتعاقلون بينهم معاقلهم الأول ، ويفكون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وأن المؤمنين المتقين أيديهم على من بغى عليهم، أو ابتغى دسيعة ظلم، وأن سلم المؤمنين واحد على سواء وعدل بينهم، وأن كل غازية غزت يعقب بعضهم بعضاً، ومن اعتبط مؤمناً قتلاً فهو قود إلا أن يرضى ولي المقتول، ومن ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه، وأولاهم بهذه الصحيفة البر المحسن. كذا روي مختصراً من حديث ابن شطب.

وقوله: «دسيعة ظلم» أي عظيمة من الظلم. ورباعتهم: أمرهم القديم الذي كانوا عليه. ويتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى: أي يكونون على ما كانوا عليه من أخذ الديات وإعطائها، وهو تفاعل من العقل، والمعاقل الديات، جمع معقلة، يقال: بنو فلان على معاقلهم التي كانوا عليها، أي مراتبهم وحالتهم.

ولا يوتغ: أي لا يهلك. ويعقب بعضهم بعضاً: أي يكون الغزو بينهم نوباً، فإذا خرجت طائفة ثم عادت لم تكلف أن تعود ثانية حتى يعقبها غيرها. وأين هذا اللين في القول، وقرب المأخذ في اللفظ على طريق الحاضرة وعرف الجمهور المشهور من كتابه لذي المشعار الهمداني، لما لقيه وفد همدان مقدمه من تبوك، فقال مالك بن نمط: يا رسول الله، نصية من همدان من كل حاضر وباد، أتوك على قلص نواج، متصلة بحبائل الإسلام، لا تأخذهم في الله لومة لائم، من مخلاف خارف ويام لا ينقض عهدهم عن سنة ماحل، ولا سوداء عنقفير، ما قام لعلع، وما جرى اليعفور بصلع.

فكتب إليهم النبي ﷺ: هذا كتاب من محمد رسول الله لمخلاف خارف وأهل جناب الهضب وحفاف الرمل، مع وافدها ذي المشعار مالك بن نمط ومن أسلم من

---

(١) انظر السيرة لابن هشام ٢/ ١٤٦ والبداية والنهاية ٣/ ٢٢٣ والمنتظم ٣/ ٧٠ وطبقات ابن سعد ١/ ١٨٣.

قومه، على أن لهم فراعها ووهاطها وعزازها، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها، ويرعون عفاها[1] لنا من دفئهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثلب والناب والفصيل والفارض والداجن والكبس الحوري، وعليهم فيها المصالغ والقارح.

وقوله نصية من كل حاضر وباد قال ابن الأثير: النصية من ينتصي من القوم أي يختار من نواصيهم، وهم الرؤوس والأشراف، ويقال للأشراف: نواص، كما يقال للأتباع أذناب. وأتوك على قلص: بضم القاف واللام، جمع قلوص، وهي الناقة الشابة. والنواج: السراع.

وقوله متصلة بحبائل الإسلام أي عهوده وأسبابه. وخارف: بالخاء المعجمة. ويام: بالمثناة التحتية: قبيلتان. ولا ينقض عهدهم عن سنة ماحل: أي لا ينقض عهدهم بسعي ساع أي بالنميمة والإفساد، كما يقال: لا أفسد ما بيني وبينك بمذاهب الأشرار وطرقهم في الفساد. والسنة: الطريقة، والسنن أيضاً. والعنقفير: بفتح العين المهملة وسكون النون وتقديم القاف، الداهية. أي لا ينقض عهدهم بسعى الواشي ولا بداهية تنزل. ولعلع: جبل.

وما جرى اليعفور: بفتح التحتية، الخشف وولد البقرة الوحشية، وقيل: هو تيس الظباء، والجمع: اليعافير، والياء: زائدة. وبصلع: بضم الصاد المهملة وتشديد اللام، الأرض التي لا نبات فيها. وقوله عليه الصلاة والسلام: «وأهل الجناب الهضب» بكسر الجيم، اسم موضع. و«حفاف الرمل» أسماء بلادهم. «وفراعها» بكسر الفاء وبراء وعين مهملة، أي ما علا من الجبال أو الأرض. «ووهاطها» بكسر الواو، وبطاء مهملة، المواضع المطمئنة، واحدها وهط، وبه سمي الوهط، وهو مال كان لعمرو بن العاص بالطائف. وقيل الوهط: قرية بالطائف كان الكرم المذكور بها.

«وعزازها» بفتح العين المهملة ثم زاءين مخففتين، ما صلب من الأرض واشتد وخشن، وإنما يكون في أطرافها.

«ويأكلون علافها» بكسر العين المهملة وتخفيف اللام وبالفاء، جمع علف، وهو ما تأكله الماشية. «وعفاها» بفتح وتخفيف الفاء وبالمد، أي المباح. «ومن دفئهم» بكسر الدال المهملة وسكون الفاء وبالهمز. قال في المجمل: نتاج الإبل وألباها والانتفاع بها. «وصرامهم» بكسر الصاد المهملة وتخفيف الراء، أي من نخلهم. والثلب: بكسر المثلثة

---

(١) انظر السيرة لابن هشام ٤/ ٢٤٥.

واللام الساكنة وبباء موحدة، ما هرم من ذكور الإبل وتكسرت أسنانه. والناب: بالنون والموحدة: الناقة الهرمة التي طال نابها. والفصيل: بالمهملة الذي انفصل عن أمه. والفارض: بالفاء المسن من الإبل. والداجن: بالمهملة والجيم، الدابة التي تألف البيوت.

والكبش الحوري: بالحاء المهملة، وواو مفتوحتين فراء مسكورة: الذي في صوفه حمرة. والصالغ: بالصاد المهملة والغين المعجمة، من صلغت الشاة ونحوها: إذا تمت أسنانها. والقارح: بالقاف والراء والحاء المهملة، من الخيل الذي دخل في السنة الخامسة. انتهى.

وهذا من جنس كتابه لقطن بن حارثة العليمي من كلب:

هذا كتاب من محمد لعمائر كلب وأحلافها، ومن ظأره الإسلام من غيرهم مع قطن ابن حارثة العليمي، بإقام الصلاة لوقتها وإيتاء الزكاة بحقها في شدة عقدها ووفاء عهدها، بمحضر من شهود المسلمين، وسمى جماعة منهم دحية بن خليفة الكلبي، عليهم من الهمولة الراعية البساط الظئار في كل خمسين ناقة غير ذات عوار، والحمولة المائرة لهم لاغية، وفي الشوي الوري مسنة حامل أو حائل، وفيما سقى الجدول من العين المعين العشر، وفي العشري شطره بقيمة الأمين لا يزاد عليهم وظيفة ولا يفرق. شهد على ذلك الله ورسوله، وكتب ثابت بن قيس بن شماس.

وتفسير غريبه أن قوله: ومن ظأره الإسلام: بالظاء المعجمة والهمز، آخره هاء أي: عطف عليه وعليهم. في الهمولة: بفتح الهاء، التي ترعى بأنفسها. ولا تستعمل فعولة بمعنى مفعولة. والبساط: التي معها أولادها. والظئار: أن تعطف الناقة على غير ولدها. والحمولة المائرة لهم لاغية: يعني أن الإبل التي تحمل عليها الميرة ـ وهي الطعام ونحوه مما يجلب للبيع ـ لا يؤخذ منها زكاة لأنها عوامل.

وفي الشوي: بفتح الشين المعجمة وكسر الواو والياء المشددة: اسم جمع للشاة. والوري: السمينة. ومن هذا النمط كتابه ﷺ لوائل بن حجر ـ بتقديم الحاء المضمومة على الجيم الساكنة ـ إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشابيب، وذكر الفرائض فقال: في التيعة شاة لا مقورة الألياط ولا ضناك، وأنطوا الثبجة وفي السيوب الخمس، ومن زنى مم بكر فاصقعوه مائة واستوفضوه عاماً، ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالأضاميم، ولا توصيم في الدين، ولا غمة في فرائض الله، وكل مسكر حرام، ووائل بن حجر يترفل على الأقيال.

وفسر الأقيال ـ وهو بالقاف والمثناة التحتية ـ بالرؤساء الذين دون الملوك. والعباهلة: بالمهملة المفتوحة والموحدة، الذين أقروا على ملكهم لا يزالون. والأوراع: ـ بفتح الهمزة وسكون الراء آخره عين مهملة ـ جمع رائع، وهم ذوو الهيئآت الحسان الوجوه. والمشابيب: ـ بفتح الميم والشين المعجمة وباءين موحدتين بينهما مثناة تحتية ساكنة ـ السادة الرؤوس، الحسان الوجوه. وفي التيعة: ـ بكسر المثناة الفوقية وسكون المثناة التحتية وبالعين المهملة ـ أربعون من الغنم. وفي القاموس والنهاية: أدنى ما تجب فيه الصدقة من الحيوان. ولا مقورة: بضم الميم وفتح القاف وتشديد الواو.

والألياط: ـ بفتح الهمزة وسكون اللام آخرها طاء مهملة ـ أي: لا مسترخية الجلود لكونها هزيلة. ولا ضناك: ـ بكس المعجمة وتخفيف النون ـ ضدها وهي المستكثرة اللحم. وأنطوا: بقطع الهمزة أي أعطوا. والثبجة: بالمثلثة ثم موحدة ثم جيم مفتوحات، وقد تكسر الموحدة، أي أعطوا الوسط في الصدقة لا من خيار المال ولا من رذالته. والسيوب: ـ بضم المهملة وآخره موحدة ـ أي: الركاز، قاله الهروي، وقيل: المال المدفون في الجاهلية أو المعدن.

ومن زنى مم بكر: ـ بكسر الراء بلا تنوين، لأن أصله من البكر، لكن أهل اليمن يبدلون لام التعريف ميماً، وهي ساكنة فأدغمت النون فيها، والمراد بالبكر الجنس، وقال ابن الأثير: أي من بكر ومن ثيب، فقلبت النون الساكنة ميماً، أما مع بكر فلأن النون إذا سكنت قبل الباء فإنها تقلب ميماً في النطق، نحو: عنبر وشنبا، وأما مع غير الباء فإنها لغة يمانية، كما يبدلون الميم من لام التعريف. انتهى.

و: فاصقعوه: بهمزة وصل وإسكان الصاد المهملة، وفتح القاف وضم العين المهملة، أي: اضربوه. واستوفضوه: بهمزة وصل وكسر الفاء وضم الضاد المعجمة، أي: غربوه وانفوه. وفضرجوه: بالضاد المعجمة وتشديد الراء وبالجيم. وبالأضاميم: بفتح الهمزة والضاد المعجمة، أي: أدموه بالضرب بجماهير الحجارة. ولا توصيم: بصاد مهملة مكسورة، أي لا كسل عن إقامة الحدود. ولا غمة: بضم المعجمة وتشديد الميم، أي لا تستر ولا تخفى. ويترفل: بتشديد الفاء المفتوحة: يتسود ويترأس، استعارة من ترفيل الثوب وهو إسباغه وإسباله. وقريب من هذا، كتابه لأكيدر وأهل دومة، كما قدمته في مكاتباته صلى الله عليه وسلم.

وقال ﷺ في حديث عطية السعدي «فإن اليد العليا هي المنطية والسفلى هي المنطاة»(١) قال: فكلمنا رسول الله ﷺ بلغتنا.

---

(١) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١٦٧/١٧ و١٦٩. وفي الدر المنثور ٣٥٩/١. وفي المستدرك=

وقد كان هذا من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه أن يكلم كل ذي لغة بليغة بلغته على اختلاف لغة العرب وتركيب ألفاظها وأساليب كلمها، وكان أحدهم لا يتجاوز لغته، وإن سمع لغة غيره فكالعجمية يسمعها العربي، وما ذلك منه ﷺ إلا بقوة إلهية وموهبة ربانية، لأنه بعث إلى الكافة طراً، وإلى الخليقة سوداً وحمراً، والكلام باللسان يقع في غاية البيان، ولا يوجد غالباً متكلم بغير لغته إلا قاصراً في الترجمة نازلاً عن صاحب الأصالة في تلك اللغة، إلا نبينا وسيدنا محمد ﷺ كما تقدم، فإنه زاده الله تكريماً وشرفاً تكلم في كل لغة من لغة العرب أفصح وأنصع بلغاتها منها بلغة نفسها، وجدير به ذلك فقد أوتي في سائر القوى البشرية المحمودة زيادة ومزية على الناس، مع اختلاف الأصناف والأجناس ما لا يضبطه قياس ولا يدخل في تحقيقه إلباس. انتهى.

وأما صوته الشريف[1]، فعن أنس قال: ما بعث الله نبياً قط إلا بعثه حسن الوجه حسن الصوت، حتى بعث الله نبيكم ﷺ فبعثه حسن الوجه حسن الصوت، رواه ابن عساكر. وروي نحوه من حديث علي بن أبي طالب. وروي أنه كان إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من ثناياه. وقد كان صوته ﷺ يبلغ حيث لا يبلغه صوت غيره. فعن البراء قال: «خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في خدورهن[2]. رواه البيهقي.

وقالت عائشة رضي الله عنها جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة على المنبر فقال للناس: «اجلسوا»، فسمعه عبدالله بن رواحة وهو في بني غنم فجلس في مكانه[3] رواه أبو نعيم.

وقال عبد الرحمن بن معاذ التيمي:[4] خطبنا رسول الله ﷺ بمنى، ففتحت أسماعنا ـ وفي لفظ ففتح الله أسماعنا ـ حتى إن كنا لنسمع ما يقول ونحن في منازلنا. رواه ابن سعد.

وعن أم هانىء قالت كنا نسمع قراءة النبي ﷺ في جوف الليل عند الكعبة، وأنا على عريشي[5]، رواه ابن ماجه.

= للحاكم ٤/٣٢٧. والبيهقي في السنن الكبرى ٤/١٩٨. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٣/٩٨ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٦٠١٠). وفي مناهل الصفا صفحة (٤٨) رقم الحديث (١٧، وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/١٢٧ وفي كنز العمال (١٧١٢٩ ـ ١٦٧٠٧ ـ ١٧٠٠٦).

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٨٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ٤٢٤. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢٥٦.

(٣) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٢٥٦. والهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٣١٦.

(٤) هو عبد الرحمن بن معاذ بن عثمان التيمي. انظر الكاشف ٢/ ١٦٤. رقم الترجمة (٣٣٦٠).

(٥) أخرجه النسائي ٢/ ١٧٩. والبيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٢٥٧. وفي كنز العمال (٢٢١٧٣).

وأما ضحكه ﷺ، ففي البخاري عن عائشة: ما رأيت رســول الله ﷺ مستجمعاً قط ضاحكاً حتى أرى لهواته، إنما كان يتبسّم[1]، أي: ما رأيته مستجمعاً من جهة الضحك بحيث يضحك ضحكاً تاماً مقبلاً بكليته على الضحك. واللهوات: بفتح اللام، جمع لهاة، وهي اللحمة التي بأعلى الحنجرة من أقصى الفم. وهذا لا ينافيه ما في حديث أبي هريرة في قصة المواقع أهله في رمضان، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه[2]. رواه البخاري. وهي بالجيم والذال المعجمة: الأضراس. ولا تكاد تظهر إلا عند المبالغة في الضحك. لأن عائشة إنما نفت رؤيتها، وأبو هريرة أخبر بما شاهده، والمثبت مقدم على النافي.

وقد قال أهل اللغة: التبسم: مبادي الضحك، والضحك: انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور، فإن كان بصوت وكان بحيث يسمع من بعد فهو القهقهة، وإلا فالضحك، وإن كان بلا صوت فهو التبسم. وقال ابن أبي هالة: جل ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام، أي يبدي أسنانه ضاحكاً، وحب الغمام: البرد. وقال الحافظ ابن حجر: والذي يظهر من مجموع الأحاديث: أنه ﷺ كان في معظم أحواله لا يزيد على التبسم، وربما زاد على ذلك فضحك. قال: والمكروه إنما هو الإكثار منه والإفراط فيه لأنه يذهب الوقار. وقال ابن بطال: والذي ينبغي أن يقتدى به من أفعاله ما واظب عليه من ذلك.

وقد روى البخاري في الأدب المفرد وابن ماجه عن أبي هريرة رفعه: «لا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»[3]. وقال أبو هريرة: وإذا ضحك ﷺ يتلألأ في الجدر. رواه البزار والبيهقي، أي يضيء في الجدر ـ بضم الجيم والدال، جمع جدار وهو الحائط ـ أي يشرق نوره عليها إشراقاً كإشراق الشمس عليها.

وكان ﷺ إذا كان حديث عهد بجبريل لم يتبسَّم ضاحكاً حتى يرتفع عنه، بل كان

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب التفسير باب (٢) رقم الحديث (٤٨٢٨ ـ ٦٠٩٢). وفي المستدرك للحاكم ٣/ ٤٥٦. وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٠٥.

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الأدب باب (٦٨) رقم الحديث (٦٠٨٧). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ٢٠١. وفي مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٣٧٩. وفي الضعفاء للعقيلي ١/ ١٢٣.

(٣) أخرجه الترمذي. كتاب الزهد. باب (٢) رقم الحديث (٢٣٠٥). وابن ماجه رقم الحديث (٤١٩٣) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣١٠. وفي المعجم الكبير للطبراني ٢/ ١٦٨. وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ١٥٧. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ٢١٦. وفي إتحاف السادة المتقين ٠/ ٣٩٤. وفي الأدب المفرد للبخاري باب (١٢٦) رقم الحديث (٢٥٢ ـ ٢٥٣).

إذا خطب أو ذكر الساعة اشتد غضبه وعلا صوته كأنه منذر جيش، صبحكم ومساكم[1]. رواه مسلم.

وكان بكاؤه ﷺ من جنس ضحكه، لم يكن بشهيق ورفع صوت، كما لم يكن ضحكه بقهقهة ولكن تدمع عيناه حتى تهملان، ويسمع لصدره أزيز، يبكي رحمة لميت خوفاً على أمته وشفقة، ومن خشية الله، وعند سماع القرآن، وأحياناً في صلاة الليل، قاله في الهدي النبوي. وقد حفظه الله تعالى من التثاؤب، ففي تاريخ البخاري ومصنف ابن أبي شيبة عن يزيد بن الأصم: «ما تثاءب النبي قط»[2] لكن في رواية عند ابن أبي شيبة: «ما تثاءب نبي قط».

وأما يده الشريفة ﷺ[3]، فقد وصفه غير واحد بأنه كان شثن الكفين كما سيأتي، أي غليظ أصابعهما، وبأنه عبل الذراعين رحب الكفين. وقد مسح ﷺ خد جابر بن سمرة قال: فوجدت ليده برداً وريحاً كأنما أخرجها من جونة عطار[4]، رواه مسلم.

وفي حديث وائل بن حجر عند الطبراني والبيهقي: لقد كنت أصافح رسول الله ﷺ أو يمس جلدي جلده، فأتعرفه بعد في يدي، وإنه لأطيب رائحة من المسك. وقال يزيد ابن الأسود: ناولني رسول الله ﷺ يده فإذا هي أبرد من الثلج وأطيب ريحاً من المسك[5]، رواه البيهقي. وعن المستورد بن شداد عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ فأخذت بيده فإذا هي ألين من الحرير وأبرد من الثلج، رواه الطبراني. ودخل ﷺ على سعد بن أبي وقاص بمكة يعوده وقد اشتكى، قال: فوضع يده على جبهتي فمسح وجهي وصدري وبطني، فما زلت يخيل إلي أني أجد برد يده على كبدي حتى الساعة[6].

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب (٧) رقم الحديث (٤٥). وفي صحيح مسلم كتاب الجمعة باب (١٣) رقم الحديث (٤٣). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/٢٠٦. وفي شرح السنة للبغوي ٤/٢٥٤. وفي إتحاف السادة المتقين ٣/٢٣٠ و٧/١١٤ ـ ١١٥، و١٠/٢٥٤. وفي المغني للعراقي ٢/٣٦٥ و٤/٤٤٤. ومشكاة المصابيح للتبريزي (١٤٠٧). وفي الأسماء والصفات للبيهقي (١٨٨) وفي المنتقى لابن الجارود صفحة (٨٣) رقم الحديث (٢٩٧). وفي كنز العمال (١٧٩٧٤).

(٢) انظر فتح الباري ١٠/٧٤٧ وأخرجه الخطابي من طريق مسلمة بن عبد الملك بن مروان. ويؤيد الحديث ما ثبت أن التثاؤب من الشيطان.

(٣) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/٢٤٢. والبداية والنهاية ٦/٢٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الفضائل رقم الحديث (٨٠). (جؤنة العطار): مهموزة. وقد يترك همزها قال الجوهري: «هي بالواو وقد تهمز». وهي السفط الذي فيه متاع العطار. هكذا فسره الجمهور وقال الخليل بن أحمد: هي سليلة مستديرة مغشاة أدماً.

(٥) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/٢٥٦.

(٦) أخرجه البخاري. كتاب المرضى باب (١٣) رقم الحديث (٥٦٥٩). وفي صحيح مسلم رقم (١٢٥٣). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/١٦٨ ـ ١٧١ وفي سنن أبي داود. كتاب الجنائز باب=

وفي البخاري من حديث أنس: ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألين من كف رسول الله ﷺ[1]. وهو من باب عطف الخاص على العام، لأن الديباج نوع من الحرير. قيل: وهذا الوصف في هذا الحديث يخالف ما وقع في حديث ابن أبي هالة عند الترمذي في صفته ﷺ، فأن فيه ـ كما تقدم ـ كان شثن الكفين والقدمين، أي غليظهما في خشونة، وهكذا وصفه عليّ من عدة طرق عند الترمذي والحاكم وغيرهما، وكذا وصف عائشة له عند ابن أبي خيثمة. والجمع بينهما: أن المراد اللين في الجلد. والغلظ في العظام، فيجتمع له نعومة البدن وقوته. وقال ابن بطال: كانت كفه ﷺ ممتلئة لحماً، غير أنها مع ضخامتها كانت لينة، كما في حديث أنس، قال: وأما قول الأصمعي: الشثن: غلظ الكف في خشونة، فلم يوافق على تفسيره بالخشونة، والذي فسر به الخليل أولى، قال: وعلى تسليم ما فسر به الأصمعي الشثن: يحتمل أن يكون أنس وصف حالتي كف النبي ﷺ فكان إذا عمل بكفه في الجهاد، أو في مهنة أهله، صار كفه خشناً للعارض المذكور، وإذا ترك ذلك رجع كفه إلى أصل جبلته من النعومة.

وقال القاضي عياض: فسر أبو عبيدة الشثن بالغلظ مع القصر. وتعقب: بأنه ثبت في وصفه ﷺ أنه كان سائل الأطراف[2]. انتهى. ويؤيد كونها كانت لينة قوله في رواية النعمان: كان سبط الكفين. بتقديم المهملة على الموحدة، فإنه موافق لوصفها باللين. والتحقيق في الشثن أنه الغلظ من غير قصر ولا خشونة. وقد نقل ابن خالويه: أن الأصمعي لما فسر الشثن بما مضى، قيل له إنه ورد في صفة النبي ﷺ أنه لين الكفين، فآلى على نفسه أن لا يفسر شيئاً في الحديث. انتهى. وفي حديث معاذ عند الطبراني والبزار: أردفني رسول الله ﷺ خلفه في سفر، فما مسست شيئاً قط ألين من جلده ﷺ.

وأصيب عائذ بن عمرو في وجهه يوم حنين، فسال الدم على وجهه وصدره، فسلت النبي ﷺ الدم بيده عن وجهه وصدره، ثم دعا له، فكان أثر يده ﷺ إلى منتهى ما مسح من صدره غرة سائلة كغرة الفرس رواه الحاكم وأبو نعيم وابن عساكر. وأخرج البخاري في تاريخه والبغوي وابن منده في الصحابة من طريق صاعد بن العلاء بن بشر

= (٧) رقم الحديث (٣١٠٤) وفي المستدرك للحاكم ١/ ٣٤٢. وفي الأدب المفرد للبخاري صفحة (١٤١) رقم الحديث (٤٩٩). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٣٨١ و٩/ ١٨ وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦/ ١٠٣ وفي البداية والنهاية ٨/ ٧٨.

(١) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٦١). ومسلم كتاب الفضائل رقم الحديث (٨١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٠٧ وفي مواضع أخرى غيرها.

(٢) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ١٦٣ قال ابن الأثير شثن الكفين والقدمين: أي يميلان إلى الغلظ والقصر: وقيل هو الذي في أنامله غلظ بلا قصر ويحمد ذلك في الرجال.

عن أبيه عن جده بشر بن معاوية: أنه قدم مع أبيه معاوية بن ثور على رسول الله ﷺ فمسح رأسه ودعا له بالبركة فكانت في وجهه مسحة النبي ﷺ كالغرة وكان لا يمسح شيئاً إلا برىء.

ومسح ﷺ رأس مدلوك[1] أبي سفيان فكان ما مرت يده عليه أسود، وشاب ما سوى ذلك. رواه البخاري في تاريخه والبيهقي. وكذا وقع له ﷺ في رأس السائب. رواه البغوي والبيهقي وابن منده. وأخرج البيهقي وصححه، والترمذي وحسنه، عن أبي زيد الأنصاري قال: مسح ﷺ بيده على رأسي ولحيتي ثم قال: «اللهم جمله»، قال: فبلغ بضعاً ومائة سنة وما في لحيته بياض. ولقد كان منبسط الوجه ولم ينقبض وجهه حتى مات[2]. ومسح ﷺ رأس حنظلة بن حذيم بيده وقال له: «بورك فيك،» فكان يؤتى بالشاة الوارم ضرعها والبعير والإنسان به الورم، فيتفل في يده ويمسح بصلعته ويقول بسم الله على أثر يد رسول الله ﷺ فيمسحه ثم يمسح موضع الورم فيذهب الورم[3]. رواه أحمد والبخاري في التاريخ وأبو يعلى وغيرهم.

وقد جاء في عدة أحاديث عن جماعة من الصحابة بياض إبطيه. فعن أنس قال: رأيت رسول الله ﷺ يرفع يديه في الدعاء حتى رأيت بياض إبطيه. وقال الطبري: ومن خصائصه ﷺ أن الإبط من جميع الناس متغير اللون غيره، أي إلا هو ﷺ، ومثله للقرطبي وزاد: أنه لا شعر عليه، لكن نازع فيه صاحب شرح تقريب الأسانيد، وقال: إنه لم يثبت ذلك بوجه من الوجوه، قال: والخصائص لا تثبت بالاحتمال، ولا يلزم من ذكر أنس وغيره بياض إبطيه أن لا يكون له شعر. وقد قال عبدالله بن أقرم الخزاعي ـ وقد صلى معه ﷺ ـ كنت أنظر إلى عفرة إبطيه. حسنه الترمذي. والعفرة: بياض ليس بالناصع كما قاله الهروي وغيره، وسيأتي مزيد لذلك في الخصائص إن شاء الله تعالى.

وعن رجل من بني حريش قال: ضمني رسول الله ﷺ فسال عليّ من عرق إبطيه مثل ريح المسك. رواه البزار. ووصفه عليّ فقال: ذو مسربة، وفسر بخيط من الشعر بين الصدر والسرة. وقال ابن أبي هالة: دقيق المسربة. وعند ابن سعد عن علي: طويل

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢١٥. وفي التاريخ الكبير للبخاري ٤/ ٢/ ٥٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٥/ ٧٧ و٣٤٠. وفي المستدرك للحاكم ٤/ ١٣٩. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٣٧٨ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢١٠ و٢١٢ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٧/ ٢٨.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٥/ ٦٨ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢١٤ وفي التاريخ للبخاري ٢/ ١/ ٣٧.

المسربة. وعند البيهقي: له شعرات من لبته إلى سرته تجري كالقضيب. ليس على صدره ولا على بطنه غيره.

ووصفت بطنه أم هانيء فقالت: ما رأيت بطن رسول الله ﷺ إلا ذكرت القراطيس المثني بعضها على بعضها. رواه الطيالسي والطبراني. وقال أبو هريرة: كان ﷺ أبيض كأنما صيغ من فضة، رجل الشعر، مفاض البطن، عظيم مشاش المنكبين.

وتقدم أن المشاش: رؤوس العظام كالركبتين، ومفاض: أي واسع البطن، وقيل: مستوي البطن مع الصدر. وخرج الإمام أحمد عن محرش الكعبي قال: اعتمر النبي ﷺ من الجعرانه ليلاً، فنظرت إلى ظهره كأنه سبيكة فضة[1].

وكان ﷺ بعيد ما بين المنكبين رواه البخاري. أي عريض الصدر، ووقع عند ابن سعد من حديث أبي هريرة: رحب الصدر.

وأما قلبه الشريف ﷺ[2]، فاعلم أن القلب مضغة في الفؤاد معلقة بالنياط، فهو أخص من الفؤاد. قاله الواحدي، وسمي به لتقلبه بالخواطر والعزوم، قال الشاعر:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ... ولا القلب إلا أنه يتقلب

وقال الزمخشري: مشتق من التقلب الذي هو المصدر لفرط تقلبه، ألا ترى إلى ما روى أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ: ومثل هذا القلب كمثل ريشة ملقاة بفلاة يقلبها الريح بطناً لظهر. قال: والفرق بينه وبين الفؤاد، أن الفؤاد وسط القلب، سمي به لتفؤده، أي توقده. وفسر الجوهري القلب بالفؤاد ثم فسر الفؤاد بالفلب. قال الزركشي: والأحسن قول غيره: الفؤاد غشاء القلب، والقلب حبته وسويداؤه، ويؤيد الفرق قوله ﷺ: ألين قلوباً وأرق أفئدة، وهو أولى من قول بعضهم: إنه كرر لاختلاف اللفظ.

وقال الراغب: يعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به كالعلم والشجاعة. وقيل: حيثما ذكر الله القلبَ فإشارة إلى العقل والعلم، كقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾[ق: ٣٧]، وحيثما ذكر الصدر فإشارة إلى ذلك وإلى سائر القوى من الشهوة والغضب ونحوهما انتهى.

قال بعض العلماء: وقد خلق الله تعالى الإنسان، وجعل له قلباً يعقل عنه، وهو

---

(١) أخرجه النسائي كتاب الحج (١٠٤) ٥/ ٢٠٠ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/٤٢٦ و٤/٦٩ و٥/٣٨.

(٢) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٦٧.

أصل وجوده، إذا صلح قلبه صلح سائره، وإذا فسد قلبه فسد سائره. وجعل سبحانه القلوب محل السر والإخلاص، الذي هو سر الله يودعه قلب من شاء من عباده، فأول قلب أودعه قلب محمد ﷺ لأنه أول خلق وصورته ﷺ آخر صورة ظهرت من صور الأنبياء، فهو أولهم وآخرهم.

وقد جعل سبحانه وتعالى أخلاق القلوب للنفوس أعلاماً على أسرار القلوب، فمن تحقق قلبه بسر الله اتسعت أخلاقه لجميع خلق الله، ولذلك جعل الله تعالى لمحمد ﷺ جثمانية اختص بها من بين سائر العالمين، فتكون علامات اختصاص جثمانيته آيات دالة على أحوال نفسه الشريفة وعظيم خلقه، وتكون علامات عظيم أخلاقه آيات على سر قلبه المقدس. ولما كان قلبه ﷺ أوسع قلب اطلع الله عليه ـ كما ورد في الخبر ـ كان هو الأولى أن يكون هو قلب العبد الذي يقول فيه الله تعالى: ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن[١].

ولما كان كماله قبل الإسراء بمنزلة سائر النبيين كان صدره يضيق، فاتسع قلبه لما انشرح صدره ووضع عنه وزره ورفع له ذكره. وقد صح أن جبريل عليه الصلاة والسلام شقه واستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه فأعاده في مكانه. قال أنس فلقد كنت أرى أثر المخيط في صدره[٢]. رواه مسلم.

وإنما خلقت هذه العلقة في ذاته الكريمة ثم استخرجت منه لأنها من جملة الأجزاء الإنسانية، فخلقها تكملة للخلق الإنساني فلا بد منها، ونزعها أمر رباني طرأ بعد ذلك، قاله السبكي.

وعند أحمد وصححه الحاكم: ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقتين سوداوين فقال أحدهما لصاحبه ائتني بماء وثلج فغسلا به جوفي ثم قال: ائتني بماء بَرَد فغسلا به قلبي ثم قال: ائتني بالسكينة فذراها في قلبي ثم قال أحدهما لصاحبه حصه فحاصه وختم عليه بخاتم النبوة[٣].

وفي رواية البيهقي أن ملكين جاآني في صورة كركيين معهما ثلج وبرد وماء بارد فشرح أحدهما صدري، ومج الآخر بمنقاره فيه.

---

(١) أخرجه الحافظ العراقي وقال: لم أر له أصلاً.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الإيمان رقم الحديث (٢٦١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٢١ و١٤٩ و٢٨٨.

(٣) هو في المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٨٤.

وعن أبي هريرة قال: يا رسول الله، ما أول ما ابتدئت به من أمر النبوة. قال: «إني لفي صحراء أمشي ابن عشر حجج إذا أنا برجلين فوق رأسي يقول أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأخذاني فألصقاني لحلاوة القفا ثم شقا بطني، وكان أحدهما يختلف بالماء في طست من ذهب والآخر يغسل جوفي، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فإذا صدري ـ فيما أرى ـ مفلوق لا أجد له وجعاً، ثم قال: اشقق قلبه فشق قلبي، فقال أخرج الغل والحسد منه، فأخرج شبه العلقة فنبذ به ثم قال: أدخل الرأفة والرحمة قلبه، فأدخل شيئاً كهيئة الفضة، ثم أخرج ذروراً كان معه فذر عليه، ثم نقر إبهامي، ثم قال: اغد فرجعت بما لم أغد به من رحمتي للصغير ورأفتي على الكبير». رواه عبدالله بن الإمام أحمد في زوائد المسند وأبو نعيم وقال: تفرد به معاذ عن أبيه، وتفرد بذكر السن.

وعند أبي نعيم في حديث يونس بن ميسرة: فاستخرج حشوة جوفي فغسلها ثم ذر عليه ذروراً ثم قال: قلب وكيع يعي ما وقع فيه، عينان تبصران وأذنان تسمعان وأنت محمد رسول الله المقفي الحاشر قلبك سليم ولسانك صادق ونفسك مطمئنة وخلقك قيم وأنت قثم. وهذا الشق روي أنه وقع له ﷺ مرات في حال طفوليته ارهاصاً. وتقديم المعجزة على زمان البعثة جائز للإرهاص، ومثل هذا في حق الرسول ﷺ كثير. وبه يجاب عن استشكال وقوع ذلك في حال طفوليته لأنه من المعجزات، ولا يجوز أن تتقدم على النبوة، قاله الرازي.

والذي عليه أكثر أهل الأصول: اشتراط اقتران المعجزة بالدعوى كما نبهت عليه في أوائل الكتاب، ويأتي تحقيقه إن شاء الله تعالى في المقصد الرابع. وهو المراد بقوله: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾[الشرح: ١] وقد قيل المراد بالشرح في الآية ما يرجع إلى المعرفة والطاعة. ثم ذكروا في ذلك وجوهاً منها أنه لما بعث إلى الأحمر والأسود من جني وإنسي أخرج تعالىٰ عن قلبه جميع الهموم، وانفسح صدره حتى اتسع لجميع المهمات، فلا يقلق ولا يضجر بل هو حالتي البؤس والفرج منشرح الصدر مشتغل بأداء ما كلف. فإن قلت: لم قال: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ ولم يقل: قلبك. أجيب: بأن محل الوسوسة الصدر، كما قال تعالى: ﴿يوسوس في صدور الناس﴾[الناس: ٥] فإزالة تلك الوسوسة وإبدالها بدواعي الخير هي الشرح، لا جرم خص ذلك الشرح بالصدر دون القلب.

وقد قال محمد بن علي الترمذي: القلب محل العقل والمعرفة، وهو الذي يقصد الشيطان، يجيء إلى الصدر الذي هو حصن القلب فإذا دخل مسلكاً أغار فيه وأنزل جنده فيه وبث فيه الهموم والغموم والحرص فيضيق القلب حينئذٍ، ولا يجد للطاعة لذة، ولا

للإسلام حلاوة، وإذا طرد العدو في الابتداء حصل الأمن وزال الضيق وانشرح الصدر وتيسر له القيام بأداء العبودية.

وها هنا دقيقة: «قال الله تعالى حكاية عن موسى: ﴿رب اشرح لي صدري﴾[طه: ٢٥] وقال لنبينا محمد ﷺ: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ [الشرح: ١] أعطي بلا سؤال، ثم إنه تعالى نعته عليه السلام فقال﴿وسراجاً منيراً﴾[الأحزاب: ٤٦] فانظر إلى التفاوت، فإن شرح الصدر هو أن يصير قابلاً للنور، والسراج المنير هو الذي يقتبس منه النور، والفرق واضح. قال الدقاق: كان موسى عليه السلام مريداً إذ قال: ﴿رب اشرح لي صدري﴾[طه: ٢٥] ونبينا محمد ﷺ مراد إذ قال الله له: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾والله أعلم».

وأما جماعه ﷺ(١) فقد كان يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة، قال الراوي قلت لأنس: أوَ كان يطيقه؟ قال: كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين(٢). رواه البخاري. وعند الإسماعيلي عن معاذ: قوة أربعين زاد أبو نعيم عن مجاهد: كل رجل من رجال أهل الجنة. وعن أنس مرفوعاً: «يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في الجماع»قلت يا رسول الله، أو يطيق ذلك؟ قال: «يعطى قوة مائة»(٣).

قال الترمذي صحيح غريب لا نعرفه عن حديث قتادة إلا من حديث عمران القطان. فإذا ضربنا أربعين في مائة بلغت أربعة آلاف، فبهذا يندفع ما استشكل من كونه ﷺ أوتي قوة أربعين فقط وسليمان عليه الصلاة والسلام قوة مائة رجل أو ألف على ما ورد.

وذكر ابن العربي: أنه كان له ﷺ القوة الظاهرة على الخلق في الوطء، وكان له في الأكل القناعة، ليجمع الله له الفضيلتين في الأمور الاعتيادية كما جمع له الفضيلتين في الأمور الشرعية، حتى يكون حاله كاملاً في الدارين. انتهى. وطاف ﷺ على نسائه التسع في ليلة: رواه ابن سعد.

وروي أنه ﷺ قال: «أتاني جبريل بقدر فأكلت منها فأعطيت قوة أربعين رجلاً في الجماع»(٤) رواه ابن سعد: حدثنا عبدالله بن موسى عن أسامة بن زيد عن صفوان

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٨٧ وطبقات ابن سعد ١/ ٢٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الغسل باب (١٢) رقم الحديث (٢٦٨-٢٨٤-٥٠٦٨-٥٢١٥).

(٣) أخرجه الترمذي كتاب صفة الجنة باب (٦) رقم الحديث (٢٥٣٦) وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٥٤٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٦٣٦) وفي تفسير ابن كثير ٨/ ١١ وفي كنز العمال (٣٩٣٦١).

(٤) ذكره ابن سعد في الطبقات ١/ ٢٨٢ وفي جمع الجوامع للسيوطي ٢٦٦ وفي كشف الخفاء للعجلوني=

ابن سليم مرسلاً من حديث أبي هريرة: شكا رسول الله ﷺ إلى جبريل قلة الجماع فتبسم جبريل حتى تلألأ مجلس رسول الله ﷺ من بريق ثنايا جبريل فقال له: أين أنت من أكل الهريسة فإن فيه قوة أربعين رجلاً. ومن حديث حذيفة بلفظ «أطعمني جبريل الهريسة أشد بها ظهري وأتقوى بها على الصلاة» رواه الدارقطني. ومن حديث جابر بن سمرة وابن عباس وغيرهم.

وكلها أحاديث واهية. بل صرح الحافظ ابن ناصر الدين في جزء له سماه رفع الدسيسة بوضع حديث الهريسة بأنه موضوع. وروي أنه ﷺ أعطي قوة بضع وأربعين رجلاً كل رجل من أهل الجنة، رواه الحارث بن أبي أسامة. وقد حفظه الله من الاحتلام، فعن ابن عباس قال: ما احتلم نبي قط، وإنما الاحتلام من الشيطان، رواه الطبراني.

وأما قدمه الشريف[1] ﷺ فقد وصفه غير واحد بأنه كان شثن القدمين، أي غليظ أصابعهما. رواه الترمذي وغيره. وعن ميمونة بنت كردم قالت: رأيت رسول الله ﷺ فما نسيت طول أصبع قدميه السبابة على سائر أصابعه[2]، رواه أحمد والطبراني. وعن جابر ابن سمرة: كانت خنصر رسول الله ﷺ من رجله متظاهرة، رواه البيهقي. وقد اشتهر على الألسنة أن سبابة النبي ﷺ كانت أطول من الوسطى. قال الحافظ ابن حجر: وهو غلط ممن قاله، وإنما ذلك في أصابع رجليه. انتهى.

وقال شيخنا ـ في المقاصد الحسنة ـ: وسلف جمهورهم الكمال الدميري[3]. هو خطأ نشأ عن اعتماد رواية مطلقة. وعبارته: «كذا رواه ابن هارون عن عبدالله بن مقسم عن سارة ابنة مقسم أنها سمعت ميمونة ابنة كرم تخبر أنها رأت أصابع النبي ﷺ كذلك». فضم ما وقع فيها من إطلاق الأصابع إلى كون الوسطى من كل أطول من السبابة، وعين اليد منه ﷺ لذلك بناء على أن القصد ذكر وصف اختص به ﷺ عن غيره.

ولكن الحديث في مسند الإمام أحمد من حديث يزيد بن هارون المذكور مقيد

= ١/ ٢٠٠ وفي حلية الأولياء ٨/ ٣٧٦ وكنز العمال (٤٤٨٥١ ـ ٣١٧٩٧ ـ ٣١٨٩٦ ـ ٣١٨٩٧ ـ ٣٤٢٢٨).

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٤٢ وفي البداية والنهاية ٦/ ٢٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦/ ٣٦٦ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٨٠ وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٤٦ وقال الطبراني: «فيه من لم أعرفهم».

(٣) هو محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري أبو البقاء كمال الدين (٧٤٢ ـ ٨٠٨ هـ). باحث أديب فقيه شافعي توفي بالقاهرة. الأعلام ٧/ ١١٨ ومفتاح السعادة ١/ ١٨٦ والضوء اللامع ١٠/ ٥٩ رقم الترجمة (٢٠٤). حسن المحاضرة ١/ ٢٠٧ روضات الجنات ٤/ ٢٠٨ ومعجم المطبوعات (٨٨٧).

بالرجل، ولفظه ـ كما قدمته ـ فما نسيت طول أصبع قدمه السبابة على سائر أصابعه.

وهو عند البيهقي أيضاً في الدلائل من طريق يزيد بن هارون ولفظها: رأيت رسول الله ﷺ بمكة وهو على ناقته وأنا مع أبي، فدنا منه أبي فأخذ بقدمه فأقر له رسول الله ﷺ قالت: فما نسيت طول أصبع قدمه السبابة على سائر أصابعه.

وعن أبي هريرة أنه ﷺ كان إذا وطىء بقدمه بكلها ليس له أخمص[1]. رواه البيهقي. وعن أبي أمامة الباهلي قال: كان النبي ﷺ لا أخمص له يطأ على قدمه كلها رواه ابن عساكر. وقال ابن أبي هالة: خمصان الأخمصين، مسيح القدمين.

وقال ابن الأثير: الأخمص من القدم الموضع الذي لا يلصق بالأرض منها عند الوطء. والخمصان: البالغ منه، أي إن ذلك الموضع من أسفل قدمه شديد التجافي عن الأرض. وسئل ابن الأعرابي عنه فقال: إذا كان خمص الأخمص بقدر لا يرتفع جداً، لم يستو أسفل القدم جداً فهو أحسن ما يكون، وإذا استوى أو ارتفع جداً فهو ذم، فيكون بمعنى أن أخمصه معتدل الخمص بخلاف الأول. ووقع في حديث أبي هريرة إذا وطىء بقدمة وطىء بكلها ليس له أخمص. وقوله: مسيح القدمين أي ملساوتان لينتان ليس فيهما تكسر ولا شقاق، فإذا أصابهما الماء نبا عنهما كما قال ابن أبي هالة: ينبو عنهما الماء، وهو معنى حديث أبي هريرة. وعن عبدالله بن بريدة قال: كان ﷺ أحسن الناس قدماً. رواه ابن سعد.

وأما طوله ﷺ [2] فقال علي: كان ﷺ لا قصير ولا طويل، وهو إلى الطول أقرب. رواه البيهقي. وعنه: كان ﷺ ليس بالذاهب طولاً، وفوق الربعة إذا جامع القوم غمرهم. رواه عبدالله بن الإمام أحمد.

وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ ربعة وهو إلى الطول أقرب رواه البزار.

وقوله: ربعة، أي مربوعاً، والتأنيث باعتبار النفس. وقد فسر في الحديث الآتي بأنه ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، والمراد بالطويل البائن: المفرط في الطول مع اضطراب القامة.

وقال ابن أبي هالة: أطول من المربوع وأقصر من المشذب ـ وهو بمعجمتين مفتوحتين ثانيهما مشدد، أي البائن الطول في نحافة، وهو مثل قوله في الحديث الآخر لم يكن بالطويل الممغط ـ وهو بتشديد الميم الثانية ـ المتناهي الطول. وأمغط النهار إذا

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٤٥.

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٥٠ والبداية والنهاية ٦/ ٢٥.

امتد، ومغطت الحبل إذا مددته، وأصله منمغط والنون للمطاوعة فقلبت ميماً وأدغمت في الميم، ويقال بالعين المهملة بمعناه.

وعن عائشة قالت: لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، وكان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده، ولم يكن على حال يماشيه أحد من الناس ينسب إلى الطول إلا طاله ﷺ ولربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما، فإذا فارقاه نسب رسول الله ﷺ إلى الربعة، رواه ابن عساكر والبيهقي. وزاد ابن سبع في الخصائص: أنه كان إذا جلس يكون كتفه أعلى من جميع الجالسين. ووصفه ابن أبي هالة بأنه بادن متماسك، أي معتدل الخلق، كأن أعضاءه يمسك بعضها بعضاً.

وأما شعره الشريف ﷺ[1]، فعن قتادة قال: سألت أنساً عن شعر رسول الله ﷺ فقال: شعر بين شعرين، لا رَجْل ولا سبط ولا جعد قطط كان بين أذنيه وعاتقه. وفي رواية للشيخين قال: كان رجْلا ليس بالسبط ولا الجعد بين أذنه وعاتقه[2]. وفي أخرى: إلى أنصاف أذنيه[3]. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي. وعن عائشة قالت: كنت أغتسل أنا والنبي ﷺ عن أناء واحد، وكان له شعر فوق الجمة ودون الوفرة[4]. رواه الترمذي وأبو داود. والوفرة: الشعر الواصل إلى شحمة الأذن. وقال ابن أبي هالة أيضاً: كان رجل الشعر ـ وهو بفتح الراء وكسر الجيم، أي يتكسر قليلاً، بخلاف السبط والجعد ـ إن انفرقت عقيقته فرق وإلا فلا، يجاوز شعره شحمة أذنه إذا هو وفره. والعقيقة بالقافين، شعر رأسه الشريف، يعني إن انفرقت بنفسها فرقها وإلا تركها معقوصة، ويروى: إن انفرقت عقيصته ـ بالصاد المهملة ـ وهي الشعر المعقوص.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم، وكان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم

---

(١) انظر البداية والنهاية ٦/ ٢١ وفي طبقات ابن سعد ١/ ٣٢٩ ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢١٩.

(٢) أخرجه البخاري كتاب اللباس باب (٦٨) رقم الحديث (٥٩٠٥ ـ ٥٩٠٦) ومسلم في كتاب الفضائل (٩٤ ـ ١١٣) وفي الموطأ كتاب (٤٩) رقم الحديث (١) وفي الترمذي باب (٢١) رقم الحديث (١٧٥٤). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٣٥ و٢٠٣ و٢٤٠.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل (٩٦) وفي أبي داود كتاب الترجل باب (٩) رقم الحديث (٤١٨٦) وفي البخاري (٥٩٠١) وفي النسائي زينة (٩) ٨/ ١٣٣ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١١٣ و١٦٥.

(٤) أخرجه الترمذي كتاب اللباس باب (٢١) رقم الحديث (١٧٧٥) وفي ابن ماجه اللباس باب (٣٦) رقم الحديث (٣٦٣٥) وفي سنن أبي داود كتاب الترجل باب (٩) رقم الحديث (٤١٨٧).

يؤمر فيه بشيء، ثم فرق ﷺ رأسه[1]. رواه الترمذي في الشمائل. وفي صحيح مسلم نحوه.

وسدل الشعر إرساله، والمراد هنا إرساله على الجبين واتخاذه كالقُصة. وأما الفرق: فهو فرق الشعر بعضه من بعض. قال العلماء: والفرق سنة، لأنه الذي رجع إليه ﷺ، والصحيح جواز الفرق والسدل، لكن الفرق أفضل. وعن عائشة: كان له ﷺ شعر فوق الجمة ودون الوفرة. رواه الترمذي. وفي حديث أنس كان إلى أذنيه، وفي حديث البراء: يضرب منكبيه. وفي حديث أبي رمثة: يبلغ إلى كتفيه أو منكبيه[2]. وفي رواية: ما رأيت من ذي لمة أحسن منه[3]. والجمة: هي الشعر الذي نزل إلى المنكبين. والوفرة: ما نزل إلى شحمة الأذنين، واللمة: التي لمت بين المنكبين. قال القاضي عياض: والجمع بين هذه الرويات: أن ما يلي الأذن هو الذي يبلغ شحمة أذنيه، وما خلفه هو الذي يضرب منكبيه. قال: وقيل: بل ذلك لاختلاف الأوقات، فإذا غفل عن تقصيرها بلغت المنكب وإذا قصرها كانت إلى أنصاف الأذنين، فكانت تطول وتقصر بحسب ذلك.

وعن أم هانىء بنت أبي طالب قالت: قدم رسول الله ﷺ علينا مكة قدمة وله أربع غدائر[4]. رواه الترمذي في الشمائل. والغدائر: ـ بالغين المعجمة والدال المهملة ـ هي الذوائب، واحدتها غديرة. وفي مسلم عن أنس، كان في لحيته ﷺ شعرات بيض. وفي رواية عنده: لم ير من الشيب إلا قليلاً، وفي أخرى له أيضاً: لو شئت أن أعد شمطات كن في رأسه ولم يخضب. وعنده أيضاً: لم يخضب ﷺ إنما كان البياض في عنفقته وفي الصدغين وفي الرأس نبذ ـ بضم النون وفتح الباء الموحدة، وبفتح النون وإسكان الموحدة ـ أي شعرات متفرقة. وفي رواية أخرى: ما شانه الله ببيضاء[5].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٧٠) رقم الحديث (٥٩١٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٧٧) وفي مسلم كتاب الفضائل رقم الحديث (٩٥) وفي النسائي كتاب الزينة (٦٠) ٨/ ١٨٣ وفي سنن أبي داود كتاب الترجل باب (٩) رقم الحديث (٤١٨٣).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل رقم الحديث (٩٢) وفي سنن أبي داود كتاب الترجل باب (٩) رقم الحديث (٤١٨٣) وفي الترمذي كتاب اللباس باب (٤) رقم الحديث (١٧٢٤) وفي النسائي (٦٠) ٨/ ١٨٣.

(٤) أخرجه أبو داود أيضاً في كتاب الترجل باب (١٢) رقم الحديث (٤١٩١).

(٥) انظر جملة الروايات: في البخاري لباس (٦٦) رقم الحديث (٥٨٩٤ ـ ٥٨٩٥) وفي صحيح مسلم فضائل رقم الحديث (١٠١ ـ ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ١٠٤ ـ ١٠٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٩٨ و٢١٦ و٢٢٣ و٢٢٧ و٢٦٢ و٢٦٦ و٤/ ١٩٠ ٥/ ٩٠ و٩٢ و١٠٠ و١٠٣.

قال الشيخ عبد الجليل في شعب الإيمان، فيما حكاه عنه الفاكهاني: إنما كان كذلك لأن النساء يكرهن الشيب غالباً، ومن كره من النبي ﷺ شيئاً كفر. وقال في النهاية: قد تكرر في الحديث جعل الشيب ها هنا عيبا وليس بعيب، فإنه قد جاء في الحديث: أنه وقار وأنه نور، والشيب ممدوح، وذلك عجيب منه لا سيما في حق النبي ﷺ. ويمكن الجمع بينهما: ووجه الجمع أنه ﷺ لما رأى أبا قحافة ورأسه كالثغامة، أمرهم بتغييره وكرهه، ولذلك قال: «غيروا الشيب»[1]، فلما علم أنس ذلك من عادته قال: ما شانه الله ببيضاء بناء على هذا القول وحملاً له على هذا الرأي. ولم يسمع الحديث الآخر، ولعل أحدهما ناسخ للآخر انتهى. وفي رواية أبي جحيفة عنده، رأيت رسول الله ﷺ وهذه منه بيضاء. ووضع الراوي بعض أصابعه على عنفقته. وفي حديث أنس عند البيهقي: ما شانه الله بالشيب، ما كان في رأسه ولحيته إلا سبع عشرة أو ثمان عشرة يعني شعرة بيضاء. وعن أبي جحيفة كان أبيض قد شمط[2]. ورواه البخاري. وفي الصحيحين: أن ابن عمر رأى النبي ﷺ يصبغ بالصفرة[3]. وعن ابن عمر: إنما كان شيبه ﷺ نحواً من عشرين شعرة بيضاء رواه الترمذي. وروي أيضاً عن ابن عباس قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت قال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»[4]. وفي حديث جابر عنده: لم يكن في رأسه ﷺ شيب إلا شعرات في مفرق رأسه إذا ادهن واراهن الدهن. وفي رواية البيهقي: كان أسود اللحية حسن الشعر. واختلف العلماء: هل خضب ﷺ أم لا؟ قال القاضي عياض: منعه الأكثرون وهو مذهب مالك. وقال النووي: المختار أنه صبغ في وقت وترك في معظم الأوقات، فأخبر كل بما رأى وهو صادق، قال: وهذا التأويل كالمتعين، فحديث ابن عمر في الصحيحين ولا يمكن تركه ولا تأويل له[5]. وأما اختلاف الرواية في قدر شيبه فالجمع بينهما أنه رأي

---

(١) أخرجه الترمذي (١٧٥٢) وفي النسائي ٨/ ١٣٧ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ١٦٥ و٢/ ٢٦١ و٣/ ٢٤٧ وفي المستدرك للحاكم ٣/ ٢٤٥ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٣١١ وفي إتحاف السادة المتقين ٢/ ٤٢٠ وفي الدر المنثور للسيوطي ١/ ١١٥ وفي المعجم الصغير للطبراني ١/ ١٧٤ وكنز العمال (١٧٣١٧ ـ ١٧٣٢٩).

(٢) أخرجه البخاري. كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٤٤).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الحج (٢٥) وفي البخاري كتاب الوضوء باب (٣٠) رقم الحديث (١٥١٤ ـ ١٦٦ ـ ١٥٥٢ ـ ١٦٠٩ ـ ٢٨٦٥ ـ ٥٨٥١). وفي سنن أبي داود رقم الحديث (١٧٧٢).

(٤) الحديث في الترمذي برقم (٣٢٩٧) وفي المستدرك للحاكم ٢/ ٣٤٣ وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٣٥٨ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٧/ ٣٧. وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٥٥٠ و١٠/ ٤٦١ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٣٥٤) وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٣١٩ وكنز العمال (٢٥٨٨).

(٥) انظر سنن أبو داود رقم (٤٠٦٤ ـ ٤٢١٠) والنسائي كتاب الزينة (٦٥).

شيباً يسيراً، فمن أثبت شيبه أخبر عن ذلك اليسير ومن نفاه أراد. لم يكثر فيه، كما قال في الرواية الأخرى: لم ير الشيب إلا قليلاً، انتهى.

وعن جابر بن سمرة قال: كان ﷺ قد شمط مقدم رأسه ولحيته، وكان إذا ادهن لم يتبين، فإذا شعث رأسه تبين وكان كثير شعر اللحية. رواه مسلم والنسائي. وعن أنس كان ﷺ يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته. رواه البغوي في شرح السنة. وقد وصفه ﷺ ابن أبي هالة بأنه كان موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط عاري الثديين مما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر. وعن أنس قال: رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه وأطاف به أصحابه فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل(١). رواه مسلم. وسيأتي إن شاء الله تعالى قصة حلق رأسه الشريف في حجة الوداع.

ولم يرو أنه ﷺ حلق رأسه الشريف في غير نسك حج أو عمرة فيما علمته، فتبقية الشعر في الرأس سنة ومنكرها مع علمه يجب تأديبه، ومن لم يستطع التبقية فيباح له إزالته. وقد رأيت بمكة المشرفة في ذي القعدة سنة سبع وتسعين وثمانمائة شعرة عند الشيخ أبي حامد المرشدي، شاع وذاع أنها من شعره ﷺ، زرتها صحبة المقام المقري(٢) خليل العباسي والى الله إحسانه عليه. وعن محمد بن سيرين قال: قلت لعبيدة، عندنا من شعر النبي ﷺ أصبناه من قبل أنس أو من قبل أهل أنس، قال: لأن تكون عندي شعرة منه أحب إلي من الدنيا وما فيها(٣). رواه البخاري. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أنه ﷺ كان يأخذ من لحيته من عرضها وطولها(٤). رواه الترمذي وقال: حديث غريب.

وأخرج الترمذي عن ابن عباس وحسنه قال: كان النبي ﷺ يقص شاربه(٥). وعنده من حديث زيد بن أرقم قال ﷺ «من لم يأخذ من شاربه فليس منا»(٦). وفي الصحيحين:

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل رقم الحديث (٧٥).

(٢) [وقوله: المقري. هكذا في بعض النسخ وفي بعضها القرشي وفي بعضها الغرسي ـ بالغين المعجمة ـ وفي بعضها القدسي.]

(٣) رواه البخاري كتاب الوضوء باب (٣٣) رقم الحديث (١٧٠ ـ ١٧١).

(٤) أخرجه الترمذي. كتاب الأدب باب (١٧) رقم الحديث (٢٧٦٢) وفي أخلاق النبوة (٢٨٢).

(٥) أخرجه الترمذي. كتاب الأدب باب (١٦) رقم الحديث (٢٧٦٠). وفي الدر المنثور ١/ ١١٢. وفي تفسير القرطبي ٢/ ١٠٥ ومصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٣٧٩.

(٦) أخرجه الترمذي. كتاب الأدب باب (١٦) رقم الحديث (٢٧٦١) والنسائي. كتاب الزينة ٨/ ١٢٩. وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٣٦٦ و٣٦٨. وفي المعجم الكبير للطبراني ٥/ ٢٠٨. وفي إتحاف السادة المتقين ٢/ ٤١١ و٤١٣. وفي المعجم الصغير للطبراني ١/ ١٠٠ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٤٣٨). وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٤٣٠ وفي الدر المنثور للسيوطي=

«خالفوا المشركين وفروا اللحى وأحفوا الشوارب»[1]. واختلف في قص الشارب وحلقه أيهما أفضل: ففي الموطأ يؤخذ من الشارب حتى يبدو طرف الشفة، وعن ابن عبد الحكم عن مالك قال: ويحفي الشارب ويعفي اللحية، وليس إحفاء الشارب حلقه، وأرى تأديب من حلق شاربه. وعن أشهب أن حلقه بدعة قال: وأرى أن يوجع ضرباً من فعله. وقال النووي: المختار أنه يقصه حتى يبدو طرف الشفة ولا يحفه من أصله. وقال الطحاوي: لم نجد عن الشافعي شيئاً منصوصاً في هذا، وكان المزني والربيع يحفيان شاربهما. وأما أبو حنيفة وصاحباه فمذهبهم في شعر الرأس والشارب أن الإحفاء أفضل من التقصير. وأما أحمد، فقال الأثرم رأيته يحفي شاربه شديداً. وقد اختلفوا في كيفية قص الشارب، هل يقص طرفاه أيضاً، وهما المسميان بالسبالين أم تترك السبالان كما يفعله كثير من الناس؟

قال الغزالي في الإحياء: لا بأس بترك سباليه وهما طرفا الشارب. فعل ذلك عمر رضي الله عنه وغيره، لأن ذلك لا يستر الفم ولا يبقى فيه غمرة الطعام إذ لا يصل إليه انتهى. وروى أبو داود عن جابر قال: كنا[نعفي] السبال إلا في حج أو عمرة[2]. وكره بعضهم إبقاءه لما فيه من التشبه بالأعاجم بل بالمجوس وأهل الكتاب، وهذا أولى بالصواب لما رواه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر قال: ذكر لرسول الله ﷺ المجوس فقال: «إنهم يوفرون سبالهم ويحلقون لحاهم فخالفوهم»[3]، فكان يجز سباله كما يجز الشاة أو البعير. وروى أحمد في مسنده في أثناء حديث لأبي أمامة. فقلنا يا رسول الله، فإن أهل الكتاب يقصون عثانينهم ويوفرون سبالهم فقال: «قصوا سبالكم ووفروا عثانينكم وخالفوا أهل الكتاب»[4]، والعثانين ـ بالعين المهملة والثاء المثلثة وتكرار النون ـ جمع عثنون وهو اللحية قاله في شرح تقريب الأسانيد. وأما العانة ففي

= ١/ ١١٢. وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ١٠٨ وفي كنز العمال (١٧٢٤٢).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الطهارة رقم الحديث (٥٢). والترمذي كتاب الأدب باب (١٨) رقم الحديث (٢٧٦٣). والبخاري. كتاب اللباس باب (٦٤) رقم الحديث (٥٨٩٢ ـ ٥٨٩٣) وفي النسائي طهارة (١٤) ١/ ١٦ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ١٦ و٥٢ و٢٢٩ و٤٨٩ وفي المعجم الصغير للطبراني ٢/ ١٧٠ وفي ابن ماجه (١٨٢) وفي المسند لأبي عوانة ١/ ١٨٨ وفي كنز العمال (١٧٢١٧).

(٢) رواه أبو داود في كتاب الترجل باب (١٦) رقم الحديث (٤٢٠١).

(٣) ذكره البيهقي في سننه الكبرى ١/ ١٥١ وفي إتحاف السادة المتقين ٢/ ٤٠٩ وفي حلية الأولياء ٤/ ٩٤ وفي فتح الباري ١٠/ ٤٢٦.

(٤) الحديث في المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٢٦٥ وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٧٩ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٣١ وفي المغني للعراقي ١/ ١٤٠ وفي كنز العمال (١٧٢٥٧).

حديث أنس أن النبي ﷺ كان لا يتنور، وكان إذا كثر شعره حلقه[1] ولكن سنده ضعيف. وروى ابن ماجه والبيهقي، ورجاله ثقات، ولكن أعل بالإرسال. وأنكر الإمام أحمد صحته من حديث أم سلمة أن النبي ﷺ كان إذا طلى بدأ بعانته فطلاها بالنورة وسائر جسده أهله[2].

وأما الحديث الذي يروى أن النبي ﷺ دخل حمام الجحفة، فموضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث كما قاله الحافظ ابن كثير، بل ولم تعرف العرب الحمام ببلادهم إلا بعد موته ﷺ. وأخرج البيهقي من مرسل أبي جعفر الباقر قال: كان رسول الله ﷺ يستحب أن يأخذ من أظفاره وشاربه يوم الجمعة[3]. وله شاهد موصول من حديث أبي هريرة ولكن سنده ضعيف أخرجه البيهقي أيضاً في الشعب. وسئل عنه أحمد فقال يسن يوم الجمعة قبل الزوال. وعنه: يوم الخميس، وعنه يتخير. قال الحافظ أبو الفضل بن حجر: وهذا هو المعتمد، أنه يستحب كيفما احتاج إليه، قال: ولم يثبت في استحباب قص الظفر يوم الخميس حديث، وكذا لم يثبت في كيفيته شيء، ولا في تعيين يوم له عن النبي ﷺ. وما يعزى من النظم في ذلك لعلي رضي الله عنه ثم لشيخ الإسلام ابن حجر قال شيخنا: إنه باطل. والمراد: إزالة ما يزيد على ما يلامس رأس الأصبع من الظفر، لأن الوسخ يجتمع فيه فيستقذر، وقد يتنهي إلى حد يمنع من وصول الماء إلى ما يجب غسله في الطهارة. وقد حكى أصحاب الشافعي فيه وجهين: فقطع المتولي بأن الوضوء حينئذٍ لا يصح، وقطع الغزالي في الإحياء بأنه يعفى عن مثل ذلك.

وأخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة: كان النبي ﷺ لا يفارق سواكه ومشطه وكان ينظر في المرآة إذا سرح لحيته[4]. وعن ابن عباس أن النبي ﷺ كانت له مكحلة يكتحل منها كل ليلة ثلاثة في هذه وثلاثة في هذه[5]. رواه ابن ماجه والترمذي وأحمد ولفظه: كان يكتحل بالإثمد كل ليلة قبل أن ينام، وكان يكتحل في كل عين ثلاثة أميال.

---

(١) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ١/ ١٥٢ وفي الحاوي للفتاوي للسيوطي ١/ ٥٢٥ و٥٢٩ وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ١١٣ وفي فتح الباري ١٠/ ٤٢٢ وفي الدر المنثور للسيوطي ١/ ١١٤. وفي تفسير القرطبي ٢/ ١٠١ وفي أخلاق النبوة (٥٧) وفي تاريخ أصبهان ١/ ٣٢١.

(٢) أخرجه ابن ماجه. كتاب الأدب.. باب (٣٩) رقم الحديث (٣٧٥١ ـ ٣٧٥٢). وفي الحاوي للفتاوي للسيوطي ١/ ٥٢٤ و٥٢٥ وفي كنز العمال (١٨٣١٤).

(٣) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٢/ ٤٠٩ وفي أخلاق النبوة ٢٥٧.

(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٢ وفي فتح الباري ١٠/ ٤٤٩.

(٥) أخرجه الترمذي (١٧٥٧ ـ ٢٠٤٨) وابن ماجه في كتاب الطب باب (٢٦) رقم الحديث ٣٤٩٩ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٥٤ وفي أخلاق النبوة (١٧٠).

وروى النسائي والبخاري في تاريخه عن محمد بن علي قال سألت عائشة: أكان النبي ﷺ يتطيب؟ قالت: نعم، بذكارة الطيب، المسك والعنبر[1].

وأما مشيه ﷺ[2] فعن علي قال: كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفأ تكفياً، كأنما ينحط من صبب[3]، رواه الترمذي وصححه البيهقي. والتكفؤ: الميل إلى سنن المشي. وعند البزار من حديث أبي هريرة: إذا وطىء بقدمه وطىء بكلها. وعند الترمذي في الشمائل من حديثه: وما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ: كأنما الأرض تطوى له، إنا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث[4]. وعن يزيد بن مرثد قال: كان رسول الله ﷺ إذا مشى أسرع، حتى يهرول الرجل وراءه فلا يدركه: رواه ابن سعد. ويروى أنه كان إذا مشى مشى مجتمعاً أي قوي الأعضاء غير مسترخ في المشي. وقال علي رضي الله عنه كان إذا مشى تقلع[5].

وقال ابن أبي هالة: إذا زال زال تقلعاً، يخطو تكفياً، ويمشي هونا، ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وفي رواية إذا زال زال قلعاً ـ بالفتح والضم، فبالفتح هو مصدر بمعنى الفاعل أي لا يزول قالعاً لرجله من الأرض، وهو بالضم إما مصدر أو اسم وهو بمعنى الفتح ـ.

وقال الهروي: «قرأت هذا الحرف في كتاب غريب الحديث لابن الأنباري: قلعاً: بفتح القاف وكسر اللام، وكذلك قرأته بخط الأزهري، وهو كما جاء في حديث آخر كأنما ينحط من صبب، والانحدار من الصبب والتقلع من الأرض قريب بعضه من بعض. أراد: أنه كان يستعمل التثبت ولا يتبين منه في هذه الحال استعجال ومبادرة شديدة». وذريع المشية: أي واسع الخطوة قاله ابن الأثير.

وقال ابن القيم: التقلع الارتفاع من الأرض بجملته، كحال المنحط من الصبب، وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء، فكثير من الناس يمشي قطعة واحدة كأنه خشبة محمولة، فهي مذمومة، وإما أن يمشي بانزعاج مشي الجمل الأهوج وهي مشية مذمومة، وهي علامة خفة عقل صاحبها ولا سيما إن

---

(١) رواه النسائي. كتاب الزينة (٣١) ٨/ ١٥١.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٨٦.

(٣) الحديث في المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢٧٠ وفي المستدرك للحاكم ٢/ ٦٠٦.

(٤) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٧.

(٥) ذكره الترمذي في الشمائل (٦٠) وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٥٢ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٧٢ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل نحوه ٢/ ٣٢٤.

أكثر الالتفات حال مشيه يميناً وشمالاً. وفي بعض المسانيد: أن المشاة شكوا إلى رسول الله ﷺ من المشي في حجة الوداع فقال: «استعينوا بالنسلان:» وهو العدو الخفيف الذي لا يزعج الماشي.

وأما مشيه ﷺ مع أصحابه، فكانوا يمشون بين يديه وهو خلفهم، ويقول: «خلوا ظهري للملائكة»[1]، وهو معنى قول القائل: وكان يسوق أصحابه ويماشيهم فرادى وجماعة. ومشى ﷺ في بعض غزواته مرة فجرحت أصبعه وسال منها الدم فقال: «هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت»[2]. رواه أبو داود. ولم يكن له ﷺ ظل في شمس ولا قمر رواه الترمذي الحكيم عن ذكوان. وقال ابن سبع كان ﷺ نوراً. فكان إذا مشى في الشمس أو القمر لا يظهر له ظل. قال غيره: ويشهد له قوله ﷺ في دعائه: «واجعلني نوراً»

وأما لونه[3] الشريف الأزهر ﷺ فقد وصفه -عليه السلام- جمهور أصحابه بالبياض، منهم: أبو بكر وعمر وعلي وأبو جحيفة وابن عمر وابن عباس وابن أبي هالة والحسن بن علي وأبو الطفيل ومحرش الكعبي وابن مسعود والبراء وأنس في إحدى الروايتين عنه.

فأما أبو جحيفة فقال: كان أبيض. رواه البخاري. وأما أبو الطفيل فقال: كان أبيض مليحاً. رواه الترمذي في الشمائل، وفي رواية مسلم: أبيض مليح الوجه. وفي رواية عنه للطبراني: ما أنسى شدة بياض وجهه مع شدة سواد شعره. وفي شعر أبي طالب:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وقال علي: أبيض مشرب. والمشرب: هو الذي في بياضه حمرة، كما في الرواية الأخرى: أبيض مشرب بحمرة، وبهذا فسر قول أنس في صحيح مسلم: أزهر اللون. وفي النسائي من حديث أبي هريرة: بينا النبي ﷺ جالس بين أصحابه جاء رجل فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقالوا: هذه الأمغر المرتفق. والأمغر: المشرب بحمرة.

---

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٩٨ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٣/ ١٠.

(٢) الحديث في البخاري كتاب الأدب باب (٩٠) رقم الحديث (٦١٤٦) وفي مسلم الجهاد رقم الحديث (١١٢) وفي الترمذي رقم (٣٣٤٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٣١٢ وفي المعجم الكبير للطبراني ٢/ ١٨٥ وفي مسند الحميدي (٧٧٦) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٤٤ وفي الشمائل للترمذي (١٢٤) وفي التمهيد لابن عبد البر ٦/ ٤٨٩ وفي الدر المنثور ٦/ ٣٦٠ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٤/ ٢٩٩.

(٣) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٥ ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٠١.

المرتفق: المتكىء على مرفقه. وفي البخاري من حديث أنس: ليس بأبيض أمهق. قال الحافظ ابن حجر: ووقع عند الداودي تبعاً لرواية المروزي: أمهق ليس بأبيض، وفي رواية عند أبي حاتم وغيره أسمر. واستشكله بعضهم وقال: إن غالب هذه الروايات متدافع، وبعضها ممكن الجمع كالأبيض مع رواية مشرب بالحمرة والأزهر، وبعضها غير ممكن الجمع كالأبيض الشديد الوضح مع الأسمر. واعترض الداودي رواية أمهق ليس بأبيض. وهي التي وقعت عنده تبعاً لرواية المروزي. وقال القاضي عياض: إنها وهم، وقال: وكذلك رواية من روى أنه ليس بالأبيض ولا الآدم، ليس بصواب. قال الحافظ ابن حجر: هذا ليس بجيد لأن المراد أنه ليس بالأبيض الشديد البياض ولا بالآدم الشديد الأدمة، وإنما يخالط بياضه الحمرة، والعرب قد تطلق على كل من كان كذلك أسمر، ولهذا جاء في حديث أنس عند أحمد والبزار وابن منده بإسناد صحيح أن النبي ﷺ كان أسمر، وأخرجه البيهقي في الدلائل من وجه آخر عن أنس، فذكر الصفة النبوية فقال: كان ﷺ أبيض بياضه إلى السمرة. وفي حديث ابن عباس في صفته ﷺ: رجل بين رجلين جسمه ولحمه، أحمر إلى البياض، أخرجه أحمد. وقد تبين من مجموع الروايات: أن المراد بالسمرة؛ الحمرة التي تخالط البياض، وأن المراد بالبياض المثبت ما تخالطه الحمرة، والمنفي ما لا تخالطه، وهو الذي تكره العرب لونه وتسميه أمهق، وبهذا تبين أن رواية المروزي أمهق ليس بأبيض مقلوبة، على أنه يمكن توجيهها بأن المراد بالأمهق الأخضر اللون الذي ليس بياضه في الغاية، ولا سمرته ولا حمرته، فقد نقل عن رؤبة: أن المهق خضرة الماء، فهذا التوجيه يتم على تقدير ثبوت الرواية، وقد تقدم في حديث أبي جحيفة إطلاق كونه كان أبيض، وكذا في حديث أبي الطفيل عند مسلم والترمذي.

وفي حديث سراقة عند ابن إسحاق فجعلت أنظر إلى ساقه كأنها جمارة، ولأحمد من حديث محرش الكعبي في عمرة الجعرانة قال: فنظرت إلى ظهره كأنه سبيكة فضة. وعن سعيد بن المسيب أنه سمع أبا هريرة يصفه ﷺ فقال: كان شديد البياض أخرجه يعقوب بن سفيان والبزار بإسناد قوي. ويجمع بينهما بما تقدم. وقال البيهقي: يقال: إن المشرب منه بحمرة وإلى السمرة منه ما ضحى للشمس والريح أي كالوجه والعنق وأما ما تحت الثياب فهو الأزهر الأبيض انتهى. وهذا ذكره ابن أبي خيثمة عقب حديث عائشة في صفته ﷺ بأبسط من هذا وزاد: ولونه الذي لا يشك فيه الأبيض الأزهر. انتهى والله أعلم.

وقد ضعف بعضهم قول من قال: إنما وصف بالسمرة ما كانت الشمس تصيب منه، بأن أنساً لا يخفى عليه أمره حتى يصفه بغير صفته اللازمة له لقربه منه، ولم يكن ﷺ

ملازماً للشمس، نعم لو وصفه بذلك بعض القادمين ممن صادفه في وقت غيرته الشمس لأمكن، فالأولى حمل السمرة في رواية أنس على الحمرة التي تخالط البياض كما قدمناه.

تنبيه: في الشفاء حكاية عن أحمد بن سليمان صاحب سحنون: من قال إن النبي ﷺ أسود يقتل. انتهى. وهذا يقتضي أن مجرد الكذب عليه في صفة من صفاته كفر يوجب القتل. وليس كذلك، بل لا بد من ضميمة ما يشعر بنقص في ذلك. كما في مسألتنا هذه فإن الأسود لون مفضول.

وأما طيب ريحه ﷺ وعرقه وفضلاته(1)، فقد كانت الرائحة الطيبة صفته ﷺ وإن لم يمس طيباً. وروينا عن أنس قال: ما شممت ريحاً قط ولا مسكاً ولا عنبراً أطيب من ريح رسول الله ﷺ. لحديث رواه الإمام أحمد. وفي البخاري: ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة النبي ﷺ. وفي رواية الترمذي: ولا شممت مسكاً قط ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ. وقوله: شممت: بكسر الميم الأولى وسكون الثانية. وعن أم عاصم امرأة عتبة بن فرقد السلمي قالت: كنا عند عتبة أربع نسوة، فما منا امرأة إلا وهي تجتهد في الطيب لتكون أطيب ريحاً منا، وكان إذا خرج إلى الناس قالوا: ما شممنا ريحاً أطيب من ريح عتبة، فقلت له يوماً: إنا لنجتهد في الطيب، ولأنت أطيب ريحاً منا فمم ذلك؟ فقال: أخذني الشرى على عهد رسول الله ﷺ فأتيته فشكوت ذلك إليه، فأمرني أن أتجرد، فتجردت وقعدت بين يديه، وألقيت ثوبي على فرجي، فنفث في يده ثم مسح ظهري وبطني بيده، فعبق بي هذا الطيب من يومئذٍ. رواه الطبراني في معجمه الصغير.

وروى أبو يعلى والطبراني قصة الذي استعان به ﷺ على تجهيز ابنته، فلم يكن عنده شيء، فاستدعاه بقارورة فسلت له فيها من عرقه، وقال: «مرها فلتطيب به»، فكانت إذا تطيبت به شم أهل المدينة ذلك الطيب فسموا بيت المطيبين. وقال جابر بن عبدالله: كان في رسول الله ﷺ خصال: لم يكن في طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيب عرقه وعرفه(2)، ولم يكن يمر بحجر إلا سجد له. رواه الدارمي والبيهقي وأبو نعيم. ولله در القائل:

---

(1) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٦١ ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٥٤ والبداية والنهاية ٦/ ٢٥.

(2) ذكره البخاري في التاريخ الكبير ٣/ ١٥٤ وانظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٦٣ ومناهل الصفا صفحة ٤١ رقم الحديث (٦٦) وفي الدارمي ١/ ٣٢ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٨٢ وفي كشف الأستار ٣/ ١٦١ وفي مسند أبي يعلى ٥/ ٤٣٣.

فلو أن ركباً يمموك لقادهم　　　نسيمك حتى يستدل به الركب

وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر في طريق من طرق المدينة وجدوا منه رائحة الطيب وقالوا: مر رسول الله ﷺ من هذا الطريق. رواه أبو يعلى والبزار بإسناد صحيح. وما أحسن قول القائل:

يروح على غير الطريق التي غدا　　　عليها فلا ينهى علاه نهاته
تنفسه في الوقت أنفاس عطره　　　فمن طيبه طابت له طرقاته
تروح له الأرواح حيث تنسمت　　　لها سحراً من حيه نسماته

وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأنورهم لوناً، لم يصفه واصف قط إلا شبه وجهه بالقمر ليلة البدر. وكان عرقه في وجهه مثل اللؤلؤ، أطيب من المسك الإذفر. رواه أبو نعيم. وعن أنس قال: دخل علينا رسول الله ﷺ فقال عندنا، فعرق وجاءت أمي بقارورة فجعلت تسلت العرق فيها، فاستيقظ ﷺ فقال «يا أم سليم ما هذا الذي تصنعين؟» قالت: هذا عرقك نجعله لطيبنا، وهو أطيب الطيب. رواه مسلم.

وفي رواية له: كان ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها وليست فيه. قال فجاء ذات يوم فنام على فراشها فأتيت فقيل لها هذا النبي نائم في بيتك على فراشك قال: فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش، ففتحت عتيدتها فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها، ففزع ﷺ فقال: «ما تصنعين يا أم سليم» فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا، قال: «أصبت» والعتيدة: كالصندوق الصغير الذي تترك فيه المرأة ما يعز عليها من متاعها.

وأما ما روي أن الورد خلق من عرقه ﷺ أو من عرق البراق فقال شيخنا في الأحاديث المشتهرة: قال النووي: لا يصح. وقال شيخ الإسلام ابن حجر: إنه موضوع، وسبقه لذلك ابن عساكر، وهو في مسند الفردوس بلفظ: «الورد الأبيض خلق من عرقي ليلة المعراج، والورد الأحمر خلق من عرق جبريل، والورد الأصفر خلق من عرق البراق»(1). رواه من طريق مكي بن بندار الزنجاني. حدثنا الحسن بن علي بن عبد الواحد القرشي، حدثنا هشام بن عمار عن الزهري عن أنس به مرفوعاً ثم قال: قال أبو مسعود حدث به أبو عبد الله الحاكم عن رجل عن مكي. ومكي تفرد به انتهى. ورواه أبو الحسين

---

(1) ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة ٢/ ٢٧٠ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٣٠٢ و٢/ ٣٥٢ و٤٦٥ وفي اللآلىء المصنوعة للسيوطي ٢/ ١٤٨ والأسرار المرفوعة لعلي القاري ١٣٥ ـ ٣٧٧ والموضوعات لابن الجوزي ٣/ ٦٢.

ابن فارس[1] اللغوي في «الريحان والراح» له عن مكي به. ومكي ممن اتهمه الدارقطني بالوضع، وله طريق أخرى رواه أبو الفرج النهرواني في الخامس والتسعين من «الجليس الصالح» له من طريق محمد بن عنبسة بـن حماد، حدثنا أبي عن جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار عن أنس رفعه: «لما عرج بي إلى السماء بكت الأرض من بعدي فنبت اللصف من نباتها، فلما أن رجعت قطر من عرقي على الأرض فنبت ورد أحمر، ألا من أراد أن يشم رائحتي فليشم الورد الأحمر». ثم قال أبو الفرج: اللصف: الكبر، وقال: وما أتى به هذا الخبر فهو اليسير من كثير مما أكرم الله به نبيه ودل على فضله ورفيع منزلته. انتهى. وإنما ذكرته ليعلم [أنه موضوع][2].

وعن جابر بن سمرة أنه ﷺ مسح خده، وقال: فوجدت ليده برداً وريحاً كأنما أخرجها من جؤنة عطار. قال غيره: مسها بطيب أو لم يمسها يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان ريحها. وجؤنة العطار: بضم الجيم وهمزة بعدها، ويجوز تخفيفها واواً: سلسلة مستديرة مغشاة أدماً.

وقد ورد مما عزاه القاضي عياض للأخباريين ومن ألف في الشمائل الكريمة أنه ﷺ كان إذا أراد أن يتغوط انشقت الأرض وابتلعت بوله وغائطه وفاحت لذلك رائحة طيبة. قال غيره: ولم يطلع على ما يخرج منه بشر قط. وأسند محمد بن سعد كاتب الواقدي ـ كما هو في بعض نسخ الشفاء، وقالوا إنه ليس من الرواية ولا من حواشي أصل ابن جبير بل من حواشي غيره ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ: إنك تأتي الخلا فلا نرى منك شيئاً من الأذى فقال «يا عائشة أو ما علمت أن الأرض تبتلع ما يخرج من الأنبياء فلا يرى منه شيء»[3] انتهى.

وفي الشفاء لابن سبع عن بعض الصحابة قال: صحبته ﷺ في سفر فلما أراد قضاء الحاجة تأملته وقد دخل مكاناً فقضى حاجته، فدخلت الموضع الذي خرج منه فلم ير له أثر غائط ولا بول، ورأيت في ذلك الموضع ثلاثة أحجار فأخذتهن فوجدت لهن رائحة طيبة وعطراً. قلت: وقد سئل الحافظ عبد الغني المقدسي: هل روي أنه ﷺ كان ما يخرج منه تبتلعه الأرض؟ فقال: قد روي ذلك من وجه غريب، والظاهر يؤيده، فإنه لم يذكر عن أحد من الصحابة أنه رآه ولا ذكره، وأما البول فقد شاهده غير واحد. وشربته أم أيمن

---

(١) هو أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي أبو الحسين (٣٢٩ ـ ٣٩٥ هـ). من أئمة اللغة والأدب توفي في الري. الأعلام ١/١٩٣ وفيات الأعيان ١/ ٣٥ ويتيمة الدهر ٣/ ٤٦٣ رقم الترجمة (٣٤).

(٢) ليس في الأصل: ولكن يتطلبه السياق.

(٣) انظر الشفا ١/ ٦٣.

والله أعلم انتهى. لكن قال البيهقي: وأما الحديث الذي أخبرنا به أبو الحسين بن بشر أنبأنا إسماعيل بن محمد الصفار حدثنا زيد بن إسماعيل الصائغ حدثنا حسين بن علوان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ إذا دخل الغائط دخلت في أثره فلا أرى شيئاً إلا أني كنت أشم رائحة الطيب، فذكرت ذلك له فقال: «يا عائشة أما علمت أن أجسادنا تنبت على أرواح أهل الجنة وما خرج منها ابتلعته الأرض» فهذا من موضوعات الحسين بن علوان، لا ينبغي ذكره إلا لبيان أنه موضوع ففي الأحاديث الصحيحة المشهورة في معجزاته كفاية عن كذب ابن علوان انتهى.

لكن للحديث طرق غير طريق ابن علوان: فعند الدارقطني في الأفراد: حدثنا محمد ابن سليمان الباهلي حدثنا محمد بن حسان الأموي، أنبأنا عبدة بن سليمان عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: يا رسول الله، إني أراك تدخل الخلاء ثم يأتي الذي بعدك فلا يرى لما يخرج منك أثراً، فقال« يا عائشة أما علمت أن الله أمر الأرض أن تبتلع ما يخرج من الأنبياء»، ومحمد بن حسان بغدادي ثقة، وعبدة من رجال الصحيح. وله طريق أخرى عند ابن سعد، وأخرى عند الحاكم في مستدركه. وروي أنه كان يتبرك ببوله ودمه ﷺ. فروى ابن حبان في «الضعفاء» عن ابن عباس قال: حجم النبي ﷺ غلام لبعض قريش، فلما فرغ من حجامته أخذ الدم فذهب به من وراء الحائط، فنظر يميناً وشمالاً فلم ير أحداً، فحسا دمه حتى فرغ ثم أقبل فنظر في وجهه فقال: «ويحك ما صنعت بالدم» قلت غيبته من وراء الحائط، قال أين غيبته؟ قلت: يا رسول الله نفست على دمك أن أهريقه في الأرض فهو في بطني فقال:«اذهب فقد أحرزت نفسك من النار»(١).

وفي سنن سعيد بن منصور من طريق عمرو بن السائب أنه بلغه أن مالكاً والد أبي سعيد الخدري لما جرح النبي ﷺ مص جرحه حتى أنقاه ولاح أبيض فقيل: مجه، فقال: لا والله لا أمجه أبداً، ثم ازدرده فقال النبي ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»(٢) فاستشهد.

وأخرج البزار والطبراني والحاكم والبيهقي وأبو نعيم في الحلية، من حديث عامر ابن عبدالله بن الزبير عن أبيه قال: احتجم رسول الله ﷺ فأعطاني الدم فقال: «اذهب فغيبه» فذهب فشربته فأتيته ﷺ فقال: «ما صنعت» قلت: غيبته، قال: «العلك شربته»

---

(١) ذكره ابن حجر في التلخيص ١/ ٣٠ وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ١/ ١٨١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٥/ ١٨٦.

(٢) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٨٣ وفي دلائل النبوة أيضاً ٣/ ٢٦٦ وفي تفسير ابن كثير ٢/ ١٢٣.

قلت: شربته، وفي رواية قلت: جعلته في أخفى مكان ظننت أنه خاف عن الناس، قال «لعلك شربته؟» قلت: شربته، فقال: «ويل لك من الناس وويل للناس منك». وفي رواية فقال رسول الله ﷺ «فما حملك على ذلك» قال: علمت أن دمك لا تصيبه نار جهنم فشربته لذلك، فقال: «ويل لك من الناس»[1].

وعند الدارقطني من حديث أسماء بنت أبي بكر نحوه، وفيه: ولا تمسك النار، وفي كتاب الجوهر المكنون في ذكر القبائل والبطون: أنه لما شرب ـ أي عبدالله ابن الزبير ـ دمه تضوع فمه مسكاً، وبقيت رائحته موجودة في فمه إلى أن صلب رضي الله عنه. وأخرج الحسن بن سفيان في مسنده والحاكم والدارقطني والطبراني وأبو نعيم من حديث أبي مالك النخعي عن الأسود بن قيس عن نبيح عن أم أيمن قالت: قام رسول الله ﷺ من الليل إلى فخارة في جانب البيت فبال فيها، فقمت من الليل وأنا عطشانة فشربت ما فيها وأنا لا أشعر، فلما أصبح النبي ﷺ قال: «يا أم أيمن قومي فأهريقي ما في تلك الفخارة»، فقلت: قد والله شربت ما فيها قالت: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: «أما والله لا ييجعن بطنك أبداً».

وعن ابن جريج قال: أخبرت أن النبي ﷺ كان يبول في قدح من عيدان ثم يوضع تحت سريره فجاء فإذا القدح ليس فيه شيء فقال لامرأة يقال لها بركة كانت تخدم أم حبيبة جاءت معها من أرض الحبشة «أين البول الذي في القدح» قالت: شربته قال: «صحة يا أم يوسف» فما مرضت قط حتى كان مرضها الذي ماتت فيه. ورواه أبو داود عن ابن جريج عن حكيمة عن أمها أميمة بنت رقيقة.

وصحح ابن دحية أنهما قصتان وقعتا لامرأتين وقد وضح أن بركة أم يوسف غير بركة أم أيمن، وهو الذي ذهب إليه شيخ الإسلام البلقيني.

وفي هذه الأحاديث دلالة على طهارة بوله ودمه ﷺ. قال النووي في شرح المهذب: واستدل من قال بطهارتهما بالحديثين المعروفين: أن أبا طيبة الحجام حجمه ﷺ وشرب دمه ولم ينكر عليه، وأن امرأة شربت بوله ﷺ فلم ينكر عليها. وحديث أبي طيبة ضعيف، وحديث شرب البول صحيح رواه الدارقطني وقال: هو حديث حسن صحيح، وذلك كاف في الاحتجاج لكل الفضلات قياساً، ثم إن القاضي حسيناً قال: الأصح القطع بطهارة الجميع انتهى. وبهذا قال أبو حنيفة، كما قاله العيني. وأبو طيبة؛ بفتح الطاء المهملة وسكون الياء المثناة تحت وبالموحدة، نافع الحجام مولى محيصة ـ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٥٥٤ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٧٠ وفي كنز العمال (٣٧٢٢٦).

بضم الميم وفتح المهملة وتشديد المثناة تحت وكسرها ـ هو أبو مسعود الأنصاري.

وقال شيخ الإسلام ابن حجر قد تكاثرت الأدلة على طهارة فضلاته ﷺ وعدَّ الأئمة ذلك في خصائصه. انتهى. قال بعضهم: وكأن السر في ذلك ما روي من صنيع الملكين حين غسلا جوفه والله أعلم.

وأما سيرته ﷺ في البراز، ففي حديث عائشة عند أبي عوانة في صحيحه والحاكم: ما بال رسول الله ﷺ قائماً منذ أنزل عليه القرآن. وفي حديث عبد الرحمن بن حسنة عند النسائي وابن ماجه: أنه بال جالساً، فقالوا: انظروا إليه يبول كما تبول المرأة.[1]. وحكى ابن ماجه عن بعض مشايخه أنه قال: كان من شأن العرب البول قائماً، ويؤيده ما في حديث عبد الرحمن هذا. وفيه دلالة على أنه كان يخالفهم في ذلك فيقعد لكونه أستر وأبعد عن مماسة البول. وقال حذيفة: أتى رسول الله ﷺ سباطة قوم فبال قائماً ثم دعا بماء فجئته بماء فتوضأ[2]. رواه البخاري. وفي رواية غيره: بال قائماً ففجع رجليه، أي: فرقهما وباعد ما بينهما.

والسباطة: ـ بضم المهملة وبعدها موحدة ـ هي المزبلة والكناسة تكون بفناء الدور مرفقا لأهلها، وتكون في الغالب سهلة لا يرتد فيها البول على البائل، وإضافتها إلى القوم إضافة اختصاص لا ملك لأنها لا تخلو عن النجاسة. وبهذا يندفع إيراد من استشكله لكون البول يوهي الجدار ففيه إضرار، أو نقول: إنما بال فوق السباطة لا في أصل الجدار، وهو صريح في رواية أبي عوانة في صحيحه. وقيل: يحتمل أن يكون علم إذنهم في ذلك بالتصريح أو غيره أو لكونه مما يتسامح الناس به، أو لعلمه بإيثارهم إياه بذلك، أو لكونه يجوز له التصرف في مال أمته دون غيره لأنه أولى بالمؤمنين عن أنفسهم وأموالهم، وهذا وإن كان صحيح المعنى لكن لم يعهد ذلك من سيرته ومكارم أخلاقه صلى الله عليه وسلم. قال الحافظ ابن حجر: وأما مخالفته ﷺ لما عرف من عادته من الإبعاد عند قضاء الحاجة عن الطرق المسلوكة وعن أعين النظار، فقد قيل فيه إنه ﷺ كان

---

(١) الحديث في ابن ماجه كتاب الطهارة باب (١٤ ـ ٢٦) رقم الحديث (٣٠٩ ـ ٣٤٦) وفي النسائي كتاب الطهارة (٢٥) ١/ ٢٧ وفي سنن أبي داود باب (١١) رقم الحديث (٢٢). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٩٦.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الطهارة باب (٦٠) رقم الحديث (٢٢٤ ـ ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ـ ٢٤٧١). وفي صحيح مسلم كتاب الطهارة رقم الحديث (٧٣ ـ ٧٤ ـ ١٨٧). وفي سنن أبي داود. كتاب الطهارة باب (١٢) رقم الحديث (٢٣). وفي الترمذي. كتاب الطهارة باب (٩) رقم الحديث (١٣) وفي ابن ماجه كتاب الطهارة باب (١٣) رقم الحديث (٣٠٥ ـ ٣٠٦). والنسائي. كتاب الطهارة (١٦) ١/ ١٩. وفي سنن الدارمي. كتاب الوضوء رقم (٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٨٤ و٤/ ٢٤٦ و٥/ ٣٨٢.

مشغولاً بمصالح المسلمين، ولعله طال عليه المجلس حتى احتاج إلى البول فلو أبعد لتضرر، واستدنى حذيفة ليستره من خلفه عن رؤية من لعله يراه،أو لعله فعله لبيان الجواز. ثم هو في البول أخف من الغائط لاحتياجه إلى زيادة تكشف، والغرض من الإبعاد التستر وهو يحصل بإرخاء الذيل والدنو من الساتر.[1].

وروى الطبراني من حديث عصمة بن مالك قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في بعض سكك المدينة فانتهى إلى سباطة قوم فقال: يا حذيفة استرني فذكر الحديث. وظهر منه الحكمة في إدنائه حذيفة في تلك الحالة.

وقيل: إنما بال قائماً لأنها حالة يؤمن معها خروج الريح بصوت، ففعل ذلك لكونه قريباً من الديار، ويؤيده ما رواه عبد الرزاق عن عمر رضي الله عنه قال: البول قائماً أحصن للدبر.

وقيل السبب في ذلك ما روي عن الشافعي وأحمد: أن العرب كانت تستشفي لوجع الصلب بذلك فلعله كان به. وروى الحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة قال: إنما بال ﷺ قائماً لجرح كان بمأبضه.

والمأبض: بهمزة ساكنة بعدها موحدة ثم معجمة: باطن الركبة.

فكأنه لم يتمكن لأجله من القعود، ولو صح هذا الحديث لكان فيه غنى عن جميع ما تقدم ولكن ضعفه الدارقطني والبيهقي. والأظهر: أنه فعل ذلك لبيان الجواز، وكان أكثر أحواله البول من قعود.

وقيل إن البول عن قيام منسوخ واستدل عليه بحديث عائشة المتقدم. والصواب: أنه غير منسوخ، والجواب عن حديث عائشة أنه مستند إلى علمها فيحمل على ما وقع منه في البيوت، وأما غير البيوت فلم تطلع عليه، وقد حفظه حذيفة، وهو من كبار الصحابة، وهو جائز من غير كراهة إذا أمن الرشاش.

وكان ﷺ إذا أراد أن يدخل الخلاء قال: «اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث»[2]. رواه البخاري من حديث أنس. والخبث: ـ بضم المعجمة والموحدة ـ

---

(١) انظر فتح الباري ١/٤٣٧.

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الوضوء باب (٩) رقم الحديث (١٤٢ ـ ٦٣٢٢). وابن ماجه رقم الحديث (٢٩٦) وفي صحيح مسلم رقم الحديث (٢٨٣) وفي الترمذي رقم الحديث (٥ ـ ٦). وفي سنن أبي داود رقم الحديث (٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/٩٩ و٤/٣٦٩ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/٩٥. وفي سنن الدارمي ١/١٧١. وفي إتحاف السادة المتقين ٢/٣٣٩. وفي تفسير القرطبي=

ومراده: ذكران الشياطين وإناثهم. وقد كان ﷺ يستعيذ إظهاراً للعبودية، ويجهر بذلك للتعليم. وهل يختص هذا الذكر بالأبنية المعدة لذلك لكونه حضرة الشياطين، أو يعم؟ الأصح الثاني. ويقول ذلك قبيل الدخول في الأمكنة، وأما في غيرها فيقول في أول الشروع كتشمير ثيابه مثلاً، وهذا مذهب الجمهور، فلو نسي يستعيذ بقلبه لا بلسانه.

وعن أنس: كان ﷺ إذا أراد الحاجة لم يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض(١). رواه الترمذي وأبو داود والدارمي. وعن عائشة قالت: كان ﷺ إذا خرج من الخلاء قال: «غفرانك»،(٢) رواه الترمذي وابن ماجه. وعن أنس: كان ﷺ إذا خرج من الخلاء قال: «الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني»(٣). رواه ابن ماجه. وقالﷺ: «إذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يولها ظهره، شرقوا أو غربوا»(٤)، رواه البخاري من حديث أبي أيوب الأنصاري. وهذا في الصحراء، أما في البنيان فلا، لما روي عن ابن عمر: ارتقيت فوق بيت حفصة لبعض حاجتي، فرأيت رسول الله ﷺ يقضي حاجته مستدبر القبلة مستقبل الشام(٥). رواه الشيخان.

وأما حديث جابر: عند أبي داود وابن خزيمة، ولفظه عند أحمد: كان رسول الله

= ١٤/ ٣٩. وفي شرح السنة للبغوي ١/ ٣٧٦. وفي مسند أبي عوانة ١/ ٣١٦ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١/١ وفي كنز العمال (١٧٨٧٣).

(١) أخرجه الترمذي كتاب الطهارة باب (١٠) رقم الحديث (١٤) وفي سنن أبي داود. كتاب الطهارة باب (٦) رقم الحديث (١٤) وفي سنن الدارمي. كتاب الوضوء رقم الحديث (٧). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ٢٠٦. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٤٦) وفي شرح السنة للبغوي ١/ ٣٧٤. وفي كنز العمال (١٧٨٦٧).

(٢) أخرجه أبو داود. كتاب الطهارة باب (١٧) رقم الحديث (٣٠) والترمذي رقم الحديث (٧) وفي سنن ابن ماجه رقم الحديث (٣٠٠). وفي التاريخ الكبير للبخاري ٨/ ٣٨٦. وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٩٧ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١/ ٢ وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ١/ ٣٣٠. وفي كنز العمال (١٧٨٦٩ ـ ١٧٨٧١ ـ ٣٧٢١١).

(٣) أخرجه ابن ماجه. كتاب الطهارة باب (١٠) رقم الحديث (٣٠١). وفي عمل اليوم والليلة لابن سني (٢١) وفي كنز العمال (١٧٨٧٠).

(٤) أخرجه البخاري. كتاب الوضوء باب (١١) رقم الحديث (١٤٤ ـ ٣٩٤) وفي سنن أبي داود رقم الحديث (٨) والنسائي كتاب الطهارة ١/ ٢٣ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٤١٦. وفي المعجم الكبير للطبراني ٤/ ١٧٩. وفي تفسير ابن كثير (٣٨٢١٦) وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (٧٥) وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣/ ٣٧٨.

(٥) أخرجه البخاري كتاب الوضوء باب (١٤) رقم الحديث (١٤٨) وفي صحيح مسلم كتاب الطهارة رقم الحديث (٦٢). وفي الترمذي كتاب الطهارة باب (٧) رقم الحديث (١١). وفي مسند الإمام أحمد ابن حنبل ٢/ ١٢ و١٣.

ﷺ ينهانا أن نستدبر القبلة أو نستقبلها بفروجنا إذا أهرقنا الماء[1]. قال: ثم رأيته قبل موته بعام مستقبل القبلة. فقال في فتح الباري: الحق أنه ليس بناسخ لحديث النهي خلافاً لمن زعمه، بل هو محمول على أنه رآه في بناء أو نحوه، لأن ذلك هو المعهود من حاله ﷺ لمبالغته في التستر. ودعوى خصوصية ذلك بالنبي ﷺ لا دليل عليها، إذا الخصائص لا تثبت بالاحتمال.

ومذهب الجمهور وهو مذهب مالك والشافعي وإسحاق: التفريق بين البنيان والصحراء، وهذ أعدل الأقوال لإعماله جميع الأدلة. وقال قوم بالتحريم مطلقاً، وهو المشهور عن أبي حنيفة وأحمد، ورجحه من المالكية ابن العربي وحجتهم: أن النهي مقدم على الإباحة، ولم يصححوا حديث جابر المتقدم. وقال قوم بالجواز مطلقاً، وهو قول عائشة وعروة وربيعة، محتجين بأن الأحاديث تعارضت فلنرجع إلى أصل الإباحة.

وفي البخاري عن أنس كان ﷺ إذا خرج لحاجته أجيء أنا وغلام، معنا إداوة من ماء، يعني ليستنجي به. وفي رواية مسلم عنه: فخرج علينا وقد استنجى بالماء[2]. وعن أبي هريرة قال: اتبعت النبي ﷺ وخرج لحاجته فقال «ابغني أحجاراً أستنفض بها ولا تأتني بعظم ولا روث»، فأتيته بأحجار بطرف ثيابي فوضعتها إلى جنبه فلما قضى حاجته أتبعه بهن[3]. وعن عبدالله بن مسعود قال: أتى النبي ﷺ الغائط فأمرني أن آتيه بثلاثة أحجار، فوجدت حجرين والتمست الثالث فلم أجده فأخذت روثة فأتيته بها، فأخذ الحجرين وألقى الروثة[4]. رواه البخاري . وفي حديث سلمان عند مسلم مرفوعاً: «لا يستنج أحدكم بأقل من ثلاثة أحجار»[5].

وقد أخذ الشافعي وأحمد وأصحاب الحديث بهذا، فاشترطوا أن لا ينقص عن الثلاثةمع مراعاة الإنقاء إذا لم يحصل بها فتزاد حتى ينقى. ويستحب حينئذٍ الإيتار، لقوله

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٣٦٠. وفي فتح الباري ١/ ٣٢٦.

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الوضوء باب (١٧) رقم الحديث (١٥٢) وفي صحيح مسلم كتاب الطهارة رقم الحديث (٧٠) وفي النسائي كتاب الطهارة رقم (٤٠) ١/ ٤٢. وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢٨٤ و١٧١ . وفي سنن الدارمي كتاب الوضوء رقم (١٥).

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الوضوء. باب (٢٠) رقم الحديث (١٥٥ ـ ٣٨٦٠).

(٤) أخرجه الترمذي كتاب الطهارة باب (١٣) رقم الحديث (١٧) وفي البخاري كتاب الوضوء باب (٢١) رقم الحديث (١٥٦). وفي ابن ماجه برقم (٣١٤) وفي النسائي طهارة (٣٧) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٨٨ و٤١٨.

(٥) أخرجه مسلم كتاب الطهارة باب (١٧) رقم الحديث (٥٧) وفي سنن الدارقطني ١/ ٥٤ وفي النسائي ١/ ٤٤ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ١٠٣ و١١٢.

ﷺ «ومن استجمر فليوتر»[1]. وليس بواجب لزيادة في أبي داود حسنة الإسناد، قال: ومن لا، فلا حرج، قال الخطابي: لو كان القصد الإنقاء فقط لخلا اشتراط العدد عن الفائدة، فلما اشترط العدد لفظاً وعلم الإنقاء فيه معنى دل على إيجاب الأمرين. ونظيره: العدة بالأقراء، فإن العدد مشترط ولو تحققت براءة الرحم بقرء واحد. وقال الطحاوي: لو كان العدد مشترطاً لطلب عليه السلام حجراً ثالثاً. وغفل ـ رحمه الله ـ عما أخرجه أحمد في مسنده من طريق معمر عن ابن مسعود في هذا الحديث، فإن فيه: فألقى الروثة وقال: «إنها ركس، ائتني بحجر،» ورجاله ثقات أثبات. واستدلال الطحاوي فيه نظر، لاحتمال أن يكون اكتفى بطرف أحدهما عن الثالث، لأن المقصود بالثلاثة: أن يمسح بها ثلاث مسحات، وذلك حاصل ولو بواحد. انتهى ملخصاً من فتح الباري.

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة رقم (٢٢) وفي سنن أبي داود الطهارة باب (١٥) رقم الحديث (٣٥) وفي النسائي طهارة (٧١) وفي ابن ماجه برقم (٣٣٧ ـ ٤٠٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٣٦ و٢٧٨ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٤٩ وفي صحيح ابن خزيمة (٧٥) وفي مسند أبي عوانة ١/ ٢٤٧ وفي التلخيص لابن حجر ١/ ١١٠ وفي إتحاف السادة المتقين ٢/ ٣٤٢ وفي نصب الراية للزيلعي ١/ ٢١٧ وفي المغني للعراقي ١/ ١٣١ وفي فتح الباري ١/ ٣٤١.

فيما أكرمه الله تعالى به من الأخلاق الزكية وشرفه به من الأوصاف المرضية(١)

أعلم أن لأخلاق جمع خلق. بضم الخاء واللام ويجوز إسكانها. قال الراغب: الخلق ـ بالفتح وبالضم ـ في الأصل بمعنى واحد، كالشَرب والشُرب لكن خص الخلق الذي بالفتح بالهيئات والصور المدركة بالبصر، وخص الخلق الذي بالضم بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة. انتهى. وقد اختلف: هل حسن الخلق غريزة أو مكتسب؟ وتمسك من قال بأنه غريزة بحديث ابن مسعود: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم» (٢) الحديث رواه البخاري. وقد قال القرطبي: الخلق جبلة في نوع الإنسان. وهم في ذلك متفاوتون، فمن غلب عليه شيء منها كان محموداً وإلا فهو المأمور بالمجاهدة فيه حتى يصير محموداً، وكذا إن كان ضعيفاً فيرتاض حتى يقوى.

وقد وقع في حديث الأشج أنه ﷺ قال له: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»، قال: يا رسول الله قديماً كانا أو حديثاً؟ قال: «قديماً»، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله. وراه أحمد والنسائي وصححه ابن حبان. فترديد السؤال وتقريره عليه بأن في الخلق ما هو جبلي وما هو مكتسب. وقد كان ﷺ يقول «اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي»(٣) أخرجه أحمد وصححه ابن حبان، وعند مسلم في حديث دعاء الافتتاح: «واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت». ولما اجتمع فيه ﷺ

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/٣٠٨ والبداية والنهاية ٦/٣٦. وفي طبقات ابن سعد ١/٢٧٣ و ٢٨٥ و ٢٨٩ و ٣١٤ وفي الشفا ١/١٢٦.

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/٣٨٧ وفي المستدرك للحاكم ١/٣٣ و ٢/٤٤٧ و ٤/١٦٥ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/٩٠ و ٢٨٨ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٢٠٣٢ ـ ٤٣٤٣١) وفي الدر المنثور أيضاً ٢/١٥٩ و ٦/١٧ وفي شرح السنة للبغوي ٨/١٠ وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/٣٥٢ والكامل لابن عدي ٣/١١٥٨ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٩٩٤) وفي حلية الأولياء ٤/١٦٦ و ٥/٣٥ وفي كنز العمال (٢٠٣٢ ـ ٤٣٤٣١).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/٧٣، وفي كشف الخفاء للعجلوني (٢١٧) وفي اتحاف السادة المتقين ٥/١١٣ وفي أخلاق النبوة (١٧١). وفي المغني للعراقي ٣/٤٩ وفي كنز العمال (٥١٩٧).

من خصال الكمال ما لا يحيط به حد، ولا يحصره عد، أثنى الله تعالى عليه في كتابه الكريم فقال: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: ٤]، وكلمة «على» للاستعلاء فدل اللفظ على أنه مستعل على هذه الأخلاق ومستول عليها.

والخلق ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة، وقد وصف الله تعالى نبيه ﷺ بما يرجع إلى قوته العلمية بأنه عظيم فقال تعالى: ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ [النساء: ١١٣] ووصف ما يرجع إلى قوته العملية بأنه عظيم، فقال تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: ٤]. فدل مجموع هاتين الآيتين على أن روحه فيما بين الأرواح البشرية عظيمة عالية الدرجة، كأنها لقوتها وشدة كمالها كانت من جنس أرواح الملائكة. قال الحليمي: وإنما وصف خلقه بالعظم، مع أن الغالب وصف الخلق بالكرم لأن كرم الخلق يراد به السماحة والدماثة، ولم يكن خلقه ﷺ مقصوراً على ذلك، بل كان رحيماً بالمؤمنين، رفيقاً بهم، شديداً على الكفار، غليظاً عليهم، مهيباً في صدور الأعداء، منصوراً بالرعب منهم على مسيرة شهر، فكان وصف خلقه بالعظيم أولى ليشمل الإنعام والانتقام.

وقال الجنيد[1]: وإنما كان خلقه ﷺ عظيماً لأنه لم يكن له همة سوى الله تعالى. وقيل: لأنه ﷺ عاشر الخلق بخلقه، وباينهم بقلبه. وقيل: لاجتماع مكارم الأخلاق فيه، قال ﷺ - فيما رواه الطبراني في الأوسط بسند فيه عمر بن إبراهيم المقدسي وهو ضعيف - عن جابر: «إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال»،[2] وفي رواية مالك في الموطأ بلاغاً: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[3]. فجميع الأخلاق الحميدة كلها كانت فيه ﷺ، فإنه أدب بالقرآن، كما قالت عائشة رضي الله عنها: (كان خلقه القرآن)[4].

---

(١) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز أبو القاسم. صوفي من العلماء بالدين توفي في بغداد سنة (٢٩٧ هـ). الاعلام ٢/ ١٤١ وفيات الأعيان ١/ ١١٧ وحلية الأولياء ١٠/ ٢٥٥ رقم الترجمة (٥٧١) وطبقات الشافعية ٢/ ٢٨ وتاريخ بغداد ٧/ ٢٤١ وطبقات الحنابلة (٨٩).

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٨٨ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٧٣٦) وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٢٤٥ وفي تاريخ ابن عساكر ٥/ ٤٣٨ وفي كنز العمال (٣١٩٤٧).

(٣) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٩٢ وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ١٧١ وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ٢٠٢ وفي المستدرك للحاكم ٢/ ٦١٣ وفي تفسير القرطبي ٧/ ٣٤٥ و١٤/ ١٩٧ وفي المغني للعراقي ٢/ ١٥٥ و ٣٥٢ و ٣/ ٤٨ والشفا ١/ ٩٦ وفي الموطأ للإمام مالك رقم الحديث (٩٠٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٨١.

(٤) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٩١ و ١٦٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٤٩٩ وفي=

قال بعض العارفين: وقد علم أن القرآن فيه المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به، أي أقررناه في نصابه، وأقررنا به من خلف حجابه، وتقلدنا سيف الحجة به ولكن في قرابه.

وما كونه مما تحصل مقلة ... ولا حده مما تحس الأنامل

وقال صاحب عوارف المعارف: ولا يبعد أن قول عائشة رضي الله عنها: (كان خلقه القرآن) فيه رمز غامض، وإيماء خفي إلى الأخلاق الربانية، فاحتشمت الحضرة الإلهية أن تقول: كان متخلقاً بأخلاق الله تعالى فعبرت عن المعنى بقولها: (كان خلقه القرآن) استحياء من سبحات الجلال وستراً للحال بلطف المقال، وهذا من وفور عقلها وكمال أدبها. انتهى.

فكما أن معاني القرآن لا تتناهى فكذلك أوصافه الجميلة الدالة على خلقه العظيم لا تتناهى إذ في كل حالة من أحواله يتجدد له من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وما يفيضه الله تعالى عليه من معارفه وعلومه ما لا يعلمه إلا الله تعالى. فإذاً التعرض لحصر جزئيات أخلاقه الحميدة تعرض لما ليس من مقدور الإنسان، ولا من ممكنات عاداته.

قال الحرالي ـ وهو كما في القاموس: بتشديد اللام، نسبة إلى قبيلة بالبربر، واسمه: علي بن أحمد بن الحسين، ذو التصانيف المشهورة ـ: ولما كان عرفان قلبه ﷺ بربه عز وجل كما قال عليه السلام: «بربي عرفت كل شيء» كانت أخلاقه أعظم خلق، فلذلك بعثه إلى الناس كلهم، ولم يقصر رسالته على الإنس حتى عمت الجن، ولم يقصرها على الثقلين حتى عمت جميع العالمين: فكل من كان الله ربه فمحمد رسوله، وكما أن الربوبية تعم العالمين فالخلق المحمدي يشمل جميع العالمين. انتهى. وهذا مصير منه إلى أنه ﷺ قد أرسل إلى الملائكة أيضاً، وسيأتي الكلام في ذلك مستوفى إن شاء الله تعالى وهو المستعان.

وقد كان ﷺ مجبولاً على الأخلاق الكريمة في أصل خلقته الزكية النقية، لم يحصل له ذلك برياضة نفس، بل بجود إلهي، ولهذا لم تزل تشرق أنوار المعارف في قلبه حتى وصل إلى الغاية العليا والمقام الأسنى. وأصل هذه الخصال الحميدة، والمواهب المجيدة، كمال العقل، لأن به تقتبس الفضائل وتجتنب الرذائل، فالعقل لسان الروح وترجمان البصيرة، والبصيرة للروح بمثابة القلب، والعقل بمثابة اللسان. قال بعضهم؛

= الدلائل له أيضاً ١/ ٣٠٩ وفي الدر المنثور ٥/ ٢ و٦/ ٢٥٠ وفي الأدب المفرد للبخاري (٣٠٩) وفي الشفا ١/ ٩٦ وفي المغني للعراقي ٢/ ٣٥٢ وفي كنز العمال (١٨٣٧٨ ـ ١٨٧١٨).

لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر. وأما ما روي «أن الله لما خلق العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أشرف منك، فبك آخذ وبك أعطي». فقال ابن تيمية وتبعه غيره: إنه كذب موضوع باتفاق. انتهى. وفي زوائد عبدالله بن الإمام أحمد على «الزهد» لأبيه عن علي ابن مسلم عن سيار بن حاتم ـ وهو ممن ضعفه غير واحد وكان جماعاً للرقائق، وقال القواريري: إنه لم يكن له عقل ـ قال: حدثنا جعفر بن سليمان الضبعي، حدثنا مالك ابن دينار عن الحسن البصري، مرسلاً: «لما خلق الله العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: ما خلقت خلقاً أحب إلي منك، بك آخذ وبك أعطي».

وأخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل له، وابن المحبر كذاب. قال الحافظ أبو الفضل بن حجر: والوارد في أول ما خلق الله، حديث أول ما خلق الله القلم، وهو أثبت من حديث العقل. ولأبي الشيخ عن قرة بن إياس المزني رفعه: «الناس يعملون الخير وإنما يعطون أجورهم على قدر عقولهم» (1).

وقد اختلف في ماهية العقل اختلافاً طويلاً يطول استقصاؤه. وفي القاموس ومن خط مؤلفه نقلت: العقل العلم، أو بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها، أو العلم بخير الخيرين وشر الشرين، أو يطلق لأمور لقوة بها يكون التمييز بين القبيح والحسن، ولمعان مجتمعة في الذهن تكون بمقدمات يُستثبت بها الأغراض والمصالح، ولهيئة محمودة للإنسان في حركاته وكلماته، والحق أنه روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية، وابتداء وجوده عند اجتنان الولد، ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ. انتهى.

وقد كان ﷺ من كمال العقل في الغاية القصوى التي لم يبلغها بشر سواه، ولهذا كانت معارفه عظيمة وخصائصه جسيمة، حارت العقول في بعض فيض ما أفاضه من غيبه لديه، وكلّت الأفكار في معرفة بعض ما أطلعه الله عليه، وكيف لا يعطى ذلك وقد امتلأ قلبه وباطنه وفاض على جسده المكرم ما وهبه من أسرار إلهيته ومعرفة ربوبيته وتحقق عبوديته. قال وهب بن منبه: قرأت في أحد وسبعين كتاباً، فوجدت في جميعها أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل بين رمل من جميع رمال الدنيا، وإن محمداً ﷺ أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً. رواه أبو نعيم في الحلية وابن عساكر.

وعن بعضهم مما هو في عوارف المعارف: اللب والعقل مائة جزء، تسعة وتسعون

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٤٥٢ والسيوطي في اللآلىء المصنوعة ١/ ٦٥.

في النبي ﷺ وجزء في سائر المؤمنين، ومن تأمل حسن تدبيره للعرب الذين هم كالوحش الشادر، والطبع المتنافر والمتباعد، وكيف ساسهم واحتمل جفاءهم وصبر على أذاهم إلى أن انقادوا إليه، واجتمعوا عليه، وقاتلوا دونه أهليهم وآباءهم وأبناءهم، واختاروا على أنفسهم، وهجروا في رضاه أوطانهم وأحباءهم، من غير ممارسة سبقت له، ولا مطالعة كتب يتعلم منها سير الماضين، تحقق أنه أعقل العالمين، ولما كان عقله ﷺ أوسع العقول لا جرم اتسعت أخلاق نفسه الكريمة اتساعاً لا يضيق عن شيء. فمن ذلك: اتساع خلقه العظيم في الحلم والعفو مع القدرة وصبره ﷺ على ما يكره، وحسبك صبره وعفوه عليه السلام عن الكافرين به المقاتلين المحاربين له في أشد ما نالوه به من الجراح بحيث كسرت رباعيته، وشج وجهه يوم أحد، حتى صار الدم يسيل على وجهه الشريف، حتى شق ذلك على أصحابه شديداً، وقالوا: لو دعوت عليهم، فقال: «إني لم أبعث لعاناً،ولكني بعثت داعياً ورحمة،اللهم اغفر لقومي،أو اهد قومي فإنهم لا يعلمون»(1).

قال ابن حبان: أي اغفر لهم ذنبهم في شج وجهي لا أنه أردا الدعاء لهم بالمغفرة مطلقاً، إذ لو كان كذلك لأجيب، ولو أجيب لأسلموا كلهم. كذا قال رحمه الله. وقد روي عن عمر أنه قال في بعض كلامه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد دعا نوح على قومه فقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين﴾ [نوح: ٢٦] الآية ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا، فلقد وطىء ظهرك وأدمي وجهك وكسرت رباعيتك بأبيت أن تقول إلا خيراً فقلت: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وها هنا دقيقة؛ وهي أنه ﷺ لما شج عفا وقال«اللهم اهد قومي»، وحين شغلوه عن الصلاة يوم الخندق قال: «اللهم املأ بطونهم ناراً» فتحمل الشجة الحاصلة في وجه جسده الشريف، وما تحمل الشجة الحاصلة في وجه دينه، فإن وجه الدين هو الصلاة، فرجح حق خالقه على حقه.

واعلم أن الصبر على الأذى جهاد النفس، وقد جبل الله تعالى النفس على التألم بما يفعل بها، ولهذا شق عليه ﷺ نسبتهم له إلى الجور في القسمة، لكنه عليه السلام حلم على القائل وصبر، لما علم من جزيل ثواب الصابر وأن الله يأجره بغير حساب. وصبره ﷺ على الأذى إنما هو فيما كان من حق نفسه، وأما إذا كان لله فإنه يمتثل فيه أمر الله

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة رقم الحديث (٨٧). وفي المعجم الكبير للطبراني ١٩/ ١٨٩ . وفي الأدب المفرد للبخاري صفحة (١١٩) رقم الحديث (٣٢٢) وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ٢٤٠ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٠٨ وفي الدر المنثور للسيوطي ٤/ ٣٤٢ وفي مجمع الزوائد للهيثمي (٧٢١٨). وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ١٠٥.

تعالى من الشدة كما قال له تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ [التوبة: ٧٣] وقد وقع له ﷺ أنه غضب لأسباب مختلفة مرجعها إلى أن ذلك كان في أمر الله، وأظهر الغضب فيها ليكون أوكد في الزجر. فصبره وعفوه إنما كان فيما يتعلق بنفسه الشريفة ﷺ.

وقد روى الطبراني وابن حبان والحاكم والبيهقي عن زيد بن سعنه ـ بالمهملة والنون المفتوحتين، كما قيده به عبد الغني وذكره الدارقطني: وبالمثناة التحتية، ثبت في الشفاء وصحح عليه مؤلفه بخطه، وهو الذي ذكره ابن إسحاق، وهو كما قاله النووي: أجل أحبار اليهود الذين أسلموا ـ أنه قال:

لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه محمد حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً. فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله، فابتعت منه تمراً إلى أجل فأعطيته الثمن، فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ ثم قلت: ألا تقضيني يا محمد حقي، فوالله إنكم يا بني عبد المطلب مطل، فقال عمر: أي عدو الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع فوالله لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم ثم قال: «أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة»، اذهب به يا عمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعاً مكان ما رعته»، ففعل، فقلت يا عمر، كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فقد اختبرتهما، فأشهدك أني قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً[1].

وعن أبي هريرة قال حدثنا رسول الله ﷺ يوماً ثم قام، فقمنا حين قام فنظرنا إلى أعرابي قد أدركه فجبذه بردائه فحمر رقبته، وكان رداء خشناً، فالتفت إليه فقال له الأعرابي: احملني على بعيري هذين، فإنك لا تحملني من مالك ولا من مال أبيك، فقال له ﷺ: «لا، وأستغفر الله، لا وأستغفر الله، لا وأستغفر الله، لا أحملك حتى تقيدني من جبذتك التي جبذتني»، فكل ذلك يقول له الأعرابي: والله لا أقيدكها، فذكر الحديث،

---

(١) ذكره الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٢. وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ٩٦ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ٢٣ وفي البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٢٨٨ وفي الشفا ١/ ١٠٩ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٣٢ والبيهقي في الدلائل ٦/ ٢٧٨.

قال: ثم دعا رجلاً فقال له: «احمل له على بعيريه هذين على بعير تمراً وعلى الآخر شعيراً»[1] رواه أبو داود.

ورواه البخاري من حديث أنس بلفظ: كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذة شديدة، قال أنس: فنظرت إلى صفحة عاتقه وقد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء[2].

وفي هذا بيان حلمه ﷺ وصبره على الأذى في النفس والمال، والتجاوز عن جفاء من يريد تألفه على الإسلام. وعن عائشة لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح[3]. رواه الترمذي، أي لم يكن له الفحش خلقاً ولا مكتسباً. وروى البخاري من حديث ابن عمر: ولم يكن ﷺ فاحشاً ولا متفاحشاً، وفي روايته أيضاً من حديث أنس بن مالك: لم يكن النبي ﷺ سباباً ولا فاحشاً ولا لعاناً[4]. والفحش: كل ما خرج عن مقداره حتى يستقبح، ويدخل في القول والفعل والصفة، لكن استعماله في القول أكثر: والمتفحش: بالتشديد، الذي يتعمد ذلك ويكثر منه ويتكلفه.

وعن عائشة أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ، فلما رآه قال: بئس أخو العشيرة، أو بئس ابن العشيرة، فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه. فقال ﷺ: «يا عائشة، متى عهدتيني فاحشاً، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره»،[5] رواه البخاري. قال ابن بطال: هذا الرجل هو عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري، وكان يقال له الأحمق المطاع. وكذا فسره به القاضي عياض والقرطبي والنووي.

وأخرج عبد الغني من طريق أبي عامر الخزاعي، عن عائشة قالت: جاء مخرمة

---

(١) أخرجه أبو داود. كتاب الأدب باب (١) رقم الحديث (٤٧٧٥) والنسائي ٨/ ٣٣ وابن ماجه رقم الحديث (٣٤٢٣). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٨٨. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٤٢٣) وفي كنز العمال (١٨٧٠٩).

(٢) أخرجه البخاري. كتاب فرض الخمس باب (١٩) رقم الحديث (٣١٤٩ ـ ٥٨٠٩ ـ ٦٠٨٨).

(٣) أخرجه الترمذي. كتاب البر والصلة باب (٦٩) رقم الحديث (٢٠١٦). وفي الشمائل (١٨٥).

(٤) أخرجه البخاري. كتاب الأدب باب (٣٨) رقم الحديث (٦٠٣١ ـ ٦٠٤٦).

(٥) أخرجه البخاري. كتاب الأدب باب (٨٢) رقم الحديث (٦٠٣٢ ـ ٦٠٥٤ ـ ٦١٣١). وفي فتح الباري ١٠/ ٥٥٨.

ابن نوفل يستأذن، فلما سمع النبي ﷺ صوته قال: «بئس أخو العشيرة». الحديث. والمراد بالعشيرة: الجماعة أو القبيلة، وإنما تطلق ﷺ في وجهه تألفاً له ليسلم قومه؛ لأنه كان رئيسهم. وقد جمع هذا الحديث كما قال الخطابي علماً وأدباً، وليس قوله ﷺ في أمته بالأمور التي يسمهم بها ويضيفها إليهم من المكروه غيبة، وإنما يكون ذلك من بعضهم في بعض، بل الواجب عليه ﷺ أن يبين ذلك ويفصح به، ويعرف الناس أمرهم فإن ذلك من باب النصيحة والشفقة على الأمة. ولكنه لما جبل عليه من الكرم وأعطيه من حسن الخلق أظهر له البشاشة ولم يجبهه بالمكروه، لتقتدي به أمته في اتقاء شر من هذا سبيله وفي مداراته ليسلموا من شره وغائلته. وقال القرطبي: فيه جواز غيبة المعلن بالفسق أو الفحش ونحو ذلك مع جواز مداراتهم اتقاء شرهم ما لم يؤد ذلك إلى المداهنة في دين الله.

ثم قال تبعاً للقاضي حسين: والفرق بين المداراة والمداهنة، أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معاً وهو مباحة وربما استحسنت، والمداهنة بذل الدين لصلاح الدنيا، والنبي ﷺ إنما بذل له من دنياه حسن عشرته والرفق في مكالمته، ومع ذلك فلم يمدحه بقول، فلم يناقض قوله فيه فعله، فإن قوله فيه قول حق، وفعله معه حسن عشرة، فيزول مع هذا التقدير الإشكال ولله الحمد. وقال القاضي عياض: لم يكن عيينة ـ والله أعلم ـ حينئذٍ أسلم، فلم يكن القول فيه غيبة، أو كان أسلم ولم يكن إسلامه ناصحا، فأراد النبي ﷺ أن يبين ذلك لئلا يغتر به من لم يعرف باطنه، وقد كانت منه في حياة النبي ﷺ وبعده أمور تدل على ضعف إيمانه، فيكون ما وصفه به ﷺ من علامات النبوة، وأما إلانة القول بعد أن دخل فعلى سبيل الائتلاف وفي فتح الباري: أن عيينة ارتد في زمن الصديق وحارب ثم رجع وأسلم وحضر بعض الفتوح في عهد عمر. انتهى.

«وما انتقم ﷺ لنفسه»[1]. رواه البخاري. فإن قلت: قد صح أنه ﷺ أمر بقتل عقبة ابن أبي معيط وعبدالله بن خطل وغيرهما ممن كان يؤذيه ﷺ وهذا ينافي قوله: «وما انتقم لنفسه». فالجواب: أنهم كانوا مع ذلك ينتهكون حرمات الله. وقيل: أراد أنه لا ينتقم إذا أوذي في غير السبب الذي يخرج إلى الكفر، كما عفا عن الأعرابي الذي جفا في رفع صوته عليه، وعن الآخر الذي جبذ بردائه حتى أثر في كتفه. وحمل الداودي عدم الانتقام على ما يختص بالمال، وأما العرض فقد اقتص ممن نال منه.

وقد أخرج الحاكم هذا الحديث من طريق معمر عن الزهري مطولاً، وأوله: ما لعن

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٦٠ ـ ٦١٢٦ ـ ٦٧٨٦ ـ ٦٨٥٣). وفي التمهيد لابن عبد البر ٨/١٤٦ و ١٤٩.

رسول الله ﷺ مسلماً بذكر ـ أي بصريح اسمه ـ وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يضرب في سبيل الله، ولا سئل شيئاً قط فمنعه إلا أن يسأل مأثماً، ولا انتقم لنفسه من شيء إلا أن تنتهك حرمات الله فيكون لله ينتقم[1]. الحديث. ومما روي من اتساع خلقه وحلمه ﷺ، اتساع خلقه لطائفة المنافقين، الذين كانوا يؤذونه إذا غاب ويتملقون له إذا حضر، وذلك مما تنفر منـه النفوس البشرية حتى تؤيدها العناية الربانية.

وكان ﷺ كلما أذن له في التشديد عليهم فتح لهم ﷺ باباً من الرحمة، فكان يستغفر لهم ويدعو لهم، حتى أنزل الله عليه﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ [التوبة: ٨٠] فقال ﷺ«خيرني ربي فاخترت أن أستغفر لهم» ولما قال تعالى:﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ [التوبة: ٨٠] فقال ﷺ«لأزيدن على السبعين»[2] وأمر ولد الذي تولى كبر النفاق والأذى منهم ببر أبيه، ولما مات كفنه في ثوبه خلعه عن بدنه وصلى عليه، هذا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يجذبه بثوبه ويقول: يا رسول الله أتصلي على رأس المنافقين؟ فنتر ثوبه من عمر وقال:«إليك عني يا عمر»[3]. فخالف مؤمناً ولياً في حق منافق عدو، وكل ذلك رحمة منه لأمته، أشار إليه الحرالي. وقال النووي: قيل إنما أعطاه قميصه وكفنه فيه تطييباً لقلب ابنه، فإنه كان صحابياً صالحاً[4] وقد سأل ذلك فأجابه إليه، وقيل مكافأة لعبد الله المنافق الميت، لأنه كان ألبس العباس حين أسر يوم بدر قميصاً. وفي ذلك كله بيان عظيم مكارم أخلاق النبي ﷺ، فقد علم ما كان من هذا المنافق من الإيذاء، وقابله بالحسنى فألبسه قميصه كفناً وصلى عليه واستغفر له، قال الله تعالى:﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: ٤].

ومن ذلك أنه ﷺ لم يؤاخذ لبيد بن الأعصم إذ سحره. وعفا عن اليهودية التي سمته في الشاة على الصحيح من الرواية. والله تعالى يرحم القائل:

ومـا الفضـل إلا خـاتـم أنـت فصـه وعفـوك نقش الفـص فـاختـم بـه عـذري

ومن ذلك إشفاقه ﷺ على أهل الكبائر من أمته، وأمره إياهم بالستر، فقال:«من بلي بهذه القاذورات» يعني المحرمات«فليستتر»[5].

---

(١) ذكره الحاكم في المستدرك ٢/ ٦١٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٦٤ و ٦/ ٢٢٤ وفي تفسير الطبري ١٠/ ١٣٨ وفي تفسير ابن كثير ٧/ ١٢٨.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٢٦٤ وفي السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ١٩٧.

(٤) انظر الإصابة ٤/ ٩٥ رقم الترجمة (٤٧٧٥).

(٥) أخرجه الإمام مالك في الموطأ كتاب الحدود باب (٢) رقم الحديث (١٢). وفي نصب الراية =

وأمر أمته أن يستغفروا للمحدود ويترحموا عليه لما حنقوا عليه فسبوه ولعنوه، فقال: «قولوا اللهم اغفر له، اللهم ارحمه» [1] وقال لهم في رجل كان كثيراً ما يؤتى به سكران بعد تحريم الخمر، فلعنوه مرة فقال: «لا تلعنوه فإنه يحب الله ورسوله» [2]. فأظهر لهم مكتوم قلبه لما رفضوه بظاهر فعله، وإنما ينظر الله إلى القلوب، [3] طهر الله قلوبنا وغفر عظيم ذنوبنا. ومن ذلك ما رواه الدارقطني من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه كان يصغي إلى الهرة الإناء حتى تشرب ثم يتوضأ بفضلها.

ومن ذلك اتساع خلقه في شريف تواضعه وآدابه وحسن عشرته مع أهله وخدمه وأصحابه. وقال بعضهم: اعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه، فعند ذلك تذوب النفس، وفي ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب، فتلين وتنطبع للحق والخلق بمحو آثارها وسكون وهجها وغبارها. وكان الحظ الأوفر من التواضع لنبينا ﷺ في أوطان القرب وحسبك من تواضعه ﷺ أن خيره ربه تعالى بين أن يكون نبياً ملكاً، أو نبياً عبداً، فاختار أن يكون نبياً عبداً، فأعطاه الله تعالى بتواضعه أن جعله أول من تنشق عنه الأرض وأول شافع، وأول مشفع، فلم يأكل متكئاً بعد ذلك حتى فارق الدنيا. وقد قال ﷺ «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا: عبد الله ورسوله» [4] رواه الترمذي.

= للزيلعي ٣/ ٣٢٣ وفي تفسير القرطبي ٦/ ١٥٧ و ١٩/ ١٠٤. وفي التمهيد لابن عبد البر ٥/ ٣٢١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ٣٣٠.

(١) أخرجه أبو داود. كتاب الحدود باب (٣٦) رقم الحديث (٤٤٧٧). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ٣١٢.

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الحدود باب (٥) رقم الحديث (٦٧٨٠). وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ٤٨٧ و ٥٠٢ وفي شرح السنة للبغوي ١٠/ ٣٣٧. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٦٢٥) وفي المغني للعراقي ٣/ ١٢١.

(٣) أخرجه ابن ماجه. كتاب الزهد باب (٩) رقم الحديث (٤١٤٣) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٨٥ و ٥٣٩. وفي صحيح مسلم رقم الحديث (١٩٨٧). وفي جمع الجوامع للسيوطي (٥١٤٣ - ٥١٤٥). وفي اتحاف السادة المتقين ١/ ١٥٦ و ٣/ ١٢٥ و ١٠/ ٦. وفي شرح السنة للبغوي ١٤/ ٣٤١. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٣١٤). وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٢٣٨ و ٦/ ٢٣١. وفي حلية الأولياء ٤/ ٩٨ و ٧/ ١٢٤ وفي المغني للعراقي ٣/ ٢٦٩ و ٤/ ٣٥١. وفي تفسير القرطبي ١٦/ ٣٢٦ وفي الكامل لابن عدي ٤/ ١٦٣٣. وفي زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٤٦٠ و ٧/ ٤٧٤. وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/ ٣٣٠.

(٤) أخرجه البخاري. كتاب أحاديث الأنبياء رقم الحديث (٣٤٤٥ - ٦٨٣٠). وفي صحيح مسلم كتاب القدر باب (٧) رقم الحديث (٣٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٣ و ٢٤. وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٩٧ و ٥/ ٤٩٨. وفي الشمائل للترمذي (١٧٢). وفي المسند للحميدي رقم الحديث=

ومن تواضعه ﷺ أنه لا ينهر خادماً، روينا في كتاب الترمذي عن أنس قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي أف قط ولا قال لشيء صنعته: لم صنعته؟ ولا لشيء تركته لم تركته؟[1] وكذلك كان ﷺ مع عبيده وإمائه، ما ضرب منهم أحداً قط، وهذا أمر لا تتسع له الطباع البشرية لولا التأييدات الربانية.

وفي رواية مسلم: ما رأيت أحداً أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ[2]. وقالت عائشة: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله. رواه مسلم.

وسئلت عائشة: كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته؟ قالت: ألين الناس، بساماً ضحاكاً، لم ير قط ماداً رجليه بين أصحابه. وعنها: ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ ما دعاه أحد من أصحابه إلا قال لبيك.

وعند أحمد وابن سعد وصححه ابن حبان عنها: كان ﷺ يخيط ثوبه ويخصف نعله، وفي رواية لأحمد: ويرقع دلوه، وعنده أيضاً: يغلي ثوبه، ويحلب شاته ويخدم نفسه. وهذا يتعين حمله على أوقات فإنه ثبت أنه كان له خدم، فتارة يكون بنفسه وتارة بغيره، وتارة بالمشاركة. وكان يركب الحمار، ويردف خلفه، وركب يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف[3] رواه الترمذي.

وعن قيس بن سعد قال: زارنا رسول الله ﷺ فلما أراد الانصراف قرب له سعد حماراً وطأ عليه بقطيفة، وركب ﷺ ثم قال سعد: يا قيس، اصحب رسول الله ﷺ، قال قيس: فقال لي رسول الله ﷺ«اركب» فأبيت، فقال:«إما أن تركب وإما أن تنصرف». وفي رواية أخرى: «اركب أمامي فصاحب الدابة أولى بمقدمها» [4] رواه أبو داود وغيره. وفي البخاري من حديث أنس بن مالك: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من خيبر، وإني لرديف أبي طلحة وهو يسير، وبعض نساء رسول الله ﷺ رديف رسول الله ﷺ، إذ عثرت الناقة،

= (٢٧). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٨٩٨) وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ١٣١.

(١) أخرجه أبو داود. كتاب الأدب باب (١) رقم الحديث (٤٧٧٤) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل رقم (٦٣).

(٣) ذكره الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٦٦.

(٤) أخرجه أبو داود. كتاب الأدب باب (١٢٨) رقم الحديث (٥١٨٥) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٤٢١. وفي الشفا ١/ ١٢٠. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٨/ ٣٥٤ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٠٤. وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦/ ٨٩ وفي تفسير ابن كثير ٦/ ٣٤٧.

فقلت: المرأة، فقال رسول الله ﷺ «إنها أمكم»، فشددت الرحل، وركب رسول الله ﷺ، الحديث[1]. والمرأة: صفية، والردف والرديف: الراكب خلف الراكب بإذنه. وقال معاذ ابن جبل: بينا أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل. وقد ركب ﷺ على حمار على إكاف عليه قطيفة فدكيه أردف أسامة وراءه.

ولما قدم ﷺ مكة استقبله أغيلمة بني عبد المطلب، فحمل واحداً بين يديه، وآخر خلفه. وقال ابن عباس: أتى رسول الله ﷺ مكة وقد حمل قثم بين يديه والفضل خلفه، أو قثم خلفه والفضل بين يديه[2]، رواه البخاري. وذكر المحب الطبري في مختصر السيرة النبوية له، أنه ﷺ ركب حماراً عرياً إلى قباء وأبو هريرة معه، قال: «يا أبا هريرة أأحملك» فقال: ما شئت يا رسول الله، فقال: «اركب»، فوثب أبو هريرة ليركب فلم يقدر فاستمسك رسول الله ﷺ فوقعا جميعاً. ثم ركب ﷺ ثم قال «يا أبا هريرة أأحملك»؟ فقال: ما شئت يا رسول الله فقال: «اركب» فلم يقدر فتعلق برسول الله ﷺ فوقعا جميعاً، ثم قال: «يا أبا هريرة أأحملك» فقال: لا والذي بعثك بالحق لا رميتك ثالثاً.

وذكر المحب الطبري أيضاً: أنه ﷺ كان في سفر، وأمر أصحابه بإصلاح شاة فقال رجل يا رسول الله علي ذبحها، وقال الآخر: يا رسول الله، علي سلخها، وقال آخر: يا رسول الله، علي طبخها فقال رسول الله ﷺ، «عليّ جمع الحطب» فقالوا: يا رسول الله نكفيك العمل، فقال: «قد علمت أنكم تكفوني ولكني أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه» انتهى. ولم أر هذا لغير الطبري بعد التتبع نعم رأيت في جزء تمثال النعل الشريف لأبي اليمن بن عساكر بعد أن روى حديث عبدالله بن عامر ابن ربيعة عن أبيه قال: كنت مع النبي ﷺ في الطواف فانقطعت شسعه فقلت يا رسول الله ناولني أصلحه، فقال «أثرة ولا أحب الأثرة»[3] والأثرة: بفتح الهمزة والثاء، الاسم من آثر يؤثر إذا أعطى، والأثرة: الاستئثار وهو الإنفراد بالشيء. قال وكأنه كره ﷺ أن ينفرد أحد بإصلاح نعله، فيحوز فضيلة الخدم فيكون له بمثابة الخادم ويكون له ﷺ ترفع المخدوم على خادمه، كره ذلك ﷺ لتواضعه وعدم ترفعه على من يصحبه.

ويؤيده ما روي أنه ﷺ أراد أن يمتهن نفسه في شيء فقالوا: نحن نكفيك يا رسول الله، قال: «قد علمت أنكم تكفوني ولكني أكره أن أتميز عليكم فإن الله يكره من عبده أن

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب اللباس باب (١٠٢) رقم الحديث (٥٩٦٨).
(٢) أخرجه البخاري. كتاب العمرة باب (١٣) رقم الحديث (١٧٩٨ ـ ٥٩٦٥ ـ ٥٩٦٦).
(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٢٤٤، وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٠٢.

يراه متميزاً بين أصحابه» انتهى. ثم رأيت شيخنا في الأحاديث المشتهرة حكى ذلك والله الموفق.

وعن أبي قتادة: وفد وفد النجاشي، فقام النبي ﷺ يخدمهم، فقال له أصحابه: نكفيك، قال: «إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وأنا أحب أن أكافئهم» (١) ذكره في الشفاء.

وفي البخاري: عن أنس: كان الرجل يجعل للنبي ﷺ النخلات حتى افتتح قريظة والنضير، وإن أهلي أمروني أن آتي النبي ﷺ فأسأله الذي كانوا أعطوه أو بعضه، وكان ﷺ قد أعطاه أم أيمن، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي تقول: كلا والذي لا إله غيره لا نعطيكم وقد أعطانيها ـ أو كما قال ـ والنبي ﷺ يقول: «لك كذا» وتقول كلا والله، حتى أعطاها ـ حسبت أنه قال ـ عشرة أمثاله(٢) أو كما قال.

وإنما فعلت هذا أم أيمن لأنها ظنت أنها كانت هبة مؤبدة وتمليكاً لأصل الرقبة، وأراد النبي ﷺ استطابة قلبها في استرداد ذلك فلاطفها وما زال يزيدها في العوض حتى رضيت، وكل هذا تبرع منه ﷺ وإكرام لها، لما لها من حق الحضانة والتربية، ولا يخفى ما في هذا من فرط جوده وكثرة حلمه وبره ﷺ.

وجاءته ﷺ امرأة كان في عقلها شيء، فقالت: إن لي إليك حاجة، فقال: «اجلسي في أي سكك المدينة شئت أجلس إليك» (٣)، وفي رواية مسلم: «حتى أقضي حاجتك»، فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها(٤). ولا ريب أن هذا كله من كثرة تواضعه ﷺ.

وقال عبدالله بنُ أبي الحمساء ـ بالحاء المهملة المفتوحة والميم الساكنة والسين المهملة وفي آخره همزة ممدودة ـ: بايعت النبي ﷺ قبل أن يبعث، وبقيت له بقية، فوعدته أن آتيه بها في مكانه، فنسيت فذكرت بعد ثلاث فإذا هو في مكانه فقال: «لقد شققت علي، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك» (٥). رواه أبو داود.

---

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٣٠٧، وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٠٢.

(٢) أخرجه البخاري. كتاب المغازي باب (٣٠) رقم الحديث (٤١٢٠). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢١٩ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ٢٨٢ وفي تفسير ابن كثير ٨/ ٩٢ وفي البداية والنهاية ٤/ ٨١.

(٣) أخرجه أبو داود كتاب الأدب باب (١٢) رقم الحديث (٤٨١٨) والبغوي ٧/ ١٣٠ وأحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٢١٤ وفي المغني للعراقي ٢/ ١٩٥ وفي اتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٦٢.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل رقم الحديث (٧٦).

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٩٨ والزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٧/ ٥٠٦.

وقال ابن أبي أوفى: كان عليه السلام لا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة. رواه النسائي. وفي رواية البخاري: إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت، وفي رواية أحمد: فتنطلق به في حاجتها، وعنده أيضاً إن كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجيء فتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت.

والمقصود من الأخذ باليد لازمه وهو الانقياد.

وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع، لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة، وحيث عمم بلفظ الإماء، أي: أي أمة كانت، وبقوله: حيث شاءت، أي من الأمكنة، والتعبير باليد إشارة إلى غاية التصرف، حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة والتمست منه مساعدتها في تلك الحالة لساعدها على ذلك. وهذا من مزيد تواضعه وبراءته من جميع أنواع الكبر ﷺ.

ودخل الحسن وهو يصلي قد سجد، فركب على ظهره، فأبطأ في سجوده حتى نزل الحسن، فلما فرغ قال له بعض أصحابه: يا رسول الله قد أطلت سجودك. قال: «إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله». (١) أي جعلني كالراحلة فركب على ظهري. وكان ﷺ يعود المرضى، ويشهد الجنازة. أخرجه الترمذي في الشمائل. وحج ﷺ على رحل رث وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم. فقال: «اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة» (٢).

وكان ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيه، فربما جاؤوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها(٣). رواه مسلم والترمذي.

وكان ﷺ حسن العشرة مع أزواجه، وكان ﷺ ينام مع أزواجه. قال النووي: وهو ظاهر فعله الذي واظب عليه مع مواظبته ﷺ على قيام الليل، فينام مع إحداهن، فإذا أراد القيام لوظيفته قام وتركها، فيجمع بين وظيفته وأداء حقها المندوب وعشرتها بالمعروف. وقد علم من هذا أن اجتماع الزوج مع زوجته في فراش واحد أفضل، لا سيما إذا عرف

---

(١) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٢٦٣ وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤/ ٣٢٠ وفي البداية ٨/ ١٣٦ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٤٩٤.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٢٢١ والترمذي في الشمائل ١٧٤ وابن ماجه في كتاب المناسك باب (٤) رقم الحديث (٢٨٩٠).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل رقم الحديث (٧٤) وأحمد بن حنبل في المسند ٣/ ١٣٧ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٨٠٨) والبغوي في شرح السنة ١٣/ ٢٤٤ والبيهقي في الدلائل ١/ ٣٣٣ وفي تاريخ بغداد ٤/ ٩ وفي المغني للعراقي ١/ ٣٣٧ وفي كنز العمال (١٨٣٦٣ ـ ٤٩٤٧).

من حالها حرصها على هذا، ولا يلزم من نومه معها الجماع والله أعلم.

وقد كان ﷺ يسرب إلى عائشة بنات الأنصار يلعبن معها[1]. رواه الشيخان. وإذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه على موضع فمها وشرب رواه مسلم. وإذا تعرقت عرقاً ـ وهو العظم الذي عليه اللحم ـ أخذه فوضع فمه على موضع فمها[2]. رواه مسلم أيضاً. وكان يتكىء في حجرها، ويقبلها وهو صائم[3]. رواه الشيخان.

وكان يريها الحبشة وهم يلعبون في المسجد وهي متكئة على منكبه رواه الشيخان. وروواه الترمذي بلفظ: قام ﷺ فإذا حبشة تزفن والصبيان حولها، فقال: «يا عائشة تعالي فانظري» فجئت فوضعت لحيي على منكب رسول الله ﷺ فجعلت أنظر إليها ما بين المنكب إلى رأسه، فقال لي: «أما شبعت أما شبعت» فجعلت أقول: لا، لا. وقال حسن صحيح غريب[4].

وروي أنه ﷺ سابقها فسبقته، ثم سابقها بعد ذلك فسبقها، قال: «هذه بتلك»[5]. رواه أبو داود بلفظ: سابقته في سفر فسبقته على رجلي، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني فقال: «هذه بتلك السبقة».

وعن أنس بن مالك: أنهم كانوا يوماً عند رسول الله ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها، إذ أتي بصحفة خبز ولحم من بيت أم سلمة، فوضعت بين يدي النبي ﷺ فقال: «ضعوا أيديكم» فوضع نبي الله يده ووضعنا أيدينا فأكلنا، وعائشة تصنع طعاماً عجلته قد رأت الصحفة التي أتي بها، فلما فرغت من طعامها جاءت به فوضعته ورفعت صحفة أم سلمة فكسرتها، فقال رسول الله ﷺ: «كلوا بسم الله، غارت أمكم» ثم أعطى

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب الأدب باب (٨١) رقم الحديث (٦١٣٠). وابن ماجه في كتاب النكاح باب (٥٠) رقم الحديث (١٩٨٢). وفي صحيح مسلم في كتاب فضائل الصحابة رقم الحديث (٨١).

(٢) أخرجه أبو داود. كتاب الطهارة باب (١٠٢) رقم الحديث (٢٥٩) وابن ماجه كتاب الطهارة باب (١٢٥) رقم الحديث (٦٤٣) والنسائي كتاب الطهارة رقم (١٧٦ ـ ١٧٧) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٢٧/٢.

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الحيض باب (٢١) رقم الحديث (٣٢٢) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٨٦/٦ و ٢٩٤ و ٣٠٠ و ٣١٨ وفي التمهيد لابن عبد البر ١٦٥/٣ وفي مسند الشافعي صفحة (١١١) وفي مسند أبي عوانة ٣١٠/١.

(٤) أخرجه الترمذي كتاب المناقب باب (١٧) رقم الحديث (٣٦٩١). وفي فتح الباري ٥٦٤/١.

(٥) أخرجه أبو داود كتاب الجهاد باب (٦١) رقم الحديث (٢٥٧٨). وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٨/١٠. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٢٥١). وفي المغني للعراقي ٤٥/٢ وفي كنز العمال (١٠٦١٤).

صحفتها أم سلمة فقال: «طعام مكان طعام، وإناء مكان إناء»[1]. رواه الطبراني في الصغير.

وهو عند البخاري بلفظ: كان عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي في بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة وانفلقت، فجمع النبي ﷺ فلق الصحفة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: «غارت أمكم» ثم حبس الخادم حتى أتي بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت.

وعندأحمد وأبي داود والنسائي، قالت عائشة: ما رأيت صانعة طعاماً مثل صفية، أهدت إلى النبي ﷺ إناء من طعام، فما ملكت نفسي أن كسرته، فقلت يا رسول الله ما كفارته؟ قال: «إناء كإناء وطعام كطعام» وعند غيرهم: فأخذت القصعة من بين يديه فضربت بها وكسرتها، فقام ﷺ يلتقط اللحم والطعام وهو يقول: «غارت أمكم» فلم يثرب عليها.

فوسع خلقه الكريم آثار طفحات آثار غيرتها، ولم يتأثر، وقضى عليها بحكم الله في التقاص. وهكذا كانت أحواله ﷺ مع أزواجه، لا يأخذ عليهن ويعذرهن، وإن أقام عليهن قسطاس عدل أقامه بغير قلق ولا غضب، بل رؤوف رحيم، حريص عليهن وعلى غيرهن، عزيز عليه ما يعنتهم.

قيل: وفي هذا الحديث إشارة إلى عدم مؤاخذة الغيرىٰ فيما يصدر منها، لأنها في تلك الحالة يكون عقلها محجوباً بشدة الغضب الذي أثارته الغيرة. وقد أخرج أبو يعلى بسند لا بأس به عن عائشة مرفوعاً، «إن الغيرى لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه» انتهى.

وعن عائشة رضي الله عنها: أتيت النبي ﷺ بخزيرة طبختها له، وقلت لسودة ـ والنبي ﷺ بيني وبينها ـ: كلي، فأبت، فقلت لها؛ كلي، فأبت، فقلت لها: لتأكلين أو لألطخن بها وجهك، فأبت فوضعت يدي في الخزيرة فلطخت بها وجهها فضحك النبي ﷺ فوضع فخذه لها وقال لسودة«الطخي وجهها» فلطخت بها وجهي فضحك ﷺ الحديث رواه ابن غيلان من حديث الهاشمي وخرجه الملاء في سيرته. والخزيرة: لحم يقطع صغاراً ويصب عليه ماء كثير فإذا نضج ذر عليه الدقيق.

وبالجملة؛ فمن تأمل سيرته ﷺ مع أهله وأصحابه وغيرهم من الفقراء والأيتام والأرامل والأضياف والمساكين، علم أنه قد بلغ من رقة القلب ولينه الغاية التي لا مرمى

(١) أخرجه الترمذي كتاب الأحكام باب (٢٣) رقم الحديث (١٣٥٩). وفي كنز العمال (٣٩٨٢٥).

وراءها لمخلوق. وإن كان يشتد في حدود الله وحقوقه ودينه، حتى قطع يدِ السارق، إلى غير ذلك.

وقد كان ﷺ يباسط أصحابه بما يولج حبه في القلوب، كان له رجل من البادية يسمى زهيراً، وكان يهادي النبي ﷺ بموجود البادية بما يستطرف منها، وكان ﷺ يهاديه ويكافئه بموجود الحاضرة وبما يستطرف منها، وكان ﷺ يقول: «زهير باديتنا، ونحن حاضرته» وكان ﷺ يحبه، فمشى ﷺ يوماً إلى السوق فوجده قائماً، فجاء من قبل ظهره وضمه بيده إلى صدره فأحس زهير أنه رسول الله ﷺ، قال: فجعلت أمسح ظهري في صدره رجاء بركته[(1)].

وفي رواية الترمذي في الشمائل: فاحتضنه من خلفه ولا يبصره، فقال أرسلني، من هذا؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ فجعل لا يألوا ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «من يشتري العبد» فقال له زهير: يا رسول الله، إذن تجدني كاسداً، فقال ﷺ: «أنت عند الله غال»، وفي رواية للترمذي أيضاً: لكن عند الله لست بكاسد، أو قال: «أنت عند الله غال» [(2)].

وأخرج أبو يعلى عن زيد بن أسلم أن رجلاً كان يهدي للنبي ﷺ العكة من السمن والعسل، فإذا جاء صاحبه يتقاضاه جاء به إلى النبي ﷺ فقال: أعط هذا حق متاعه، فما يزيد النبي ﷺ أن يتبسم، ويأمر به فيعطى[(3)].

ووقع في حديث محمد بن عمرو بن حزم: وكان لا يدخل إلى المدينة طرفة إلا اشترى منها، ثم جاء فقال: يا رسول الله، هذا أهديته لك، فإذا جاء صاحبه يطلب ثمنه جاء به فقال: أعط هذا الثمن، فيقول: «ألم تهده لي» فيقول ليس عندي، فيضحك ويأمر لصاحبه بثمنه.

وكان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً[(4)]، كما روى أبو هريرة، وقد قال له رجل كان فيه بله: يا رسول الله احملني، فباسطه ﷺ من القول بما عساه أن يكون شفاء لبلهه بعد ذلك، فقال: «أحملك على ابن الناقة» فسبق لخاطره استصغار ما تصدق عليه البنوة فقال:

---

(1) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ١٦١. وهو فيه زاهر. وفي الإصابة: زاهر بن حرام الأشجعي رقم الترجمة (٢٧٧٢).

(2) ذكره الترمذي في الشمائل (١٢١).

(3) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٤٨ وفي المطالب العالية لابن حجر (١٤٢٩)

(4) انظر البداية والنهاية ٦/ ٤٨.

يا رسول الله، ما عسى يغني عني ابن الناقة، فقال له ﷺ: «ويحك وهل يلد الجمل إلا الناقة»[1] روى حديثه الترمذي وأبو داود.

وباسط عمته صفية وهي عجوز فقال لها: «إن الجنة لا تدخلها عجوز»، فلما جزعت قال لها: «إنك تعودين إلى صورة الشباب في الجنة»[2] وفي رواية الترمذي عن الحسن: أتته ﷺ عجوز فقالت: يا رسول الله، ادع الله لي أن يدخلني الجنة، فقال: «يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز» قال: فولت تبكي فقال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز» إن الله تعالى يقول: ﴿إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً﴾ [الواقعة: ٣٥ و ٣٦] وذكره رزين.

وكان ﷺ يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويؤنسهم. ويأخذ معهم في تدبير أمورهم، ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره، ومع ذلك سره في الملكوت يجول حيث أراد الله به. والدعابة: ـ بضم الدال وتخفيف العين المهملتين وبعد الألف موحدة ـ هي الملاطفة في القول بالمزاح وغيره. وقد أخرج الترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة؛ قالوا: يا رسول الله، إنك تداعبنا، قال: «إني لا أقول إلا حقاً».

وما ورد عنه ﷺ في النهي عن المداعبة محمول على الإفراط، لما فيه من الشغل عن ذكر الله والتفكر في مهمات الدين وغير ذلك. والذي يسلم من ذلك هو المباح، فإن صادف مصلحة مثل تطييب نفس المخاطب ـ كما كان هو فعله ﷺ ـ فهو مستحب. وقال أنس: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير، وكان له نغر يلعب به فمات، فدخل علي النبي ﷺ ذات يوم فرآه حزيناً فقال: «ما شأنه» قالوا: مات نغره، فقال: «يا أبا عمير ما فعل النغير»[3] رواه البخاري ومسلم. وفي رواية الترمذي قال أنس: كان رسول الله ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير «يا أبا عمير ما

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة باب (٥٧) رقم الحديث (١٩٩١). وأبو داود في كتاب الأدب باب (٨٤) رقم الحديث (٤٩٩٨). وفي أخلاق النبوة (٨٦) وفي الأذكار النووية (٢٨٩) وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ١٨٢ وفي البداية والنهاية ٦/ ٤٨.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٩ والترمذي في الشمائل (١٢٢) وفي تاريخ أصبهان لأبي نعيم ١/ ١٤٢ وفي تفسير الطبري ١٧/ ٨٠ وفي تفسير ابن كثير ٨/ ٩.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب (٨١) رقم الحديث (٦١٢٩ ـ ٦٢٠٣) وفي صحيح مسلم كتاب الأدب رقم الحديث (٣٠). وفي ابن ماجه كتاب الأدب باب (٢٤) رقم الحديث (٣٧٢٠). وفي الترمذي كتاب البر والصلة باب (٥٧) رقم الحديث (١٩٨٩). وفي سنن أبي داود كتاب الأدب باب (٦٩) رقم الحديث (٤٩٦٩). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١١٥ ـ ١١٩ ـ ١٩٠ ـ ٢٠١ ـ ٢٧٨ ـ ٢٨٨.

فعل النغير». قال الجوهري: النغير: تصغير نغر، والنغر جمع النغرة وهو طائر صغير كالعصفور، والجمع نغران مصل صرد وصردان.

وكان قد ألقي عليه مع الدعابة المهابة، ولقد جاء إليه ﷺ رجل فقام بين يديه فأخذته رعدة شديدة ومهابة، فقال له: هون عليك، فإني لست بملك ولا جبار إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد بمكة» فنطق الرجل بحاجته، فقام ﷺ فقال: «يا أيها الناس إني أوحى إلي أن تواضعوا، ألا فتواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد، وكونوا عباد الله إخوانا»[1]. فسكن ﷺ روعه شفقة، لأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وسلب عنه وصف الملوكية بقوله: «فإني لست بملك» لما يلزمها من الجبروتية، وقال: إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد» تواضعاً، لأن القديد مفضول، وهو مأكول المتمسكنة. ولما رأته ﷺ قيلة بنت مخرمة في المسجد، وهو قاعد القرفصاء، ارتعدت من الفرق[2] رواه أبو داود. وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: صحبت رسول الله ﷺ، ما ملأت عيني منها قط حياء منه وتعظيماً له، ولو قيل لي صفه لما قدرت، أو كما قال.

وإذا كان هذا قوله وهو من أجلة الصحابة، ولولا أنه ﷺ كان يباسطهم ويتواضع لهم ويؤنسهم لما قدر أحد منهم أن يقعد معه ولا أن يسمع كلامه عليه الصلاة والسلام لما رزقه الله تعالى من المهابة والجلالة. يبين ذلك ويوضحه ما روي أنه ﷺ كان إذا فرغ من ركوع الفجر حدث عائشة إن كانت مستيقظة، وإلا اضطجع بالأرض ثم خرج بعد ذلك إلى الصلاة، وما ذاك إلا أنه ﷺ لو خرج على تلك الحالة التي كان عليها، وما حصل له من القرب والتداني في مناجاته وسماع كلام ربه وغير ذلك من الأحوال التي يكل اللسان عن وصف بعضها، لما استطاع بشر أن يلقاه ولا يباشره، فكان ﷺ يتحدث مع عائشة أو يضطجع بالأرض حتى يحصل التأنيس بجنسهم، وهو التأنيس مع عائشة، أو جنس أصل الخلقة التي هي الأرض. ثم يخرج إليهم، وما ذاك إلا رفقاً بهم، وكان بالمؤمنين رحيماً. قاله ابن الحاج[3] في المدخل.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد باب (١٦) رقم الحديث (٤١٧٨ ـ ٤٢١٤). وفي سنن أبي داود. كتاب الأدب باب (٤٠) رقم الحديث (٤٨٩٥). وفي صحيح مسلم كتاب الجنة رقم الحديث (٦٤). وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٢٣٤. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٧/ ٣٦٥. وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٧١٩). وفي الدر المنثور للسيوطي ٤/ ١١٤ و ٦/ ١١١. وفي المغني للعراقي ٢/ ١٩٢. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٨٩٨) وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٠٥ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٥٥٨. وفي حلية الأولياء ٢/ ١٧ وفي كنز العمال (٥٧٢٢).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب باب (٢٢) رقم الحديث (٤٨٤٧).

(٣) هو محمد بن محمد ابن الحاج أبو عبد الله العبدري المالكي الفاسي. فقيه. توفي في=

وقد جاء في الحديث أنه لما خير بين أن يكون نبياً ملكاً، أو نبياً عبداً نظر ﷺ إلى جبريل كالمستشير له، فنظر جبريل إلى الأرض يشير إلى التواضع، فاختار، ﷺ العبودية، فلما كان تواضعه ﷺ إلى الأرض حيث أشار جبريل أورثه الله تعالى رفعته إلى السماء، ثم إلى الرفرف الأعلى(١)، إلى حضرة قاب قوسين أو أدنى(٢)، ووقف بين يديه محمود بن الربيع، وهو صغير ابن خمس سنين، فمج ﷺ في وجهه مجة من ماء من دلو يمازحه بها، فكان في ذلك من البركة أنه لما كبر لم يبق في ذهنه من ذكر رؤية النبي ﷺ إلا تلك المجة، فعد بها من الصحابة(٣) وحديثه مذكور في البخاري.

ودخلت عليه ربيبته زينب بنت أم سلمة وهو في مغتسله، فنضح الماء في وجهها، فكان في ذلك من البركة في وجهها أنه لم يتغير، فكان ماء الشباب ثابتاً في وجهها ظاهراً في رونقها وهي عجوز كبيرة. وحديثها مذكور في البخاري. فقد علمت أنه ﷺ كان مع أصحابه وأهله، ومع الغريب والقريب من سعة الصدر ودوام البشر وحسن الخلق والسلام على من لقيه، والوقوف مع من استوقفه والمزح بالحق مع الصغير والكبير أحياناً، وإجابة الداعي ولين الجانب حتى يظن كل واحد من أصحابه أنه أحبهم إليه. وهذا الميدان لا تجد فيه إلا واجباً أو مستحباً أو مباحاً، فكان يباسط الخلق ويلابسهم ليستضيؤوا بنور هدايته في ظلمات دياجي الجهل، ويقتدوا بهديه ﷺ.

وقد كانت مجالسه مع أصحابه رضي الله عنهم عامتها مجالس تذكير بالله، وترغيب وترهيب، إما بتلاوة القرآن، أو بما آتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة، وتعليم ما نفع في الدين، كما أمره الله تعالى أن يذكر ويعظ ويقص، وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة الموعظة الحسنة، وأن يبشره وينذر، فلذلك كانت تلك المجالس توجب لأصحابه رقة

= القاهرة سنة (٧٣٧ هـ). الأعلام ٧/ ٣٥، الدرر الكامنة ٤/ ٢٣٧ رقم الترجمة (٦٢٧) الديباج الملهب (٣٢٧) وكشف الظنون ٢/ ١٦٤٣.

(١) الرفرف: البساط، وقيل لما كان من الديباج، وقيل الفراش وقيل: الرفرف ثياب خضر يتخذ منها المحابس: الواحدة رفرفة والرفرف أيضاً كسر الخبا وجوانب الدرع وما يدلى منه الواحدة: رفرفة. انظر القاموس المحيط ٣/ ١٥٠ مادة (رف).

(٢) قال في أنوار التنزيل: «والمقصود في الآية تمثيل تحقيق استماعه لما يوحى إليه بنفي البعد والملبس. وفي الكشاف قاب قوسين أي مقدار قوسين عربيتين والقاب والقيب والقاد والقيد والقيس: المقدار والتقدير في الآية فكان مسافة قربه مثل قاب قوسين. وأكثر المفسرين أن الدنو والتدلي منقسم ما بين محمد وجبريل عليهما السلام أو مختص بأحدهما من الآخر أو من السدرة المنتهى.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات باب (٣١) رقم الحديث (٦٣٥٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٣٢١.

القلوب، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، كما ذكره أبو هريرة فيما رواه أحمد والترمذي وابن حبان في صحيحه قال: قلنا يا رسول الله، مالنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا وزهدنا في الدنيا وكنا من أهل الآخرة، فإذا خرجنا من عندك عافسنا أهلنا وشممنا أولادنا وأنكرنا أنفسنا. فقال ﷺ: «لو أنكم إذا خرجتم من عندي كنتم على حالكم ذلك لزارتكم الملائكة في بيوتكم»[1] الحديث.

وقوله: عافسنا: ـ بالعين المهملة بعد الألف فاء فسين مهملة ساكنة ـ أي: عالجنا أهلنا ولا عبناهم.

ومن تواضعه ﷺ[2] أنه ما عاب ذواقاً قط، ولا عاب طعاماً قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه[3] رواه الشيخان. وهذا إن كان الطعام مباحاً، أما الحرام فكان يعيبه ويذمه وينهى عنه، وذهب بعضهم إلى أن العيب إن كان من جهة الخلقة كره، وإن كان من جهة الصنعة لم يكره، قال: لأن صنعة الله تعالى لا تعاب، وصنعة الآدميين تعاب. قال في فتح الباري: والذي يظهر: التعميم، فإن فيه كسر قلب الصانع. قال النووي: ومن آداب الطعام المتأكدة: أن لا يعاب، كقوله: مالح، حامض، قليل الملح، غليظ، رقيق، غير ناضج ونحو ذلك.

ومن تواضعه: أن هذه الدنيا شاع سبها في العالمين، فقال ﷺ: «لا تسبوا الدنيا»، ثم مدحها فقال: «نعمت مطية المؤمن، عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر». وقال: «لا تسبوا الدهر»، رواه البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ: «ولا تقولوا خيبة الدهر فإن الله هو الدهر». وفي لفظ له: «يسب بنو آدم الدهر وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار» وعند مسلم في حديث بلفظ «لا يسب أحدكم الدهر»[4]. ومحصل ما قيل في تأويله، ثلاثة أوجه:

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣١٠.

(٢) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ١٢٩.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الأشربة رقم الحديث (١٨٧ ـ ١٨٨) وفي البخاري كتاب الأطعمة باب (٢١) رقم الحديث (٣٥٦٣ ـ ٥٤٠٩) وأبو داود كتاب الأطعمة أيضاً باب (١٣) رقم الحديث (٣٧٦٣) والترمذي كتاب البر رقم الحديث (٨٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٤٢٧ و ٤٧٤ و ٤٧٩ و ٤٨١ و ٤٩٥.

(٤) انظر الروايات: في اتحاف السادة المتقين ١/ ١١٠ وكشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٤٩٦ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ١/ ٣٠٤ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣٩٥ و ٤٩١ و ٤٩٦ و ٤٩٩ و ٥/ ٢٩٩ و ٣١١. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٧١ وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٤/ ٣٩١ وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢/ ٣١٠ وفي حلية الأولياء ٨/ ٢٥٨ وفي تاريخ اصفهان=

أحدها: أن المراد بقوله: إن الله هو الدهر، أي: المدبر للأمور.

ثانيها: أنه على حذف مضاف. أي: صاحب الدهر.

ثالثها: التقدير: مقلب الدهر. ولذلك عقبه بقوله في روايه البخاري: بيدي الليل والنهار.

وقال المحققون: من نسب شيئاً من الأفعال إلى الدهر حقيقة كفر، ومن هذا اللفظ على لسانه غير معتقد لذلك فليس بكافر، لكن يكره ذلك لتشبهه بأهل الكفر في الإطلاق. وما خير ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه[1]. وراه البخاري. أي بين أمرين من أمور الدنيا لا إثم فيهما، وأبهم «فاعل» خير ليكون أعم، من قبل الله أو من قبل المخلوقين. وقوله: إلا اختار أيسرها وقوله: ما لم يكن إثماً: أي لم يكن الأسهل مقتضياً للإثم فإنه حينئذٍ يختار الأشد. وفي حديث أنس عند الطبراني في الأوسط: إلا اختار أيسرهما ما لم يكن لله فيه سخط. ووقوع التخيير بين ما فيه إثم وما لا إثم فيه من قبل المخلوقين واضح.

ومن تواضعه ﷺ أنه لم يكن له بواب راتب، كما جاء عن أنس أنه قال: مر النبي ﷺ بامرأة وهي تبكي عند قبر، فقال: «اتقي الله واصبري»، فقالت: إليك عني فإنك خلو من مصيبتي، قال فجاوزها ومضى. فمر بها رجل فقال لها؛ ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قالت: ما عرفته. قال: إنه لرسول الله ﷺ. قال فجاءت إلى بابه فلم تجد عليه بواباً[2]. الحديث رواه البخاري. لكن في حديث أبي موسى: أنه كان بواباً للنبي ﷺ لما جلس على القف[3]. وجمع بينهما: بأنه ﷺ إذا لم يكن في شغل من أهله ولا انفراد من أمره أنه كان يرفع حجابه بينه وبين الناس ويبرز لطالب الحاجة إليه. وفي حديث عمر حين استأذن له الأسود في قصة حلفه أن لا يدخل على نسائه شهراً، ففيه: أنه كان في وقت خلوته بنفسه يتخذ بواباً، ولولا ذلك لاستأذن عمر بنفسه ولم يحتج إلى قوله يا رباح

= ١/ ١٢٠ و ١٦١ و ٣٣٧ وفي صحيح مسلم رقم الحديث (٥) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٣٦٥ وزاد المسير لابن الجوزي ٧/ ٣٦٣.

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٦٠ ـ ٦١٢٦ ـ ٦٧٨٦ ـ ٦٨٥٣). وفي سنن أبي داود في كتاب الأدب باب (٤) رقم الحديث (٤٧٨٥). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٥ وفي التمهيد لابن عبد البر ٨/ ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز باب (٢٣) رقم الحديث (٣١٢٤) والبخاري في كتاب الجنائز باب (٧) رقم الحديث (١٢٥٢ ـ ١٢٨٣ ـ ١٣٠٢ ـ ٧١٥٤).

(٣) اخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٤٠٨ والبخاري في كتاب الفتن باب (١٧) رقم الحديث (٧٠٩٧).

استأذن لي. لكن يحتمل أن يكون سبب استئذان عمر أنه خشي أن يكون وجد عليه بسبب ابنته، فأراد أن يختبر ذلك باستئذانه عليه، فلما أذن له اطمأن.

وقد اختلف في مشروعية الحجاب للحاكم. فقال الشافعي وجماعة: ينبغي أن يكون للحاكم أن لا يتخذ حاجباً. وذهب آخرون: إلى جوازه. وحمل الأول على زمن سكون الناس واجتماعهم على الخير وطواعيتهم للحاكم، وقال آخرون: بل يستحب ذلك حينئذٍ ليرتب الخصوم ويمنع المستطيل، ويدفع الشرير، والله أعلم

وأما ما روي من حيائه ﷺ[1]؛ فحسبك ما في البخاري من حديث أبي سعيد: كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها[2]. والعذراء: هي البكر. والخدر: ـ بكسر الخاء المعجمة ـ أي في سترها. وهو من باب التتميم، لأن العذراء في الخدر يشتد حياؤها أكثر مما تكون خارجة عنه، لكون الخلوة مظنة وقوع الفعل بها. فالظاهر: أن المراد تقييده بما إذا دخل عليها في خدرها لا حيث تكون منفردة فيه. والحياء ـ بالمد ـ وهو من الحياة، ومنه: الحيا للمطر، لكن هو مقصور. وعلى حسب حياة القلب تكون فيه قوة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح، وكلما كان القلب حياً كان الحياء أتم. وهو في اللغة: تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به، وقد يطلق على مجرد ترك الشيء بسبب. والترك إنما هو من لوازمه. وفي الشرع: خلق يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق.

وقال ذو النون[3]: «الحياء وجود الهيبة في القلب، مع وحشة ما يسبق منك إلى ربك، والحب ينطق والحياء يكست، والخوف يقلق».

وقال يحيى بن معاذ:[4] من استحيا من الله مطيعاً استحيا منه وهو مذنب. وهذا

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ١١٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٦٢ ـ ٦١٠٢ ـ ٦١١٩) وفي صحيح مسلم. كتاب الفضائل باب (١٦) رقم الحديث (٦٧) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٧٧ ـ ٩١. وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ١٩٩. وابن ماجه في كتاب الزهد باب (١٧) رقم الحديث (٤١٨٠). وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٣١٦. وفي المغني للعراقي ٢/ ٣٥٥. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي ٣/ ٥٨ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ١١٨. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٨/ ٢٠٦ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٦ و ٩/ ١٧ وفي فتح الباري ٦/ ٥٦٦ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ٩٩ وفي الشمائل للترمذي (١٩٢) وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ٢٥٥. وفي كنز العمال (١٧٨١٧).

(٣) هو ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري أبو الفياض أو أبو الفيض زاهد عابد توفي بالجيزة سنة (٢٤٥ هـ) الأعلام ٢/ ١٠٢ وفيات الأعيان ١/ ١٠١ تاريخ بغداد ٨/ ٣٩٣ لسان الميزان ٢/ ٤٣٧ ميزان الإعتدال ١/ ٣٣١.

(٤) هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي أبو زكريا واعظ زاهد مات في نيسابور سنة (٢٥٨ هـ). الأعلام=

الكلام يحتاج إلى شرح ومعناه: أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى في حال طاعته فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستحي خجل، فإنه إذا وقع منه ذنب استحيا الله من نظره إليه في تلك الحالة لكرامته عليه، فيستحي أن يرى من وليه ما يشينه عنده. وفي الشاهد. شاهد بذلك، فإن الرجل إذا اطلع على أخص الناس به وأحبهم إليه وأقربهم منه، من صاحب أو ولد أو من يحبه، وهو يخونه، فإنه يلحقه من ذلك الاطلاع عليه حياء عجيب حتى كأنه هو الجاني. وهذا غاية الكرم. وللحياء أقسام ثمانية يطول استقصاؤها.

منها: حياء الكرم، كحيائه ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب، وطولوا عنده المقام، واستحيا أن يقول لهم انصرفوا.

ومنها: حياء المحب من محبوبه، حتى إنه إذا خطر على قلبه في حال غيبته هاج الحياء من قلبه وأحس به في وجهه، فلا يدري ما سببه.

ومنها: حياء العبودية، وهو حياء يمتزج بين محبة وخوف ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلى وأجل منها، فعبوديته له توجب استيحاءه منه لا محالة.

ومنها: حياء المرء من نفسه، وهو حياء النفوس الشريفة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقنعها بالدون، فيجد نفسه مستحيياً من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحي بإحداهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحياء، فإن العبد إذا استحيا من نفسه فهو بأن يستحي من غيره أجدر.

والحياء ـ كما قال ﷺ «لا يأتي إلا بخير، وهو من الإيمان»[1]، كما رواهما البخاري. قال القاضي عياض وغيره: وإنما جعل الحياء من الإيمان ـ وإن كان غريزة ـ لأن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى قصد واكتساب وعلم. وقال القرطبي: الحياء المكتسب هو الذي جعله الشارع من الإيمان، وهو المكلف به دون الغريزي. غير أن من كان فيه غريزة منه فإنها تعينه على المكتسب، حتى يكاد يكون غريزياً، وكان النبي ﷺ قد جمع له النوعان، فكان في الغريزي أشد حياء من العذراء في خدرها. وقال القاضي

= ٨/ ١٧٢ صفة الصفوة ٤/ ٧١ طبقات الصوفية (١٠٧).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب (٧٧) رقم الحديث (٦١١٧ ـ ٦١١٨). وفي صحيح مسلم في كتاب الإيمان رقم الحديث (٦٠) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٤٢٧. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٨/ ٢٠٦. وفي اتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٠٨. وفي الأدب المفرد للبخاري رقم الحديث (١٣١٨ ـ ١٣١٩). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٠٧١). وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٣٩٧. وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ١٧٣ . وفي كنز العمال (٥٧٦٣).

عياض: وروي عنه ﷺ: كان من حيائه لا يثبت بصره في وجه أحد.

وأما خوفه ﷺ ربه[1] جل وعلا، فاعلم أن الخوف والوجل والرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة. قال الجنيد: الخوف توقع العقوبة على مجاري الأنفاس. وقيل الخوف: اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف. وقيل الخوف: قوة العلم بمجاري الأحكام، وهذا سبب الخوف، لا أنه نفسه. وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره. والخشية أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله تعالى: قال الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر: ٢٨]، فهو خوف مقرون بمعرفة. وقال ﷺ «أنا أتقاكم لله وأشدكم له خشية»[2] فالخوف حركة والخشية انجماع وانقباض وسكون، فإن الذي يرى العدو والسيل ونحوهما له حالتان: إحداهما حركة للهرب منه وهي حالة الخوف، والثانية سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه وهي الخشية.

وأما الرهبة: فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه. وأما الوجل: فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته. وأما الهيبة: فخوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ما تكون مع المعرفة والمحبة. والإجلال: تعظيم مقرون بالحب.

فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين. وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية، كما قال ﷺ: «إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية» رواه البخاري، وقال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»[3] رواه البخاري من حديث أبي هريرة، وفيه دلالة على اختصاصه

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ١٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب (١٣) رقم الحديث (٢٠ ـ ٦١٠١ ـ ٧٣٠١). وفي صحيح مسلم كتاب الصيام رقم الحديث (٧٤) وفي الموطأ للإمام مالك كتاب الصيام رقم الحديث (١٣) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣١٧ و ٥/ ٤٣٤ و ٦/ ٦١. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٣/ ١٦٦. وفي كنز العمال (٣١٩٦٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب (١٢) رقم الحديث (٤٦٢١ ـ ٦٤٨٥ ـ ٦٦٣٧). وفي صحيح مسلم كتاب الفضائل باب (٣٧) رقم الحديث (١٣٤). وفي الترمذي. كتاب الزهد باب (٩) رقم الحديث (٢٣١٢ ـ ٢٣١٣) وابن ماجة رقم الحديث (٤١٩٠ ـ ٤١٩١). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣١٢ ـ ٤٥٣ ـ ٥٠٢ و ٣/ ١٨٠ ـ ٢٦٨ وفي سنن الدارمي ٢/ ٣٠٦. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٣٣٨. وفي المعجم الكبير للطبراني ٧/ ٢٩٨. وفي المستدرك للحاكم ٣/ ٦٣٥ و ٤/ ٣٢٠. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٢٣٠. وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٢٦٥. وفي المطالب العالية لابن حجر (٣٣٠٥) وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ١٤٤. وفي اتحاف السادة المتقين ٢/ ٦٦ و ٧/ ٤٩٦. وفي المغني للعراقي ١/ ٩٩ وفي كنز العمال (٢٠٨٩٤ـ ٣٠٨٩٥ ـ ٣٠٨٩٧ ـ ٣١٠١٧ ـ ٣١٠٢٣).

ﷺ بمعارف بصرية وقلبية. وقد يطلع الله تعالى عليها غيره من المخلصين من أمته لكن بطريق الإجمال، وأما تفصيلها فاختص بها ﷺ.

وفي صحيح مسلم من حديث أنس أنه ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده، لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» قالوا: وما رأيت يا رسول الله قال: «رأيت الجنة والنار»[1].

فقد جمع الله له بين علم اليقين وعين اليقين مع الخشية القلبية، واستحضار العظمة الإلهية على وجه لم يجتمع لغيره، ولذا قال: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»[2] وهو في الصحيح من حديث عائشة. وكان ﷺ يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء[3] رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحه بلفظ: كأزيز الرحا، أي خنين من الخوف ـ بالخاء المعجمة ـ وهو صوت البكاء. وقيل: وهو أن يجيش جوفه ويغلي بالبكاء.

وأما ما روي من شجاعته [4] ﷺ ونجدته وقوته في الله وشدته، فعن أنس: (كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً قد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عري والسيف في عنقه وهو يقول: «لن تراعوا»[5].

وفي رواية: كان فزع بالمدينة فاستعار النبي ﷺ فرساً من أبي طلحة يقال له المندوب، فركب فلما رجع قال: «ما رأينا من شيء، وإن وجدناه لبحراً، أو إنه لبحر». قال وكان فرساً يبطؤ[6] رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة رقم الحديث (١١٢) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/١٢٦ ـ ٢١٧. وفي مسند أبي عوانة ٢/١٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب (١٣) رقم الحديث (٢٠). وفي جمع الجوامع للسيوطي (٦٠٧٧) وفي فتح الباري ١/٩٦ وفي كنز العمال (٣١٩٩١).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب (١٥٦ ـ ١٥٧) رقم الحديث (٩٠٤). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/٢٥ ـ ٢٦. في سنن النسائي ٣/١٣.

(٤) انظر البداية والنهاية ٦/ ٦١ والشفا للقاضي عياض ١/ ١١٤.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير باب (١٦٥) رقم الحديث (٣٠٤٠) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/١٤٧. وفي الشفا للقاضي عياض ١/١١٥. وفي اتحاف السادة المتقين ٧/١٣٨ ـ ١٤٠ ـ ١٤٩ ـ ٣٢٢. وفي حلية الأولياء ٦/ ٢٦٠. وفي كنز العمال (١٧٨١٤).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الهبة باب (٣٣) رقم الحديث (٢٦٢٧ ـ ٢٨٢٠ ـ ٢٨٢٧ ـ ٢٨٦٢ ـ ٢٨٦٦ ـ ٢٨٦٧ ـ ٢٩٠٨ ـ ٦٢١٢). وفي صحيح مسلم كتاب الفضائل رقم الحديث (٤٨ ـ ٤٩)=

وللبخاري: إن أهل المدينة فزعوا مرة، فركب النبي ﷺ فرساً لأبي طلحة كان يقطف، أو فيه قطاف، فلما رجع قال: «وجدنا فرسكم هذا بحراً» فكان بعد لا يجاري. وفي أخرى له: ثم خرج يركض وحده فركب الناس يركضون خلفه فقال: «لن تراعوا إنه لبحر، فما سبق بعد ذلك اليوم». قوله لن تراعوا: أي روعاً مستقراً، أو روعاً يضر بكم.

وفي هذا الحديث بيان شجاعته ﷺ من شدة عجلته في الخروج إلى العدو قبل الناس كلهم، بحيث كشف الحال ورجع قبل وصول الناس. وفيه: بيان عظيم بركته ومعجزته في انقلاب الفرس سريعاً بعد أن كان بطيئاً وهو معنى قوله ﷺ: «وجدناه بحراً» أي واسع الجري. وكان فيه قطاف: يقال: قطف الفرس في مشيه إذا تضايق خطوه وأسرع مشيه.

قال القاضي عياض: وقد كان في أفراسه ﷺ فرس يقال له: مندوب، فلعله صار إليه بعد أبي طلحة. وقال النووي: يحتمل أنهما فرسان اتفقا في الإسم. وقال ابن عمر: ما رأيت أشجع ولا أنجد من رسول الله ﷺ[1]. وذكر ابن إسحاق في كتابه وغيره: أنه كان بمكة رجل شديد القوة يحسن الصراع وكان الناس يأتونه من البلاد للمصارعة فيصرعهم. فبينا هو ذات يوم في شعب من شعاب مكة إذ لقيه رسول الله ﷺ فقال له: «يا ركانة ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه» ـ أو كما قال له رسول الله ﷺ ـ فقال له ركانة: يا محمد، هل من شاهد يدل على صدقك؟ قال: «أرأيت إن صرعتك أتؤمن بالله ورسوله؟» قال: نعم يا محمد، فقال له: «تهيأ للمصارعة» قال: تهيأت، فدنا منه رسول الله ﷺ فأخذه ثم صرعه، قال فتعجب ركانة من ذلك، ثم سأله الإقالة والعودة، ففعل به ذلك ثانياً وثالثاً. فوقف ركانة متعجباً وقال: إن شأنك لعجيب[2]. رواه الحاكم في مستدركه عن أبي جعفر محمد بن ركانة المصارع، ورواه أبو داود والترمذي وكذا البيهقي من رواية سعيد بن جبير.

وقد صارع ﷺ جماعة غير ركانة، منهم أبو الأسود الجمحي، كما قاله السهيلي. ورواه البيهقي، وكان شديداً بلغ من شدته أنه كان يقف على جلد البقرة، ويجاذب أطرافه

= وفي سنن أبي داود كتاب الأدب باب (٧٩) رقم الحديث (٤٩٨٨). وفي ابن ماجه كتاب الجهاد باب (٩) رقم الحديث (٢٧٧٢) وفي الترمذي كتاب الجهاد باب (١٤) رقم الحديث (١٦٨٥ ـ ١٦٨٦). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٤٧ـ ١٦٣ ـ ٢٩١. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٧٠. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ٢٦٤ وفي أخلاق النبوة (٥٨).

(١) أخرجه الدارمي في المقدمة رقم الحديث (١٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب اللباس باب (٤٢) رقم الحديث (١٧٨٤) وأبو داود في كتاب اللباس باب (٢١) رقم الحديث (٤٠٧٨) وفي البداية والنهاية ٣/ ١٠١ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢٥٠.

عشرة لينزعوه من تحت قدميه، فيتفرى الجلد ولم يتزحزح عنه، فدعا رسول الله ﷺ إلى المصارعة وقال: إن صرعتني آمنت بك، فصرعه رسول الله ﷺ فلم يؤمن وفي قصته طول.

وفي البخاري من حديث البراء، وسأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: فأكببنا على المغانم فاستقبلنا بالسهام. ولقد رأيت النبي ﷺ وهو على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بزمامها وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، لأنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع هذا على بغلة ليست بسريعة الجري، ولا تصلح لكل ولا فر ولا هرب، ومع ذلك يركضها إلى وجوههم، وينوه باسمه ليعرفه من ليس يعرفه صلوات الله وسلامه عليه. وفي حديث البراء: كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله ﷺ أي جعلناه قدامنا واستقبلنا العدو به، وقمنا خلفه.

وأما ما ذكر من سخائه وجوده وكرمه[1]، فاعلم أن السخاء صفة غريزية، وفي مقابلته الشح، والشح من لوازم صفة النفس، قال الله تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ [الحشر: ٩] فحكم بالفلاح لمن وقي الشح، وحكم بالفلاح أيضاً لمن أنفق وبذل فقال: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ [البقرة: ٣ والأنفال: ٣ والحج: ٣٥ والقصص: ٥٤ والسجدة: ١٦ والشورى: ٣٨] ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ [البقرة: ٥] والفلاح أجمع اسم لسعادة الدارين. وليس الشح من الآدمي بعجيب، لأنه جبلي فيه، وإنما العجب وجود السخاء في الغريزة. والسخاء أتم وأكمل من الجود، وفي مقابلته البخل. وفي مقابلة السخاء الشح، والجود والبخل يتطرق انتهى الاكتساب بطريق العادة بخلاف الشح والسخاء إذ كان ذلك من ضرورة الغريزة، فكل سخي جواد وليس كل جواد سخياً. والجود يتطرق إليه الرياء، ويأتي به الإنسان متطلعاً لغرض من الخلق أو الحق بمقابلة من الثناء أو غير ذلك من الخلق والثواب من الله تعالى، ولا يتطرق الرياء إلى السخاء لأنه ينبع من النفس الزكية المرتفعة عن الأغراض. أشار إليه في عوارف المعارف.

وقد كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس رواه البخاري ومسلم من حديث أنس. وأجود: أفعل تفضيل، من الجود وهو إعطاء ما ينبغي لمن

---

(١) انظر البداية والنهاية ٦/ ٤٤ والشفا للقاضي عياض ١/ ١١١.

ينبغي، ومعناه: هو أسخى الناس، ولما كانت نفسه أشرف النفوس ومزاجه أعدل الأمزجة لا بد أن يكون فعله أحسن الأفعال، وشكله أملح الأشكال، وخلقه أحسن الأخلاق، فلا شك يكون أجود الناس، وكيف لا وهو مستغن عن الفانيات بالباقيات الصالحات. واقتصار أنس على هذه الأوصاف الثلاثة من جوامع الكلم، لأنها أمهات الأخلاق، فإن في كل إنسان ثلاث قوى: إحداها الغضبية، وكمالها الشجاعة، وثانيها، الشهوانية وكمالها الجود، وثالثها العقلية وكمالها النطق بالحكمة.

وفي رواية لمسلم عنه: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً إلا أعطاه، فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر. وعنده أيضاً عن صفوان بن أمية قال: لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لمن أبغض الناس إلي، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي. قال ابن شهاب: أعطاه يوم حنين مائة من الغنم، ثم مائة، ثم مائة. وفي مغازي الواقدي: إن النبي ﷺ أعطى صفوان يومئذ وادياً مملوءاً إبلاً ونعماً، فقال صفوان: أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي. ويرحم الله ابن جابر حيث قال:

هـذا الـذي لا يتقـي فقـراً إذا   يعطـي ولـو كثـر الأنـام ودامـوا
واد مـن الأنعـام أعطـى آمـلا   فتحيـرت لعطـائـه الأوهـام

وإنما أعطاه ذلك لأنه ﷺ علم أن داءه لا يزول إلا بهذا الدواء وهو الإحسان فعالجه به حتى برىء من داء الكفر وأسلم، وهذا من كمال شفقته ورحمته ورأفته ﷺ إذ عامله بكمال الإحسان، وأنقذه من حر النيران إلى برد لطف الجنان. وكان علي إذا وصفه ﷺ قال: كان أجود الناس كفاً، وأصدق الناس لهجة. وخرج ابن عدي ـ بإسناد فيه ضعف ـ من حديث أنس مرفوعاً: «أنا أجود بني آدم»(1).

فهو ﷺ بلا ريب أجود بني آدم على الإطلاق، كما أنه أفضلهم وأعلمهم وأشجعهم وأكملهم في جميع الأوصاف الحميدة، وكان جوده بجميع أنواع الجود، من بذل العلم والمال، وبذل نفسه لله في إظهار دينه وهداية عباده وإيصال النفع إليهم بكل طريق، من إطعام جائعهم ووعظ جاهلهم، وقضاء حوائجهم، وتحمل أثقالهم، ولقد أحسن ابن جابر حيث قال:

يـروي حـديـث الندى والبشـر عـن يـده   ووجهـه بيـن منهـل ومنسجـم

---

(1) ذكره الزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٧/٩٧ والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٣٢٠ وفي فتح الباري ١/ ٤١.

مـن وجـه أحمـد لـي بـدر ومـن يـده بحــر ومــن فمــه در لمنتظــم

يمـم نبيـاً تبـاري الـريـح أنملـه والمـزن مـن كـل هـام الـودق مـرتكـم

لـو عـامـت الفلـك فيمـا فـاض مـن يـده لـم تلـق أعظـم بحـر منـه إن تعـم

تحيـط كفـاه بـالبحـر المحيـط فلـذ بـه ودع كـل طـامـي المـوج ملتطـم

لـو لـم تحـط كفـه بـالبحـر مـا شملـت كـل الأنـام وروت قلـب كـل ظمـي

فسبحان من أطلع أنوار الجمال من أفق جبينه، وأنشأ أمطار السحاب من غمائم يمينه. روى البخاري من حديث جابر: (ما سئل رسول الله ﷺ عن شيء قط فقال: لا) وكذا عند مسلم، أي ما طلب منه شيء من أمر الدنيا فمنعه. قال الفرزدق[1]:

مـا قـال لا قـط إلا فـي تشهـده لـولا التشهـد كـانـت لاؤه نعـم

لكن قال شيخ مشايخنا الحافظ أبو الفضل ابن حجر: ليس المراد أنه يعطي ما يطلب منه جزماً، بل المراد: أنه لا ينطق بالرد، بل إن كان عنده أعطاه إن كان الإعطاء سائغاً وإلا سكت. قال: وقد ورد بيان ذلك في حديث مرسل لابن الحنيفة عند ابن سعد ولفظه: إذا سئل فأراد أن يفعل قال: نعم، وإن لم يرد أن يفعل سكت. وهو قريب من حديث أبي هريرة؛ ما عاب طعاماً قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه. قال الشيخ عز الدين ابن عبد السلام معناه: لم يقل: لا، منعاً للعطاء، ولا يلزم من ذلك أن لا يقولها اعتذاراً كما في قوله تعالى: ﴿قلتَ لا أجد ما أحملكم عليه﴾ [التوبة: ٩٢]، ولا يخفى الفرق بين قوله: لا أجد ما أحملكم وبين لا أحملكم انتهى. وهو نظير ما في حديث أبي موسى الأشعري: لما سأله الأشعريون الحملان فقال ﷺ: «ما عندي ما أحملكم».

لكن يشكل عليه أنه ﷺ حلف لا يحملهم فقال: «والله لا أحملكم».

لكن يشكل عليه أنه ﷺ حلف لا يحملهم فقال: «والله لا أحملكم» فيمكن أن يخص من عموم حديث جابر، ما إذا سئل ما ليس عنده والسائل يتحقق أنه ليس عنده ذلك، أو حيث كان المقام لا يقتضي الاقتصار على السكوت من الحالة الواقعة، أو من حال السائل، كأن لم يكن يعرف العادة، فلو اقتصر في جوابه على السكوت مع حاجة السائل لتمادى على السؤال مثلاً، ويكون القسم على ذلك تأكيداً لقطع طمع السائل، والسر في الجمع بين قوله: «لا أجد ما أحملكم» وقوله: «والله لا أحملكم» أن الأول لبيان أن الذي سئله لم يكن موجوداً عنده، والثاني

---

(١) هو همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي، أبو فراس الشهير بالفرزدق شاعر. توفي في بادية البصرة سنة (١١٠ هـ). الأعلام ٨/ ٩٣، وفيات الأعيان ٢/ ١٩٦. الأغاني ٩/ ٣٦٧، الشعر والشعراء ٤٤٢.

أنه لا يتكلف الإجابة إلى ما سئل بالقرض مثلاً أو بالاستيهاب، إذ لا اضطرار حينئذٍ. وروى الترمذي أنه حمل إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير، ثم قام إليها يقسمها، فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

قال: وجاءه رجل فقال ما عندي شيء ولكن ابتع علي، فإذا جاءنا شيء قضيناه، فقال له عمر: ما كلفك الله ما لا تقدر، فكره النبي ﷺ، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً، فتبسم ﷺ وعرف البشر في وجهه. وقال: «بهذا أمرت»[1].

وإنما فعل ذلك للمصلحة الداعية لذلك كالاستئلاف ونحوه.

وذكر ابن فارس في كتابه «في أسماء النبي ﷺ» أنه في يوم حنين جاءت امرأة فأنشدت شعراً تذكره أيام رضاعته في هوازن فرد عليهم ما أخذ وأعطاهم عطاء كثيراً حتى قوم ما أعطاهم ذلك اليوم فكان خمسمائة ألف ألف. قال ابن دحية: وهذا نهاية الجود الذي لم يسمع بمثله في الوجود.

وفي البخاري من حديث أنس: أنه أتي بمال من البحرين فقال: «انثروه» يعني صبوه ـ في المسجد، وكان أكثر مال أتي به النبي ﷺ، فخرج إلى المسجد ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاءه العباس فقال: أعطني، فإني فاديت نفسي وفاديت عقيلاً، فقال له «خذ»، فحثا في ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال يا رسول الله مر بعضهم يرفعه إلي، قال: لا، قال: فارفعه أنت علي، قال: لا، فنثر منه ثم ذهب يقله فلم يستطع فقال: يا رسول الله مر بعضهم يرفعه علي، قال: لا، قال: فارفعه أنت قال: لا، ثم نثر منه ثم احتمله فألقاه على كاهله فانطلق، فما زال النبي ﷺ يتبعه بصره حتى خفي علينا عجباً من حرصه، فما قام ﷺ وثم منها درهم[2].

وفي رواية ابن أبي شيبة من طريق حميد بن هلال مرسلاً: كان مائة ألف، وأنه أرسل به العلاء بن الحضرمي من خراج البحرين، قال: وهو أول مال حمل إليه ﷺ.

وسايره جابر على جمل له، فقال له ﷺ: «بعني جملك» فقال: هو لك يا رسول

---

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل (٢٨١) وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ١١٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجزية والموادعة باب (٤) رقم الحديث (٣١٦٥) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٣٥٦ وفي المطالب العالية لابن حجر (٣٦٤٧) وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/ ٢٣٤ وفي البداية والنهاية ٣/ ٣٠٠ وفي تغليق التعليق لابن حجر (٢٢٤ و ٩٩٢).

الله، بأبي أنت وأمي، فقال: «بل بعنيه» فباعه إياه وأمر بلالاً أن ينقده ثمنه فنقده، ثم قال: ﷺ «اذهب بالثمن والجمل بارك الله لك فيهما». مكافأة لقوله: هو لك، فأعطاه الثمن ورد عليه الجمل وزاده الدعاء بالبركة فيهما. وحديثه في البخاري ومسلم وغيرهما.

وقد كان جوده ﷺ كله لله وفي ابتغاء مرضاته، فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو لمحتاج وتارة ينفقه في سبيل الله، وتارة يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه. وكان يؤثر على نفسه وأولاده، فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا توقد في بيته نار، وربما ربط الحجر على بطنه الشريفة من الجوع.

وكان ﷺ قد أتاه سبي، فشكت إليه فاطمة ما تلقى من خدمة البيت وطلبت منه خادماً يكفيها مؤنة بيتها، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد، وقال: «لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم من الجوع»[1]. وأتته امرأة ببردة فقالت: يا رسول أكسوك هذه، فأخذها ﷺ محتاجاً إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه فاكسنيها فقال: «نعم» فلما قام ﷺ لامه أصحابه، قالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجاً إليها ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئاً فيمعنه. رواه البخاري من حديث سهل بن سعد. وفي رواية ابن ماجه والطبراني قال: نعم، فلما دخل طواها وأرسل بها إليه[2]. وأفاد الطبراني في رواية زمعة ابن صالح أنه ﷺ أمر أن يصنع له غيرها فمات قبل أن يفرغ منها. وفي هذا الحديث من الفوائد: حسن خلقه ﷺ وسعة جوده.

واستنبط منه السادة الصوفية: جواز استدعاء المريد خرقة التصوف من المشايخ تبركاً بهم وبلباسهم، كما استدلوا لإلباس الشيخ للمريد بحديث أنه ﷺ ألبس أم خالد خميصة سوداء ذات علم[3] رواه البخاري.

لكن قال شيخنا: ما يذكرونه من أن الحسن البصري لبسها من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال ابن دحية وابن الصلاح: إنه باطل، وقال شيخ الإسلام الحافظ ابن

---

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية ٢/ ٤١ وفي كنز العمال للمتقي الهندي (٤١٩٧٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز: باب (٢٨) رقم الحديث (١٢٧٧ - ٢٠٩٣ - ٥٨١٠ - ٦٠٣٦). وابن ماجه كتاب اللباس باب (١) رقم الحديث (٣٥٥٥). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٢٢٢ و ٢٢٤. وفي سنن النسائي ٨/ ٢٠٤.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٢٢) رقم الحديث (٥٨٢٣ - ٥٨٤٥).

حجر ليس في شيء من طرقها ما يثبت، ولم يرد في خبر صحيح ولا حسن ولا ضعيف أنه ﷺ ألبس الخرقة على الصورة المتعارفة بين الصوفية لأحد من أصحابه، ولا أمر أحداً من أصحابه بفعلها، وكل ما يروى صريحاً في ذلك فباطل. قال: ثم إن من الكذب المفترى قول من قال: إن علياً ألبس الخرقة الحسن البصري، فإن أئمة الحديث لم يثبتوا للحسن من علي سماعاً فضلاً عن أن يلبسه الخرقة.

وكذا قال الدمياطي والذهبي والعلاء ومغلطاي والعراقي والأبناسي[1] والحلبي وغيرهم مع كون جماعة منهم لبسوها وألبسوها تشبهاً بالقوم، نعم ورد لبسهم لها مع الصحبة له المتصلة إلى كميل بن زياد[2]، وهو صحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه من غير خلف في صحبته له بين أئمة الجرح والتعديل.

وفي بعض الطرق اتصالها بأويس القرني، وهو اجتمع بعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما. وهذه صحبة لا مطعن فيها، وكثير من السادة يكتفي بمجرد الصحبة كالشاذلية وشيخنا أبي إسحاق المتبولي.

وكان الشيخ يوسف العجمي يجمع بين تلقين الذكر وأخذ العهد واللبس وله في ذلك رسالته «ريحان القلوب» قرأتها على ولد ولده العارف المسلك سيدي علي، مع إلباسه لي الخرقة والتلقين والعهد.

وللشيخ قطب الدين القسطلاني «ارتقاء الرتبة في اللباس والصحبة» والله يهدينا إلى سواء السبيل.

---

(١) هو إبراهيم بن موسى بن أيوب، برهان الدين أبو إسحاق الأبناسي (٧٢٥ ـ ٨٠٢ هـ) فقيه شافعي. ولد بأبناس وتوفي آيباً من الحج في عون القصب. الأعلام ١/ ٧٥ شذرات الذهب ٧/ ١٣ والضوء اللامع ١/ ١٧٢.

(٢) هو كميل بن زياد بن نهيك النخعي (١٢ ـ ٨٢ هـ). تابعي ثقة. الأعلام ٥/ ٢٣٤. الإصابة ٥/ ٣٢٥ رقم الترجمة (٧٤٩٥). طبقات ابن سعد ٦/ ٢١٧ رقم الترجمة (٢١٠٦) تهذيب التهذيب ٨/ ٤٤٧.

فيما تدعو ضرورته إليه ﷺ من غذائه وملبسه ومنكحه وما يلحق بذلك(١)

وفيه أربعة أنواع:

النوع الأول
في عيشه ﷺ في المأكل والمشرب

اعلم أن تناول الطعام أصل كبير، يحتاج إلى علوم كثيرة، لاشتماله على المصالح الدينية والدنيوية، وتعلق أثره بالقلب والقالب، وبه قوام البدن بإجراء سنة الله تعالى بذلك، والقالب مركب القلب، وبهما عمارة الدنيا والآخرة، والقالب بمفرده على طبيعة الحيوان يستعان به على عمارة الدنيا ، والروح والقلب على طبيعة الملائكة يستعان بهما على عمارة الآخرة، وباجتماعهما يصلحان لعمارة الدارين.

قال الغزالي: ولا طريق إلى الوصول إلى اللقاء إلا بالعلم والعمل، ولا يمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن، ولا تصفو سلامة البدن إلا بالأطعمة والأقوات، والتناول منها بقدر الحاجات، على تكرار الأو ات. فمن هذا الوجه، قال بعض السلف الصالحين: إن الأكل من الدين، وعليه نبه رب العالمين بقوله، وهو أصدق القائلين: ﴿كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ [المؤمنون: ٥١]، فمن تناول الأكل ليستعين به على العلم والعمل، ويقوى به على التقوى فلا ينبغي أن يترك نفسه سدى يسترسل في الأكل استرسال البهائم في المرعى، فإنما هو ذريعة إلى الدين ووسيلة إليه، ينبغي أن تظهر أنوار الدين عليه، وإنما نور الدين وآدابة وسننه، التي يزم العبد بزمامها، ويلجم المتقي بلجامها، حتى يزن بميزان الشرع، شهوة الطعام في إقدامها واحجامها، فيصير بسببها مدفعة للوزر ومجلبة للأجر.

واعلم أن الشبع بدعة ظهرت بعد القرن الأول، وقد روى النسائي وابن ماجه وصححه الحاكم من حديث المقدام بن معدي كرب أن رسول الله ﷺ قال: «ما ملأ ابن

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٩٨ ـ ٣٤٧ والشفا للقاضي عياض ١/ ٨٣.

آدم وعاء شراً من بطنه، حسب الآدمي لقيمات يقمن صلبه، فإن غلبت الآدمي نفسه فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس»[1].

قال القرطبي في شرح «الأسماء» كما نقله شيخ الإسلام والحفّاظ ابن حجر: لو سمع بقراط بهذه القسمة لعجب من هذه الحكمة. وقال غيره: إنما خص الثلاثة بالذكر لأنها أسباب حياة الحيوان، ولأنه لا يدخل البطن سواها. وهل المراد بالثلث التساوي على ظاهر الخبر، أو التقسيم على ثلاثة أقسام متقاربة؟ محل احتمال. وقد صح، (المؤمن يأكل في معى واحد ـ وهي بكسر الميم مقصور: المصارين ـ والكافر يأكل في سبعة أمعاء)[2] وليست حقيقة العدد مرادة، وتخصيص السبعة للمبالغة في التكثير، والمعنى: أن المؤمن من شأنه التقلل من الأكل لاشتغاله بأسباب العبادة ولعلمه بأن مقصود الشرع من الأكل ما سد الجوع، ويعين على العبادة، ولخشيته أيضاً من حساب من زاد على ذلك، والكافر بخلاف ذلك.

وعند أهل التشريح أن أمعاء الإنسان سبعة؛ المعدة ثم ثلاثة أمعاء بعدها متصلة بها: البواب ثم الصائم ثم الرقيق، والثلاثة رقاق. ثم الأعور والقولون والمستقيم وطرفه الدبر، وكلها غلاظ، وقد نظمها زين الدين العراقي في قوله:

سبعة أمعاء لكل آدمي ... معدة بوابها مع صائم
ثم الرقيق أعور قولون مع ... المستقيم مسلك المطاعم

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد باب (٤٧) رقم الحديث (٢٣٨٠). وابن ماجه في كتاب الأطعمة باب (٥٠) رقم الحديث (٣٣٤٩). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٣٢. وفي سنن الدارمي (٢١٣). وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٣٣١ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٢٧٨. وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٨٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥١٩٢). وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ١٣٦. وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ٣٨٧. وفي المغني للعراقي ٢/ ٤. وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٨٠ وفي تفسير ابن كثير ٣/ ٤٠٣. وفي تفسير القرطبي ٧/ ١٩٢. وفي فتح الباري ١١/ ٣٤٨. وفي كنز العمال (٤٠٨٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (١٢) رقم الحديث (٥٣٩٣ ـ ٥٣٩٦ ـ ٥٣٩٧) وفي صحيح مسلم في كتاب الأشربة رقم الحديث (١٨٢ ـ ١٨٤ ـ ١٨٥). وفي الترمذي رقم الحديث (١٨١٨). وابن ماجه رقم الحديث (٣٢٥٦ ـ ٣٢٥٧ ـ ٣٢٥٨). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢١ و٣/ ٣٥٧ و٦/ ٣٣٥. وفي سنن الدارمي ٢/ ٩٩ وفي المسند للحميدي رقم الحديث (٩٦٩). وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ٣٨٩. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ٣٢ ـ ٣٣. وفي مشكل الآثار للطحاوي ٢/ ٤٠٧. وفي التاريخ الكبير للبخاري ٤/ ١٩٩. وفي تفسير القرطبي ٧/ ١٩٢. وفي المغني للعراقي (٧٩) وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٦/ ٣٤٧ وفي العلل لابن أبي حاتم الرازي (١٥٤٠) وفي كنز العمال (٦٧٠ ـ ٧٨٠).

فيكون المعنى: أن الكافر لكونه يأكل بشرهه لا يشبعه إلا ملء أمعائه السبعة، والمؤمن يشبعه ملء معى واحد.

ولا يلزم من هذا الحديث اطراده في حق كل مؤمن وكافر، فقد يكون في المؤمنين من يأكل كثيراً، إما بحسب العادة أو لعارض له من مرض باطن أو لغير ذلك. ويكون في الكفار من يأكل قليلاً إما لمراعاة الصحة على رأي الأطباء، وإنما للرياضة على رأي الرهبان، وإما لعارض كضعف المعدة.

ومحصل القول إن من شأن المؤمن الحرص على الزهادة والاقتناع بالبلغة، بخلاف الكافر. وقيل: المراد أن المؤمن يسمي الله عند طعامه وشرابه فلا يشركه الشيطان فيكفيه القليل بخلاف الكافر. وقيل: المراد بالمؤمن ـ في هذا الحديث ـ التام الإيمان، لأن من حسن إسلامه وكمل إيمانه اشتغل فكره فيما يصير إليه من الموت وما بعده، فيمنعه شدة الخوف وكثرة الفكر والإشفاق على نفسه من استيفاء شهوته كما ورد في حديث لأبي أمامة رفعه: «من كثر تفكره قل مطعمه، ومن قل تفكره كثر مطعمه، وقسا قلبه» وقالوا: لا تدخل الحكمة معدة ملئت طعاماً، ومن قل طعامه قل شربه وخف منامه، ومن خف منامه ظهرت بركة عمره، ومن امتلأ بطنه كثر شربه، ومن كثر شربه ثقل نومه، ومن ثقل نومه محقت بركة عمره، فإذا اكتفى بدون الشبع حسن اغتذاء بدنه، وصلح حال نفسه وقلبه، ومن تملا من الطعام ساء غذاء بدنه وأشرت نفسه وقسا قلبه.

وعن ابن عباس قال ﷺ «إن أهل الشبع في الدنيا هم أهل الجوع غداً في الآخرة»[1] رواه الطبراني.

وعن سلمان وأبي جحيفة أن النبي ﷺ قال: «إن أكثر الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً في الآخرة»[2].

وقالت عائشة؛ لم يمتلىء جوف النبي ﷺ شبعاً قط. وإنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب.

وقولها: لم يمتلىء جوف النبي ﷺ شبعاً قط، محمول على الشبع الذي يثقل المعدة ويثبط صاحبه عن القيام بالعبادة، ويفضي إلى البطر والأشر والنوم والكسل، وقد

---

(١) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١١/٢٦٧. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/٢٥٠. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/٣٩١ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٦٣١٩). وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/١٣٧. وفي كنز العمال (٦١٥٦).

(٢) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء ١/١٩٨. وفي الضعفاء للعقيلي ٣/٣٦٠.

تنتهي كراهته إلى التحريم بحسب ما يترتب عله من المفسدة، وليس المراد بالشبع النسبي المعتاد في الجملة، ففي صحيح مسلم: خروجه ﷺ وصاحبيه من الجوع وذهابهم إلى بيت الأنصاري، وذبحه الشاة. وفيه: فلما أن شبعوا ورووا. قال النووي: فيه جواز الشبع، وما جاء في كراهته محمول على المداومة عليه.

وعن أبي هريرة قال: ما شبع آل محمد ﷺ من طعام ثلاثة أيام تباعاً حتى قبض. رواه الشيخان.

وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة وأهله طاوياً لا يجدون عشاء، وإنما كان خبزهم الشعير. رواه الترمذي وصححه.

وفي حديث مسعر عند مسلم: «ما شبع آل محمد يومين من خبز البر، إلا وأحدهما تمر»[1].

وأخرج ابن سعد من طريق عمران بن زيد المدني: حدثني والدي قال: دخلنا على عائشة فقالت: خرج - تعني النبي ﷺ - من الدنيا ولم يملأ بطنه في يوم من طعامين، كان إذا شبع من التمر لم يشبع من الشعير، وإذا شبع من الشعير لم يشبع من التمر.

وليس في هذا ما يدل على ترك الجمع بين لونين، فقد جمع ﷺ القثاء والرطب كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وعن الحسن قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «والله ما أمسى في آل محمد صاع من طعام، وإنها لتسعة أبيات» والله ما قالها استقلالاً لرزق الله ولكن أراد أن تتأسى به أمته. رواه الدمياطي في السيرة له.

وعن عائشة قالت: كان يعجب نبي الله ﷺ من الدنيا ثلاثة أشياء: الطيب والنساء والطعام، فأصاب اثنتين ولم يصب واحدة، أصاب النساء والطيب، ولم يصب الطعام. ذكره الدمياطي أيضاً.

وفي رواية مسلم: «يظل اليوم يلتوي ما يجد من الدَّقَل ما يملأ بطنه»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٢٣) رقم الحديث (٥٤١٦ - ٦٤٥٤). وفي صحيح مسلم في كتاب الزهد رقم الحديث (٢٠ - ٢٥ - ٣٣). وابن ماجة كتاب الأطعمة باب (٤٨) رقم الحديث (٣٣٤٤). وفي سنن النسائي ٧/ ٢٣٦ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٩٨ و ٤/ ٤٤٢ و ٦/ ١٢٨. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٣١٤. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤١٩٣ - ٥٢٣٧). وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ١٨٧.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد رقم الحديث (٣٦) والترمذي كتاب الزهد باب (٣٩) رقم الحديث (٢٣٧٢). وابن ماجه كتاب الزهد باب (١٠) رقم الحديث (٤١٤٦). وفي البداية والنهاية ٦/ ٥٤.

وقالت عائشة: إن كنا آل محمد نمكث شهراً ما نستوقد بنار، إن هو إلا الماء والتمر(١).

وقال عتبة بن غزوان: لقد رأيتني - وإني لسابع سبعة - مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق السمر حتى تقرحت أشداقنا.

وفي البخاري ومسلم: كانت عائشة تقول لعروة: والله يا ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار، قال: قلت يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان، التمر والماء، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيناه(٢).

ولمسلم أيضاً: قالت: لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين(٣).

وقال أنس: ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفاً مرققاً حتى لحق بالله، ولا رأى شاة سميطاً بعينه حتى لحق بالله(٤). رواه البخاري.

والمرقق: الملين المحسن كخبز الحوارى وشبهه، والترقيق: التليين، ولم يكن عندهم مناخل، وقد يكون المرقق: الرقيق الموسع، قاله القاضي عياض. وجزم به ابن الأثير فقال: وهو السميد ومايصنع من كعك وغيره، وقال ابن الجوزي: هو الخفيف. كأنه أخذه من الرقاق وهي الخشبة التي يرقق بها.

والحوارى: - بضم المهملة وتشديد الواو وفتح الراء - الخالص الذي ينخل مرة بعد أخرى.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع باب (٣٤) رقم الحديث (٢٤٧١). وابن ماجه كتاب الزهد باب (١٠) رقم الحديث (٤١٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الهبة باب (١) رقم الحديث (٢٥٦٧ - ٦٤٥٨ - ٦٤٥٩) وابن ماجه كتاب الزهد باب (١٠) رقم الحديث (٤١٤٥) وفي صحيح مسلم كتاب الزهد رقم الحديث (٢٨) وفي البداية والنهاية ٦/ ٥٣

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد باب (٣٨) رقم الحديث (٢٣٥٧) وفي صحيح مسلم كتاب الزهد رقم الحديث (٢٩) وفي البداية والنهاية ٦/ ٥٣.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٢٦) رقم الحديث (٥٤٢١ - ٦٤٥٧) وابن ماجه كتاب الأطعمة باب (٢٩) رقم الحديث (٣٣٠٩) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٢٨ - ١٣٤ - ٢٤٠.

وقوله: ولا شاة سميطاً: هو الذي أزيل شعره بالماء السخن وشوي بجلده، وإنما يصنع ذلك في الصغير السن، وهو من فعل المترفهين من وجهين: أحدهما المبادرة إلى ذبح ما لو بقي لازداد ثمنه، وثانيهما: أن المسلوخ ينتفع بجلده في اللبس وغيره. والسمط يفسده، وقد جرى ابن بطال وابن الأثير على أن المسموط هو المشوي، لكن الثاني ذكر أن أصله نزع صوفه بالماء الحار كما تقدم، قال: وإنما يفعل ذلك في الغالب ليشوى.

ولعله يعني: أنه لم ير السميط في مأكوله، وإلا فإن لم يكن معهوداً فلا تمدح.

وعن أبي حازم أنه سأل سهلاً: هل رأيتم في زمان النبي ﷺ النقى؟ قال لا، فقلت: كنتم تنخلون الشعير؟ قال: لا، ولكن كنا ننفخه[1]. رواه البخاري.

وفي رواية له: هل كانت لكم في عهد رسول الله ﷺ مناخل؟ فقال: ما رأى النبي ﷺ منخلاً من حين ابتعثه الله حتى قبضه الله[2].

قال شيخ الإسلام ابن حجر: أظنه احترز عما قبل البعثة، لكونه ﷺ كان يسافر في تلك المدة إلى الشام تاجراً، وكانت الشام إذ ذاك مع الروم، والخبز النقى عندهم كثير، وكذا المناخل وغيرها من آلات الترفه، ولا ريب أنه رأى ذلك عندهم، وأما بعد البعثة فلم يكن إلا بمكة والطائف والمدينة، ووصل إلى تبوك وهي من أطراف الشام لكن لم يفتحها ولا طالت إقامته بها. انتهى.

وقد تتبعت هل كانت أقراص خبزه صغاراً أم كباراً؟ فلم أجد في ذلك شيئاً بعد التفتيش. نعم روي أمره بتصغيرها في حديث عند الديلمي عن عائشة رفعته بلفظ: «صغروا الخبز وأكثروا عدده يبارك لكم فيه»، وهو واه، بحيث ذكره ابن الجوزي في الموضوعات وقال: إن المتهم به جابر بن سليم. وروي عن ابن عمر مرفوعاً: «البركة في صغر القرص»، ونقل عن النسائي أنه كذب. لكن روى البزار بسند ضعيف عن أبي الدرداء مرفوعاً. «قوتوا طعامكم يبارك لكم فيه» قال في النهاية: وحكي عن الأوزاعي أنه تصغير الأرغفة، كذا حكى البزار عن إبراهيم بن عبد الله بن الجنيد عن بعض أهل العلم: أنه تصغير الأرغفة. أشار إلى ذلك شيخنا في المقاصد الحسنة. ولعل هذا سند شيخي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٢٢) رقم الحديث (٥٤١٠ ـ ٥٤١٣) وفي الترمذي كتاب الزهد باب (٣٨) رقم الحديث (٢٣٦٤). وفي سنن ابن ماجه كتاب الأطعمة باب (٤٤) رقم الحديث (٣٣٣٥). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٣٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٢٣) رقم الحديث (٥٤١٣) وفي سنن ابن ماجه كتاب الأطعمة باب (٤٤) رقم الحديث (٣٣٣٥). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٧١.

وقدوتي وإنسان عين بصيرتي العارف الرباني رهان العارفين أبي إسحاق إبراهيم المتبولي في تصغير أرغفة سماطه كالشيخ أبي العباس أحمد البدوي والسادات اكسير معارف السعادات أولي المواهب العلية والحقائق المحمدية بني الوفاء أعاد الله من بركاتهم وواصل امداداتهم إلينا.

وعن عائشة قالت: توفي ﷺ وليس عندي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي، فأكلت منه حتى طال علي فكلته ففني[1] رواه البخاري ومسلم.

وعندهما أيضاً قالت: توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير.

وقال ابن عباس: ودرعه مرهونة بعشرين صاعاً من طعام أخذه لأهله. رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول الله، قال «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما» فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً. فقال لها ﷺ: أين فلان»؟ قالت: ذهب يستعذب لنا الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني. قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا، وأخذ المدية فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب» فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»[2] رواه مسلم وغيره. وهذا السؤال سؤال تشريف وإنعام وتعديد فضل وإكرام.

وعن طلحة بن نافع أنه سمع جابر بن عبدالله يقول: أخذ رسول الله ﷺ بيدي ذات يوم إلى منزله فأخرج إليه فلق من خبز، فقال «ما من أدم» فقالوا: لا، إلا شيء من خل، قال: «نعم الأدم الخل». قال جابر: فما زلت أحب الخل منذ سمعتها من نبي الله ﷺ وقال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق باب (١٦) رقم الحديث (٦٤٥١) وفي صحيح مسلم كتاب الزهد رقم الحديث (٢٧). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١٠٨/٦. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٢٧٤/٧.

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ كتاب صفة النبي ﷺ باب (١٠) رقم الحديث (٢٨). وفي صحيح مسلم كتاب الأشربة رقم الحديث (١٤٠). وفي الدر المنثور للسيوطي ٣٨٩/٦ وفي اتحاف السادة المتقين ٨/ ١٢٠ وفي كنز العمال (٦٤٣٩).

طلحة: فما زلت أحب الخل منذ سمعتها من جابر[1] رواه مسلم.

وروي عن ابن بجير قال: أصاب النبي ﷺ جوع يوماً، فعمد إلى حجر فوضعه على بطنه ثم قال: ألا رب نفس الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم» رواه ابن أبي الدنيا.

وعن أنس عن أبي طلحة قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه عن حجرين، قال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث أبي طلحة لا نعرفه إلا من هذا الوجه. ومعنى قوله: ورفعنا عن بطوننا عن حجر. قال: كان أحدهم يشد في بطنه الحجر من الجهد والضعف الذي به من الجوع.

وقصة جابر - يوم الخندق - حين رأى النبي ﷺ يوم الخندق، وقد قام إلى الكدية وبطنه معصوب بحجر. وتقدمت، وما أحسن قول الأبوصيري:

وشـــد مـــن سغـــب أحشـــاءه وطـــوى   تحـــت الحجـــارة كشحـــاً متـــرف الأدم

والكشح: كما ذكرته في شرح هذه القصيدة، ما بين خاصرته الشريفة وأقصر ضلع من جنبه الشريف. وإنما فعل هذا ﷺ ليسكن بعض ألم الجوع، وإنما كان هذا الفعل مسكناً لأن كلب الجوع من شدة حرارة المعدة الغريزية، فهي إذا امتلأت من الطعام اشتغلت تلك الحرارة بالطعام، فإذا لم يكن فيها طعام طلبت رطوبات الجسم وجواهره فيتألم الإنسان بتلك الحرارة فتتعلق بكثير من جواهر البدن، فإذا انضمت على المعدة الأحشاء والجلد خمدت نارها بعض الخمود فقل الألم.

وإنما تألمه بالجوع ليحصل به تضعيف الأجر مع حفظ قوته ونضارة جسمه، حتى إن من رآه لا يظن أن به جوعاً، لأن جسمه ﷺ إنما كان يرى أشد نضارة من أجسام المترفين بالنعم في الدنيا. وهذا المعنى هو الذي قصده الناظم بقوله «مترف الأدم» وهو من باب الاحتراس والتكميل، لأنه لما ذكر أنه شد من سغب. خاف أن يتوهم أن جسمه الشريف حينئذٍ يظهر فيه أثر الجوع فاحترس ورفع ذلك الإبهام بقوله: مترف الأدم.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الأطعمة باب (٣٥) رقم الحديث (١٨٣٩ - ١٨٤٢). وابن ماجه كتاب الأطعمة باب (٣٣) رقم الحديث (٣٣١٧). وفي صحيح مسلم كتاب الأشربة رقم الحديث (١٦٨ - ١٦٩) وفي سنن أبي داود كتاب الأطعمة باب (٣٩) رقم الحديث (٣٨٢٠ - ٣٨٢١). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٠١ - ٣٦٤. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٨٠ و ١٠/ ٦٣ وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/ ٣٢.

وقد أنكر أبو حاتم بن حبان أحاديث وضع الحجر على بطنه الشريف من الجوع، وقال: إنها باطلة، متمسكاً بحديث الوصال «لست كأحدكم إني أطعم وأسقى» قال وإنما معناه: الحجز، بالزاي وهو طرف الإزار، لأن الله تعالى قد كان يطعم رسول الله ﷺ ويسقيه إذا واصل، فكيف يحتاج إلى شد الحجر على بطنه؟ وما يغني الحجر عن الجوع. انتهى.

وقال بعضهم: يجوز أن يكون عصب الحجر لعادة العرب أو أهل المدينة أنهم يفعلون ذلك إذا خلت أجوافهم وغارت بطونهم يشدون عليها حجراً ففعل ﷺ ذلك ليعلم أصحابه أنه ليس عنده ما يستأثر به عليهم. والصواب: صحة الأحاديث، وأنه ﷺ فعل ذلك اختيار للثواب.

وقد استشكل كونه ﷺ وأصحابه كانوا يطوون الأيام جوعاً، مع ما ثبت أنه كان يرفع لأهله قوت سنة، وأنه قسم بين أربعة أنفس من أصحابه ألف بعير مما أفاء الله عليه، وأنه ساق في عمرته مائة بدنة فنحرها وأطعمها المساكين، وأنه أمر لأعرابي بقطيع من الغنم، وغير ذلك، مع من كان معه من أصحاب الأموال كأبي بكر وعمر وعثمان وطلحة وغيرهم، مع بذلهم أنفسهم وأموالهم بين يديه. وقد أمر بالصدقة فجاء أبو بكر بجميع ماله، وعمر بنصفه، وحث على تجهيز جيش العسرة فجهزهم عثمان بألف بعير إلى غير ذلك.

وأجاب عنه الطبري ـ كما حكاه في فتح الباري ـ أن ذلك كان منهم في حالة دون حالة لا لعوز وضيق، بل تارة للإيثار وتارة لكراهة الشبع وكثرة الأكل، انتهى. وتعقب: بأن ما نفاه مطلقاً فيه نظر لما تقدم من الأحاديث وأخرج ابن حبان في صحيحه عن عائشة: «من حدثكم أنا كنا نشبع من التمر فقد كذبكم»، فلما افتتحت قريظة أصبنا شيئاً من التمر والودك إلى غير ذلك.

قال الحافظ ابن حجر: والحق أن الكثير منهم كانوا في حال ضيق قبل الهجرة، حيث كانوا بمكة ثم لما هاجروا إلى المدينة كان أكثرهم كذلك، فواساهم الأنصار بالمنازل والمنائح، فلما فتحت لهم النضير وما بعدها ردوا عليهم منائحهم كما تقدم.

وقد قال ﷺ «لقد أخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من يوم وليلة ما لي ولبلال طعام يأكله أحد إلا شيء يواريه ابط بلال»[1]. رواه الترمذي وصححه.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة باب (٣٤) رقم الحديث (٢٤٧٢). وفي المسند للإمام أحمد =

نعم كان ﷺ يختار ذلك مع إمكان حصول التوسع والتبسط في الدنيا له، كما أخرج الترمذي من حديث أبي أمامة، أن رسول الله ﷺ قال: «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا، يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك»(1) وحكمة هذا التفصيل الاستلذاذ بالخطاب، وإلا فالله تعالى عالم بالأشياء جملة وتفصيلاً.

وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل على الصفا، فقال رسول الله ﷺ «يا جبريل والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سفة من دقيق، ولا كف من سويق»، فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفزعته فقال رسول الله ﷺ «أمر الله القيامة أن تقوم؟ قال: لا، ولكن أمر إسرافيل فنزل إليك حين سمع كلامك، فأتاه إسرافيل فقال: إن الله سمع ما ذكرت فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض، وأمرني أن أعرض عليك أسير معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة فإن رضيت فعلت، فإن شئت نبياً ملكاً، وإن شئت نبياً عبداً، فأومأ إليه جبريل أن تواضع فقال: بل نبياً عبداً ثلاثاً»(2)، رواه الطبراني بإسناد حسن.

فانظر إلى همته العلية كيف عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأباها، ومعلوم أنه لو أخذها لأنفقها في طاعة ربه، فأبى ذلك واختار العبودية المحضة، فيا لها من همة شريفة رفيعة ما أسناها ونفس زكية كريمة ما أبهاها، ولله در صاحب بردة المديح حيث قال:

وراودته الجبال الشم من ذهب	عن نفسه فأراه أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته	إن الضرورة لا تعدو على العصم
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من	لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

= ابن حنبل ٣/٢٨٦. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٩/٨٨. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٢٥٣). وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/١٨٩. وفي تفسير البغوي ٦/١٦٢. وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢٥٢٨). وفي الشمائل للترمذي (٧٤) وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٣/٣٠٨.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد باب (٣٥) رقم الحديث (٢٣٤٧). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/٢٥٤. وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/٢٤٥ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٤/٢٦١ و ٧/٣٩٦. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥١٩٠) وفي المغني للعراقي ١/٢٣٩ و ٣/٢٠٧ وفي الحلية لأبي نعيم ٨/١٣٣ وفي شرح السنة للبغوي ١٤/٢٤٦ وفي أخلاق النبوة (٢٦٧). وفي كنز العمال (٦١٢٠).

(2) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١٠/٣٥٠. والهيثمي في مجمع الزوائد ٩/٢٠ و ١٠/٣١٥. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/١٩٦. وفي الزهد لابن المبارك (٢٦٤).

أي كيف تدعو ضرورة سيد المعصومين إلى زخرف الدنيا، وهي وما فيها إنما برزت لأجله، فكيف يضطر إليها. لكن في كلامه شيء، فإنه في مقام المديح فلا يليق منه الوصف بالزهد ولا بالضرورة.

قال الحليمي في شعب الإيمان: من تعظيم النبي ﷺ أن لا يوصف بما هو عند الناس من أوصاف الضعة، فلا يقال كان فقيراً.

وأنكر بعضهم إطلاق الزهد في حقه ﷺ. وقد حكى صاحب «نثر الدر» عن محمد ابن واسع أنه قيل له: فلان زاهد، قال: وما قدر الدنيا حتى يزهد فيها. وقد ذكر القاضي عياض في الشفاء، ونقله عنه الشيخ تقي الدين السبكي في كتابه «السيف المسلول» أن فقهاء الأندلس أفتوا بقتل حاتم المتفقه الطليطلي وصلبه لاستخفافه بحق النبي ﷺ وتسميته إياه أثناء مناظرته باليتيم، وزعمه أن زهده لم يكن قصداً، ولو قدر على الطيبات لأكلها. انتهى.

وقد ذكر الشيخ بدر الدين الزركشي عن بعض الفقهاء المتأخرين أنه كان يقول: لم يكن النبي ﷺ فقيراً من المال قط، ولا حاله حال فقير، بل كان أغنى الناس بالله، قد كفي أمر دنياه في نفسه وعياله، وكان يقول في قوله ﷺ: «اللهم أحيني مسكيناً»[1] إن المراد به استكانة القلب لا المسكنة التي هي أن لا يجد ما يقع موقعاً من كفايته. وكان يشدد النكير على من يعتقد خلاف ذلك انتهى. وأما ما يروى أنه ﷺ قال: «الفقر فخري وبه أفتخر»[2] فقال شيخ الإسلام والحفّاظ ابن حجر: هو باطل موضوع.

واعلم أنه لم يكن من عادته الكريمة ﷺ حبس نفسه الشريفة على نوع واحد من الأغذية لا يتعداه إلى سواه، فإن ذلك يضر بالطبيعة جداً، ولو أنه أفضل الأغذية، بل كان ﷺ يأكل مما جرت عادة أهل بلده بأكله من اللحم والفاكهة والخبز والتمر وغيره مما

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد باب (٣٧) رقم الحديث (٢٣٥٢). وابن ماجه في كتاب الزهد باب (٧) رقم الحديث (٤١٢٦). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ١٢. وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٣٢٢. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/٢٦٢. وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٢٠٦ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥١٤٥). وفي الدرر المنتثرة للسيوطي (٤٤). وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٧٠٢) وفي التاريخ الكبير للبخاري ٧/ ١٩٤. وفي المغني للعراقي ٢/ ٢٠٦. وفي الموضوعات لابن الجوزي ٣/ ١٤١ وفي فتح الباري ١١/ ٣٣٠. وفي اللآلىء المصنوعة للسيوطي ٢/ ١٧٤. وفي كنز العمال (١٦٥٩٢ ـ ١٦٦٦٨ ـ ١٦٦٦٩).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا ٢/ ١٣١ والزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٨/ ٢١٨. والفتني في تذكرة الموضوعات (٨٧ ـ ١٧٨) وذكره في الأسرار المرفوعة علي القاري ص ٢٥٥..

سيأتي، فأكل ﷺ الحلوى والعسل وكان يحبهما[1]، رواه البخاري والترمذي. والحلوى: بالقصر والمد، كل حلو، وقال الخطابي: اسم الحلوى لا يقع إلا على ما دخلته الصنعة، وقال ابن سيده: ما عولج من الطعام بحلو، وقد يطلق على الفاكهة.

قال الخطابي: ولم يكن حبه ﷺ لها على معنى كثرة التشهي لها، وشدة نزاع النفس إليها، وإنما كان ينال منها إذا أحضرت إليه نيلاً صالحاً فيعلم بذلك أنها تعجبه، ووقع في كتاب فقه اللغة للثعالبي: أن حلوى النبي ﷺ التي كان يحبها هي المجيع ـ بالميم والجيم، بوزن عظيم ـ وهو تمر يعجن بلبن، حكاه في فتح الباري.

ولم يصح ورود أنه ﷺ كان يحب السكر ولا أنه تصدق به ولا أنه رآه. لكن أخرج أبو جعفر الطحاوي والبيهقي في سننه من حديث لمازة عن ثور بن يزيد عن خالد ابن معدان عن معاذ بن جبل: أن رسول الله ﷺ حضر ملاك رجل من الأنصار، فجاءت الجواري معهن الأطباق عليها اللوز والسكر فأمسك القوم أيديهم، فقال ﷺ: «ألا تنتهبون؟ قالوا: إنك نهيت عن النهبة، قال: أما العرسان فلا»[2]، قال: فرأيت النبي ﷺ يجاذبهم ويجاذبونه.

واحتج به الطحاوي على أن النثار غير مكروه، كما ذهب إليه أبو حنيفة، وقضىٰ به على الأحاديث الصحيحة التي فيها النهي عن النهبة. لكن قال البيهقي بعد رواية الحديث: وهذا لا يثبت، ثم قال: وروي من حديث عائشة عنه ﷺ، ولا يثبت في هذا المعنى شيء، وشنع على الطحاوي القول في ذلك جداً في كتاب المعرفة وقال: الحديث إنما يروى عن عون بن عمارة وعصمة بن سليمان وكلاهما لا يحتج به، وشيخهما لمازة ابن المغيرة مجهول، فهاتان علتان كل منهما منفردة توجب ضعف الحديث فكيف بهما مجتمعتان؟! هذا وخالد بن معدان منقطع ولا حجة في منقطع. فهذه علل ثلاث يضعف الحديث بدونها. وقد أفرد الكلام على ذلك ابن مفلح اليوسفي والله أعلم.

وعن ليث بن أبي سالم قال: أول من خبص في الإسلام عثمان بـن عفانٰ، قدمت عليه عير تحمل الدقيق والعسل فخلط بينهما وبعث به إلى رسول الله ﷺ فأكل فاستطابه. قال الطبري في الرياض: رواه خيثمة في فضائل عثمان. وعن عبدالله بن سلام قال:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة باب (١٠) رقم الحديث (٥٥٩٩). وفي الترمذي كتاب الأطعمة باب (٢٩) رقم الحديث (١٨٣١) وفي سنن أبي داود كتاب الأشربة باب (١١) رقم الحديث (٣٧١٥) وفي ابن ماجه كتاب الأطعمة باب (٣٦) رقم الحديث (٣٣٢٣). وفي سنن الدارمي كتاب الأطعمة رقم الحديث (٣٤) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٥٩.

(٢) ذكره السيوطي في اللآلىء المصنوعة ٢/ ٩١. وفي شرح معاني الآثار ٣/ ٥٠.

قدمت عير فيها جمل لعثمان بن عفان عليه دقيق حوارى وسمن وعسل، فأتى بها النبي ﷺ فدعا فيها بالبركة ثم دعا ببرمة فنصبت على النار وجعل فيها من العسل والدقيق والسمن ثم عصد حتى نضج أو كاد ينضج ثم أنزل فقال ﷺ: «كلوا هذا شيء تسمه فارس الخبيص»[1] قال الطبري: خرجه تمام في فوائده والطبراني في معجمه ورجاله ثقات. وأكل ﷺ لحم الضأن. وهذه الثلاثة ـ أعني: الحلوى والعسل واللحم ـ من أفضل الأغذية وأنفعها للبدن والكبد والأعضاء، ولا ينفر منها إلا من به علة وآفة.

«واللحم سيد طعام أهل الجنة»، وفي رواية «هو سيد الطعام لأهل الدنيا والآخرة»[2]، رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا من حديث أبي الدرداء مرفوعاً. وسنده ضعيف وله شواهد منها:

عن علي رفعه: سيد طعام الدنيا اللحم ثم الأرز، أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي. وأكل اللحم يزيد سبعين قوة. قاله الزهري.

وعن علي: أنه يصفي اللون ويحسن الخلق ومن تركه أربعين ليلة ساء خلقه. ولأبي الشيخ بن حيان من رواية ابن سمعان قال: سمعت من علمائنا يقولون: كان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ اللحم، وهو يزيد في السمع، وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل. وقال الإمام الشافعي. إن أكله يزيد في العقل.

وكان ﷺ يعجبه الذراع ولذلك سم فيه، وعن أبي رافع أنه أهديت له شاة فجعلها في قدر، فدخل رسول الله ﷺ فقال «ما هذا يا أبا رافع؟» فقال: شاة أهديت لنا يا رسول الله فطبختها في القدر. قال: «ناولني الذراع يا أبا رافع»، فناولته الذراع، ثم قال «ناولني الذراع الآخر»، فناولته الذراع الآخر، فقال: ناولني الذراع الآخر» فقال: يا رسول الله، إنما للشاة ذراعان فقال له رسول الله ﷺ: «أما إنك لو سكت لناولتني ذراعاً فذراعاً ما سكتُ»، ثم دعا بماء فمضمض فاه وغسل أطراف أصابعه ثم قام فصلى. الحديث رواه أحمد.

ورواه الدارمي والترمذي عن أبي عبيد بلفظ: طبخت له ﷺ قدراً، وكان يعجبه الذراع، فناولته الذارع، ثم قال: «ناولني الذراع»، فقلت يا رسول الله وكم للشاة من

(١) ذكره الحاكم في المستدرك ٤/ ١٠٩ ـ ١١٠. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١١٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة باب (٢٧) رقم الحديث (٣٣٠٥). وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٥٦٠ و ٢/ ٢٢٦.

ذراع؟ فقال: «والذي نفسي بيده لو سكت لناولتني الذراع ما دعوت».

وقالت عائشة: وكان الذراع أحب إليه، وكان لا يأكل اللحم إلا غباً، وكان يعجل إليها لأنه أعجل نضجاً[1]، رواه الترمذي.

وكذلك كان يحب لحم الرقبة. فعن ضباعة بنت الزبير أنها ذبحت في بيتها شاة، فأرسل إليها رسول الله ﷺ «أن أطعمينا من شاتكم»، فقالت: ما بقي عندنا إلا الرقبة، وإني لأستحي أن أرسل بها إلى رسول الله ﷺ. فرجع الرسول فأخبره، فقال: «ارجع إليها فقل لها: أرسلي بها فإنها هاربة الشاة وأقرب الشاة إلى الخير وأبعدها من الأذى»[2].

ولا ريب أن أخف لحم الشاة لحم الرقبة ولحم الذراع والعضد، وهو أخف على المعدة وأسرع انهضاماً، وفي هذا أنه ينبغي مراعاة الأغذية التي تجمع ثلاث خواص: أحدها: كثرة نفعها وتأثيرها في القوى، الثاني: خفتها على المعدة وسرعة انحدارها عنها، الثالث: سرعة هضمها، وهذا أفضل ما يكون من الغذاء.

وقال ﷺ: «أطيب اللحم لحم الظهر»[3]، رواه الترمذي.

وأما الحديث أنه ﷺ كان يكره الكليتين لمكانهما من البول، فقال الحافظ العراقي رويناه في جزء من حديث أبي بكر محمد بن عبدالله بن الشخير من حديث ابن عباس بإسناد فيه ضعف. انتهى.

وكان ﷺ ينتهش اللحم، أي يقبض عليه بفمه ويزيله من العظم أو غيره، وينتشله أي يقتلعه من المرق. والنهش بعد الانتشال.

وفي البخاري: أنه ﷺ احتز من كتف شاة في يده، فدعي إلى الصلاة، فألقاها والسكين التي يحتز بها، ثم قام إلى الصلاة، ولم يتوضأ[4].

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الأطعمة باب (٣٤) رقم الحديث (١٨٣٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦/ ٣٦٠ ـ ٣٦١.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة باب (٢٨) رقم الحديث (٣٣٠٨) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥. وفي المستدرك للحاكم ٤/ ١١١. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٧٠ وفي لسان الميزان لابن حجر ١/ ١١٧٦ وفي المسند للحميدي رقم الحديث (٥٣٩) وفي تاريخ أصبهان لأبي نعيم ١/ ٢٣٧ وفي كنز العمال (٤٠٩٧).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء باب (٥٠) رقم الحديث (٢٠٧ ـ ٥٤٠٤ ـ ٥٤٠٥). وفي الترمذي كتاب الأطعمة باب (٣٣) رقم الحديث (١٨٣٦) وفي صحيح مسلم كتاب الحيض باب (٩٢) وفي سنن الدارمي كتاب الوضوء باب (٥٢) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٦٥ و ٤/ ١٣٩ ـ ١٧٩ و ٥/ ٢٨٨.

قال ابن بطال: هذا الحديث يرد حديث أبي معشر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رفعته: «لا تقطعوا اللحم بالسكين فإنه من صنيع الأعاجم وانهشوا فإنه أهنأ وأمرأ»[1] قال أبو داود وهو حديث ليس بالقوي.

قال الحافظ أبو الفضل العسقلاني رحمه الله، له شاهد من حديث صفوان بن أمية. أخرجه الترمذي بلفظ: «انهشوا اللحم نهشاً، فإنه أهنأ وأمرأ»[2] وقال: لا نعرفه إلا من حديث عبد الكريم انتهى. قال: وعبد الكريم هو أبو أمية بن أبي المخارق، ضعيف، لكن أخرجه ابن أبي عاصم من وجه آخر عن صفوان بن أمية فهو حسن لكن ليس فيه ما زاده أبو معشر من التصريح بالنهي عن قطع اللحم بالسكين. وأكثر ما في حديث صفوان أن النهش أولى. انتهى.

ويمكن الجمع: بأن النهش مما على العظم الصغير، والاحتزاز مما على الكبير. وأكل ﷺ الشواء، فعن أم سلمة أنها قربت إلى النبي ﷺ جنباً مشوياً فأكل منه ثم قام إلى الصلاة وما توضأ[3]، قال الترمذي حسن صحيح. وأكل ﷺ القديد، كما في حديث في السنن عن رجل قال: ذبحت لرسول الله ﷺ شاة ونحن مسافرون. فقال: «أصلح لحمها»[4]، فلم أزل أطعمه منه إلى المدينة وأكل ﷺ من الكبد المشوية. وأكل لحم الدجاج رواه الشيخان والترمذي وغيرهم. وأكل لحم حمار الوحش رواه الشيخان. وأكل

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة باب (٢٠) رقم الحديث (٣٧٧٨) وفي سنن النسائي ٤/ ١٧٢. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٨٠ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢١٥) وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ١٣٢. وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٧/ ٢٥١٨ وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ٢/ ٢٤٨ وفي اللآلىء المصنوعة للسيوطي ٢/ ١٢٢ وفي تذكرة الموضوعات للفتني (١٤٥ ـ ١٤٦) وفي الموضوعات لابن الجوزي ٢/ ٣٠٣ وفي كنز العمال (٤٠٧٣١) وفي فتح الباري ٩/ ٦٨٣.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الأطعمة باب (٣٢) رقم الحديث (١٨٣٥) وفي سنن الدارمي كتاب الأطعمة باب (٣٠) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٤٠٦ و٦/ ٤٦٥ وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ٥٧. وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٦١٠) وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٦/ ٤٢٩. وفي شرح السنة للبغوي ١١/ ٢٩٧. وفي طبقات ابن سعد ٥/ ١٨.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الأطعمة باب (٢٧) رقم الحديث (١٨٢٩) وفي سنن النسائي ١/ ١٠٨. والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦/ ٣٠٧.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الضحايا باب (١١) رقم الحديث (٢٨١٤). وفي صحيح مسلم كتاب الأضاحي باب (٣٥ ـ ٣٦). وفي سنن الدارمي كتاب الأضاحي باب (٦) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٢٧٧ ـ ٢٨١. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٢٩١. وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٢٣٠. وفي التمهيد لابن عبد البر ٣/ ٢١٩. وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٤/ ٩٤.

لحم الجمل سفراً وحضراً. وأكل لحم الأرنب رواه الشيخان. وأكل من دواب البحر رواه مسلم.

وأكل الثريد ـ وهو بفتح المثلثة ـ أن يثرد الخبز بمرق اللحم، وقد يكون معه اللحم. ومن أمثالهم: الثريد أحد اللحمين. وروى أبو داود من حديث ابن عباس قال: أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ الثريد من الخبز والثريد من الحيس[1]. وأكله ﷺ بالسمن، وأكل الخبز بالزيت.

وعن حذيفة أن النبي ﷺ قال: «إن جبريل أطعمني الهريسة، يشد بها ظهري لقيام الليل»[2]، رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن الحجاج اللخمي، وهو الذي وضع هذا الحديث.

وأكل ﷺ الدباء وكانت تعجبه، وكان يتتبعها من حوالي القصعة، قال أنس فلم أزل أحب الدباء من يومئذ[3]. رواه مسلم. وقال النووي: فيه أنه يستحب أن تحب الدباء وكذلك كل شيء كان يحبه ﷺ. وكذلك أكل ﷺ السلق مطبوخاً بالشعير قال الترمذي: حديث حسن غريب.

وأتى الحسن بن علي وابن عباس وابن جعفر إلى سلمى فقالوا: اصنعي لنا طعاماً مما كان يعجب رسول الله ﷺ ويحسن أكله: فقالت: يا بني لا تشتهيه اليوم فقال: بلى اصنعيه لنا، فقامت فأخذت شيئاً من الشعير فطحنته ثم جعلته في قدر وصبت عليه شيئاً من زيت ودقت الفلفل والتوابل فقربته إليهم فقالت: هذا مما كان يعجبه ﷺ ويحسن أكله . رواه الترمذي.

وأكل ﷺ الخزيرة ـ وهي بخاء معجمة مفتوحة ثم زاي مكسورة، وبعد التحتانية الساكنة راء ـ ما يتخذ من الدقيق على هيئة العصيدة، لكن أرق منها، قاله الطبري. وقال ابن فارس: دقيق يخلط بشحم، وقال القتبي وتبعه الجوهري: أن يؤخذ اللحم فيقطع

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة باب (٢٢) رقم الحديث (٣٧٨٣).

(٢) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٥/ ٣١٠. والسيوطي في اللآلىء المصنوعة ٢/ ١٢٧. وفي الموضوعات لابن الجوزي ٣/ ١٧. وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ١/ ٢٠٠ وفي لسان الميزان لابن حجر ٥/ ٣٩٠. وفي ميزان الإعتدال (٧٣٥١). وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢/ ٢٧٩ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٦/ ٢١٥٥.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٢٥) رقم الحديث (٥٤٢٥ ـ ٥٤٣٣ ـ ٥٤٣٥ ـ ٥٤٣٦). وفي سنن أبي داود كتاب الأطعمة باب (٢١) رقم الحديث (٣٧٨٢) وفي صحيح مسلم كتاب الأشربة رقم الحديث (١٤٤ ـ ١٤٥). وفي الموطأ للإمام مالك كتاب النكاح باب (٢١) رقم الحديث (٥١). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ١١٥ و ٤/ ٣٥٢.

صغاراً ويصب عليه ماء كثير فإذا نضج ذر عليه الدقيق، فإن لم يكن فيها لحم فهي عصيدة. وقيل: مرقة تصفى من بلالة النخالة ثم تطبخ، وقيل: الخزيرة بالإعجام من النخالة، والحريرة ـ يعني بالإهمال ـ من اللبن.

وقال عتبان: غدا علي رسول الله ﷺ وأبو بكر حين ارتفع النهار، وحبسناه على خزير صنعناه وأكل ﷺ الأقط، قاله ابن عباس فيما رواه وهو جبن اللبن المستخرج زبده، أكلته وهو كثير بمكة والمدينة زادهما الله شرفاً، وهو أشبه شيء بالكشك. وأكل ﷺ الرطب والتمر والبسر. رواه مسلم والترمذي وغيرهما.

وأكل الكباث. رواه مسلم، وهو بفتح الكاف وتخفيف الموحدة وبعد الألف مثلثة، النضيج من تمر الأراك. وقيل ورق الأراك، وتعقبه الاسماعيلي فقال: إنما هو تمر الأراك وهو البرير ـ بموحدة بوزن الحرير ـ فإذا اسود فهو الكباث. وفي النهاية لابن الأثير؛ أنه ﷺ كان يحب الجذب ـ بالجيم والذال المعجمة المفتوحتين ـ أي الجمار، وهو شحم النخل واحدتها جذبة. وأما الجبن، ففي السنن من حديث ابن عمر قال: أتي النبي ﷺ بجبنة في تبوك فدعا بسكين فسمى وقطع[1] رواه أبو داود.

وكان ﷺ يراعي صفات الأطعمة وطبائعها واستعمالها على قاعدة الطب، فإذا كان في أحد الطعامين ما يحتاج إلى كسر وتعديل كسره وعدله بضده إن أمكن، كتعديله حرارة الرطب بالبطيخ. وهذا أصل كبير في المركبات من الأدوية، وإن لم يجد ذلك تناوله على حاجة وداعية من النفس من غير إسراف. وروى أبو داود من حديث أبي أسامة عن هشام أنه ﷺ كان يأكل البطيخ بالرطب، ويقول يكسر حر هذا ببرد هذا، وبرد هذا بحر هذا[2]. ورواه يزيد بن رومان عن الزهري عن عروة بتقديم «الطاء» كما للنوقاتي[3]، وبتأخيرها كما للنسائي في الوليمة، فكأنه عند هشام باللفظين. وكذا رواه ابن حبان في صحيحه من حديث محمد بن عبد الرحمن عن الإمام أحمد بن حنبل عن وهب بن جرير بن حازم، حدثنا أبي، سمعت حميداً يحدث عن أنس أن النبي ﷺ كان يأكل الطبيخ أو البطيخ بالرطب، وقال عقبة: الشك من أحمد. وتقديم الطاء لغة حكاها صاحب المحكم.

---

(١) أخرجه أبو داوود في كتاب الأطعمة باب (٣٨) رقم الحديث (٣٨١٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة باب (٤٤) رقم الحديث (٣٨٣٦). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٨١. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٠١ ـ ١١٩. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٢٥). وفي تفسير القرطبي ٧/ ١٩٩.

(٣) هو محمد بن أحمد بن سليمان النوقاتي أبو عمر. أديب حافظ. توفي سنة (٣٨٢ هـ). الأعلام ٥/ ٣١٢. معجم الأدباء ٥/ ١٤٠ رقم الترجمة (٧٩٤). معجم البلدان ٨/ ٣٢٧.

وقد كان محمد بن أسلم[1] لا يأكل البطيخ لأنه لم ينقل كيفية أكل رسول الله ﷺ له. وروى الطبراني في الأوسط من حديث عبدالله بن جعفر قال: رأيت في يمين النبي ﷺ قثاء وفي شماله رطباً وهو يأكل من ذا مرة، ومن ذا مرة[2]، وفي سنده ضعف. وأخرج فيه، وفي الطب لأبي نعيم من حديث أنس. كان يأخذ الرطب بيمينه والبطيخ بيساره، فيأكل الرطب بالبطيخ، وكان أحب الفاكهة إليه. وسنده ضعيف أيضاً.

وأخرج النسائي بسند صحيح عن حميد عن أنس: رأيت رسول الله ﷺ يجمع بين الرطب والخربز ـ[3] وهو بكسر الخاء المعجمة وسكون الراء وكسر الموحدة بعدها زاي ـ نوع من البطيخ الأصفر. وفي هذا تعقب على من زعم أن المراد بالبطيخ في الحديث الأخضر، واعتلوا بأن الأصفر فيه حرارة كما في الرطب، وقد ورد التعليل بأن أحدهما يطفىء الآخر. والجواب عن ذلك بأن في الأصفر بالنسبة للرطب برودة، وإن كان فيه لحلاوته طرف حرارة، والله أعلم.

وفي رواية النسائي أيضاً، بسند صحيح عن عائشة أن نبي الله ﷺ أكل البطيخ والرطب جميعاً[4]. وأخرج ابن ماجه عن عائشة: أرادت أمي معالجتي للسمنة لتدخلني على رسول الله ﷺ فما استقام لها ذلك حتى أكلت الرطب بالقثاء، فسمنت كأحسن سمنة[5]. ورواه النسائي وقال: بالتمر، مكان الرطب. وأما فضائل البطيخ فأحاديثه باطلة، وإن أفرده النوقاني في جزء كما قال الحافظ والله أعلم.

وقد كان ﷺ يأكل التمر بالزبد ويعجبه. فعن عبدالله وعطية ابني بسر، قالا: دخل

---

(١) هو محمد بن أسلم بن سالم بن يزيد أبو الحسن الكندي مولاهم الطوسي. حافظ توفي سنة (٢٤٢ هـ). الأعلام ٦/ ٣٤. شذرات الذهب ٢/ ١٠٠ تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٣٢ رقم الترجمة (٥٥٠) حلية الأولياء ٩/ ٢٣٨ رقم الترجمة (٤٤٧) الرسالة المستطرفة (٦٤).

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٧٠. وفي الصحيحين (ب ـ ٥٤٤٠ ـ ٥٤٤٧ ـ ٥٤٤٩ ـ م. أشربة ـ ١٤٨) وفي الترمذي كتاب الأطعمة باب (٣٧) رقم الحديث (١٨٤٤). وفي سنن أبي داود كتاب الأطعمة باب (٤٤) رقم الحديث (٣٨٣٥). وفي سنن ابن ماجه كتاب.الأطعمة باب (٣٧) رقم الحديث (٣٣٢٥) وفي سنن الدارمي كتاب الأطعمة رقم الحديث (٢٤) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٠٣.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب الأطعمة باب (٣٦) رقم الحديث (١٨٤٣). وأبو داود في كتاب الأطعمة باب (٤٤) رقم الحديث (٣٨٣٦). وابن ماجه في كتاب الأطعمة باب (٣٧) رقم الحديث (٣٣٢٦).

(٥) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة باب (٣٧) رقم الحديث (٣٣٢٤). وفي سنن أبي داود كتاب الطب باب (٢٠) رقم الحديث (٣٩٠٣).

علينا رسول الله ﷺ فقدمنا له زبداً وتمراً، وكان يحب الزبد والتمر[1]. رواه أبو داود وابن ماجه. وسمى النبي ﷺ اللبن والتمر الأطيبين[2]. رواه أحمد. وكان يأكل الخبز مأدوماً ما وجد له إداماً، فتارة يأدمه باللحم ويقول: هو سيد الطعام لأهل الدنيا والآخرة، وتارة بالبطيخ[3]، وتارة بالتمر، فإنه وضع تمرة على كسرة من خبز الشعير، وقال «هذه إدام هذه»[4]، رواه أبو داود والترمذي بسند حسن من حديث يوسف بن عبدالله بن سلام قال: رأيت النبي ﷺ أخذ. . . فذكره. قال ابن القيم: وهذا من تدبير الغذاء، فإن الشعير بارد يابس، والتمر حار رطب ـ على أصح القولين ـ فإدام خبز الشعير به من أحسن التدبير. وتارة بالخل، ويقول: نعم الأدم الخل رواه مسلم، وتقدم.

قال الخطابي والقاضي عياض: معناه مدح الاقتصاد في المأكل، ومنع النفس من ملاذ الأطعمة، تقديره: ائتدموا بالخل وما في معناه مما تخف مؤنته ولا يعز وجوده، ولا تنافسوا في الشهوات فإنها مفسدة للدين مسقمة للبدن. وتعقبه النووي فقال: الذي ينبغي أن يجزم به، أنه مدح للخل نفسه، وأما الاقتصاد في المطعم وترك الشهوات فمعلوم من قواعد أخر. انتهى. وقال ابن القيم: هذا ثناء عليه بحسب مقتضى الحال الحاضر، لا تفضيله على غيره كما ظنه بعضهم، قال: وسبب الحديث أنه دخل على أهله يوماً فقدموا له خبزاً فقال: «ما من أدم؟» فقالوا: ما عندنا إلا الخل، فقال: «نعم الأدم الخل» والمقصود أن أكل الخبز مع الأدم من أسباب حفظ الصحة بخلاف الاقتصار على أحدهما، وسمى الأدم أدماً لإصلاحه الخبز وجعله ملائماً لحفظ الصحة، وليس في هذا تفضيل له على اللبن واللحم والعسل والمرق، ولو حضر لحم أو لبن لكان أولى بالمدح منه، فقال هذا جبراً وتطييباً لقلب من قدمه له، لا تفضيلاً له على سائر أنواع الأدم.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة باب (٤٤) رقم الحديث (٣٨٣٧). وفي سنن ابن ماجه في كتاب الأطعمة باب (٤٣) رقم الحديث (٣٣٣٤). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٦٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٣٢) وفي الأحكام النبوية في الصناعة الطبية للكحال ٢/ ٩٨. وفي فتح الباري ٩/ ٧١٦. وفي كنز العمال (١٨٢٠٧).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٤٧٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة باب (٢٧) رقم الحديث (٣٣٠٥). وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٥٦٠ و ٢/ ٢٢٦ قال الحافظ العراقي: أكله الخبز بالبطيخ لا أصل له.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الأيمان والنذور باب (٨) رقم الحديث (٣٢٥٩ ـ ٣٨٣٠). وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٦٣. وفي الشمائل للترمذي (٩٤ ـ ٩٦). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ٤٠. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٢٣). وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٢٢٠. وفي شرح السنة للبغوي ١١/ ٣٢٣. وفي تفسير القرطبي ١٢/ ١١٧. وفي كنز العمال (٤١٠١٥).

وكان ﷺ يأكل من فاكهة بلده عند مجيئها، ولا يحتمي عنها. وهذا من أكبر أسباب الصحة، فإن الله سبحانه بحكمته جعل في كل بلد من الفاكهة ما ينتفع به أهلها في وقته، فيكون تناوله من أسباب صحتهم وعافيتهم، ويغني عن كثير من الأدوية، وقل من احتمى عن فاكهة بلده خشية السقم إلا وهو من أسقم الناس جسماً وأبعدهم من الصحة والقوة، فمن أكل منها ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي، على الوجه الذي ينبغي كان له دواء نافعاً.

وقد روى ابن عباس قال: رأيت رسول الله ﷺ يأكل العنب خرطاً. رويناه في الغيلانيات. لكن قال أبو جعفر العقيلي ـ كما حكاه في الهدي ـ: لا أصل لهذا الحديث. قال ابن الأثير: يقال خرط العنقود واخترطه إذا وضعه في فيه ثم يأخذ حبه ويخرج عرجونه عارياً منه. قال: وجاء في بعض الروايات خرصاً ـ بالصاد بدل الطاء ـ.

وأما البصل فروى أبو داود في سننه عن عائشة أنها سئلت عن البصل فقالت: إن آخر طعام أكله رسول الله ﷺ فيه بصل[1]. وثبت عنه في الصحيحين أنه منع آكله من دخول المسجد. وكان ﷺ يترك الثوم دائماً لأنه يتوقع مجيء الملائكة والوحي كل ساعة. قال النووي: واختلف أصحابنا في حكم الثوم في حقه ﷺ وكذلك البصل والكراث ونحوها، فقال بعض أصحابنا: هي محرمة عليه، والأصح عندهم أنها مكروهة كراهة تنزيه وليست محرمة لعموم قوله ﷺ: «لا» في جواب: أحرام هي؟ ومن قال بالأول يقول: معنى الحديث: ليس بحرام في حقكم. انتهى. فينبغي لمحبه موافقته ﷺ في ترك الثوم ونحوه، وكراهة ما كان يكرهه ﷺ، فإن من أوصاف المحب الصادق أن يحب ما أحب محبوبه ويكره ما يكرهه.

وكان ﷺ يأكل بأصابعه الثلاث[2]. رواه الترمذي في الشمائل وهذا ـ كما في الهدي ـ أنفع ما يكون من الأكلات، فإن الأكل بأصبع أكل المتكبر، ولا يستلذ به الآكل ولا يمريه ولا يشبعه إلا بعد طول، ولا يفرح آلات الطعام والمعدة بما ينالها في كل أكلة فيأخذها على إغماض كما يأخذ الرجل حقه حبة حبة أو نحو ذلك، فلا يلتذ بأخذه،

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة باب (٤٠) رقم الحديث (٣٨٢٩). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٣١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة باب (٥١) رقم الحديث (٣٨٤٨). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/٣٨٦. وفي صحيح مسلم كتاب الأشربة باب (١٨) رقم الحديث (١٣٢). وفي سنن الدارمي ٢/ ٩٧. والترمذي في الشمائل (٧٧). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٧٨. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ٢٥. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٢٧٢ و ٧/ ١١٧ وفي فتح الباري ٩/ ٧٢٣. وفي أخلاق النبوة (١٩٥). وفي كنز العمال (١٨١٩٧).

والأكل بالخمسة والراحة يوجب ازدحام الطعام على الآلة وعلى المعدة، وربما استدت الآلات فمات، وتغصب الآلات على دفعه، والمعدة على احتماله، ولا يجد له لذة ولا استمراء، فأنفع الأكل أكله ﷺ، وأكل من اقتدى به بالأصابع الثلاثة.

وكان ﷺ يلعق أصابعه إذا فرغ ثلاثاً: رواه الترمذي في الشمائل. وفي رواية مسلم ويلعق يده قبل أن يمسحها. وفي رواية أنه أمر بلعق الأصابع والصحفة[1]. وقد روى الترمذي عن أم عاصم قالت: دخل علينا نبيشة الخير، ونحن نأكل في قصعة فحدثنا أن رسول الله ﷺ قال «من أكل في قصعة ثم لحسها استغفرت له القصعة»[2]، وكذا أخرجه ابن ماجه وأحمد وابن شاهين والدارمي وغيرهم. وقال الترمذي: إنه حديث غريب. وأورده بعضهم بلفظ: تستغفر الصحفة للاحسها. وفي حديث جابر مرفوعاً عن أبي الشيخ في الثواب: «من أكل ما يسقط من الخوان أو القصعة أمن من الفقر والبرص والجذام وصرف عن ولده الحمق». وللديلمي من طريق الرشيد عن آبائه عن ابن عباس رفعه: «من أكل ما يسقط من المائدة خرج ولده صباح الوجوه، ونفي عنه الفقر».

وأورده الغزالي في الإحياء بلفظ: «عاش في سعة وعوفي في ولده» وكلها مناكير[3].

لكن في مسلم عن جابر وأنس مرفوعاً: «إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها فليمط ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان، ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه لأنه لا يدري في أي طعامه البركة»[4]. وفي حديث كعب بن عجرة عند الطبراني في الأوسط

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الأشربة باب (١٨) رقم الحديث (١٣٣). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٦١٤) وفي أخلاق النبوة (١٩٤).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الأطعمة باب (١١) رقم الحديث (١٨٠٤). وابن ماجة في كتاب الأطعمة باب (١٠) رقم الحديث (٣٢٧١ ـ ٣٢٧٢) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/٧٦. وفي سنن الدارمي ٢/٩٦ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/٣١٨. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢١٨ ـ ٤٢٤٢). وفي شرح السنة للبغوي ١١/٣١٦. وفي كنز العمال (٤٠٧٨٧). وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٢٢٥ و ٧/ ١٢٣.

(٣) ذكره الزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٥/ ٢٢٤. وفي تذكرة الموضوعات للفتني (١٤٢). والغزالي في إحياء علوم الدين ٢/ ٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الأشربة رقم الحديث (١٣٤). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/١٧٧. وفي ابن ماجه رقم الحديث (٣٢٧٨). وفي اتحاف السادة المتقين ٥/ ٢٢٠. وفي المغني للعراقي ٢/ ٥ وفي تذكرة الموضوعات للفتني (١٤٢) وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (١٥٣٦).

صفة لعق الأصابع، ولفظه: رأيت رسول الله ﷺ يأكل بأصابعه الثلاث، بالإبهام والتي تليها والوسطى، ثم رأيته يلعق أصابعه الثلاث قبل أن يمسحها، الوسطى ثم التي تليها ثم الإبهام. قال الحافظ زين الدين العراقي في شرح الترمذي: كأن السر فيه أن الوسطى أكثر تلويثاً لأنها أطول فيبقى فيها من الطعام أكثر من غيرها، ولأنها لطولها أول ما ينزل الطعام. وقد وقع في مرسل ابن شهاب عند سعيد بن منصور أن النبي ﷺ كان إذا أكل أكل بخمس. فيجمع بينه وبين ما تقدم باختلاف الحال. وقد جاءت علة اللعق مبينة ـ في بعض الروايات ـ أنه لا يدري أحدكم في أي طعامه البركة. وفي الحديث رد على من كره لعق الأصابع استقذاراً ممن ينسب للرياسة والإمرة في الدنيا. نعم، يحصل ذلك لو فعله أثناء الأكل لأنه يعيد أصابعه في الطعام، وعليها أثر ريقه.

قال الخطابي: عاب قوم أفسد عقلهم الترفه لعق الأصابع، وزعموا أنه مستقبح، كأنهم لم يعلموا أن الطعام الذي علق بالأصابع والصحفة جزء من أجزاء ما أكلوه، وإذا لم يكن سائر أجزائه مستقذراً لم يكن الجزء اليسير منه مستقذراً، وليس في ذلك أكثر من مصه أصابعه بباطن شفتيه، ولا يشك عاقل أن لا بأس بذلك، فقد يتمضمض الإنسان فيدخل أصبعه في فيه فيدلك أسنانه وباطن فمه، ثم لم يقل أحد إن ذلك قذارة وسوء أدب، انتهى. ولا ريب أن من استقذر ما نسب إلى رسول الله ﷺ سيء الأدب، يخشى عليه أمر عظيم، فنسأل الله بوجاهة وجهه الكريم أن لا يسلك بنا غير حلاوة سبيل سنته وأن يديم لنا محبته. وقد كان ﷺ لا يأكل متكئاً، لما صح أنه قال «لا آكل متكئاً»[1]. رواه البخاري. وقال: «إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما يأكل العبد»[2]. وروى ابن ماجه والطبراني بإسناد حسن قال: أهديت للنبي ﷺ شاة، فجثا على ركبتيه يأكل فقال له أعرابي: ما هذه الجلسة؟ فقال: «إن الله جعلني كريماً ولم يجعلني جباراً عنيداً»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (١٣) رقم الحديث (٥٣٩٨ ـ ٥٣٩٩). وفي سنن أبي داود رقم الحديث (٣٧٦٩). وفي الترمذي رقم الحديث (١٨٣٠). وفي الشمائل للترمذي (٦٤). وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٧/ ٢٥٦.

(٢) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ١٣١. والزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٥/ ٢١٤ و ٧/ ١١٦ و ٨/ ٣٩٣ و ٩/ ٣٥١. وفي المغني للعراقي ٢/ ٤ ـ ٣٦٧ و ٣/ ٣٥٠. وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٥/ ١٩٧١. وفي الزهد لابن مبارك (٥٥٣) وفي أخلاق النبوة (١٩٧). وفي كنز العمال (٤٠٧٠٨ ـ ٤٠٧٩٣).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة باب (١٧) رقم الحديث (٣٧٧٣). وفي سنن ابن ماجه رقم الحديث (٣٢٦٣). وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٧٧٥ ـ ٤٧٧٦). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي=

قال ابن بطال: إنما فعل ذلك النبي ﷺ تواضعاً لله، ثم ذكر من طريق أيوب عن الزهري قال: أتى النبي ﷺ ملك لم يأته قبلها فقال: إن ربك يخيرك بين أن تكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً، فنظر إلى جبريل كالمستشير له، فأومأ إليه أن تواضع، فقال: «بل عبداً نبياً» قال فما أكل متكئاً[1].

وهذا مرسل أو معضل، وقد وصله النسائي من طريق الزبيدي عن الزهري عن محمد بن عبدالله بن عمرو بن العاصي قال: ما رؤي النبي ﷺ يأكل متكئاً قط. وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال: ما أكل النبي ﷺ متكئاً إلا مرة واحدة. ويمكن الجمع بأن تلك المرة التي في أثر مجاهد لم يطلع عليها عبد الله بن عمرو. فقد أخرج ابن شاهين «في ناسخه» من مرسل عطاء بن يسار: أن جبريل رأى النبي ﷺ يأكل متكئاً فنهاه، وروى ابن ماجه أنه ﷺ نهى أن يأكل الرجل وهو منبطح على وجهه[2]. وقد فسر القاضي عياض في الشفاء الاتكاء بالتمكن للأكل والتقعدد للجلوس له كالمتربع وشبهه من تمكن الجلسات التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته. قال: والجالس على هذه الهيئة يستدعي الأكل ويستكثر منه. والنبي ﷺ إنما كان جلوسه للأكل المستوفز مقعياً. قال: وليس معنى الحديث في الاتكاء الميل على شق عند المحققين انتهى. والإقعاء: أن يلصق أليتيه بالأرض وينصب ساقيه ويتساند إلى ظهره، وهو المنهي عنه في الصلاة.

وتفسير القاضي عياض الاتكاء بما فسره به حكاه في الإكمال عن الخطابي، وقال: إن الخطابي خالف في هذا التأويل أكثر الناس، وأنهم إنما حملوا الاتكاء على أنه الميل على أحد الجانبين. انتهى. والذي رأيته يعزى للخطابي: تحسب العامة أن المتكىء هو الآكل على أحد شقيه وليس كذلك، بل هو المعتمد على الوطاء الذي تحته. انتهى. وقد فسر أيضاً بالميل على أحد الشقين، وبه فسر ابن الجوزي. وقيل هو الاعتماد على الشيء، وقيل: أن يعتمد على يده اليسرى من الأرض. وقد أخرج ابن عدي بسند ضعيف: زجر النبي ﷺ أن يعتمد الرجل على يده اليسرى عند الأكل. قال الإمام مالك: هو نوع من الاتكاء، قال الحافظ أبو الفضل العسقلاني: وفي هذا إشارة من مالك إلى

= (٤٢٥١). وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ١٣٠. وفي فتح الباري ٩/ ٦٧٥ وفي كنز العمال (٣١٩٨٦ ـ ٤٠٨١٠ ـ ٤١٧٠٧).

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٢٣١. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٨. وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢١٣٧). وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١١٦ وفي فتح الباري ٩/ ٦٧٦. وفي أخلاق النبوة (١٩٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه كتاب الأطعمة باب (٦٢) رقم الحديث (٣٣٧٠). وفي الأحكام النبوية في الصناعة الطبية للكحال ١/ ١٠١.

كراهة كل ما يعد الآكل فيه متكئاً، ولا يختص بصفة بعينها. وحكى ابن الأثير في النهاية أن من فسر الاتكاء بالميل على أحد الشقين تأوله على مذهب الطب. وقال ابن القيم: إنه يضر بالآكل، فإنه يمنع مجرى الطعام الطبيعي عن هيئته ويعوقه عن سرعة نفوذه إلى المعدة ويضغط المعدة فلا يستحكم فتحها للغذاء.

وأما الاعتماد على الشيء فهو جلوس الجبابرة المنافي للعبودية، ولهذا قال ﷺ «آكل كما يأكل العبد». وإن كان المراد بالاتكاء الاعتماد على الوسائد والوطاء الذي تحت الجالس ـ كما ذكرته عن الخطابي ـ فيكون المعنى: أني إذا أكلت لم أقعد متكئاً على الأوطئة والوسائد كفعل الجبابرة ومن يريد الإكثار من الطعام، لكني آكل بلغة من الزاد، فلذلك أقعد مستوفزاً.

وفي حديث أنس أنه ﷺ أكل تمراً وهو مقع ، من الجوع . وفي رواية : وهو محتفز . والمراد الجلوس على وركيه غير متمكن . واختلف السلف في حكم الأكل متكئاً، فزعم ابن القاص: أن ذلك من خصائصه ﷺ. وتعقبه السهيلي فقال: قد يكره لغيره أيضاً لأنه من فعل المتعظمين، وأصله مأخوذ من ملوك العجم، قال: فإن كان بالمرء مانع لا يتمكن معه من الأكل إلا متكئاً لم يكن في ذلك كراهة، ثم ساق عن جماعة من السلف أنهم أكلوا كذلك، وأشار إلى حمل ذلك عنهم على الضرورة.

قال في فتح الباري: وفي الحمل نظر، وقد أخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس. وخالد بن الوليد ومحمد بن سيرين وعطاء بن يسار وغيرهم جواز ذلك مطلقاً، وإذا ثبت كونه مكروهاً أو خلاف الأولى، فالمستحب في صفة الجلوس للآكل أن يكون جاثياً على ركبتيه وظهور قدميه، أو ينصب الرجل اليمنى ويجلس على اليسرى. انتهى.

وقال ابن القيم: ويذكر عنه ﷺ أنه كان يجلس للأكل متوركاً على ركبتيه ويضع بطن قدمه اليسرى على ظهر اليمنى تواضعاً ﷺ عز وجل وأدباً بين يديه. قال وهذه الهيئة أنفع هيئات الأكل وأفضلها لأن الأعضاء كلها تكون على وضعها الطبيعي الذي خلقها الله تعالى عليه. انتهى. وأخرج ابن أبي شيبة من طريق إبراهيم النخعي قال: كانوا يكرهون أن يأكلوا اتكاة مخافة أن تعظم بطونهم.

وكان ﷺ إذا وضع يده في الطعام يسمي الله تعالى[1]. وأما قول النووي في آداب الأكل من الأذكار: والأفضل أن يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، فإن قال: بسم الله كفاه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣٣٧/٤. وفي المغني للعراقي ٣٦٧/٢. وفي كنز العمال (١٨١٨١).

وحصلت السنة. فقال في فتح الباري: لم أر لما أدعاه من الأفضلية دليلاً خاصاً. وكان ﷺ يحمد في آخره فيقول: «الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مودع ولا مستغنى عنه ربنا»[1] رواه الترمذي. وقوله: «غير مودع» بفتح الـدال الثقيلة ـ أي غير متروك. ولا مستغنى: بفتح النون. و: ربنا: بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ربنا، ويجوز النصب على المدح، أو الاختصاص، أو إضمار أعني. وقال ابن الجوزي: بالنصب على النداء مع حذف أداة النداء.

وفي رواية: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين»[2]. وللنسائي من طريق عبد الرحمن بن جبير المصري أنه حدثه رجل خدم النبي ﷺ ثمان سنين أنه كان يسمع النبي ﷺ إذا قرب إليه طعام يقول: «بسم الله»، فإذا فرغ قال: «اللهم أطعمت وسقيت وأغنيت وأقنيت وهديت وأحييت فلك الحمد على ما أعطيت»[3] وسند صحيح.

وقد كان ﷺ يحب التيامن[4] من شأنه كله، وقال ﷺ: «يا غلام سم الله وكل بيمينك

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٥٤) رقم الحديث (٥٤٥٨ ـ ٥٤٥٩). وفي صحيح مسلم في كتاب المساجد رقم الحديث (١٤٩) وفي سنن أبي داود رقم الحديث (٣٨٤٩). وفي الترمذي رقم الحديث (٣٤٥٦). وفي سنن ابن ماجه رقم الحديث (٣٢٨٤). وفي سنن الدارمي ٢/ ٩٥ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٩٥. وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ١٦٨. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ١٤ و ٧/ ١٢٤. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤١٩٩). وفي الشمائل للترمذي (٦٨) وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٤٤٢. وفي كنز العمال (١٨١٧٨).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات باب (٥٥) رقم الحديث (٣٤٧). وفي سنن أبي داود رقم الحديث (٣٨٥٠). وفي سنن ابن ماجه رقم الحديث (٣٢٨٣). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٢ ـ ٩٨ ـ ٢٥٣. وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٧ وفي فتح الباري ٩/ ٧٢٥ وفي المطالب العالية لابن حجر (٢٣٥٣). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ٢٩. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٣٨٦). وفي الشمائل للترمذي (٩٨). وفي أخلاق النبوة (٢١٩).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/ ٦٢ ـ ٣٣٧. وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٣٣٧. وفي اتحاف السادة المتقين ٢/ ٢٠٧ و ٦/ ٤٠٤. وفي فتح الباري ٩/ ٧٢٥. وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١/ ٨٨. وفي أخلاق النبوة (٦٠ ـ ٢٢٠). وفي دلائل النبوة لابي نعيم (٣١ ـ ١٠٣). وفي تاريخ الطبري ٢/ ٣٤٦. وفي كنز العمال (٣٠٠٨٠ ـ ٣٠٠٨٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب (٤٧) رقم الحديث (٤٢٦ ـ ٥٣٨٠). وفي صحيح مسلم كتاب الطهارة باب (١٩) رقم الحديث (٦٦ ـ ٦٧). وفي سنن النسائي ١/ ٧٨. وفي سنن أبي داود رقم الحديث (٤١٤٠). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٩٤ ـ ١٣٠ ـ ١٤٧. وفي الترمذي رقم الحديث (٦٠٨) وفي سنن ابن ماجه رقم الحديث (٤٠١). وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٣٨٣. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٣/ ١٣٩. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٢/ ٣٦١ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٠٠). وفي مسند أبي عوانة ١/ ٢٢٢ وفي كنز العمال (٤٢٠٣٧).

وكل مما يليك»(١). قال الحافظ زين الدين العراقي في شرح الترمذي: حمله أكثر الشافعية على الندب، وبه جزم الغزالي ثم النووي. لكن نص الشافعي في الرسالة وفي موضع آخر من الأم على الوجوب، كذا ذكر عنه الصيرفي في شرح الرسالة. ونقل البويطي في مختصره: أن الأكل من رأس الثريد، والتعريس على الطريق، والقران في التمر حرام. ومثل البيضاوي في منهاجه للندب بقوله: «كل مما يليك» وتعقبه الشيخ تاج الدين بن السبكي في شرحه: بأن الشافعي نص في غير هذا الموضع على أن من أكل مما لا يليه عالماً بالنهي كان عاصياً آثماً، قال: وقد جمع والدي نظائر هذه المسألة في كتاب له سماه «كشف اللبس عن المسائل الخمس» ونصر القول بأن الأمر فيها للوجوب.

قال شيخ الإسلام ابن حجر، بعد أن ذكر ذلك: ويدل على وجوب الأكل باليمين ورود الوعيد في الأكل بالشمال، ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ رأى رجلاً يأكل بشماله فقال: «كل بيمينك» فقال: لا أستطيع، قال: «لا استطعت»(٢) فما رفعها إلى فيه بعد فإن قلت: إنه ﷺ كان يتتبع الدباء من حوالي القصعة وهو يعارض الأكل مما يلي: فالجواب: أنه يحمل الجواز على ما إذا علم رضى من يأكل معه، فإذا علم كراهة من يأكل معه لذلك لم يأكل إلا مما يليه. قال ابن بطال: وإنما جالت يد رسول الله ﷺ في الطعام، لأنه علم أن أحداً لا يتكره ذلك منه ولا يتقذره، بل كانوا يتبركون بريقه وبما مسه بيده، بل كانوا يتبادرون إلى نخامته فيتدلكون بها. وقال غيره: إنما فعل ذلك لأنه كان يأكل وحده. وهو غير مسلّم، لأن أنساً أكل معه ﷺ. وحديث عكراش عند الترمذي: الذي فيه التفصيل بين ما إذا كان لوناً واحداً فلا يتعدى ما يليه، أو أكثر من لون فيجوز، ضعيف والله أعلم.

وقرب إليه ﷺ طعام، فقالوا: ألا نأتيك بوضوء؟ قال: «إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة»(٣) رواه الترمذي. وفي رواية له: أنه ﷺ قال: «بركة الطعام الوضوء

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٢) رقم الحديث (٥٣٧٦ ـ ٥٣٧٧ ـ ٥٣٧٨) وفي صحيح مسلم كتاب الأشربة رقم الحديث (١٠٨). وفي سنن ابن ماجه في كتاب الأطعمة باب (٨) رقم الحديث (٣٢٦٨). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٢٦. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٧٧، وفي تفسير القرطبي ٤/ ٧٨. وفي مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ١٠٤. وفي شرح السنة للبغوي ١١/ ٢٧٥. وفي كنز العمال (٤٠٧٣٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الأشربة باب (١٣) رقم الحديث (١٠٧) وفي المسند للإمام أحمد ابن حنبل ٤/ ٤٦. وفي سنن الدارمي ٢/ ٩٧. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢٣٨ وفي المعجم الكبير للطبراني ٧/ ١٥. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٧٧. وفي فتح الباري ٩/ ٦٥٢. وفي التمهيد لابن عبد البر ١/ ٢٧٧ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٩٠٤).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة باب (١١) رقم الحديث (٣٧٦٠) وفي سنن النسائي ١/ ٨٥. وفي =

قبله والوضوء بعده»[1]. فيحمل الوضوء الأول على الشرعي والثاني على اللغوي. وروى أبو يعلى بإسناد ضعيف من حديث ابن عمر: من أكل من هذه اللحوم شيئاً فليغسل يده من ريح وضره، ولا يؤذي من حذاءه.

ولم يكن ﷺ يأكل طعاماً حاراً، فروى الطبراني في الصغير والأوسط من حديث بلال بن أبي هريرة عن أبيه أن النبي ﷺ أتي بصحفة تفور، فقال «إن الله لم يطعمنا ناراً»[2] قال: وبلال قليل الرواية عن أبيه. انتهى. وعند أبي نعيم في الحلية، من حديث أنس مرفوعاً: كان يكره الكي والطعام الحار ويقول: «عليكم بالبارد فإنه ذو بركة، ألا وإن الحار لا بركة له»[3] الحديث. ولأحمد وأبي نعيم من حديث أسماء أنها كانت إذا ثردت غطته بشيء حتى يذهب فوره ثم تقول: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هو أعظم بركة»[4]. لكن عند البيهقي ـ بسند صحيح ـ عن أبي هريرة قال: أتي النبي ﷺ بطعام سخن فقال: «ما دخل بطني طعام سخن منذ كذا وكذا قبل اليوم»[5]

وكان له ﷺ قدح من خشب مضبب بحديد، قال أنس لقد سقيته ﷺ بهذا القدح الشراب كله: الماء والنبيذ والعسل. وفي البخاري عن سهل بن سعد قال: أقبل النبي

= المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٨٢ ـ ٣٥٩. وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٤٢ ـ ٣٤٨. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ٨٢ و ١١/ ١٢٢. وفي الشمائل للترمذي (٩٥ ـ ٣٤٨). وفي اتحاف السادة المتقين ٥/ ٢١٣. وفي الدر المنثور للسيوطي ٢/ ٢٦٢. وفي صحيح ابن خزيمة (٣٥). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٠٩ ـ ٤٢١٠). وفي تفسير ابن كثير ٣/ ٤٣. وفي فتح الباري ١/ ٥١٩.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الأطعمة باب (٣٩) رقم الحديث (١٨٤٦). وفي سنن أبي داود رقم الحديث (٣٧٦١). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٤٤١. وفي المعجم الكبير للطبراني ٦/ ٢٩٢. وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ١٤. وفي الشمائل للترمذي (٩٦). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٠٨). وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٢١٢. وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ١٦٣. وفي تذكرة الموضوعات للفتني (١٤١). وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٦/ ٢٠٦٨. وفي شرح السنة للبغوي ١١/ ٢٨٢. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ١٥٠. وفي كنز العمال (١٨٢٢٤ ـ ٤٠٧٦٣).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٢٨٠.

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٢٨. وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٨/ ٢٥٢. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١١٦ وفي كنز العمال (١٨٣٥٩).

(٤) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٧٧. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٤١) وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٢٨.

(٥) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٢٨٠. وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١١٦. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ١٨٨. وفي المغني للعراقي ٢/ ٣٦٧.

ﷺ حتى جلس في سقيفة بني ساعدة هو وأصحابه، ثم قال «اسقنا يا سهل» فأخرجت لهم هذا القدح فأسقيتهم فيه[1]، فأخرج لنا سهل ذلك القدح فشربنا منه ثم استوهبه عمر بن عبد العزيز بعد ذلك فوهبه له. الحديث. وكان عمر بن عبد العزيز قد ولي حينئذٍ إمرة المدينة.

وعند البخاري من حديث عاصم الأحول قال: رأيت قدح النبي ﷺ عند أنس بن مالك، وكان قد انصدع فسلسله بفضة. قال: وهو قدح جيد عريض من نضار، وقال: قال أنس: لقد سقيت رسول ﷺ في هذا القدح أكثر من كذا وكذا، قال: وقال ابن سيرين: إنه كان فيه حلقة من حديث فأراد أنس أن يجعل مكانها حلقة من ذهب أو فضة، فقال أبو طلحة: لا تغيرن شيئاً صنعه رسول الله ﷺ وتركه.

وعنده: في فرض الخمس من طريق أبي حمزة السكري عن عاصم قال: رأيت القدح وشربت منه. وأخرجه أبو نعيم من طريق علي بن الحسن بن شقيق عن أبي حمزة، ثم قال: قال علي بن الحسن وأنا رأيت القدح وشربت منه. وذكر القرطبي في مختصر البخاري أنه رأى في بعض النسخ القديمة من البخاري: قال أبو عبد الله البخاري: ـ رأيت هذا القدح بالبصرة وشربت فيه، وكان اشتري من ميراث النضر بن أنس بثمانمائة ألف. ووقع عند أحمد من طريق شريك عن عاصم: رأيت عند أنس قدح النبي ﷺ فيه ضبة من فضة. وقوله من نضار ـ بضم النون وبالضاد المعجمة ـ الخالص من العود ومن كل شيء ويقال: أصله من شجر النبع، وقيل: من الأثل ولونه يميل إلى الصفرة. ولم يأكل ﷺ على خوان ولا أكل خبزاً مرققاً[2]، رواه الترمذي. والخوان ـ بكسر المعجمة ويجوز ضمها ـ المائدة ما لم يكن عليها طعام. وأما السفرة: فاشتهرت لما يوضع عليه الطعام. وكان ﷺ ينهى عن النوم على الأكل، ويذكر أنه يقسي القلب، ذكره أبو نعيم، ولذا قال الأطباء ـ كما في الهدي ـ من أراد حفظ الصحة فليمش بعد العشاء ولو مائة خطوة ولا ينام عقبه فإنه يضر جداً، والصلاة بعد الأكل تسهل هضمه.

وأما شربه ﷺ فقد كان يستعذب له الماء، أي يطلب له الماء الحلو. قالت عائشة:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة باب (٣٠) رقم الحديث (٥٦٣٧) وفي صحيح مسلم كتاب الأشربة رقم الحديث (٨٨). وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٣١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٨) رقم الحديث (٥٣٨٦ ـ ٥٤١٥ ـ ٦٤٥٠). وفي الترمذي كتاب الأطعمة باب (١) رقم الحديث (١٧٨٨). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٣٠. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٤٣ و ٩/ ٣٣١. وفي المغني للعراقي ٢/ ٣٨١.

كان يستعذب له الماء من بيوت السقيا[1]. رواه أبو داود. وهي ـ بضم المهملة وبالقاف ـ وهي عين بينها وبين المدينة يومان.

قال ابن بطال: واستعذاب الماء لا ينافي الزهد، ولا يدخل في الترفه المذموم، بخلاف تطييب الماء بالمسك ونحوه، فقد كرهه مالك لما فيه من السرف. وأما شرب الماء الحلو وطلبه فمباح قد فعله الصالحون. وليس في شرب الماء المالح فضيلة. وقد كان ﷺ يشرب العسل الممزوج بالماء البارد.

قال ابن القيم: وفي هذا من حفظ الصحة ما لا يهتدي إلى معرفته إلا أفاضل الأطباء، فإن شرب العسل ولعقه على الريق يزيل البلغم ويغسل خمل المعدة، ويجلو لزوجتها ويدفع عنها الفضلات، ويسخنها باعتدال ويفتح سددها، والماء البارد رطب يقمع الحرارة ويحفظ البدن. وقالت عائشة: كان أحب الشراب إليه ﷺ الحلو البارد[2]. رواه الترمذي. ويحتمل أن تريد به الماء الممزوج بالعسل أو الذي نقع فيه التمر والزبيب. وكان ينبذ له أول الليل ويشربه إذا أصبح يومه ذلك، والليلة التي تجيء، والغد إلى العصر، فإن بقي شي سقاه الخادم أو أمر به فصب.[3] رواه مسلم.

وهذا النبيذ: هو ماء يطرح فيه تمر يحليه، وله نفع عظيم في زيادة القوة، ولم يكن يشربه بعد ثلاث خوفاً من تغيره إلى الإسكار. وكان ﷺ يشرب اللبن خالصاً تارة، وتارة مشوباً بالماء البارد، لأن اللبن عند الحلب يكون حاراً، وتلك البلاد في الغالب حارة، فكان يكسر حر اللبن بالماء البارد. وعن جابر أنه ﷺ دخل على رجل من الأنصار، ومعه صاحب له، فسلم فرد الرجل وهو يحول الماء في حائطه، فقال ﷺ: «إن كان عندك ماء بات في شنه وإلا كرعنا» فقال: عندي ماء بات في شن، فانطلق إلى العريش فسكب في

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأشربة باب (٢٢) رقم الحديث (٣٧٣٥). وفي طبقات ابن سعد ١/ ٣٠١. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٨٤). وفي اتحاف السادة المتقين ٤/ ٤٢٧ و ٥/ ٢٥٥. وفي أخلاق النبوة (٢٢٧ ـ ٢٢٨). وفي شرح السنة للبغوي ١١/ ٣٨٣. وفي المغني للعراقي ١/ ٢٦٢. وفي كنز العمال (١٨٢٣٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الأشربة باب (٢١) رقم الحديث (١٨٩٥). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٣٨ ـ ٤٠ وفي المسند للحميدي رقم الحديث (٢٥٧) وفي شمائل الترمذي (١٠٤) وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٢٥٥. وفي أخلاق النبوة (٢٠٨ ـ ٢٢٧ ـ ٢٢٨). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٨٢). وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (١٥٨٨). وفي كنز العمال (١٨٢٢١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الأشربة باب (٩) رقم الحديث (٧٩). وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ١١١. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٨٨). وفي أخلاق النبوة (٢١٠).

قدح ثم حلب عليه من لبن داجن، فشرب ﷺ[1] الحديث. رواه البخاري.

وكان ﷺ يقول: «ليس يجزىء من الطعام والشراب إلا اللبن» قال الترمذي: حديث حسن.

وللترمذي أيضاً: عن ابن عمر مرفوعاً: «ثلاثة لا ترد: اللبن والوسادة والدهن» وأنشد بعضهم.

قد كان من سيرة خير الورى	صلى عليه الله طول الزمن
أن لا يرد الطيب والمتكا	واللحم أيضاً يا أخي واللبن

قال ابن القيم: ولم يكن ﷺ يشرب على طعامه لئلا يفسده، ولا سيما إن كان الماء حاراً أو بارداً فإنه رديء جداً. انتهى. وكان ﷺ يشرب قاعداً وكان ذلك عادته[2]. ورواه مسلم. وفي رواية له أيضاً: أنه نهى عن الشرب قائماً[3] وفي رواية له أيضاً عن أبي هريرة: «لا يشربن أحدكم قائماً، فمن نسي فليستقىء»[4]. وفي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: أتيت النبي ﷺ بدلو من ماء زمزم فشرب وهو قائم. وفي حديث علي عند البخاري: أنه شرب وهو قائم، ثم قال: إن أناساً يكرهون الشرب قائماً، وإن النبي ﷺ صنع مثل ما صنعت[5].

وكل هذه الأحاديث صحيحة ولا إشكال فيها ولا تعارض، وغلط من زعم أن فيه نسخاً، وكيف يصار إلى النسخ مع إمكان الجمع بين الأحاديث، والصواب: أن النهي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة باب (١٤) رقم الحديث (٥٦١٣ ـ ٥٦٢١). وفي سنن أبي داود رقم الحديث (٣٧٢٤). وفي ابن ماجة رقم الحديث (٣٤٣٢). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٢٨. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٧٤. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي (٢٥٥). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٧). وفي سنن الدارمي ٢/ ١٢٠.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الأشربة باب (١٢) رقم الحديث (١٨٨٣). وفي سنن النسائي ٣/ ٨٢ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ١٠١ و ٢/ ١٧٤ ـ ٢١٥ ـ وفي شمائل الترمذي (١٠٩) وفي شرح معاني الآثار ٤/ ٢٧٣. وفي كنز العمال (٤١٨٢٦ ـ ٤١٨٢٧).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الأشربة باب (١١) رقم الحديث (١٨٨١). وابن ماجة في كتاب الأشربة باب (٢١) رقم الحديث (٣٤٢٤). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٨٢ ـ ٢٧٧. وفي مشكل الآثار للطحاوي ٣/ ١٨. وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٤/ ١٤٣٣. وفي مسند الربيع بن حبيب ١/ ٧٤ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ١٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الأشربة باب (١٤) رقم الحديث (١١٦) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٨٢. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٦٧). وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٢٢٢. وفي فتح الباري ١٠/ ١٠١ وفي كنز العمال (٤١٠٣٤).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة باب (١٦) رقم الحديث (٥٦١٥ ـ ٥٦١٦).

محمول على كراهة التنزيه، وأما شربه ﷺ قائماً فلبيان الجواز. فإن قلت: كيف يكون الشرب قائماً مكروهاً، وقد فعله ﷺ؟ فالجواب: أن فعله ﷺ إذا بياناً للجواز لا يكون مكروهاً، بل البيان واجب عليه ﷺ. وأما قوله ﷺ «فمن نسي فليستقيء» فمحمول على الاستحباب والندب، فيستحب لمن شرب قائماً أن يتقيأ لهذا الحديث الصحيح الصريح سواء كان ناسياً أو لا، قاله النووي.

وقال المالكية: لا بأس بالشرب قائماً، واستدلوا لذلك بحديث جبير بن مطعم قال: رأيت أبا بكر الصديق يشرب قائماً. ويقول مالك إنه بلغه عن عمر بن الخطاب وعثمان وعلي أنهم كانوا يشربون قياماً. وأجابوا عن حديث أبي هريرة «لا يشربن أحدكم قائماً، فمن نسي فليستقيء» بأن عبد الحق قال: في إسناده عمر بن حمزة العمري، وهو ضعيف. انتهى. وقال المازري: قال بعض شيوخنا لعل النهي ينصرف لمن أتى أصحابه بماء فبادر لشربه قائماً قبلهم استبداداً به، وخروجاً عن كون ساقي القوم آخرهم شرباً.

وقال بعض الشيوخ: الأظهر أنه موقوف على أبي هريرة: قال: والأظهر لي أن أحاديث شربه قائماً تدل على الجواز، وأحاديث النهي تحمل على الإستحباب والحث على ما هو أولى وأكمل، لأن في الشرب قائماً ضراً ما، فكره من أجله، وفعله هو لأمنه منه، قال: وعلى هذا الثاني يحمل قوله: «فمن شرب فليستقيء» على أن ذلك يحرك خلطاً يكون القيء دواءه، ويؤيده قول النخعي: إنما نهى عن ذلك لداء البطن. انتهى. وقال ابن القيم: للشرب قائماً آفات عديدة منها: أنه لا يحصل به الري التام، ولا يستقر في المعدة حتى يقسمه الكبد على الأعضاء وينزل بسرعة إلى المعدة فيخشى منه أن تبرد حرارتها، ويسرع النفوذ إلى أسافل البدن بغير تد يج، وكل هذا يضر بالشارب قائماً، فإذا فعله نادراً لم يضره.

وعند أحمد عن أبي هريرة أنه رأى رجلاً يشرب قائماً، فقال له قئه، فقال لم؟ قال: أيسرك أن يشرب معك الهر قال: لا، قال: قد شرب معك من هو شر منه: الشيطان. وكان ﷺ يتنفس في الشراب ثلاثاً ويقول: «إنه أروى وأمرأ وأبرأ»[1] رواه مسلم. ومعنى تنفسه: إبانة القدح عن فيه، وتنفسه خارجه، ثم يعود إلى الشرب. وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ كان يشرب في ثلاثة أنفاس: إذا أدنى الإناء إلى فيه سمى الله، فإذا أخره حمد الله، يفعل ذلك ثلاثاً.

وفي هذا الشرب حكم جمة وفوائد مهمة، نبه ﷺ على مجامعها بقوله «إنه أروى

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الأشربة رقم الحديث (١٢٣).

وأمرأ وأبرأ» فأروى: من الري ـ بكسر الراء من غير همز ـ أشد رياً وأبلغه وأنفعه. وأبرأ، أفعل من البرء ـ بالهمز ـ وهو الشفاء، أي يبرىء من شدة العطش ودائه لتردده على المعدة الملتهبة دفعات، تسكن الدفعة الثانية ما عجزت الأولى عن تسكينه، والثالثة ما عجزت عنه الثانية. وأيضاً: فإنه أسلم لحراراة المعدة، وأبقى عليها من أن يهجم عليها البارد وهلة واحدة ونهلة واحدة، فإنه أسلم عاقبة وآمن غائلة من تناول جميع ما يروى دفعة واحدة، فإنا يخاف منه أن يطفىء الحرارة الغريزية لشدة برده وكثرة كميته، أو يضعفها فيؤدي لك إلى فساد المعدة والكبد، وإلى أمراض رديئة، خصوصاً في سكان البلاد الحارة، في الأزمنة الحارة، فإن الشرب فيهما وهلة واحدة مخوف عليهم جداً.

وقوله: أمرأ: بالهمز، أفعل من مرؤ الطعام والشراب في بدنه إذا داخله وخالطه بسهولة ولذة ونفع. انتهى. وقال بعضهم: والمعنى أنه يصير هنيئاً مريئاً. أي: سالماً أو مبرئاً من مرض أو عطش أو أذى. ويؤخذ من ذلك: أنه أقمع للعطش وأقوى على الهضم. ومن آفات الشرب نهلة واحدة، أنه يخاف منه الشرق، بأن ينسد مجرى الشراب لكثرة الوارد عليه، فإذا تنفس رويداً ثم شرب أمن من ذلك. وقد روى عبد الله بن المبارك والبيهقي وغيرهما عن النبي ﷺ: إذا شرب أحدكم فليمص الماء مصاً، ولا يعب عباً فـ يورث الكباد. والكباد: ـ بضم الكاف وتخفيف الباء ـ وجع الكبد.

ولا معارضة بين التنفس هنا وبين النهي عن التنفس في الإناء الوارد في الحديث لأن المنهي عنه التنفس داخل الإناء، فإنه ربما حصل للماء تغير من النفس، إما لكو المتنفس كان متغير الفم لمأكول مثلاً، أو لبعد عهده بالسواك والمضمضة، أو لأن النفس يصعد ببخار المعدة، وهاهنا التنفس خارج الإناء فلا تعارض، فلو لم يتنفس جاز الشرب بنفس واحد، وقيل يمنع مطلقاً لأنه شرب الشيطان.

وكان ﷺ إذا دعي لطعام وتبعه أحد أعلم به رب المنزل، فيقول: «إن هذا تبعنا فإن شئت رجع»[1]. وكان يكرر على أضيافه ويعرض عليهم الأكل مراراً، وفي حديث أبي هريرة في قصة شرب اللبن، وقوله مراراً: «اشرب» فما زال يقول: اشرب حتى قال: والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلكاً[2]. رواه البخاري. وكان ﷺ إذا أكل مع قوم كان آخرهم أكلاً. رواه البيهقي في الشعب عن جعفر بن محمد عن أبيه مرسلاً. وفي حديث ابن عمرو مرفوعاً عند ابن ماجه والبيهقي: «إذا وضعت المائدة فلا يقوم الرجل وإن شبع

(١) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١٧/١٩٦ ـ ١٩٨ ـ ١٩٩. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٦٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦/ ٥ ـ ٤٥٥. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٤٤٦ و ٧/ ٨٣ و ٨/ ٦٩٤. وفي دلائل النبوة لابي نعيم (١٥١). وفي كنز العمال (٣٠٢٤٢).

حتى يفرغ القوم، فإن ذلك يخجل جليسه وعسى أن يكون له في الطعام حاجة[٣].

وكان ﷺ إذا أكل عند قوم لم يخرج حتى يدعو لهم. فدعا في منزل عبد الله بن بسر فقال: «اللهم بارك لهم فيما رزقتهم واغفر لهم وارحمهم»[٢] رواه مسلم، ودعا في منزل سعد فقال: «أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة»[٣] رواه أبو داود، وسقاه آخر لبناً فقال: «اللهم أمتعه بشبابه»[٤] فمرت عليه ثمانون سنة لم ير شعرة بيضاء، رواه ابن السني.

النوع الثاني
في لباسه ﷺ وفراشه[٥]

قال البخاري: باب ما كان النبي ﷺ يتجوز من اللباس[٦]. يعني يتوسع فلا يضيق بالإقتصار على صنف بعينه، أو لا يضيق بطلب النفيس الغالي، بل يستعمل ما تيسر.

وقال القاضي عياض: كان ﷺ قد اقتصر منه على ما تدعوه ضرورته إليه، وزهد فيما سواه، فكان يلبس ما وجده، فيلبس ـ في غالب أحواله ـ الشملة والكساء الخشن والأردية والأزر، ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخوصة بالذهب، ويرفع لمن لم يحضر. إذ المباهاة في الملابس والتزين بها ليست من خصال الشرف والجلالة، وهي من سمات النساء، والمحمود منها نقاوة الثوب، والتوسط في جنسه، وكونه لبس مثله، غير مسقط لمروءة جنسه. انتهى.

---

(١) ذكره الزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٥/ ٢٢٥ و ١ ٢.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأشربة باب (٢٠) رقم الحديث (٣٧٢٩). وفي صحيح مسلم رقم الحديث (١٦١٦) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٨٨ ـ ١٩٠. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٧٣ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٤٢٧). وفي كنز العمال (٢٤٢٧).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة باب (٥٤) رقم الحديث (٣٨٥٤). وابن ماجة في كتاب الصيام باب (٤٥) رقم الحديث (١٧٤٧). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١١٨. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠ وفي المطالب العالية لابن حجر (٣١٤٥) وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٢٢٥ ـ ٢٤٠. وفي موارد الظمآن للهيثمي (١٣٥٣) وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٣/ ٧٢. وفي نصب الراية للزيلعي ٢/ ٤٨٠. وفي كنز العمال (٢٥٩٨٨ ـ ٢٥٩٨٩).

(٤) ذكره ابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٦٩). والنووي في الأذكار (٢١٣). وفي مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٤٩٤.

(٥) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣٤٧ ـ ٣٥٩.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٣١) رقم الحديث (٥٨٤٣ ـ ٥٨٤٤).

وقد روى أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر مرفوعاً: «أن من كرامة المؤمن على الله عز وجل نقاء ثوبه ورضاه باليسير»[1].

وله أيضاً من حديث جابر: أن النبي ﷺ رأى رجلاً وسخة ثيابه فقال: «أما وجد هذا شيئاً ينقي به ثيابه؟»[2].

فقد كانت سيرته ﷺ في ملبسه أتم وأنفع للبدن وأخفه عليه، فإنه لم تكن عمامته بالكبيرة التي يؤذي حملها ويضعفه ويجعله عرضة للآفات، كما يشاهد من حال أصحابها، ولا بالصغيرة التي تقصر عن وقاية الرأس من الحر والبرد، بل وسطاً بين ذلك، وكان يدخلها تحت حنكه، فإنها تقي العنق من الحر والبرد، وهو أثبت لها عند ركوب الخيل والإبل، والكر والفر، وكذلك الأردية والأزر أخف على البدن من غيرها.

وقد أطنب ابن الحاج في المدخل في الاستدلال لاستحباب التحنيك، ثم قال: وإذا كانت العمامة من باب المباح فلا بد فيها من فعل سنن تتعلق بها، من تناولها باليمين والتسمية والذكر الوارد، إن كانت مما لبس جديداً، وامتثال السنة في صفة التعميم، من فعل التحنيك والعذبة. وتصغير العمامة يعني سبعة أذرع أو نحوها، يخرجون منها التحنيك والعذبة، فإن زاد في العمامة قليلاً لأجل حر أو برد فيسامح فيه. ثم قال بعد أن ذكر قوله: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر: ٧]، فعليك بأن تتسرول قاعداً وتتعمم قائماً. انتهى.

ولم يكن ﷺ يطول أكمامه ويوسعها، بل كان كم قميصه إلى الرسغ، وهو منتهى الكف عند المفصل، لا يجاوز اليد فيشق على لابسه ويمنعه سرعة الحركة والبطش، ولا يقصره ﷺ عن هذا فتبرز للحر والبرد، وقد روي عن أسماء بنت يزيد قالت: كان كم قميص رسول الله ﷺ إلى الرسغ. رواه الترمذي.

وكان ذيل قميصه وردائه إلى أنصاف الساقين، لم يتجاوز الكعبين، فيؤذي الماشي ويجعله كالمقيد، ولم يقصر عن عضلة ساقيه، فيتأذى بالحر والبرد. أشار إليه في زاد المعاد.

وأخرج الترمذي عن الأشعث بن سليم قال: سمعت عمتي تحدث عن عمها قال: بينا أنا أمشي بالمدينة إذا إنسان خلفي يقول: «ارفع إزارك فإنه أتقى وأنقى»، فإذا هو

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣٤١ ـ ٣٤٢.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣٤١ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٢٧٧) وفي حلية الأولياء ٣/ ١٥٦ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ١/ ٣٠٦.

رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إنما هي بردة قال: «أما لك في أسوة؟» فنظرت فإذا إزاره إلى نصف ساقيه(١).

وأخرج الطبراني من طريق عبد الله بن محمد بن عقيل عن ابن عمر قال: رآني النبي ﷺ أسبلت إزاري، فقال: «يا ابن عمر، كل شيء لمس الأرض من الثياب فهو في النار»(٢). وفي البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما أسفل من الكعبين من الإزار في النار»(٣).

قال الخطابي: يريد أن الموضع الذي يناله الإزار من أسفل الكعبين في النار، فكنى بالثوب عن بدن لابسه، ومعناه: أن الذي دون الكعبين من القدم يعذب بالنار عقوبة. وحاصله أنه من باب تسمية الشيء باسم ما جاوره أو حل فيه، وتكون «من» بيانية.

وللطبراني من حديث عبد الله بن مغفل، رفعه: (إزرة المؤمن إلى أنصاف الساقين وليس عليه حرج فيما بينه وبين الكعبين، وما أسفل من ذلك ففي النار)(٤) والإزرة: ـ بالكسر ـ الحالة وهيئة الائتزار مثل الركبة والجلسة.

واعلم طهر الله ثوبي وثوبك، ونزه سري وسرك ـ أن هذا الإطلاق محمول على ما ورد من قيد الخيلاء، فهو الذي ورد فيه الوعيد بالاتفاق. وقد أخرج أصحاب السنن إلا الترمذي ـ واستغربه ـ وابن أبي شيبة من طريق عبد العزيز بن أبي رواد عن سالم بن عبد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٥/ ٣٦٤. وفي شمائل الترمذي (٥٨) وفي البداية والنهاية ٦/ ٤٧ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٩/ ٢٨١ وفي فتح الباري ١٠/ ٣٢٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٩٨. وفي فتح الباري ١٠/ ٣١٦. وفي كنز العمال (٤١١٩٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٤) رقم الحديث (٥٧٨٧). وفي سنن النسائي ٨/ ٢٠٧. وفي ابن ماجة كتاب اللباس باب (٧) رقم الحديث (٣٥٧٣). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٤٦١ و ٥/ ٩. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٢٤. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣١٤). وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٨٨. وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٣/ ١٢٢٧. وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ١٢. وفي كنز العمال (٤١١٥٨).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس باب (٢٧) رقم الحديث (٤٠٩٣). وابن ماجه في كتاب اللباس باب (٧) رقم الحديث (٣٥٧٣). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٦ ـ ٩٧. وفي الموطأ للإمام مالك في كتاب اللباس باب (٥) رقم الحديث (١٢). وفي المسند للحميدي رقم الحديث (٧٣٧). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٢٤٤. وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٨٨ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ٣٤١. وفي اتحاف السادة المتقين ٩/ ٣٥٩. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٣٠). وفي التاريخ الكبير للبخاري ٥/ ٣٦٦ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٤/ ١٦٣٨. وفي التمهيد لابن عبد البر ٣/ ٢٤٥. وفي كنز العمال (٤١٠٩٨ ـ ٤١١٢٤).

الله بن عمر عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: «الإسبال في الإزار والقميص والعمامة، من جر شيئاً منها خيلاء»[1] الحديث، فبين في هذه الرواية أن الحكم ليس خاصاً بالإزار، وإن جاء في أكثر طرق الأحاديث بلفظ الإزار. قال الطبري: إنما ورد الخير بلفظ الإزار، لأن أكثر الناس في عهده كانوا يلبسون الأزر والأردية، فلما لبس الناس القمص والدراريع كان حكمها حكم الإزار في النهي.

قال ابن بطال: هذا قياس صحيح لو لم يأت النص بالثوب فإنه يشمل جميع ذلك، وفي تصوير جر العمامة نظر إلا أن يكون المراد ما جرت به عادة العرب من إرخاء العذبات،فمهما زاد على العادة في ذلك كان من الإسبال . وهل يدخل في الزجر عن جر الثوب تطويل أكمام القميص ونحوه؟ محل نظر. والذي يظهر أن من أطالها حتى خرج عن العادة كما يفعله بعض الحجازيين دخل في ذلك. قال ابن القيم: وأما هذه الأكمام الواسعة الطوال، التي هي كالأخراج، وعمائم كالأبراج، فلم يلبسها ﷺ هو ولا أحد من أصحابه، وهي مخالفة لسنته، وفي جوازها نظر، فإنها من جنس الخيلاء، انتهى. وقال صاحب «المدخل»: ولا يخفى على ذي بصيرة أن كم بعض من ينسب إلى العلم اليوم فيه إضاعة المال المنهي عنها، لأنه قد يفضل من ذلك الكم ثوب لغيره. انتهى. لكن حدث للناس اصطلاح بتطويلها، وصار لكل نوع من الناس شعار يعرفون به، ومهما كان من ذلك على سبيل الخيلاء فلا شك في تحريمه، وما كان على طريق العادة، فلا تحريم فيه ما لم يصل إلى جر الذيل الممنوع منه. ونقل القاضي عياض عن العلماء كراهة كل ما زاد على العادة وعلى المعتاد في اللباس من الطول والسعة.

وفي حديث أبي هريرة عند البخاري مرفوعاً (بينما رجل يمشي تعجبه [نفسه] مرجل جمته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة)[2]. وفي الطبراني وأبي

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس باب (٢٧) رقم الحديث (٤٠٩٤). وابن ماجه رقم الحديث (٣٥٧٦). وفي سنن النسائي ٢٠٨/٨. وفي المعجم الكبير للطبراني ٣١١/١٢. وفي شرح السنة للبغوي ٩/١٢. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٣٢). وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٣٤٧/٨ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٨٩/٣. وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (١٤٥٤). وفي فتح الباري ١٠/ ٣٢٢. وفي كنز العمال (٤١١٦٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٥) رقم الحديث (٥٧٨٩). وفي صحيح مسلم كتاب اللباس رقم الحديث (٤٩). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤٥٦/٢ ـ ٤٧٦. وفي التاريخ الكبير للبخاري ١/ ٢١٢ ـ ٤١٣. وفي اتحاف السادة المتقين ٣٤٦/٨. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٥٦٨/٣.

داود (إن رجلاً ممن كان قبلكم لبس بردة فتبختر فيها، فنظر الله إليه فمقته، فأمر الأرض فأخذته)[1].

وهذا الوعيد المذكور يتناول الرجال والنساء على هذا الفعل المخصوص، وقد فهمت ذلك أم سلمة رضي الله عنها، فأخرج النسائي والترمذي ـ وصححه ـ من طريق أيوب عن نافع عن ابن عمر: فقالت أم سلمة فكيف تصنع النساء بذيولهن فقال: يرخين شبراً فقالت: إذاً تنكشف أقدامهن، قال: فيرخينه ذراعاً لا يزدن عليه. وحاصل ما ذكر في ذلك: أن للرجال حالين، حال استحباب: وهو أن يقتصر بالإزار على نصف الساق، وحال جواز: وهو إلى الكعبين، وكذلك للنساء حالان: حال استحباب وهو ما يزيد على ما هو جائز للرجال بقدر الشبر، وحال جواز بقدر ذارع، وأن الإسبال يكون في الإزار والقميص والعمامة، وأنه لا يجوز إسباله تحت الكعبين إن كان للخيلاء، وإن كان لغيرها فهو مكروه للتنزيه. قال النووي: وظواهر الأحاديث في تقييدها بالخيلاء يدل على أن التحريم مخصوص بالخيلاء، قال: وهذا نص الشافعي على الفرق كما ذكرنا انتهى.

تنبيه: قال العراقي في شرح الترمذي: الذراع الذي رخص للنساء فيه، هل ابتداؤه من الحد الممنوع منه الرجال، وهو من الكعبين، أو من الحد المستحب وهو أنصاف الساقين، أو حده من أول ما يمس الأرض؟ الظاهر أن المراد الثالث: بدليل حديث أم سلمة الذي رواه أبو داود والنسائي ـ واللفظ له ـ وابن ماجه، قالت: سئل رسول الله ﷺ كم تجر المرأة من ذيلها؟ قال «شبراً» قالت: إذاً ينكشف عنها، قال: «الذراع لا تزيد عليه»[2] فظاهره: أن لها أن تجر على الأرض منه ذراعاً. قال: والظاهر أن المراد بالذراع ذراع اليد وهو شبران، لما في سنن ابن ماجه عن ابن عمر قال: رخص رسول الله ﷺ لأمهات المؤمنين شبراً، ثم استزدنه فزادهن شبراً. فدل على أن الذراع المأذون فيه شبران وهو الذراع الذي يقاس به الحصر اليوم. انتهى. وإنما جاز ذلك للنساء لأجل الستر لأن المرأة كلها عورة إلا ما استثني

وقد كان له ﷺ عمامة تسمى السحاب، ويلبس تحتها القلانس اللاطئة. والقلانس:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب اللباس رقم الحديث (٥٠) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٤١٢ . وفي اتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٤٦.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس باب (٣٧) رقم الحديث (٤١١٧). والترمذي رقم الحديث (١٧٣١) وابن ماجه رقم الحديث (٣٥٨٠). وفي سنن النسائي ٨/ ٢٠٩. وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٥ ٦/ ١٢٣ ـ ٣٠٩. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٢٣٣، وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٢٦ . وفي مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٢٢٠ وفي تاريخ أصفهان ١/ ١٣٠ .

جمع قلنسوة ـ بفتح القـاف، وسكون النون وضم المهملة وفتح الواو، وقد تبدل ياء تحتية، وقد تبدل ألفاً وتفتح السين، يقال: قلنساة، وقد تحذف النون من هذه بعدها هاء تأنيث ـ غشاء مبطن يستر به الرأس، قاله الفراء[1] في شرح «الفصيح». وقال ابن هشام: هي التي يقول لها العامة الشاشية، وفي «المحكم»: هي ملابس الرؤوس، معروفة، وقال أبو هلال العسكري: هي التي تغطى بها العمائم وتستر من الشمس والمطر، كأنها عنده رأس البرنس. انتهى.

وروى الترمذي عن جابر رضي الله عنه قال: (دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء)[2]، وفي رواية لأنس عند البخاري (دخل عام الفتح وعلى رأسه المغفر)[3] وهو بكسر الميم وسكون الغين المعجمة وفتح الفاء، زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس. ويجمع بينهما: بأن العمامة السوداء كانت فوق المغفر.

وجمع بينهما القاضي عياض: بأن أول دخوله كان على رأسه المغفر، ثم بعد ذلك كان على رأسه العمامة بعد إزالة المغفر، بدليل قوله في حديث عمرو بن حريث عن أبيه (خطب الناس وعليه عمامة سوداء) لأن الخطبة إنما كانت عند باب الكعبة بعد تمام فتح مكة. قال الولي بن العراقي: وهو أولى وأظهر في الجمع من الأول. وقد تقدم نحو ذلك في غزوة فتح مكة.

وعن ابن عمر قال: (كان النبي ﷺ إذا اعتم سدل) رواه الترمذي في الشمائل، زا

---

(١) هو يحيىٰ بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي مولى بني أسد أبو زكرياء المعروف بالفراء (١٤٤ ـ ٢٠٧ هـ). عالم بالنحو واللغة متكلم توفي في طريق مكة. الأعلام ٨/ ١٤٥. وفيات الأعيان ٢/ ٢٢٨ معجم الأدباء ٥/ ٦١٩ رقم الترجمة (١٠٢٩) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٧٢ رقم الترجمة (٣٦٨). تاريخ بغداد ١٤٩/٤١ مرآة الجنان ٢/ ٣٨ مفتاح السعادة ٥/ ٢٢٥. الفهرست لابن النديم (٦٦ ـ ٦٧).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب اللباس باب (١١) رقم الحديث (١٧٣٥). وأبو داود في كتاب اللباس باب (٢١) رقم الحديث (٤٠٧٦). وابن ماجة في كتاب اللباس باب (١٤) رقم الحديث (٣٥٨٥ ـ ٣٥٨٦). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٦٣ و ٤/ ٣٠٧. وفي سنن الدارمي كتاب المناسك رقم الحديث (٨٨). وفي سنن النسائي ٨/ ٢١١. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٦٧. وفي مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٢٣٤ ـ ٢٣٧. وفي اتحاف السادة المتقين ٣/ ٢٥٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (١٧) رقم الحديث (٥٨٠٨). وفي شرح السنة للبغوي ١٠/ ٣٩٩.

مسلم (وقد أرخى طرفها بين كتفيه)[1]. وقد روى أبو محمد بن حيان[2] في كتاب «أخلاق النبي ﷺ» من حديث ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يعتم قال: يدير كور العمامة على رأسه ويغرسها من ورائه ويرخي لها ذؤابة بين كتفيه. وروى مسلم من حديث عمرو ابن حريث قال: (رأيت النبي ﷺ على المنبر وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفها بين كتفيه) وعنده أيضاً عن جابر قال: (دخل مكة وعليه عمامة سوداء) ولم يذكر فيه ذؤابة، فدل على أنه لم يكن يرخيها دائماً بين كتفيه. لكن قد يقال: إن دخوله مكة كان وعليه أهبة القتال والمغفر على رأسه، فلبس في كل موطن ما يناسبه.

وقال ابن القيم في الهدي النبوي: وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يذكر في سبب الذؤابة شيئاً بديعاً: وهو أن النبي ﷺ إنما اتخذها صبيحة المنام الذي رآه بالمدينة لما رأى رب العزة فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري، فوضع يده بين كتفي فعلمت ما بين السماء والأرض. الحديث وهو في الترمذي ، وسئل عنه البخاري فقال: صحيح. قال: فمن تلك الغداة أرخى الذؤابة بين كتفيه. قال: وهذا من العلم الذي تنكره ألسنة الجهال وقلوبهم، قال: ولم أر هذه الفائدة في شأن الذؤابة لغيره. انتهى.

وعبارة غير الهدي: وذكر ابن تيمية أنه ﷺ لما رأى ربه واضعاً يده بين كتفيه أكرم ذلك الموضع بالعذبة. انتهى لكن قال العراقي بعد أن ذكره: لم نجد لذلك أصلاً. انتهى. وروى ابن أبي شيبة عن علي قال: عممني رسول الله ﷺ بعمامة سدل طرفها على منكبي وقال: «إن الله أمدني يوم بدر ويوم حنين بملائكة معممين هذه العمة» وقال: «إن العمامة حاجز بين المسلمين وبين المشركين»[3].

قال عبد الحق الإشبيلي:[4] وسنة العمامة ـ بعد فعلها ـ أن يرخي طرفها ويتحنك

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب اللباس باب (١٢) رقم الحديث (١٧٣٦). وفي صحيح مسلم كتاب الحج رقم الحديث (٤٥٤) وفي سنن النسائي ١٠٩/٨. وابن ماجه في كتاب الجهاد باب (٢٢) رقم الحديث (٢٨٢١). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١٤٨/٦ ـ ١٥٢. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤٦٩/١. وفي شمائل الترمذي (٥٦). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٢٠/٥. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٣٨). وفي أخلاق النبوة (١١٧) وفي كنز العمال (١٨٢٦٩).

(٢) هو عبد الله بن محمد بن جعفر بن حبان الأصبهاني. أبو محمد يقال له أبو الشيخ. (٢٧٤ ـ ٣٦٩ هـ) حافظ محدث مفسر. مؤرخ. الأعلام ١٢٠/٤. تذكرة الحفاظ ٩٤٥/٣ رقم الترجمة (٨٩٦). شذرات الذهب ٦٨/٣. كشف الظنون (١٤٠٦ ـ ١٤٠٧ ـ ١٤٣٩). اللباب ٢٣١/١. النجوم الزاهرة ١٣٦/٤.

(٣) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ١٤/١٠. وفي المطالب العالية لابن حجر (٢١٥٨).

(٤) هو عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي الإشبيلي أبو محمد المعروف بابن الخراط.=

به، فإن كانت بغير طرف ولا تحنيك فذلك يكره عند العلماء، واختلف في وجه الكراهة، فقيل لمخالفة السنة فيها، وقيل: لأنها كذلك عمائم الشياطين. وجاءت الأحاديث في إرسال طرفها على أنواع: منها ما تقدم أنه أرسل طرفها على منكب علي، ومنها: أن عبد الرحمن بن عوف قال: عممني رسول الله ﷺ فسدلها بين يدي ومن خلفي(1). ذكره أبو داود. وعن ابن عباس أنه رأى النبي ﷺ وعليه عمامة دسماء أي سوداء. رواه الترمذي.

وفي حديث ركانة أنه ﷺ قال: «إن فرق ما بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس»(2). رواه الترمذي أيضاً. وعن أبي كبشة الأنماري قال: كانت كمام أصحاب النبي ﷺ بطحاً. رواه الترمذي أيضاً. وفي رواية أكمة، وهما جمع كثرة وقلة، الكمة: القلنسوة، يعني أنها كانت منبطحة غير منتصبة. وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كانت له كمة بيضاء، رواه الدمياطي. وكان أحب الثياب إليه ﷺ القميص، كما في الشمائل للترمذي، من حديث أم سلمة قالت: (كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص). وعن معاوية بن قرة عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ في رهط من مزينة لنبايعه وإن قميصه لمطلق الأزرار ـ أو قال: زر قميصه مطلق ـ قال: فأدخلت يدي في جيب قميصه فمسست الخاتم(3). رواه الترمذي.

وعن أنس قال: كان قميص رسول الله ﷺ قطناً قصير الطول والكمين، رواه الدمياطي. وعن أنس بن مالك قال: كان أحب الثياب إلى رسول لله ﷺ يلبسه الحبرة(4).

= (٥١٠ ـ ٥٨١ هـ). حافظ. الأعلام ٣/ ٢٨١. شذرات الذهب ٤/ ٢٧١. تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٥٠ رقم الترجمة (١١٠٠). فوات الوفيات ٢/ ٢٥٦ رقم الترجمة (٢٤٤). العبر ٤/ ٢٤٣. مرآة الجنان ٣/ ٤٢٢. الديباج (١٧٥).

(١) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس باب (٢١) رقم الحديث (٤٠٧٩). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٢٠. وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٥/ ١٨٢٠. قال العراقي: يحتمل أن المراد أرخن طرفها الواحد من خلفه والآخر من بين يديه.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب اللباس باب (٤٢) رقم الحديث (١٧٨٤). وفي كنز العمال (٤١١٤٢). قال أبو عيسىٰ: هذا حديث حسن غريب وإسناده ليس بالقائم، ولا نعرف أبا الحسن العسقلاني ولا ابن ركانة.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب اللباس باب (١١) رقم الحديث (٣٥٧٨) وأبو داود في كتاب اللباس باب (٢٣) رقم الحديث (٤٠٨٢). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٤٣٤ و ٤/ ١٩.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (١٨) رقم الحديث (٥٨١٢ ـ ٥٨١٣). وفي الترمذي كتاب اللباس باب (٤٥) رقم الحديث (١٧٨٧). وأبو داود في كتاب اللباس باب (٣) رقم الحديث (٤٠٢٥). وفي سنن النسائي ٨/ ٢٠٣. وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢٩١. وفي شمائل=

رواه الترمذي. والحبرة: ضرب من البرود فيه حمرة. وعن أبي رمثة قال: رأيت رسول الله ﷺ وعليه بردان أخضران رواه الترمذي. وعن عطاء عن أبي يعلى عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالبيت مضطبعاً ببرد أخضر[1]. رواه أبو داود. وعن عروة بن المغيرة بن شعبة عن أبيه أن النبي ﷺ لبس جبة رومية ضيقة الكمين[2]. رواه الترمذي. وعن أبي ذر: أتيت النبي ﷺ وعليه ثوب أبيض[3]. رواه البخاري. وعن عائشة قالت: خرج رسول الله ﷺ ذات غداة وعليه مرط شعر أسود[4]. رواه الترمذي. وعن أنس قال كان رسول الله ﷺ يلبس الصوف، وكان له ﷺ كساء ملبد يلبسه ويقول: «إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد» رواه الشيخان.

فإن قلت قد علم من هذا، ومن سيرة السلف الصالح، بذاذة الهيئة ورثاثة الملابس، فما بال الشاذلية من الصوفية يجملون هيآتهم وملابسهم، وطريقهم الاقتداء بالسنة الشريفة والسلف الصالح.

أجاب العارف الرباني على الوفائي، أذاقنا الله حلاوة مشربه، ومن خطه الكريم نقلت بما لفظه: ذلك لأنهم نظروا إلى المعاني والحكم. فوجدوا السلف الصالح لما وجدوا أهل الغفلة والشغل لدنياهم منهمكين على الزينة الظاهرة، تفاخراً بدنياهم واطمئناناً إليها وإشعاراً بأنهم من أهلها، خالفوهم إظهاراً لحقارة ما حقره الحق مما عظمه الغافلون بالغنى عما اطمأن إليه الغافلون، فكأن أطمارهم يومئذٍ تقول الحمد لله الذي أغنانا به عما أفقر نفسه إليه من همه دنياه. فلما طال الأمد وقست القلوب بنسيان ذلك المعنى، واتخذ الغافلون رثاثة الأطمار وبذاذة الهيئة حيلة على جلب دنياهم انعكس الأمر، فصار مخالفة هؤلاء في ذلك لله هو قول السلف وطريقتهم كما تقدم. قال وقد

= الترمذي (٣٦). وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٢٦. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٢٨) وفي المغني للعراقي ٢/ ٢٥٧. وفي كنز العمال (١٨٢٦٤).

(١) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك باب (٤٩) رقم الحديث (١٨٨٣) والترمذي في كتاب الحج باب (٣٦) رقم الحديث (٨٥٩) وابن ماجه كتاب المناسك باب (٣٠) رقم الحديث (٢٩٥٤).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب اللباس باب (٣٠) رقم الحديث (١٧٦٨) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٠٥).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٥٨٢٧) وفي صحيح مسلم كتاب الايمان رقم الحديث (١٥٤) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/ ١٦٦.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب الأدب باب (٤٩) رقم الحديث (٢٨١٣) وفي سنن أبي داود كتاب اللباس باب (٥) رقم الحديث (٤٠٣٢) وفي صحيح مسلم كتاب اللباس رقم الحديث (٣٦ ـ ٦١) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ١٦٢ وفي المستدرك للحاكم ٤/ ١٨٨ وفي الضعفاء للعقيلي ٤/ ١٩٧.

أرشد الأستاذ أبو الحسن الشاذلي[1]. قدس الله سره العزيز، إلى ذلك بقوله لبعض من أنكر عليه جمال هيئته من أصحاب الرثاثة: يا هذا هيئتي هذه تقول: الحمد لله، وهيئتك هذه تقول: أعطوني شيئاً من دنياكم. والقوم أفعالهم دائرة مع الحكمة الربانية مرادهم مرضاة ربهم. انتهى ما قاله سيدي علي وفا.

وقد ورد في الحديث الصحيح عنه ﷺ، «إن الله جميل يحب الجمال»[2] وفي الحديث الآخر «إن الله نظيف يحب النظافة»[3] وفي السنن عن أبي الأحوص الجشمي عن أبيه قال: رآني النبي ﷺ وعلي أطمار ـ وفي رواية النسائي: وعلى ثوب دون ـ فقال: «هل لك من مال؟» قلت: نعم، قال: «من أي المال؟» قلت: من كل ما آتى الله من الإبل والشاء، قال: «فكثر نعمته وكرامته عليك»[4]، وفي رواية النسائي قال: «فإذا آتاك الله مالاً فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته» وفي حديث جابر أنه ﷺ رأى رجلاً شعثاً قد تفرق شعره فقال: «ما كان يجد هذا ما يسكن به رأسه»[5]، ورأى رجلاً عليه ثياب وسخة

---

(١) هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف ابن هرمز الشاذلي المغربي. أبو الحسن (٥٩١ ـ ٦٥٦ هـ). رأس الطائفة الشاذلية صوفي توفي في صحراء عيذاب في طريقه إلى الحج. الأعلام ٤/ ٣٠٥. الوافي بالوفيات ١٢/ ٩٢. كشف الظنون (٤٠٤ ـ ٦٦١) وهدية العارفين ١/ ٧٠٩ ـ ٧١٠ وطبقات الشعراني ٢/ ٤. التاج ٧/ ٣٨٨.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/ ١٣٣ ـ ١٣٤. وفي صحيح مسلم كتاب الايمان رقم الحديث (١٤٧). وفي المستدرك للحاكم ١/ ٢٦ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٢٦٠. وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ٢٤٠ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٢/ ٢١٤. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥١٠٨). وفي المطالب العاليه لابن حجر (٢١٧٠) وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٧٩. وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٧٧٧). وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٦/ ٤٩٨ وفي المغني للعراقي ٤/ ٢٩٠. وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ١٩٨ وفي كنز العمال (١٧١٦٥ ـ ١٧١٨٨ ـ ١٧١٩١).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الأدب باب (٤١) رقم الحديث (٢٧٩٩) وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٣٤١. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٢/ ٣١١ وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ٢٢٤. وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري (١٥٤). وفي الدرر المنتثرة للسيوطي (٦٠) وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٦٢.

(٤) أخرجه النسائي ٨/ ١٩٦ وفي الترمذي كتاب البر والصلة باب (٦٣) رقم الحديث (٢٠٠٦) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٣٧ وفي المستدرك للحاكم ١/ ٢٥. وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ٣١. وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ١٠ وفي الدر المنثور للسيوطي ٢/ ٣٣٧. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٣٢ وفي التاريخ الكبير للبخاري ٤/ ٦٠. وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ٣١ وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ٤٧ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٤/ ١٥٣ وفي تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٦ وفي تفسير القرطبي ٥/ ١٨٩.

(٥) ذكره البغوي في شرح السنة ١٢/ ٥٠.

فقال: «ما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه» رواه أحمد. وفي السنن: «إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»(1).

فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده، فإنه من الجمال الذي يحبه، وذلك من شكره على نعمه، وهو جمال باطن، فيحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعـ والجمال الباطن بالشكر عليها، ولأجل محبته تعالى للجمال أنزل على عباده لباساً يجمل ظواهرهم، وتقوى تجمل بواطنهم فقال تعالى: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير﴾ [الأعراف: ٢٦]. وقال في أهل الجنة: ﴿ولقاهم نضرة وسروراً، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً﴾ [الإنسان: ١١ و ١٢].

وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة، يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والهيئة، فيبغض القبيح وأهله ويحب الجمال وأهله. ولكن ضل في هذا الموضع فريقان:

فريق قالوا: كل ما خلق الله تعالى جميل، فهو يحب كل ما خلقه، ونحن نحب جميع ما خلقه فلا نبغض منه شيئاً، قالوا: ومن رأى الكائنات منه رآها كلها جميلة، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ [السجدة: ٧]. وهؤلاء قد عدموا الغيرة لله من قلوبهم، والبغض في الله، والمعاداة فيه، وإنكار المنكر وإقامة الحدود.

والفريق الثاني، قالوا: قد ذم الله جمال الصور، وتمام القامة والخلقة، فقال عن المنافقين: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾ [المنافقون: ٤]. وفي صحيح مسلم مرفوعاً «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(2)، قالوا: وقد حرم الله علينا لباس الحرير والذهب، وآنية الذهب والفضة، وذلك من أعظم جمال

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب الأدب باب (٥٤) رقم الحديث (٢٨١٩) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/٢١٣. وفي المستدرك للحاكم ٤/١٣٥. وفي جمع الجوامع للسيوطي (١٨٩٩) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٥) وفي اتحاف السادة المتقين ٢/٣١١ وفي الدر المنثور ٣/٧٩. وفي التمهيد لابن عبد البر ٣/٢٥٤ وفي التاريخ الكبير للبخاري ٣/٤٢٧. وفي المغني للعراقي ٣/٣٤٦. وفي شرح السنة للبغوي ١٢/٤٩. وفي كنز العمال (١٧١٧٤ ـ ١٧١٩٢).

(2) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد باب (٩) رقم الحديث (٤١٤٣) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/٢٨٥ وفي صحيح مسلم صفحة (١٩٨٧) وفي جمع الجوامع للسيوطي (٥١٤٣ ـ ٥١٤٥) وفي اتحاف السادة المتقين ١/١٥٦ وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/٢٣٨ و ٦/٢٣١. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٣١٤) وفي حلية الأولياء لابي نعيم ٤/٩٨. وفي شرح السنة للبغوي ١٤/٣٤١ وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٥/٣٣٠. وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (٨٩٥) وفي تفسير القرطبي ١٦/٣٢٦ ـ ٣٤٢.

الدنيا. وقال تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه﴾ [طه: ١٣١]. وفي الحديث «البذاذة من الإيمان»(١) وقد ذم الله المسرفين، والسرف كما يكون في الطعام والشراب يكون في اللباس.

وفصل النزاع أن يقال: الجمال في الصورة واللباس والهيئة ثلاثة أنواع: منه ما يحمد، ومنه ما يذم، ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم.

فالمحمود منه، ما كان لله وأعان على طاعة الله، وتنفيذ أوامره، والاستجابة له، كما كان النبي ﷺ يتجمل للوفود، وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال، ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه، فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة الله ونصر دينه وغيظ عدوه.

والمذموم منه: ما كان للدنيا والرياسة والفخر والخيلاء، وأن يكون هو غاية العبد وأقصى مطلبه، فإن كثيراً من الناس ليس له همة في سوى ذلك.

وأما ما لا يحمد ولا يذم فهو ما خلا عن هذين القصدين، وتجرد عن الوصفين. والمقصود من هذا الحديث أن الله تعالى يحب من عبده أن يجمل لسانه بالصدق وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والشعور المكروهة، والختان وتقليم الأظافر وغير ذلك مما وردت به السنة، والله أعلم.

وعن جابر بن سمرة قال: رأيت النبي ﷺ في ليلة مقمرة أضحيان، فجعلت أنظر إليه ﷺ وإلى القمر، وعليه حلة حمراء، فإذا هو أحسن عندي من القمر(٢). رواه الدارمي والترمذي. وعن عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال: رأيت النبي ﷺ وعليه حلة حمراء كأنني أنظر إلى بريق ساقيه. قال سفيان: أراه حبرة. وعن البراء بن عازب قال: ما رأيت أحداً من الناس أحسن في حلة حمراء من رسول الله ﷺ. رواهما الترمذي.

وفي البخاري ومسلم: رأيته في حلة حمراء لم أر شيئاً قط أحسن منه. وفي رواية لأبي داود ما رأيت من ذي لمة في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ(٣). وقوله: من

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد باب (٥) رقم الحديث (٤١١٨) وفي المستدرك للحاكم ١/ ٩. وفي المعجم الكبير للطبراني ١/ ٢٤٦ وفي جمع الجوامع للسيوطي (١٠٢٨٦) وفي التمهيد لابن عبد البر ٣/ ٢٥٥. وفي التاريخ الكبير للبخاري ٩/ ٣. وفي اتحاف السادة المتقين ٢/ ٣١٠. وفي المغني للعراقي ٣/ ٣٤٥. وفي مشكل الآثار للطحاوي ١/ ٤٨٧. وفي كنز العمال (٥٦١٩ ـ ٥٦٢٢).

(٢) أخرجه الدارمي في المقدمة رقم الحديث (١٠).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الترجل باب (٩) رقم الحديث (٤١٨٣) وفي الترمذي في كتاب المناقب=

ذي لمة: ـ بكسر اللام ـ أي شعر الرأس، دون الجمة، سميت بذلك لأنها ألمت بالمنكبين، فإذا زادت فهي الجمة.

وفي النسائي: ما رأيت رجلاً أحسن في حلة حمراء من رسول الله ﷺ. قال في القاموس: الحلة ـ بالضم ـ إزار ورداء، برد أو غيره، ولا تكون حلة إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة.

قال ابن القيم: وغلط من ظن أنها كانت حمراء بحتاً، ولا يخالطها غيرها، وإنما الحلة الحمراء بردان يمانيان منسوجان بخطوط حمر مع الأسود، كسائر البرود اليمانية، وهي معروفة بهذا الاسم باعتبار ما فيها من الخطوط، وإلا فالأحمر البحت ينهى عنه أشد النهي، وفي صحيح البخاري: (أنه ﷺ نهى عن المياثر الحمر)[1] وفي صحيح مسلم عن ابن عمر قال: (رأى النبي ﷺ علي ثوبين معصفرين فقال: «إن هذا لباس الكفار فلا تلبسهما»[2] ومعلوم أن ذلك إنما يصبغ صباغاً أحمر. قال: وفي جواز لبس الأحمر من الثياب والجوخ وغيرهما نظر، وأما كراهته فشديدة، فكيف يظن بالنبي ﷺ أنه لبس الأحمر القاني، كلا لقد أعاذه الله منه، وإنما وقعت الشبهة من لفظ الحلة الحمراء والله أعلم. انتهى.

وقال النووي: اختلف العلماء في الثياب المعصفرة، وهي المصبوغة بعصفر فأباحها جميع العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وبه قال الإمام الشافعي وأبو حنيفة ومالك، ولكنه قال: غيرها أفضل منها. وفي رواية عنه أنه أجاز لبسها في البيوت وأفنية الدور وكرهه في المحافل والأسواق وغيرها.

وقال جماعة من العلماء: هو مكروه كراهة تنزيه، وحملوا النهي على هذا، لأنه ثبت أنه ﷺ لبس حلة حمراء. وفي الصحيحين من حديث ابن عمر أنه ﷺ صبغ بالصفرة. وحمل بعضهم النهي على المحرم بالحج أو العمرة.

وقد أتقن البيهقي المسألة في «معرفة السنن» فقال: نهى الشافعي الرجل عن

= باب (٨) رقم الحديث (٣٦٣٥) وفي صحيح مسلم كتاب الفضائل باب في (صفة النبي ﷺ). وفي سنن النسائي ٨/ ١٨٣.

(١) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٣٦) رقم الحديث (٥٨٤٩).

(٢) أخرجه النسائي ٨/ ٢٠٣ وفي صحيح مسلم كتاب اللباس رقم الحديث (٢٧ ـ ٢٨) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ١٦٢ ـ ١٩٣ ـ ٢٠٧. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٥/ ٦٠ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٢٧) وفي المستدرك للحاكم ٤/ ١٩٠ وفي تلخيص الحبير لابن حجر ٢/ ٧٠.

المزعفر، وأباح له المعصفر، قال الشافعي: وإنما رخصت في المعصفر لأني لم أجد أحداً يحكي عنه ﷺ النهي عنه، إلا ما قال علي رضي الله عنه أنه ﷺ نهاني ولا أقول نهاكم. قال البيهقي: وقد جاءت أحاديث تدل على أن النهي على العموم، ثم ذكر حديث مسلم «أن هذه من لباس الكفار» وأحاديث غيرها، ثم قال: ولو بلغت هذه الأحاديث الشافعي لقال بها إن شاء الله تعالى، ثم ذكر بإسناده ما صح عن الشافعي أنه قال: إذا صح الحديث بخلاف قولي فاعملوا بالحديث ودعوا قولي. وفي رواية: مذهبي.

قال البيهقي: قال الشافعي: وأنهى الرجل الحلال بكل حال أن يتزعفر وآمره إذا تزعفر أن يغسله، قال البيهقي: فتبع السنة في المزعفر فمتابعتها في المعصفر أولى به، انتهى.

ورأيت في فتاوى شيخنا العلامة قاسم أحد أئمة الحنفية ومحققيها كراهته للتحريم مع صحة الصلاة فيه، واستدل له بما ذكرته، وبما في حديث طاووس عند الحاكم وقال على شرطهما عن ابن عمرو بن العاص قال: دخلت على النبي ﷺ وعلي ثوب معصفر، قال: «من أين لك هذا؟» قال: صنعته لي أهلي فقال ﷺ: «احرقه»[1] انتهى.

وعن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يلبس برده الأحمر في العيدين والجمعة، وعن يحيى بن عبد الله بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يصبغ ثيابه بالزعفران قميصه ورداءه وعمامته. رواهما الدمياطي. وهو عند أبي داود بلفظ: يصبغ بالورس والزعفران ثيابه حتى عمامته، وكذا رواه من حديث زيد بن أسلم وأم سلمة وابن عمر، لكن يعارضه ما في الصحيح أنه ﷺ نهى عن التزعفر والله أعلم.

وأما صفة إزاره ﷺ، فعن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال: أخرجت إلينا عائشة كساء وإزاراً غليظاً فقالت: قبض رسول الله ﷺ في هذين[2]، رواه البخاري، وفي رواية: إزاراً غليظاً مما يصنع باليمن، وكساء من هذه التي تدعونها الملبدة، وفي رواية: كساء ملبداً. قال ابن الأثير: أي مرقعاً، يقال: لبدت القميص ألبده، ولبدته، ويقال للخرقة التي يرقع بها صدر القميص. اللبدة: وقيل الملبد: الذي ثخن وسطه وصفق حتى صار يشبه اللبد.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس باب (١٧) رقم الحديث (٤٠٦٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (١٩) رقم الحديث (٥٨١٨) وفي صحيح مسلم كتاب اللباس والزينة باب (٦) رقم الحديث (٣٤) وفي فتح الباري ٦/ ٢١٢ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ٢٧٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٠٦).

وروى مسلم من حديث عائشة قالت: خرج رسول الله ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود. والمرط: ـ بكسر الميم وإسكان الراء ـ كساء من صوف أو خز، يؤتزر به. والمرحل: بتشديد الحاء المهملة المفتوحة، كمعظم، هو الذي فيه صور الرحال، قال في القاموس في مادة ر ح ل: وكـ «معظم»: برد فيه تصاوير رحل، قال: وتفسير الجوهري إياه بإزار خز فيه علم، غير جيد، إنما ذلك تفسير المرجل ـ بالجيم ـ ، وقال في مادة ر ج ل ـ يعني الجيم ـ: وبرد مرجل كمعظم، فيه صور الرجال، انتهى.

وقال النووي: والصواب الذي رواه الجمهور، وضبطه المتقنون: بالحاء المهملة، أي عليه صور رحال الإبل، ولا بأس بهذه الصورة، وإنما يحرم تصوير الحيوان. وقال الخطابي، المرحل، الذي فيه خطوط والله أعلم.

وعن عروة: أن طول رداء النبي ﷺ أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشبر وعن عروة أيضاً: أن ثوب رسول الله ﷺ الذي كان يخرج فيه إلى الوفد رداء أخضر في طول أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشبر. وعن معن بن عيسى قال حدثنا محمد بن هلال قال: رأيت على هشام بن عبد الملك برد النبي ﷺ من حبرة له حاشيتان. وعن ابن عمر قال: دخلت على رسول الله ﷺ وعليه إزار يتقعقع. وعن يزيد بن أبي حبيب أنه ﷺ كان يرخي الإزار بين يديه ويرفعه من ورائه. وعن ابن عباس قال: رأيت رسول الله ﷺ يأتزر تحت سرته وتبدو سرته، ورأيت عمر يأتزر فوق سرته، رواها كلها الدمياطي.

(فصل) وعن أسماء بنت أبي بكر، أنها أخرجت جبة طيالسة كسروانية، لها لبنة ديباج، وفرجاها مكفوفان بالديباج، وقالت: هذه جبة رسول الله ﷺ، كانت عند عائشة، فلما قبضت قبضتها، وكان النبي ﷺ يلبسها فنحن نغسلها للمرضى نستشفي بها[1]. رواه مسلم. وقوله: جبة طيالسة: بإضافة جبة إلى طيالسة. وكسروانية: بكسر الكاف وفتحها، والسين ساكنة والراء مفتوحة، نسبة إلى كسرى ملك الفرس. ولبنة: بكسر اللام وإسكان الباء، رقعة في جيب القميص.

وفيه: جواز لبس ما له فرجان وأنه لا كراهة فيه، وأن المراد بالنهي عن الحرير المتمحض منه، أو ما أكثره منه، وأنه ليس المراد تحريم كل جزء منه، بخلاف الخمر والذهب فإنه يحرم كل جزء منهما، قاله النووي.

(لطيفة) قيل: لما كان رسول الله ﷺ لا يبدو منه إلا طيب، كان آية ذلك في بدنه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب اللباس رقم الحديث (١٠) وفي سنن أبي داود في كتاب اللباس باب (٩) رقم الحديث (٤٠٥٤) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٣٤٧ ـ ٣٥٣.

الشريف أنه لا يتسخ له ثوب، فما اتسخ له ثوب قط، وقال ابن سبع في «الشفاء» والسبتي في «أعذب الموارد وأطيب الموالد»: لم يكن القمل يؤذيه تعظيماً له وتكريماً ﷺ لكن يشكل عليه ما رواه أحمد والترمذي في الشمائل عن عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يفلي ثوبه ويحلب شاته، ومن لازم التفلي وجود شيء يؤذي في الجملة، إما قملاً أو برغوثاً أو نحو ذلك. ويمكن أن يجاب: بأن التفلي لاستقذار وجود ما علق بثوبه الشريف من غيره، ولو لم يحصل منه أذى في حقه ﷺ، وهذا فيه بحث، لأن أذى القمل هو غذاؤه من البدن على ما أجرى الله العادة، وإذا امتنع الغذاء لا يعيش الحيوان عادة. ونقل الفخر الرازي: أن الذباب لا يقع على ثيابه قط، وأنه لا يمتص دمه البعوض.

وأما الطيلسان ـ وهو بفتح اللام، واحدة الطيالسة، والهاء في الجمع للعجمة لأنه فارسي معرب، وهو الساج أيضاً، وقال ابن خالويه في شرح «الفصيح» يقال للطيلسان الأخضر: الساج، وفي «المجمل» لابن فارس: الطاق الطيلسان ـ فقال ابن القيم: لم ينقل عنه ﷺ أنه لبسه، ولا أحد من أصحابه، بل ثبت في صحيح مسلم من حديث النواس بن سمعان عن النبي ﷺ أنه ذكر الدجال فقال: «**يخرج معه سبعون ألفاً من يهود أصبهان عليهم الطيالسة**»[1] ورأى أنس جماعة عليهم الطيالسة فقال: ما أشبههم بيهود خيبر.

قال: ومن هاهنا كرهه جماعة من السلف والخلف، لما روى أبو داود والحاكم في المستدرك أنه قال: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[2] وفي الترمذي: «**ليس منا من تشبه بغيرنا**»[3] وأما ما جاء في حديث الهجرة أنه ﷺ جاء إلى أبي بكر رضي الله عنه متقنعاً بالهاجرة، فإنما فعله ﷺ تلك الساعة ليختفي بذلك للحاجة، ولم يكن عادته التقنع. وقد ذكر أنس عنه ﷺ أنه كان يكثر القناع. وهذا إنما كان يفعله للحاجة من الحر ونحوه. قال

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفتن رقم الحديث (١٢٤).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس باب (٥) رقم الحديث (٤٠٣١) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٥٠ ـ ٩٢ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٣٣٢ وفي الدرر المنتثرة للسيوطي (١٤٨) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٢٧١ وفي نصب الراية للزيلعي ٤/ ٣٤٧ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٦/ ١٢٨ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٤٧) وفي مشكل الآثار للطحاوي ١/ ٨٨ وفي تغليق التعليق لابن حجر العسقلاني (٩٥٥ ـ ٩٥٦) وفي التمهيد لابن عبد البر ٦/ ٨٠ وفي المغني للعراقي ١/ ٢٧٠ وفي كنز العمال (٢٤٦٨٠). وفي فتح الباري ١٠/ ٣٣٧.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الإستئذان باب (٧) رقم الحديث (٢٦٩٦) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٣٨. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٦/ ٢٧٩ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٦٤٦٩) وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ٢٣٤. وفي فتح الباري ١٠/ ٣٣٧ وفي كنز العمال (٢٥٣٣٣).

شيخ الإسلام الولي بن العراقي في شرح تقريب الأسانيد: التقنع معروف وهو تغطية الرأس بطرف العمامة أو برداء أو نحو ذلك. انتهى. وقال ابن الحاج في «المدخل»: وأما قناع الرجل فهو أن يغطي رأسه بردائه ويرد طرفه على أحد كتفيه. انتهى.

وأما قول ابن القيم: إنه ﷺ إنما فعل ذلك للحاجة، فيرد عليه حديث سهل بن سعد أنه ﷺ كان يكثر القناع. رواه البيهقي في الشعب والترمذي. وللبيهقي في الشعب أيضاً وابن سعد في طبقاته من حديث أنس بلفظ: يكثر التقنع، فهذا وما أشبهه يرد قول ابن القيم: أنه لم ينقل عنه أنه ﷺ لبسه.

وأما قوله: ولا أحد من أصحابه، فيرده ما أخرجه الحاكم في المستدرك، بسند على شرط الشيخين عن مرة بن كعب قال: سمعت رسول الله ﷺ يذكر فتنة فقربها، فمر رجل مقنع في ثوب، فقال: «هذا يومئذٍ على الهدى»، فقمت فإذا هو عثمان بن عفان رضي الله عنه[1]. وأخرج سعيد بن منصور في سننه عن أبي العلاء قال: رأيت الحسن بن علي يصلي وهو مقنع رأسه، وأخرج ابن سعد عن سليمان بن المغيرة قال: رأيت الحسن يلبس الطيالسة، وأخرج عن عمارة بن زاذان قال: رأيت على الحسن طيلساناً أندقياً.

وأما ما ذكره ابن القيم من قصة اليهود، فقال الحافظ ابن حجر: إنما يصلح الاستدلال به في الوقت الذي تكون الطيالسة من شعارهم، وقد ارتفع ذلك في هذه الأزمنة فصار ذلك داخلاً في عموم المباح، وقد ذكره ابن عبد السلام في أمثلة البدعة المباحة. وقد يصير من شعار قوم فيكون تركه من الإخلال بالمروءة. وقيل: إنما أنكر أنس ألوان الطيالسة لأنها كانت صفراء. والله أعلم.

وأما الخاتم[2] ففي الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ اتخذ خاتماً من ورق، فكان في يده، ثم كان في يد أبي بكر، ثم كان في يد عمر، ثم كان في يد عثمان حتى وقع في بئر أريس[3]. وفيهما أيضاً عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ لبس خاتم فضة

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب (١٨) رقم الحديث (٣٧٠٤) وفي ابن ماجه في المقدمة باب (١١) رقم الحديث (١١١) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/٢٤٣. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٩/ ١٦٢. وفي المستدرك للحاكم ٤/٤٣٣. وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٩/ ١١٤. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٦٠٦٧) وفي البداية والنهاية لابن كثير ٧/ ٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٣٦٤. والبداية والنهاية ٦/٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٤٥) رقم الحديث (٥٨٦٥ ـ ٥٨٦٦ ـ ٥٨٦٧ ـ ٥٨٧٣ ـ ٦٦٥١ ـ ٧٢٩٨). وفي صحيح مسلم كتاب اللباس رقم الحديث (٥٦ ـ ٦١) وفي سنن أبي داود كتاب الخاتم باب (١) رقم الحديث (٤٢١٨) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ١٨ و ٣/ ٩٩.

فيه فص حبشي، وكان يجعل فصه مما يلي كفه. وأخرج أحمد والنسائي والترمذي والبزار في مسنده عن بريدة أن النبي ﷺ رأى في يد رجل خاتماً من حديد، فقال: «مالي أجد منك ريح الأصنام»، ثم قال له: «اتخذه من فضة ولا تزد على مثقال»[1].

وقد اختلف العلماء في لبسه في الجملة، فأباحه كثير من أهل العلم من غير كراهة، ومنهم من كرهه إذا قصد به الزينة، ومنهم من كرهه إلا لذي سلطان، لحديث أبي داود والنسائي عن أبي ريحانة أن النبي ﷺ نهى عن لبس الخاتم إلا لذي سلطان. ولأنه ﷺ إنما اتخذه لحاجة ختم الكتب التي يبعثها إلى الملوك، كما في حديث أنس أنه ﷺ كتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي فقيل له إنهم لا يقبلون كتاباً إلا بختم فصاغ خاتماً ونقش فيه: محمد رسول الله، وإنما لبسه أبو بكر رضي الله عنه لأجل ولايته، فإنه كان يحتاج إليه كما كان ﷺ يحتاج إليه وكذلك عمر وعثمان.

وحكى ابن عبد البر عن طائفة من العلماء كراهة لبسه مطلقاً، احتجاجاً بحديث أنس أنه ﷺ نبذه ولم يلبسه. وفي الشمائل للترمذي عن ابن عمر أنه ﷺ اتخذ خاتماً من فضة فكان يختم به ولا يلبسه. وفي الصحيحين من حديث أنس أنه رأى في يده ﷺ خاتماً من ورق يوماً واحداً، ثم إن الناس اصطنعوا الخواتيم من ورق ولبسوها، فطرح رسول الله ﷺ خاتمه فطرح الناس خواتيمهم.

والصواب: القول الأول، فإن لبس النبي ﷺ الخاتم إنما كان في الأصل لأجل المصلحة لختم الكتب التي يرسلها إلى الملوك، ثم استدام لبسه ولبسه أصحابه معه، ولم ينكره عليهم، بل أقرهم عليه، فدل ذلك على الإباحة المجردة. وأما حديث النهي عن الخاتم إلا لذي سلطان فقال ابن رجب: ذكر بعض أصحابنا أن أحمد ضعفه. وأما ما جاء في حديث الزهري عن أنس أنه ﷺ لبسه يوماً واحداً ثم ألقاه. فقد أجيب عنه بثلاثة أجوبة:

أحدها: أنه وهم من الزهري، وسهو جرى على لسانه لفظ الورق، وإنما الذي لبسه يوماً واحداً ثم ألقاه كان من ذهب، كما ثبت ذلك من غير وجه في حديث ابن عمر وأنس أيضاً.

الثاني: أن الخاتم الذي رمى به ﷺ لم يكن كله فضة، وإنما كان حديداً عليه فضة،

(١) أخرجه الترمذي في كتاب اللباس باب (٤٣) رقم الحديث (١٧٨٥) وفي سنن أبي داود كتاب الخاتم باب (٤) رقم الحديث (٤٢٢٣) وفي النسائي ٨/ ١٧٢. وفي فتح الباري ١٠/ ٣٩٦ وفي شرح السنة للبغوي ٩/ ١٢١ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٩٦) وفي نصب الراية للزيلعي ٤/ ٢٣٤. وفي موارد الظمآن للهيثمي (١٤٦٧) وفي كنز العمال (١٧٢٩٣).

وروى أبو داود عن معيقيب الصحابي ـ وكان على خاتم النبي ﷺ ـ قال: كان خاتم النبي ﷺ من حديد ملوي عليه فضة. فلعل هذا هو الذي لبسه يوماً واحداً ثم طرحه، ولعله هو الذي كان يختم به ولا يلبسه.

الثالث: إن طرحه إنما كان لئلا يظن أنه سنة مسنونة، فإنهم اتخذوا الخواتيم لما رأوه قد لبسه فتبين بطرحه أنه ليس بمشروع ولا سنة.

ثم إن الخاتم قد يكون تارة من ذهب، وتارة من فضة، وتارة يكون من حديد، وتارة من صفر أو رصاص أو نحوها، وتارة من عقيق:

● فأما الذهب ففي الصحيحين عن البراء بن عازب قال: (نهانا رسول الله ﷺ عن خاتم الذهب وآنية الفضة)[1]. وفيهما عن أبي هريرة عنه ﷺ: (أنه نهى عن خاتم الذهب)، وفيهما أيضاً عن ابن عمر أنه ﷺ اتخذ خاتماً من ذهب فجعله في يمينه وجعل فصه مما يلي باطن كفه، فاتخذ الناس خواتيم الذهب. قال: فصعد رسول الله ﷺ المنبر فألقاه ونهى عن التختم بالذهب[2].

وهو مذهب الأئمة الأربعة: مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد وأكثر العلماء.

ورخصت فيه طائفة منهم إسحاق بن راهويه وقال: مات خمسة من أصحابه ﷺ خواتيمهم من ذهب. قال مصعب بن سعد: رأيت على طلحة وسعد وصهيب خواتيم من ذهب. وعن حمزة بن أبي أسيد والزبير بن المنذر بن أبي أسيد أنهما نزعا من يد أبي أسيد خاتماً من ذهب حين مات، وكان بدرياً، رواهما البخاري في تاريخه. وروى النسائي عن سعيد بن المسيب قال: قال عثمان لصهيب ما لي أرى عليك خاتم الذهب فقال: قد رآه من هو خير منك فلم يعبه، قال: من هو؟ قال: رسول الله ﷺ.

● وأما خاتم الفضة، فأباحه كثير من العلماء، ولبسه ﷺ وجماعة من أصحابه.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب النكاح باب (٧٢) رقم الحديث (٥١٧٥) وفي الترمذي كتاب الأدب باب (٤٥) رقم الحديث (٢٧٠٩) وفي صحيح مسلم كتاب اللباس رقم الحديث (٢ ـ ٢٩ ـ ٣١ ـ ٥٢) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٢٨٤ و ٥/ ٣٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز باب (٢) رقم الحديث (١٢٣٩ ـ ٢٤٤٥ ـ ٥١٧٥ ـ ٥٦٣٥ ـ ٥٦٥٠ ـ ٥٨٣٨ ـ ٦٢٢٢ ـ ٦٦٥٤) وفي صحيح مسلم كتاب اللباس رقم الحديث (٢ ـ ٣١ ـ ٥٢). وفي الترمذي كتاب الأدب باب (٤٥) رقم الحديث (٢٧٠٩) وفي سنن النسائي ٨/ ١٦٥ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٨١ و ٢/ ٤٦٨. وفي ابن ماجه كتاب اللباس باب (٤٠) رقم الحديث (٤٦٤٢ ـ ٤٦٤٣). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٢٤٢. وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٦/ ٢٤٣.

قال الرافعي: يجوز للرجل التختم بالفضة، وكذا قال النووي في الروضة وغيرها، وكتب أصحابنا طافحة بجوازه. وروى أبو داود وصححه ابن حبان، من حديث بريدة بن الحصيب أن النبي ﷺ قال للابس خاتم الحديد: «ما لي أرى عليك حلية أهل النار»، فطرحه وقال: يار سول الله، من أي شيء أتخذه؟ قال: «من «ورق ولا تتمه مثقالاً». وأخرجه أيضاً النسائي والترمذي وقال: غريب. وأخرجه أحمد وأبو يعلى في مسنديهما والضياء في المختارة مما ليس في الصحيحين ورجاله رجال الصحيحين إلا عبد الله بن مسلم المعروف بأبي طيبة، وهو محدث مشهور، وتصحيح ابن حبان لحديثه دال على قبوله، فأقل أحواله أن يكون من درجة الحسن.

والأصل في النهي كونه للتحريم، ولأن الأصل في استعمال الفضة للرجال التحريم إلا ما رخص فيه، فإذا حد فيه حد وجب الوقوف عنده، وبقي ما عداه على الأصل. وقد قال ابن الرفعة في باب ما يكره لبسه من «الكفاية»: وينبغي أن ينقص وزنه عن مثقال. لأن رسول الله ﷺ رأى رجلاً، وساق الحديث. وقوله ينبغي، يصلح للوجوب وغيره، وحمله عليه أولى، لأنه ساق الحديث مساق الاحتجاج لهذا الحكم، فلا يصرف النهي عن حقيقته إلا بصارف.

وظاهر صنيع ابن الملقن في شرح منهاج النووي يقتضيه، فإنه قال في زكاة النقد: فرع في أبي داود وصحيح ابن حبان من حديث بريدة أنه ﷺ قال لذلك الرجل.. فذكر الحديث فساقه سوق الفروع التي لا خلاف فيها بين الأصحاب، وظاهر ذلك تحريم المثقال.

وفي «القوت» للأذرعي[1]: لم يتعرض أصحابنا لمقدار الخاتم ولعلهم اكتفوا بالعرف، فما خرج عنه كان إسرافاً كما قالوا في الخلخال للمرأة ونحوه، والصواب الضبط بما نص عليه في الحديث وليس في كلامهم ما يخالفه، هذا لفظه. وهو يشير إلى هذا الحديث.

وكذا مشى عليه ابن العماد في التعقيبات وعبارته: وإذا جاز لبس الخاتم فشرطه أن لا يبلغ به مثقالاً للحديث. انتهى. لكن قال الحافظ العراقي في شرح الترمذي: إن النهي في قوله: «ولا تتمه مثقالاً» محمول على التنزيه، فيكره أن يبلغ به وزن مثقال. قال: وفي رواية لأبي داود، في رواية صاحب المعالم: «ولا تتمه مثقالاً ولا قيمة مثقال» وليست

---

(١) هو أحمد بن حمدان بن أحمد بن عبد الواحد أبو العباس شهاب الدين الأذرعي. (٧٠٨ ـ ٧٨٣ هـ). فقيه شافعي. توفي في حلب. الأعلام ١/ ١١٩. والدرر الكامنة ١/ ١٢٥ رقم الترجمة (٣٥٤). كشف الظنون ٢/ ١٣٦١. هدية العارفين ١/ ١١٥ الفهرس التمهيدي (٢٣١).

هذه الزيادة في رواية اللؤلؤي. ومعنى هذه الزيادة أنه ربما وصل الخاتم بالنفاسة في صنعته إلى أن يكون قيمة مثقال فهو داخل في النهي أيضاً. انتهى. وقد أفتى العلامة السراج العبادي بأنه يجوز أن يبلغ به مثقالاً وأن ما زاد عليه حرام.

● وأما خاتم الحديد، فأخرج أبو داود في الخاتم من سننه، والبيهقي في شعب الإيمان والأدب وغيرهما من تصانيفه من طريقه، والنسائي في الزينة من سننه، وابن حبان في صحيحه: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وعليه خاتم من شبه ـ وهو بفتح المعجمة والموحدة، وبإسكانها وكسر المعجمة، نوع من النحاس كانت الأصنام تتخذ منه، وسمي بذلك لشبهه بالذهب لوناً ـ فقال: «ما لي أجد منك ريح الأصنام»، فطرحه ثم جاء وعليه خاتم من حديد، فقال: «ما لي أرى عليك حلية أهل النار فطرحه» وأخرجه الترمذي لكنه قال: من صفر بدل من شبه، وهما بمعنى. قال النووي في شرح المهذب: قال صاحب الإبانة: يكره الخاتم من حديد أو شبه، وتابعه صاحب البيان فقال: يكره الخاتم من حديد أو نحاس أو رصاص لحديث بريدة.

وقال صاحب التتمة: لا يكره الخاتم من حديد أو رصاص لحديث الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال للذي خطب الواهبة نفسها: «اطلب ولو خاتماً من حديد» قال: ولو كان فيه كراهة لم يأذن فيه.

وفي سنن أبي داود بإسناد جيد عن معيقيب الصحابي: كان خاتمه ﷺ من حديد ملوي عليه فضة. والمختار: أنه لا يكره لهذين الحديثين. وقال في شرح مسلم في الكلام على حديث المرأة الواهبة نفسها: وفي هذا الحديث جواز اتخاذ خاتم الحديد، وفيه خلاف للسلف حكاه القاضي، ولأصحابنا في كراهته وجهان أصحهما لا يكره لأن الحديث في النهي عنه ضعيف. انتهى. ولعل تضعيف النووي للحديث إنما هو بالنسبة إلى مقاومة حديث سهل بن سعد في الصحيحين وغيرهما في قصة الواهبة نفسها لا مطلقاً، كيف وله في ذلك شواهد عدة، إن لم ترقه إلى درجة الصحة لم تدعه ينزل عن درجة الحسن.

● وأما خاتم العقيق: فعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «تختموا بالعقيق، واليمين أحق بالزينة»[1] وفي سنده مجهول، وروي بلفظ تختموا بالعقيق فإنه ينفي الفقر. وروى يعقوب بن إبراهيم عن عائشة مرفوعاً: «تختموا بالعقيق فإنه مبارك»[2] ويعقوب متروك.

---

(١) ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/٣٥٦. وفي الفوائد المجموعة للشوكاني (١٩٤) وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ٢٠٥.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/٣٥٦ ـ ٣٥٧. وفي اللآلىء المصنوعة للسيوطي ٢/١٤٦. وفي=

وروى أبو بكر بن شعيب عن فاطمة رضي الله عنها مرفوعاً: «من تختم بالعقيق لم يزل يرى خيراً»[1] وهذا أيضاً لا يثبت.

وكذا ورد فيه أحاديث غير هذه، وكلها كما قال الحافظ ابن رجب لا تثبت، وقال العقيلي: لا يصح في التختم بالعقيق عن النبي ﷺ شيء. وروى ابن فنجويه في كتاب الخواتيم له بإسناد ضعيف عن علي مرفوعاً: «من تختم بالياقوت الأصفر منع الطاعون»[2]، وإسناده ضعيف.

وأما فص خاتمه ﷺ، فروى أنس أن النبي ﷺ اتخذ خاتماً من فضة، فصه منه. أخرجه البخاري وغيره. وفي صحيح مسلم أن خاتمه ﷺ كان فصه حبشياً. قال النووي: قال العلماء: يعني حجراً حبشياً، أي فصاً من جزع أو عقيق، فإن معدنهما بالحبشة واليمن. انتهى، فإن صح أنهم كانوا يعنون بالحبشي العقيق فيكون له خاتمان: أحدهما فصه عقيق، والآخر فصه فضة، وفي شرح مسلم للنووي حكاية أنه ﷺ كان له في وقت خاتم فصه منه، قال: وفي حديث آخر فصه من عقيق، انتهى. لكن لم يرو عنه ﷺ أنه لبسه خاتماً كله عقيقاً.

وأما نقش خاتمه ﷺ، ففي صحيح مسلم (عن أنس أن النبي ﷺ صنع خاتماً من ورق نقش فيه: محمد رسول الله. وقال للناس: «إني اتخذت خاتماً من فضة ونقشت فيه: محمد رسول الله، فلا ينقش أحد على نقشه»[3].

قال الترمذي: معنى قوله: «لا تنقشوا عليه» نهي أن ينقش أحد على خاتمه: محمد رسول الله. وفي رواية للنسائي: (اتخذ خاتماً من ورق فصه حبشي، ونقش فيه: محمد رسول الله). وفي رواية البخاري والترمذي (وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر).

قال في فتح الباري: ظاهره أنه لم يكن فيه زيادة على ذلك، وأنه كان على هذا

= تذكرة الموضوعات للفتني (١٥٨ ـ ١٥٩). وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ٢/ ٢٧٥ وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١١/٢٥١. وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري (١٥٨ ـ ٤٨٧) وفي الفوائد المجموعة للشوكاني (١٩٤). وفي كنز العمال (١٧٢٨٥).

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/٣٥٦. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٥٤. وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧٦.

(٢) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٧٩٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٥٤) رقم الحديث (٥٨٧٧) وفي صحيح مسلم رقم الحديث (١٦٥٦) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢٩٠ وفي سنن ابن ماجه كتاب اللباس باب (٣٩) رقم الحديث (٣٦٣٩) وفي سنن أبي داود رقم الحديث (٤٢١٩). وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/١٢٨. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٨٣) وفي كنز العمال (١٧٢٩١).

الترتيب، لكن لم تكن كتابته على الترتيب العادي، فإن ضرورة الاحتياج إلى أن يختم به تقتضي أن تكون الأحرف المنقوشة مقلوبة ليخرج الختم مستوياً، وأما قول بعض الشيوخ أن كتابته كانت من فوق يعني الجلالة أعلى الأسطر الثلاثة، ومحمد أسفلها، فلم أر التصريح بذلك في شيء من الأحاديث، بل رواية الاسماعيلي يخالف ظاهرها ذلك، فإنه قال: محمد سطر، والسطر الثاني رسول، والسطر الثالث: الله.

وعن ابن عمر أنه ﷺ كان يلبس خاتمه في يمينه، فلما قبض صار في يد أبي بكر في يمينه، فلما قبض صار في يد عمر في يمينه، ثم صار في يد عثمان في يمينه، ثم ذهب يوم الدار عليه: «لا إله إلا الله». رواه بركة بن محمد الحلبي، كما حكاه ابن رجب في كتاب الخواتيم، ثم قال: وهي رواية ساقطة جداً، فإن بركة مذكور بالكذب، وفي لفظه ما يدل على بطلانه، وهو قوله: ذهب يوم الدار عليه: لا إله إلا الله، فإنه إنما سقط في بئر أريس قبل يوم الدار، وقد عاش عثمان بعده مدة واتخذ له خاتماً عوضه، وإنما كان نقشه، محمد رسول الله لا كلمة الإخلاص. انتهى.

تنبيه: قال شيخ الإسلام الشرف المناوي(1): وتحصل السنة بلبس الخاتم مطلقاً، ولو مستعاراً أو مستأجراً، لكن الأوفق للسنة لبسه بالملك، والاستدامة على ذلك، ويجوز تعداد الخواتيم اتخاذاً، وأما الاستعمال فمفهوم كلام الرافعي عدم الجواز، وبه صرح المحب الطبري فقال: المتجه أنه لا يجوز للرجل أن يلبس خاتمين من فضة في يديه أو في إحداهما، لأن استعمال الفضة حرام إلا ما وردت به الرخصة، ولم ترد إلا في خاتم واحد، لكن ذكر الخوارزمي في الكافي أنه لايجوز له أن يلبس زوجاً في يد وفرادى في الأخرى، فإن لبس في كل واحدة زوجاً فقال الصيدلاني في الفتاوى لا يجوز. وقال الدارمي في الاستذكار يكره للرجل لبس فوق خاتمين، فاقتصاره على الكراهة يدل على عدم الحرمة، وإذا تقرر ذلك فالمسألة ذات خلاف، والذي يظهر كلام المحب الطبري، فإن تسامحنا اعتمدنا على ما أفتى به الصيدلاني. انتهى.

ويجوز التختم في اليمين واليسار، واختلف الناس في أفضلهما، فقيل: اليسار، وهو نص الإمام أحمد، في رواية صالح قال: التختم في اليسار أحب إلي، وهو مذهب الإمام مالك، ويروى أنه كان يلبسه في يساره، وكذلك الإمام الشافعي. وفي صحيح

---

(1) هو يحيىٰ بن محمد بن محمد بن محمد بن أحمد. أبو زكريا شرف الدين بن سعد الدين الحدادي المناوي. (٧٩٨ ـ ٨٧١ هـ) فقيه شافعي. توفي في القاهرة. الأعلام ٨/ ١٦٧. شذرات الذهب ٧/ ٣١٢. الضوء اللامع ١٠/ ٢٥٤ رقم الترجمة (١٠٣٣). كشف الظنون (١٦٣٥). حسن المحاضرة ١/ ٢٥٣.

مسلم عن أنس قال: (كان خاتم النبي ﷺ في هذه وأشار إلى الخنصر في يده اليسرى). وفي سنن أبي داود (عن ابن عمر أنه كان ﷺ يتختم في يساره) وروى إسماعيل بن مسلم عن السليطي قال: أتيت النبي ﷺ في ليلة قمراء ، وكأني أنظر إلى عكن بطنه ، وكأنها القباطي وإلى وبيص خاتمه في يساره. وإسماعيل هذا قال البخاري: تركه ابن المبارك، وربما روى عنه. وقد ذكر بعض الحفاظ ـ كما أفاده الحافظ ابن رجب ـ أن التختم في اليسار مروي عن عامة الصحابة والتابعين.

ورجحت طائفة التختم في اليمين، وهو قول ابن عباس، وعبد الله بن جعفر، وروى حماد بن سلمة قال: رأيت ابن أبي رافع يتختم في يمينه فسألته عن ذلك فقال: رأيت عبد الله بن جعفر يتختم في يمينه، وقال: كان ﷺ يتختم في يمينه[1]، رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي وقال: قال محمد ـ يعني البخاري ـ هذا أصح شيء روي عن النبي ﷺ في هذا الباب.

وفي الشمائل للترمذي عن جابر أنه ﷺ كان يتختم في يمينه. وهذا فيه ضعف، لحال عبد الله بن ميمون. ويروى من حديث عباد بن صهيب عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال: قبض رسول الله ﷺ والخاتم في يمينه، وعباد بن صهيب متروك أيضاً. وروى البزار في مسنده من حديث عبيد بن القاسم عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ كان يتختم في يمينه، وقبض والخاتم في يمينه. وعبيد هذا كذاب. قال الحافظ ابن رجب: وقد جاء التصريح بأن تختمه ﷺ في يساره كان آخر الأمرين في حديث رواه سليمان بن محمد عن عبد الله بن عطاء عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ كان يتختم في يمينه ثم إنه حوله إلى يساره. وقال وكيع: التختم في اليمين ليس بسنة.

ونص أحمد: أنه يكره التختم في السبابة والوسطى. وروي عن علي أنه قال: (نهاني رسول الله ﷺ أن أتختم في هذه أو هذه وأومأ إلى السبابة والوسطى)[2] والله

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الخاتم باب (٥) رقم الحديث (٤٢٢٦) وفي الترمذي رقم الحديث (١٧٤٤) وفي ابن ماجه رقم الحديث (٣٦٤٧) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٠٤. وفي سنن النسائي ٨/ ١٧٥ ـ ١٩٣. وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ٢٩١. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٥٣ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٢٩. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٩١ ـ ٤٣٩٢) وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٧/ ١٠٣. وفي العلل المتناهية ٢/ ٢٠٥. وفي أخلاق النبوة (١٢٤ ـ ١٢٥). وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ٦٧ ـ ٦٨. وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١١/ ٩٥. وفي كنز العمال (١٧٤٠٠ ـ ١٧٤٠٢ ـ ١٨٣١١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الخاتم باب (٤) رقم الحديث (٤٢٢٥) وفي الترمذي كتاب اللباس باب=

أعلم. وفي اللباب: وكان ﷺ يتختم، وربما خرج وفي خاتمه خيط مربوط يستذكر به الشيء، ورواه ابن عدي بسند ضعيف من حديث واثلة بلفظ: كان ﷺ إذا أراد حاجة أوثق في خاتمه خيطاً. وروى أبو يعلى عن ابن عمر أنه إذا أشفق من الحاجة أن ينساها ربط في أصبعه خيطاً ليذكرها. وكذا هو في رابع الخلعيات. لكن فيه سالم بن عبد الأعلى أبو الفيض، رماه ابن حبان بالوضع بل اتهمه أبو حاتم بهذا الحديث.

وأما السراويل فاختلف هل لبسها النبي ﷺ أم لا؟ فجزم بعض العلماء بأنه ﷺ لم يلبسه، ويستأنس له بما جزم به النووي في ترجمة عثمان بن عفان رضي الله عنه من كتاب تهذيب الأسماء واللغات: أنه رضي الله عنه لم يلبس السراويل في جاهلية ولا إسلام إلا يوم قتله. فإنهم كانوا أحرص شيء على اتباعه ﷺ.

لكن قد ورد في حديث عند أبي يعلى الموصلي في مسنده بسند ضعيف جداً عن أبي هريرة قال: دخلت السوق يوماً مع رسول الله ﷺ فجلس إلى البزازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم، وكان لأهل السوق وزان يزن فقال له رسول الله ﷺ: «اتزن وأرجح»، فقال الوزان إن هذه الكلمة ما سمعتها من أحد، فقال أبو هريرة فقلت له: كفى بك من الوهن والجفاء في دينك ألا تعرف نبيك، فطرح الميزان، ووثب إلى يد رسول الله ﷺ يريد أن يقبلها فجذب يده ﷺ منه وقال: «يا هذا إنما تفعل هذا الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجل منكم»، فوزن فأرجح وأخذ رسول الله ﷺ السراويل. قال أبو هريرة: فذهبت لأحمله عنه فقال: «صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله إلا أن يكون ضعيفاً يعجز عنه فيعينه أخوه المسلم»، قال: قلت يا رسول الله، وإنك لتلبس السراويل؟ قال: «أجل، في السفر والحضر، وبالليل والنهار، فإني أمرت بالستر، فلم أجد شيئاً أستر منه»[1].

وكذا أخرجه ابن حبان في الضعفاء عن أبي يعلى، ورواه الطبراني في الأوسط، والدارقطني في الأفراد، والعقيلي في الضعفاء، ومداره على يوسف بن زياد الواسطي. لكن قد صح شراء النبي ﷺ له. وفي الهدي: والظاهر أنه ﷺ إنما اشتراه ليلبسه. وقد روي أنه لبس السراويل، وكانوا يلبسونه في زمانه وبإذنه. قال أبو عبد الله الحجازي في

= (٤٤) رقم الحديث (١٧٨٦) وفي النسائي ٨/ ١٧٧. والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ١٠٩ ـ ١٥٤.

(١) ذكره الحاكم في المستدرك ٢/ ١٤١. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٢١. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٦/ ٣٧١. وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ٢/ ٢٧٢. وفي ميزان الإعتدال (٤٨٦٦). وفي الفوائد المجموعة للشوكاني (١٩٠).

حاشيته على «الشفاء»: وما قاله في الهدي من أنه ﷺ لبس السراويل، قالوا: سبق قلم والله أعلم. وقد أورد أبو سعيد النيسابوري ذكر الحديث في تجارته ﷺ من كتابه «شرف المصطفى». وقد ترجم البخاري في اللباس من صحيحه: باب السراويل، وأورد فيه حديث المحرم لكونه لم يرد فيه شيء على شرطه.

وأما الخف: فروى الترمذي عن بريدة أن النجاشي أهدى للنبي ﷺ خفين أسودين ساذجين، فلبسهما ثم توضأ ومسح عليهما[1].

وعن المغيرة بن شعبة قال: أهدى دحية للنبي ﷺ خفين فلبسهما. وقال إسرائيل عن جابر عن عامر: وجبة فلبسهما حتى تخرقا، لا يدري النبي ﷺ أذكيان هما أم لا[2]. رواه الطبراني.

وأما نعله ﷺ، والنعل ـ كما قال صاحب المحكم ـ ما وقيت به القدم، ففي البخاري عن قتادة عن أنس (أن نعل النبي ﷺ كان لها قبالان)[3]. والقبالان: تثنية القبال، وهو زمام النعل، وهو السير الذي يكون بين الأصبعين. وعن ابن عباس قال: كان لنعل النبي ﷺ قبالان مثنى شراكهما، رواه الترمذي في الشمائل، وفيها أيضاً عن أبي هريرة قال: كان لنعل رسول الله ﷺ قبالان. وعن عيسى بن طهمان قال: أخرج إلينا أنس بن مالك نعلين جرداوين لهما قبالان، فحدثني ثابت بعد عن أنس: أنهما كانتا نعلي النبي ﷺ[4]. وعن عبيد بن جريج أنه قال لابن عمر: رأيتك تلبس النعال السبتية، قال: إني رأيت رسول الله ﷺ يلبس النعال التي ليس فيها شعر ويتوضأ فيها، فأنا أحب أن ألبسها[5]. وعن عمرو بن حريث قال: رأيت رسول الله ﷺ يصلي في نعلين

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة باب (٦٠) رقم الحديث (١٥٤). وفي الترمذي كتاب الأدب باب (٥٥) رقم الحديث (٢٨٢٠). وفي ابن ماجه في كتاب الطهارة باب (٨٤) رقم الحديث (٥٤٩ ـ ٣٦٢٠). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٣٥٢.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب اللباس باب (٣٠) رقم الحديث (١٧٦٩).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس باب (٤١) رقم الحديث (٤١٣٤) وفي البخاري كتاب اللباس باب (٤١) رقم الحديث (٥٨٥٧) وفي النسائي ٨/ ٢١٧. وفي ابن ماجه رقم الحديث (٣٦١٤ ـ ٣٦١٥) وفي أخلاق النبوة (١٣٦). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٤١٣) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٣٨. وفي الشمائل للترمذي (٤١ ـ ٤٤) وفي كنز العمال (٤٢١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٤١) رقم الحديث (٥٨٥٨).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٣٧) رقم الحديث (٥٨٥١). وفي سنن أبي داود كتاب المناسك باب (٢١) رقم الحديث (١٧٧٢). وفي الموطأ للإمام مالك كتاب الحج باب (٩) رقم الحديث (٣١) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٦٦ ـ ١١٠.

مخصوفتين[1]. وعن عائشة كان رسول الله ﷺ يحب التيمن ما استطاع في ترجله وتنعله وطهوره[2] رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة، قال ﷺ: «إذا تنعل أحدكم فليبدأ باليمين، فإذا نزع فليبدأ بالشمال، لتكن اليمين أولهما تنعل وآخرهما تنزع».

وكان ﷺ ينهى أن ينتعل الرجل قائماً. رواه أبو داود والترمذي.

وقد ذكر أبو اليمن بن عساكر تمثال نعله الكريمة عليه أفضل الصلاة والسلام في جزء مفرد رويته قراءة وسماعاً. وكذا أفرده بالتأليف أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن خلف السلمي المشهور بابن الحاج من أهل المرية بالأندلس وكذا غيرهما. ولم أثبتها هنا اتكالاً على شهرتها وصعوبة ضبط تسطيرها إلا على حاذق.

ومن بعض ما ذكر من فضلها وجرب من نفعها وبركتها، ما ذكره أبو جعفر أحمد بن عبد المجيد، وكان شيخاً صالحاً قال: حذوت هذا المثال لبعض الطلبة فجاءني يوماً فقال لي رأيت البارحة من بركة هذا النعل عجباً. أصاب زوجي وجع شديد كاد يهلكها فجعلت النعل على موضع الوجع وقلت: اللهم أرني بركة صاحب هذا النعل، فشفاها الله للحين.

وقال أبو إسحاق: قال أبو القاسم بن محمد: ومما جرب من بركته أن من أمسكه عنده متبركاً به كان له أماناً من بغي البغاة وغلبة العداة وحرزاً من كل شيطان مارد وعين كل حاسد، وإن أمسكته المرأة الحامل بيمينها وقد اشتد عليها الطلق تيسر أمرها بحول الله وقوته، ولله در أبي اليمن بن عساكر حيث قال:

يا منشداً في رسم ربع خال	ومناشداً لدوارس الأطلال
دع ندب آثار وذكر مآثر	لأحبة بانوا وعصر خال
والثم ثرى الأثر الكريم فحبذا	إن فزت منه بلثم ذا التمثال

(1) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/ ٣٠٧.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس باب (٤١) رقم الحديث (٤١٣٩) وفي الترمذي كتاب اللباس باب (٣٧) رقم الحديث (١٧٧٩) وفي البخاري رقم الحديث (٥٨٥٦) وفي ابن ماجه رقم الحديث (٣٦١٦) وفي صحيح مسلم كتاب اللباس رقم الحديث (٦٧) وفي الموطأ للإمام مالك كتاب اللباس باب (٧) رقم الحديث (١٥) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٣٣ و ٢٤٥ ـ ٤٧٧. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٤٣٢. وفي المعجم الصغير للطبراني ١/ ٢٥. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٤١٠) وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ٧٥ وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٦/ ١٣٢ وفي كنز العمال (٣١٦٠٤).

أثــر لـــه بقلـــوبنـــا أثـــر لهـــا ... شغـــل الخلـــي بحـــب ذات الخـــال
قبّــل لــك الإقبــال نعلــي أخمــص ... حـــل الهـــلال بهـــا محـــل قبـــال
ألصـــق بهـــا قلبـــاً يقلبـــه الهـــوى ... وجـــلاً علـــى الأوصـــاب والأوجـــال
صـــافـــح بهـــا خـــداً وعفـــر وجنـــة ... فـــي تـــربهـــا وجـــداً وفـــرط فعـــال
سَبِّبْـــل حـــر جـــوى ثـــوى بجـــوانـــح ... فـــي الحـــب مـــا جنحـــت إلـــى الإبـــلال
يـــا شبـــه نعـــل المصطفـــى روحـــي الفـــدا ... لمحلـــك الأسمـــى الشـــريـــف العـــال
هملـــت لمـــرآك العيـــون وقـــد نـــأى ... مـــرمـــى العيـــان بغيـــر مـــا إهمـــال
وتـــذكـــرتْ عهـــد العقيـــق فتـــأثـــرت ... شـــوقـــاً عقيـــقَ المـــدمـــع الهطـــال
وصَبَتْ فـــواصلـــت الحنيـــن إلـــى الـــذي ... مـــا زال بـــالـــي منـــه فـــي بلبـــال
أذكـــرتنـــي قَـــدمـــاً لهـــا قِـــدَم العـــلا ... والجـــود والمعـــروف والإفضـــال
أذكـــرتنـــي مـــن لـــم يـــزل ذكـــري لـــه ... يعتـــاد فـــي الأبكـــار والآصـــال
ولهـــا المفـــاخـــر والمـــآثـــر فـــي الـــدنـــا ... والـــديـــن والأقـــوال والأفعـــال
لـــو أن خـــدي يحتـــذى نعـــلاً لهـــا ... لبلغـــت مـــن نيـــل المنـــى آمـــال
أو أن أجفـــانـــي لـــوطء نعـــالهـــا ... أرض سمـــت عـــزاً بـــذا الإذلال

وما أحسن قول أبي الحكم بن المرحل في قصيدة ذكرها أبو إسحاق بن الحاج:

بـــوصـــف حبيبـــي طـــرز الشعـــر نـــاظمـــه ... ونمنـــم خـــد الطـــرس بـــالنقـــش راقمـــه
رؤوف عطـــوف أوســـع النـــاس رحمـــة ... وجـــادت عليهـــم بـــالنـــوال غمـــائمـــه
لـــه الحســـن والإحســـان فـــي كـــل مـــذهـــب ... فـــآثـــاره محبـــوبـــة ومعـــالمـــه
بـــه ختـــم الله النبييـــن كلهـــم ... وكـــل فعـــال صـــالـــح فهـــو خـــاتمـــه
أحـــب رســـول الله حبـــاً لـــو أنـــه ... تقـــاسمـــه قـــومـــي كفتهـــم قســـائمـــه
كـــأن فـــؤادي كلمـــا مـــرّ ذكـــره ... مـــن الـــوُرْق خفـــاق أصيبـــت قـــوادمـــه
أهيـــم إذا هبـــت نـــواســـم أرضـــه ... ومـــن لفـــؤادي أن تهـــب نـــواسمـــه
فـــأنشـــق مسكـــاً طيبـــاً فكـــأنمـــا ... نـــوافجـــه جـــاءت بـــه ولطـــائمـــه
وممـــا دعـــانـــي والـــدعـــاوى كثيـــرة ... إلـــى الشـــوق أن الشـــوق ممـــا أكـــاتمـــه
مثـــال لنعلـــي مـــن أحـــب هـــويتـــه ... فهـــا أنـــا فـــي يـــومـــي وليلـــي ألاثمـــه
أجـــر علـــى رأســـي ووجهـــي أديمـــه ... وألثمـــه طـــوراً وطـــوراً ألازمـــه
أمثلـــه فـــي رجـــل أكـــرم مـــن مشـــى ... فتبصـــره عينـــي ومـــا أنـــا حـــالمـــه
أحـــرك خـــدي ثـــم أحســـب وقعـــه ... علـــى وجنتـــي خطـــوا هنـــاك يـــداومـــه
ومـــن لـــي بـــوقـــع النعـــل فـــي حـــر وجنتـــي ... لمـــاش علـــت فـــوق النجـــوم بـــراجمـــه

سأجعله فوق الترائب عوذة لقلبي لعل القلب يبرد حاجمه
وأربطة فوق الشؤون تميمة لجفني لعل الجفن يرقأ ساجمه
ألا بأبي تمثال نعل محمد لطاب لحاذيه وقدس خادمه
يود هلال الأفق لو أنه هوى يزاحمنا في لثمه ونزاحمه
وما ذاك إلا أن حب نبينا يقوم بأجسام الخليقة لازمه
سلام عليه كلما هبت الصبا وغنت بأغصان الأراك حمائمه

ولأبي بكر أحمد بن الإمام أبي محمد عبد الله بن الحسين القرطبي رحمه الله:

ونعل خضعنا هيبة لبهائها وإنا متى نخضع لها أبداً نعلو
فضعها على أعلى المفارق إنها حقيقتها تاج وصورتها نعل
بأخمص خير الخلق حازت مزية على التاج حتى باهت المفرق الرجل
طريق الهدى عنها استنارت لمبصر وإن بحار الجود من فيضها حلوا
سلونا ولكن عن سواها وإنما نهيم بمغناها الغريب وما نسلوا
فما شاقنا مذ راقنا رسم عزها حميم ولا مال كريم ولا نسل
شفاء لذي سقم رجاء لبائس أمان لذي خوف كذا يحسب الفضل

وأما فراشه ﷺ، فقد كان ﷺ آخذاً من ذلك بما تدعو ضرورته إليه، وترك ما سوى ذلك.

وفي صحيح مسلم قوله ﷺ: «فراش للرجل وفراش لامرأته والثالث للضيف، والرابع للشيطان»[1].

قال العلماء: معناه ما زاد على الحاجة فاتخاذه إنما هو للمباهاة والاختيال، والالتهاء بزينة الدنيا، وما كان بهذه الصفة فهو مذموم، وكل مذموم يضاف للشيطان لأنه يرتضيه ويوسوس به ويحسنه، وقيل: إنه على ظاهره، وإنه إذا كان لغير حاجة كان للشيطان عليه مبيت ومقيل، وأما تعداد الفراش للزوج والزوجة فلا بأس به لأنه قد يحتاج كل واحد منهما إلى فراش عند المرض ونحوه.

وعن عائشة: «إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه أدماً حشوه الليف»[2] رواه الشيخان.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس باب (٤٢) رقم الحديث (٤١٤٢) وفي صحيح مسلم كتاب اللباس رقم الحديث (٤١) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٢٤. وفي سنن النسائي ٦/ ١٣٥. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٢٦٢. وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ٥٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق باب (١٧) رقم الحديث (٦٤٥٦). وفي صحيح مسلم كتاب اللباس=

وروى البيهقي من حديثها، قالت: دخلت علي امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ قطيفة مثنية، فبعثت إلي بفراش حشوه الصوف، فدخل علي رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قلت: يا رسول الله، فلانة الأنصارية دخلت فرأت فراشك فبعثت إلي بهذا، فقال: «رديه يا عائشة فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة»(١).

وعند عبد الله .ن مسْعود: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه. الحديث رواه ابن ، جه والترمذي وقال: حسن صحيح. والطبراني ولفظه: دخلت على النبي ﷺ وهو فو، غرفة كأنها حمام. وهو نائم على حصير، وقد أثر في جنبه فبكيت، فقال: «ما يبكي' ، يا عبد الله؟» قلت: يا رسول الله كسرى وقيصر يطؤون على الخز والديباج والحرير، وأنت نائم على هذا الحصير قد أثر بجنبك، فقال: «فلا تبك يا عبد الله، فإن لهم الدنيا ولنا الآخرة»(٢).

وقوله: كأنها بيت حمام ـ بتشديد الميم ـ أي أن فيها من الحر والكرب كما في بيت الحمام. وعن ابن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير، قال: فجلست، فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، وإذا إهاب معلق، فابتدرت عيناي، فقال: «ما يبكيك يا ابن الخطاب»، فقال: يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي الله وصفوته، وهذه خزائنك. قال: «يا ابن الخطاب، أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا». رواه ابن ماجه بإسناد صحيح. والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ولفظه:

= باب (٦) رقم الحديث (٣٨) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٧٣ وفي الترمذي كتاب اللباس باب (٢٧) رقم الحديث (١٧٦١). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٤٨ وفي الشفاء للقاضي عياض ١/ ١٤٢. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٠٧) وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ١١٠ و ٤/ ٢٠١. وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ٥٢.

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ١/ ٣٤٥. وفي فتح الباري ١١/ ٣٥٣. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ٢٠٢. وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١١/ ١٠٢. وفي البداية والنهاية لابن كثير ٦/ ٥٥ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٣١. وفي أخلاق النبوة (١٥٦) وفي كنز العمال (١٨٦١٢).

(٢) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٢٠١ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٣٢٦. وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٠٨. وفي أخلاق النبوة (٢٧٢).

قال عمر رضي الله عنه: استأذنت على رسول الله ﷺ فدخلت عليه في مشربة، وإنه لمضطجع على خصفة وإن بعضه لعلى التراب، وتحت رأسه وسادة محشوة ليفاً، وإن فوق رأسه لإهابٌ عطين، وفي ناحية المشربة قرظ، فسلمت عليه وجلست فقلت: أنت نبي الله وصفوته، وكسرى وقيصر على سرر الذهب وفرش الديباج والحرير، فقال: «أولئك عجلت لهم طيباتهم وهي وشيكة الانقطاع وإنا قوم أخرت لنا طيباتنا في آخرتنا».

وعن عائشة، كان لرسول الله ﷺ سرير مُرَمَّل بالبَرْدي، عليه كساء أسود، وقد حشوناه بالبردي، فدخل أبو بكر وعمر عليه فإذا النبي ﷺ نائم عليه، فلما رآهما استوى جالساً، فنظرا فإذا أثر السرير في جنب رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله ما يؤذيك خشونة ما نرى من فراشك وسريرك، وهذا كسرى وقيصر على فرش الحرير والديباج فقال ﷺ: «لا تقولا هذا، فإن فراشي كسرى وقيصر في النار، وإن فراشي وسريري هذا عاقبته إلى الجنة». رواه ابن حبان في صحيحه. ويروى أنه ﷺ ما عاب مضجعاً قط، إن فرش له اضطجع، وإلا اضطجع على الأرض. وتغطى ﷺ باللحاف، قال ﷺ: «ما أتاني جبريل وأنا في لحاف امرأة منكن غير عائشة»(١).

النوع الثالث
في سيرته ﷺ في نكاحه(٢)

قد كان ﷺ يأخذ من الجماع بالأكمل، مما تحفظ به الصحة، وتتم به اللذة وسرور النفس، وتحصل به مقاصده التي وضع لأجلها. فإن الجماع في الأصل وضع لثلاثة أشياء، هي مقاصده الأصلية:

أحدها: حفظ النفس ودوام النوع الإنسا ي إلى أن تتكامل العدة التي قدر الله تعالى بروزها إلى هذا العالم.

[الثاني](٣): إخراج الماء الذي يضر احتباسه واحتقانه بجملة البدن

[الثالث]: قضاء الوطر ونيل اللذة والتمتع بالنعمة، وهذه هي الفائدة التي في الجنة، إذ لا تناسل هناك، ولا احتقان يستفرغه الإنزال، وفضلاء الأطباء يرون أن الجماع من أسباب حفظ الصحة. لكن لا ينبغي إخراج المني إلا في طلب النسل، وإخراج ما

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب (٣٠) رقم الحديث (٣٧٧٥). وفي الترمذي كتاب المناقب باب (٦٢) رقم الحديث (٣٨٧٩) وفي سنن النسائي ٧/ ٦٨.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٨٢ والشفاء للقاضي عياض ١/ ٨٧.

(٣) لم يُذكره المصنف فقال الزرقاني الثاني: إخراج الماء الذي يضر احتباسه واحتقانه بجملة البدن.

احتقن منه، فإنه إذا دام احتقانه أحدث أمراضاً رديئة، منها الوسواس والجنون والصرع وغير ذلك، وقد يبرىء استعماله من هذه الأمراض كثيراً، فإنه إذا طال احتباسه فسد واستحال إلى كيفية سمية توجب أمراضاً رديئة.

قال محمد بن زكريا: من ترك الجماع مدة طويلة ضعفت قوى أعضائه واستدت مجاريها، وتقلص ذكره، وقد رأيت جماعة تركوه لنوع من التقشف فبردت أبدانهم وعسرت حركاتهم ووقعت عليهم كآبة بلا سبب، وقلت شهواتهم وهضمهم. أشار إليه في زاد المعاد.

ومن منافعه . غض البصر، وكف النفس، والقدرة على العفة عن الحرام، وتحصيل ذلك للمرأة، فهو ينفع نفسه في دنياه وآخرته، وينفع المرأة، ولم يزل التفاخر بكثرته عادة معروفة، والتمادح به سيرة ماضية، ولذلك كان ﷺ يتعاهده ويقول كما في حديث أنس عند الطبراني في الأوسط، والنسائي في سننه: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»[1] أي لمناجاته فيها ربه، زاد الإمام أحمد في الزهد: وأصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن.

فمحبة النساء والنكاح من كمال الإنسان، هذا خليل الله إبراهيم، إمام الحنفاء، كان عنده سارة أجمل نساء العالمين، أحب هاجر وتسرى بها. وذكر سعد بن إبراهيم عن عامر بن سعد عن أبيه قال: كان الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يزور هاجر في كل يوم من الشام على البراق شغفاً بها وقلة صبر عنها. وهذا داود عليه الصلاة والسلام كان عنده تسع وتسعون امرأة فأحب تلك المرأة وتزوج بها فكمل المائة وهذا سليمان ابنه كان يطوف في الليلة على تسعين امرأة.

تنبيه: قد وقع في الإحياء للغزالي، وتفسير آل عمران من الكشاف، وكثير من كتب الفقهاء: «حبب إلي من دنياكم ثلاث». وقالوا: إنه عليه الصلاة والسلام قال «ثلاث» ولم يذكر إلا اثنتين: الطيب والنساء. قالوا: ومنه قول الشاعر:

إن الأحـــامـــرة الثـــلاثـــة أهلكـــت مـــالـــي وكنـــت بهـــن قـــدمـــاً مـــولعـــا

---

(١) أخرجه النسائي ٧/ ٦١ وأحمد بن حنبل في مسنده ٣/١٢٨ و ١٩٩ و ٢٨٥ والحاكم في المستدرك ٢/ ١٦٠ والعجلوني في كشف الخفاء ١/ ٤٠٥ والسيوطي في الدر المنثور ٢/ ١٠ وأيضاً في الدرر المنتثرة (٧١) والقاضي في الشفا ١/ ٨٩ وفي تفسير القرطبي ٢/ ١٤ و ١٠/ ٥٦ والزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٣/ ٢٢ و ٩/ ٥٥٢ والعراقي في المغني ٢/ ٣ وعلي القاري في الأسرار المرفوعة ١٧٦ والفتني في تذكرة الموضوعات ١٢٤ وفي كنز العمال (١٨٩١٣).

الخمـــــر والمـــــاء القـــــراح وأطلـــــي   بـــــالـــــزعفـــــران فـــــلا أزال مـــــولعـــــا

وذكرها ابن فورك في جزء مفرد ووجهها وأطنب في ذلك، وهذا عندهم يسمى «طيا» وهو أن يذكر جمع ثم يؤتى ببعضه ويسكت عن ذكر باقيه لغرض للمتكلم، وأنشد الزمخشري عليه:

كـــــانـــــت حنيفـــــة أثـــــلاثاً فثلثهـــــم   مـــــن العبيـــــد وثلـــــث مـــــن مـــــواليهـــــا

وفائدة الطي عندهم تكثير ذلك الشيء: لكن قال ابن القيم وغيره: من رواه «حبب إلي من دنياكم ثلاث» فقد وهم، ولم يقل ﷺ: ثلاث، والصلاة ليست من أمور الدنيا التي تضاف إليها. انتهى، نعم تضاف إليها لكونها ظرفاً لوقوعها فقط، فهي عبادة محضة. وقال شيخ الإسلام والحفاظ ابن حجر في تاريخ الكشاف: إن لفظ «ثلاث» لم تقع في شيء من طرقه، وزيادته مفسدة للمعنى. وكذا قال شيخ الإسلام الولي ابن العراقي في أماليه، وعبارته: ليست هذه اللفظة وهي «ثلاث» في شيء من كتب الحديث، وهي مفسدة للمعنى، فإن الصلاة ليست من أمور الدنيا. وكذا صرح به الزركشي وغيره، كما حكاه شيخنا في المقاصد الحسنة وأقره.

وقال ابن الحاج في المدخل: أنظر إلى حكمة قوله ﷺ ««حبب» ولم يقل: أحببت، وقال: «من دنياكم» فأضافها إليهم دونه عليه الصلاة والسلام، فدل على أن حبه كان خاصاً بمولاه تعالى، وجعلت قرة عينه في الصلاة، فكان ﷺ بشريّ الظاهر، ملكوتي الباطن. وكان ﷺ لا يأتي إلى شيء من أحوال البشرية إلا تأنيساً لأمته وتشريعاً لها، لا أنه محتاج إلى شيء من ذلك، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك﴾ [الأنعام:٥٠] فقال: «لكم» ولم يقل: إني ملك، فلم ينف الملكية عنه إلا بالنسبة إليهم، اعني في معانيه ﷺ لا في ذاته الكريمة، إذ إنه ﷺ يلحق بشريته ما يلحق البشر، ولهذا قال سيدي أبو الحسن الشاذلي في صفته ﷺ: هو بشر ليس كالأبشار، كما أن الياقوت حجر ليس كالأحجار. وهذا منه ـ رحمه الله ـ على سبيل التقريب للفهوم، فدل على أنه ﷺ ملكي الباطن، ومن كان ملكي الباطن ملك نفسه. انتهى.

وها هنا لطيفة: روي أنه ﷺ لما قال: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»، قال أبو بكر: وأنا يا رسول الله حبب إلي من الدنيا: النظر إلى وجهك، وجمع المال للإنفاق عليك، والتوسل بقرابتك إليك. وقال عمر: وأنا يا رسول الله حبب إلي من الدنيا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام بأمر الله، وقال عثمان: وأنا يا رسول الله حبب إلي من الدنيا إشباع الجائع وإرواء الظمآن وكسوة

العاري، وقال علي بن أبي طالب: وأنا يا رسول الله حبب إلي من الدنيا الصوم في الصيف، وإقراء الضيف والضرب بين يديك بالسيف. قال الطبري: خرجه الجندي. كذا قال والعهدة عليه.

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الناس بأربع بالسماحة والشجاعة وكثرة الجماع وشدة البطش»[1]. رواه الطبراني. وقال أنس: (كان ﷺ يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل، وهن إحدى عشرة، قلت لأنس: أو كان يطيقه؟ قال: كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين)[2] رواه البخاري من طريق قتادة. قال ابن خزيمة[3]: تفرد بذلك معاذ بن هشام عن أبيه. ورواه سعيد بن أبي عروبة[4] وغيره عن قتادة فقال: (تسع نسوة) انتهى. وكذا رواه البخاري من طريق سعيد بن أبي عروبة أيضاً بلفظ (وله يومئذ تسع سنوة). وقد جمع بينهما ابن حبان في صحيحه بأن حمل ذلك على حالتين، لكنه وهم في قوله: إن الأولى كانت في أول قدومه المدينة، حيث كان تحته تسع نسوة، والحالة الثانية في آخر الأمر، حيث اجتمع عنده إحدى عشرة امرأة.

وموضع هذا الوهم منه: أنه ﷺ لما قدم المدينة لم يكن تحته سوى سودة ثم دخل على عائشة بالمدينة، ثم تزوج أم سلمة وحفصة وزينب بنت خزيمة في السنة الرابعة، ثم زينب بنت جحش في الخامسة، ثم جويرية في السادسة، ثم صفية وأم حبيبة وميمونة في السابعة، هؤلاء جميع من دخل بهن من الزوجات بعد الهجرة على المشهور... لكن تحمل رواية هشام على أنه ضم مارية وريحانة إليهن وأطلق عليهن لفظ «نسائه» تغليباً. فإن قلت: وطء المرأة في يوم الأخرى ممنوع، والقسم وإن لم يكن واجباً عليه ﷺ لكنه

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٩ و٩/ ١٣ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ٩٧ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٩١. وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ١/ ١٦٩ وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٨/ ٧٠ وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٤/ ٣٤٧. وفي كنز العمال (٣١٩٣٥- ٣٢٠٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الغسل باب (١٢) رقم الحديث (٢٦٨ - ٢٨٤ - ٥٠٦٨ - ٥٢١٥). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢٩١ وفي شرح السنة للبغوي ٢/ ٣٧. وفي أخلاق النبوة (٢٣١ - ٢٣٢). وفي سنن النسائي ١/ ١٤٣. وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٩٠ وفي كنز العمال (١٨٣٤٤).

(٣) هو محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي أبو بكر (٢٢٣ - ٣١١ هـ). عالم بالحديث إمام فقيه توفي بنيسابور. الأعلام ٦/ ٢٩ شذرات الذهب ٢/ ٢٦٢. طبقات الشافعية ٢/ ١٣٠. تذكرة الحفاظ ٢/ ٧٢٠ رقم الترجمة (٧٣٤). الوافي بالوفيات ٢/ ١٩٦.

(٤) هو سعيد بن أبي عروبة مهران. العدوي بالولاء. البصري أبو النضر. حافظ توفي سنة (١٥٦ هـ). الأعلام ٣/ ٩٨. شذرات الذهب ١/ ٢٣٩. تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٧ رقم الترجمة (١٧٦). طبقات ابن سعد ٧/ ٢٠٢ رقم الترجمة (٣٢٥٦).

التزمه تطييباً لنفوسهن. أجيب: باحتمال إذن صاحبة اليوم له، أو أنه في يوم لم يثبت فيه قسم بعد، كيوم قدومه من سفر، أو اليوم الذي بعد كمال الدورة، لأنه يستأنف القسم فيما بعد، أو أنه من خصائصه ﷺ، وقد اختص في باب النساء بأشياء، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وعن طاووس ومجاهد: أعطي ﷺ قوة أربعين رجلاً في الجماع[1]. رواه ابن سعد. وفي رواية عن مجاهد: قوة بضع وأربعين رجلاً كل رجل من أهل الجنة. رواه الحارث بن أبي أسامة. وعند أحمد والنسائي، وصححه الحاكم من حديث زيد بن أرقم رفعه: «إن الرجل من أهل الجنة ليعطى قوة مائة في الأكل والشرب والجماع والشهوة»[2]. وعن صفوان بن سليم مرفوعاً: «أتاني جبريل بقدر، فأكلت منها فأعطيت قوة أربعين رجلاً في الجماع»[3]. رواه ابن سعد.

ولما كان ﷺ ممن أقدر على القوة في الجماع وأعطي الكثير منه، أبيح له من عدد الحرائر ما لم يبح لغيره. قال ابن عباس: تزوجوا فإن أفضل هذه الأمة أكثرها نساء. يشير إليه ﷺ، وقيد بهذه الأمة ليخرج مثل سليمان عليه السلام فإنه كان أكثر نساء.

ووقع عند الطبراني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: تزوجوا فإن خيرنا أكثرنا نساء، قيل المعنى: خير أمة محمد ﷺ من كان أكثر نساء من غيره ممن يتساوى معه فيما عدا ذلك من الفضائل.

قال الحافظ أبو الفضل العسقلاني: والذي يظهر أن مراد ابن عباس بـ «الخير» النبي ﷺ وبـ «الأمة» أخصاء أصحابه، وكأنه أشار إلى أن ترك التزويج مرجوح، إذ لو كان راجحاً ما آثر النبي ﷺ غيره، وكان ـ مع كونه أخشى الناس لله وأعلمهم به ـ يكثر التزويج لمصلحة تبليغ الأحكام التي لا يطلع عليها الرجال، ولإظهار المعجزة البالغة في خرق العادة لكونه كان لا يجد ما يستمتع ه من القوت غالباً، وإن وجد فكان يؤثر بأكثره، ويصوم كثيراً ويواصل، ومع ذلك فكان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة، ولا يطاق ذلك إلا مع قوة البدن، وقوة البدن تابعة لما يقوم به من استعمال المقويات من مأكول

---

(١) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ٩٠ وابن سعد في طبقاته ١/ ٢٨٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ٣٧١ والدارمي ٢/ ٣٣٤ والطبراني في المعجم الكبير ٥/ ١٩٩ وابن أبي شيبة في مصنفه ١٣/ ١٠٨ والعراقي في المغني ٤/ ٥٢٥ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٩٢٩٠).

(٣) أخرج أبو نعيم في الحلية ٨/ ٣٧٦ والعجلوني في كشف الخفاء ١/ ٢٠٠ وابن سعد في الطبقات ١/ ٢٨٠ وفي كنز العمال (٣١٨٩٦ ـ ٣١٨٩٧ ـ ٤٤٨٥١).

ومشروب، وهي عنده ﷺ نادرة أو معدومة.

وقال بعض العلماء: لما كان الحر لفضله على العبد يستبيح من النساء أكثر مما يستبيح العبد، وجب أن يكون النبي ﷺ لفضله على جميع الأمة يستبيح من النساء أكثر مما تستبيحه الأمة. قالوا: ومن فوائد ذلك، زيادة التكليف بهن مع تحمل أعباء الرسالة، فيكون ذلك أعظم لمشاقه وأكثر لأجره، ومنها: أن النكاح في حقه عبادة، ومنها: نقل محاسنه الباطنة، وقد تزوج ﷺ أم حبيبة وكان أبوها في ذلك الوقت عدوه، وصفية وقد قتل أباها وعمها وزوجها، فلو لم يطلعن من باطن أحواله على أنه أكمل خلق الله لكانت الطباع البشرية تقتضي ميلهن إلى آبائهن وقرابتهن، فكان في كثرة النساء عنده بيان لمعجزاته وكماله باطناً، كما عرف الرجال منه الظاهر.

وقد رغب ﷺ في النكاح. فروى أبو داود والنسائي من حديث معقل بن يسار مرفوعاً: «تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم» وفي ابن ماجه عن أبي هريرة رفعه: «انكحوا فإني مكاثر بكم الأمم». وهو معنى ما اشتهر على الألسنة: «تناكحوا تناسلوا فإني أباهي بكم الأمم»، ولم أقف عليه بهذا اللفظ[1].

وأرشد ﷺ من لم يستطع الباءة إلى الصوم، لأن كثرته تقلل مادة النكاح، وتضعف ما يجده المرء من الحرارة القوية التي تبعثه على النكاح، وخص الشباب في قوله: «يا معشر الشباب»[2] لأن للشباب من شهوة النكاح ما ليس لغيرهم. وقد ظهر لك أن النكاح أعظم في الأجر والثواب من الصيام، فإنه ﷺ لم يأمر أولاً بالصوم إنما أمر به عند عدم الطول إلى النكاح، وإذا كان النكاح ينوى به التناسل لتكثير هذه الأمة المحمدية فهو بلا شك أفضل.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لأطأ النساء ومالي إليهن حاجة، رجاء أن

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣٨٠ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٨٧ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ٢٥٣ وفي تذكرة الموضوعات للفتني (١٣) وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٢٨٦ وفي المغني للعراقي ٢/ ٢٢ وفي تفسير القرطبي ٥/ ٣٩١ وفي كنز العمال (٤٤٤٤٢)

(٢) أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب (٢) رقم الحديث (٥٠٦٥ و ٥٠٦٦) وفي صحيح مسلم كتاب النكاح رقم الحديث (١ و ٢) وفي سنن النسائي ٤/ ١٦٩ و ١٧١ و ٦/ ٥٨ وابن ماجه في كتاب النكاح باب (١) رقم الحديث (١٨٤٥) وفي سنن الترمذي رقم الحديث (١٠٨١) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٨٧ و ٤٣٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٢٩٦ وفي سنن الدارمي ٢/ ١٣٢ وفي مسند الحميدي رقم الحديث (١١٥) وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ١٤٩ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ٢٥٢ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٢٨٦ وفي كنز العمال (٤٤٤٠٨ و ٤٥٥٩٢).

يخرج الله من ظهري من يكاثر به محمد ﷺ الأمم يوم القيامة. ذكره ابن أبي جمرة.

وانظر كون نبينا ﷺ - بالإجماع - أعبد الناس، مع ما طبعت عليه بشريته من حب الجماع، وكيف لم يخل بعبادته شيئاً، لأنه ﷺ لم يكن يأتيها إلا على مشروعيتها، وهذا هو غاية الكمال في البشرية، لأنه يرجع ما طبع عليه تابعاً لما أمر به.

وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «لا رهبانية في الإسلام»[1]. وهي ترك النساء، ولو كان تركهن أفضل لشرع ذلك في ديننا، إذ هو خير الأديان. وقد قال سليمان عليه السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة[2]. رواه البخاري. وهذا فيه معجزة لسليمان عليه السلام، إذ البشر عاجز عن الطواف على مائة امرأة في ليلة واحدة، فأظهر الله تعالى قدرته بأن أعطى لسليمان عليه السلام القوة على ذلك فكان فيها معجزة وإظهار قدرة وإبداء حكمة، رداً على من ربط الأشياء بالعوائد فيقول: لا يكون كذا إلا من كذا، ولا يتولد كذا إلا من كذا، فألقى الله في صلب سليمان ماء مائة رجل.

وكان له ثلاثمائة زوجة وألف سرية وهذا لا يعطي تفضيل سليمان عليه السلام على نبينا ﷺ، إذ سيدنا محمد لم يعط إلا ماء أربعين رجلاً، ولم يكن له غير عشر نسوة، لأن مرتبة نبينا ﷺ في الأفضلية لا يساويه فيها أحد، وسليمان تمنى أن يكون ملكاً فأعطي ذلك، وأعطي هذه القوة في الجماع لكي يتم له الملك على خرق العادة من كل الجهات ليمتاز بذلك. فكان نساؤه من جنس ملكه الذي لا ينبغي لأحد من بعده كما طلب.

ونبينا محمد ﷺ لما خير بين أن يكون نبياً ملكاً أبى ذلك، واختار أن يكون نبياً عبداً، فأعطي من الخصوصية ذلك القدر لكونه ﷺ اختار الفقر والعبودية فأعطي الزائد لخرق العادة في النوع الذي اختار وهو الفقر والعبودية، فكان ﷺ يربط على بطنه الأحجار من شدة الجوع والمجاهدة، وهو على حاله في الجماع لم ينقصه شيئاً، والناس أبداً إذا أخذهم الجوع والمجاهدة لا يستطيعون ذلك، فهو أبلغ في المعجزة، قاله في بهجة النفوس، والله أعلم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٦/٢٢٦، والعجلوني في كشف الخفاء ٢/٥٢٨.

(٢) أخر .. البخاري في كتاب الجهاد باب (٢٣) رقم الحديث (٢٨١٩ - ٣٤٢٤ - ٥٢٤٢ - ٦٦٣٩ - ٦٧٢٠ - ٧٤٦٩) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/٢٢٩ و ٢٧٥ و ٥٠٦.

النوع الرابع

في نومه ﷺ[1]

كان ﷺ ينام أول الليل ويستيقظ في أول النصف الثاني، فيقوم فيستاك ويتوضأ، ولم يكن يأخذ من النوم فوق القدر المحتاج، ولا يمنع نفسه من القدر المحتاج إليه منه، وكان ينام على جانبه الأيمن، ذاكراً الله حتى تغلبه عيناه، غير ممتلىء البدن من الطعام والشراب، لأنه ﷺ كان يحب التيامن في شأنه كله، وليرشد أمته، لأن في الاضطجاع على الشق الأيمن سراً، وهو أن القلب معلق في الجانب الأيسر، فإذا نام الرجل على الجانب الأيسر استثقل نوماً، لأنه يكون في دعة واستراحة فيثقل نومه، فإذا نام على الشق الأيمن فإنه يقلق ولا يستغرق في النوم لقلق القلب، وطلبه مستقره وميله إليه.

قالوا: وكثرة النوم على الجانب الأيسر ـ وإن كان أهنأ ـ مضر بالقلب بسبب ميل الأعضاء إليه، فتنصب المواد فيه. وأما قول القاضي عياض في الشفاء: وكان نومه على جانبه الأيمن استظهاراً على قلة النوم. . الخ، ففيه شيء، لأنه ﷺ لا ينام قلبه، فسواء كان نومه على الجانب الأيمن أو الأيسر فهذا الحكم ثابت له، وما علله به إنما تستقيم في حق من ينام قلبه، وحينئذٍ فالأحسن تعليله بحب التيامن، أو بقصده التعليم، كما مر. وأردأ النوم، النوم على الظهر، ولا يضر الاستلقاء عليه للراحة من غير نوم، وأردأ منه أن ينام منبطحاً على وجهه، وفي سنن ابن ماجه أنه ﷺ مر برجل في المسجد منبطح على وجهه فضربه برجله وقال: «قم، أو اقعد، فإنها نومة جهنمية»[2].

وكان ﷺ ينام على النطع تارة، وعلى الفراش تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى الأرض تارة. وكان فراشه أدماً حشوه ليف. وكان له مسح ينام عليه. وكان ﷺ إذا أخذ مضجعه وضع كفه تحت خده الأيمن وقال: «رب قني عذابك يوم تبعث عبادك»[3] وفي رواية: «يوم تجمع عبادك».

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٨٦

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب باب (٢٧) رقم الحديث (٣٧٢٥) وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ٢٧٩ وفي كنز العمال (٤١٣٧٩).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب باب (٩٨) رقم الحديث (٥٠٤٥) وفي صحيح مسلم كتاب (صلاة المسافرين) رقم الحديث (٦٢) وفي سنن الترمذي كتاب الدعوات باب (١٨) رقم الحديث (٣٣٩٨ و ٣٣٩٩) وفي مسند أحمد بن حنبل ٤/ ٢٩٠ و ٢٩٨ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ١٨٢ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ١٢٣ وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٢/ ٣٤٤ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ١/ ٣٢١ وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/ ٢٨٨.

وقال أبو قتادة: كان ﷺ إذا عرّس بليل اضطجع على شقه الأيمن، وإذا عرس قبيل الصبح نصب ذراعه ووضع رأسه على كفه[1]. وقال ابن عباس: كان ﷺ إذا نام نفخ. وعن حذيفة كان ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «باسمك اللهم أموت وأحيا»[2]. وقالت عائشة: كان يجمع كفيه فينفث فيهما ويقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ [الإخلاص: ١] و ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ [الفلق: ١] و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ [الناس: ١] ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده. يصنع ذلك ثلاث مرات. وقال أنس: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، وكم ممن لا كافي له ولا مؤوي». روى ذلك الترمذي.

وكان ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه، رواه البخاري من حديث عائشة، قاله لها عليه الصلاة والسلام لما قالت له: أتنام قبل أن توتر. وإنما كان ﷺ لا ينام قلبه لأن القلب إذا قويت فيه الحياة لا ينام إذا نام البدن، وكمال هذه الحالة لنبينا ﷺ، ولمن أحيا الله قلبه بمحبته واتباع رسوله من ذلك جزء، بحسب نصيبه منها، فمستيقظ القلب وغافله، كمستيقظ البدن ونائمه، وإلى هذا الذي ذكرته أشار صاحب المعارف العلية والحقائق السنية سيدي علي ابن سيدي محمد وفا:

عيني تنام لكن قلبي والله ما ينام
وكيف ينام عاشق مسبي في الحب مستهام
ناظر إلى وجه الحبيب شاخص على الدوام
أتاه في المعنى مرسوم أن يمحي الرسوم
فقال بالحي القيوم يا سعد من يقوم

وقد جمع العلماء بين هذا الحديث وبين حديث نومه ﷺ في الوادي عن صلاة الصبح حتى طلعت الشمس وحميت حتى أيقظه عمر رضي الله عنه بالتكبير[3].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٥/٢٩٨ و ٣٠٩ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٥/٢٥٦ وفي الشمائل للترمذي (١٣٩) وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٤/٣٣١. وفي البداية والنهاية لابن كثير ٦/١٠٢ وفي صحيح ابن خزيمة (٢٥٥٨) وفي كنز العمال (١٨١٥١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات باب (٨) رقم الحديث (٦٣١٤ ـ ٦٣٢٤ ـ ٦٣٢٥ و ٧٣٩٥) وفي مسند أحمد بن حنبل ٥/٣٨٥ وفي الأدب المفرد للبخاري رقم الحديث (١٢١٠) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٣٨٣) وفي تاريخ بغداد ١٢/٢٥٤ و ٤٤٢.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التيمم باب (٦) رقم الحديث (٣٤٤ ـ ٣٤٨ ـ ٣٥٧١) وفي صحيح مسلم كتاب المساجد باب (٥٥) رقم الحديث (٣١٢) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/٤٣٤ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/٢١٨ و ٤٠٤ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٨/١٣٢ وفي صحيح ابن خزيمة (٩٨٧) وفي دلائل النبوة لأبي نعيم (١٤٦) وفي كنز العمال (٢٢٧١٥).

فقال النووي: له جوابان، أحدهما: أن القلب إنما يدرك الحسيات المتعلقة به كالحدث والألم ونحوهما، ولا يدرك ما يتعلق بالعين لأنها نائمة والقلب يقظان، والثاني: أنه كان له حالان، حال كان قلبه لا ينام وهو الأغلب، وحال ينام فيه قلبه وهو نادر، فصادف هذا، أي قصة النوم عن الصلاة. قال: والصحيح المعتمد هو الأول والثاني ضعيف.

قال في فتح الباري: وهو كما قال، ولا يقال: القلب ـ وإن كان لا يدرك ما يتعلق بالعين من رؤية الفجر مثلاً ـ لكنه يدرك إذا كان يقظاناً مرور الوقت الطويل، فإن من ابتداء طلوع الفجر إلى أن حميت الشمس مدة طويلة، لا تخفى على من لم يكن مستغرقاً، لأنا نقول: يحتمل أن يقال: كان قلبه ﷺ إذ ذاك مستغرقاً بالوحي، ولا يلزم من ذلك وصفه بالنوم، كما كان يستغرق ﷺ حالة إلقاء الوحي في اليقظة، وتكون الحكمة في ذلك بيان التشريع بالفعل، لأنه أوقع في النفس، كما في قصة سهوه في الصلاة، وقريب من هذا جواب ابن المنير: أن القلب يحصل له السهو في اليقظة لمصلحة التشريع، ففي النوم بطريق الأولى، أو على السواء.

وقال ابن العربي في القبس: النبي ﷺ كيفما اختلف حاله من نوم أو يقظة في حق وتحقيق، ومع الملائكة في كل طريق، إن نسي فبآكد من المنسي اشتغل، وإن نام فبقلبه ونفسه على الله أقبل، ولهذا قالت الصحابة كان ﷺ إذا نام لا نوقظه حتى يستيقظ، لأنا لا ندري ما هو فيه، فنومه عن الصلاة أو نسيانه لشيء منها لم يكن عن آفة، وإنما كان بالتصرف من حالة إلى حالة مثلها لتكون لنا سنة. انتهى.

وقد أجيب عن أصل الإشكال بأجوبة أخرى ضعيفة منها: أن معنى قوله: «لا ينام قلبي» أي لا يخفى عليه حالة انتقاض وضوئه، ومنها: أن معناه لا يستغرقه النوم حتى يوجد منه الحدث، وهذا قريب من الذي قبله.

قال ابن دقيق العيد، كأن قائل هذا أراد تخصيص يقظة القلب بإدراك حالة الانتقاض، وذلك بعيد، وذلك أن قوله ﷺ: «إن عيني تنامان ولا ينام قلبي»[1] خرج جواباً عن قول عائشة: أتنام قبل أن توتر؟ وهذا كلام لا تعلق له بانتقاض الطهارة الذي

(١) أخرجه البخاري في كتاب التهجد باب (١٦) رقم الحديث (١١٤٧ ـ ٢٠١٣ ـ ٣٥٦٩) وفي صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين رقم الحديث (١٢٥) وفي سنن النسائي ٣/ ٢٣٤ وفي سنن الترمذي كتاب الصلاة باب (٢٠٨) رقم الحديث (٤٣٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ١٠٤ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٨٦ وفي التمهيد لابن عبد البر ٥/ ٢٠٨ و ٦/ ٣٩٢ وفي الشمائل للترمذي (١٤٤) وفي صحيح ابن خزيمة (٤٩) وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٣٧١ وفي طبقات ابن سعد ١/ ١٣٦.

تكلموا فيه. وإنما هو جواب يتعلق بأمر الوتر، فتحمل يقظته على تعلق القلب باليقظة للوتر، وفرق بين من شرع في النوم مطمئن القلب به، وبين من شرع فيه متعلقاً باليقظة.

قال: وعلى هذا فلا تعارض ولا إشكال في حديث النوم حتى طلعت الشمس، لأنه يحتمل أنه اطمأن في نومه لما أوجبه تعب السير معتمداً على من وكله بكلاءة الفجر، انتهى.

ومحصله تخصيص اليقظة المفهومة من قوله «ولا ينام قلبي» بإدراكه وقت الوتر إدراكاً معنوياً لتعلقه به، وأن نومه في حديث الباب كان نوماً مستغرقاً، ويؤيده قول بلال: أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك، كما في حديث أبي هريرة عند مسلم، ولم ينكر عليه، ومعلوم أن نوم بلال كان مستغرقاً، وقد اعترض عليه: بأن ما قاله يقتضي اعتبار خصوص السبب، وأجاب، بأنه يعتبر إذا قامت عليه قرينة، وأرشد إليها السياق، وهو هنا كذلك.

ومن الأجوبة الضعيفة أيضاً: قول من قال: كان قلبه يقظاناً وعلم بخروج الوقت، لكن ترك إعلامهم بذلك لمصلحة التشريع، والله أعلم انتهى.

المقصد الرابع

وفيه فصلان

- في معجزاته الدالة على ثبوت نبوته وصدق رسالته
- وما خص به من خصائص آياته وبدائع كراماته

في معجزاته(1)

تعريف المعجزة بالدليل

اعلم أيها المحب لهذا النبي الكريم، والرسول العظيم ـ سلك الله بي وبك مناهج سنته، وأماتنا على محبته، بمنه ورحمته ـ أن المعجزة هي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي الدال على صدق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وسميت معجزة لعجز البشر عن الإتيان بمثلها، فعلم أن لها شروطاً:

● أحدها: أن تكون خارقة للعادة، كانشقاق القمر، وانفجار الماء من بين الأصابع، وقلب العصا حية، وإخراج ناقة من صخرة، وإعدام جبل. فخرج غير الخارق للعادة، كطلوع الشمس كل يوم.

● الثاني: أن تكون مقرونة بالتحدي، وهو طلب المعارضة والمقابلة. قال الجوهري: يقال: تحديت فلاناً، إذا باريته في فعل ونازعته للغلبة. وفي القاموس: نحوه. وفي الأساس: حدا، يحدو، وهو حادي الإبل، واحتدى بها حداء إذا غنى، ومن المجاز: تحدى أقرانه إذا باراهم ونازعهم للغلبة. وأصله: الحداء، يتبارى فيه الحاديان ويتعارضان، فيتحدى كل واحد منهما صاحبه، أي يطلب حداءه. كما يقال: توفاه بمعنى استوفاه، وفي بعض الحواشي الموثوق بها، كانوا عند الحدو يقوم حاد عن يمين القطار وحاد عن يساره، يتحدى كل واحد منهما صاحبه، بمعنى يستحديه، أي يطلب منه

---

(1) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٠ والبداية والنهاية ٦/ ٦٧ النُّبوة اشتقاقها من النبأ أي الخبر. لأن النبوة إخبار عن الله. أو من النَّبْوَةِ وهي الرفعة. فالنبي على الأول فعيل بمعنى فاعل لأنه يخبر عن الله بما يوحىٰ إليه، أو فعيل بمعنى مفعول أي مُخْبَرٌ عن الله أي يخبره الملك عن الله. فالنبوة جائزة عقلاً ليست مستحيلة. بعث الله الأنبياء رحمةً للعباد إذ ليس في العقل ما يُستغنى به عنهم لأن العقل لا يستقل بمعرفة الأشياء المنجية في الآخرة، ففي بعثة الأنبياء مصلحة ضرورية لحاجتهم لذلك، فالله متفضل بها على عباده فهي سفارة بين الحق تعالى وبين الخلق ثم السبيل إلى معرفة النبي هي المعجزة.

حداءه، ثم اتسع فيه حتى استعمل في كل مباراة. انتهى من حاشية الطيبي على الكشاف. وقال المحققون: التحدي، الدعوى للرسالة. انتهى.

● والشرط الثالث من شروط المعجزة: أن لا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدي على وجه المعارضة. وعبر عنه بعضهم بقوله: دعوى الرسالة مع أمن المعارضة وهو أحسن من التعبير: بعدم المعارضة، لأنه لا يلزم من عدم المعارضة امتناعها. والشرط إنما هو عدم إمكانها. وقد خرج بقيد «التحدي» الخارق من غير تحد، وهو الكرامة للولي. وبـ «المقارنة» الخارق المتقدم على التحدي، كإظلال الغمام، وشق الصدر، الواقعين لنبينا ﷺ قبل دعوى الرسالة، وكلام عيسى في المهد، وما شابه ذلك مما وقع من الخوارق قبل دعوى الرسالة، فإنها ليست معجزات إنما هي كرامات، ظهورها على الأولياء جائز، والأنبياء قبل نبوتهم لا يقصرون عن درجة الأولياء فيجوز ظهورها عليهم أيضاً، وحينئذٍ يسمى «إرهاصاً» أي تأسياً للنبوة كما صرح به العلامة السيد الجرجاني في شرح المواقف، وغيره، وهو مذهب جمهور أئمة الأصول وغيرهم.

وخرج أيضاً بقيد «المقارنة» المتأخر عن التحدي، بما يخرجه عن المقارنة العرفية، نحو ما روي بعد وفاته ﷺ من نطق بعض الموتى بالشهادتين وشبهه، مما تواترت به الأخبار. وخرج أيضاً بـ «أمن المعارضة» السحر المقرون بالتحدي، فإنه يمكن معارضته بالإتيان بمثله من المرسل إليهم. واختلف: هل السحر قلب الأعيان وإحالة الطبائع أم لا؟ فقال بالأول قائلون، حتى جوزوا للساحر أن يقلب الإنسان حماراً. وذهب آخرون: إلى أن أحداً لا يقدر على قلب عين ولا إحالة طبيعة إلا الله تعالى لأنبيائه، وأن الساحر والصالح لا يقلبان عيناً. قالوا: ولو جوزنا للساحر ما جاز على النبي فأي فرق عندكم بينهما؟ فإن لجأتم إلى ما ذكره القاضي أبو بكر الباقلاني من الفرق بالتحدي فقط قيل لكم هذا باطل من وجوه.

أحدها: أن اشتراط التحدي قول لا دليل عليه، لا من كتاب ولا من سنة، ولا من قول صاحب ولا إجماع، وما تعرى من البرهان فهو باطل.

الثاني: أن أكثر آياته ﷺ وأعمها وأبلغها كانت بلا تحد، كنطق الحصى، ونبع الماء، ونطق الجذع، وإطعامه المئين من صاع، وتفله في العين، وتكليم الذراع، وشكوى البعير، وكذا سائر معجزاته العظام، ولعله لم يتحد بغير القرآن، وتمني الموت. قالوا: فأف لقول لا يبقي من الآيات ما يسمى معجزة إلا هذين الشيئين، ويلقي معجزات كالبحر المتقاذف بالأمواج، ومن قال إن هذه ليست بمعجزات ولا آيات فهو إلى الكفر أقرب منه إلى البدعة.

قالوا: وقد كان ﷺ يقول عند ورود آية من هذه الآيات: «أشهد أني رسول الله»[1]، كما قال ذلك عند تحققهم مصداق قوله في الإخبار عن الذي أنكى في المشركين قتلاً في المعركة: إنه من أهل النار، فقتل نفسه بمحضر ذلك الذي اتبعه من المسلمين. قالوا:

والوجه الثالث: وهو الدافع لهذا القول، قوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ [الانعام: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ [الإسراء: ٥٩] فسمى الله تلك المعجزات المطلوبات من الأنبياء آيات، ولم يشترط تحدياً من غيره. فصح أن اشتراط التحدي باطل محض، انتهى ملخصاً من تفسير الشيخ أبي أمامة بن النقاش. وأجيب: بأنه ليس الشرط الاقتران بالتحدي بمعنى طلب الإتيان بالمثل الذي هو في المعنى الأصلي للتحدي، بل يكفي للتحدي دعوى الرسالة والله أعلم.

● الرابع من شروط المعجزة: أن تقع على وفق دعوى المتحدي بها، فلو قال مدعي الرسالة: آية نبوتي أن تنطق يدي، أو هذه الدابة، فنطقت يده أو الدابة بكذبه فقالت: كذب وليس هو نبي، فإن الكلام الذي خلقه الله تعالى دال على كذب ذلك المدعي، لأن ما فعله الله تعالى لم يقع على وفق دعواه. كما يروى أن مسيلمة الكذاب ـ لعنه الله ـ تفل في بئر ليكثر ماؤها فغارت وذهب ما فيها من الماء. فمتى اختل شرط من هذه لم تكن معجزة. ولا يقال: قضية ما قلتم: إن ما توفرت فيه الشروط الأربعة من المعجزات لا يظهر إلا على أيدي الصادقين، وليس كذلك، لأن المسيح الدجال يظهر على يديه من الآيات العظام ما هو مشهور، كما وردت به الأخبار الصحيحة، لأن ما ذكر فيمن يدعي الرسالة وهذا فيمن يدعي الربوبية.

وقد قام الدليل العقلي على أن بعثة بعض الخلق غير مستحيلة، فلم يبعد أن يقيم الله الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملة، ودلت القواطع على كذب المسيح الدجال فيما يدعيه للتغير من حال إلى حال، وغير ذلك من الأوصاف التي تليق

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٤١) رقم الحديث (٥٤٤٣) وفي صحيح مسلم في كتاب الايمان رقم الحديث (١٧٨) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/٢٢٩. وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/١٤٢. وفي الدر المنثور للسيوطي ١/ ٢٧٣. وفي دلائل النبوة لابي نعيم (١٦٥).

بالمحدثات ويتعالى عنها رب البريات ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١][(١)].

فإن قلت أي الاسمين أحق وأولى بما أتت به الأنبياء، هل لفظ «المعجزة» أو لفظ «الآية» أو «الدليل»؟.

فالجواب: إن كبار الأئمة يسمون معجزات الأنبياء: دلائل النبوة، وآيات النبوة، ولم يرد أيضاً في القرآن لفظ «المعجزة» بل ولا في السنة أيضاً، وإنما فيهما لفظ «الآية» و «البينة» و «البرهان». كما في قصة موسى ﴿فذانك برهانان من ربك﴾ [القصص: ٣٢]، في العصا واليد، وفي حق نبينا ﷺ ﴿قد جاءكم برهان من ربكم﴾ [النساء: ١٧٤]. وأما لفظ الآيات فكثير. بل هو أكثر من أن نسرده هنا، كقوله تعالى: ﴿وإذا جاءتهم آية﴾ [الانعام: ١٢٤] و ﴿إن في ذلك لآيات﴾ [الرعد: ٣]. وأما لفظ المعجز إذ أطلق فإنه لا يدل على كون ذلك آية إلا إذا فسر المراد به، وذكرت شرائطه، وقد كان كثير من أهل الكلام لا يسمى معجزاً إلا ما كان للأنبياء فقط، ومن أثبت للأولياء خوارق عادات سماها: كرامات، والسلف كانوا يسمون هذا وهذا معجزاً كالإمام أحمد وغيره، بخلاف ما كان آية وبرهاناً على نبوة النبي فإن هذا يجب اختصاصه به. وقد يسمون الكرامات آيات لكونها تدل على نبوة من اتبعه ذلك الولي، فإن الدليل مستلزم للمدلول، يمتنع ثبوته بدون ثبوت المدلول، فلذلك كان آية وبرهاناً، انتهى.

وإذا علمت هذا، فاعلم أن دلائل نبوة نبينا ﷺ كثيرة، والأخبار بظهور معجزاته شهيرة. فمن دلائل نبوته: ما وجد في التوراة والإنجيل وسائر كتب الله المنزلة من ذكره ونعته، وخروجه بأرض العرب، وما خرج بين يدي أيام مولده ومبعثه من الأمور العجيبة الغريبة القادحة في سلطان الكفر، الموهنة لكلمتهم المؤيدة لشأن العرب المنوهة لذكرهم، كقصة الفيل، وما أحل الله تعالى بأصحابه من العقوبات والنكال، وخمود نار فارس وسقوط شرفات إيوان كسرى، وغيض ماء بحيرة ساوة، ورؤيا المويذان[(٢)]، وما

---

(١) قال الله تعالى ﴿ولم يكن له كفوًا أحد﴾ [الاخلاص: ٤] وقوله ﴿هل تعلم له سميا﴾ أي مثلاً [مريم: ٦٥] ونقل البيهقي في الأسماء والصفات عن الحافظ المحدث الفقيه أبي سليمان الخطابي أنه قال: «إن الذي يجب علينا وعلى كل مسلم أن يعلمه أن ربنا ليس بذي صورة ولا هيئة فإن الصورة تقتضي الكيفية وهي عن الله وعن صفاته منفية» وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي: «من وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر».

(٢) المؤيذان: اسم لحاكم المجوس رأى ليلة مولده ﷺ إبلاً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها. والقصة مذكورة في بعض كتب السيرة والتاريخ.

سمعُ من الهواتف الصارخة بنعوته وأوصافه، وانتكاس الأصنام المعبودة وخرورها لوجهها من غير دافع لها من أمكنتها، إلى سائر ما روي وما نقل في الأخبار المشهورة من ظهور العجائب في ولادته وأيام حضانته وبعدها إلى أن بعثه الله نبياً.

ولم يكن له ﷺ ما يستميل به القلوب من مال فيطمع فيه، ولا قوة فيقهر بها الرجال، ولا أعوان على الرأي الذي أظهره، والدين الذي دعا إليه، وكانوا يجتمعون على عبادة الأصنام، وتعظيم الأزلام، مقيمين على عادة الجاهلية في العصبة والحمية، والتعادي والتباغي وسفك الدماء، وشن الغارة ولا تجمعهم ألفة دين، ولا يمنعهم عن سوء أفعالهم نظر في عاقبة، ولا خوف عقوبة ولائمة، فألف ﷺ بين قلوبهم وجمع كلمتهم، حتى اتفقت الآراء وتناصرت القلوب، وترادفت الأيدي، فصاروا إلباً واحداً في نصرته، وعنقاً واحداً إلى طلعته، وهجروا بلادهم وأوطانهم، وجفوا قومهم وعشائرهم في محبته، وبذلوا مهجهم وأرواحهم في نصرته، ونصبوا وجوههم لوقع السيوف في إعزاز كلمته، بلا دنيا بسطها لهم، ولا أموال أفاضها عليهم، ولا عوض في العاجل أطمعهم في نيله يرجونه، أو ملك أو شرف في الدنيا يحوزونه، بل كان من شأنه ﷺ أن يجعل الغني فقيراً، والشريف أسوة الوضيع، فهل يلتئم مثل هذه الأمور، أو يتفق مجموعها لأحد هذا سبيله، من قبيل الاختيار العقلي والتدبير الفكري، لا والذي بعثه بالحق، وسخر له هذه الأمور، ما يرتاب عاقل في شيء من ذلك، وإنما هو أمر إلهي، وشيء غالب سماوي، ناقض للعادات، يعجز عن بلوغه قوى البشر، ولا يقدر عليه إلا من له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

ومن دلائل نبوته ﷺ أنه كان أمياً، لا يخط كتاباً بيده ولا يقرؤه، ولد في قوم أميين، ونشأ بين أظهرهم في بلد ليس بها عالم يعرف أخبار الماضين، ولم يخرج في سفر ضارباً إلى عالم فيعكف عليه، فجاءهم بأخبار التوراة والإنجيل والأمم الماضية، وقد كان ذهبت معالم تلك الكتب، ودرست وحرفت عن مواضعها، ولم يبق من المتمسكين بها وأهل المعرفة بصحيحها وسقيمها إلا القليل، ثم حاجَّ كل فريق من أهل الملل المخالفة له بما لو احتشد له حذاق المتكلمين وجهابذة النقاد المتفننين لم يتهيأ لهم نقض ذلك. وهذا أدلُّ شيء على أنه أمر جاءه من عند الله تعالى.

ومن ذلك ، القرآن العظيم، فقد تحدى بما فيه من الإعجاز، ودعاهم إلى معارضته والإتيان بسورة من مثله، فنكلوا عنه وعجزوا عن الإتيان بشيء منه. قال بعض العلماء: إن الذي أورده ﷺ على العرب من الكلام أعجزهم عن الإتيان بمثله أعجب في الآية، وأوضح في الدلالة من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، لأنه أتى أهل البلاغة

وأرباب الفصاحة ورؤساء البيان والمتقدمين في اللسن بكلام مفهوم المعنى عندهم، فكان عجزهم عنه أعجب من عجز من شاهد المسيح عند إحياء الموتى، لأنهم لم يكونوا يطمعون فيه، ولا إبراء الأكمه والأبرص ولا يتعاطون علمه، وقريش كانت تتعاطى الكلام الفصيح والبلاغة والخطابة، فدل على أن العجز عنه إنما كان ليصير علماً على رسالته، وصحة نبوته، وهذه حجة قاطعة وبرهان واضح.

وقال أبو سليمان الخطابي: وقد كان ﷺ من عقلاء الرجال عند أهل زمانه، بل هو أعقل خلق الله على الإطلاق. وقد قطع القول فيما أخبر به عن ربه تعالى بأنهم لا يأتون بمثل ما تحداهم به فقال: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾ [البقرة: ٢٤] فلولا علمه بأن ذلك من عند الله علام الغيوب، وأنه لا يقع فيما أخبر عنه خلف، وإلا لم يأذن له عقله أن يقطع القول في شيء، بأنه لا يكون وهو يكون. انتهى.

وهذا أحسن ما يقال في هذا المجال وأبدعه وأكمله وأبينه، فإنه نادى عليهم بالعجز قبل المعارضة، وبالتقصير عن بلوغ الغرض في المناقضة، صارخاً بهم على رؤوس الأشهاد، فلم يستطع أحد منهم الإلمام به مع توفر الدواعي وتظاهر الاجتهاد، فقال ـ وكان بما ألقى إليهم من الأخبار عليماً خبيراً ـ: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ [الإسراء: ٨٨] فرضيت هممهم السرية وأنفسهم الشريفة الأبية بسفك الدماء وهتك الحرم.

وقد ورد من الأخبار في قراءة النبي ﷺ بعض ما نزل عليه على المشركين الذين كانوا من أهل الفصاحة والبلاغة، واقرارهم بإعجازه جمل كثيرة: فمنها ما روي عن محمد بن كعب قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة قال ذات يوم ـ وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد ـ يا معشر قريش، ألا أقوم إلى هذا فأعرض عليه أموراً لعله يقبل منا بعضها ويكف عنا. قالوا: بلى يا أبا الوليد، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فذكر الحديث ـ فيما قاله عتبة وفيما عرض عليه من المال وغير ذلك ـ فلما فرغ قال رسول الله ﷺ: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاسمع مني»، قال: أفعل، فقال رسول الله ﷺ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، حم تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ حتى بلغ: ﴿قرآناً عربياً﴾ [فصلت: ١ ـ ٣] فمضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت لها، وألقى بيديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة [فصلت: ٣٧] فسجد فيها ثم قال: «سمعت يا أبا الوليد؟» قال: سمعت قال، «فأنت وذاك»، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا

أبا الوليد؟ قال: والله إني قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ. قال: فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة. قرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، حم تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ حتى بلغ ﴿فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾[فصلت: ١-١٣] فأمسكت فمه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب(١). رواه البيهقي وغيره.

وفي حديث إسلام أبي ذر، ووصف أخاه أنيساً فقال: والله ما سمعت بأشعر من أخي أنيس، وقد ناقض اثني عشر شاعراً في الجاهلية أنا أحدهم، وأنه انطلق وجاء إلى أبي ذر بخبر النبي ﷺ، قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون شاعر، كاهن، ساحر، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتئم، ولا يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، وإنه لصادق وإنهم لكاذبون(٢). رواه مسلم والبيهقي.

وعن عكرمة في قصة الوليد بن المغيرة، وكان زعيم قريش في الفصاحة: أنه قال للنبي ﷺ: اقرأ علي، فقرأ عليه: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى﴾ [النحل: ٩٠] إلى آخر الآية. قال: أعد، فأعاد ﷺ، فقال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما يقول هذا بشر، ثم قال لقومه: والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو ولا يعلى.

وفي خبره الآخر: حين جمع قريشاً عند حضورهم الموسم وقال: إن وفود العرب تردنا، فأجمعوا فيه رأياً، لا يكذب بعضكم بعضاً، فقالوا: نقول هو كاهن، قال: والله ما هو بزمزمته ولا سجعه، قالوا: مجنون. قال: ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا بوسوسته، قالوا: فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعر. قد عرفنا الشعر كله. رجزه وهزجه وقريضه

---

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥. وفي البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ٦١. وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٣٥٨. وفي المطالب العالية لابن حجر (٤٢٨٥). وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٩٧. وفي دلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ٧٦. وفي كنز العمال (٣٥٤٢٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة رقم الحديث (١٣٢) وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ١٦٦. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٠٩ ـ ٢١٠ ـ ٢١٢ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/ ١٧٤.

ومبسوطه ومقبوضه، ما هو بشاعر. قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر، ولا نفثه ولا عقده، قالوا: فما نقول؟ قال: ما أنتم قائلون من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه باطل، رواه ابن إسحاق والبيهقي.

وأخرج أبو نعيم من طريق ابن إسحاق، حدثني إسحاق بن يسار عن رجل من بني سلمة قال: لما أسلم فتيان بني سلمة قال عمرو بن الجموح لابنه: أخبرني ما سمعت من كلام هذا الرجل، فقرأ عليه ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الفاتحة: ١] إلى قوله ﴿الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة: ٦] فقال: ما أحسن هذا وأجمله، أو كل كلامه مثل هذا قال: يا أبت وأحسن من هذا.

وقال بعض العلماء: إن هذا القرآن لو وجد مكتوباً في مصحف في فلاة من الأرض، ولم يعلم من وضعه هناك لشهدت العقول السليمة أنه منزل من عند الله، وأن البشر لا قدرة لهم على تأليف مثل ذلك، فكيف إذا جاء على يد أصدق الخلق وأبرهم وأتقاهم وقال: إنه كلام الله، وتحدى الخلق كلهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فكيف يبقى مع هذا شك. انتهى.

واعلم أن وجوه إعجاز القرآن لا تنحصر، لكن قال بعضهم: قد اختلف العلماء في إعجازه على ستة أوجه:

● أحدها: أن وجه إعجازه هو الإيجاز والبلاغة، مثل قوله: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ [البقرة: ١٧٩] فجمع في كلمتين عدد حروفهما عشرة أحرف معاني كلام كثير. وحكى أبو عبيد: أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ [الحجر: ٩٤] فسجد وقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام. وسمع آخر رجلاً يقرأ: ﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً﴾ [يوسف: ٨٠] قال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام. وحكى الأصمعي: أنه رأى جارية خماسية أو سداسية وهي تقول: استغفر الله من ذنوبي كلها، فقلت لها: مم تستغفرين ولم يجر عليك قلم؟ فقالت:

استغفر الله لذنبي كله ... قتلت إنساناً بغير حله
مثل غزال ناعم في دله ... انتصف الليل ولم أصله

فقلت لها: قاتلك الله ما أفصحك، فقالت: أو تعد هذا فصاحة بعد قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ [القصص: ٧] فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

وحكي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يوماً نائماً في المسجد، فإذا هو برجل قائم على رأسه، يتشهد شهادة الحق، فأعلمه أنه من بطارقة الروم، ممن يحسن كلام العرب وغيرها، وأنه سمع رجلاً من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها فإذا قد جمع الله فيها ما أنزل على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة. وهي قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه﴾ [النور: ٥٢] الآية.

وقد رام قوم من أهل الزيغ والإلحاد، أوتوا طرفاً من البلاغة، وحظاً من البيان، أن يضعوا شيئاً يلبسون به، فلما وجدوه مكان النجم من يد المتناول، مالوا إلى السور القصار، كسورة الكوثر والنصر وأشباههما، لوقوع الشبهة على الجهال فيما قل عدد حروفه، لأن العجز إنما يقع في التأليف والاتصال.

وممن رام ذلك من العرب في التشبث بالسور القصار، مسيلمة الكذاب فقال: يا ضفدع نقي كم تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الماء تكدرين، ولا الشراب تمنعين. فلما سمع أبو بكر رضي الله عن هذا قال: إنه كلام لم يخرج من إل. قال ابن الأثير: أي من ربوبية، و «الإل» بالكسر هو الله تعالى. وقيل: الإل الأصل الجيد، أي لم يجيء من الأصل الذي جاء منه القرآن.

ولما سمع مسيلمة الكذاب ـ لعنه الله ـ «والنازعات» قال: والزارعات زرعاً والحاصدات حصداً والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والحافرات حفراً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر. إلى غير ذلك من الهذيان، مما ذكرت في الوفود من المقصد الثاني بعضه والله أعلم.

وقال آخر: ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى أخرج من بطنها نسمة تسعى، من بين شراسيف[1] وأحشى وقال آخر: الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب وثيل، ومشفر طويل، وإن ذلك من خلق ربنا لقليل.

ففي هذا الكلام مع قلة حروفه من السخافة ما لا خفاء به على من لا يعلم، فضلاً عمن يعلم.

● والثاني: أن إعجازه هو الوصف الذي صار به خارجاً عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب والشعر والرجز والسجع، فلا يدخل في شيء منها ولا يختلط بها مع كون ألفاظه وحروفه من جنس كلامهم، ومستعملة في نظمهم ونثرهم، ولذلك تحيرت عقولهم، وتدلهت[2] أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في حسن كلامهم، فلا ريب

(١) جمع شرسوف: غضروف معلق بكل ضلع.

(٢) تدهلت: أي دهشت وتحيرت.

أنه في فصاحته قد قرع القلوب ببديع نظمه، وفي بلاغته قد أصاب المعاني بصائب سهمه، فإنه حجة الله الواضحة، ومحجته اللائحة، ودليله القاهر، وبرهانه الباهر، ما رام معارضته شقي إلا تهافت تهافت الفراش في الشهاب، وذل ذل النقد حول الليوث الغضاب.

وقد حكي عن غير واحد ممن عارضه أنه اعترته روعة وهيبة كفَّته عن ذلك، كما حكي عن يحيى بن حكيم الغزال[1] ـ بتخفيف الزاي وقد تشدد ـ وكان بليغ الأندلس في زمانه أنه قد رام شيئاً من هذا، فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها، وينسج بزعمه عل منوالها، فاعترته خشية ورقة، حملته على التوبة والإنابة.

وحكي أيضاً أن ابن المقفع[2] ـ وكان أفصح أهل وقته ـ طلب ذلك ورامه، ونظم كلاماً وجعله مفصلاً، وسماه سوراً، فاجتاز يوماً بصبي يقرأ في مكتب قوله تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر..﴾ [هود: ٤٤] الآية، فرجع ومحى ما عمل وقال: أشهد أن هذا لا يعارض أبداً، وما هو من كلام البشر.

ولله در العارف سيدي محمد وفا حيث قال، يعني النبي ﷺ والقرآن المعظم:

لــه آيــة الفــرقــان فــي عيــن جمعــه	جــوامــع آيــات بهــا اتضــح الــرشــد
حــديــث نــزيــه عــن حــدوث منــزهٌ	قــديــم صفــات الــذات ليــس لــه ضــد
بــلاغ بليــغ للبــلاغــة معجــز	لــه معجــزات لا يعــد لهــا عــد
تحلــت بــروح الــوحــي حلــة نسجــه	عقــود اعتقــاد لا يحــل لهــا عقــد
وغــايــة أربــاب البــلاغــة عجــزهــم	لــديــه وإن كــانــوا هــم الألســن اللــد
فــأفــاكهــم بــالإفــك أعيــاه غيــه	تصــدى ولــلأسمــاع عــن غيــه صــد
قلــى الله أقــوالاً يهــاجــر هجــرهــا	هــوانــاً بهــا الــورهــاء[3] والبهــم البلــد
تــلاهــا فتــلَّ الفحــش فــي القبــح وجهها	وعــن ريبهــا الألبــاب نــزهها الــزهــد
لقــد فــرق الفــرقــان شمــل فــريقــه	بجمــع رســول الله واستعلــن الــرشــد
أتــى بــالهــدى صلــى عليــه إلهــه	ولــم يلــهُ بــالأهــواء إذ جــاءه الجــد

---

(١) هو يحيى بن الحكم البكري الجياني، المعروف بالغزال (١٥٦ ـ ٢٥٠ هـ) شاعر أندلسي. الأعلام ٨/ ١٤٣.

(٢) هو عبد الله بن المقفع (١٠٦ ـ ١٤٢ هـ). كاتب أصله من الفرس تولى بالبصرة. الأعلام ٤/ ١٤٠، معجم المطبوعات ٢٤٩، ولسان الميزان ٣/ ٣٦٦.

(٣) الورهاء: الحمقاء، والبهم: أولاد الضأن والبقر، البلد: جمع بليد.

● والثالث: أن وجه إعجازه هو أن قارئه لا يمله، وسامعه لا يمجه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة وطلاوة، لا يزال غضاً طرياً، وغيره من الكلام ولو بلغ في الحسن والبلاغة ما بلغ يمل مع الترديد، ويعادى إذا أعيد، وكتابنا يستلذ به في الخلوات، ويؤنس بتلاوته في الأزمات، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك، حتى أحدث أصحابها لها لحوناً وطرقاً، يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها، ولهذا وصف ﷺ القرآن بأنه لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه، هو الفصل ليس بالهزل، لا تشبع منه العلماء، ولا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، هو الذي لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به[1] أشار إليه القاضي عياض.

● والرابع: أن وجه إعجازه هو ما فيه من الإخبار بما كان، مما علموه وما لم يعلموه، فإذا سألوا عنه عرفوا صحته وتحققوا صدقه كالذي حكاه من قصة أهل الكهف وشأن موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام، وحال ذي القرنين، وقصص الأنبياء مع أممها، والقرون الماضية في دهرها.

● والخامس: أن وجه إعجازه هو ما فيه من علم الغيب، والإخبار بما يكون، فيوجد على صدقه وصحته، مثل قوله تعالى لليهود: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ ثم قال: ﴿ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم﴾ [البقرة: ٩٤ ـ ٩٥] فما تمناه أحد منهم.

ومثل قوله تعالى لقريش: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾ [البقرة: ٢٤] فقطع بأنهم لا يفعلون فلم يفعلوا. وتعقب: بأن الغيوب التي اشتمل عليها القرآن وقع بعضها في زمنه ﷺ، كقوله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ [الفتح: ١] وبعضها بعد مدة كقوله تعالى: ﴿ألم غلبت الروم﴾ [الروم: ١] فلو كان كما قالوا لنازعوا وقع المتوقع، وبأن الإخبار عن الغيب جاء في بعض سور القرآن واكتفى منهم بمعارضة سورة غير معينة، فلو كان كذلك لعارضوه بقدر أقصر سورة لا غيب فيها.

● السادس: أن وجه إعجازه هو كونه جامعاً لعلوم كثيرة، لم تتعاط العرب فيها الكلام، ولا يحيط بها من علماء الأمم واحد منهم، ولا يشتمل عليها كتاب، بين الله فيه خبر الأولين والآخرين وحكم المتخلفين وثواب المطيعين وعقاب العاصين.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن باب (١٤) رقم الحديث (٢٩٠٦) والدارمي في سننه كتاب فضائل القرآن ٢/ ٤٣١ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٧٧.

فهذه ستة أوجه، يصح أن يكون كل واحد منها إعجازاً، فإذا جمعها القرآن فليس اختصاص أحدها بأن يكون معجزاً بأولى من غيره، فيكون الإعجاز بجميعها. وقد قال تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله﴾ [الإسراء: ٨٨] فلم يقدر أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن في زمن رسول الله ﷺ ولا بعده على نظمه وتأليفه وعذوبة منطقه وصحة معانيه، وما فيه من الأمثال والأشياء التي دلت على البعث وآياته، والإنباء بما كان وبما يكون، وبما فيه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والامتناع من إراقة الدماء، وصلة الأرحام، إلى غير ذلك، فكيف يقدر على ذلك أحد وقد عجزت عنه العرب الفصحاء والخطباء البلغاء، والشعراء الفهماء، من قريش وغيرها، وهو ﷺ في مدة ما عرفوه قبل نبوته وأداء رسالته أربعين سنة لا يحسن نظم كتاب، ولا عقد حساب، ولا يتعلم سحراً، ولا ينشد شعراً، ولا يحفظ خبراً، ولا يروي أثراً، حتى أكرمه الله بالوحي المنزل، والكتاب المفصل، فدعاهم إليه وحاجهم به، قال الله تعالى: ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾ [يونس: ١٦]، وشهد له في كتابه بذلك فقال تعالى: ﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وأما ما عدا القرآن من معجزاته ﷺ، كنبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام ببركته، وانشقاق القمر، ونطق الجماد، فمنه ما وقع التحدي به، ومنه ما وقع دالاً على صدقه من غير سبق تحد، ومجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يده ﷺ من خوارق العادات شيء كثير - كما يقطع بجود حاتم، وشجاعة علي - وإن كانت أفراد ذلك ظنية وردت موارد الآحاد مع أن كثيراً من المعجزات النبوية قد اشتهر ورواه العدد الكثير، والجم الغفير، وأفاد الكثير منه القطع عند أهل العلم بالآثار والعناية بالسير والأخبار، وإن لم يصل عند غيرهم إلى هذه المرتبة لعدم عنايتهم بذلك.

فلو ادعى مدع أن غالب هذه الوقائع مفيد للقطع النظري لما كان مستبعداً، وذلك أنه لا مرية أن رواة الأخبار في كل طبقة قد حدثوا بهذه الأخبار في الجملة، ولا يحفظ عن أحد من أصحابه مخالفة الراوي فيما حكاه من ذلك. ولا الإنكار عليه فيما هنالك، فيكون الساكت منهم كالناطق، لأن مجموعهم محفوظ عن الإغضاء على الباطل، وعلى تقدير أن يوجد من بعضهم إنكار أو طعن على بعض من روى شيئاً من ذلك فإنما هو من جهة توقف في صدق الراوي أو تهمته بكذب، أو توقف في ضبطه أو نسبته إلى سوء الحفظ، أو جواز الغلط، ولا يوجد أحد منهم طعن في المروي، كما وجد منهم في غير هذا الفن من الأحكام وحروف القرآن ونحو ذلك والله أعلم.

وأنت إذا تأملت معجزاته وباهر آياته وكراماته ﷺ وجدتها شاملة للعلوي والسفلي، والصامت والناطق، والساكن والمتحرك، والمائع والجامد، والسابق واللاحق، والغائب والحاضر، والباطن والظاهر، والعاجل والآجل، إلى غير ذلك، مما لو عد لطال، كالرمي بالشهب الثواقب، ومنع الشياطين من استراق السمع في الغياهب، وتسليم الحجر والشجر عليه، وشهادتها له بالرسالة بين يديه، ومخاطبتها له بالسيادة، وحنين الجذع، ونبع الماء من كفه في الميضأة والتور والمزادة، وانشقاق القمر، ورد العين من العور، ونطق البعير والذئب والجمل، وكالنور المتوارث من آدم إلى جبهة أبيه من الأزل، وما سوى ذلك من المعجزات التي تداولتها الحملة، ونقلتها عن الألسنة الأول النقلة، مما لو أعملنا أنفسنا في حصرها لفني المداد في ذكرها. ولو بالغ الأولون والآخرون في إحصاء مناقبه لعجزوا عن استقصاء ما حباه الكريم به من مواهبه، ولكان الملم بساحل بحرها مقصراً عن حصر بعض فخرها، ولقد صح لبعض محبيه أن ينشدوا فيه:

وعلى تفنن واصفيه لنعته ... يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف[1]

وأنه لخليق بمن ينشد:

فما بلغت كف امرىء متناولاً ... من المجد إلا والذي نال أطول
ولا بلغ المهدون في القول مدحه ... ولو حذقوا إلا الذي فيه أفضل[2]

ولله در إمام العارفين سيدي محمد وفا فلقد كفى وشفى بقوله:

ما شئت قل فيه فأنت مصدق ... فالحب يقضي والمحاسن تشهد

ولقد أبدع الإمام الأديب شرف الدين الأبوصيري حيث قال:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ... وانسب إلى قدره ما شئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم

يعني أن المداح وإن انتهوا إلى أقصى الغايات والنهايات لا يصلون إلى شأوه، إذ لا حدَّ له، ويحكى أنه رؤي الشيخ عمر بن الفارض السعدي في النوم فقيل له: لم لا مدحت النبي ﷺ فقال:

أرى كل مدح في النبي مقصراً ... وإن بالغ المثني عليه وأكثرا

---

(١) البيت منسوب لابن الفارض.

(٢) البيت منسوب للخنساء.

إذا الله أثنى بالذي هو أهله   عليه فما مقدار ما يمدح الورى

. قال الشيخ بدر الدين الزركشي: ولهذا لم يتعاط فحول الشعراء المتقدمين ـ كأبي تمام والبحتري وابن الرومي ـ مدحه ﷺ، وكان مدحه عندهم من أصعب ما يحاولونه، فإن المعاني دون مرتبته، والأوصاف دون وصفه، وكل غلو في حقه تقصير، فيضيق على البليغ بحال النظم، وعند التحقيق إذا اعتبرت جميع الأمداح التي فيها غلو بالنسبة إلى من قرضت له وجدتها صادقة في حق النبي ﷺ، حتى كأن الشعراء على صفاته كانوا يعتمدون وإلى أمداحه كانوا يقصدون، وقد أشار الأبوصيري بقوله: «دع ما ادعته النصارى في نبيهم» إلى ما أطرت النصارى به عيسى ابن مريم من اتخاذه إلهاً. قال النيسابوري: إنهم صحفوا في الإنجيل «عيسى نبي وأنا ولدته» فحرفوا الأول بتقديم الباء الموحدة وخففوا اللام في الثاني، فلعنة الله على الكافرين. فإن قلت: هل ادعى أحد في نبينا ﷺ ما ادعي في عيسى؟ أجيب: بأنهم قد كادوا أن يفعلوا نحو ذلك حين قالوا له ﷺ: أفلا نسجد لك؟ قال: «لو كنت آمراً أحد أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»[1] فنهاهم عما عساه يبلغ بهم من العبادة.

. وقد جاء في صفته في حديث ابن أبي هالة: ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء، أي: مقارب في مدحه غير مفرط فيه. وقال ابن قتيبة معناه؛ إلا أن يكون ممن له عليه منة، فيكافئه الآخر، وغلطه ابن الأنباري: بأنه لا ينفك أحد من إنعام رسول الله ﷺ، لأن الله بعثه رحمة للعالمين، فالثناء عليه فرض عليهم، لا يتم الإسلام إلا به. قال: وإنما المعنى: لا يقبل الثناء إلا من رجل عرف حقيقة إسلامه.

ثم إن حاصل معجزاته وباهر آياته وكراماته ﷺ كما نبه عليه القطب القسطلاني يرجع إلى ثلاثة أقسام:

. ماض: وجد قبل كونه، فقضى بمجده.

ومستقبل: وقع بعد مواراته في لحده.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب النكاح باب (٤٠) رقم الحديث (٢١٤٠) وفي سنن الترمذي كتاب الرضاع باب (١٠) رقم الحديث (١١٥٩) وفي سنن ابن ماجة كتاب النكاح باب (٤) رقم الحديث (١٨٥٢ و ١٨٥٣) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢٩ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٣٨١ و ٦/ ٧٦ وفي المستدرك للحاكم ٢/ ١٨٧ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٥٦ وفي الدر المنثور للسيوطي ٢/ ١٥٤ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٩١ وفي المعجم الكبير للطبراني ٥/ ٢٣٧ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ٣١٠ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٢٢٨ وفي المغني للعراقي ٢/ ٥٩ وفي كنز العمال (٤٤٧٧٣ ـ ٤٤٧٧٦ ـ ٤٤٨٠٠).

وكائن معه من حين حمله ووضعه إلى أن نقله الله إلى محل فضله وموطن جمعه.

فأما القسم الأول الماضي وهو ما كان قبل ظهوره إلى هذا الوجود، فقد ذكرت منه جملة في المقصد الأول، كقصة الفيل وغير ذلك، مما هو تأسيس لنبوته وإرهاص لرسالته، قال الإمام فخر الدين الرازي: ومذهبنا: أنه يجوز تقديم المعجزة تأسيساً وإرهاصاً، قال: ولذلك قالوا: كانت الغمامة تظله، يعني في سفره قبل النبوة، خلافاً للمعتزلة القائلين بأنه لا يجوز أن تكون المعجزة قبل الإرسال. انتهى.

وقد تقدم أول هذا المقصد: أن الذي عليه جمهور أئمة الأصول وغيرهم: أن هذا ونحوه مما هو متقدم على الدعوى لا يسمى معجزة، بل تأسيساً للرسالة وكرامة للرسول ﷺ.

وأما القسم الثاني: وهو ما وقع بعد وفاته ﷺ فكثير جداً، إذ في كل حين يقع لخواص أمته من خوارق العادات بسببه مما يدل على تعظيم قدره الكريم ما لا يحصى كالاستغاثة به وغير ذلك مما يأتي في المقصد الأخير، في أثناء الكلام على زيارة قبره الشريف المنير.

وأما القسم الثالث: وهو ما كان معه من حين ولادته إلى وفاته، فكالنور الذي خرج معه حتى أضاء له قصور الشام وأسواقها، حتى رؤيت أعناق الإبل ببصرى، ومسح الطائر على فؤاد أمه حتى لم تجد ألماً لولادته، والطواف به في الآفاق، إلى غير ذلك. وكانشقاق القمر عند اقتراحه عليه، وانضمام الشجرتين لما دعاهما إليه، وكإطعام الجيش الكثير من النزر اليسير، في عدة من المواضع واستيلاء الفجائع، وغير ذلك مما أمده الله تعالى به من المعجزات، وأكرمه به من خوارق العادات تأييداً لإقامة حجته، وتمهيداً لهداية محجته، وتأييداً لسيادته في كل أمة، وتسديداً لمن ادكر بعد أمة، مما تتبعه يخرج عن مقصود الاختصار، إذ هو باب فسيح المجال منيع المنال، لكني أنبه من ذلك على نبذة يسيرة، وأنوه في أثنائها بجملة خطيرة. فأقول وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

أما معجزة انشقاق القمر[1]، فقد قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ [القمر: ١]. الآية، والمراد وقوع انشقاقه، ويؤيده قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ [القمر: ٢]. فإن ذلك ظاهر في أن المراد بقوله: «انشق» وقوع انشقاقه، لأن الكفار لا يقولون ذلك يوم القيامة، وإذا تبين أن قولهم

---

(١) انظر البداية والنهاية ٦/٧٦.

إنما هو في الدنيا تبين وقوع الانشقاق وأنه المراد بالآية التي زعموا أنها سحر، وسيأتي ذلك صريحاً في حديث ابن مسعود وغيره.

واعلم أن القمر لم ينشق لأحد غير نبينا ﷺ، وهو من أمهات معجزاته ﷺ. وقد أجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه لأجله ﷺ، فإن كفار قريش لما كذبوه ولم يصدقوه طلبوا منه آية تدل على صدقه في دعواه، فأعطاه الله هذه الآية العظيمة، التي لا قدرة لبشر على إيجادها، دلالة على صدقه ﷺ في دعواه الوحدانية لله تعالى، وأنه منفرد بالربوبية، وأن هذه الآلهة التي يعبدونها باطلة لا تنفع ولا تضر، وأن العبادة إنما تكون لله وحده لا شريك له.

قال الخطابي: انشقاق القمر آية عظيمة، لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء، وذلك أنه ظهر في ملكوت السماوات خارجاً عن جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع، فليس فيما يطمع في الوصول إليه بحيلة، فلذلك صار البرهان به أظهر. انتهى.

وقال ابن عبد البر: قد روى هذا الحديث ـ يعني حديث انشقاق القمر ـ جماعة كثيرة من الصحابة، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين، ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا. وتأيد بالآية الكريمة. انتهى.

وقال العلامة ابن السبكي في شرحه لمختصر ابن الحاجب: والصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر، منصوص عليه في القرآن، مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق من حديث شعبة عن سليمان عن إبراهيم عن أبي معمر عن ابن مسعود، ثم قال: وله طرق أخر شتى، بحيث لا يمتري في تواتره. انتهى.

وقد جاءت أحاديث الانشقاق في روايات صحيحة عن جماعة من الصحابة منهم: أنس، وابن مسعود، وابن عباس، وعلي، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عمر، وغيرهم. فأما أنس وابن عباس فلم يحضرا ذلك، لأنه كان بمكة قبل الهجرة بنحو خمس سنين، وكان ابن عباس إذ ذاك لم يولد، وأما أنس فكان ابن أربع سنين أو خمس بالمدينة، وأما غيرهما فيمكن أن يكون شاهد ذلك.

ففي الصحيحين: من حديث أنس رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر شقتين، حتى رأوا حراء بينهما، وقوله: شقتين ـ بكسر الشين المعجمة ـ أي نصفين. ومن حديث ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه فقال رسول الله ﷺ «اشهدوا»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (٢٧) رقم الحديث (٣٦٣٦ ـ ٣٨٦٩ ـ ٣٨٧ ـ ٤٨٦٤ ـ

وفي الترمذي من حديث ابن عمر، في قوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ قال: قد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ، انشق فلقتين، فلقة دون الجبل، وفلقة فوق الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا». وعند الإمام أحمد، من حديث جبير بن مطعم قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس.

وعن عبد الله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقال كفار قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، قال: فقالوا انظروا ما يأتيكم به السفار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. قال: فجاء السفار فأخبروهم بذلك، رواه أبو داود الطيالسي.

ورواه البيهقي بلفظ: انشق القمر بمكة فقالوا: سحركم ابن أبي كبشة، فاسألوا السفار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق وإن لم يكونوا رأوا ما رأيتم فهو سحر، فسألوا السفار وقد قدموا من كل وجه فقالوا: رأيناه.

وعند أبي نعيم في الدلائل من حديث ضعيف عن ابن عباس قال: اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل والعاصي بن وائل، والأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث ونظراؤهم فقالوا للنبي ﷺ: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، فسأل ربه فانشق. وعند البخاري مختصراً من حديث ابن عباس بلفظ: إن القمر انشق على عهد رسول الله ﷺ، وابن عباس وإن كان لم يشاهد القصة كما قدمته، ففي بعض طرقه أنه حمل الحديث عن ابن مسعود. وعند مسلم من حديث شعبة عن قتادة بلفظ فأراهم انشقاق القمر مرتين[1].

وكذا في مصنف عبد الرزاق عن معمر بلفظ مرتين أيضاً. واتفق الشيخان عليه من رواية شعبة عن قتادة بلفظ: فرقتين، كما في حديث جبير عند أحمد. وفي حديث ابن عمر فلقتين ـ باللام ـ كما قدمته. وفي لفظ من حديث جبير: فانشق باثنتين. وفي رواية

= ٤٨٦٥). وفي سنن الترمذي في كتاب الفتن باب (٢٠) رقم الحديث (٢١٨٢). وفي صحيح مسلم في كتاب صفات المنافقين. رقم الحديث (٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٧٧ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٢. وفي الدر المنثور للسيوطي ٦/ ١٣٣ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٦٦. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٨٥٥). وفي دلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ٩٥. وفي تفسير ابن كثير ٧/ ٤٤٩ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٩٤ وفي المسند للحميدي رقم الحديث (٨٥) وفي مشكل الآثار للطحاوي ١/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب (١) رقم الحديث (٤٨٦٧) وفي صحيح مسلم كتاب المنافقين رقم الحديث (٤٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢٠٧ و ٢٢٠.

عن ابن عباس عند أبي نعيم في الدلائل: فصار قمرين. ووقع في نظم السيرة للحافظ أبي الفضل العراقي: وانشق مرتين بالإجماع. قال الحافظ ابن حجر: وأظن قوله: «بالإجماع» يتعلق بـ«انشق» لا بـ«مرتين»، فإني لا أعلم من جزم من علماء الحديث بتعدد الانشقاق في زمنه ﷺ. ولعل قائل «مرتين» أراد: فرقتين. وهذا الذي لا يتجه غيره جمعاً بين الروايات. وقد وقع في رواية البخاري من حديث ابن مسعود: ونحن بمنى، وهذا لا يعارض قول أنس: إن ذلك كان بمكة، لأنه لم يصرح بأنه ﷺ كان ليلتئذٍ بمكة. فالمراد أن الانشقاق كان وهم بمكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة والله أعلم.

وقد أنكر هذه المعجزة جماعة من المبتدعة، كجمهور الفلاسفة، متمسكين بأن الأجرام العلوية لا يتهيأ فيها الانخراق والالتئام، وكذا قالوا في فتح أبواب السماء ليلة الإسراء، إلى غير ذلك. وجواب هؤلاء: إن كانوا كفاراً أن يناظروا أولاً على ثبوت دين الإسلام، فإذا تمت اشتركوا مع غيرهم ممن أنكر ذلك من المسلمين، ومتى سلَّم المسلم بعض ذلك دون بعض لزم التناقض. وأيضاً لا سبيل إلى إنكار ما ثبت في القرآن من الانخراق والالتئام في القيامة، وإذا ثبت هذا استلزم الجواز، ووقوعه معجزة للنبي ﷺ. وقد أجاب القدماء عن ذلك، فقال أبو إسحاق الزجاج في «معاني القرآن»: أنكر بعض المبتدعة الموافقين لمخالفي الملة انشقاق القمر، ولا إنكار للعقل فيه، لأن القمر مخلوق لله يفعل فيه ما يشاء، كما يكوره يوم القيامة ويفنيه. انتهى.

وأما قول بعض الملاحدة: لو وقع هذا النقل جاء متواتراً واشترك أهل الأرض كلهم في معرفته، ولم يختص بها أهل مكة، لأنه أمر صدر عن حس ومشاهدة، فالناس فيه شركاء، والدواعي متوفرة على رواية كل غريب، ونقل ما لم يعهد، ولو كان لذلك أصل لخلد في كتب التسيير والتنجيم، إذ لا يجوز إطباقهم على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه ووضوح أمره.

فأجاب عنه الخطابي وغيره: بأن هذه القصة خرجت عن الأمور التي ذكروها، لأنه شيء طلبه خاص من الناس، فوقع ليلاً، لأن القمر لا سلطان له بالنهار، ومن شأن الليل أن يكون الناس فيه نياماً ومستكنين في الأبنية، والبارز منهم في الصحراء إذا كان يقظاناً يحتمل أن يتفق أنه كان في ذلك الوقت مشغولاً بما يلهيه من سمر وغيره. ومن المستبعد أن يقصدوا إلى مراكز القمر ناظرين إليه ولا يغفلوا عنه، فقد يجوز أنه وقع ولم يشعر به أكثر الناس، وإنما رآه من تصدى لرؤيته ممن اقترح وقوعه، ولعل ذلك إنما كان في قدر اللحظة التي هي مدرك البصر، وقد يكون القمر حينئذٍ في بعض المنازل التي تظهر لبعض الآفاق دون بعض، كما يكون ظاهراً لقوم غائباً عند قوم، وكما يجد الكسوف أهل بلد دون بلد آخر.

وقد أبدى الخطابي حكمة بالغة في كون المعجزات المحمدية لم يبلغ شيء منها مبلغ التواتر الذي لا نزاع فيه كالقرآن بما حاصله: إن معجزة كل نبي كانت إذا وقعت عامة أعقبت هلاك من كذب بها من قومه، والنبي ﷺ بعث رحمة للعالمين، فكانت معجزته التي تحدى بها عقلية، فاختص بها القوم الذين بعث منهم، لما أوتوه من فضل العقول وزيادة الأفهام، ولو كان إدراكها عاماً لعوجل من كذب بها كما عوجل من قبلهم. انتهى. وكذا أجاب بن عبد البر بنحوه.

تنبيه: ما يذكره بعض القصاص: أن القمر دخل في جيب النبي ﷺ وخرج من كمه، فليس له أصل، كما حكاه الشيخ بدر الدين الزركشي عن شيخه العماد بن كثير.

وأما رد الشمس له ﷺ[1]، فروي عن أسماء بنت عميس أن النبي ﷺ كان يوحى إليه ورأسه في حجر علي رضي الله عنه، فلم يصل العصر حتى غربت الشمس، فقال رسول الله ﷺ: «أصليت يا علي؟» فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس»، قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعدما غربت ووقعت على الجبال والأرض، وذلك في الصهباء في خيبر[2]، رواه الطحاوي في مشكل الحديث، كما حكاه القاضي عياض في الشفاء وقال: قال الطحاوي: إن أحمد بن صالح كان يقول: لا ينبغي لمن سبيله العلم التخلف عن حفظ حديث أسماء لأنه من علامات النبوة. انتهى.

قال بعضهم: هذا الحديث ليس بصحيح، وإن أوهم تخريج القاضي عياض له في الشفاء عن الطحاوي من طريقين، فقد ذكره ابن الجوزي في الموضوعات وقال: إنه موضوع بلا شك وفي سنده أحمد بن داود وهو متروك الحديث كذاب، كما قال الدارقطني. وقال ابن حبان: كان يضع الحديث.

قال ابن الجوزي: وقد روى هذا الحديث ابن شاهين فذكره ثم قال: وهذا حديث باطل، قال: ومن تغفل واضعه أنه نظر إلى صورة فضيلة، ولم يلمح عدم الفائدة فيها، فإن صلاة العصر بغيبوبة الشمس تصير قضاء، ورجوع الشمس لا يعيدها أداء. انتهى.

وقد أفرد ابن تيمية تصنيفاً مفرداً في الرد على الروافض ذكر فيه الحديث بطرقه ورجاله وأنه موضوع، والعجب من القاضي مع جلالة قدره وعلو خطره في علوم

---

(١) انظر البداية والنهاية ٦/ ٨٠ و ٢٨٦ وما بعدها.

(٢) ذكره السيوطي في اللآلىء المصنوعة ١/ ١٧٤ وابن كثير في البداية والنهاية ٦/ ٨٠، ٨١، ٨٥ وفي تذكرة الموضوعات للفتني (٩٦) وفي تفسير القرطبي ١٥/ ٩٧ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٢/ ٩ و ٤/ ٣٨٨.

الحديث كيف سكت عنه موهماً صحته، ناقلاً ثبوته، موثقاً رجاله. انتهى.

وقال شيخنا: قال أحمد: لا أصل له، وتبعه ابن الجوزي فأورده في الموضوعات. ولكن قد صححه الطحاوي والقاضي عياض، وأخرجه ابن منده وابن شاهين من حديث أسماء بنت عميس، وابن مردويه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه انتهى.

ورواه الطبراني في معجمه الكبير بإسناد حسن كما حكاه شيخ الإسلام ابن العراقي في شرح التقريب عن أسماء بنت عميس ولفظه: أن رسول الله ﷺ صلى الظهر بالصهباء ثم أرسل علياً في حاجة فرجع وقد صلى النبي ﷺ العصر، فوضع ﷺ رأسه في حجر علي ونام، فلم يحركه حتى غابت الشمس، فقال ﷺ: «اللهم إن عبدك علياً احتبس بنفسه على نبيه فرد عليه الشمس» قالت أسماء: فطلعت عليه الشمس حتى وقعت على الجبال وعلى الأرض، وقام علي فتوضأ وصلى العصر ثم غابت وذلك بالصهباء.

وفي لفظ آخر: كان ﷺ إذا نزل عليه الوحي يغشى عليه، فأنزل الله عليه يوماً وهو في حجر علي، فقال له النبي ﷺ: «صليت العصر يا علي؟» فقال: لا، يا رسول الله، فدعا الله فرد عليه الشمس حتى صلى العصر قالت أسماء: فرأيت الشمس طلعت بعدما غابت حين ردت حتى صلى العصر.

قال: وروى الطبراني أيضاً في معجمه الأوسط بإسناد حسن عن جابر: أن رسول الله ﷺ أمر الشمس فتأخرت ساعة من نهار.

وروى يونس بن بكير في زيادة المغازي في روايته عن ابن إسحاق، مما ذكره القاضي عياض: لما أسري بالنبي ﷺ وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التي في العير، قالوا: متى تجيء؟ قال: «يوم الأربعاء»[1]، فلما كا ، ذلك اليوم أشرفت قريش ينتظرون، وقد ولى النهار، ولم تجيء، فدعا رسول الله ﷺ فزيد له في النهار ساعة وحبست عليه الشمس. انتهى.

وهذا يعارضه قوله في الحديث: لم تحبس الشمس على أحد إلا ليوشع بن نون، يعني حين قاتل الجبارين يوم الجمعة، فلما أدبرت الشمس خاف أن تغيب قبل أن يفرغ منهم ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم، فدعا الله تعالى فرد عليه الشمس حتى فرغ من قتالهم.

قال الحافظ ابن كثير: فيه أن هذا كان من خصائص يوشع، فيدل على ضعف الحديث الذي رويناه أن الشمس رجعت حتى صلى علي بن أبي طالب، وقد صححه

---

(١) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ٢٨٤.

أحمد بن صالح المصري، ولكنه منكر، ليس في شيء من الصحاح والحسان، وهو مما تتوفر الدواعي على نقله، وتفردت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يعرف حالها. انتهى. ويحتمل الجمع: بأن المعنى لم تحبس الشمس على أحد من الأنبياء غيري إلا ليوشع، والله أعلم.

وكذا روي حبس الشمس لنبينا ﷺ أيضاً يوم الخندق، حين شغل عن صلاة العصر، فيكون حبس الشمس مخصوصاً بنبينا ﷺ وبيوشع، كما ذكره القاضي عياض في الإكمال، وعزاه لمشكل الآثار، ونقله النووي في شرح مسلم في باب حل الغنائم عن عياض وكذا الحافظ ابن حجر في باب الأذان في تخريج أحاديث الرافعي ومغلطاي في الزهر الباسم، وأقروه. وتعقب: بأن الثابت في الصحيح وغيره: أنه ﷺ صلى العصر في وقعة الخندق بعدما غربت الشمس. كما سبق في غزوتها. وذكر البغوي في تفسيره: أنها حبست لسليمان عليه السلام أيضاً، لقوله: ﴿ردوها علي﴾ [سورة ص: ٣٣][1]. ونوزع فيه بعدم ذكر الشمس في الآية، فالمراد: الصافنات الجياد والله أعلم.

قال القاضي عياض: واختلف في حبس الشمس المذكور هنا، فقيل: ردت على أدراجها وقيل: وقفت ولم ترد، وقيل: بطء حركتها. قال: وكل ذلك من معجزات النبوة. انتهى.

وأما ما روي من طاعات الجمادات وتكليمها له بالتسبيح والسلام ونحو ذلك مما وردت به الأخبار، فمنها تسبيح الطعام والحصا في كفه الشريف ﷺ[2]. فخرج محمد بن يحيى الذهلي في الزهريات قال: أخبرنا أبو اليمان قال حدثنا شعيب عن الزهري قال: ذكر الوليد بن سويدان رجلاً من بني سليم كبير السن كان ممن أدرك أبا ذر بالربذة: عن أبي ذر قال: هجرت يوماً من الأيام، فإذا النبي ﷺ قد خرج من بيته فسألت عنه الخادم فأخبرني أنه ببيت عائشة، فأتيته وهو جالس ليس عنده أحد من الناس، وكأني حينئذٍ أرى أنه في وحي، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: «ما جاء بك قلت الله ورسوله» فأمرني أن أجلس فجلست إلى جنبه، لا أسأله عن شيء ولا يذكره لي، فمكثت غير كثير، فجاء أبو بكر يمشي مسرعاً فسلم عليه، فرد عليه السلام، ثم قال: «ما جاء بك؟» قال: جاء بي الله ورسوله، فأشار بيده أن اجلس، فجلس إلى ربوة مقابل النبي ﷺ، ثم جاء عمر ففعل مثل ذلك، ثم قال له رسول الله ﷺ مثل ذلك، وجلس إلى جنب أبي بكر، ثم جاء عثمان كذلك

(١) انظر تفسير البغوي ٤/ ٥٢ سورة ص آية (٣٣).
(٢) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٣٨ وما بعدها ودلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٦٤.

وجلس إلى جنب عمر، ثم قبض رسول الله ﷺ على حصيات سبع أو تسع أو ما قرب من ذلك، فسبحن في يده، حتى سمع لهن حنين كحنين النحل في كف رسول الله ﷺ، ثم ناولهن أبا بكر، وجاوزني، فسبحن في كف أبي بكر، ثم أخذهن منه فوضعهن في الأرض فخرسن وصرن حصى، ثم ناولهن عمر، فسبحن في كفه، كما سبحن في كف أبي بكر، ثم أخذهن منه فوضعهن في الأرض فخرسن، ثم ناولهن عثمان فسبحن في كفه، كما سبحن في كف أبي بكر وعمر، ثم أخذهن فوضعهن في الأرض فخرسن(١).

وقال الحافظ ابن حجر: قد اشتهر على الألسنة تسبيح الحصى. ففي حديث أبي ذر قال: تناول النبي ﷺ سبع حصيات فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً، ثم وضعهن في يد أبي بكر فسبحن، ثم وضعهن في يد عمر فسبحن، ثم وضعهن في يد عثمان فسبحن، أخرجه البزار، والطبراني في الأوسط.

وفي رواية الطبراني: فسمع تسبيحهن من في الحلقة، ثم دفعهن إلينا فلم يسبحن مع أحد منا، قال البيهقي في «الدلائل»(٢): كذا رواه صالح بن أبي الأخضر - ولم يكن بالحافظ - عن الزهري عن سويد بن يزيد السلمي عن أبي ذر. والمحفوظ مارواه شعيب عن أبي حمزة عن الزهري قال: ذكر الوليد بن سويد أن رجلاً من بني سليم كان كبير السن، انتهى. وليس لحديث تسبيح الحصى إلا هذه الطريق الواحدة مع ضعفها، لكنه مشهور عند الناس. وما أحسن قول سيدي محمد وفا رحمه الله تعالى حيث قال:

لسبحة ذاك الوجه قد سبح الحصا ومن سح سحب الكف قد سبح الرعد

وقال الآخر:

ياحبذا لو لثمت كفاً قد سبحت وسطها الحصاء

وقد أخرج البخاري من حديث ابن مسعود: كنا نأكل مع النبي ﷺ الطعام، ونحن نسمع تسبيح الطعام(٣). وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: مرض النبي ﷺ فأتاه جبريل بطبق فيه رمان وعنب فأكل منه النبي ﷺ فسبح(٤). رواه القاضي عياض في «الشفاء»

---

(١) ذكره ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٢/ ١٠٨ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٣٠٦.

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٦٥.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (٢٥) رقم الحديث (٣٥٧٩). وفي الترمذي كتاب المناقب باب (٦) رقم الحديث (٣٦٣٣) وفي سنن الدارمي في المقدمة رقم الحديث (٥) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٤٦٠. وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٣٠٦. وفي التمهيد لابن عبد البر ١/ ٢١٩. وفي البداية والنهاية ٦/ ١٠١.

(٤) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ٣٠٧. وقال السيوطي: لم أجده في كتب الحديث.

ونقله عنه الحافظ أبو الفضل في فتح الباري.

واعلم أن التسبيح من قبيل الألفاظ الدالة على معنى التنزيه. واللفظ يوجد حقيقة ممن قام به اللفظ، فيكون في غير من قام به مجازاً، فالطعام والحصا والشجر ونحو ذلك، كل منها متكلم باعتبار خلق الكلام فيها حقيقة، وهذا من قبيل خرق العادة. وفي قوله: «ونحن نسمع تسبيحه» تصريح بكرامة الصحابة لسماع هذا التسبيح وفهمه وذلك ببركته ﷺ.

ومن ذلك تسليم الحجر عليه ﷺ[1]: خرج مسلم من حديث جابرْ بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»[2]. وقد اختلف في هذا الحجر، فقيل: هو الحجر الأسود، وقيل: حجر غيره بزقاق يعرف به بمكة، والناس يتبركون بلمسه، ويقولون: إنه هو الذي كان يسلم على النبي ﷺ متى اجتاز به.

وقد ذكر الإمام أبو عبد الله، محمد بن رشيد ـ بضم الراء ـ في رحلته مما ذكره في «شفاء الغرام» عن علم الدين أحمد بن أبي بكر بن خليل قال: أخبرني عمي سليمان قال: أخبرني محمد بن إسماعيل بن أبي الصيف قال: أخبرني أبو حفص الميانشي قال: أخبرني كل من لقيته بمكة أن هذا الحجر ـ يعني المذكور ـ هو الذي كلم النبي ﷺ[3].

وروى الترمذي والدارمي والحاكم وصححه، عن علي بن أبي طالب قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا حجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله. وعن عائشة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما استقبلني جبريل بالرسالة جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله»[4] رواه البزار وأبو نعيم. وعن جابر بن عبد الله قال: لم يكن النبي ﷺ يمر بحجر ولا شجر إلا سجد له[5].

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٦/٦٩ وما بعدها.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل رقم الصفحة (١٧٨٢) وفي سنن الدارمي ١/١٢ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/٨٩ ـ ٩٥ وفي الشفا للقاضي عياض ١/٣٠٧. وفي المعجم الكبير للطبراني ٢/٢٥٧. وفي المعجم الصغير للطبراني ١/٦٢. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٢/١٥٣. وفي السيرة لابن هشام ١/٢٥٢ ـ ٢٥٣. وفي طبقات ابن سعد ١/١٥٧ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٨٥٣) وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/١٩٢ وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٢/٨٤. وفي دلائل النبوة لابي نعيم (١٤٢) وفي شرح السنة للبغوي ١٣/٢٨٧ وفي كنز العمال (٣٢٠٠٠).

(٣) هو الحجر المبني في الجدار المقابل لدار أبي بكر المشهور بسوق الليل.

(٤) ذكره الزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٧/١٩٢ وفي دلائل النبوة لابي نعيم ١/٦٩.

(٥) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/٣٠٧. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/٦٩.

ومن ذلك: تأمين أسكفة الباب وحوائط البيت على دعائه ﷺ، عن أبي أسيد الساعدي قال قال رسول الله ﷺ للعباس بن عبد المطلب: «يا أبا الفضل، لا ترم منزلك أنت وبنوك غداً حتى آتيكم، فإن لي فيكم حاجة». فانتظروه حتى جاء بعدما أضحى، فدخل عليهم فقال: «السلام عليكم»، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، قال: «كيف أصبحتم؟» قالوا: أصبحنا بخير بحمد الله، فقال لهم: «تقاربوا» فتقاربوا يزحف بعضهم إلى بعض، حتى إذا أمكنوه اشتمل عليهم بملاءته فقال: «يا رب، هذا عمي، وصنو أبي، وهؤلاء أهل بيتي فاسترهم من النار كستري إياهم بملاءتي هذه، قال: فأمنت أسكفة الباب، وحوائط البيت فقال: آمين آمين آمين»[1] رواه البيهقي في الدلائل وابن ماجه مختصراً.

ومن ذلك كلامه للجبل وكلام الجبل له ﷺ، عن أنس قال: صعد النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان أحداً، فرجف بهم، فضربه النبي ﷺ برجله وقال: «اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»[2] رواه أحمد والبخاري والترمذي وأبو حاتم. قال ابن المنير: قيل الحكمة في ذلك أنه لما رجف أراد رسول الله ﷺ أن يبين أن هذه الرجفة ليست من جنس رجفة الجبل بقوم موسى لما حرفوا الكلم، وأن تلك رجفة الغضب، وهذه هزة الطرب، ولهذا نص على مقام النبوة والصديقية والشهادة التي توجب سرور ما اتصلت به لا رجفانه، فأقر الجبل بذلك فاستقر، انتهى.

وأحد: جبل بالمدينة، وهو الذي قال فيه: «أحد جبل يحبنا ونحبه». رواه البخاري ومسلم. واختلف في المراد بذلك، فقيل: أراد به أهل المدينة، كما قال تعالى: ﴿واسأل القرية﴾ [يوسف: ٨٢]. أي أهلها، قاله الخطابي، وقال البغوي فيما حكاه الحافظ المنذري: الأولى إجراؤه على ظاهره، ولا ينكر وصف الجمادات بحب الأنبياء والأولياء، وأهل الطاعة، كما حنت الأسطوانة على مفارقته ﷺ حتى سمع الناس حنينها إلى أن سكنها، وكما أخبر أن حجراً كان يسلم عليه قبل الوحي، فلا ينكر أن يكون جبل

---

(٣) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١٩/ ٢٦٣ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٩٣ وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/ ٢٣٩ وفي البداية والنهاية ٦/ ١٤٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب (٦) رقم الحديث (٣٦٨٦) وفي صحيح مسلم كتاب الفضائل رقم الحديث (٨١ ـ ٨٢ ـ ٢٥٥) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣٣١. وفي سنن أبي داود كتاب السنة باب (٨) رقم الحديث (٤٦٥١). وفي المعجم الكبير للطبراني ١/ ٤ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٥٥. وفي التاريخ الكبير للبخاري ٢/ ٢ و ١٧٨ وفي كنز العمال (٣٢٦٧٠ ـ ٣٦١١٧٩ ـ ٢٦٣٢٨). وفي الترمذي رقم الحديث (٣٦٩٧).

أحد وجميع أجزاء المدينة تحبه وتحن إلى لقائه حاله مفارقته إياها. انتهى.

وقال الحافظ المنذري: هذا الذي قاله البغوي جيد. وعن ثمامة عن عثمان بن عفان أن رسول الله ﷺ كان على ثبير مكة، ومعه أبو بكر وعمر وأنا، فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض، فركله برجله وقال: «اسكن ثبير، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»[1]. خرجه النسائي والترمذي والدارقطني.

والحضيض: القرار من الأرض عند منقطع الجبل. وركله برجله: أي ضربه بها. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة، فقال ﷺ: «اسكن حراء، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد»[2]. وفي رواية: وسعد بن أبي وقاص، ولم يذكر علياً. خرجهما مسلم وانفرد بذلك. وخرجه الترمذي في مناقب عثمان، ولم يذكر «سعداً» وقال: «اهدأ» مكان «اسكن» وقال: حديث صحيح. وخرجه الترمذي أيضاً عن سعيد بن زيد وذكر أنه كان عليه العشرة إلا أبا عبيدة. وقال: اثبت حراء. وكذا رواه الخلعي عنه بنحوه، ولم يذكر أبا عبيدة بن الجراح. ورواه أيضاً إسحاق البغدادي فيما رواه الكبار عن الصغار، والآباء عن الأبناء، ولله در القائل.

ومال حراء من تحته فرحاً به   لولا مقال «اسكن» تضعضع وانقضا

وحراء وثبير: جبلان متقابلان معروفان بمكة. واختلاف الروايات تحمل على أنها قضايا تكررت. قاله الطبري وغيره. لكن صحح الحافظ ابن حجر: أنه «أحد» قال: ولولا اتحاد المخرج لجوزت تعدد القصة، ثم ظهر لي أن الاختلاف فيه من سعيد، فإني وجدته في مسند الحارث بن أبي أسامة عن روح بن عبادة فقال فيه: «أحد» أو «حراء» بالشك. وقد أخرجه أحمد من حديث بريدة بلفظ حراء وإسناده صحيح. وأخرجه أبو يعلى من حديث سهل بن سعد بلفظ «أحد» وإسناده صحيح فقوى احتمال تعدد القصة.

وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة ما يؤيد تعدد القصة، فذكر أنه كان على حراء ومعه المذكورون هنا وزاد معهم غيرهم. ولما طلبته ﷺ قريش قال له ثبير: اهبط يا

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب (١٨) رقم الحديث (٣٧٠٣) وفي سنن النسائي ٦/٢٣٦. وفي كنز العمال (٣٢٦٦٩ ـ ٣٣٠٩٩ ـ ٣٦٢٨٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل ١/٥٩. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٦/١٦٧. وفي سنن الدارقطني ٤/١٩٨. وفي التاريخ الكبير للبخاري ٨/١٠٥. وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٥/٣٦٣. وفي اتحاف السادة المتقين ٧/١٩٣. وفي البداية والنهاية ٧/٣٧٠.

رسول الله فإني أخاف أن يقتلوك على ظهري فيعذبني الله، فقال له حراء: إلي يا رسول الله رواه في «الشفاء» وهو حديث مروي في الهجرة من السيرة. وحراء مقابل لثبير، والوادي بينهما، وهو على يسار السالك إلى منى، وحراء قبلي ثبير مما يلي شمال الشمس. وهذه الواقعة غير واقعة ثور في خبر الهجرة. هذا هو الظاهر والله أعلم.

قال السهيلي في حديث الهجرة: وأحسب في الحديث أن ثوراً ناداه أيضاً، لما قال له ثبير: اهبط عني. ومن ذلك كلام الشجر له وسلامها عليه وطواعيتها له، وشهادتها له بالرسالة ﷺ[1]. أخرج البزار وأبو نعيم من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لما أوحي إلي جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله».

وأخرج الإمام أحمد عن أبي سفيان طلحة بن نافع عن جابر قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ ذات يوم وهو جالس حزين، قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، فقال له: مالك؟ فقال له رسول الله ﷺ: «فعل بي هؤلاء وفعلوا»، فقال له جبريل: أتحب أن أريك آية؟ فقال: «نعم»، قال: فنظر إلى شجرة من وراء الوادي فقال: ادع تلك الشجرة فدعاها، قال فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع إلى مكانها، فأمرها فرجعت إلى مكانها، فقال رسول الله ﷺ: «حسبي حسبي»[2]، ورواه الدارمي من حديث أنس.

وعن علي قال: كنت مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول السلام عليك يا رسول الله، رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

وخرج الحاكم في مستدركه بإسناد جيد عن ابن عمر قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فأقبل أعرابي، فلما دنا منه قال له رسول الله ﷺ: «أين تريد» قال: إلى أهلي، قال: «هل لك إلى خير»، قال: وما هو؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله» قال: هل لك من شاهد على ما تقول؟ قال رسول الله ﷺ: «هذه الشجرة» فدعاها رسول الله ﷺ وهي على شاطىء الوادي فأقبلت تخد الأرض خداً، فقامت بين يديه فاستشهدها ثلاثاً فشهدت، ثم رجعت إلى منبتها[3]، الحديث. ورواه الدارمي أيضاً بنحوه.

---

(١) انظر البداية والنهاية ٦/١٢٨ ودلائل النبوة للبيهقي ٦/٦٩ وما بعدها.

(٢) أخرجه الدارمي في سننه ١/١٣ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/١٨٢ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١/٤٧٨.

(٣) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١٢/٤٣٢ وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢١١٠) وفي تفسير ابن كثير ١/٤٣٠ وفي تفسير القرطبي ١٩/٥ وفي البداية والنهاية ٦/١٣٠.

وقوله: تخد ـ بضم الخاء المعجمة وتشديد الدال المهملة ـ أي تشق الأرض. وعن بريدة: سأل أعرابي النبي ﷺ آية، فقال له: «قل لتلك الشجر رسول الله يدعوك»، قال: فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها، وبين يديها وخلفها، فتقطعت عروقها ثم جاءت تخد الأرض تجر عروقها مغبرة حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ فقالت: السلام عليك يا رسول الله، فقال الأعرابي: مرها فلترجع إلى منبتها، فرجعت فدلت عروقها في ذلك الموضع فاستقرت. فقال الأعرابي: ائذن لي أن أسجد لك، قال: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» رواه البزار في الشفاء.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: بم أعرف أنك رسول الله؟ قال: «إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة، أتشهد أني رسول الله؟» قال: نعم فدعاه رسول الله فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ، ثم قال: «ارجع» فعاد، فأسلم الأعرابي[1]، رواه الترمذي وصححه.

وفي حديث يعلى بن مرة الثقفي: ثم سرنا حتى نزلنا منزلاً فنام النبي ﷺ، فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيته ثم رجعت إلى مكانها، فلما استيقظ رسول الله ﷺ ذكرت له، فقال: «هي شجرة استأذنت ربها أن تسلم علي فأذن لها»[2] الحديث رواه البغوي في شرح السنة.

وفي حديث جابر بن عبد الله: سرنا مع سول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيح، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فاتبعته بإداوة من ماء، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان في شاطىء الوادي فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال: «انقادي علي بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش[3] الذي يصانع قائده، ثم فعل بالأخرى كذلك، حتى إذا كان بالمنصب بينهما قال: «التئما علي بإذن الله فالتأمتا»[4] الحديث رواه مسلم. والمنصف: ـ بفتح الميم ـ الموضع الوسط

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب المناقب باب (٦) رقم الحديث (٣٦٢٨) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٩٢٦) وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ١١٠ وفي التاريخ الكبير للبخاري ٣/٣ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٨٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ١٧٣ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٦ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٩٢٢) وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٩٣ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم (١٣٩) وفي البداية والنهاية ٦/ ١٤٥.

(٣) الذي وضع في أنفه خشاش، أي عود من خشب لينقاد بسهولة.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزهد رقم الحديث (٧٤) وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٩٤ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٩٩ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٨ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم (١٣٩)=

بين الموضعين. والتلاؤم: الاجتماع. ولله در الأبوصيري حيث قال:

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة تمشي إليه على ساق بلا قدم
كأنما سطرت سطراً لما كتبت فروعها من بديع الخط في اللقم

فشبه آثار مشي الشجر لما جاءت إليه ﷺ بكتابة كاتب أوقعها على نسبة معلومة في أسطر منظومة.

وإذا كانت الأشجار تبادر لامتثال أمره ﷺ حتى تخر ساجدة بين يديه، فنحن أولى بالمبادرة لامتثال ما دعا إليه زاده الله شرفاً لديه.

وتأمل قول الأعرابي: «ائذن لي أن أسجد لك» لما رأى من سجود الشجرة، فرأى أنه أحرى بذلك، حتى أعلمه ﷺ أن ذلك لا يكون إلا لله، فحق على كل مؤمن أن يلازم السجود للحق المعبود، ويقوم على ساق العبودية، وإن لم يكن له قدم كما قامت الشجرة.

ومن ذلك: حنين الجذع شوقاً إليه ﷺ[1]. اعلم أن «الحنين» مصدر مضاف إلى الفاعل. والمراد: شوقه وانعطافه إلى النبي ﷺ، والذي في الأحاديث المسوقة هنا أنه صوت، ولعل المراد منه الدلالة على الشوق، أي الصوت الدال على شوقه إلى رسول الله ﷺ. والجذع: واحد جذوع النخل، وهو بالذال المعجمة. وقد روي حديث حنين الجذع عن جماعة من الصحابة من طرق كثيرة تفيد القطع بوقوع ذلك.

قال العلامة التاج ابن السبكي في شرحه لمختصر ابن الحاجب: والصحيح عندي أن حنين الجذع متواتر: رواه البخاري عن نافع عن ابن عمر. ورواه أحمد من رواية أبي جناب عن أبيه عن ابن عمر.

ورواه ابن ماجه وأبو يعلى الموصلي وغيرهما من رواية حماد بن سلمة، عن ثابت عن أنس، وإسناده على شرط مسلم. ورواه الترمذي وصححه، وأبو يعلى وابن خزيمة والطبراني والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم، يلزمه إخراجه من رواية إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس. ورواه الطبراني من رواية الحسن عن أنس. ورواه أحمد وابن منيع والطبراني وغيرهم من رواية حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عامر عن ابن عباس. ورواه أحمد والدارمي وأبو يعلى وابن ماجه وغيرهم من رواية

= وفي التمهيد لابن عبد البر ١/ ٢٢٢ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٨٢ وفي البداية والنهاية ٦/ ٩٨ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٨٨٥).

(١) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٣١ ودلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٦٤.

الطفيل بن أبي كعب عن أبيه. ورواه الدارمي من رواية أبي حازم عن سهل بن سعد. ورواه أبو محمد الجوهري من رواية عبد العزيز أبي رواد عن نافع عن تميم الداري.

ثم قال: ولست أدعي أن التواتر حاصل بما عددت من الطريق، بل من طرق أخرى كثيرة يجدها المحدث ضمن المسانيد والأجزاء وغيرها، وإنما ذكرت في المشاهد منها أو في بعضها، ورب متواتر عند قوم غير متواتر عند آخرين. انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر: في فتح الباري، حنين الجذع وانشقاق القمر نقل كل منهما نقلاً مستفيضاً يفيد القطع عند من يطلع على طرق الحديث دون غيرهم ممن لا ممارسة له في ذلك، والله أعلم، انتهى.

وقال البيهقي: قصة حنين الجذع من الأمور الظاهرة التي حملها الخلف عن السلف، انتهى. وهذه الآية من أكبر الآيات والمعجزات الدالة على نبوة نبينا ﷺ. قال الشافعي ـ فيما نقله ابن أبي حاتم عنه، في مناقبه ـ: ما أعطى الله نبياً ما أعطى نبينا محمداً ﷺ، فقيل له: أعطي عيسى إحياء الموتى، قال: أعطي محمد حنين الجذع حتى سمع صوته، فهو أكبر من ذلك. وقال القاضي عياض: حديث حنين الجذع مشهور منتشر، والخبر به متواتر، أخرجه أهل الصحيح، ورواه من الصحابة بضعة عشر، منهم: أبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وسهل بن سعد، وأبو سعيد الخدري، وبريدة، وأم سلمة، والمطلب بن أبي وداعة، انتهى.

فأما حديث أبي، فرواه الشافعي من حديث الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ يصلي إلى جذع إذ كان المسجد عريشاً، وكان يخطب إلى ذلك الجذع، فقال رجل من أصحابه: هل لك أن نجعل لك منبراً تقوم عليه يوم الجمعة، وتسمع الناس خطبتك؟ قال: «نعم» فصنع له ثلاث درجات، هي التي على المنبر، فلما صنع وضعه رسول الله ﷺ موضعه الذي هو فيه، فكان إذا بدا لرسول الله ﷺ أن يخطب عليه، تجاوز الجذع الذي كان يخطب عليه، خار حتى تصدع وانشق، فنزل رسول الله ﷺ لما سمع صوت الجذع فمسحه بيده ثم رجع إلى المنبر، الحديث.

وأما حديث جابر، فرواه البخاري من طرق، وفي لفظ له: أن رسول الله ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار، أو رجل من الأنصار: ألا نجعل لك منبراً؟ قال: «إن شئتم»فجعلوا له منبراً، فلما كان يوم الجمعة رفع إلى المنبر، فصاحت النخلة فنزل رسول الله ﷺ وضمها إليه فجعلت تئن أنين الصبي الذي

يسكن، قال: «كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها»[1].

وفي لفظ: قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار ـ وهو بكسر العين: النوق الحوامل ـ وفي حديث أبي الزبير عن جابر ـ عند النسائي في الكبرى ـ: اضطربت تلك السارية كحنين الناقة الخلوج. انتهى. والخلوج: ـ بفتح الخاء المعجمة، وضم اللام الخفيفة وآخره جيم ـ الناقة التي انتزع منها ولدها. والحنين: صوت المتألم المشتاق عند الفراق.

وإنما يشتاق إلى بركة الرسول ويتأسف على مفارقته أعقل العقلاء. والعقل والحنين بهذا الاعتبار يستدعي الحياة، وهذا يدل على أن الله عز وجل خلق فيه الحياة والعقل والشوق ولهذا حنَّ وأنَّ. فإن قيل: مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري: أن الأصوات لا يستلزم خلقها في المحل خلق الحياة ولا العقل.

أجيب: بأنه كذلك، ونحن لم نجعل الحياة لازمة، إلا أن الشوق إلى الحق شوقاً معنوياً عقلياً لا طبيعياً بهيمياً . ومذهب الشيخ أبي الحسن أن الذكر المعنوي والكلام النفسي يستلزمان الحياة استلزام العلم لها. وقد بينا أن هذه المعاني وجدت في الجذع، وأطلق الحاضرون حينئذ على صوته أنه حنين، وفهموا أنه شوق إلى الذكر وإلى مقام الحبيب عنده، وقد عامله النبي ﷺ هذه المعاملة، فالتزمه كما يلتزم الغائب أهله وأعزته يبرد غليل شوقهم إليه وأسفلهم عليه، ولله در القائل:

وحن إليه الجذع شوقاً ورقة ... ورجع صوتاً كالعشار مردداً
فبادره ضماً فقر لوقته ... لكل امرىء من دهره ما تعودا[2]

وأما حديث أنس، فرواه أبو يعلى الموصلي بلفظ: إن رسول الله ﷺ كان يوم الجمعة يسند ظهره إلى جذع منصوب في المسجد يخطب الناس، فجاءه رُومي فقال: ألا أصنع لك شيئاً تقعد عليه كأنك قائم؟ فصنع له منبراً له درجتان ويقعد على الثالثة، فلما قعد رسول الله ﷺ على المنبر جأر الجذع كجؤر الثور، حتى ارتج المسجد لجؤاره حزناً على رسول الله ﷺ فنزل إليه رسول الله ﷺ عن المنبر فالتزمه وهو يجأر، فلما التزمه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (٢٥) رقم الحديث (٣٥٨٣ ـ ٣٥٨٤ ـ ٣٥٨٥) وفي سنن الترمذي كتاب المناقب باب (٦) رقم الحديث (٣٦٢٧) وفي سنن ابن ماجه كتاب الإقامة باب (١٩٩) رقم الحديث (١٤١٤) وفي الشفا للقاضي عياض ١/٣٠٣ وفي سنن الدارمي في المقدمة ١/١٥ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٢/٥٥٦ ـ ٥٥٨.

(٢) هو منسوب للشاعر: صالح بن الحسين.

سكت. ثم قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لو لم ألتزمه لما زال هكذا حتى تقوم الساعة حزناً على رسول الله ﷺ، فأمر به ﷺ فدفن»[1] ورواه الترمذي وقال: صحيح غريب.

وكذا رواه ابن ماجه والإمام أحمد من طريق الحسن عن أنس ولفظه: كان رسول الله ﷺ إذا خطب يوم الجمعة يسند ظهره إلى خشبة، فلما كثر الناس قال: «ابنوا لي منبراً» أراد أن يسمعهم، فبنوا له عتبتين، فتحول من الخشبة إلى المنبر، قال: فأخبر أنس بن مالك أنه سمع الخشبة تحن حنين الواله، قال: فما زالت تحن حتى نزل رسول الله ﷺ عن المنبر فمشى إليها فاحتضنها فسكتت.

ورواه أبو القاسم البغوي وزاد فيه: فكان الحسن إذا حدث بهذا الحديث بكى ثم قال: يا عباد الله الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه لمكانه من الله، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه.

ولله در القائل:

وألقى حتى في الجمادات حبه ... فكانت لإهداء السلام له تُهدى
وفارق جذعاً كان يخطب عنده ... فأنَّ أنين الأم إذ تجد الفقدا
يحن إليه الجذع يا قوم هكذا ... أما نحن أولى أن نحنَّ له وجدا
إذا كان جذع لم يطق بعد ساعة ... فليس وفاء أن نطيق له بعدا

وأما حديث سهل بن سعد، ففي الصحيحين من طرق. وأما حديث ابن عباس فعند الإمام أحمد بإسناد على شرط مسلم، ورواه ابن ماجه. وأما حديث إبن عمر، ففي البخاري. وأما حديث أبي سعيد الخدري، فعند عبد بن حميد. وأما حديث عائشة، فعند البيهقي وفي آخره: أنه خير الجذع بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة. وأما حديث بريدة، فعند الدارمي وفيه: أن النبي ﷺ قال: «إن شئت أردك إلى الحائط الذي كنت فيه تنبت لك عروقك ويكمل خلقك، ويجدد لك خوص وثمرة، وإن شئت أغرْسك في الجنة فتأكل أولياء الله من ثمرك؟» ثم أصغى له النبي ﷺ ليسمع ما يقول، فقال: بل تغرسني في الجنة فيأكل مني أولياء الله وأكون في مكان لا أبلى فيه، فسمعه من يليه، فقال النبي ﷺ:

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الإقامة باب (١٩٩) رقم الحديث (١٤١٥) وفي سنن للدارمي ١/ ١٩. وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٤٩ ـ ٣٦٣. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ١٨٧ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم (١٤٢) وفي التاريخ الكبير للبخاري ٧/ ٢٦ وفي البداية والنهاية ٦/ ١٣٢ وفي كنز العمال (٣١٧٨٤ ـ ٣٢٠٨٤).

«قد فعلت» ثم قال: «اختار دار البقاء على دار الفناء»[1]. وأما حديث أم سلمة، فعند أبي نعيم في الدلائل. والقصة واحدة، وما في ألفاظها مما ظاهره التغاير هو من الرواة. وعند التحقيق ترجع إلى معنى واحد، فلا نطيل بذكر ذلك والله أعلم.

وأما كلام الحيوانات وطاعتها له ﷺ:

فمنها: سجود الجمل وشكواه إليه ﷺ[2]. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه، وأنه استصعب عليهم فمنعهم ظهره، وأن الأنصار جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نسني عليه، وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش النخل والزرع، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا» فقاموا فدخل الحائط، والجمل في ناحية فمشى رسول الله ﷺ نحوه، فقالت الأنصار: يا رسول الله، قد صار مثل الكلب الكَلِب، وإنا نخاف عليك صولته، فقال رسول الله ﷺ: «ليس علي منه بأس» فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خر ساجداً بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كان قط، حتى أدخله في العمل، فقال له أصحابه: يا رسول الله، هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك، فقال رسول الله ﷺ: «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، لو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»[3]، رواه أحمد والنسائي. والحائط: هو البستان. وقوله: نسني عليه: ـ بالنون والسين المهملة ـ أي نستقي عليه. وفي حديث يعلى بن مرة الثقفي: بينا نحن نسير مع النبي ﷺ إذ مررنا ببعير يسنى عليه، فلما رآه البعير جرجر، فوضع جرانه، فوقف عليه النبي ﷺ فقال: «أين صاحب هذا البعير»، فجاءه، فقال: «بعنيه»، فقال: بل نهبه لك يا رسول الله، وإنه لأهل بيت ما لهم معيشة غيره، فقال: «أما إذ ذكرت هذا من أمره، فإنه شكا كثرة العمل، وقلة العلف، فأحسنوا إليه» رواه البغوي في شرح السنة.

والجران: بكسر الجيم، قال ابن فارس: مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره. وروى الإمام أحمد قصة أخرى نحو ما تقدم من حديث جابر ضعيفة السند، والبيهقي

---

(١) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ٣٠٤.

(٢) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٤١ وما بعدها ودلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢٨.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ١٥٩. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٤ وفي الدر المنثور للسيوطي ٢/ ١٥٤. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٢/ ٢٠٦ و ٥/ ٤٠٣. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٥٥. وفي دلائل النبوة لأبي نعيم (١٣٧). وفي التاريخ الكبير للبخاري ٩/ ٢٨.

بإسناد جيد. وكذا روى الطبراني قصة أخرى عن عكرمة عن ابن عباس: لكن بإسناد ضعيف. والإمام أحمد أيضاً من حديث يعلى بن مرة.

وأخرج ابن شاهين في الدلائل عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه فأسر إلي حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس، قال: وكان أحب ما استتر به النبي ﷺ لحاجته هدف أو حائش نخل، فدخل حائط رجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حنَّ فذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه، وفي رواية فسكن، ثم قال: «من رب هذا الجمل؟» فجاء فتى من الأنصار فقال: هذا لي يا رسول الله، فقال: «ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه»[1] قال في المصابيح: وهو حديث صحيح، قال: ورواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل عن مهدي بن ميمون.

والحائش: ـ بالحاء المهملة وبالشين المعجمة ممدوداً ـ هو جماعة النخل، لا واحد له من لفظه. وقوله: ذفران: تثنية ذفرا، بكسر الذال المعجمة مقصور، وهو الموضع الذي يعرف من قفا البعير عند أذنه.

ومنها: سجود الغنم له ﷺ[2]، عن أنس بن مالك قال: دخل رسول الله ﷺ حائطاً للأنصار ومعه أبو بكر وعمر ورجل من الأنصار، وفي الحائط غنم فسجدت له، فقال أبو بكر: يا رسول الله، نحن أحق بالسجود لك من هذه الغنم، فقال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد»رواه أبو محمد عبد الله بن حامد الفقيه في كتاب دلائل النبوة بإسناد ضعيف. وذكره القاضي عياض في الشفاء وذكَر أيضاً عن جابر بن عبد الله عن رجل أتى النبي ﷺ وآمن به وهو على بعض حصون خيبر، وكان من غنم يرعاها لهم، فقال: يا رسول الله، كيف لي بالغنم، قال: «احصب وجوهها فإن الله سيؤدي عنك أمانتك ويردها إلى أهلها» ففعل فسارت كل شاة حتى دخلت إلى أهلها[3]. ومنها: قصة كلام الذئب وشهادته له بالرسالة[4]. اعلم أنه قد جاء حديث قصة كلام الذئب في عدة طرق من

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد باب (٤٤) رقم الحديث (٢٥٤٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٠٥ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٨/١٣ وفي المستدرك للحاكم ٢/ ١٠٠ وفي اتحاف السادة المتقين ٢/ ٢٠٦ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩١٢٢) وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/ ٣٢٩ وفي كنز العمال (٢٤٩٨٢).

(٢) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٥٠.

(٣) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٤٣ وفي المستدرك للحاكم ٢/ ١٣٦ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٢١ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٩٣ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٣١١ وما بعدها.

(٤) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٥٠ ودلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٣٩ و ٤١.

حديث أبي هريرة وأنس وابن عمر وأبي سعيد الخدري. فأما حديث أبي سعيد، فرواه الإمام أحمد بإسناد جيد ولفظه: عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبه الراعي فانتزعها منه فأقعى الذئب على ذنبه وقال: ألا تتقي الله؟ تنزع مني رزقاً ساقه الله إلي، فقال الراعي: يا عجباً، ذئب مقع على ذنبه يكلمني بكلام الإنس، فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك: محمد بيثرب يخبر الناس بأنباء ما سبق قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة، فزواها إلى زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فأمر رسول الله ﷺ فنودي بالصلاة جامعة، ثم خرج فقال للأعرابي: «أخبرهم»[1] فأخبرهم.

وأما حديث ابن عمر فأخرجه أبو سعد الماليني والبيهقي. وأما حديث أنس فأخرجه أبو نعيم في الدلائل. وأما حديث أبي هريرة، فرواه سعيد بن منصور في سننه قال: جاء الذئب فأقعى بين يدي رسول الله ﷺ وجعل يبصبص بذنبه فقال رسول الله ﷺ «هذا وافد الذئاب جاء يسألكم أن تجعلوا له من أموالكم شيئاً» قالوا: والله لا نفعل، وأخذ رجل من القوم حجراً رماه به، فأدبر الذئب وله عواء، فقال رسول الله ﷺ «الذئب وما الذئب».

وروى البغوي في شرح السنة وأحمد وأبو نعيم بسند صحيح عن أبي هريرة أيضاً قال: جاء ذئب إلى راعي غنم فأخذ منه شاة، فطلبه الراعي حتى انتزعها منه، قال فصعد الذئب على تل فأقعى واستثفر وقال: عمدت إلى رزق رزقنيه الله أخذته ثم انتزعته مني فقال الرجل: تالله إن رأيت كاليوم ذئب يتكلم، فقال الذئب: أعجب من هذا رجل في النخلات ين الحرتين يخبركم بما مضى وما هو كائن بعدكم، ولا تتبعونه، قال: وكان الرجل يهودياً فجاء إلى النبي ﷺ فأخبره وأسلم فصدقه النبي ثم قال ﷺ: «إنها أمارات بين يدي الساعة، قد أوشك الرجل أن يخرج فلا يرجع حتى يحدثه نعلاه وسوطه بما أحدث أهله بعده». واستثفر: ـ بالسين والمثناة ثم المثلثة والفاء آخره راء ـ كاستفعل، أي جعل ذنبه بين رجليه كما يفعل الكلب.

قال القاضي عياض: وفي بعض الطرق عن أبي هريرة: فقال الذئب أنت أعجب مني واقفاً على غنمك وتركت نبياً لم يبعث الله قط أعظم منه عنده قدراً، وقد فتحت له أبواب الجنة وأشرف أهلها على أصحابه ينظرون قتالهم وما بينك وبينه إلا هذا الشعب، فتصير من جنود الله. قال الراعي: من لي بغنمي؟ قال الذئب: أنا أرعاها حتى ترجع، فأسلم الرجل إليه غنمه ومضى، وذكر قصته وإسلامه ووجوده النبي ﷺ يقاتل، فقال له.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٨٤ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٩١ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٩٤.

النبي ﷺ: «عد إلى غنمك تجدها بوفرها» فوجدها كذلك، وذبح للذئب شاة منها.

وقد روى ابن وهب مثل هذا أنه جرى لأبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية مع ذئب وجداه أخذ ظبياً، فدخل الظبي الحرم فانصرف الذئب، فعجبا من ذلك فقال الذئب: أعجب من ذلك محمد بن عبد الله بالمدينة يدعوكم إلى الجنة وتدعونه إلى النار، فقال أبو سفيان: واللات والعزى، لئن ذكرت هذا بمكة لتتركنها خلوفاً ـ بضم الخاء المعجمة ـ أي فاسدة متغيرة، بمعنى: يقع الفساد والتغير في أهلها.

ومن ذلك حديث الحمار[1]: أخرج ابن عساكر عن أبي منظور قال: لما فتح رسول الله ﷺ خيبر أصاب حماراً أسود، فكلم رسول الله ﷺ الحمار، فكلمه الحمار، فقال له رسول الله ﷺ «ما اسمك» قال: يزيد بن شهاب، أخرج الله من نسل جدي ستين حماراً كلهم لا يركبه إلا نبي، وقد كنت أتوقعك أن تركبني، لم يبق من نسل جدي غيري ولا من الأنبياء غيرك وقد كنت قبلك لرجل يهودي وكنت أتعثر به عمداً، وكان يجيع بطني ويضرب ظهري، فقال له النبي ﷺ: «فأنت يعفور» فكان رسول الله ﷺ يبعثه إلى باب الرجل فيأتي الباب فيقرعه برأسه فإذا خرج إليه صاحب الدار أومأ إليه أن أجب رسول الله ﷺ، فلما قبض رسول الله ﷺ جاء إلى بئر كانت لأبي الهيثم بن التيهان فتردى فيها جزعا على رسول الله ﷺ[2]. ورواه أبو نعيم بنحوه من حديث معاذ بن جبل، لكن الحديث مطعون فيه. وذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

وفي معجزاته ﷺ ما هو أعظم من كلام الحمار وغيره. ومن ذلك: من حديث الضب[3]، وهو مشهور على الألسنة، ورواه البيهقي في أحاديث كثيرة، لكنه حديث غريب ضعيف. قال المزي[4]: لا يصح إسناداً ولا متناً، وذكره القاضي عياض في الشفاء، وقد روي من حديث عمر أن رسول الله ﷺ كان في محفل عن أصحابه، إذ جاء أعرابي من بني سليم قد صد ضباً جعله في كمه ليذهب به إلى رحله فيشويه ويأكله، فلما رأى الجماعة قال من هذا؟ قالوا: نبي الله، فأخرج الضب من كمه وقال: واللات والعزى لا آمنت بك أو يؤمن هذا الضب. وطرحه بين يدي رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «يا ضب» فأجابه بلسان مبين يسمعه القوم جميعاً: لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة،

---

(١) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٥٨.

(٢) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ٣١٤.

(٣) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٣٦ والبداية والنهاية ٦/ ١٥٦.

(٤) هو يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف أبو الحجاج المزي (٦٥٤ ـ ٧٤٢ هـ) من المحدثين. ولد بظاهر حلب وتوفي في دمشق. الأعلام ٨/ ٢٣٦ والدرر الكامنة ٤/ ٤٥٧ رقم الترجمة (١٢٦١).

قال: «من تعبد؟» قال: الذي في السماء عرشه وفي الأرض سلطانه وفي البحر سبيله وفي الجنة رحمته وفي النار عقابه، قال: «فمن أنا؟» قال: رسول رب العالمين وخاتم النبيين، وقد أفلح من صدقك وقد خاب من كذبك فأسلم الأعرابي [(١)] الحديث بطوله، وهو مطعون فيه وقيل إنه موضوع. لكن معجزاته ﷺ فيها ما هو أبلغ من هذا وليس فيه ما ينكر شرعاً خصوصاً وقد رواه الإئمة فنهايته الضعف لا الوضع، والله أعلم.

ومن ذلك: حديث الغزالة[(٢)]. روى حديثها البيهقي من طرق، وضعفه جماعة من الأئمة، لكن طرقه يقوي بعضها بعضاً. وذكره القاضي عياض في الشفاء، ورواه أبو نعيم في الدلائل بإسناد فيه مجاهيل، عن حبيب بن محصن عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: بينما رسول الله ﷺ في صحراء من الأرض، إذا هاتف يهتف: يا رسول الله ثلاث مرات فالتفت فإذا ظبية مشدودة في وثاق، وأعرابي منجدل في شملة نائم في الشمس، فقال: «ما حاجتك؟» قالت: صادني هذا الأعرابي، ولي خشفان في ذلك الجبل فأطلقني حتى أذهب فأرضعهما وأرجع، قال: «وتفعلين؟» فقالت: عذبني الله عذاب العشار إن لم أعد، فأطلقها فذهبت ورجعت فأوثقها النبي ﷺ فانتبه الأعرابي وقال: يا رسول الله ألك حاجة؟ قال: «تطلق هذه الظبية» فأطلقها فخرجت تعدو في الصحراء فرحاً وهي تضرب برجليها الأرض وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

وكذا رواه الطبراني بنحوه، وساق الحافظ المنذري حديثه في الترغيب والترهيب من باب الزكاة. ونقل شيخنا الحافظ أبو الخير السخاوي عن ابن كثير: أنه لا أصل له، وأن من نسبه إلى النبي ﷺ فقد كذب، ثم قال: شيخنا: لكن ورد في الجملة في عدة أحاديث يتقوى بعضها ببعض أوردها شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر في المجلس الحادي والستين من تخريج أحاديث المختصر والله أعلم. انتهى.

وفي شرح مختصر ابن الحاجب للعلامة ابن السبكي، وتسبيح الحصى رواه الطبراني وابن أبي عاصم من حديث أبي ذر، وتسليم الغزالة رواه أبو نعيم الأصبهاني والبيهقي في دلائل النبوة، ونحن نقول فيهما: وإن لم يكونا متواترين فلعلهما استغني عنهما بنقل غيرهما، أو لعلهما تواترا إذ ذاك، انتهى.

ومن ذلك، داجن البيوت، وهو ما ألفها من الحيوان، كالطير والشاة وغيرهما،

---

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٣٧ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٩٤ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم ٢/ ٣٧٧ وفي اتحاف السادة المتقين ٢/ ٢٠٦ و٧/ ١٩٤ وفي البداية والنهاية ٦/ ١٥٧ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٣٠٩ وفي كنز العمال (٣٥٣٦٤).

(٢) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٥٤ ودلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٣٤.

روى قاسم بن ثابت عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عندنا داجن، فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ قر وثبت مكانه، فلم يجيء ولم يذهب، وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب، وذكره القاضي عياض بسنده.

وأما نبع الماء[1] الطهور من بين أصابعه ﷺ، وهو أشرف المياه، فقال القرطبي: قصة نبع الماء من بين أصابعه قد تكررت منه ﷺ في عدة مواطن في مشاهد عظيمة، ووردت من طرق كثيرة، يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي، ولم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبينا ﷺ، حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه، وقد نقل ابن عبد البر عن المزني[2] أنه قال: نبع الماء من بين أصابعه ﷺ أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى بالعصا فتفجرت منه المياه، لأن خروج الماء من الحجارة معهود بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم. انتهى.

وقد روى حديث نبع الماء جماعة من الصحابة، منهم أنس وجابر وابن مسعود. فأما حديث أنس ففي الصحيحين قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر، والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله ﷺ بوضوء فوضع يده في ذلك الإناء، فأمر الناس أن يتوضؤوا منه، فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم وفي لفظ البخاري: كانوا ثمانين رجلاً، وفي لفظ له: فجعل الماء ينبع من بين أصابعه وأطراف أصابعه حتى توضأ القوم، قال: فقلنا لأنس كم كنتم قال: كنا ثلاثمائة[3].

قوله: «حتى توضؤوا من عند آخرهم» قال الكرماني: حتى للتدريج، ومن للبيان، أي: توضأ الناس حتى توضأ الذين هم عند آخرهم، وهو كناية عن جميعهم، و «عند» بمعنى «في» لأن «عند» وإن كانت للظرفية الخاصة لكن المبالغة تقتضي أن تكون لمطلق الظرفية، فكأنه قال: الذين هم في آخرهم. وقال التيمي: المعنى توضأ القوم حتى وصلت النوبة إلى الآخر، وقال النووي: «من» هنا بمعنى «إلى» وهي لغة، وتعقبه

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٦/٧ والبداية والنهاية ٦/٩٦ وما بعدها.

(٢) هو إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل أبو إبراهيم المزني (١٧٥ ـ ٢٦٤ هـ) إمام الشافعيين عالم مجتهد. زاهد. توفي بمصر. الأعلام ١/٣٢٩. وفيات الأعيان ١/٧١. شذرات الذهب ٢/١٤٨ ـ ١٤٩ كشف الظنون (٤٠٠) مفتاح السعادة ٢/١٥٨. الفهرست لابن النديم ١/٢١٢ مرآة الجنان ٢/١٧٧.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء باب (٣٢) رقم الحديث (١٦٩ ـ ١٩٥ ـ ٢٠٠ ـ ٣٥٧٢ ـ ٣٥٧٣ ـ ٣٥٧٤ ـ ٣٥٧٥). وفي صحيح مسلم كتاب الفضائل ٤/١٧٨٤. وفي الشفا للقاضي عياض ١/٢٨٥. وفي التمهيد لابن عبد البر ١/٢١٧.

الكرماني بأنها شاذة، قال: ثم إن «إلى» لا يجوز أن تدخل على «عند» ويلزم عليه وعلى ما قاله التيمي أن لا يدخل إلا خبر، لكن ما قاله الكرماني من أن «إلى» لا تدخل على عند لا يلزم مثله في «من» إذا وقعت بمعنى «إلى» وعلى توجيه النووي يمكن أن يقال عند زائدة. قاله في فتح الباري.

وروى هذا الحديث أيضاً عن أنس، ابن شاهين، ولفظه: قال كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك، فقال المسلمون: يا رسول الله، عطشت دوابنا وإبلنا، فقال: «هل من فضلة ماء» فجاء رجل في شن بشيء، فقال: «هاتوا صحيفة» فصب الماء ثم وضع راحته في الماء، قال: فرأيتها تخلل عيوناً بين أصابعه، قال: فسقينا إبلنا ودوابنا وتزودنا، فقال: «اكتفيتم؟» فقالوا: نعم اكتفينا يا نبي الله، فرفع يده فارتفع الماء[1].

وأخرج البيهقي عن أنس أيضاً، قال: خرج النبي ﷺ إلى قباء فأُتي من بعض بيوتهم بقدح صغير، فأدخل يده فلم يسعه القدح، فأدخل أصابعه الأربعة ولم يستطع أن يدخل إبهامه، ثم قال للقوم: «هلموا إلى الشراب» قال أنس: بصر عيني ينبع الماء من بين أصابعه فلم يزل القوم يردون القدح حتى رووا منه جميعاً[2].

وأما حديث جابر: ففي الصحيحين، قال: عطش الناس يوم الحديبية، وكان رسول الله ﷺ بين يديه ركوة يتوضأ منها، وجهش الناس نحوه، فقال: «ما لكم؟» فقالوا يار سول الله ما عندنا ماء نتوضأ به ولا نشربه إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، قلت: كم كنتم قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة[3]. وقوله: «يفور»، أي يغلي ويظهر متدفقاً.

وفي رواية الوليد بن عبادة بن الصامت عنه في حديث مسلم الطويل في ذكر غزوة بواط، قال لي رسول الله ﷺ: «يا جابر ناد: الوضوء» وذكر الحديث بطوله، وأنه لم يجد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (٢٥) رقم الحديث (٣٥٧٩) وفي الشفا للقاضي عياض ٢٨٦/١ وفي شرح السنة للبغوي ١٦٢/٤ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٩١٠) وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ١٧١/٧ وفي البداية والنهاية ١٠١/٦.

(٢) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ١٢٣/٤.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (٢٥) رقم الحديث (٣٥٧٦ ـ ٤١٥٢ ـ ٤١٥٣ ـ ٤٨٤٠ ـ ٥٦٣٩) وفي المعجم الكبير للطبراني ١٧٤/٣ وفي شرح السنة للبغوي ٢٩١/١٣ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٢٦٨/٥ وفي اتحاف السادة المتقين ٢٠٧/٢ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم (١٤٤) وفي أخلاق النبوة (١٥٣).

إلا قطرة في عزلاء[1] شجب فأتى به النبي ﷺ فغمزه وتكلم بشيء لا أدري ما هو، وقال: «ناد بجفنة الركب» فأتيت بها فوضعتها بين يديه. وذكر أن النبي ﷺ بسط يده في الجفنة وفرق أصابعه وصب عليه جابر، فقال: «بسم الله»، فرأيت الماء يفور من بين أصابعه، ثم فارت الجفنة واستدارت حتى امتلأت وأمر الناس بالاستقاء فاستقوا حتى رووا، فقلت: هل بقي من أحد له حاجة؟ فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي ملأى[2].

وروى حديث جابر أيضاً الإمام أحمد في مسنده بلفظ: اشتكى أصحاب رسول الله ﷺ إليه العطش، فدعا بعس فصب فيه شيئاً من الماء، فوضع رسول الله ﷺ فيه يده، وقال: «استقوا» فاستقى الناس، فكنت أرى العيون تنبع من بين أصابعه.

وفي لفظ من حديث له أيضاً: فوضع رسول الله ﷺ كفه في الإناء ثم قال: «بسم الله» ثم قال: «أسبغوا الوضوء» قال جابر: فوالذي ابتلاني ببصري، لقد رأيت العيون، عيون الماء يومئذٍ تخرج من بين أصابعه ﷺ فما رفعها حتى توضؤوا أجمعون.

ورواه أيضاً عنه البيهقي في الدلائل قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصابنا عطش فجهشنا إلى رسول الله ﷺ قال: «فوضع يده في تور من ماء بين يديه، قال: فجعل الماء ينبع من بين أصابعه كأنه العيون قال: خذوا بسم الله»، فشربنا، فوسعنا وكفانا، ولو كنا مائة ألف لكفانا، قلت لجابر: كم كنتم؟ قال: ألفاً وخمسمائة.

وأخرجه ابن شاهين من حديث جابر أيضاً، وقال: أصابنا عطش بالحديبية فجهشنا إلى رسول الله ﷺ، الحديث. وأخرجه أيضاً ـ عن جابر ـ أحمد من طريق نبيح العنزي عنه، وفيه: فجاء رجل بإداوة فيها شيء من ماء ليس في القوم ماء غيره، فصبه رسول الله ﷺ في قدح ثم توضأ فأحسن الوضوء، ثم انصرف وترك القدح، قال: «فتزاحم الناس على القدح» فقال: «على رسلكم»، فوضع كفه في القدح ثم قال: «أسبغوا الوضوء» قال: فلقد رأيت العيون عيون الماء تخرج من بين أصابعه.

وأما حديث ابن مسعود، ففي الصحيح من رواية علقمة: بينما نحن مع رسول الله ﷺ وليس معنا ماء، فقال لنا رسول الله ﷺ: «اطلبوا من معه فضل ماء»، فأتي بماء فصبه في إناء، ثم وضع كفه فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ.

---

(١) عزلاء: أي فم القربة الأسفل أو مصب الماء من الراوية، والمعنى فم القربة معلقة بعود.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد رقم الحديث (٧٤) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٩ وفي فتح الباري ٩/ ٧٧٣ وفي البداية والنهاية ٦/ ٩٩ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٢/ ٢٠٧. وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٨٦.

وظاهر هذا أن الماء ينبع من بين أصابعه بالنسبة إلى رؤية الرائي، وهو في نفس الأمر ـ للبركة الحاصلة فيه ـ يفور ويكثر، وكفه ﷺ في الإناء، فيراه الرائي نابعاً من بين أصابعه.

وظاهر كلام القرطبي: أنه نبع من نفس اللحم الكائن في الأصابع، وبه صرح النووي في شرح مسلم، ويؤيده قول جابر: فرأيت الماء يخرج من بين أصابعه، وفي رواية: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، وهذا هو الصحيح، وكلاهما معجزة له ﷺ.

وإنما فعل ذلك ولم يخرجه من غير ملابسه ماء ولا وضع إناء تأدباً مع الله تعالى، إذ هو المنفرد بابتداع المعدومات وإيجادها من غير أصل.

وروى ابن عباس قال: دعا النبي ﷺ بلالا فطلب الماء، فقال: لا والله ما وجدت الماء، قال: فهل من شن؟» فأتاه بشن فبسط كفه فيه فانبعث تحت يده عين، فكان ابن مسعود يشرب وغيره يتوضأ، رواه الدارمي وأبو نعيم، وكذا رواه الطبراني وأبو نعيم من حديث أبي ليلى الأنصاري وأبو نعيم من طريق القاسم بن عبد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جده.

ومن ذلك تفجير الماء ببركته، وانبعاثه بمسه ودعوته[1]. روى مسلم في صحيحه عن معاذ أن رسول الله ﷺ قال لهم: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي» قال: فجئناها، وقد سبق إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء[2]، فسألهما رسول الله ﷺ «هل مسستما من مائها شيئاً؟» قالا: نعم، فسبهما وقال لهما «ما شاء الله أن يقول» ثم غرفوا من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، ثم غسل ﷺ به وجهه ويديه ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء كثير، فاستقى الناس ثم قال ﷺ: «يا معاذ، يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملىء جناناً»[3]. أي بساتين وعمراناً، وهذا أيضاً من معجزاته ﷺ.

ورواه القاضي عياض في الشفاء بنحوه من طريق مالك في الموطأ، وزاد فقال: قال في حديث ابن إسحاق: فانخرق من الماء ماله حس كحس الصواعق.

وفي البخاري، في غزوة الحديبية، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن

---

(١) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٠٣ وما بعدها ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٢٣٦.

(٢) الشراك: هو سير النعل، وتبض: أي تسيل وتقطر ومعناه: ماء قليل جداً.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل رقم الحديث (١٠) وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٧٢ وفي البداية والنهاية ٥/ ١٢ و ٦/ ١٠٤ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٨٨.

الحكم: أنهم نزلوا بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانتـه ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه[1]. والثمد: ـ بالمثلثة والتحريك ـ الماء القليل. وقوله: «يتبرضه الناس تبرضاً» ـ بالضاد المعجمة ـ أي يأخذونه قليلاً قليلاً، والبرض: الشيء القليل. وقوله: «فما زال يجيش» ـ بفتح المثناة التحتية، وبالجيم آخره شين ـ أي: يفور ماؤه ويرتفع. وفي رواية: أنه ﷺ توضأ فتمضمض ودعا ومج في بئر الحديبية من فمه، فجاشت بالماء كذلك.

وفي مغازي أبي الأسود عن عروة: أنه توضأ في الدلو، ومضمض فاه ثم مج فيه، وأمر أن يصب في البئر، ونزع سهماً من كنانته وألقاه في البئر ودعا الله تعالى، ففارت بالماء حتى جعلوا يغترفون بأيديهم منها وهم جلوس على شفتيها، فجمع بين الأمرين.

وكذا رواه الواقدي من طريق أوس بن خولى. وهذه القصة غير القصة السابقة في ذكر نبع الماء من بين أصابعه ﷺ مما رواه البخاري في المغازي من حديث جابر: عطش الناس بالحديبية وبين يدي رسول الله ﷺ ركوة فوضع يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه. الحديث. فبين القصتين مغايرة، وجمع ابن حبان بينهما: بأن ذلك وقع في وقتين، انتهى.

فحديث جابر في نبع الماء كان حين حضرت صلاة العصر عند إرادة الوضوء، وحديث البراء كان لإرادة ما هو أعم من ذلك. ويحتمل أن يكون الماء لما تفجر من أصابعه ويده في الركوة، وتوضؤوا كلهم وشربوا أمر حينئذٍ بصب الماء الذي بقي في الركوة في البئر فتكاثر الماء فيها. انتهى.

وفي حديث البراء وسلمة بن الأكوع مما رواه البخـاري في قصة الحديبية وهم أربع عشرة مائة، وبئرها لا تروي خمسين شاة، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فقعد رسول الله ﷺ على جباها، قال البراء: وأتي بدلو منها فبصق ودعا، وقال سلمة: فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشت فأرووا أنفسهم وركابهم، وقال في رواية البراء: ثم مضمض ودعا ثم صبه فيها ثم قال: «دعوها ساعة»[2]. قوله: «على جَبّاها» ـ بفتح الجيم والموحدة والقصر ـ ما حول البئر، وبالكسر: ما جمعت فيها من الماء. وقوله: «وركابهم» أي الإبل التي يسار عليها.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط باب (١٥) رقم الحديث (٢٧٣١ ـ ٢٧٣٢) وفي الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٧٦ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٢١٩ وفي البداية والنهاية ٤/ ١٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب (٣٦) رقم الحديث (٤١٥١) وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٨٨.

وفي الصحيحين عن عمران بن الحصين قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فاشتكى إليه الناس من العطش، فنزل فدعا فلاناً ـ كان يسميه أبو رجاء ونسبه عوف ـ ودعا علياً، وقال: «اذهبا فابتغيا الماء» فانطلقا فتلقيا امرأة بين مزادتين أو سطيحتين من ماء، فجاءا بها إلى النبي ﷺ، فاستنزلوها عن بعيرها، ودعا النبي ﷺ بإناء ففرَّغ فيه من أفواه المزادتين أو السطيحتين، وأوكأ أفواههما، وأطلق العزالى، ونودي في الناس: «اسقوا واستقوا» فسقى من سقى، واستقى من شاء، وهي قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها، وأيم الله لقد أقلع عنها وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملأة منها حين ابتدأ فيها، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا لها» فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاماً، فجعلوه في ثوب وحملوها على بعيرها، ووضعوا الثوب بين يديها قال لها: «تعلمين ما رزأنا من مائك شيئاً ولكن الله هو الذي سقانا» فأتت أهلها فقالت: العجب، لقيني رجلان فذهبا بي إلى الرجل الذي يقال له الصابىء ففعل كذا وكذا، فوالله إنه لأسحر الناس كلهم أو إنه لرسول الله حقاً، فقالت لقومها: ما أرى أن هؤلاء يدعونكم عمداً فهل لكم في الإسلام[1]. الحديث.

وعن أبي قتادة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم وتأتون الماء غداً إن شاء الله» فانطلق الناس لا يلوي أحد على أحد، فبينا رسول الله ﷺ يسير حتى ابهارَّ الليل ـ أي ابيض ـ فمال عن الطريق فوضع رأسه ثم قال: «احفظوا علينا صلاتنا» فكان أول من استيقظ رسول الله ﷺ والشمس في ظهره، ثم قال: «اركبوا»، فركبنا فسرنا، حتى إذا ارتفعت الشمس نزل، ثم دعا بميضأة كانت معي فيها شيء من ماء، فتوضأ منها وضوءاً، قال: «وبقي شيء من ماء»، ثم قال: «احفظ علينا ميضأتك» فسيكون لها نبأ، ثم أذن بلال بالصلاة، فصلى رسول الله ﷺ ركعتين ثم صلى الغداة، وركب وركبنا معه، فانتهينا إلى الناس حين اشتد النهار وحمي كل شيء، وهم يقولون: يا رسول الله هلكنا وعطشنا، فقال: « لا هلك عليكم» ودعا بالميضأة فجعل يصب وأبو قتادة يسقيهم فلم يعدُ أن رأى الناس ماء في الميضأة فتكابوا عليها، فقال رسول الله ﷺ: «أحسنوا الملأ[2] كلكم سيروى»، قال: ففعلوا، فجعل رسول الله ﷺ يصب وأسقيهم، حتى ما بقي غيري وغير رسول الله ﷺ، ثم صب فقال لي: «اشرب» فقلت: لا أشرب

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التيمم باب (٦) رقم الحديث (٣٤٤ ـ ٣٤٨ ـ ٣٥٧١) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٤٣٥ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٧٨ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٢١٩.

(٢) الملء، أي لأوانيكم.

حتى تشرب يا رسول الله، فقال: «إن ساقي القوم آخرهم» قال: فشربت وشرب[1]، الحديث رواه مسلم.

وعن أنس قال: أصاب الناس سنة[2] على عهد رسول الله ﷺ، فبينما النبي ﷺ يخطب في يوم الجمعة، قام أعرابي فقال: يا رسول الله، هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا، فرفع يديه وما نرى في السماء قزعة[3]، «فوالذي نفسي بيده» ما وضعهما حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته، فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد ومن بعد الغد، حتى الجمعة الأخرى، وقام ذلك الأعرابي أو غيره وقال: يا رسول الله، تهدم البناء وغرق المال، فادع الله لنا، فرفع يديه فقال: «اللهم حوالينا ولا علينا»، فما يشير إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت، وصارت المدينة مثل الجوبة، وسال الوادي قناة شهراً، ولم يجيء أحد من ناحية إلا حدث بالجود. وفي رواية قال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر» فأقلعت وخرجنا نمشي في الشمس[4]. رواه البخاري ومسلم.

و «الجوبة» ـ بفتح الجيم والموحدة بينهما واو ساكنة ـ الحفرة المستديرة الواسعة، وكل منفتق بلا بناء جوبة، أي حتى صار الغيم والسحاب محيطاً بآفاق المدينة.
و «الجـود»: ـ بفتح الجيم وإسكان الواو ـ المطر الواسع الغزير.

وعن عبد الله بن عباس، أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حدثنا عن ساعة العسرة فقال عمر: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الرجل فلا يرجع حتى يظن أن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساجد رقم الحديث (٣١١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٢٨٩ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٨٤ وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/ ٣٨٨ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٩١١) وفي كنز العمال (٤١٠٤٠).
(٢) أي شدة وجهد من التعب.
(٣) قزعة: أي قطعة من سحاب متفرق أو رقيقة.
(٤) أخرجه البخاري في كتاب الاستسقاء باب (٦) رقم الحديث (١٠١٣) وفي صحيح مسلم كتاب الاستسقاء ٨/ ٩ وفي سنن النسائي ٣/ ١٦٠ و ١٦١ وفي ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة باب (١٥٤) رقم الحديث (١٢٦٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٠٤ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٣٥٣ وفي الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٢٨ وفي الأدب المفرد للبخاري رقم الحديث (٦١٢) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٣/ ١٢ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٣٤٦ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ١٣٩. وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٩٥. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٩٠٢)، وفي كنز العمال (٢٣٥٤٠ ـ ٢٣٥٤٨).

رقبته ستنقطع، حتى إن كان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده. فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيراً، فادع الله لنا، قال: «أتحبون ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فانسكبت، فملؤوا ما معهم من آنية، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها تجاوز العسكر(١)، قال الحافظ المنذري: أخرجه البيهقي في الدلائل، وشيخه ابن بشران ثقة، ودعلج ثقة، وابن خزيمة أحد الأئمة، ويونس احتج به مسلم في صحيحه وابن وهب وعمرو بن الحارث ونافع بن جبير احتج بهم البخاري ومسلم، وعتبة فيه مقال. وقد رواه القاضي عياض في الشفاء مختصراً وروى ابن إسحاق في مغازيه نحوه.

وروى صاحب «مصباح الظلام» عن عمرو بن شعيب: أن أبا طالب قال: كنت مع ابن أخي - يعني النبي ﷺ - بذي المجاز، فأدركني العطش، فشكوت إليه فقلت: يا ابن أخي عطشت، وما قلت له ذلك وأنا أرى عنده شيئاً إلا الجزع، فثنى وركه ثم نزل وقال: «يا عم، أعطشت؟» فقلت: نعم، فأهوى بعقبه إلى الأرض فإذا بالماء، فقال: «اشرب يا عم فشربت»(٢) وكذا رواه ابن سعد وابن عساكر.

ومن ذلك: تكثير الطعام القليل ببركته ودعائه ﷺ(٣). عن جابر، في غزوة الخندق قال: فانكفأت إلى امرأتي، فقلت هل عندك شيء، فإني رأيت بالنبي ﷺ خمصاً شديداً، فأخرجت جراباً فيه صاع من شعير، ولنا بُهيمة داجن فذبحتها وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة ثم جئت النبي ﷺ فساررته فقلت: يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنت صاعاً من شعير. فتعال أنت ونفر معك. فصاح النبي ﷺ: «يا أهل الخندق، إن جابراً صنع سؤراً، فحي هلا بكم» فقال ﷺ: «لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء برجال» فأخرجت له عجيناً فبصق فيه وبارك ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك ثم قال: «ادع خابزة فلتخبز معك، واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها» وهم ألف. فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو(٤)، رواه البخاري ومسلم. وقوله: «فانكفأت» أي: انقلبت. وقوله: «داجن» يعني سمينة.

---

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٢٣١. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٦/ ١٩٤. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٣٥٧. وفي موارد الظمآن للهيثمي (١٧٠٧) وفي كنز العمال (٣٥٣٥٨).

(٢) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ٢٩٠ وابن سعد في الطبقات ١/ ١٢١.

(٣) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٠٤ ودلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٨٣.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب (٣٠) رقم الحديث (٤١٠٢) وفي صحيح مسلم كتاب الأشربة رقم الحديث (١٤١) وفي البداية والنهاية ٤/ ١٠٠ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٢٦ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٦٧.

وقوله: «فذبحتها» بسكون الحاء، و «طحنت» بسكون التاء، يعني إن الذي ذبح هو جابر، والتي طحنت هي امرأته سهيلة بنت معوذ الأنصارية. وقوله: «سورا» بضم المهملة وسكون الواو بغير همز. قال ابن الأثير: أي طعاماً يدعو إليه الناس. قال: اللفظة فارسية. وقوله: «فحي هلا بكم» كلمة استدعاء فيه حث، أي هلموا مسرعين. وقوله: «واقدحي» أي: اغرفي. وقوله: «إن برمتنا لتغط» بالغين المعجمة والطاء المهملة، أي: تغلي ويسمع غطيطها.

وعن أنس قال: قال أبو طلحة لأم سليم، لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً، أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء، فقالت: نعم، فأخرجت أقراصاً من شعير، ثم أخرجت خماراً، فلفت الخبز ببعضه ثم دسته تحت يدي ولاثتني ببعضه ـ أي أدارت بعض الخمار على رأسي مرتين كالعمائم ـ ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ، فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس، فسلمت عليه، فقال لي رسول الله ﷺ: «أرسلك أبو طلحة؟» فقلت: نعم، قال: «الطعام؟» قلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه: «قوموا» فانطلق وانطلقت بين أيديهم، حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم، فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: «هلمي يا أم سليم ما عندك» فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ﷺ ففت، وعصرت أم سليم عكة فأدمته، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» ثم لعشرة، فأكل القوم كلهم وشبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً[1]. رواه البخاري ومسلم.

والمراد بالمسجد ـ هنا ـ الموضع الذي أعده النبي ﷺ للصلاة فيه حين محاصرة الأحزاب للمدينة في غزوة الخندق. وفي رواية لمسلم: أنه قال: «ائذن لعشرة» فدخلوا فقال: «كلوا وسموا الله»، فأكلوا حتى فعل ذلك بثمانين رجلاً، ثم أكل النبي ﷺ وأهل البيت وترك سؤراً. أي بقية وهو بالهمز. وفي رواية للبخاري: قال: «أدخل علي عشرة»، حتى عد أربعين، ثم أكل النبي ﷺ، فجعلت أنظر هل نقص منها شيء؟[2].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (٢٥) رقم الحديث (٣٥٧٨) ومسلم في صحيحه كتاب الأشربة رقم الحديث (١٤٢) وفي موطأ الإمام مالك كتاب صفة النبي باب (١٠) رقم الحديث (١٩) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/٨٩ وفي التمهيد لابن عبد البر ١/٢٨٩ وفي شرح السنة للبغوي ١٣/٣٠١ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم (١٤٧) وفي اتحاف السادة المتقين ٧/١٦٩ وفي البداية والنهاية ٦/١٠٨.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الأشربة رقم الحديث (١٤٣).

وفي رواية يعقوب: أدخل علي ثمانية ثمانية، فما زال حتى دخل عليها ثمانون، ثم دعاني ودعا أمي وأبا طلحة فأكلنا حتى شبعنا. انتهى.

وهذا يدل على تعدد القصة، فإن أكثر الروايات فيها أنه أدخلهم عشرة عشرة سوى هذه، قاله الحافظ ابن حجر، قال: وظاهره أنه ﷺ دخل لمنزل أبي طلحة وحده، وصرح بذلك في رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى ولفظه: فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى الباب قال لهم: «اقعدوا» ودخل. وفي رواية يعقوب عن أنس: فقال أبو طلحة: يا رسول الله إنما أرسلت أنساً يدعوك وحدك، ولم يكن عندنا ما يشبع من أرى، وفي رواية عمرو بن عبد الله عن أنس: فقال أبو طلحة: إنما هو قرص، فقال: «إن الله سيبارك فيه»(1).

قال العلماء: وإنما أدخلهم عشرة عشرة ـ والله أعلم ـ لأنها كانت قصعة واحدة، لا يمكن الجماعة الكثيرة أن يقدروا على التناول منها مع قلة الطعام، فجعلهم عشرة عشرة لينالوا من الأكل ولا يزدحموا.

وأما قوله ﷺ: «أرسلك أبو طلحة؟» قلت نعم، قال: «الطعام؟» قلت: نعم، فقال لمن معه: «قوموا» فظاهره: أن النبي ﷺ فهم أن أبا طلحة استدعاه إلى منزله، فلذلك قال لمن عنده قوموا، وأول الكلام يقتضي أن أم سليم وأبا طلحة أرسلا الخبز مع أنس؟!.

[فيجمع: بأنهما أرادا بإرسال الخبز مع أنس](2) أن يأخذه النبي ﷺ فيأكله، فلما وصل أنس ورأى كثرة الناس حول النبي ﷺ استحيى، وظهر له أن يدعو النبي ﷺ ليقوم معه وحده إلى المنزل فيحصل مقصودهم من إطعامه.

ويحتمل أن يكون ذلك عن رأي من أرسله، عهد إليه أنه إذا رأى كثرة الناس أن يستدعي النبي ﷺ وحده، خشية أن لا يكفي ذلك النبي ﷺ هو ومن معه، وقد عرفوا إيثاره ﷺ، وأنه لا يأكل وحده.

ووقع في رواية يعقوب بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس ـ عند أبي نعيم وأصله عند مسلم ـ فقال لي أبو طلحة: يا أنس اذهب فقم قريباً من رسول الله ﷺ، فإذا قام فدعه حتى يتفرق عنه أصحابه، ثم اتبعه حتى إذا قام على عتبة بابه فقل له: إن أبي يدعوك، وفيه: فقال أبو طلحة: يا رسول الله إنما أرسلت أنساً يدعوك وحدك، ولم يكن عندنا ما

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٤٨) رقم الحديث (٥٤٥٠) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٤٧ وفي المعجم الكبير للطبراني ٥/ ١٠٨ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٦٩.

(2) عن فتح الباري ٦/ ٧٣٠.

يشبع من أرى، فقال: «ادخل فإن الله سيبارك فيما عندك».

وفي رواية مبارك بن فضالة: فقال هل من سمن؟ فقال أبو طلحة: قد كان في العكة شيء فجاء بها، فجعلا يعصرانها حتى خرج، ثم مسح رسول الله ﷺ القرص فانتفخ، وقال: «بسم الله» فلم يزل يصنع ذلك والقرص ينتفخ حتى رأيت القرص في الجفنة يتسع(١). وفي رواية النضر بن أنس: فجئت بها ففتح رباطها ثم قال: «بسم الله، اللهم أعظم فيها البركة» وعرف بهذا المراد بقوله في رواية الصحيحين: «فقال فيها ما شاء الله أن يقول». وفي رواية أنس عند أحمد: أن أبا طلحة رأى رسول الله ﷺ طاوياً. وعند أبي يعلى من طريق محمد بن سيرين عن أنس: أن أبا طلحة بلغه أنه ليس عند رسول الله ﷺ طعام فآجر نفسه بصاع من شعير فعمل بقية يومه ذلك ثم جاء به الحديث.

وفي رواية عمرو بن عبد الله بن أبي طلحة عند مسلم وأبي يعلى قال: رأى أبو طلحة رسول الله ﷺ مضطجعاً ينقلب ظهراً لبطن. وفي رواية يعقوب بن عبد الله بن أبي طلحة عند مسلم أيضاً عن أنس قال: جئت رسول الله ﷺ فوجدته جالساً مع أصحابه يحدثهم وقد عصب بطنه بعصابة، فسألت بعض أصحابه فقال من الجوع، فذهبت إلى أبي طلحة فأخبرته، فدخل على أم سليم فقال: هل من شيء.

وفي رواية محمد بن كعب عن أنس عند أبي نعيم قال: جاء أبو طلحة إلى أم سليم فقال: «أعندك شيء؟» فإني مررت على النبي ﷺ وهو يقرىء أصحاب الصفة سورة النساء وقد ربط على بطنه حجراً».

وعن أبي هريرة قال: لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقال عمر: يا رسول الله ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة، فقال: «نعم» فدعا بنطع فبسط، ثم دعا بفضل أزوادهم فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع شيء يسير، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة ثم قال: «خذوا في أوعيتكم» فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه. قال: فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجز عن الجنة»(٢) رواه مسلم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٢٤٢. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٦٩ وفي البداية والنهاية ٦/ ١١٢.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الايمان باب (١٠) رقم الحديث (٤٥). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١١. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ١٢٠ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم (١٤٩) وفي تفسير القرطبي ٨/ ٢٧٩. وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٧٠ ـ ١٩٠. وفي البداية والنهاية ٦/ ١١٨ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٩٣.

وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ عروساً بزينب، فعمدت أمي أم سليم إلى تمر وسمن وأقط فصنعت حيساً، فجعلته في تور، فقالت: يا أنس اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ فقل: بعثت بهذا إليك أمي، وهي تقرئك السلام، فقال رسول الله ﷺ: «ضعه» ثم قال: «اذهب فادع لي فلاناً وفلاناً» رجالاً سماهم، «وادع لي من لقيت» فدعوت من سمى ومن لقيت، فرجعت فإذا البيت غاص بأهله، قيل لأنس: عدد كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمائة، فرأيت النبي ﷺ وضع يده على تلك الحيسة وتكلم بما شاء الله، ثم جعل يدعو عشرة عشرة يأكلون منه، ويقول لهم: «اذكروا اسم الله، وليأكل كل رجل مما يليه» قال: فأكلوا حتى شبعوا، فخرجت طائفة بعد طائفة حتى أكلوا كلهم، قال لي: «يا أنس ارفع فرفعت، فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت»[1] رواه البخاري ومسلم.

وعن جابر أن أم مالك كانت تهدي للنبي ﷺ في عكة لها سمناً، فيأتيها فيسألونها الأدم، وليس عندهم شيء، فتعمد إلى الذي كانت تهدي فيه للنبي ﷺ فتجد فيه سمناً، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته، فأتت النبي ﷺ فقال: «أعصرتيها؟» قالت: نعم، قال: «لو تركتيها ما زال قائماً»[2] رواه مسلم.

وعنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ يستطعمه، فأطعمه شطر وسق من شعير، فما زال يأكل منه وامرأته وضيفه حتى كاله، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «لو لم تكله لأكلتم منه ولقام بكم»[3]. رواه مسلم أيضاً.

والحكمة في ذهاب بركة السمن حين عصرت العكة، وإعدام بركة الشعير حين كاله، أن عصرها وكيله مضاد للتسليم على رزق الله تعالى، ويتضمن التدبير والأخذ بالحول والقوة، وتكلف الإحاطة بأسرار حكم الله تعالى وفضله، فعوقب فاعله بزواله، قاله النووي.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب (٦٥) رقم الحديث (٥١٦٣) وفي صحيح مسلم كتاب النكاح رقم الحديث (٩٤) وفي تفسير ابن كثير ٦/ ٤٤٢ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٧٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل باب (٣) رقم الحديث (٨). وفي المسند للإمام أحمد ابن حنبل ٣/ ٣٤٠. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ١١٤. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٧٠ وفي البداية والنهاية ٦/ ١٢٣ وفي فتح الباري ١١/ ٣٣٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب (٣) رقم الحديث (٩). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٣٧. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ١١٤. وفي المستدرك للحاكم ٣/ ٢٤٦. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٧٠ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٩٤١) وفي البداية والنهاية ٦/ ١٢٣. وفي فتح الباري ١١/ ٣٣٨.

[حديث القصعة][1]

وعن أبي العلاء سمرة بن جندب قال: كنا مع النبي ﷺ نتداول من قصعة من غدوة حتى الليل، يقوم عشرة ويقعد عشرة، قلنا: فما كانت تمد؟ قال: «من أي شيء تعجب، ما كانت تمد إلا من هاهنا» وأشار بيده إلى السماء[2]، رواه الترمذي والدارمي.

وعنه: أُتي النبي ﷺ بقصعة فيها لحم، فتعاقبوها من غدوة حتى الليل، يقوم قوم ويقعد آخرون، فقال رجل لسمرة: هل كانت تمد؟ قال: ما كانت تمد إلا من هاهنا، وأشار بيده إلى السماء. رواه الدارمي وابن أبي شيبة والترمذي والبيهقي والحاكم وصححوه، وأبو نعيم.

وفي حديث عبد الرحمن بن أبي بكر: كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة، وذكر الحديث أنه عجن صاع، وصنعت شاة فشوي سواد بطنها، قال: وأيم الله، ما من الثلاثين ومائة إلا وقد حزَّ له حزة من سواد بطنها، ثم جعل منها قصعتين فأكلنا أجمعون وفضل في القصعتين فحملته على البعير[3]. رواه البخاري.

وعن أبي هريرة قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أدعو أهل الصفة، فتتبعتهم حتى جمعتهم، فوضعت بين أيدينا صحفة فأكلنا ما شئنا وفرغنا، وهي مثلها حين وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع. رواه ابن أبي شيبة والطبراني وأبو نعيم.

وعن علي بن أبي طالب: جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وكانوا أربعين، منهم قوم يأكلون الجذعة ويشربون الفرق، فصنع لهم مداً من طعام، فأكلوا حتى شبعوا، وبقي كما هو، ثم دعا بعس فشربوا حتى رووا، وبقي كأنه لم يشرب منه، رواه في الشفاء.

ومن ذلك: إبراء ذوي العاهات، وإحياء الموتى، وكلامهم، وكلام الصبيان وشهادتهم له ﷺ بالنبوة[4].

روى البيهقي في الدلائل: أنه ﷺ دعا رجلاً إلى الإسلام، فقال: لا أؤمن بك حتى تحيي لي ابنتي، فقال ﷺ: «أرني قبرها» فأراه إياه، فقال ﷺ: «يا فلانة»، فقالت: لبيك وسعديك. فقال ﷺ: «أتحبين أن ترجعي إلى الدنيا؟» فقالت: لا والله يا رسول الله، إني

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٩٣ والبداية والنهاية ٦/ ١١٦.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب (٥) رقم الحديث (٣٦٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الهبة باب (٢٨) رقم الحديث (٢٦١٨) وفي صحيح مسلم كتاب الأشربة رقم الحديث (١٧٥) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ١٩٧ و ١٩٨ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٢١٥. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٩٥. وفي البداية والنهاية ٦/ ١١٧ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٩٢.

(٤) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٦٠ وما بعدها و ٦/ ١٦٧ ودلائل النبوة للبيهقي ٦/ ١٨ ـ ٥٠ ـ ٥٥.

وجدت الله خيراً لي من أبوي، ورأيت الآخرة خيراً لي من الدنيا.

وروى الطبري عن عائشة أن النبي ﷺ نزل الحجون كئيباً حزيناً، فأقام به ما شاء الله عز وجل ثم رجع مسروراً قال: «سألت ربي عز وجل فأحيا لي أمي فآمنت بي ثم ردها».

وكذا روي من حديث عائشة أيضاً إحياء أبويه ﷺ حتى آمنا به، أورده السهيلي وكذا الخطيب في السابق واللاحق، لكن قال السهيلي: إن في إسناده مجاهيل، وقال ابن كثير: إنه منكر جداً، وتقدم البحث في ذلك في أوائل المقصد الأول.

وعن أنس أن شاباً من الأنصار توفي وله أم عجوز عمياء، فسجيناه وعزيناها، فقالت: مات ابني؟ قلنا: نعم، قالت: اللهم إن كنت تعلم أني هاجرت إليك وإلى نبيك رجاء أن تعينني على كل شدة فلا تحملن علي هذه المصيبة، فما برحنا أن كشف الثوب عن وجهه فطعم وطعمنا. رواه ابن عدي وابن أبي الدنيا والبيهقي وأبو نعيم.

وعن النعمان بن بشير قال: كان زيد بن خارجة من سروات الأنصار، فبينما هو يمشي في طريق من طرق المدينة بين الظهر والعصر إذ خرَّ فتوفي، فأعلمت به الأنصار، فأتوه فاحتملوه إلى بيته فسجوه كساء وبردين، وفي البيت نساء من نساء الأنصار يبكين عليه، ورجال من رجالهم، فمكث على حاله حتى إذا كان بين المغرب والعشاء الآخرة سمعوا صوت قائل يقول: أنصتوا أنصتوا، فنظروا فإذا الصوت من تحت الثياب، فحسروا عن وجهه وصدره، فإذا القائل يقول على لسانه: محمد رسول الله النبي الأمي خاتم النبيين، لا نبي بعده، كان ذلك في الكتاب الأول، ثم قال: صدق صدق، ثم قال: هذا رسول الله، السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب من عاش بعد الموت.

وعن سعيد بن المسيب أن رجلاً من الأنصار توفي، فلما كفن أتاه القوم يحملونه تكلم فقال: محمد رسول الله، أخرجه أبو بكر بن الضحاك. وأخرج أبو نعيم: أن جابراً ذبح شاة وطبخها، وثرد في الجفنة، وأتى به رسول الله ﷺ فأكل القوم، وكان ﷺ يقول لهم: «كلوا ولا تكسروا عظماً»، ثم إنه ﷺ جمع العظام ووضع يده عليها ثم تكلم بكلام فإذا بالشاة قد قامت تنفض أذنيها[1]، كذا رواه والله أعلم؟!.

وعن معرض بن معيقيب اليماني قال: حججت حجة الوداع، فدخلت داراً بمكة، فرأيت فيها رسول الله ﷺ، ورأيت منه عجباً، جاء رجل من أهل اليمامة بغلام يوم ولد، فقال له رسول الله ﷺ «يا غلام، من أنا» قال: أنت رسول الله، قال: «صدقت بارك الله

---

(١) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٣٠٢.

فيك»، ثم إن الغلام لم يتكلم بعد ذلك حتى شب، فكنا نسميه مبارك اليمامة[1]. رواه البيهقي من حديث معرض ـ بالضاد المعجمة ـ.

وعن فهد بن عطية، أن النبي ﷺ أتي بصبي قد شب لم يتكلم قط فقال: «من أنا»؟ قال: أنت رسول الله، رواه البيهقي.

وعن ابن عباس قال: إن امرأة جاءت بابن لها إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن ابني بـه جنون، وإنه ليأخذه عند غدائنا وعشائنا، فمسح رسول الله ﷺ صدره فثع ثعة وخرج من جوفه مثل الجرو الأسود يسعى[2]. رواه الدارمي. وقوله «ثع» يعني قاء.

وأصيبت يوم أحد عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته، فأتى بها إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي امرأة أحبها أخشى إن رأتني تقذرني فأخذها رسول الله ﷺ بيده وردها إلى موضعها وقال: «بسم الله اللهم اكسه جمالاً» فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما نظراً، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى[3].

وقد وفد على عمر بن عبد العزيز رجل من ذريته فسأله عمر: من أنت؟ فقال:

أبـونـا الـذي سـالـت علـى الخـد عينـه ... فـردت بكـف المصطفـى أيمـا رد
فعـادت كمـا كـانـت لأول أمـرهـا ... فيـا حسـن مـا عيـن ويـا حسـن مـا خـد

فوصله عمر وأحسن جائزته[4]. قال السهيلي: ورواه محمد بن أبي عثمان عن عمار بن نصر عن مالك بن أنس عن محمد بن عبدالله بن أبي صعصعة عن أبيه عن أبي سعيد عن أخيه قتادة بن النعمان قال: أصيبت عيناي يوم أحد فسقطتا على وجنتي، فأتيت بهما النبي ﷺ فأعادهما مكانهما وبصق فيهما فعادتا تبرقان، قال الدارقطني: هذا حديث غريب تفرد به عمار بن نصر وهو ثقة، ورواه الدارقطني عن إبراهيم الحربي عن عمار ابن نصر.

---

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٥٩ وفي البداية والنهاية ٩/ ١٦٧ وما بعدها. وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٩٥ وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣/ ٤٤٣ وفي كنز العمال (٣٥٤٠١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٢٥٤ و ٢٦٨ وفي سنن الدارمي في المقدمة (٤) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ١٨٦.

(٣) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢٥٢. وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٨٧.

(٤) وقال بعضهم: [البسيط]

إن كـان مـوسـى سقـى الاسبـاط مـن حجـر ... فـإن فـي الكـف معنًـى ليـس فـي الحجـر
إن كـان عيسـى بـرا الاعمـى بـدعـوتـه ... فكـم بـراحتـه قـد رد مـن بصـر

وهذه المعجزات الثلاثة (خروج الماء ـ ورد عين قتادة ـ وتسبيح الطعام) أعجب من إحياء الموتى الذي هو إحدى معجزات المسيح.

وأخرج الطبراني وأبو نعيم عن قتادة قال: كنت يوم أحد أتقي السهام بوجهي دون وجه رسول الله ﷺ، فكان آخرها سهماً ندرت منه حدقتي فأخذتها بيدي وسعيت إلى رسول الله ﷺ، فلما رآها في كفي دمعت عيناه فقال«اللهم قِ قتادة كما وقى وجه نبيك بوجهه، فاجعلها أحسن عينيه وأحدّهما نظراً»[1].

وفي البخاري في غزوة خيبر أنه ﷺ قال«أين علي بن أبي طالب» فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال«فأرسلوا إليه» فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع[2]. وعند الطبراني من حديث علي قال: فما رمدت ولا صدعت منذ دفع إلي رسول الله ﷺ الراية يوم خيبر. وفي رواية مسلم من طريق إياس ابن سلمة عن أبيه قال: فأرسلني النبي ﷺ إلى علي فجئت به أقوده أرمد، فبصق في عينيه فبرأ. وعند الحاكم من حديث علي قال: فوضع ﷺ رأسي في حجره ثم بصق في راحته فدلك بها عيني. وعند الطبراني: فما اشتكيتهما حتى الساعة، ودعا لي ﷺ فقال«اللهم اذهب عنه الحر والقر»، قال: فما اشتكيتهما حتى يومي هذا[3].

وأصيب سلمة يوم خيبر أيضاً بضربة في ساقه، فنفث فيها ﷺ ثلاث نفثات فما اشتكاها قط[4]. رواه البخاري. ونفث في عيني فديك وكانتا مبيضتين لا يبصر بهما شيئاً، وكان وقع على بيض حية، فكان يدخل الخيط في الإبرة وإنه لابن ثمانين سنة وإن عينيه لمبيضتان، رواه ابن أبي شيبة والبغوي والبيهقي والطبراني وأبو نعيم.

---

(١) ذكره الزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب (٣٩) رقم الحديث (٤٢١٠) وفي صحيح مسلم كتاب الجهاد رقم الحديث (١٣٢) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ١٨٥ و ٥/ ٣٣٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٠٧ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٠٥ وفي التمهيد لابن عبد البر ٢/ ٢١٨ وفي المعجم الكبير للطبراني ٦/ ١٨٧ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٨٨ وفي كنز العمال (٣٠١١٩ ـ ٣٦٤٩٣ ـ ٣٦٤٩٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب (١١) رقم الحديث (١١٧) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٩٩ وفي البداية والنهاية ٧/ ٣٥٢ وفي فتح الباري ٧/ ٦٠٦.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الطب باب (١٩) رقم الحديث (٣٨٩٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٩٨.

فيما خصّه الله تعالى به من المعجزات وشرفه به على سائر الأنبياء من الكرامات والآيات البيّنات(١)

اعلم نور الله قلبي وقلبك، ووقدس سري وسرك، أن الله تعالى قد خص نبينا ﷺ بأشياء لم يعطها لنبي قبله، وما خص نبي بشيء إلا وكان لسيدنا محمد ﷺ مثله، فإنه أوتي جوامع الكلم، وكان نبياً وآدم بين الروح والجسد، وغيره من الأنبياء لم يكن نبياً إلا في حال نبوته وزمان رسالته.

ولما أعطي هذه المنزلة علمنا أنه ﷺ الممد لكل إنسان كامل مبعوث ويرحم الله الأديب شرف الدين الأبوصيري فلقد أحسن حيث قال:

وكل آي أتى الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهم
فإنه شمس فضل هم كواكبها يظهرن أنوارها للناس في الظلم

قال العلامة ابن مرزوق: يعني أن كل معجزة أتى بها كل واحد من الرسل فإنما اتصلت بكل واحد منهم من نور محمد ﷺ وما أحسن قوله: فإنما اتصلت من نوره بهم فإنه يعطي أن نوره ﷺ لم يزل قائماً به ولم ينقص منه شيء، ولو قال: فإنما هي من نوره لتوهم أنه وزع عليهم وقد لا يبقى له منه شيء. وإنما كانت آيات كل واحد من نوره ﷺ لأنه شمس فضل هم كواكب تلك الشمس يظهرن ـ أي تلك الكواكب ـ أنوار تلك الشمس للناس في الظلم. فالكواكب ليست مضيئة بالذات وإنما هي مستمدة من الشمس فهي عند غيبة الشمس تظهر نور الشمس. فكذلك الأنبياء قبل وجوده ﷺ كانوا يظهرون فضله فجميع ما ظهر على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام سواه من الأنوار فإنما هو من نوره الفائض ومدده الواسع من غير أن ينقص منه شيء.

وأول ما ظهر ذلك في آدم عليه السلام، حيث جعله الله خليفة وأمده بالأسماء كلها من مقام جوامع الكلم التي لمحمد ﷺ فظهر بعلم الأسماء كلها على الملائكة القائلين: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ [البقرة: ٣٠]، ثم توالت

(١) انظر البداية والنهاية ٦/ ٢٨٥.

الخلائف في الأرض إلى أن وصل إلى زمان وجود صورة جسم نبينا ﷺ الشريف لإظهار حكم منزلته، فلما برز كان كالشمس اندرج في نوره كل نور، وانطوى تحت منشور آياته كل آية لغيره من الأنبياء، ودخلت الرسالات كلها في صلب نبوته، والنبوات كلها تحت لواء رسالته، فلم يعط أحدمنهم كرامة أو فضيلة إلا وقد أعطي ﷺ مثلها.

فآدم عليه الصلاة والسلام أعطي أن الله تعالى خلقه بيده، فأعطي سيدنا محمد ﷺ شرح صدره، وتولى الله تعالى شرح صدره بنفسه، وخلق فيه الإيمان والحكمة، وهو الخلق النبوي، فتولى من آدم الخلق الوجودي ومن سيدنا محمد ﷺ الخلق النبوي، مع أن المقصود ـ كما مر ـ من خلق آدم خلق نبينا في صلبه، فسيدنا محمد ﷺ المقصود وآدم الوسيلة، والمقصود سابق على الوسيلة.

وأما سجود الملائكة لآدم، فقال فخر الدين الرازي في تفسيره: إن الملائكة أمروا بالسجود لآدم لأجل أن نور محمد ﷺ كان في جبهته، ولله در القائل:

تجليـــت جـــل الله فـــي وجـــه آدم فصلـىٰ لـه الأمـلاك حيـن تـوسلـوا(1)

وعن أبي عثمان الواعظ، فيما حكاه الفاكهاني قال: سمعت الإمام سهل بن محمد يقول: هذا التشريف الذي شرف الله تعالى به محمداً ﷺ بقوله: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ [الأحزاب: ٥٦] الآية أتم وأجمع من تشريف آدم عليه السلام بأمر الملائكة له بالسجود، لأنه لا يجوز أن يكون الله مع الملائكة في ذلك التشريف، فتشريف يصدر عنه تعالى وعن الملائكة والمؤمنين أبلغ من تشريف تختص به الملائكة، انتهى.

قال بعضهم: وأما تعليم آدم أسماء كل شيء، فأخرج الديلمي في مسند الفردوس

---

(١) يستحيل على الله عقلاً أن يكون صورة كالإنسان لأنه لو كان صورة لاحتاج إلى مصوِّر. روى مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ. «إذا قاتل أحدكم أخاه فليتجنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته».

والمراد بهذا الحديث إن أعيد الضمير إلى الأخ «أن الله خلق آدم على صورة المضروب، وإن أعيد الضمير إلى الله كان على معنى المِلْك». فتكون الإضافة للتشريف فكأنه قال خلقه على الصورة التي هي مِلْكٌ له مشرفة عنده.

وهكذا يقال في حديث: «لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورة الرحمٰن» فمعنى صورة الرحمٰن: صورته التي خلقها وشرّفها كما قال: ﴿لما خلقت بيدي﴾ [ص: ٧٥] وكالإضافة في قوله ﴿ناقة الله﴾ [الأعراف: ٧٣ وهود: ٦٤] ولا يصح تفسير الحديث بما قال بعضهم من أن المراد أنه خلقه على صفاته تعالى من السمع والبصر والعلم، فإن صفات الله لا تفارق ذاته. ولا يصح عقلاً أن يتصف العبد بصفة من صفاته تعالى لأن الحادث لا يتصف بالأزلي فلا يكون الحادث أزلياً ولا الأزلي حادثاً.

من حديث أبي رافع قال: رسول الله ﷺ: «مثلت لي أمتي في الماء والطين، وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها»[1] فكما أن آدم علم أسماء العلوم كلها كذلك نبينا ﷺ، وزاد عليه ـ واصل الله صلاته وسلامه عليه ـ بعلم ذواتها. ولله در الأبوصيري حيث قال:

لـــك ذات العلـــوم مـــن عـــالـــم الغيـــــــب ومنهـــــا لآدم الأسمــــــاء

ولا ريب أن المسميات أعلى رتبة من الأسماء، لأن الأسماء يؤتى بها لتبين المسميات، فهي المقصودة بالذات، وإليه الإيماء بقوله: «ذات العلوم»، والأسماء مقصودة لغيرها فهي دونها، ففضل العالم بحسب فضل معلومه.

● وأما إدريس عليه السلام، فرفعه الله مكاناً علياً[2]، فأعطي سيدنا محمد ﷺ المعراج، ورفع إلى مكان لم يرفع إليه غيره.

● وأما نوح عليه السلام فنجاه الله تعالى ومن آمن معه من الغرق ونجاه من الخسف، فأعطي سيدنا محمد ﷺ أنه لم تهلك أمته بعذاب من السماء. قال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال: ٣٣].

وأما قول الفخر الرازي في تفسيره: «أكرم الله نوحاً بأن أمسك سفينته على الماء وفعل بمحمد ﷺ أعظم منه. روي أنه ﷺ كان على شط ماء وقعد عكرمة بن أبي جهل فقال: إن كنت صادقاً فادع ذلك الحجر الذي في الجانب الآخر فليسبح ولا يغرق، فأشار إليه ﷺ فانقلع الحجر من مكانه وسبح حتى صار بين يدي رسول الله ﷺ وشهد له بالرسالة، فقال له النبي ﷺ: «يكفيك هذا؟» فقال: حتى يرجع إلى مكانه»[3] فلم أره لغيره والله أعلم بحاله.

● وأما إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فكانت عليه نار نمروذ برداً وسلاماً، فأعطي سيدنا محمد ﷺ نظير ذلك، إطفاء نار الحرب عنه ﷺ وناهيك بنار حطبها السيوف ووهجها الحتوف وموقدها الحسد ومطلبها الروح والجسد، قال الله تعالى: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ [المائدة: ٦٤]. فكم أرادوا أن يطفئوا النور بالنار، وأبى الجبار إلا أن يتم نوره وأن يخمد شرورهم ويحمد لمحه ﷺ سروره وظهوره.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١/٤٩ وفي كنز العمال (٣٤٥٨٨).

(٢) سورة مريم: ٥٧.

(٣) ذكره ابن حجر في تغليق التعليق (١٩٣).

ويذكر أنه ﷺ مر ليلة المعراج على بحر النار الذي دون سماء الدنيا مع سلامته منه، كما روي مما رأيته في بعض الكتب. وروى النسائي أن محمد بن حاطب قال: كنت طفلاً فانصب القدر علي واحترق جلدي كله، فحملني أبي إلى رسول الله ﷺ فتفل ﷺ في جلدي ومسح بيده على المحترق وقال: «أذهب البأس رب الناس»، فصرت صحيحاً لا بأس بي[1].

وأما ما أعطيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام من مقام الخلة فقد أعطيه نبينا ﷺ، وزاد بمقام المحبة، وقد روي في حديث الشفاعة أن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام إذا قيل له: اتخذك الله خليلاً فاشفع لنا قال: «إنما كنت خليلاً من وراء وراء» اذهبوا إلى غيري إلى أن تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فيقول: «أنا لها، أنا لها»[2] وهذا يدل على أن نبينا ﷺ كان خليلاً مع رفع الحجاب وكشف الغطاء ولو كان خليلاً من وراء وراء لاعتذر كما اعتذر إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وفيه تنبيه ظاهر على أنه ﷺ فاز برؤية الحق سبحانه وكشف له الغطاء حتى رأى الحق بعيني رأسه، كما سيأتي البحث في ذلك إن شاء الله تعالى في المقصد الخامس.

والملخص من هذا: أن النبي ﷺ نال درجة الخلة التي اشتهرت لإبراهيم عليه الصلاة والسلام على وجه نطق إبراهيم بأن نصيب سيدنا محمد ﷺ منه الأعلى، بمفهوم قوله عن نفسه: «إنما كنت خليلاً من وراء وراء» فلم يشفع، ففيه دليل على أنه إنما يشفع من كان خليلاً لا من وراء وراء بل مع الكشف والعيان وقرب المكانة من حظيرة القدس، لا المكان، وذلك مقام محمد ﷺ بالدليل والبرهان.

ومما أعطيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، انفراده في أهل الأرض بعبادة الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المرضى باب (٢٠) رقم الحديث (٥٦٧٥ ـ ٥٧٤٣ ـ ٥٧٤٤ ـ ٥٧٥٠). وفي صحيح مسلم كتاب السلام رقم الحديث (٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٩) وفي سنن أبي داود كتاب الطب باب (١٧) رقم الحديث (٣٨٨٣) وفي سنن ابن ماجه رقم الحديث (١٦١٩ ـ ٣٥٢٠ ـ ٣٥٣٠). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٤٤. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٣٨١ وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٦٢. وفي المعجم الكبير للطبراني ٤/ ٣٢٧. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ١٧٤. وفي شرح السنة للبغوي ٥/ ٢٤٤. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١١٢. وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ١١٥. وفي موارد الظمآن للهيثمي (١٤١٥ ـ ١٤١٧). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (١٥٣٠) وفي كنز العمال (١٨٠٧١ ـ ٢٥٦٩٢ ـ ٢٨٥٣٧ ـ ٢٨٥٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب (٣٦) رقم الحديث (٥٧١٠). وفي صحيح مسلم كتاب الإيمان، رقم الحديث (٣٢٩) وفي تفسير ابن كثير ٨/ ٤٢١. وفي البداية والنهاية ١/ ١٦٠. وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٢٠.

وتوحيده، والانتصاب للأصنام بالكسر والقسر، أعطي سيدنا ﷺ كسرها بأسرها بمحضر من أولي نصرها بقضيب ليس مما يكسر إلا بقوة ربانية ومادة إلهية، اجتزأ فيها بالأنفاس عن الفاس، وما عول على المعول، ولا عرض في القول ولا تمرض من الصول بل قال جهراً بغير سر: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ [الإسراء: ٨١].

ومما أعطيه الخليل عليه الصلاة والسلام بناء البيت الحرام، ولا خفاء أن البيت جسد وروحه الحجر الأسود بل هو سويداء القلب، بل جاء «أنه يمين الرب»[١] كناية عن استلامه كما تستلم الأيمان عند عقد العهود والأيمان، وقد أعطي سيدنا محمد ﷺ أن قريشاً لما بنت البيت بعد تهدمه ولم يبق إلا وضع الحجر تنافسوا على الفخر الفخم والمجد الضخم، ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل، فاتفق دخول سيدنا محمد ﷺ فقالوا: هذا الأمين، فحكموه في ذلك فأمر ببسط ثوب ووضع الحجر فيه ثم قال: «يرفع كل بطن بطرف» فرفعوه جميعاً، ثم أخذه سيدنا محمد ﷺ فوضعه في موضعه[٢]، فادخر الله تعالى له ذلك المقام ليكون منقبة له على مدى الأيام.

● وأما ما أعطيه موسى عليه الصلاة والسلام من قلب العصا حية غير ناطقة، فأعطي سيدنا محمد ﷺ حنين الجذع[٣]، وقد مرت قصته.

وحكى الإمام الرازي ـ في تفسيره ـ وغيره: أنه لما أراد أبو جهل أن يرميه ﷺ بالحجر رأى على كتفيه ثعبانين فانصرف مرعوباً.

وأما ما أعطيه موسى عليه السلام أيضاً من اليد البيضاء، وكان بياضها يغشى البصر، فأعطي سيدنا محمد ﷺ أنه لم يزل نوراً ينتقل في أصلاب الآباء وبطون الأمهات من لدن آدم إلى أن انتقل إلى عبد الله أبيه. وأعطى ﷺ قتادة بن النعمان وقد صلى معه العشاء في ليلة مظلمة مطيرة عرجوناً وقال: «انطلق به فإنه سيضيء لك من بين يديك عشراً، ومن خلفك عشراً، فإذا دخلت بيتك فسترى سواداً فاضربه حتى يخرج فإنه شيطان» فانطلق فأضاء له العرجون حتى دخل بيته ووجد السواد وضربه حتى خرج. رواه أبو نعيم.

---

(١) نص الحديث: «الحجر يمين الله فمن مسحه فقد بايع الله»، ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٧٢٩ ـ ٣٤٧٣٠).

(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/٢٠٨ وما بعدها وفي البداية والنهاية ٢/٢٧٨.

(٣) نقل ابن أبي حاتم في كتاب «مناقب الشافعي» عن أبيه عن عمر بن سواد عن الشافعي قال: «ما أعطى الله نبياً ما أعطى محمداً». فقلت أعطى عيسى إحياء الموتى قال: أعطي محمد حنين الجذع حتى سُمعَ صوته فهذا أكبر من ذلك».

وأخرج البيهقي، وصححه الحاكم عن أنس قال: كان عباد بن بشر وأسيد بن حضير عند رسول الله ﷺ في حاجة: حتى ذهب من الليل ساعة، وهي ليلة شديدة الظلمة، ثم خرجا وبيد كل واحد منهما عصا، فأضاءت لهما عصا أحدهما، فمشيا في ضوئها، حتى إذا افترقت بهم الطريق أضاءت للآخر عصاه، فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ هديه[1]، ورواه البخاري بنحوه في الصحيح.

وأخرج البخاري في تاريخه والبيهقي وأبو نعيم عن حمزة الأسلمي قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فتفرقنا في ليلة ظلماء، فأضاءت أصابعي حتى جمعوا عليها ظهرهم وما هلك منهم وإن أصابعي لتنير.

ومما أعطيه موسى عليه السلام أيضاً انفلاق البحر له، أعطي نبينا محمد ﷺ انشقاق القمر ـ كما مر ـ فموسى تصرف في عالم الأرض وسيدنا محمد ﷺ تصرف في عالم السماء، والفرق بينهما واضح، قاله ابن المنير.

وذكر ابن حبيب أن بين السماء والأرض بحراً يسمى المكفوف، يكون بحر الأرض بالنسبة إليه كالقطرة من البحر المحيط، قال: فعلى هذا يكون ذلك البحر انفلق لنبينا ﷺ حتى جاوزه ـ يعني ليلة الإسراء ـ وهو أعظم من انفلاق البحر لموسى عليه الصلاة والسلام.

ومما أعطيه موسى عليه السلام إجابة دعائه، أعطي نبينا محمد ﷺ من ذلك ما لا يحصى. ومما أعطيه موسى عليه السلام تفجير الماء له من الحجارة، أعطي سيدنا محمد ﷺ أن الماء تفجر من بين أصابعه، وهذا أبلغ لأن الحجر من جنس الأرض التي ينبع منها الماء[2]، ولم تجر العادة بنبع الماء من اللحم، ويرحم الله القائل:

وكل معجزة للرسل قد سلفت ... وافى بأعجب منها عند إظهار
فما العصا حية تسعى بأعجب من ... شكوى البعير ولا من مشي أشجار
ولا انفجار معين الماء من حجر ... أشد من سلسل من كفه جار

ومما أعطيه موسى عليه السلام الكلام، أعطي سيدنا محمد ﷺ مثله ليلة الإسراء وزيادة الدنو والتدلي، وأيضاً كان مقام المناجاة في حق نبينا ﷺ فوق السماوات العلى

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب (٧٩) رقم الحديث (٤٦٥ ـ ٣٦٣٩ ـ ٣٨٠٥).

(2) فخروج الماء من الحجر معهود بخلاف نبع الماء الزلال من بين الأصابع. فهذه المعجزة في نبع الماء من بين أصابعه الذي كفى هذا الجيش الكثير أعجب من تفجير موسى الماء من الحجر حين ضربه بعصاه.

وسدرة المنتهى، والمستوى[1] وحجب النور والرفرف، ومقام المناجاة لموسى عليه السلام طور سيناء.

● وأما ما أعطيه هارون عليه الصلاة والسلام من فصاحة اللسان، فقد كان نبينا ﷺ من الفصاحة والبلاغة بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل. ولقد قال له بعض أصحابه: ما رأينا الذي هو أفصح منك فقال: «وما يمنعني وإنما نزل القرآن بلساني، لسان عربي مبين»[2].

وقد كانت فصاحة هارون غايتها في العبرانية، والعربية أفصح منها. وهل كانت فصاحة هارون معجزة أم لا؟ قال ابن المنير: الظاهر أنها لم تكن معجزة، ولكن فضيلة، ولم يتحد نبي من الأنبياء بالفصاحة إلا نبينا محمد ﷺ، لأن هذه الخصوصية لا تكون لغير الكتاب العزيز، وهل فصاحته ﷺ في جوامع الكلم التي ليست من التلاوة ولكنها معدودة من السنة، هل تحدى بها أم لا؟ فظاهر قوله ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم»[3] أنه من التحدث بنعمة الله عليه وخصائصه، ولا خلاف أنها باعتبار ما اشتملت عليه من الإخبار بالمغيبات ونحوها معجزة.

● وأما ما أعطيه يوسف عليه الصلاة والسلام من شطر الحسن، فأعطي نبينا ﷺ الحسن كله، وستأتي الإشارة إلى ذلك إن شاء الله تعالى في مقصد الإسراء. ومن تأمل ما نقلته في صفته تبين له من ذلك التفصيل التفضيل على كل مشهور بالحسن في كل جيل.

وأما ما أعطيه يوسف عليه السلام أيضاً من تعبير الرؤيا، فالذي نقل عنه من ذلك ثلاث منامات، أحدها: حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر، والثاني: منام صاحبي السجن، والثالث: منام الملك، وقد أعطي نبينا ﷺ من ذلك ما لا يدخله الحصر، ومن تصفح الأخبار وتتبع الآثار وجد من ذلك العجب العجاب، وستأتي نبذة من ذلك إن شاء الله تعالى.

● وأما ما أعطيه داود عليه الصلاة والسلام من تليين الحديد له، فكان إذا مسح الحديد لان، فأعطي نبينا ﷺ أن العود اليابس اخضر في يده وأورق، ومسح ﷺ شاة أم معبدة الجرباء، فبرئت ودرت.

---

(١) المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام.

(٢) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٨٠.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساجد رقم الحديث (٧ و ٨) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٥٠ و ٥٠١ وفي تفسير ابن كثير ٤/ ٧٢ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ١٤ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ١٤ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١١٣ وفي كنز العمال (٣٢٠٦٨).

● وأما ما أعطيه سليمان عليه الصلاة والسلام من كلام الطير وتسخير الشياطين والريح، والملك الذي لم يعطه أحد من بعده، فقد أعطي سيدنا محمد ﷺ مثل ذلك وزيادة.

أما كلام الطير والوحش فنبينا ﷺ كلمه الحجر، وسبح في كفه الحصى، وهو جماد، وكلمه ذراع الشاة المسمومة ـ كما تقدم في غزوة خيبر ـ، وكذلك كلمه الظبي وشكا إليه البعير ـ كما مر ـ. وروي أن طيراً فجع بولده فجعل يرفرف على رأسه ويكلمه فيقول: أيكم فجع هذا بولده، فقال رجل أنا فقال: «اردد ولده» ذكره الرازي ورواه أبو داود بلفظ: كنا مع النبي ﷺ في سفر فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش ـ أي تدنو ـ من الأرض، فجاء النبي ﷺ فقال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها»[1] الحديث. وقصة كلام الذئب مشهورة.

وأما الريح التي كانت غدوها شهر ورواحها شهر، تحمله أين أراد من أقطار الأرض، فقد أعطي سيدنا محمد ﷺ البراق الذي هو أسرع من الريح، بل أسرع من البرق الخاطف، فحمله من الفرش إلى العرش في ساعة زمانية، وأقل مسافة ذلك سبعة آلاف سنة، وتلك مسافة السماوات، وأما إلى المستوى وإلى الرفرف فذلك ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وأيضاً: فالريح سخرت لسليمان لتحمله إلى نواحي الأرض، ونبينا ﷺ زويت له الأرض ـ أي جمعت ـ حتى رأى مشارقها ومغاربها، وفرق بين من يسعى إلى الأرض، وبين من تسعى له الأرض.

وأما ما أعطيه من تسخير الشياطين فقد روي أن أبا الشياطين إبليس اعترض سيدنا محمد ﷺ وهو في الصلاة، فأمكنه الله منه وربطه بسارية من سواري المسجد[2] وخير مما أوتيه سليمان من ذلك إيمان الجن بمحمد ﷺ، فسليمان استخدمهم ومحمد استسلمهم.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الجهاد باب (١١٢) رقم الحديث (٢٦٧٥) وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/٢١٨ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/٣٣ وفي مستدرك الحاكم ٤/٢٣٩ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٥٤٢) وفي البداية والنهاية ٦/١٥٨ وفي نصب الراية للزيلعي ٣/٤٠٧ وفي كنز العمال (٤٣٧٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب (٧٥) رقم الحديث (٤٦١ ـ ١٢١٠ ـ ٣٢٨٤ ـ ٣٤٢٣ ـ ٤٨٠٨) وفي صحيح مسلم كتاب المساجد رقم الحديث (٣٩) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/٢٩٨. وفي شرح السنة للبغوي ٣/٢٦٩. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/٢٨٦. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٧/٩٧ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٩٨٧) وفي المغني للعراقي ٣/٣٦ وفي البداية والنهاية ١/٥٨ وفي كنز العمال (٣١٩٥٦).

وأما عد الجن من جنود سليمان في قوله تعالى: ﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن﴾ [النمل: ١٧]. فخير منه عدّ الملائكة، جبريل ومن معه من جملة أجناده ﷺ، باعتبار الجهاد وباعتبار تكثير السواد على طريقة الأجناد.

وأما عد الطير من جملة أجناده، فأعجب منه حمامة الغار وتوكيرها في الساعة الواحدة وحمايتها له من عدوه، والغرض من استكثار الجند إنما هو الحماية، وقد حصلت من أعظم شيء بأيسر شيء: وأما ما أعطيه من الملك، فنبينا ﷺ خيّر بين أن يكون نبياً ملكاً ونبياً عبداً، فاختار ﷺ أن يكون نبياً عبداً. ولله در القائل:

يا خير عبد على كل الملوك ولي

● وأما ما أعطيه عيسى عليه الصلاة والسلام من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، فأعطي سيدنا محمد ﷺ أنه رد العين إلى مكانها بعدما سقطت فعادت أحسن ما كانت، وفي دلائل البيهقي قصة الرجل الذي قال للنبي ﷺ لا أؤمن بك حتى تحيي لي ابنتي، وفيه أنه ﷺ أتى قبرها فقال: «يا فلانة»، فقالت: لبيك وسعديك يا رسول الله، الحديث، وقد مر. وروي أن امرأة معاذ بن عفراء ـ وكانت برصاء ـ فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ فمسح عليها بعصا فأذهب الله البرص منها، ذكره الرازي، وأيضاً قد سبح الحصى في كفه ﷺ، وسلم عليه الحجر، وحن لفراقه الجذع، وذلك أبلغ من تكليم الموتى لأن هذا من جنس من لا يتكلم.

وأما ما أعطيه عيسى أيضاً من أنه كان يعرف ما تخفيه الناس في بيوتهم، فقد أعطي نبينا ﷺ من ذلك ما لا يحصى، وسيأتي من ذلك إن شاء الله تعالى ما يكفي ويشفي.

وأما ما أعطيه عيسى أيضاً من رفعه إلى السماء، فقد أعطي نبينا ﷺ ذلك ليلة المعراج، وزاد في الترقي لمزيد الدرجات وسماع المناجاة والحظوة في الحضرة المقدسة بالمشاهدات.

وبالجملة: فقد خص الله تعالى نبينا ﷺ من خصائص التكريم بما لم يعطه أحداً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد روى جابر عنه ﷺ أنه قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل حيث كان، ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة»[1] رواه البخاري. وفي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التيمم باب (١) رقم الحديث (٣٣٥ ـ ٤٣٨ ـ ٣١٣٢) وفي صحيح مسلم=

رواية: «وبعثت إلى الناس كافة» . وزاد البخاري في روايته ـ في الصلاة ـ عن محمد بن سنان (من الأنبياء).

وعند الإمام أحمد: «أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي، ولا أقوله فخراً» وفيه: «وأعطيت الشفاعة فاخترتها لأمتي، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً» وإسناده كما قال ابن كثير جيد.

وليس المراد حصر خصائصه ﷺ في هذه الخمسة المذكورة. فقد روى مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «فضلت على الأنبياء بست، أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»[1] فذكر الخمسة المذكورة في حديث جابر إلا الشفاعة، وزاد خصلتين وهما: أعطيت جوامع الكلم وختم بي النبيون، فتحصل منه ومن حديث جابر سبع خصال.

ولمسلم أيضاً من حديث حذيفة: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة»[2] وذكر خصلة الأرض كما تقدم، قال: وذكر خصلة أخرى. وهذه الخصلة المبهمة قد بينها ابن خزيمة والنسائي، وهي: وأعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش، يشير إلى ما حطه الله تعالى عن أمته من الإصر وتحميل ما لا طاقة لهم به، ورفع الخطأ والنسيان، فصارت الخصال تسعاً.

ولأحمد من حديث علي «أعطيت أربعاً لم يعطهن أحد من أنبياء الله تعالى قبلي

= كتاب المساجد رقم الحديث (٣) وفي سنن النسائي ١/ ٢١٠ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٠٤ و ٥/ ١٤٨ وفي سنن الدارمي ٢/ ٢٢٤ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٢١٢ وفي مسند الحميدي رقم الحديث (٩٤٥) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٥٩ وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٢٣٧ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٧٤٧) وفي اتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٤٧ وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٨/ ٣١٦ وفي البداية والنهاية ٣/ ٢٩٩ وفي كنز العمال (٣١٩٣٠ ـ ٣٢٠٦٢ ـ ٣٢٠٦٥).

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب السير باب (٥) رقم الحديث (١٥٥٣) وفي صحيح مسلم كتاب المساجد رقم الحديث (٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٤١٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٤٣٢ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٤٧٢ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٦٩ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٧٤٨) وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٢٠٤ وفي كنز العمال (٣١٩٣٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساجد رقم الحديث (٤) وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٢١٣ وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٢٩٣ وفي التمهيد لابن عبد البر ٥/ ٢٢١ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٢٦) وفي تفسير القرطبي ٥/ ٢١٣ وفي مشكل الآثار للطحاوي ١/ ٤٥٠ وفي فتح الباري ١/ ٥٧٨ وفي كنز العمال (٣١٩١٢ ـ ٣٢٠٧٥).

أعطيت مفاتيح الأرض، وسميت أحمد، وجعلت أمتي خير الأمم، وذكر خصلة التراب، فصارت الخصال ثنتي عشرة خصلة»[1].

وعند البزار من وجه آخر عن أبي هريرة رفعه: «فضلت على الأنبياء، غفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، وجعلت أمتي خير الأمم، وأعطيت الكوثر، وإن صاحبكم لصاحب لواء الحمد يوم القيامة، تحته آدم فمن دونه» وذكر ثنتين مما تقدم.

وله من حديث ابن عباس رفعه: «فضلت على الأنبياء بخصلتين: كان شيطاني كافراً فأعانني الله عليه فأسلم. قال: ونسيت الأخرى».

فينتظم بهذا سبع عشرة خصلة، ويمكن أن يوجد أكثر من ذلك لمن أمعن التتبع.

وقد ذكر أبو سعيد النيسابوري في كتاب «شرف المصطفى» أن عدد الذي خص به ﷺ ستون خصلة. وطريق الجمع أن يقال: لعله ﷺ اطلع أولاً على بعض ما اختص له، ثم اطلع على الباقي. ومن لا يرى مفهوم العدد حجة يدفع هذا الإشكال من أصله. وقد ذكر بعض العلماء أنه ﷺ أوتي ثلاثة آلاف معجزة وخصيصية.

وقد اختلف في العلم بخصائصه ﷺ، فقال الصيمري من الشافعية: منع أبو علي بن خيران الكلام فيها، لأنه أمر انقضى فلا معنى للكلام فيه.

وقال إمام الحرمين: قال المحققون ذكر الاختلاف في مسائل الخصائص خبط غير مفيد، فإنه لا يتعلق به حكم ناجز تمس إليه حاجة، وإنما يجري الخلاف فيما لا يوجد بد من إثبات حكم فيه، فإن الأقيسة لا مجال لها، والأحكام الخاصة تتبع فيها النصوص، وما لا نص فيه فالخلاف فيه هجوم على الغيب من غير فائدة.

وقال النووي - في الروضة والتهذيب - بعد نقله هذين الكلامين: وقال سائر الأصحاب لا بأس به، وهو الصحيح، لما فيه من زيادة العلم، فهذا كلام الأصحاب، والصواب الجزم بجواز ذلك، بل استحبابه، ولو قيل وجوبه لم يكن بعيداً، لأنه ربما رأى جاهل بعض الخصائص ثابتاً في الحديث الصحيح فعمل به أخذاً بأصل التأسي، فوجب بيانها لتعرف، فلا يعمل بها، فأي فائدة أهم من هذه الفائدة، وأما ما يقع في ضمن الخصائص مما لا فائدة فيه اليوم فقليل لا تخلو أبواب الفقه عن مثله للتدريب ومعرفة الأدلة، وتحقيق الشيء على ما هو عليه. انتهى كلام النووي.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ١٥٨ وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ٢٨٥ وفي فتح الباري ١/ ٥٧٨ وفي كنز العمال (٣٢٠٦٧).

وقد تتبعت ما شرف الله تعالى به نبينا ﷺ من الخصائص والآيات، وأكرمه به من الفضائل والكرامات من كتب العلماء، كالخصائص لابن سبع، وخصائص الروضة للنووي، ومختصرها للحجازي، وشرح الحاوي لابن الملقن، وشرح البهجة لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، واللفظ المكرم في خصائص النبي ﷺ للشيخ قطب الدين الخيضري، واستفدت منه كثيراً في فصل المعجزات، مع ما رأيته أثناء مطالعتي لفتح الباري، وشرح مسلم للنووي، وشرح تقريب الأسانيد للعراقي وغير ذلك مما يطول ذكره، فتحصل لي من ذلك جملة. وقد قسمها غير واحد من الأئمة أربعة أقسام:

[القسم] الأول: ما اختص به ﷺ من الواجبات، والحكمة في ذلك زيادة الزلفى والدرجات، فإنه لن يتقرب المتقربون إلى الله تعالى بمثل أداء ما افترض عليهم. قال بعضهم: خص الله تعالى نبيه ﷺ بواجبات عليه لعلمه بأنه أقوم بها منهم، وقيل ليجعل أجره بها أعظم.

● فاختص ﷺ بوجوب الضحى على المذهب، لكن قول عائشة في الصحيح: (ما رأيت رسول الله ﷺ يسبح سبحة الضحى)(١) يدل على ضعف أنها كانت واجبة عليه. قال الحافظ ابن حجر: ولم يثبت ذلك في خبر صحيح. انتهى. وسيأتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى في ذكر صلاة الضحى في مقصد عباداته ﷺ. وهل كان الواجب عليه أقل الضحى أو أكثرها، أو أدنى الكمال؟ قال الحجازي: لا نقل فيه، لكن في مسند أحمد: «أمرت بركعتي الضحى ولم تؤمروا بهما»(٢).

● ومنها الوتر وركعتا الفجر، كما رواه الحاكم في المستدرك وغيره، ولفظ أحمد والطبراني: «ثلاث على فريضة وهن لكم تطوع، الوتر وركعتا الفجر وركعتا الضحى»(٣). قال بعضهم: وقد ثبت أنه ﷺ صلى الوتر على الراحلة. قال: ولو كان واجباً لما جاز فعله على الراحلة. وتعقب: بأن فعله على الراحلة من الخصائص أيضاً كما سيأتي فيما اختص به ﷺ من المباحات، إن شاء الله تعالى. وأجيب بأنه يحتاج إلى دليل. وهل كان الواجب عليه أقل الوتر أم أكثره؟ أم أدنى الكمال؟ قال الحجازي: لم أر فيه نقلاً.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التهجد باب (٣٢) رقم الحديث (١١١٧) وفي الموطأ للإمام مالك كتاب قصر الصلاة في السفر باب (٨) رقم الحديث (٢٩) وفي صحيح مسلم كتاب المسافرين رقم الحديث (٧٧ و ٨١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٨٥ و ٢٣٨.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٢٣٢ و ٣١٧ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٤٣٧) وفي كنز العمال (٢١٤٨٦).

(٣) ذكره أبو نعيم في الحلية ٩/ ٢٣٢ وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ١/ ٤٥٣ وفي كنز العمال (١٩٥٤٠).

● ومنها صلاة الليل، قال تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ [الإسراء: ٧٩]. أي فريضة زائدة لك على الصلوات المفروضة، أو فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك، وهذا ما صححه الرافعي ونقله النووي عن الجمهور، ثم قال: وحكى الشيخ أبو حامد أن الشافعي نص على أنه نسخ وجوبه في حقه، كما نسخ في حق غيره.

● ومنها السواك، واستدلوا له بما رواه أبو داود من حديث عبد الله بن أبي حنظلة بن أبي عامر أن رسول الله ﷺ أمر بالوضوء عند كل صلاة طاهراً أو غير طاهر، فلما شق عليه ذلك أمر بالسواك لكل صلاة[1]. وفي إسناده محمد بن إسحاق، وقد رواه بالعنعنة وهو مدلس.

وحجة من لم يجعله واجباً عليه، ما رواه ابن ماجه في سننه من حديث أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «ما جاءني جبريل إلا أوصاني بالسواك حتى خشيت أن يفرض علي وعلى أمتي»[2] وإسناده ضعيف. وروى أحمد في مسنده من حديث واثلة بن الأسقع قال قال رسول الله ﷺ: «أمرت بالسواك حتى خشيت أن يكتب علي»[3]، وإسناده حسن. والخصائص لا تثبت إلا بدليل صحيح، قاله في شرح تقريب الأسانيد.

● ومنها الأضحية، قال الله تعالى: ﴿فصل لربك وانحر﴾ [الكوثر: ٢]، وروى الدارقطني والحاكم عن ابن عباس أنه ﷺ قال: «ثلاث هن علي فرائض، وهن لكم تطوع: النحر والوتر وركعتا الفجر».

● ومنها المشاورة، قال الله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فظاهره الإيجاب، ويقال إنه استحباب، استمالة للقلوب، ومعناه: استخراج آرائهم، ونقل البيهقي في «معرفة السنن والآثار» عن النص: أن المشورة غير واجبة عليه، كما نبه عليه الحجازي وغيره.

واختلف في المعنى الذي لأجله أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالمشاورة مع كمال عقله وجزالة رأيه وتتابع الوحي عليه، ووجوب طاعته على أمته. فقال بعضهم: هو خاص في

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الطهارة باب (٢٥) رقم الحديث (٤٨) وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٣٨ وفي مستدرك الحاكم ١/ ١٥٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطهارة باب (٧) رقم الحديث (٢٨٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٢٦٣ وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ٢٤٩. وفي الدر المنثور للسيوطي ١/ ١١٣ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٨٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٤٩٠ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٤٢٣ ـ ٤٤٣٠ ـ ٤٤٣٦) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٢/ ٩٨ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ١/ ١٦٦.

المعنى، وإن كان عاماً في اللفظ، أي: وشاورهم فيما ليس عندك من الله فيه عهد، يدل عليه قراءة ابن عباس: وشاورهم في بعض الأمر. وقال الكلبي: يعني ناظرهم في لقاء العدو، ومكائد الحرب عند الغزو.

وقال قتادة ومقاتل: كانت سادات العرب إذا لم تشاور في الأمر شق عليهم، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يشاورهم، فإن ذلك أعطف لهم وأذهب لأضغانهم، وأطيب لنفوسهم. وقال الحسن: قد علم الله أن ما به إليهم حاجة، ولكنه أراد أن يستن به من بعده. وحكى القاضي أبو يعلى، في الذي أمر بالمشاورة فيه قولين: أحدهما: في أمر الدنيا خاصة، والثاني: في الدين والدنيا وهو الأصح، قاله المعافى بن زكريا في تفسيره.

والحكمة في المشاورة في الدين التنبيه لهم على علل الأحكام، وطريق الاجتهاد. وأخرج ابن عدي والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وشاورهم في الأمر﴾ قال رسول الله ﷺ: «أما إن الله ورسوله لغنيان عنها ولكن جعلها الله رحمة لأمتي»(١).

وعند الترمذي الحكيم من حديث عائشة، رفعته: «إن الله أمرني بمداراة الناس، كما أمرني بإقامة الفرائض»(٢).

● ومنها مصابرة العدو وإن كثر عددهم.

● ومنها تغيير المنكر إذا رآه، لكن قد يقال: كل مكلف تمكن من تغييره يلزمه، فيقال: المراد أنه لا يسقط عنه ﷺ بالخوف بخلاف غيره.

● ومنها قضاء دين من مات مسلماً معسراً، روى مسلم حديث: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي وعليه دين فعلي قضاؤه، ومن ترك مالاً فلورثته»(٣).

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٩٠.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٩٠ وأيضاً وفي جمع الجوامع (٤٧١٣) وفي تفسير ابن كثير ١٢٨/٢ وفي لسان الميزان لابن حجر ٢/ ٩٣ وفي ميزان الاعتدال (١٢٠٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الكفالة باب (٥) رقم الحديث (٢٢٩٨ ـ ٢٣٩٨ ـ ٢٣٩٩ ـ ٤٧٨١ ـ ٥٣٧١ ـ ٦٧٣١ ـ ٦٧٤٥ ـ ٦٧٦٣) وفي سنن الترمذي كتاب الجنائز باب (٧٠) رقم الحديث (١٠٧٠) وفي سنن ابن ماجه كتاب الصدقات باب (١٣) رقم الحديث (٢٤١٥) وفي سنن النسائي ٦٦/٤ وفي سنن أبي داود كتاب الخراج والفيء باب (١٥) رقم الحديث (٢٩٥٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٩٠ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢٠١/٦ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٩١٣) وفي الدر المنثور للسيوطي ١٨٢/٥ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٦٠٨/٢ وفي كنز العمال (٣٠٤٠٨).

قال النووي: كان هذا القضاء واجباً عليه ﷺ، وقيل: تبرع منه، والخلاف وجهان لأصحابنا وغيرهم، قال: ومعنى الحديث: أنه ﷺ قال: «أنا قائم بمصالحكم في حياة أحدكم أو موته، أنا وليه في الحالين، فإن كان عليه دين قضيته من عندي إن لم يخلف وفاء، وإن كان له مال فلورثته، لا آخذ منه شيئاً، وإن خلف عيالاً محتاجين ضائعين فليأتوا إلي فعلي نفقتهم ومؤنتهم». انتهى.

وفي وجوب قضائه على الإمام من مال المصالح وجهان، لكن قال الإمام: من استدان وبقي معسراً إلى أن مات لم يقض دينه من بيت المال، فإن كان ظلم بالمطل ففيه احتمال، والأولى: لا، والله أعلم.

● ومنها تخيير نسائه ﷺ في فراقه، وإمساكهن بعد أن اخترنه في أحد الوجهين، وترك التزوج عليهن والتبدل بهن مكافأة لهن، ثم نسخ ذلك، لتكون المنة له ﷺ عليهن. قال الله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها﴾ [الأحزاب: ٢٨]. الآية.

واختلف في تخييره لهن على قولين، أحدهما: أنه خيرهن بين اختيار الدنيا فيفارقهن، واختيار الآخرة فيمسكهن، ولم يخيرهن في الطلاق، وهذا هو قول الحسن وقتادة، والثاني: أنه خيرهن بين الطلاق والمقام معه، وهذا قول عائشة ومجاهد والشعبي ومقاتل. واختلفوا في السبب الذي لأجله خير ﷺ نساءه على أقوال:

أحدها: أن الله تعالى خيره بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة على الدنيا، فاختار الآخرة وقال: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين»، فلما اختار ذلك أمره الله تعالى بتخيير نسائه ليكن على مثل اختياره. حكاه أبو القاسم النميري.

الثاني: لأنهن تغايرن عليه.

والثالث: لأن أزواجه طالبنه وكان غير مستطيع، فكان أولهن أم سلمة سألته ستراً معلماً، وسألته ميمونة حلة يمانية، وسألته زينب ثوباً مخططاً وهو البرد اليماني، وسألته أم حبيبة ثوباً سحولياً، وسألته كل واحدة شيئاً إلا عائشة. حكاه النقاش.

والرابع: أن أزواجه ﷺ اجتمعن يوماً فقلن: نريد ما تريد النساء من الحلي فأنزل الله تعالى آية التخيير، حكاه النقاش أيضاً. وذلك أنه لما نصر الله تعالى رسوله وفتح عليه قريظة والنضير، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم، فقعدن حوله وقلن يا رسول الله، بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق. وآلمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال، وأن يعاملن بما يعامل به الملوك

والأكابر أزواجهم، فأمره الله أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن لئلا يكون لأحد منهن عليه منة في الصبر على ما اختاره من خشونة العيش.

فلما اخترنه وصبرن معه عوضهن الله على صبرهن بأمرين: أحدهما، أن جعلهن أمهات المؤمنين تعظيماً لحقهن وتأكيداً لحرمتهن، وتفضيلهن على سائر النساء بقوله: ﴿لستن كأحد من النساء﴾ [الأحزاب: ٣٢]، والثاني: أن حرم الله عليه طلاقهن والاستبدال بهن فقال تعالى: ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج﴾ [الأحزاب: ٥٢]. الآية، فكان تحريم طلاقهن مستداماً، وأما تحريم التزوج عليهن فنسخ، قالت عائشة: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء، يعني اللاتي حرمن عليه، وقيل: الناسخ لتحريمهن قوله تعالى: ﴿إنا أحللنا لك أزواجك﴾ [الأحزاب: ٥٠]. الآية.

وقال النووي في الروضة: لما خيرهن فاخترنه كافأهن على حسن صنيعهن بالجنة فقال: ﴿فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾ [الأحزاب: ٢٩]. انتهى.

وإنما اختص ﷺ بوجوب التخيير لنسائه بين التسريح والإمساك، لأن الجمع بين عدد منهن يوغر صدورهن بالغيرة التي هي من أعظم الآلام، وهو إيذاء يكاد ينفر القلب ويوهن الاعتقاد، وكذا إلزامهن على الصبر والفقر يؤذيهن، ومهما ألقى زمام الأمر إليهن خرج عن أن يكون ضرراً، فنزه عن ذلك منصبه العالي. وقيل له: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾ [الأحزاب: ٣٣].

● ومنها: إتمام كل تطوع شرع فيه، حكاه في الروضة وأصلها، قال النووي: وهو ضعيف. وفرعه بعض الأصحاب: على أنه كان يحرم عليه ﷺ إذا لبس لامته أن ينزعها حتى يلقى العدو ويقاتل. ذكره في تهذيب الأسماء واللغات.

● ومنها: أنه كان يلزمه ﷺ أداء فرض الصلاة بلا خلل. قاله الماوردي: قال العراقي في شرح المهذب: إنه كان معصوماً عن نقص النرائض. انتهى، والمراد خلل لا يبطل الصلاة.

● وقال بعضهم: كان يجب عليه ﷺ إذا رأى ما يعجبه أن يقول: «لبيك أن العيش عيش الآخرة»[1] ثم قال: هذه كلمة صدرت منه ﷺ في أنعم حالة، وهو يوم حجه بعرفة، وفي أشد حالة، وهو يوم الخندق، انتهى.

---

(١) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٤٨ وفي اتحاف السادة المتقين ٣/ ٣٣٩ وفي الزهد لأحمد بن حنبل (٢٨) وفي تلخيص الحبير لابن حجر ٢/ ٢٤٠ وفي مصنف ابن أبي شيبة (٤٠٧).

● ومنها: أنه ﷺ كان يؤخذ عن الدنيا حالة الوحي، ولا يسقط عنه الصوم والصلاة وسائر الأحكام، كما ذكره في زوائد الروضة عن ابن القاص والقفال، وكذا ذكره ابن سبع.

● ومنها: أنه كان ﷺ يغان على قلبه فيستغفر الله سبعين مرة. ذكره ابن القاص ونقله ابن الملقن في الخصائص، ورواه مسلم وأبو داود من حديث الأغر المزني بلفظ: «إنه ليغان على قلبي وإنه لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[1] هذا لفظ مسلم، وقال أبو داود «في كل يوم»، قال الشيخ ولي الدين بن العراقي: والظاهر أن الجملة الثانية مرتبة على الأولى، وأن سبب الاستغفار: الغين، ويدل لذلك قوله في رواية النسائي في عمل اليوم والليلة: إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله كل يوم مائة مرة، وفي رواية له أيضاً: فاستغفر الله. وألفاظ الحديث يفسر بعضها بعضاً. ويحتمل من حيث اللفظ أن تكون الجملة الثانية كلاماً برأسه غير متعلق بما قبله، فيكون ﷺ أخبر بأنه يغان على قلبه، وبأنه يستغفر الله في اليوم مائة مرة، انتهى.

وقال أبو عبيد: أصل الغين في هذا، ما يغشى القلب ويغطيه، وأصله: من غين السماء، وهو إطباق الغيم عليها. وقال غيره: الغين يغشى القلب ولا يغطيه كل التغطية، كالغيم الرقيق الذي يعرض في الهواء فلا يمنع ضوء الشمس.

قال القاضي عياض ـ بعد حكايته ذلك ـ: فيكون المراد بهذا الغين إشارة إلى غفلات قلبه وفترات نفسه وسهوها عن مداومة الذكر ومشاهدة الحق بما كان ﷺ دفع إليه من مقاساة البشر وسياسة الأمة ومعاناة الأهل، ومقاومة الولي والعدو، ومصلحة النفس، وما كلفه من أعباء أداء الرسالة وحمل الأمانة، وهو في كل هذا في طاعة ربه، وعبادة خالقه، ولكن لما كان ﷺ أرفع الخلق عند الله مكانة وأعلاهم درجة، وأتمهم به معرفة، وكانت حاله عند خلوص قلبه وخلو همته، وتفرده بربه وإقباله بكليته عليه، ومقامه هناك أرفع حاليه، رأى ﷺ حال فترته عنها، وشغله بسواها غضاً عليّ حاله، وخفضاً من رفيع مقامه، فاستغفر الله من ذلك، قال: وهذا أولى وجوه الحديث وأشهرها، وإلى معنى ما أشرنا إليه مال كثير من الناس، وحام حوله فقارب ولم يرد، وقد قربنا غامض معناه،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الصلاة باب (٢٦) رقم الحديث (١٥١٥) وفي صحيح مسلم كتاب الذكر رقم الحديث (٤١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٢١١ وفي المعجم الكبير للطبراني ١/ ٢٨٠ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٥٢ وفي اتحاف السادة المتقين ٥/ ٥٧ وفي الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٦٣ وفي التاريخ الكبير للبخاري ٢/ ٤٣ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٣٢٤) وفي كنز العمال (٢٠٧).

وكشفنا للمستفيد محياه، وهو مبني على جواز الفترة والغفلات والسهو في غير طريق البلاغ، انتهى.

وتعقب: بأنه لا ترضى نسبته ﷺ إلى ذلك، لما يلزم عليه من تفضيل الملائكة بعدم الفترة عن التسبيح والمشاهدة، ولقوله ﷺ: «لست أنسى ولكن أُنسى لأسنّ»[1] فهذه ليست فترة وإنما هي لحكمة مقصودة يثبت بها حكم شرعي، فالأولى أن يحمل على ما جعله علة فيه، وهو ما دفع إليه من مقاساة البشر وسياسة الأمة، ومعاناة الأهل، وحمل كل أعباء النبوة وحمل أثقالها. انتهى.

وقيل: الغين شيء يعتري القلب مما يقع من حديث النفس، قال الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر: وهذا أشار إليه الرافعي في أماليه، وقال: إن والده كان يقرره. وقيل: كانت حالة يطلع فيها على أحوال أمته فيستغفر لهم. وقيل: هو السكينة التي تغشى قلبه، والاستغفار لإظهار العبودية لله تعالى، والشكر لما أولاه.

وقال شيخ الإسلام ابن العراقي أيضاً: هذه الجملة حالية، أخبر ﷺ أنه يغان على قلبه مع أن حاله الاستغفار في اليوم مائة مرة، وهي حال مقدرة، لأن الغين ليس موجوداً في حال الاستغفار، بل إذا جاء الاستغفار أذهب ذلك الغين. قال: وعلى تقدير تعلق إحدى الجملتين بالأخرى، وأن الثانية مسببة عن الأولى، فيحتمل أن يكون هذا الغين تغطية للقلب عن أمور الدنيا، وحجاباً بينه وبينها، فينجمع القلب حينئذٍ على الله تعالى ويتفرغ للاستغفار شكراً وملازمة للعبودية، قال: وهذا معنى ما قاله القاضي عياض، انتهى ومراده قوله في «الشفاء»: وقد يحتمل أن تكون هذه الإغانة حالة خشية وإعظام تغشى قلبه فيستغفر حينئذٍ شكراً لله تعالى، وملازمة لعبوديته إلى آخر كلامه.

قال الشيخ ابن العراقي: وهو عندي كلام حسن جداً، وتكون الجملة الثانية مسببة عن الأولى، لا بمعنى أنه يسعى بالاستغفار في إزالة الغين، بل بمعنى أن الغين أصل محمود، وهو الذي تسبب عنه الاستغفار، وترتب عليه، وهذا أنزه الأقوال وأحسنها لأن الغين حينئذٍ وصف محمود وهو الذي نشأ عنه الاستغفار، وعلى الأول يكون «الغين» مما يسعى في إزالته بالاستغفار، وما ترتب الإشكال وجاء السؤال إلا على تفسير الغين بذلك، وأهل اللغة إنما فسروا الغين بالغشاء، فنحمله على غشاء يليق بحاله ﷺ، وهو الغشاء الذي يصرف القلب، ويحجبه عن أمور الدنيا، لا سيما وقد رتب على الغشاء أمراً

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في كتاب السهو باب (١)، رقم الحديث (٢) وفي صحيح مسلم كتاب المسافرين ١/ ٥٤٥. وفي الشفا للقاضي عياض ٢/ ١٤٠. وفي التمهيد لابن عبد البر ٥/ ٢٠٦ و ٦/ ٣٩٢.

محموداً وهو الاستغفار، فما نشأ هذا الأمر الحسن إلا عن أمر حسن، انتهى.

وذكر الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في كتابه «لطائف المنن» أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي قال: رأيت النبي ﷺ في النوم فسألته عن هذا الحديث «إنه ليغان على قلبي» فقال لي: «يا مبارك: ذلك غين الأنوار، لا غين الأغيار».

القسم الثاني: ما اختص به ﷺ مما حرم عليه:

● فمنها: تحريم الزكاة عليه، وكذا الصدقة على الصحيح المشهور المنصوص، قال ﷺ: «إنا لا نأكل الصدقة»[1] رواه مسلم، ومن قال بإباحتها له يقول: لا يلزم من امتناعه من أكلها تحريمها، فلعله ترك ذلك تنزهاً مع إباحتها له، وهذا خلاف ظاهر الحديث. قال شيخ الإسلام ابن العراقي، في شرح التقريب: وعلى كل حال ففيه أن من خصائصه ﷺ الامتناع من أكل الصدقة إما وجوباً وإما تنزهاً، انتهى. والحكمة من ذلك: صيانة منصبه الشريف عن أوساخ أموال الناس.

ومنها: تحريم الزكاة على آله ﷺ، وتحريم كون آله عمالاً على الزكاة في الأصح، وكذا يحرم صرف النذر والكفارة إليهم، وأما صدقة التطوع فتحل لهم في الأصح خلافاً للمالكية وهو وجه عندنا.

● ومنها: أنه يحرم عليه ﷺ أكل ما له رائحة كريهة، كثوم وبصل، لتوقع مجيء الملائكة والوحي كل ساعة. والأكل متكئاً في أحد الوجهين فيهما، والأصح في الروضة كراهتهما، وتعقب السهيلي الاتكاء فقال: قد يكره لغيره أيضاً لأنه من فعل المتعظمين، وقد تقدم مزيد لذلك.

● ومنها: تحريم الكتابة والشعر، وإنما يتجه القول بتحريمهما ممن يقول إنه ﷺ كان يحسنهما، والأصل أنه كان لا يحسنهما، قال تعالى: ﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ [العنكبوت: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ [يس: ٦٩]. أي ما هو في طبعه، ولا يحسنه ولا تقتضيه جبلته ولا يصلح له. وأجيب: بأن المراد تحريم التوصل إليهما. وهل عدم الشعر خاص به ﷺ أو بنوع الأنبياء؟ قال بعضهم: هو عام لقوله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ لأنه لا يظهر فيه للخصوص نكتة. وتقدم في قصة الحديبية البحث في كونه ﷺ هل كان يحسن الكتابة أو لا.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة باب (٦٠) رقم الحديث (١٤٩١) وفي صحيح مسلم كتاب الزكاة رقم الحديث (١٦١) وفي سنن النسائي ٨٩/١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢٩/٧ وفي اتحاف السادة المتقين ٢٦/٦ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤٠٦/٢ وفي كنز العمال (١٦٥٢٠ ـ ١٦٥٢٤).

● ومنها: نزع لامته إذا لبسها، حتى يقاتل أو يحكم الله بينه وبين عدوه.

● ومنها: المن ليستكثر، ذكره الرافعي، قال الله تعالى: ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ [المدثر: ٦] أي: لا تعط شيئاً لتعطى أكثر منه، بل أعط لربك، واقصد به وجهه، فأدبه بأشرف الآداب، قاله أكثر المفسرين، وقال الضحاك ومجاهد: هذا كان للنبي ﷺ خاصة، وليس على أحد من أمته، وقال قتادة: لا تعط شيئاً لمجازاة الدنيا، أي أعط لربك، وعن الحسن: لا تمنن على الله بعملك فتستكثره، وقيل: لا تمنن على الناس بالنبوة فتأخذ عليها أجراً وعوضاً من الدنيا.

● ومنها: مد العين إلى ما متع به الناس، قال الله تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به﴾ [الحجر: ٨٨] أي استحساناً له وتمنياً أن يكون لك مثله ﴿أزواجاً منهم﴾ [الحجر: ٨٨] أي أشكالاً وأشباهاً من الكفار، وهي المزاوجة بين الأشياء، وهي المشاكلة. وعن ابن عباس: أصنافاً منهم، فإنه مستحقر بالإضافة إلى ما أوتيته، فإنه كمال مطلوب بالذات مفض إلى دوام اللذات.

● ومنها: خائنة الأعين، وهي الإيماء إلى مباح من قتل أو ضرب على خلاف ما يشعر به الحال، كما قيل له ﷺ في قصة رجل أراد قتله[١]. هلا أومأت إلينا بقتله، فقال: «ما كان ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»[٢]. ولا يحرم ذلك على غيره إلا في محظور، قاله الرافعي فيما نقله الحجازي في مختصر الروضة.

● ومنها: نكاح من لم تهاجر، في أحد الوجهين. قال الله تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾ [الأحزاب: ٥٠]. أي مهورهن، سمى المهر أجراً لأن المهر أجر على البضع وتقييد الإحلال بإعطائها معجله لا يتوقف الحل عليه، بل لإيثار الأفضل له، كتقييد إحلال المملوكة بكونها مسبية في قوله: ﴿وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك﴾ [الأحزاب: ٥٠]. يعني من نساء بني زهرة ﴿اللاتي هاجرن معك﴾ [الأحزاب: ٥٠]. أي إلى المدينة، قالوا: والمراد هاجرن كما هاجرت، وإن لم تكن هجرتها في حال هجرته ﷺ.

وظاهره يدل على أن الهجرة شرط في التحليل، وأن من لم تهاجر من النساء لم

---

(١) هو عبد الله بن أبي سرح، وقد أسلم وحسن إسلامه.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد باب (١١٧) رقم الحديث (٢٦٨٣) وفي المستدرك للحاكم ٣/ ٤٥ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٦٠ وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٣٠٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ٢٠٧ وفي التمهيد لابن عبد البر ٦/ ١٧٦ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٢/ ٢٢٦ وفي فتح الباري ١١/ ١١ وفي تفسير الطبري ١٠/ ٣٦ وفي كنز العمال (٣٠١٨٧).

يحل له نكاحها. وقالت أم هانىء: خطبني ﷺ فاعتذرت إليه بعذر فعذرني، ثم أنزل الله تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك﴾ إلى قوله: ﴿اللاتي هاجرن معك﴾ [الأحزاب: ٥٠]. فلم أكن لأحل له، فإني لم أهاجر معه، كنت من الطلقاء[١]. وعن بعض المفسرين: أن شرط الهجرة في التحليل منسوخ، ولم يذكر ناسخه. وعن الماوردي قولان: أحدهما أن الهجرة شرط في إحلال كل النساء له ﷺ من غريبة وقريبة، والثاني: أنها شرط في إحلال بنات عمه وبنات عماته المذكورات في الآية وليس شرطاً في إحلال الأجنبيات، وعنه أيضاً: أن المراد بالمهاجرات المسلمات.

● ومنها: تحريم إمساك من كرهته، قاله الحجازي وغيره.

● ومنها: نكاح الكتابية، لأن أزواجه أمهات المؤمنين وزوجات له في الآخرة، ومعه في درجته في الجنة، ولأنه ﷺ أشرف من أن يضع ماءه في رحم كافرة، قالوا: ولو نكح كتابية لهديت إلى الإسلام كرامة له.

● ومنها: نكاح الأمة المسلمة، ولو قدر نكاحه أمة كان ولده منها حراً، ولا تلزمه قيمته لتعذر الرق. قاله القاضي حسين، وقال أبو عاصم: تلزم، نقله الحجازي، ولا يشترط في حقه حينئذٍ خوف العنت ولا فقد الطول. وأما التسري بالأمة فالأصح الحل، لأنه ﷺ استمتع بأمته ريحانة قبل أن تسلم، وعلى هذا، فهل عليه تخييرها بين أن تسلم فيمسكها أو تقيم على دينها فيفارقها؟ فيه وجهان: أحدهما: نعم لتكون من زوجاته في الآخرة، والثاني: لا، لأنه لما عرض على ريحانة الإسلام فأبت لم يزلها عن ملكه وأقام على الاستمتاع، وقد أسلمت بعد.

● ومنها: تحريم الإغارة إذا سمع التكبير، كما ذكره ابن سبع في الخصائص.

القسم الثالث: فيما اختص به ﷺ من المباحات:

● اختص ﷺ بإباحة المكث في المسجد جنباً، قاله صاحب التلخيص. ومنعه القفال، قال النووي: وما قاله في التلخيص قد يحتج له بقوله ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري: «يا علي لا يحل لأحد أن يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك»[٢] قال الترمذي حسن غريب. وقد يعترض على هذا الحديث بأن عطية ضعيف عند الجمهور. ويجاب

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب التفسير [الأحزاب: ٥٠] باب (١٧) رقم الحديث (٣٢١٤).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه كتاب المناقب باب (٢٠) رقم الحديث (٣٧٢٧) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٦٦ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٦٠٨٩) وفي تفسير ابن كثير ٢/ ٢٧٤ وفي تذكرة الموضوعات للفتني (٩٥) وفي البداية والنهاية ٧/ ٣٥٦ وفي كنز العمال (٣٢٨٨٥ ـ ٣٣٠٥٢).

بأن الترمذي حكم بأنه حسن فلعله اعتضد بما اقتضى حسنه، لكن إذا شاركه ﷺ علي في ذلك لم يكن من الخصائص. وقد غلّط إمام الحرمين وغيره صاحب التلخيص في الإباحة. واعلم أن معظم المباحات لم يفعلها ﷺ وإن جازت له.

● ومما اختص به أيضاً أنه لا ينتقض وضوؤه بالنوم مضطجعاً، وفي اللمس وجهان، قال النووي: المذهب الجزم بانتقاضه به. واستدل القائلون بالأول بنحو حديث عائشة، عند أبي داود، أن النبي ﷺ كان يقبل بعض أزواجه ثم يصلي ولا يتوضأ[1] ورواه النسائي أيضاً، وقال أبو داود: هو مرسل، إبراهيم التيمي لم يسمع من عائشة، وقال النسائي: ليس في هذا الباب حديث أحسن من هذا الحديث وإن كان مرسلاً.

● واختص أيضاً بإباحة الصلاة بعد العصر، فقد فاتته ركعتان بعد الظهر فقضاهما بعد العصر. ثم واظب عليهما، ذكره الحجازي، وبجواز صلاة الوتر على الراحلة مع وجوبه عليه، كما ذكره في شرح المهذب وعبارته: كان من خصائصه ﷺ جواز فعل هذا الواجب الخاص به على الراحلة. وبالصلاة على الغائب عند أبي حنيفة ومالك.

● وبالقبلة في الصوم، مع قوة الشهوة، روى البخاري من حديث عائشة قالت: (كان رسول الله ﷺ يقبل بعض نسائه وهو صائم، وكان أملككم لإربه)[2] قال الحافظ ابن حجر: فأشارت بذلك إلى أن الإباحة لمن يكون مالكاً لنفسه دون من لا يأمن الوقوع فيما يحرم. قال: وفي رواية حماد ـ عند النسائي ـ قال الأسود: قلت لعائشة: أيباشر الصائم؟ قالت: لا، قلت: أليس كان رسول الله ﷺ يباشر وهو صائم؟ قالت: إنه كان أملككم لإربه قال وظاهر هذا أنها اعتقدت خصوصية النبي ﷺ بذلك. قاله القرطبي، قال: وهو اجتهاد منها. ويدل على أنها لا ترى بتحريمها ولا بكونها من الخصائص: ما رواه مالك في الموطأ أن عائشة بنت طلحة كانت عند عائشة فدخل عليها زوجها وهو عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر فقالت له عائشة: ما يمنعك أن تدنو من أهلك فتلاعبها وتقبلها؟ قال: أقبلها وأنا صائم؟ قالت: نعم[3].

---

(١) أخرجه النسائي في سننه ١/ ١٠٤ وفي سنن الدارقطني ١/ ١٣٥ وما بعدها وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٢٣) وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/ ١٦٨ وفي كنز العمال (٢٧١٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصوم باب (٢٣) رقم الحديث (١٩٢٧ و ١٩٢٨) وفي سنن أبي داود كتاب الصوم باب (٣٤) رقم الحديث (٢٣٨٢) وفي سنن الترمذي كتاب الصوم باب (٣٢) رقم الحديث (٧٢٨ و ٧٢٩) وفي صحيح مسلم كتاب الصوم باب (١٢) رقم الحديث (٦٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٤٢ ـ ٢٣٢ وفي سنن ابن ماجه رقم الحديث (١٦٨٤ و ١٦٨٥) وفي مسند الحميدي رقم الحديث (١٩٩) وفي شرح السنة للبغوي ٦/ ٢٧٥. وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٧/ ١٦١ وفي كنز العمال (١٨٠٨٣ ـ ٢٤٤٠٣).

(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ كتاب الصيام باب (٥) رقم الحديث (١٦).

● واختص أيضاً بإباحة الوصال في الصوم: كما سيأتي، وقال إمام الحرمين، هو قربة في حقه ﷺ.

● وأن يأخذ الطعام والشراب من مالكهما المحتاج إليهما إذا احتاج، ويجب على صاحبهما البذل. ويفدي بمهجته مهجة رسول الله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ [الأحزاب: ٦]. ولو قصده ظالم وجب على من حضره أن يبذل نفسه دونه ﷺ، كما وقاه طلحة بنفسه يوم أحد.

● وبإباحة النظر إلى الأجنبيات لعصمته، وسيأتي إن شاء الله تعالى في القسم الرابع حكم غيره ﷺ. وبجواز الخلوة بهن. قال في فتح الباري: الذي وضح لنا بالأدلة القوية أن من خصائصه ﷺ جواز الخلوة بالأجنبية والنظر إليها، ويدل له قصة أم حرام بنت ملحان في دخوله ﷺ عليها ونومه عندها وتفليتها رأسه[1]، ولم يكن بينهما محرمية ولا زوجية، انتهى.

● ومنها نكاح أكثر من أربع نسوة، وكذلك الأنبياء، وفي الزيادة لنبينا ﷺ على التسع خلاف.

● ويجوز له النكاح بلفظ الهبة من جهة المرأة، قال الله تعالى: ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي﴾ [الأحزاب: ٥٠]. وأما من جهته ﷺ فلا بد من لفظ النكاح أو التزويج على الأصح في أصل الروضة، وحكاه الرافعي عن ترجيح الشيخ أبي حامد لظاهر قوله تعالى: ﴿إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك﴾ [الأحزاب: ٥٠].

قال البيضاوي: في قوله تعالى: ﴿وامرأة مؤمنة﴾ الآية، أي أعلمناك حل امرأة مؤمنة تهب لك نفسها ولا تطلب مهراً إن اتفق ذلك، ولذلك نكَّرها.

واختلف في ذلك والقائل به ذكر أنها ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة الأنصارية، وأم شريك بنت جابر، وخولة بنت حكيم، قال: وقرىء «أن» بالفتح، أي لأن وهبت، أو مدة أن وهبت، كقولك: اجلس ما دام زيد جالساً، قال: وقوله: ﴿إن أراد النبي أن يستنكحها﴾ [الأحزاب: ٥٠] شرط للشرط الأول في استحباب الحل، فإن هبتها نفسها منه لا توجب له إلا بإرادته نكاحها، فإنها جارية مجرى القبول، قال:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد باب (٣) رقم الحديث (٢٧٨٨ ـ ٢٧٨٩ ـ ٢٧٩٩ ـ ٦٢٨٢ ـ ٧٠٠١ ـ ٧٠٠٢). وفي سنن أبي داود كتاب الجهاد باب (٩) رقم الحديث (٢٤٩١) وفي الترمذي كتاب الجهاد باب (١٥) رقم الحديث (١٦٤٥). وفي الموطأ للإمام مالك كتاب الجهاد باب (١٨) رقم الحديث (٣٩). وفي سنن النسائي ٦/ ٤٠ وفي صحيح مسلم كتاب الإمارة رقم الحديث (١٦٠).

والعدول عن الخطاب إلى الغيبة بلفظ «النبي» ﷺ مكرراً. ثم الرجوع إليه في قوله: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ [الأحزاب: ٥٠]. إيذان بأنه مما خص به لشرف نبوته وتقرير لاستحقاقه الكرامة لأجله. انتهى.

وقال المعافى: وفي معنى «خالصة» ثلاثة أقوال: أحدها: أن المرأة إذا وهبت نفسها له يلزمه صداقها دون غيره من المؤمنين. قاله أنس بـن مالك وابن المسيب. والثاني: أن له أن ينكحها بلا ولي ولا شهود دون غيره. قاله قتادة، والثالث: خالصة لك أن تملك عقد نكاحها بلفظ الهبة دون المؤمنين، قال: وهذا قول الشافعي وأحمد، وعن أبي حنيفة ينعقد النكاح بلفظ الهبة لغيره ﷺ أيضاً.

● وكذا يجوز له ﷺ النكاح بلا مهر ابتداء وانتهاء، كما تقدم أن المرأة إذا وهبت نفسها له ﷺ لا يلزمه صداقها. قال النووي: إذا وهبت امرأة نفسها له ﷺ فتزوجها بلا مهر حل له ذلك، ولا يجب عليه بعد ذلك مهرها بالدخول، ولا بغير ذلك، بخلاف غيره فإنه لا يخلو نكاحه من وجوب مهر، إما مسمى وإما مهر المثل والله أعلم.

● وكذا يجوز له النكاح في حال الإحرام، قال النووي في شرح مسلم: قال جماعة من أصحابنا أنه ﷺ كان له أن يتزوج في حال الإحرام، وهو مما خص به دون الأمة، قال: وهذا أصح الوجهين عند أصحابنا. انتهى.

● وكذا يجوز له ﷺ النكاح بغير رضى المرأة، فلو رغب في نكاح امرأة خلية لزمها الإجابة، وحرم على غيره خطبتها، أو متزوجة وجب على زوجها طلاقها.

قال الغزالي: ولعل السر فيه من جانب الزوج امتحان إيمانه بتكليف النزول عن أهله، فإنه ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وولده والناس أجميعن»(1).

ويدل لهذه الخصيصة قصة زينب بنت جحش بنت عمته ﷺ أميمة بنت عبد المطلب، المنصوص عليها بقوله تعالى: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه﴾ [الأحزاب: ٣٧]. أي بنعمة الإسلام وهي أجل النعم ﴿وأنعمت عليه﴾ أي بالإعتاق بتوفيق الله لك،

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣٣٦/٤. وفي سنن الدارمي ٣٠٧/٢. وفي صحيح مسلم كتاب الايمان باب (١٦) رقم الحديث (٧٠) وفي البخاري كتاب الإيمان باب (١٤ ـ ١٥) وفي سنن النسائي ٨/ ١١٤ وفي سنن ابن ماجه رقم الحديث (٦٧) وفي الدر المنثور للسيوطي ٢٢٣/٣. وفي المستدرك للحاكم ٤٨٦/٢. وفي اتحاف السادة المتقين ٥٤٧/٩. وفي مشكل الآثار للطحاوي (٧) وفي كنز العمال (٧٠ ـ ٩٢ ـ ٩٣).

وهو زيد بن حارثة الكلبي، وكان من سبي الجاهلية، فملكه رسول الله ﷺ قبل البعثة وأعتقه وتبناه وخطب له زينب فأبت هي وأخوها عبد الله، ثم رضيا لما نزل قوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة﴾ [الأحزاب: ٣٦]. الآية وكان الرجل في الجاهلية وصدر الإسلام إذا تبنى ولد غيره يدعوه الناس به ويرث ميراثه وتحرم عليه زوجته، فنسخ الله تعالى التبني بقوله تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ [الأحـزاب: ٥]. وبهذه القصة يثبت الحكم بالقول والفعل، فأوحى الله إليه أن زيداً سيطلقها، وأنه ﷺ يتزوجها، وألقى في قلب زيد كراهتها فأراد فراقها فأتى رسول الله ﷺ فقال إني أريد أن أفارق صاحبتي قال مالك؟ «أرابك منها شيء؟» قال: لا والله يا رسول الله ما رأيت منها إلا خيراً، ولكنها تتعظم علي بشرفها وتؤذيني بلسانها، فقال رسول الله ﷺ: ﴿أمسك عليك زوجك واتق الله﴾ [الأحزاب: ٣٧] ، أي في أمرها ، فلا تطلقها ضراراً وتعللاً ﴿فلما قضى زيد منها وطراً﴾ [الأحزاب: ٣٧]. ولم يبق له فيها حاجة، وطلقها وانقضت عدتها زوجها الله تعالى له، كما قال تعالى: ﴿زوجناكها﴾ [الأحزاب: ٣٧]. والمعنى أنه أمره بتزويجها منه، أو جعلها زوجته بلا واسطة عقد. ويؤيده أنها كانت تقول لسائر نساء رسول الله ﷺ: إن الله تـولـى نكـاحـي، وأنتـن زوجكـن أوليـاؤكـن. وقيـل إن زيـداً كـان السفيـر للتزويج ، وفي ذلك لزيد ابتلاء عظيم وشاهد بين على قوة إيمانه.

وقد علل تعالى تزويجه إياها بقوله: ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾ [الأحزاب: ٣٧]. أي في أن يتزوجوا زوجات من كانوا يتبنونه إذا فارقوهن، وأن هؤلاء الزوجات ليست داخلات فيما حرم في قوله: ﴿وحلائل أبنائكم﴾ [النساء: ٢٣].

وأما قوله: ﴿وتخفي في نفسك﴾ [الأحزاب: ٣٧]. فمعناه[1]: علمك أنه سيطلقها وتتزوجها، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر في شيء أباحه له، بأن قال: ﴿أمسك عليك زوجك﴾ [الأحزاب: ٣٧]. مع علمه أنه سيطلق، وهذا مروي عن علي بن الحسين، وعليه أهل التحقيق من المفسرين، كالزهري، وبكر بن العلاء، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم.

والمراد بقوله: ﴿وتخشى الناس﴾ [الأحزاب: ٣٧]. إنما هو في إرجاف المنافقين في تزويج نساء الأبناء، والنبي ﷺ معصوم في الحركات والسكنات. ولبعض المفسرين هنا كلام لا يليق بمنصب النبوة.

---

(١) أي أنه كان يخفي أخبار الله الذي أخبره أنها ستصير زوجته بوحي غير قرآن. وذلك أنه كان يبلغ ما أنزل من القرآن فوراً، ثم لما أنزل الله في ذلك قوله ﴿فلما قضى زيداً منها وطراً زوجناكها﴾ أظهر ذلك فتلاه على الناس قرآناً.

وقيل قوله: ﴿واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ [الأحزاب: ٣٧]. خطاب من الله تعالى، أو من الرسول ﷺ لزيد، فإنه أخفى الميل إليها وأظهر الرغبة عنها لما توهم أن رسول الله ﷺ يريد أن تكون من نسائه.

قال جار الله: وكم من شيء مباح يتحفظ الإنسان منه ويستحي من إطلاع الناس عليه، فطموح قلب الإنسان إلى بعض مشتهياته من امرأة وغيرها غير موصوف بالقبح في العقل ولا في الشرع، وتناول المباح بالطريق الشرعي ليس بقبيح أيضاً، وهو خطبة زينب ونكاحها من غير استنزال زيد عنها ولا طلب إليه، ولم يكن مستكرهاً عندهم أن ينزل الرجل منهم عن امرأته لصديقه ولا مستهجناً إذا نزل عنها أن ينكحها آخر، فإن المهاجرين حين دخلوا المدينة واستهم الأنصار بكل شيء، حتى إن الرجل منهم إذا كانت له امرأتان نزل عن إحداهما وأنكحها المهاجري، فإذا كان الأمر مباحاً من جميع جهاته لم يكن فيه وجه من وجوه لمقبح. انتهى.

● وكذا يجوز له ﷺ النكاح بلا ولي وبلا شهود. قال النووي: الصحيح المشهور عند أصحابنا صحة نكاحه ﷺ بلا ولي ولا شهود لعدم الحاجة إلى ذلك في حقه عليه السلام، وهذا الخلاف في غير زينب أما زينب فمنصوص عليها والله أعلم.

قال العلماء: إنما اعتبروا الولي للمحافظة على الكفاءة، وهو ﷺ فوق الأكفاء، وإنما اعتبر الشهود لأمن الجحود، وهو ﷺ لا يجحد ولو جحدت مي لم يرجع إلى قولها، بل قال العراقي في شرح المهذب، تكون كافرة بتكذيبه. وكان له ﷺ تزويج المرأة ممن شاء بغير إذنها وإذن وليها، وله إجبار الصغيرة من غير بناته، وزوج ابنة حمزة مع وجود عمها العباس، فيقدم على الأب. وزوجه الله تعالى بزينب، فدخل عليها بتزويج الله من غير عقد من نفسه. وعبر في الروضة عن هذا بقوله: وكانت المرأة تحل له بتحليل الله تعالى.

● وأعتق أمته صفية وجعل عتقها صداقها وقد اختلف في معناه، فقيل إنه أعتقها بشرط أن يتزوجها، فوجب له عليها قيمتها وكانت معلومة، فتزوجها بها، ويؤيده: قوله في رواية عبد العزيز بن صهيب: سمعت أنساً قال: سبى رسول الله ﷺ صفية فأعتقها وتزوجها، فقال ثابت لأنس: ما أصدقها، قال: نفسها فأعتقها[1]، هكذا أخرجه البخاري في المغازي. وفي رواية حماد عن ثابت وعبد العزيز عن أنس في حديثه قال: وصارت صفية لرسول الله ﷺ ثم تزوجها وجعل عتقها صداقها. قال عبد العزيز لثابت: يا أبا

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب (٣٩) رقم الحديث (٤٢٠١).

محمد أنت سألت أنساً ما أمهرها؟ قال: أمهرها نفسها، فتبسم. فهو ظاهر جداً في أن المجعول مهراً هو نفس العتق. والتأويل الأول لا بأس به، فإنه لا منافاة بينه وبين القواعد حتى لو كانت القيمة مجهولة، فإن في صحة العقد بالشرط المذكور وجهاً عند الشافعية.

وقال آخرون: بل جعل نفس العتق المهر، ولكنه من خصائصه، وممن جزم بذلك الماوردي. وقال آخرون: قوله: «أعتقها وتزوجها» معناه: أعتقها ثم تزوجها، فلما لم يعلم أنه ساق لها صداقاً قال: أصدقها نفسها، أي: لم يصدقها شيئاً فيما أعلم، ولم ينف أصل الصداق، ومن ثم قال أبو الطيب الطبري من الشافعية، وابن المرابط من المالكية ومن تبعهم: أنه قول أنس قاله ظناً من قبل نفسه ولم يرفعه. ويعارضه ما أخرجه الطبراني وأبو الشيخ من حديث صفية نفهسا قالت: أعتقني النبي ﷺ وجعل عتقي صداقي. وهذا موافق لحديث أنس، وفيه رد على من قال: إن أنساً قال ذلك بناء على ظنه.

ويحتمل أن يكون أعتقها بشرط أن ينكحها من غير مهر، فلزمها الوفاء بذلك، وهذا خاص بالنبي ﷺ دون غيره. ويحتمل: أنه أعتقها بغير عوض، وتزوجها بغير مهر في الحال، ولا في المآل، قال ابن الصلاح: معناه أن العتق حل محل الصداق وإن لم يكن صداقاً، قال: وهذا كقولهم الجوع زاد من لا زاد له، قال: وهذا الوجه أصح الأوجه وأقربها إلى لفظ الحديث، وتبعه النووي في «الروضة».

وممن جزم بأن ذلك كان من الخصائص يحيى بن أكثم فيما أخرجه البيهقي قال: وكذا نقله المزني عن الشافعي قال: وموضع الخصوصية، أنه أعتقها مطلقاً وتزوجها بغير مهر ولا شهود، وهذا بخلاف غيره. انتهى. وقال النووي في شرح مسلم: الصحيح الذي اختاره المحققون، أنه أعتقها تبرعاً بلا عوض ولا شرط، ثم تزوجها برضاها من غير صداق، والله أعلم. قاله الحافظ ابن حجر.

● واختلف في انحصار طلاقه ﷺ في الثلاث، وعلى الحصر، قيل: تحلل له من غير محلل، وقيل لا تحل له أبداً.

● وفي وجوب نفقة زوجاته وجهان، قال النووي: الصحيح: الوجوب، انتهىٰ. ولا يجب عليه القسم فيما قاله طوائف من أهل العلم، وبه جزم الاصطخري من الشافعية، والمشهور عندهم وعند الأكثرين الوجوب. وفي حل الجمع له بين المرأة وخالتها وعمتها وجهان، لا أختها وبنتها وأمها، قالوا: ومرجع غالب هذه الخصائص إلى أن النكاح في حقه كالتسري في حقنا.

● وكان له ﷺ أن يصطفي ما شاء من المغنم قبل القسمة من جارية وغيرها.

● وأبيح له القتال بمكة والقتل بها، وجواز دخول مكة بغير إحرام مطلقاً. ذكره ابن القاص، واستدلوا له بحديث أنس عند الستة: (دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر)[1] وذلك من كونه ﷺ كان مستور الرأس بالمغفر، والمحرم يجب عليه كشف رأسه. ومن تصريح جابر والزهري ومالك بأنه لم يكن محرماً.

وأبدى ابن دقيق العيد لستر الرأس احتمالاً فقال: يحتمل أن يكون لعذر. انتهى. وتعقبه الشيخ ولي الدين ابن العراقي فقال: هذا يرده تصريح جابر وغيره: قال: وهذا الاستدلال في غير موضع الخلاف المشهور، لأنه ﷺ كان خائفاً من القتال متأهباً، ومن كان كذلك فله الدخول عندنا بلا إحرام بلا خلاف عندنا، ولا عند أحد نعلمه.

وقد استشكل النووي في شرح المهذب ذلك، لأن مذهب الشافعي أن مكة فتحت صلحاً خلافاً لأبي حنيفة في قوله: إنها فتحت عنوة، وحينئذٍ فلا خوف. ثم أجاب عنه: بأنه ﷺ صالح أبا سفيان، وكان لا يأمن غدر أهل مكة، فدخلها صلحاً وهو متأهب للقتال إن غدروا. انتهى.

وقد ذكرت ما في فتح مكة من المباحث في قصة فتحها من المقصد الأول. ثم إن غيره ﷺ إذا لم يكن خائفاً، فقال أصحابنا: إن لم يكن ممن يتكرر دخوله، ففي وجوب الإحرام عليه قولان: أصحهما عند أكثرهم: أنه لا يجب، وقطع به بعضهم، فإن تكرر دخوله كالحطابين ونحوهم ففيه خلاف مرتب وهو أولى بعدم الوجوب وهو المذهب.

وقال الحنابلة بوجوب الإحرام إلا على الخائف وأصحاب الحاجات، وأوجبه المالكية في المشهور عندهم على غير ذوي الحاجات المتكررة، وأوجبه الحنفية مطلقاً إلا من كان داخل الميقات. وقد تحرر أن المشهور من مذهب الشافعي: عدم الوجوب مطلقاً. ومن مذاهب الأئمة الثلاثة الوجوب إلا فيما استثنى.

● ومن خصائصه ﷺ أنه كان يقضي بعلمه من غير خلاف. وأن يقضي لنفسه ولولده، وأن يشهد لنفسه ولولده. ولا تكره له الفتوى والقضاء في حاء الغضب، كما

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصيد باب (١٨) رقم الحديث (١٨٤٦ ـ ٣٠٤٤ ـ ٤٢٨٦ ـ ٥٨٠٨). وفي صحيح مسلم كتاب الحج رقم الحديث (٤٥٠) وفي سنن أبي داود كتاب الجهاد باب (١١٧) رقم الحديث (٢٦٨٥) وفي سنن الترمذي كتاب الجهاد باب (١٨) رقم الحديث (١٦٩٣) وفي سنن النسائي ٥/ ٢٠١ وفي سنن الدارمي كتاب المناسك رقم الحديث (٨٨). وفي سنن ابن ماجه كتاب الجهاد باب (١٨) رقم الحديث (٢٨٠٥) وفي الموطأ للإمام مالك كتاب الحج باب (٨١) رقم الحديث (٢٤٧) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٠٩ ـ ١٦٤ و ١٨٠ ـ ٢٣٢ ـ ٢٤٠. وفي شرح السنة للبغوي ١٠/ ٣٩٩. وفي البداية والنهاية ٦/ ٩.

ذكره النووي في شرح مسلم، وقد قضى للزبير بشراج الحرة[1] بعد أن أغضبه خصم الزبير. لعصمته ﷺ، فلا يقول في الغضب إلا كما يقول في الرضى.

● وكان له أن يدعو لمن شاء بلفظ الصلاة، وليس لنا أن نصلي إلا على نبي أو ملك.

● وكان له أن يقتل بعد الأمان، وأن يلعن من شاء بغير سبب: واستبعد ذلك.

● وجعل الله شتمه ولعنه قربة للمشتوم والملعون لدعائه ﷺ بذلك[2]. قاله ابن القاص، وردوه عليه، حكاه الحجازي في مختصر الروضة عن نقل الرافعي.

● وكان يقطع الأراضي قبل فتحها، لأن الله ملكه الأرض كلها. وأفتى الغزالي بكفر من عارض أولاد تميم الداري فيما أقطعهم. وقال: إنه ﷺ كان يقطع أرض الجنة فأرض الدنيا أولى.

القسم الرابع: فيما اختص به ﷺ من الفضائل والكرامات.

● منها: أنه أول النبيين خلقاً[3]، كما تقرر في أول هذا الكتاب، وأنه كان نبياً وآدم بين الروح والجسد، رواه الترمذي من حديث أبي هريرة.

● ومنها. أنه أول من أخذ عليه الميثاق كما مر.

● ومنها: أنه أول من قال: «بلى» يوم ﴿ألست بربكم﴾ رواه أبو سهل القطان في جزء من أماليه.

● ومنها: أن آدم وجميع المخلوقات خلقوا لأجله[4]، رواه البيهقي وغيره.

● ومنها: أن الله كتب اسمه الشريف على العرش، وعلى كل سماء، وعلى الجنان وما فيها. رواه ابن عساكر عن كعب الأحبار.

---

(١) موضع معروف بالمدينة. انظر معجم البلدان ٣/ ٣٣٤ ومعجم ما استعجم ٣/ ٧٩.

(٢) راجع كتاب «مرشد الحائر لبيان وضع حديث جابر» للشيخ أبي الفضل عبد الله بن محمد الغماري الحسيني صفحة ١٢٥ وما بعدها.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات باب (٣٤) رقم الحديث (٦٣٦١). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣٩٠ و٣/ ٣٣. وفي صحيح مسلم رقم الصفحة (٢٠٠٩) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٦١. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٦٦. وفي فتح الباري ١١/ ٢٠٥. وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٧٤٧) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٢٢٤) وفي شرح السنة للبغوي ٥/ ٨. وفي تلخيص الحبير لابن حجر ٣/ ١٣٦.

(٤) ومن الكذب السخيف قول بعضهم: «لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك» ذكره الصغاني في الموضوعات صفحة ٥٢ ووافقه العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٢٣٢ في الحكم عليه بالوضع.

● ومنها: أن الله تعالى أخذ الميثاق على النبيين، آدم فمن بعده، أن يؤمنوا به وينصروه، قال الله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ [آل عمران: ٨١]. قال علي بن أبي طالب: لم يبعث الله نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ﷺ لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ويأخذ العهد بذلك على قومه.

● ومنها: أنه وقع التبشير به في الكتب السالفة كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

● ومنها: أنه لم يقع في نسبه من لدن آدم سفاح. رواه البيهقي والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل.

● ومنها: أنه نكست الأصنام لمولده رواه الخرائطي ـ في الهواتف ـ وغيره.

● ومنها: أنه ولد مختوناً مقطوع السرة، رواه الطبراني، وتقدم ما فيه من البحث في أول الكتاب.

● ومنها: أنه خرج نظيفاً، ما به قذر، رواه ابن سعد.

● ومنها: أنه وقع إلى الأرض ساجداً رافعاً أصبعيه كالمتضرع المبتهل. رواه أبو نعيم من حديث ابن عباس. ورأت أمه عند ولادته نوراً خرج منها أضاء له قصور الشام، وكذلك ترى أمهات الأنبياء. رواه الإمام أحمد، وكان مهده ﷺ يتحرك بتحريك الملائكة، كما ذكره ابن سبع في الخصائص، وكان القمر يحدثه وهو في مهده، ويميل حيث أشار إليه، رواه ابن طغر بك في «النطق المفهوم» وغيره. وتكلم في المهد، رواه الواقدي وابن سبع، وظللته الغمامة في الحر، رواه أبو نعيم والبيهقي، ومال إليه فيء الشجرة إذ سبق إليه، رواه البيهقي.

● ومنها: شق صدره الشريف. رواه مسلم وغيره.

● وغطه جبريل عند ابتداء الوحي ثلاث غطات. عند هذه بعضهم من خصائصه ﷺ كما نقله الحافظ ابن حجر، قال: ولم ينقل عن أحد من الأنبياء أنه جرى له عند ابتداء الوحي.

● ومنها: أن الله تعالى ذكره في القرآن عضواً عضواً، فقلبه بقوله: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ [النجم: ١١]. وقوله: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ [الشعراء: ١٩٣ و١٩٤]، ولسانه بقوله: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ [النجم: ٣]، وقوله: ﴿فإنما يسرناه بلسانك﴾ [مريم: ٩٧]. وبصره بقوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ [النجم: ١٧]، ووجهه بقوله: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ [البقرة: ١٤٤]، ويده وعنقه بقوله:

﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ [الإسراء: ٢٩]، وظهره وصدره بقوله: ﴿ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك﴾ [الشرح: ١، ٣]. واشتق اسمه من اسم الله «المحمود» ويشهد له ما أخرجه البخاري في تاريخه الصغير من طريق علي بن زيد، قال: كان أبو طالب يقول:

وشــق لــه مــن اسمــه ليجلــه فــذو العــرش محمــود وهــذا محمــد

وهو مشهور لسحان بن ثابت. وسمي أحمد، ولم يسم به أحد قبله. رواه مسلم. ولأحمد من حديث علي: أعطيت أربعاً لم يعطهن أحد قبلي فذكر منها: وسميت أحمد.

● ومنها أ . ﷺ كان يبيت جائعاً، ويصبح طاعماً يطعمه ربه ويسقيه من الجنة، كما سيأتي البحث ف إن شاء الله تعالى في صيامه ﷺ من مقصد عباداته.

● وكان يرى من خلفه كما يرى أمامه. رواه مسلم.

ويرى في الليل وفي الظلمة كما يرى بالنهار والضوء[1]. رواه البيهقي.

● وكانت ريقه يعذب الماء الملح، رواه أبو نعيم. ويجزي الرضيع، رواه البيهقي.

● ومنها: أنه ﷺ كان إذا مشى في الصخر غاصت قدماه فيه، كما هو مشهور قديماً وحديثاً على الألسنة[2]، ونطق به الشعراء في منظومهم، والبلغاء في منثورهم، مع اعتضاده بوجود أثر قدمي الخليل إبراهيم عليه السلام في حجر المقام المنوه به في التنزيل في قوله تعالى: ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ [آل عمران: ٩٧]. وهو البالغ تعيينه ـ وأنه أثره ـ مبلغ التواتر، القائل فيه أبو طالب:

ومـوطـيء إبـراهيـم فـي الصخـر رطبـة علـى قـدميـه حـافيـاً غيـرنـا عـل

ويما في البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً من معجزة تأثير ضرب موسى في الحجر ستاً أو سبعاً إذ فرَّ بثوبه لما اغتسل. إذ ما خص نبي بشيء من المعجزات والكرامات إلا ولنبينا ﷺ مثله، كما نصوا عليه، مع ما يؤيد ذلك: وهو وجود أثر حافر بغلته الشريفة ـ على ما قيل ـ في مسجد بطيبة، حتى عرف المسجد بها، بحيث يقال له مسجد البغلة، وما ذاك إلا من سره الساري فيها ليكون ذلك أقوى في الآية. وأوضح في الدلالة على إيتائه ﷺ هذه الآية التي أوتيها الخليل في حجر المقام على وجه أعلى منه.

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٧٥. وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٤/ ٢٧٢. وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ١/ ١٦٨.

(٢) قال الحافظ السيوطي: لم أقف له على أصل ولا سند ولا رأيت من خرجه في شيء من كتب الحديث.

بل قال الزبير بن بكار فيما نقله المجد الشيرازي في المغانم المطابة بعد ذكره لأثر البغلة ومسجدها: وفي غربي هذا المسجد أثر كأنه أثر مرفق يذكر أنه ﷺ اتكأ عليه ووضع مرفقه عليه، وعلى حجر آخر أثر الأصابع، والناس يتبركون بهما.

وقال السيد نور الدين السمهودي في كتاب «وفاء الوفا» بعد إيراد ذلك: قلت ولم أقف في ذلك على أصل إلا أن ابن النجار قال في المساجد التي أدركها خراباً بالمدنية ما لفظه: ومسجدان قرب البقيع أحدهما يعرف بمسجد الإجابة، والثاني يعرف بمسجد البغلة، فيه إسطوان واحد، وهو خراب، وحوله نشز من الحجارة، فيه أثر يقولون إنه أثر حافر بغلة النبي ﷺ، انتهى.

● وكان إبطه ﷺ لا شعر عليه، قاله القرطبي، وكان أبيض غير متغير اللون، كما ذكره الطبري وعده من الخصائص، وذكره بعض الشافعية، لحديث أنس ـ المتفق عليه ـ أنه ﷺ كان يرفع يديه في الاستسقاء حتى يرى بياض إبطيه.

وقال الشيخ جمال الدين الإسنوي(١) في «المهمات» إن بياض الإبط كان من خصائصه ﷺ. انتهى.

قال في شرح تقريب الأسانيد: وما ادعاه من كون هذا من الخصائص فيه نظر، إذ لم يثبت ذلك بوجه من الوجوه، بل لم يرد ذلك في شيء من الكتب المعتمدة، الخصائص لا تثبت بالاحتمال، ولا يلزم من ذكر أنس وغيره بياض أبطيه أن لا يكون له شعر، فإن الشعر إذا نتف بقي المكان أبيض، وإن بقي فيه آثار الشعر، ولذلك ورد في حديث عبد الله بن أقرم الخزاعي، أنه صلى مع رسول الله ﷺ فقال: كنت أنظر إلى عفرة إبطيه إذا سجد(٢)، خرجه الترمذي، وحسنه، والنسائي وابن ماجه. وقد ذكر الهروي(٣) في «الغريبين»، وابن الأثير في «النهاية» أن العمرة بياض ليس بالناصع ولكن كلون عفرة الأرض، وهو وجهها، وهذا يدل على أن آثار الشعر هو الذي جعل المكان أعفر، وإلا

---

(١) هو عبد الرحيم بن الحسن بن علي الإسنوي الشافعي، أبو محمد جمال الدين (٧٠٤ ـ ٧٧٢ هـ). مؤرخ. مفسر. فقيه أصولي. عالم بالعربية. توفي في مصر. الأعلام ٣/ ٣٤٤. شذرات الذهب ٦/ ٢٢٤. الدرر الكامنة ٢/ ٣٥٤ رقم الترجمة (٢٣٨٦). كشف الظنون ٢/ ١١٠١. بغية الوعاة (٣٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الصلاة باب (٨٨) رقم الحديث (٢٧٤) وفي ابن ماجه في كتاب الإقامة باب (١٩) رقم الحديث (٨٨١) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٣٥.

(٣) هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الباشاني، أبو عبيد الهروي باحث، لغوي، أديب. توفي سنة (٤٠١ هـ). الأعلام ١/ ٢١٠ وفيات الأعيان ١/ ٢٨ ـ ٣٤. شذرات الذهب ٣/ ١٦١. معجم الأدباء ١/ ٦٤٠ رقم الترجمة (١٧٦). بغية الوعاة (١٦١) وكشف الظنون (١٢٠٦) مرآة الجنان ٣/ ٣.

فلو كان خالياً من نبات الشعر جملة لم يكن أعفر.

نعم الذي تعتقد فيه ﷺ أنه لم يكن لإبطه رائحة كريهة، بل كان نظيفاً طيب الرائحة، كما ثبت في الصحيح.

- وكان ﷺ يبلغ صوته وسمعه ما لا يبلغه صوت غيره ولا سمعه.
- وكان تنام عينه ولا ينام قلبه. رواه البخاري.
- وما تثاءب قط. رواه ابن أبي شيبة والبخاري في تاريخه من مرسل يزيد بن الأصم قال: ما تثاءب نبي قط، ويؤيد ذلك. أن التثاؤب من الشيطان رواه البخاري.
- وما احتلم قط، وكذلك الأنبياء. رواه الطبراني. وكان عرقه أطيب من المسك. رواه أبو نعيم وغيره.

وإذا مشى مع الطويل طاله، رواه البيهقي، ولم يقع له ظل على الأرض، ولا رؤي له ظل في شمس ولا قمر. ويشهد له أنه ﷺ لما سأل الله تعالى أن يجعل في جميع أعضائه وجهاته نوراً، ختم بقوله: «واجعلني نوراً».

وكان ﷺ لا يقع على ثيابه ذباب قط. نقله الفخر الرازي، ولا يمتص دمه البعوض، كذا نقله الحجازي وغيره. وما آذاه القمل، قاله ابن سبع في «الشفاء»[1] والسبتي في «أعذب الموارد».

ومنها: انقطاع الكهنة عند مبعثه، وحراسة السماء من استراق السمع، والرمي بالشهب، قال ابن عباس: كانت الشياطين لا يحجبون عن السماوات، وكانوا يدخلونه ويأتون بأخبارها، فيلقون على الكهنة، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سماوات، فلما ولد محمد ﷺ منعوا من السماوات كلها، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رمي بشهاب، وهو الشعلة من النار، فلا يخطىء أبداً، فمنهم من يقتله، ومنهم من يحرق وجهه، ومنهم من يخبله فيصير غولاً يضل الناس في البراري، وهذا لم يكن ظاهراً قبل مبعث النبي ﷺ، ولم يذكره أحد قبل زمانه. وإنما ظهر في بدىء أمره، وكان ذلك أساساً لنبوته.

وقال معمر قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم. قلت: أفرأيت قوله: ﴿وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع﴾ [الجن: ٩] الآية، قال: غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد ﷺ.

وقال ابن قتيبة: إن الرجم كان قبل مبعثه، ولكن لم يكن في شدة الحراسة إلا بعد

(١) أي شفاء الصدور في أعلام نبوة الرسول وخصائصه. انظر كشف الظنون ٢/ ١٠٥٠.

مبعثه، وقيل: إن النجم كان ينقض ويرمي الشياطين ثم يعود إلى مكانه. ذكره البغوي.

ومنها أنه أتي بالبراق ليلة الإسراء مسرجاً ملجماً، قيل كانت الأنبياء إنما تركبه عرياناً.

ومنها أنه أسري به ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعرج به إلى المحل الأعلى، وأراه من آيات ربه الكبرى، وحفظه في المعراج حتى ما زاغ البصر وما طغى، وأحضر الأنبياء له وصلى بهم وبالملائكة إماماً. وأطلعه على الجنة والنار. وعزيت هذه للبيهقي.

ومنها: أنه رأى الله تعالى بعينيه[1]، كما يأتي في مقصد الإسراء إن شاء الله تعالى، وجمع الله له بين الكلام والرؤية، وكلمه تعالى في الرفيع الأعلى، وكلم موسى بالجبل.

ومنها أن الملائكة تسير معه حيث سار يمشون خلف ظهره وقاتلت معه ـ كما مر ـ في غزوة بدر وحنين.

ومنها: أنه يجب علينا أن نصلي ونسلم عليه، لآية ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ [الأحزاب: ٥٦] إلى آخرها، ولم ينقل أن الأمم المتقدمة كان يجب عليهم أن يصلوا على أنبيائهم.

ومنها: أنه أوتي الكتاب العزيز، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمدارسة.

ومنها: حفظ كتابه هذا من التبديل والتحريف، حتى سعى كثير من الملحدة والمعطلة لا سيما القرامطة في تغييره وتبديل محكمه، فما قدروا على إطفاء شيء من نوره، ولا تغيير كلمة من كلمه، ولا تشكيك المسلمين في حرف من حروفه، قال تعالى: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ [فصلت: ٤٢] الآية.

وكتابه يشتمل على ما اشتملت عليه جميع الكتب، جامعاً لأخبار القرون السالفة والأمم البائدة، والشرائع الدائرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب، الذي قطع عمره في تعلم ذلك. ويسر الله تعالى حفظه لمتعلميه، وقربه على متحفظيه، كما قال تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ [القمر: ١٧] وسائر الأمم لا يحفظ كتبها الواحد منها، فكيف بالجم الغفير على مرور السنين عليهم، والقرآن ميسر حفظه للغلمان في أقرب مدة.

ومنها: أنه أنزل على سبعة أحرف[2] تسهيلاً علينا، وتيسيراً وشرفاً ورحمة وخصوصية لفضلنا.

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ١٩٥. وفي البداية والنهاية ٣/ ١٠٧ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣٦٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الخصومات باب (٤) رقم الحديث (٢٤١٩ ـ ٤٩٩٢ ـ ٥٠٤١ ـ ٦٩٣٦ ـ

ومنها: أنه تعالى تكفل بحفظه، فقال: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩] أي من التحريف والزيادة والنقصان، ونظيره قوله تعالى في صفة القرآن: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه﴾ [فصلت: ٤٢]، وقوله: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [النساء: ٨٢].

فإن قلت: هذه الآية تنفي الاختلاف فيه، وحديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف» المروي في البخاري عن عمر، يثبته.

فأجاب الجعبري في أول شرحه للشاطبية: بأن المثبت اختلاف تغاير، والمنفي اختلاف تناقض، فموردهما مختلف. انتهى.

فإن قلت: فلم اشتغلت الصحابة بجمع القرآن في الصحف، وقد وعد الله تعالى بحفظه، وما حفظه الله تعالى فلا خوف عليه؟

فالجواب: ـ كما قال الرازي ـ إن جمعهم للقرآن كان من أسباب حفظ الله تعالى إياه، فإنه تعالى لما أراد حفظه قيضهم لذلك، قال: وقال أصحابنا: وفي هذه الآية دلالة قوية على أن البسملة آية من أول كل سورة، لأن الله تعالى قد وعد بحفظ القرآن والحفظ لا معنى له إلا أن يبقى مصوناً عن التغيير، وإلا لما كان محفوظاً عن الزيادة ولو جاز أن يظن بالصحابة أنهم زادوا لوجب أيضاً أن يظن بهم النقصان. وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة. واختلف فيه، كيف يحفظ القرآن؟

فقال بعضهم: حفظه بأن يجعله معجزاً مبايناً لكلام البشر، يعجز الخلق عن الزيادة فيه والنقصان منه، لأنهم لو زادوا فيه أو نقصوا منه تغير نظم القرآن، فيظهر لكل العقلاء أن هذا ليس من القرآن. وقال آخرون: أعجز الخلق عن إبطاله وإفساده، بل قيض جماعة يحفظونه ويدرسونه فيما بين الخلق إلى آخر بقاء التكليف. وقال آخرون: المراد بالحفظ هو أن أحداً لو حاول أن يغير بحرف أو نقطة لقال له أهل الدنيا: هذا كذب، حتى إن الشيخ المهيب لو اتفق له تغيير في حرف منه لقال الصبيان كلهم: أخطأت أيها الشيخ وصوابه كذا، ولم يتفق لشيء، من الكتب مثل هذا الكتاب، فإنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتغيير والتحريف، وقد صان الله تعالى هذا الكتاب العزيز عن جميع

= ٧٥٥٠) وفي صحيح مسلم كتاب المسافرين (٢٦٤ ـ ٢٧٠ ـ ٢٧٢). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٣٢ و ٥/ ١١٤ و ٣٩١ وفي سنن النسائي ٢/ ١٣٩ رقم (٣٧) وانظر مجمع الزوائد للهيثمي (٧٥٠) والمعجم الكبير للطبراني ٣/ ١٨٥ والدر المنثور للسيوطي ٢/ ٧ وجمع الجوامع (٤٥٣٤) وكشف الخفاء للعجلوني ١/ ٢٤١ والمطالب العالية لابن حجر (٣٤٨٩) ومشكاة المصابيح للتبريزي (٢٣٨) والكامل في الضعفاء لابن عدي ٢/ ٦٧٩ وكنز العمال (٣٠٨٣ ـ ٣٠٩٤ ـ ٣٠٩٥).

التحريف، مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده، وقد انقضى الآن ثمانية وتسعون سنة وثمانمائة سنة، وهو بحمد الله في زيادة من الحفظ.

ومنها: أنه ﷺ خص بآية الكرسي، وبالمفصل وبالمثاني، وبالسبع الطوال، كما في حديث ابن عباس بلفظ: «وأعطيت خواتيم سورة البقرة من كنوز العرش، وخصصت به دون الأنبياء، وأعطيب المثاني مكان التوراة، والمئين مكان الإنجيل، الحواميم مكان الزبور، وفضلت بالمفصل». رواه أبو نعيم في الدلائل.

وقال تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ [الحجر: ٨٧]، وفي البخاري من حديث أبي هريرة، عنه ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»[1] سائرة.

واختلفوا: لم سميت مثاني، فعن الحسن وابن عباس وقتادة لأنها تثنى في الصلاة، فتقرأ في كل صلاة، وقيل لأنها مقسومة بين الله وبين العبد نصفين، نصفها ثناء ونصفها دعاء، كما في حديث أبي هريرة عنه ﷺ: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»[2]. وقيل لأنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة. وعن مجاهد: لأن الله استثناها وادخرها لهذه الأمة، فما أعطاها غيرهم.

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن السبع المثاني هي السبع الطوال، أولها سورة البقرة وآخرها سورة الأنفال مع التوبة، وقال بعضهم: سورة يونس بدل الأنفال: قال ابن عباس: وإنما سميت السبع الطوال مثاني لأن الفرائض والحدود والأمثال والخبر والعبر ثنيت فيها. وقال طاووس: القرآن كله مثاني، قال الله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني﴾ [الزمر: ٢٣]، وسمى القرآن مثاني لأن القصص ثنيت فيه والله أعلم.

ومنها: أنه أعطي مفاتيح الخزائن[3]. قال بعضهم: وهي خزائن أجناس العالم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب (٣) رقم الحديث (٤٧٠٤). والترمذي في كتاب تفسير القرآن باب (٣) رقم الحديث (٣١٢٤).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب (١٣٢) رقم الحديث (٨٢١). وفي الترمذي كتاب التفسير باب (١) رقم الحديث (٩٢٥٤). وفي المسند للحميدي رقم الحديث (٩٧٣) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٣٧...٣٠. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٣/ ١٥٠. وفي التمهيد لابن عبد البر ٢/ ٢٣٠ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٣٦٧.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز باب (٧٢) رقم الحديث (١٣٤٤ ـ ٣٥٩٦ ـ ٤٠٤٢ ـ ٤٠٨٥ ـ ٦٤٢٦ ـ ٦٥٩٠).

ليخرج لهم بقدر ما يطلبونه لذواتهم، فكل ما ظهر من رزق العالم فإن الإسم الإلهي لا يعطيه إلا عن محمد ﷺ الذي بيده المفاتيح، كما اختص تعالى بمفاتيح الغيب فلا يعلمها إلا هو، وأعطى هذا السيد الكريم منزلة الإختصاص بإعطائه مفاتيح الخزائن.

ومنها: أنه أوتي جوامع الكلم، فالكلم جمع كلمة، وكلمات الله تعالى لا تنفد، فالكلمة منه كلمات، ولما علم جوامع الكلم أعطي الإعجاز بالقرآن الذي هو كلام الله تعالى، وهو المترجم عن الله تعالى، . فوقع الإعجاز في الترجمة التي هي له، فإن المعاني المجردة عن المواد لا يتصور الإعجاز بها وإنما الإعجاز ربط هذه المعاني بصور الكلم القائم من نظم الحروف، فهو لسان الحق وسمعه وبصره.

ومنها: أنه بعث إلى الناس كافة، قال بعضهم: وهو من الكفت، وهو الضم، قال الله تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً﴾ [المرسلات: ٢٥] تضم الأحياء على ظهورها، والأموات في بطنها، كذلك ضمت شريعته ﷺ جميع الناس، فلا يسمع به أحد إلا لزمه الإيمان به، ولما سمع الجن القرآن يتلى قالوا: ﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به﴾ [الأحقاف: ٣١] الآية، فضمت شريعته الإنس والجن، وعمت رحمته التي أرسل بها العالم، قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فمن لم تنله رحمته فما ذلك من جهته، وإنما ذلك من جهة القابل. فهو كالنور الشمسي أفاض شعاعه على الأرض، فمن استتر عنه في كنٍّ أو ظل جدار فهو الذي لم يقبل انتشار النور عليه، وعدل عنه، فلم يرجع إلى الشمس من ذلك منع. انتهى.

فإن قلت: إن نوحاً كان مبعوثاً إلى أهل الأرض بعد الطوفان، فإنه لم يبق إلا من كان مؤمناً معه، وقد كان مرسلاً إليه، وقد جاء في حديث جابر وغيره «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود»[1] وفي رواية «إلى الناس كافة»[2].

أجاب الحافظ ابن حجر، رحمه الله تعالى: بأن هذا العموم الذي حصل لنوح عليه السلام لم يكن في أصل بعثته، وإنما اتفق بالحادث الذي وقع، وهو انحصارالخلق في الموجودين بعد هلاك سائر الناس. وأما نبينا ﷺ فعموم رسالته من أصل البعثة فثبت اختصاصه بذلك.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب المساجد رقم الحديث (٣) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٥٠ و ٥/ ١٦٢ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٥٩. وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٢٤٠. وفي طبقات ابن سعد ١/ ١٥٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٣٠٤. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٤٣٣. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٥٩. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ٤١٣. وفي طبقات ابن سعد ١/ ١٥٠ وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٢٣٧. وفي تفسير ابن كثير ٢/ ١١٢ وفي كنز العمال (٣٢٠٠٤).

وأما قول أهل الموقف لنوح ـ كما صح في حديث الشفاعة ـ: إنه أول رسول إلى أهل الأرض، فليس المراد به عموم بعثته، بل إثبات أولية إرساله[1]، وعلى تقدير أن يكون مراداً فهو مخصوص بتنصيصه سبحانه وتعالى في عدة آيات على أن إرسال نوح كان إلى قومه، ولم يذكر انه أرسل إلى غيرهم.

واستدل بعضهم لعموم بعثته: بكونه دعا على جميع من في الأرض فأهلكوا بالغرق إلا أهل السفينة، ولو لم يكن مبعوثاً إليهم لما أهلكوا، لقوله تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ [الإسراء: ١٥]، وقد ثبت أنه أول الرسل.

وأجيب: بجواز أن يكون غيره أرسل إليهم في أثناء مدة نوح، وعلم نوح بأنهم لم يؤمنوا فدعا على من لم يؤمن من قومه وغيرهم. فأجيب: وهذا جواب حسن، لكن لم ينقل أنه نبيء في زمن نوح غيره. ويحتمل أن يكون معنى الخصوصية لنبينا ﷺ في ذلك بقاء شريعته. انتهى.

وأما قول بعض اليهود: أن نبينا محمداً ﷺ إنما هو مبعوث إلى العرب خاصة، ففاسد. والدليل عليه أنهم ـ أي اليهود ـ سلموا أنه رسول صادق إلى العرب، فوجب أن يكون كل ما يقوله حقاً، وقد ثبت بالتواتر أنه يدعي أن رسول إلى كل الناس، فلو كذبوه فيه لزم التناقض، أشار إليه صاحب المعالم[2].

ومنها: نصره ﷺ بالرعب مسيرة شهر، والشهر قدر قطع القمر درجات الفلك المحيط، فهو أسرع قاطع، لعموم رعبه في قلوب أعدائه، فلا يقبل الرعب إلا عدوٌ مقصود ليتميز السعيد من الشقي، ومفهوم هذا: أنه لم يوجد لغيره النصر بالرعب في هذه المدة، ولا في أكثر منها، أما ما دونها فلا، لكن لفظ رواية عمرو بن شعيب: «ونصرت على العدو بالرعب ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر»[3] فالظاهر اختصاصه به مطلقاً. وإنما جعل الغاية شهراً، لأنه لم يكن بين بلده ﷺ وبين أحد من أعدائه أكثر من شهر وهذه الخصوصية حاصلة له على الإطلاق ، حتى ولو كان وحده بغير عسكر، وهل هي حاصلة لأمته من بعده، فيه احتمال.

---

(١) فقديماً كان البشر جميعهم على دين واحد، هو الإسلام، وإنما حدث الشرك والكفر بالله تعالى بعد النبي إدريس عليه الصلاة والسلام فكان نوح أول نبي أرسل إلى الكفار يدعو إلى عبادة الله الواحد الذي لا شريك له. وبين نوح وإدريس عليهما السلام ألف سنة. وتلك الفترة تسمى الجاهلية الأولى التي عناها الله بقوله: ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ [الأحزاب: ٣٣].

(٢) أي معالم السنن شرح أبي داود للخطابي انظر كشف الظنون ٢/١٧٢٦.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/٢٢٢. وفي فتح الباري ١/٥٧٦. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/٢٥٩. وفي المعجم الكبير للطبراني ١١/٧٣.

ومنها: إحلال الغنائم ولم تحل لأحد قبله. وقد كان من تقدم على ضربين، منهم من لم يؤذن له في الجهاد، فلم تكن له مغانم، ومنهم من أذن له فيه، لكن كانوا إذا غنموا شيئاً لم يحل لهم أن يأكلوه، وجاءت نار فأحرقته(١). قال بعضهم: أعطي ﷺ ما يوافق شهوة أمته، لأن النفوس لها التلذاذ بها، لكونها حصلت لهم عن غير قهر منهم لتحصيلها وغلبة، فلا يريدون أن يفوتهم التنعم بها في مقابلة ما قاسوه من الشدة والتعب.

ومنها: جعل الأرض له ولأمته مسجداً وطهوراً(٢)، والمراد: موضع سجود، أي لا يختص السجود منها بموضع دون غيره، ويمكن أن يكون مجازاً عن المكان المبني للصلاة، وهو من مجاز التشبيه، لأنه لما جازت الصلاة في جميعها كان كالمسجد في ذلك. وقيل المراد: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وجعلت لغيري مسجداً ولم تجعل له طهوراً، لأن عيسى كان يسيح في الأرض، ويصلي حيث أدركته الصلاة، قاله ابن التين ومن قبله الداودي. وقيل: إنما أبيح لهم في موضع يتيقنون طهارته، بخلاف هذه الأمة فأبيح لهم في جميع الأرض، إلا فيما تيقنوا نجاسته.

والأظهر: ما قاله الخطابي، وهو أن من قبله إنما أبيحت لهم الصلاة في أماكن مخصوصة كالبيع والصوامع، ويؤيده رواية عمرو بن شعيب بلفظ «وكان من قبلي إنما كانوا يصلون في كنائسهم» وهذا نص في موضع النزاع فتثبت الخصوصية. ويؤيده ما رواه البزار من حديث ابن عباس، نحو حديث جابر وفيه: ولم يكن من الأنبياء أحد يصلي حتى يبلغ محرابه قاله في فتح الباري(٣).

ومنها: أن معجزته ﷺ مستمرة إلى يوم القيامة، ومعجزات سائر الأنبياء انقرضت لوقتها، فلم يبق إلا خبرها، والقرآن العظيم لم تزل حجته قاهرة ومعارضته ممتنعة.

ومنها أنه أكثر الأنبياء معجزة. قال القاضي عياض: أما كونها كثيرة فهذا القرآن وكله معجز، وأقل ما يقع الإعجاز فيه عند بعض أئمة المحققين بسورة ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ [الكوثر: ١] أو آية في قدرها، وذهب بعضهم: إلى أن كل آية منه كيف كانت معجزة، وذهب آخرون إلى أن كل جملة منتظمة منه معجزة، وإن كانت من كلمة أو كلمتين.

---

(١) راجع البخاري كتاب الخمس باب (٨) رقم الحديث (٣١٢٤ ـ ٥١٥٧) وانظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/٣١٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التيمم باب (١) رقم الحديث (٣٣٥ ـ ٤٣٨ ـ ٣١٣٢). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/٢٥٦. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/٢٥٩. وفي مسند أبي عوانة ١/٣٠٣.

(٣) انظر فتح الباري ١/٥٧٦.

قال القاضي: والحق ما ذكرناه أولاً، لقوله تعالى: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة: ٢٣] فهو أقل ما تحداهم به، مع ما ينصر هذا القول من نظر وتحقيق يطول بسطه. وإذا كان هذا، ففي القرآن من الكلمات نحو سبع وسبعين ألف كلمة ونيف على عدد بعضهم، وعدد كلمات ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ عشر كلمات، فيتجزأ القرآن على نسبة ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ أزيد من سبعة آلاف جزء، فكل واحد منها معجز في نفسه، ثم إعجازه ـ كما تقدم ـ بوجهين. طريق بلاغته، وطريق نظمه، فصار في كل جزء من هذا العدد معجزتان فتضاعف العدد من هذا الوجه، ثم فيه وجوه إعجاز أخر، من الإخبار بعلوم الغيب، فقد يكون في السورة الواحدة من هذه التجزئة الإخبار عن أشياء من الغيب، كل خبر منها بنفسه معجز، فتضاعفت العدد كرة أخرى. ثم وجوه الإعجاز الأخر التي ذكرناها توجب التضعيف، هذا في حق القرآن، فلا يكاد يأخذ العدد معجزاته، ولا يحوي الحصر براهينه(١)، انتهى.

ومن ذلك انشقاق القمر وتسليم الحجر، وحنين الجذع، ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ، ولم يثبت لواحد من الأنبياء مثل ذلك، كما ذكره ابن عبد السلام وغيره، وتقدم ما فيه من المباحث.

ومنها: أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، قال ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنىٰ بيتاً فأحسنه إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين»(٢). رواه البخاري ومسلم.

ومنها: أن شرعه مؤبد إلى يوم الدين، وناسخ لجميع شرائع النبيين، وأنه أكثر الأنبياء تابعاً كما قال ﷺ: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»(٣). رواه الشيخان من حديث أبي هريرة.

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٥٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (١٨) رقم الحديث (٣٥٣٤ ـ ٣٥٣٥). وفي صحيح مسلم كتاب الفضائل باب (٧) رقم الحديث (٢٣) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٦١. وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٥.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب (١) رقم الحديث (٤٩٨١ ـ ٧٢٧٤). وفي صحيح مسلم كتاب الايمان رقم الحديث (٢٣٩) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ١٥٢ و ٢/ ٣٤١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٤ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ١٢٩. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٧٤٦) وفي الدر المنثور للسيوطي ١/ ٣٥. وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ١٠/ ٢٣٣. وفي البداية والنهاية ٦/ ٧٢ وفي كنز العمال (٣١٩١٢ ـ ٣٢١١٢).

ومنها أنه لو أدركه الأنبياء لوجب عليهم اتباعه، كما سيأتي تقريره إن شاء الله تعالى.

ومنها أنه أرسل إلى الجن اتفاقاً، والدليل على ذلك قبل الإجماع: الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ [الفرقان: ١]، وقد أجمع المفسرون على دخول الجن في هذه الآية، وهو مدلول لفظها، فلا يخرج عنه إلا بدليل. وإن قيل إن الملائكة خارجون من ذلك فلا يضر، لأن العام المخصوص حجة عند جمهور العلماء والأصوليين، ولو بطل الاستدلال بالعمومات المخصوصة لبطل الاستدلال بأكثر الأدلة. وقال تعالى في الأحقاف: ﴿أجيبوا داعي الله﴾ [الأحقاف: ٣١]، فأمر بعضهم بعضاً بإجابته دليل على أنه داع لهم، وهو معنى بعثته إليهم، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما السنة، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بست» فذكر منها «وأرسلت إلى الخلق كافة»[1] فإنه يشمل الإنس والجن، وحمله على الإنس خاصة تخصيص بغير دليل فلا يجوز. والكلام فيه كالكلام في آية الفرقان [١].

فإن قلت: إن قوله: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨] ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ [سبأ: ٢٨] ظاهر في اختصاص رسالته ﷺ بالإنس، واحتمال غير ذلك عدول عن الظاهر.

فالجواب: إن هذا إنما يتمشى على مذهب الدقاق القائل بأن مفهوم اللقب حجة، و«الناس» من قبيل اللقب، فإن المسألة المترجمة في الأصول «بمفهوم اللقب» لا تختص باللقب بل الأعلام كلها وأسماء الأجناس كلها كذلك ما لم تكن صفة. و«الناس» اسم جنس غير صفة فلا مفهوم له. فهذه الآية ليس فيها أصلاً ما يفهم منه أنه ليس رسولاً إلى غيرهم إلا على مذهب الدقاق، بل ولا يتم على مذهب التمسك بهذا المفهوم أيضاً لأن الدقاق إنما يقول به حيث لم يظهر غرض آخر سواه في تخصيص ذلك الإسم، وحيث ظهر غرض لا يقول بالمفهوم، بل يحمل التخصيص على ذلك الغرض، والغرض في الآية التعميم في جميع الناس، وعدم اختصاص الرسالة ببعضهم، فلا يلزم نفي الرسالة عن غيرهم، لا على مذهب الدقاق ولا على مذهب غيره. وإنما خاطب الناس لأنهم الذين

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب السير باب (٥) رقم الحديث (١٥٥٣). وفي صحيح مسلم كتاب المساجد رقم الحديث (٥) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٤١٢. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٤٧٢. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٦٩. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٤٣٢. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٧٤٨) وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ١٩٨ وفي فتح الباري ١/ ٥٧٥. وفي كنز العمال (٣١٩٣٢).

تغلب رؤيتهم والخطاب معهم، فمقصود الآية خطاب الناس، والتعميم فيهم لا النفي عن غيرهم، وهذا إذا قلنا إن لفظ الناس لا يشمل الجن، فإن قلنا إنه يشملهم فواضح.

والخلاف فيه مبني على الخلاف في اشتقاق «الناس»، هل هو من النوس، وهو الحركة، أو من الإنس ضد الوحشة؟ فإذا قلنا بالأول أطلق على الفريقين، ولكن استعماله في الإنس أغلب، فحيث أطلق فالمراد به ولد آدم، وإذا قلنا بالثاني فلا، لأنا لا نبصر الجن ولا نأنس بهم، فدخول الجن في الآية إما ممتنع وإما قليل فلا يحمل عليه، وبهذا يتبين ضعف الاستدلال بها، لكنها لا تدل على خلافه.

وأما قول الضحاك ومن تبعه: أن الرسل إلى الجن منهم، لقوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾ [الأنعام: ١٣] فهو ظاهر الآية، لكن لم يقل الضحاك ولا أحد غيره باستمرار ذلك في هذه الملة. وإنما محل الخلاف في ذلك في الملل المتقدمة خاصة، وأما في هذه الملة فنبينا محمد، ﷺ هو المرسل إليهم وإلى غيرهم، ولم ينقل أحد عن الضحاك أن رسل الجن منهم مطلقاً، ولا ينبغي أن ينسب إليه ما يخالف الإجماع، على أن الأكثرين قالوا: لم تكن الرسل إلا من الإنس، ولم يكن من الجن قط رسول، لكن لما جمعوا مع الجن في الخطاب صح ذلك. ونظيره: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ [الرحمن: ٢٢] وهما يخرجان من الملح دون العذب، وقيل الرسل من الجن رسل الرسل من بني آدم إليهم لا رسل الله، لقوله تعالى: ﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾ [الأحقاف: ٢٩]، قاله بعض العلماء.

ومنها أنه أرسل الملائكة في أحد القولين، ورجحه السبكي. قال تعالى: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ [الفرقان: ١] ولا نزاع أن المراد بالعبد ها هنا محمد ﷺ، والعالم هو ما سوى الله تعالى، فيتناول جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة، ويطل بذلك قول من قال: إنه كان رسولاً إلى البعض دون البعض، لأن لفظ «العالمين» يتناول جميع المخلوقات، فتدل الآية على أنه رسول إلى جميع الخلق.

ولو قيل لمدعي «خروج الملائكة من هذا العموم» أقم الدليل عليه ربما عجز عنه، فإنه يحتمل أن يكون من الملائكة من أنذره ﷺ إما ليلة الإسراء وإما غيرها. لكن لا يلزم من الإنذار والرسالة إليهم في شيء خاص أن يكون بالشريعة كلها.

وإذا قلنا إن الملائكة هم مؤمنو الجن السماوية، فإذا ركب هذا مع القول بعموم الرسالة للجن الذي قام الإجماع عليه، لزم عموم الرسالة لهم، لكن القول بأن الملائكة من الجن قول شاذ.

والجمهور: على أن «العالمين» في أية الفرقان عام مخصوص بالجن والإنس كما فسر بهما حديث «وأرسلت إلى الخلق كافة» المروي في مسلم. وصرح الحليمي والبيهقي ـ في الباب الرابع من شعب الإيمان ـ بأنه ﷺ لم يرسل إلى الملائكة، وفي الباب الخامس عشر بانفكاكهم من شرعه. وفي تفسير الإمام فخر الدين الرازي، والبرهان النسفي: حكاية الإجماع في تفسير آية الفرقان على أنه لم يكن رسولاً إليهم، كما حكاه العلامة الجلال المحلي[1] والله أعلم.

وعبارة النسفي: ثم إنهم قالوا هذه الآية تدل على أحكام: أولها: أن قوله: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ [الفرقان: ١] يتناول جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة. لكنا أجمعنا على أنه ﷺ لم يكن رسولاً إلى الملائكة، بل يكون رسولاً إلى الجن والإنس جميعاً. وهو عبارة الإمام فخر الدين أيضاً.

وقد تعقب الجلال المحلي العلامةُ كمال الدين بن أبي شريف فقال: اعلم أن البيهقي نقل ذلك عن الحليمي، فإنه قال: هذا معنى كلام الحليمي، وفي قوله هذا إشعار التبري من عهدته، وبتقدير أن لا إشعار فيه فلم يصرح بأنه مرضي عنده. وأما الحليمي فإنه وإن كان من أهل السنة فقد وافق المعتزلة في تفضيل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وما نقله عنه موافق لقوله بأفضلية الملائكة، فلعله بناه عليه.

وأما ما ذكره من حكاية الرازي والنسفي الإجماع على أنه ﷺ لم يكن مرسلاً إليهم، فقد وقع في نسخ من تفسير الرازي «لكنا بيّنا» بدل «أجمعنا»، على أن قوله: «أجمعنا» ليس صريحاً في إجماع الأمة، لأن مثل هذه العبارة تستعمل لإجماع الخصمين المتناظرين، بل لو صرح به لمنع، فقد قال الإمام السبكي في قوله: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ قال المفسرون كلهم في تفسيرها للجن والإنس، وقال بعضهم وللملائكة، انتهى.

وبالجملة: فالاعتماد على تفسير الرازي والنسفي في حكاية إجماع انفردا بحكايته أمر لا ينتهض حجة على طريقة علماء النقل، لأن مدارك نقل الإجماع من كلام الأئمة وحفاظ الأمة كابن المنذر وابن عبد البر، ومن فوقهما في الاطلاع كالأئمة أصحاب المذاهب المتبوعة ومن يلحق بهم في سعة دائرة الاطلاع والحفظ والإتقان لها من الشهرة عند علماء النقل ما يغني عن بسط الكلام فيها.

---

(١) هو محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحلي الشافعي. جلال الدين (٧٩١ ـ ٨٦٤ هـ). أصولي. مفسر. توفي بالقاهرة. الأعلام ٥/ ٣٣٣. شذرات الذهب ٧/ ٣٠٣. الضوء اللامع ٧/ ٣٩ رقم الترجمة (٨٢).

والـلائق بهذه المسألة التوقف عن الخوض فيها على وجه يتضمن دعوى القطع في شيء من الجانبين، انتهى.

ومنها: أنه أرسل رحمة للعالمين، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] قال السمرقندي: يعني للجن والإنس، وقيل لجميع الخلق، رحمة للمؤمن بالهداية ورحمة للمنافق بالأمان من القتل. وقال ابن عباس: رحمة للبر والفاجر، لأن كل نبي إذا كذب أهلك الله من كذبه، ومحمد ﷺ أخر من كذبه إلى الموت أو القيامة. وأما من صدقه فله الرحمة في الدنيا والآخرة. فذاته ﷺ ـ كما روي ـ رحمة تعم المؤمن والكافر كما قال تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال: ٣٣] وقال ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة» رواه الدارمي والبيهقي من حديث أبي هريرة، وسيأتي في المقصد السادس مزيد لذلك إن شاء الله تعالى. والله الموفق.

● ومنها: أن الله تعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم في القرآن، فقال: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا داود، يا زكريا، يا يحيى، يا عيسى، ولم يُخاطب هو فيه إلا بـ «يا أيها الرسول» «يا أيها النبي» «يا أيها المزمل» «يا أيها المدثر».

● ومنها أنه حرم على الأمة نداءه باسمه، قال تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ [النور: ٦٣] أي لا تجعلوا نداءه وتسميته كنداء بعضكم بعضاً باسمه، ورفع الصوت به، والنداء وراء الحجرات، ولكن قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، مع التوقير والتواضع وخفض الصوت، وقيل: لا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً في جواز الإعراض والمساهلة في الإجابة.

● ومنها: أنه يحرم الجهر له بالقول، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ [الحجرات: ٢]. قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ [الحجرات: ٢] كان أبو بكر لا يكلم النبي ﷺ إلا كأخي السرار[١] وروي أنه ﷺ ما كان يسمع كلام عمر حتى يستفهمه مما يخفض صوته[٢].

وكان ثابت بن قيس في أذنه وقر، وكان جهورياً، فلما نزلت تخلف عن رسول الله ﷺ، فتفقده ودعاه، فقال: يا رسول الله لقد أنزلت عليك هذه الآية، وإني رجل جهير

---

(١) قال ابن كثير أخرجه الحافظ والبزار عن أبي بكر وفيه حصين بن عمر هذا وإن كان ضعيفاً لكن رويناه من حديث عبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة بنحو ذلك والله أعلم. تفسير ابن كثير ٤/٢٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب (١) رقم الحديث (٤٨٤٥).

الصوت فأخاف أن يكون عملي قد حبط، فقال ﷺ «لست هناك، إنك تعيش بخير وتموت بخير، وإنك من أهل الجنة»[1]. قال أنس: فكنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا، فلما كان يوم اليمامة في حرب مسيلمة رأى ثابت من المسلمين بعض الانكشاف وانهزمت طائفة منهم، فقاتل حتى قتل.

● ومنها أنه يحرم نداؤه من وراء الحجرات قال الله تعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ [الحجرات: ٤]، إذ العقل يقتضي حسن الأدب ومراعاة الحشمة ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم﴾ [الحجرات: ٥] أي لكان الصبر خيراً لهم من الاستعجال لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم الرسول ﷺ الموجبين للثناء والثواب.

●ومنها أنه حبيب الله، وجمع له بين المحبة والخلة، وسيأتي تحقيق ذلك وما فيه من المباحث في آخر المقصد السابع، إن شاء الله تعالى.

● ومنها أنه تعالى أقسم على رسالته وبحياته وببلده وعصره، كما سيأتي ذلك في المقصد السادس، إن شاء الله تعالى.

● ومنها أنه كلم بجميع أصناف الوحي، كما نقل عن ابن عبد السلام وسبق تحقيقه في المبعث من المقصد الأول.

● ومنها أن إسرافيل هبط عليه، ولم يهبط على نبي قبله، أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد هبط عليّ ملك من السماء ما هبط على نبي قبلي، ولا يهبط على أحد بعدي، وهو إسرافيل، فقال: أنا رسول ربك إليك أمرني أن أخبرك إن شئت نبياً عبداً، وإن شئت نبياً ملكاً، فنظرت إلى جبريل فأومأ إلي أن تواضع، فلو أني قلت نبياً ملكاً، لسارت الجبال معي ذهباً»[2].

● ومنها أنه سيد ولد آدم، رواه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة» وعند الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب (١) رقم الحديث (٤٨٤٦) وفي المسند للحميدي رقم الحديث (٦٤٩) وفي المعجم الكبير للطبراني ٢/ ٦١. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٤٠٤. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٢٤٣. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٣٢٢. وفي كنز العمال (٣٦٣٢١).

(٢) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٣٤٨. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٩. وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٣/ ٢٥٦. وفي كنز العمال (٣٢٠٢٧).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن باب (١٨) رقم الحديث (٣١٤٨ ـ ٣٦١٥). وفي صحيح =

وإنما قال ذلك إخباراً عما أكرمه الله تعالى به من الفضل والسؤدد، وتحدثاً بنعمة الله عنده، وإعلاماً لأمته ليكون إيمانهم به على حسبه وموجبه، ولهذا أتبعه بقوله: «ولا فخر» أي إن هذه الفضيلة التي نلتها كرامة من الله، لم أنلها من قبل نفسي، ولا بلغتها بقوتي، فليس لي أن أفتخر بها.

● ومنها أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال الله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: ٢].

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: من خصائصه ﷺ أنه أخبره الله تعالى بالمغفرة ولم ينقل أنه أخبر أحداً من الأنبياء بمثل ذلك، ويدل له قولهم في الموقف: «نفسي نفسي». وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية ـ يعني آية الفتح ـ لم يشاركه فيها غيره. وقد أخرج أبو يعلى والطبراني والبيهقي عن ابن عباس قال: إن الله فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء، قالوا: فما فضله على أهل السماء، قال: إن الله تعالى قال لأهل السماء: ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم﴾ [الأنبياء: ٢٩] وقال لمحمد ﷺ: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ فقد كتب له براءة، قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: إن الله تعالى قال: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ [إبراهيم: ٤] وقال لمحمد: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ [سبأ: ٢٨]، فأرسله إلى الإنس والجن.

● ومنها أنه أكرم الخلق على الله، فهو أفضل من كل المرسلين، وجميع الملائكة المقربين، وسيأتي الجواب عن قوله ﷺ في حديث ابن عباس، عند مسلم: «ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»(١) ونحو ذلك في المقصد السادس إن شاء الله تعالى.

= مسلم كتاب الفضائل رقم الحديث (٣) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٨١ و ٣/ ٢. وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٠٧. وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ٢٠٤. وفي اتحاف السادة المتقين ٩/ ٢٢٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٧٤١ ـ ٥٧٦١). وفي تفسير القرطبي ٣/ ٢٦٢. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ٤٤٢ وفي كنز العمال (٣١٨٨١ ـ ٣٢٠٣٣ ـ ٣٩٠٥٢). وفي البداية والنهاية ١/ ١٦٠ و ٢/ ٢٤٠.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب (٤) رقم الحديث (٤٦٣٠ ـ ٤٦٣١) وفي صحيح مسلم كتاب الفضائل رقم الحديث (١٦٧) وفي سنن أبي داود كتاب السنة باب (١٣) رقم الحديث (٤٦٦٩ ـ ٤٦٧٠). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٤٠٥. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٤٩٤ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٢٦. وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ٢٠٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٧١٠). وفي مشكل الآثار للطحاوي ١/ ٤٤٧.

● ومنها إسلام قرينه. رواه مسلم من حديث ابن مسعود، والبزار من حديث ابن عباس.

● ومنها أنه لا يجوز عليه الخطأ، كما ذكره ابن أبي هريرة والماوردي: وقال قوم: ولا النسيان، حكاه النووي في شرح مسلم.

● ومنها أن الميت يسأل عنه ﷺ في قبره، فعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «وأما فتنة القبر فبي يفتنون وعني يسألون، فإذا كان الرجل أجلس، فيقال له ما هذا الرجل الذي كان فيكم؟ فيقول: محمد رسول الله»[1]. الحديث رواه أحمد والبيهقي.

● ومنها أنه حرم نكاح أزواجه من بعده، قال الله تعالى: ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ [الأحزاب: ٦] أي هن في الحرمة كالأمهات، حرم نكاحهن عليهم بعده تكرمة له وخصوصية، ولأنهن أزواج له في الآخرة، وهذا في غير المخيرات، فمن اختارت منهن الدنيا ففي حلها للأزواج طريقان: أحدهما طرد الخلاف، والثاني: القطع بالحل واختاره الإمام[2] والغزالي.

وأزواجه اللاتي توفي عنهن محرمات على غيره أبداً، وفي جواز النظر إليهن وجهان: أشهرهما المنع، ويثبت لهن حكم الأمومة في احترامهن وطاعتهن وتحريم نكاحهن، لا في جواز الخلوة بهن والنفقة عليهن والميراث. ولا يتعدى ذلك إلى غيرهن فلا يقال بناتهن أخوات للمؤمنين على الأصح. وقيل: إنما حرمن لأنه ﷺ حي في قبره، ولذا حكى الماوردي أنه لا يجب عليهن عدة الوفاة. وفي التي فارقها في الحياة ـ كالمستعيذة ـ والتي رأى بكشحها بياضاً ـ أوجه: أحدها، يحرمن أيضاً، وهو الذي نص عليه الشافعي وصححه في الروضة، لعموم الآية، وليس المراد بمن بعده بعدية الموت بل بعدية النكاح. وقيل: لا. والثالث: وصححه إمام الحرمين والرافعي في الصغير: تحريم المدخول بها فقط، لما روي أن الأشعث بن قيس نكح المستعيذة في زمن عمر، فهم عمر برجمه فأخبر أنها لم تكن مدخولاً بها فكف. وفي أمة فارقها بعد وطئها أوجه ثالثها: تحرم إن فارقها بالموت ـ كمارية ـ ولا تحرم إن باعها في الحياة. انتهى.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦/ ١٣٩. وفي الدر المنثور للسيوطي ٤/ ٨٣ وفي اتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤١٨ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ٣٦٤.

(٢) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني. أبو المعالي ركن الدين الملقب بإمام الحرمين. (٤١٩ ـ ٤٧٨ هـ). فقيه، أصولي، متكلم، مفسر، أديب. توفي بالمحفة من قرى نيسابور. الأعلام ٤/ ١٦٠. وفيات الأعيان ١/ ٢٨٧. شذرات الذهب ٣/ ٣٥٨ طبقات الشافعية ٣/ ٢٤٩. مفتاح السعادة ١/ ٤٤٢. كشف الظنون (٦٨ ـ ٧٠ ـ ٢٤٢).

● ومنها ما عده ابن عبد السلام أنه يجوز أن يقسم على الله به وليس ذلك لغيره، قال ابن عبد السلام: وهذا ينبغي أن يكون مقصوراً على النبي ﷺ، لأنه سيد ولد آدم، وأن لا يقسم على الله بغيره من الأنبياء والملائكة والأولياء لأنهم ليسوا في درجته، وأن يكون هذا مما خص به لعلو درجته ومرتبته(١)، انتهى.

● ومنها أنه يحرم رؤية أشخاص أزواجه في الأزر، وكذا يحرم كشف وجوههن وأكفهن لشهادة أو غيرها، كما صرحه به القاضي عياض، وعبارته: فرض الحجاب مما اختصصن به، فهو فرض عليهن بلا خلاف في الوجه والكفين، فلا يجوز كشف ذلك في شهادة ولا غيرها، ولا إظهار شخوصهن وإن كن مستقرات، إلا ما دعت إليه ضرورة من براز، ثم استدل بما في الموطأ، أن حفصة لما توفي عمر رضي الله عنه سترها النساء عن أن يرى شخصها، وأن زينب بنت جحش جعلت لها القبة فوق نعشها لتستر شخصها. انتهى.

قال الحافظ ابن حجر: وليس فيما ذكره دليل على ما ادعاه من فرض ذلك عليهن، فقد كن بعد النبي ﷺ يحججن ويطفن، وكان الصحابة ومن بعدهم يسمعون منهن الحديث وهن مستترات الأبدان لا الأشخاص. انتهى.

وأما حكم نظر غير أزواجه ففي الروضة وأصلها عن الأكثرين: جواز النظر إلى وجه حرة كبيرة أجنبية وكفيها إذا لم يخف فتنة، مع الكراهة، وقوة كلام الشيخين: الرافعي والنووي تقتضي رجحانه، وصوبه في «المهمات» لتصريح الرافعي في الشرح بأن الأكثرين عليه، لكن نقل ابن العراقي أن شيخه البلقيني قال: الترجيح بقوة المدرك، والفتوى على ما في المنهاج، وقد جزم به في «التدريب»، وقوة كلام الشرح الصغير تقتضي رجحانه، وعلله باتفاق المسلمين على منع النساء من الخروج سافرات. ونقلا في «الروضة» و «أصلها» هذا الاتفاق وأقراه.

وعورض: بنقل القاضي عياض عن العلماء مطلقاً: أنه لا يجب على المرأة ستر وجهها في الطريق، وإنما هو سنة، وعلى الرجال غض البصر، وحكاه عنه النووي في

---

(١) روي عن عثمان بن حنيف: أنَّ رجلاً ضرير البصر أتىٰ النبي ﷺ فقال أدع الله أن يعافيني، قال إن شئت دعوت وإن شئت صبرت، فهو خير لك، قال: فادعه. قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء. اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي اللهم فشفعه فيّ. انظر الترمذي (٣٥٧٨). وابن ماجه (١٣٨٥). والمسند للإمام أحمد بن حنبل ١٣٨/٤ والمستدرك للحاكم ٣١٣/١. ومشكاة المصابيح للتبريزي (١٦٨١٦) وكنز العمال (٣٦٤٠).

شرح مسلم وأقره. قاله الشيخ نجم الدين ابن قاضي عجلون في تصحيح المنهاج والله أعلم. وكان النكاح في حقه ﷺ عبادة مطلقاً، كما قاله السبكي، وهو في حق غيره ليس بعبادة عندنا، بل من المباحات، والعبادة عارضة له.

● ومنها أن أولاد بناته ينسبون إليه، قال ﷺ في الحسن: «إن ابني هذا سيد» رواه أبو يعلى.

● ومنها أن كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلا سببه ونسبه. قال ﷺ: «كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي»(1). والنسب بالولادة والسبب بالزواج. قيل: إن أمته ينتفعون بالنسبة إليه يوم القيامة بخلاف أمة غيره.

● ومنها: أنه لا يتزوج على بناته. فعن المسور بن مخرمة أنه سمع رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «إن بني هاشم بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب، فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم، إلا أن يحب ابن أبي طالب أن طلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما ابنتي بضعة مني يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها»(2) أخرجه الشيخان، وصححه الترمذي.

وعنه (أن علي بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل، وعنده فاطمة بنت النبي ﷺ، فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبي ﷺ فقالت: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح ابنة أبي جهل. قال المسور: فقال النبي ﷺ فسمعته حين تشهد قال: «أما بعد فإني انكحت أبا العاصي بن الربيع، فحدثني فصدقني، وإن فاطمة بنت محمد بضعة مني، وإنما أكره أن يفتنوها، وإنه والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحدأبداً». قال: فترك علي الخطبة)(3): أخرجه الشيخان.

---

(1) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ٣٦. وفي المستدرك للحاكم ٣/ ١٤٢. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ١١٤. وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٢/ ٣٤. وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ١٥ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ٢٧١ وفي تفسير القرطبي ٤/ ١٠٤ وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٦/ ١٨٢. وفي تفسير ابن كثير ٥/ ٤٨٩ وفي البداية والنهاية ٧/ ٨٣ وفي كنز العمال (٣١٩١٤).

(2) أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب (١١٠) رقم الحديث (٥٢٣٠) وفي سنن أبي داود كتاب النكاح باب (١٢) رقم الحديث (٢٠٧١) وفي الترمذي كتاب المناقب باب (٦٠) رقم الحديث (٣٨٦٧) وفي صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة رقم الحديث (٩٣) وفي سنن ابن ماجه كتاب النكاح باب (٥٦) رقم الحديث (١٩٩٨) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٣٢٨. وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٢٨٨ وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٧/ ٣٢٥. وفي شرح السنة للبغوي ١٤/ ١٥٩ وفي كنز العمال (٣٤٢١٣).

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح باب (٥٦) رقم الحديث (١٩٩٩) وفي صحيح مسلم كتاب=

واسم بنت أبي جهل هذه: جويرية، أسلمت وبايعت، وتزوجها عتاب بن أسيد، ثم أبان بن سعيد بن العاصي. قال أبو داود: حرم الله تعالى على علي أن ينكح على فاطمة في حياتها، بقوله عز وجل: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر: ٧].

وذكر الشيخ أبو علي السنجي[1]، في شرح التلخيص: أنه يحرم التزوج على بنات النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون ذلك خاصاً بفاطمة رضي الله عنها، وقد علل ﷺ بأن ذلك يؤذيه، وإذايته ﷺ حرام بالاتفاق، وفي هذا تحريم أذى من يتـأذى النبي ﷺ بتأذيه، لأن إيذاء النبي ﷺ حرام اتفاقاً، قليله وكثيره. وقد جزم ﷺ بأنه يؤذيه ما آذى فاطمة، فكل من وقع منه في حق فاطمة شيء فتأذت به فهو يؤذي النبي ﷺ بشهادة هذا الخبر الصحيح.

وقد استشكل اختصاص فاطمة بذلك، مع أن الغيرة على النبي ﷺ أقرب إلى خشية الافتتان في الدين، ومع ذلك فكان ﷺ يستكثر من الزوجات، وتوجد منهن الغيرة، ومع ذلك ما راعى ﷺ ذلك في حقهن، كما راعاه في حق فاطمة؟

وأجيب: بأن فاطمة كانت إذ ذاك فاقدة من تركن إليه ممن يؤنسها ويزيل وحشتها من أم أو أخت، بخلاف أمهات المؤمنين، فإن كل واحدة منهن كانت ترجع إلى من يحصل لها معه ذلك، وزيادة عليه وهو زوجهن ﷺ لما كان عنده من الملاطفة وتطييب القلوب وجبر الخواطر، بحيث إن كل واحدة منهن ترضى منه لحسن خلقه وجميل خلقه بجميع ما يصدر منه، بحيث لو وجد ما يخشى وجوده من الغيرة لزال عن قرب.

ومنها: أنه لا يجتهد في محراب صلى إليه يمنة ولا يسرة، وأفتى شيخ الإسلام أبو زرعة ابن العراقي في شخص امتنع من الصلاة إلى محراب النبي ﷺ وقال: أنا أجتهد وأصلي، بأنه إن فعل ذلك مع الاعتراف بأنه على ما كان في زمن النبي ﷺ فهو ردة، وإن ذكر تأويلاً بأن قال: ليس هو الآن على ما كان عليه في زمنه ﷺ بل غير عما كان عليه، فهذا سبب اجتهادي، لم يحكم بردته، وإن لم يكن هذا التأويل صحيحاً.

ومنها أن من رآه في المنام فقد رآه حقاً فإن الشيطان لا يتمثل به. وفي رواية

= الفضائل رقم الحديث (٩٦) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٢٦. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٣٠٨.

(١) هو الحسين بن شعيب بن محمد السنجي. أبو علي. فقيه شافعي. توفي سنة (٤٢٧ هـ). الأعلام ٢/ ٢٣٩. وفيات الأعيان ١/ ١٤٥. كشف الظنون (٤٧٩ ـ ١٦٣٥) وفيه أنه توفي سنة (٤٣٠ هـ).

مسلم «من رآني في المنام فيسراني في اليقظة أو لكأنما رآني في اليقظة، لا يتمثل الشيطان بي»[1]. قال الحافظ ابن حجر: ووقع عند الإسماعيلي: «فقد رآني في اليقظة» بدل قوله «فسيراني» ومثله عند ابن ماجه وصححه الترمذي من حديث ابن مسعود. وفي رواية أبي قتادة ـ عند مسلم أيضاً ـ «من رآني فقد رأى الحق». وله أيضاً من حديث جابر «من رآني في المنام فقد رآني، فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتمثل في صورتي» وفي رواية «من رآني في المنام فقد رآني فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتشبه بي». وفي حديث أبي سعيد عند البخاري «فإن الشيطان لا يتكونني»[2] أي لا يتكون كوني، فحذف المضاف ووصل المضاف إليه بالفعل.

وفي حديث أبي قتادة عند البخاري «لا يتراءى بي»[3] بالراء، بوزن يتعاطى، ومعناه: لا يستطيع أن يتمثل بي، يعني أن الله تعالى وإن أمكنه من التصور في أي صورة أراد فإنه لم يمكنه من التصور في صورة النبي ﷺ. وقد ذهب إلى هذا جماعة، فقالوا في الحديث: إن محل ذلك إذا رآه الرائي على صورته التي كان عليها، ومنهم من ضيق الذرع في ذلك حتى قال: لا بد أن يراه على صورته التي قبض عليها، حتى يعتبر عدد الشعرات البيض التي لم تبلغ عشرين شعرة.

وعن حماد بن زيد قال: كان محمد ـ يعني ابن سيرين ـ إذا قص عليه رجل أنه رأى النبي ﷺ قال: صف الذي رأيته، فإن وصف له صفة لا يعرفها قال: لم تره، وسنده صحيح. وقد أخرج الحاكم من طريق عاصم بن كليب: حدثني أبي قال: قلت لابن عباس، رأيت النبي ﷺ في المنام، قال: صفه لي، قال: فذكرت الحسن بن علي فشبهته به، قال: قد رأيته، وسنده جيد.

لكن يعارضه: ما أخرجه ابن أبي عاصم من وجه آخر عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني، فإني أرى في كل صورة»[4] وفي سنده ابن التوأمة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التعبير باب (١٠) رقم الحديث (٦٩٩٣). وفي سنن أبي داود في كتاب الأدب باب (٨٨) رقم الحديث (٥٠٢٣) وفي صحيح مسلم كتاب الرؤيا رقم الحديث (٧ ـ ١٣) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٣٠٦. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٩/ ٢٩٧. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٧/ ١٨٢. وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ٢٢٧ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٦٦١) وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٠/ ٢٨٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التعبير باب (١٠) رقم الحديث (٦٩٩٧) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٥٥ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٧/ ١٨١ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ٤٥ وفي الشمائل للترمذي (٢١٠) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٦١٠).

(٣) أخرجه البخاري كتاب التعبير باب (١٠) رقم الحديث (٦٩٩٥).

(٤) انظر فتح الباري ١٢/ ٤٧٤.

وهو ضعيف لاختلاطه، وهو من رواية من سمع منه بعد الاختلاط. قال القاضي أبو بكر ابن العربي: رؤيته ﷺ بصفته المعلومة إدراك على الحقيقة، ورؤيته على غير صفته إدراك للمثال، فإن الصواب أن الأنبياء لا تغيرهم الأرض، ويكون إدراك الذات الكريمة حقيقة، وإدراك الصفات إدراك المثال.

قال: وقد شذ بعض القدرية فقال: الرؤيا لا حقيقة لها أصلاً[1].

قال وقوله: «فسيراني» معناه فسيرى تفسير ما رأى، لأنه حق وغيب، وأما قوله«فكأنما رآني» فهو تشبيه ومعناه: أنه لو رآني في اليقظة لطابق ما رآه في المنام، فيكون الأول حقاً وحقيقة، والثاني حقاً وتمثيلاً. قال: وهذا كله إذا رآه على صورته المعروفة، فإن رآه على خلاف صفته فهي أمثال. فإن رآه مقبلاً عليه مثلاً فهو خير للرائي، وعلى العكس فبالعكس.

وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بقوله«فقد رآني» أو«فقد رأى الحق» أن من رآه على صورته المعروفة في حياته كانت رؤياه حقاً، ومن رآه على غير صورته كانت رؤيا تأويل، انتهى. وتعقبه النووي فقال: هذا ضعيف، بل الصحيح أنه يراه حقيقة سواء كانت على صفته المعروفة أو غيرها، انتهى. وتعقبه شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر فقال: لم يظهر لي من كلام القاضي عياض ما ينافي ذلك، بل ظاهر قوله أنه يراه حقيقة في الحالين، لكن في الأولى تكون الرؤيا مما لا يحتاج إلى تعبير، والثانية: مما يحتاج إلى التعبير.

وقال بعضهم؛ معناه، أن من رآه [رآه][2] على صورته التي كان عليها. ويلزم من قول من قال: «إنه لا تكون رؤيته إلا على صورته المعلومة» أن من رآه على غير صفته أن تكون رؤياه من أضغاث الأحلام. ومن المعلوم أنه يرى في النوم على حالة بخلاف حالته في الدنيا من الأحوال اللائقة به، ولو تمكن الشيطان من التمثيل بشيء مما كان عليه أو ينسب إليه لعارض عموم قوله: «فإن الشيطان لا يتمثل بي» فالأولى أن ننزه رؤياه، وكذا رؤيا شيء منه، أو مما ينسب إليه عن ذلك، فإنه أبلغ في الحرمة، وأليق بالعصمة، كما عصم من الشيطان في يقظته،

فالصحيح في تأويل هذا الحديث: أن مقصوده أن رؤيته في كل حالة ليست باطلة ولا أضغاثاً، بل هي حق في نفسها، ولو رؤي على غير صورته، فتصور تلك الصورة ليس من الشيطان، بل هو من قبل الله، وهذا قول القاضي أبي بكر الطيب وغيره. ويؤيده قوله: «فقد رأى الحق» أشار إليه القرطبي.

---

(١) وشذ بعض الصالحين فزعم أنها تقع بعيني الرأس حقيقة، وقال بعض المتكلمين: هي مدركة بعينين في القلب. فتح الباري ١٢/ ٤٧٥.

(٢) هكذا في فتح الباري ١٢/ ٤٧٥.

وقال ابن بطال: قوله: «فسيراني في اليقظة» يريد تصديق تلك الرؤيا في اليقظة وصحتها وخروجها على الحق، وليس المراد أنه يراه في الآخرة، لأنه سيراه يوم القيامة في اليقظة جميع أمته، من رآه في النوم ومن لم يره. وقال المازري: إن كان المحفوظ «فكأنما رآني في اليقظة» فمعناه ظاهر، وإن كان المحفوظ «فسيراني في اليقظة» احتمل أن يكون أراد أهل عصره ممن لم يهاجر إليه، فإنه إذ رآه في المنام جعل ذلك علامة على أنه يراه بعد ذلك في اليقظة، وأوحى الله بذلك إليه ﷺ. وقيل معناه: سيرى تأويل تلك الرؤيا في اليقظة وصحتها.

وأجاب القاضي عياض: باحتمال أن تكون رؤياه له في النوم على الصفة التي عرف بها، ووصف عليها، موجبة لتكرمته في الآخرة، وأن يراه رؤية خاصة من القرب منه، أو الشفاعة له، بعلو الدرجة ونحو ذلك من الخصوصيات. قال: ولا يبعد أن يعاقب الله بعض المذنبين في القيامة بمنع رؤية نبيه ﷺ مدة.

وحمله ابن أبي جمرة على محمل آخر، فذكر عن ابن عباس أو غيره، أنه رأى النبي ﷺ في النوم، فبقي بعد اليقظة متفكراً في هذا الحديث، فدخل على بعض أمهات المؤمنين ـ لعلها خالته ميمونة ـ فأخرجت له المرآة التي كانت للنبي ﷺ فنظر فيها صورة النبي ﷺ ولم ير صورة نفسه.

وقال الغزالي: ليس معنى قوله: «فقد رآني» أنه رأى جسمي وبدني وإنما المراد أنه رأى مثالاً صار ذلك المثال آلة يتأدى بها المعنى الذي في نفسي إليه، وكذلك قوله: «فسيراني في اليقظة» ليس المراد أنه يرى جسمي وبدني. قال: والآلة تارة تكون حقيقية وتارة تكون خيالية، والنفس غير المثال المتخيل، فما رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى ﷺ ولا شخصه بل هو مثال له على التحقيق. قال: ومثل ذلك من يرى الله تعالى في المنام، فإن ذاته تعالى منزهة عن الشكل والصورة، ولكن تنتهي تعريفاته تعالى إلى العبد بواسطة مثال محسوس من نور[1] أو غيره، ويكون ذلك المثال آلة حقاً في كونه واسطة في التعريف، فيقول الرائي: رأيت الله عز وجل في المنام، لا يعني أني رأيت ذات الله تعالى، كما يقول في حق غيره.

وقال الغزالي أيضاً في بعض فتاويه: من رأى الرسول ـ يعني في المنام ـ لم ير

---

(١) لا يتوهم من هذا الكلام بأن الإله نور (بمعنى الضوء) لأن الله لا يشبه الأشياء: وأما معنى قوله تعالى ﴿الله نور السموات والأرض﴾ [النور: ٣٥] أي هادي أهل السموات والأرض لنور الايمان فالله تعالى ليس نوراً بمعنى الضوء، بل هو الذي خلق النور قال تعالى: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ [الانعام: ١]. أي خلق الظلمات والنور فكيف يمكن أن يكون نوراً كخلقه.

حقيقة شخصه المودع روضة المدينة، وإنما رأى مثاله لا شخصه، ثم قال: وذلك المثال مثال روحه المقدسة عن الصورة والشكل.

وقال الطيبي: المعنى من رآني في المنام بأي صفة كنت فليبشر وليعلم أنه قد رآني الرؤيا الحق، أي رؤية الحق لا الباطل، وكذا قوله: «فقد رآني» فالشرط والجزاء إذا اتحدا دل على الغاية في الكمال، أي فقد رآني رؤيا ليس بعدها شيء.

والحاصل من الأجوبة:

أنه على التشبيه والتمثيل ويدل عليه قوله «فكأنما رآني في اليقظة».

ثانيها: معناه، سيرى في اليقظة تأويلها بطريق الحقيقة.

ثالثها: أنه خاص بأهل عصره ممن آمن به قبل أن يراه.

رابعها: المراد أنه يراه في المرآة التي كانت له إن أمكنه ذلك، قال شيخ مشايخنا الحافظ ابن حجر: وهذا من أبعد المحامل.

خامسها: أنه يراه يوم القيامة بمزيد خصوصية، لا مطلق من رآه حينئذٍ ممن لم يره في المنام.

والصواب كما قدمناه في رؤيته ﷺ التعميم، على أي حالة رآه الرائي بشرط أن يكون على صورته الحقيقية في وقت ما، سواء كان في شبابه أو رجوليته أو كهوليته، أو آخر عمره، وقد يكون لما خالف ذلك تعبير يتعلق بالرائي، كما قال بعض علماء التعبير: إن من رآه شيخاً فهو غاية سلم، ومن رآه شاباً فهو غاية حرب.

وقال أبو سعيد أحمد بن محمد بن نصر: من رأى نبياً على حاله وهيئته فذلك دليل على صلاح الرائي وكمال جاهه وظفره بمن عاداه، ومن رآه متغير الحال عابساً مثلاً فذلك دال على سوء حال الرائي.

وقال العارف ابن أبي جمرة: من رآه في صورة حسنة فذاك حسن في دين الرائي، وإن كان في جارحة من جوارحه شين أو نقص فذلك خلل في الرائي من جهة الدين. قال: وهذا هو الحق. وقد جرب ذلك فوجد على هذا الأسلوب، وبه تحصل الفائدة الكبرى في رؤياه حتى يتبين للرائي هل عنده خلل أو لا؟ لأنه ﷺ نوراني مثل المرآة الصقيلة، ما كان في الناظر إليها من حسن أو غيره تصور فيها، وفي ذاتها على أحسن حال لا نقص فيها، كذلك يقال في كلامه ﷺ في النوم: أنه يعرض على سنته، فما وافقها فهو حق، وما خالفها فالخلل في سمع الرائي، فرؤيا الذات الكريمة حق، والخلل إنما هو في سمع الرائي له أو بصره، قال: وهذا غير ما سمعته في ذلك، انتهى.

وقال بعضهم: ليست رؤيته ﷺ رؤيا عين، إنما يرى بالبصائر، وذلك لا يستدعي حصر المرئي بل يرى من المشرق إلى المغرب ومن الأرض إلى العرش، كما ترى الصورة في المرآة المحاذية لها، وليست الصورة منتقلة إلى جرم المرآة، وعين الناظر مقابلة جميع الكائنات كالمرآة.

واختلاف رؤيته ﷺ بأن يراه بعضهم شيخاً وآخر شاباً، وآخر ضاحكاً وآخر باكياً، يرجع إلى حال الرائين، كاختلاف الصورة الواحدة في مرائي مختلفة الأشكال والمقادير، ففي الكبيرة يرى وجهه كبيراً، وفي الصغيرة صغيراً، وفي المعوجة معوجاً، وفي الطويلة طويلاً، إلى غير ذلك، فالاختلاف راجع إلى اختلاف أشكال المرائي، لا إلى وجه الرائي. كذلك الراؤون له ﷺ أحوالهم بالنسبة إليه مختلفة، فمن رآه متبسماً إليه دل على أن الرائي متمسك بسنته، والله أعلم.

وقد أجاب الشيخ بدر الدين الزركشي عن سؤال جماعة له ﷺ في أن واحد من أقطار متباعدة، مع أن رؤيته ﷺ حق: بأنه ﷺ سراج، ونور الشمس في هذا العالم، مثال نوره في العوالم كلها، وكما أن الشمس يراها كل من في المشرق والمغرب في ساعة واحدة وبصفات مختلفة فكذلك النبي ﷺ، ولله در القائل:

كالبدر من أي النواحي جئته ... يهدي إلى عينيك نوراً ثاقباً

وأما رؤيته ﷺ في اليقظة بعد موته ﷺ فقال شيخنا: لم يصل إلينا ذلك عن أحد من الصحابة، ولا عن من بعدهم.

وقد اشتد حزن فاطمة عليه ﷺ حتى ماتت كمداً بعده بستة أشهر ـ على الصحيح ـ وبيتها مجاور لضريحه الشريف، ولم ينقل عنها رؤيته في المدة التي تأخرت عنه.

وإنما حكى بعض الصالحين حكايات عن أنفسهم، كما هو في «توثيق عرى الإيمان» للبارزي و«بهجة النفوس» لأبي محمد عبدالله بن جمرة، و«روض الرياحين» للعفيف اليافعي، وغيره من تصانيفه، والشيخ صفي الدين بن أبي المنصور في رسالته.

وعبارة ابن أبي جمرة: قد ذكر عن السلف والخلف إلى هلم جراً عن جماعة كانوا يصدقون بهذا الحديث يعني«من رآني في المنام فسيراني في اليقظة» أنهم رأوه ﷺ في النوم فرأوه بعد ذلك في اليقظة، وسألوه عن أشياء كانوا منها متشوشين فأخبرهم بتفريجها، ونص لهم على الوجوه التي منها يكون فرجها، فجاء الأمر كذلك بلا زيادة ولا نقص.

ثم قال: والمنكر لهذا لا يخلو إما أن يكون ممن يصدق بكرامات الأولياء، أو لا،

فإن كان الثاني فقد سقط البحث معه، فإنه مكذب ما أثبتته السنة بالدلائل الواضحة، وإن كان الأول فهذه منها، لأن الأولياء يكشف لهم بخرق العادة في أشياء في العالمين العلوي والسفلي عديدة مع التصديق بذلك.

وقال الشيخ ابن أبي المنصور في رسالته، ويقال: إن الشيخ أبا العباس القسطلاني دخل مرة على النبي ﷺ فقال النبي ﷺ «أخذ الله بيدك يا أحمد». وعن الشيخ أبي السعود قال: كنت أزور شيخنا أبا العباس وغيره من صلحاء مصر فلما انقطعت واشتغلت وفتح علي، لم يكن لي شيخ إلا النبي ﷺ، وأنه كان يصافحه عقب كل صلاة.

وقال الشيخ أبو العباس الحراز: دخلت على النبي ﷺ مرة فوجدته يكتب مناشير الأولياء بالولاية، قال: وكتب لأخي محمد معهم منشوراً، فقلت يا رسول الله، ما تكتب لي كأخي؟ قال: «أتريد أن تكون فمهاراً» وهذه لغة أندلسية، تعني طريقاً، وفهم عنه أن له مقاماً غير هذا.

وقال حجة الإسلام الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال»: وهم - يعني أرباب القلوب - في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد. انتهى.

ورأيت في كتاب المنح الإلهية في مناقب السادة الوفائية عن سيدي علي بن سيدي محمد وفا أنه قال في بعض مشاهده: كنت وأنا ابن خمس سنين أقرأ القرآن على رجل يقال له الشيخ يعقوب، فأتيته يوماً فرأيت إنساناً يقرأ عليه سورة ﴿الضحى﴾ [الضحى: ١] وصحبته رفيق له وهو يلوي شدقيه بالإمالة، ورفيقه يضحك إعجاباً، فرأيت النبي ﷺ يقظة لا مناماً وعليه قميص أبيض قطن، ثم رأيت القميص علي فقال لي: اقرأ فقرأت عليه سورة ﴿والضحى﴾ و ﴿ألم نشرح﴾ [الشرح] ثم غاب عني، فلما بلغت إحدى وعشرين أحرمت بصلاة الصبح بالقرافة فرأيت النبي ﷺ قبالة وجهي فعانقني فقال لي: وأما بنعمة ربك فحدث، فأوتيت لسانه من ذلك الوقت. انتهى.

وأما ما حكاه الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في «لطائف المنن» عن الشيخ أبي العباس المرسي، أنه كان مع الشيخ أبي الحسن الشاذلي بالقيروان في ليلة الجمعة سابع عشري رمضان، فذهب معه إلى الجامع.. الحكاية، إلى أن قال: ورأيت رسول الله ﷺ وهو يقول «يا علي طهر ثيابك من الدنس تحظ بمدد الله في كل نفس الخ»، فيحتمل أن يكون مناماً.

وكذلك قول الشيخ قطب الدين القسطلاني: كنت أقرأ على أبي عبدالله محمد

ابن عمر بن يوسف القرطبي بالمدينة النبوية، فجئته يوماً في وقت خلوة، وأنا يومئذٍ حديث السن فخرج إلي وقال لي: من أدبك بهذا الأدب؟ وعاب علي، قال: فذهبت وأنا منكسر الخاطر، فدخلت المسجد وقعدت عند قبر النبي ﷺ، فبينا أنا جالس على تلك الحال، فإذا بالشيخ قد جاءني وقال: قم، فقد جاء فيك شفيع لا يرد.

ونحوه: ما حكاه السهروردي في «عوارف المعارف» عن الشيخ عبد القادر الكيلاني أنه قال: ما تزوجت حتى قال لي رسول الله ﷺ: «تزوج».

وحكي عن السيد نور الدين الإيجي، والد السيد عفيف الدين، أنه في بعض زياراته للنبي ﷺ سمع جواب سلامه من داخل القبر الشريف: عليك السلام يا ولدي.

وقال البدر حسن بن الأهـدل في مسألة الرؤية له: إن وقوعها للأولياء قد تواترت بأجناسها الأخبار، وصار العلم بذلك قوياً، انتفى عنه الشك، ومن تواترت عليه أخبارهم لم يبق له شبهة فيه، ولكن يقع لهم ذلك في بعض غيبة حسّ وغموض طرف، لورود حالة لا تكاد تضبطها العبارة. ومراتبهم في الرؤية متفاوتة، وكثيراً ما يغلط فيها رواتها، فقل ما تجد رواية متصلة صحيحة عمن يوثق به. وأما من لا يوثق به فقد يكذب، وقد يرى مناماً، أو في غيبة حس، فيظنه يقظة، وقد يرى خيالاً ونوراً فيظنه الرسول، وقد يلبس عليه الشيطان فيجب التحرز في هذا الباب.

وبالجملة:

فالقول برؤيته ﷺ بعد موته بعين الرأس في اليقظة يدرك فساده بأوائل العقول، لاستلزامه خروجه ﷺ من قبره، ومشيه في الأسواق ومخاطبته للناس ومخاطبتهم له، وخلو قبره عن جسده المقدس، فلا يبقى منه فيه شيء، وبحيث يزار مجرد القبر، ويسلم على غائب. أشار إلى ذلك القرطبي في الرد القائل: بأن الرائي له في المنام راءٍ حقيقة، ثم يراه كذلك في اليقظة.

قال: وهذه جهالات لا يقول بشيء منها من له أدنى مسكة من المعقول، وملتزم شيء من ذلك مختل مخبول. وقال: القاضي أبو بكر بن العربي: وشذ بعض الصالحين فزعم أنها تقع بعيني الرأس حقيقة. وقال في فتح الباري ـ بعد أن ذكر كلام ابن أبي جمرة ـ: وهذا مشكل جداً، ولو حمل على ظاهره لكان هؤلاء صحابة، ولأمكن بقاء الصحبة إلى يوم القيامة. وللشيخ مسلم شيخ الطائفة المسلمية شعر:

فمـن يـدعـي فـي هـذه الـدار أنـه ... يـرى المصطفى حقاً فقـد فـاه مشتطا
ولكـن بيـن النـوم واليقظـة التـي ... يبـاشـر هـذا الأمـر مـرتبـة وسطـا

وقد جعل القاضي أبو بكر بـن العربي القول بأن الرؤية في المنام بعيني الرأس غلو وحماقة، ثم حكى ما نسب لبعض المتكلمين، وهو القول بأنها مدركة بعينين في القلب، وأنه ضرب من المجاز انتهى.

فلا يمتنع من الخواص، أرباب القلوب القائمين بالمراقبة والتوجه على قدم الخوف، بحيث لا يسكنون بشيء مما يقع لهم من الكرامات، فضلاً عن التحدث بها لغير ضرورة، مع السعي في التخلص من الكدورات، والإعراض عن الدنيا وأهلها جملة، وكون الواحد منهم يود أنه يخرج من أهله وماله، وأنه يرى النبي ﷺ، كالشيخ عبد القادر الكيلاني: أن يتمثل صورته ﷺ في خاطره ويتصور في عالم سره أنه يكلمه، بشرط استقرار ذلك وعدم اضطرابه، فإن تزلزل أو اضطراب كان لمة من الشيطان، وليس ذلك خادشاً في علو مناصبهم لعدم عصمة غير الأنبياء.

فقد قال العلامة التاج ابن السبكي في جمع الجوامع ـ تبعاً لغيره ـ: وإن الإلهام ليس بحجة لعدم ثقة من ليس معصوماً بخواطره، وحينئذٍ فمن قال ـ ممن حكينا عنه أو غيرهم ـ بأن المرئي هو المثال، لا يمتنع حمله على هذا، بل حمل كل من أطلق عليه هو اللائق. وقريب منه قوله ﷺ: «إني رأيت الجنة والنار» مع مزيد استبعاده هناك أن يكون المراد بالرؤية رؤية العلم.

ويحكى عن الشيخ أبي العباس المرسي أنه قال: لو حجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين.

وعلى هذا فيكون معنى«فسيراني في اليقظة» أي يتصور مشاهدتي وتنزل نفسه حاضراً معي بحيث لا يخرج عن آدابه وسنته ﷺ بل يسلك منهاجه ويمشي على شريعته وطريقته. ومنه قوله ﷺ في الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه»[1] ويحمل العموم في«من رآني» علي الموفقين، وإليه يشير قول بعض المعتمدين: أي من رآني رؤية معظم لحرمتي ومشتاق لمشاهدتي وصل إلى رؤية محبوبه وظفر بكل مطلوبه.

وقريب منه قول شارح المصابيح: أو يراه في الدنيا حالة الذوق والانسلاخ عن العوائق الجسمانية، كما نقل ذلك عن بعض الصالحين أنه رآه في حالة الذوق والشوق، وقد قال الأهدل عقب الحكاية عن الشيخ أبي العباس المرسي: وهذا فيه تجوز يقع مثله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الايمان باب (٣٧) رقم الحديث (٥٠ ـ ٤٧٧٧) ومسلم أيضاً رقم الحديث (٥ ـ ٧ ـ ٨) وفي سنن أبي داود كتاب السنة باب (١٦) رقم الحديث (٤٦٩٥) وفي سنن ابن ماجه المقدمة باب (٩) رقم الحديث (٦٣). والترمذي ايمان (٤) والنسائي ايمان (٥ و ٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٧/١ و ٥٢ و ١٠٧/٣ و ٢٨٥ و ٣/٥.

في كلام الشيوخ، وذلك أن المراد أنه لم يحجب حجاب غفلة ونسيان لدوام المراقبة واستحضارها في الأعمال والأقوال، ولم يرد أنه لم يحجب عن الروح الشخصية طرفة عين، فذلك مستحيل، والله أعلم. انتهى.

ومما اختص به ﷺ أن التسمي باسمه ميمون ونافع في الدنيا والآخرة.

روينا عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «يوقف عبدان بين يدي الله تعالى فيؤمر بهما إلى الجنة فيقولان: ربنا بما استأهلنا الجنة ولم نعمل عملاً تجازينا به الجنة؟ فيقول الله تعالى: ادخلا الجنة، فإني آليت على نفسي أن لا يدخل النار من اسمه أحمد ولا محمد»(1).

وروى أبو نعيم عن نبيط بن شريط قال قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: «وعزتي وجلالي، لا عذبت أحداً تسمى باسمك في النار».

وعن علي بن أبي طالب قال: ما من مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه أحمد أو محمد إلا قدس الله ذلك المنزل كل يوم مرتين، رواه أبو منصور الديلمي. وليس لأحد أن يتكنى بكنيته «أبي القاسم» سواء كان اسمه محمد أم لا، ومنهم: من كره الجمع بين الإسم والكنية، وجوز الإفراد، ويشبه أن يكون هو الأصح. قال النووي في هذه المسألة مذاهب: الشافعي منع مطلقاً، وجوزه مالك، والثالث: يجوز لمن ليس اسمه محمداً، ومن جوز مطلقاً خص النهي بحياته، وهو الأقرب. انتهى.

ومنها أنه يستحب الغسل لقراءة حديثه والتطيب، ولا ترفع عنده الأصوات، بل تخفض، كما في حياته إذا تكلم، فإن كلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه الشريف، وأن يقرأ على مكان مرتفع.

روينا عن مطرف قال: كان الناس إذا أتوا مالكاً ـ رحمه الله ـ خرجت إليهم الجارية فتقول: يقول لكم الشيخ: تريدون الحديث أو المسائل، فإن قالوا المسائل خرج إليهم في الوقت، وإن قالوا الحديث، دخل مغتسله فاغتسل وتطيب ولبس ثياباً جدداً وتعمم ولبس ساجه، ـ والساج: الطيلسان ـ وتلقى له منصة فيخرج ويجلس عليها، وعليه الخشوع، ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ، ولم يكن يجلس على تلك المنصة إلا إذا حدث.

قال ابن أبي أويس: فقيل له في ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ

---

(1) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات ١/١٥٧ وابن عراق في تنزيه الشريعة ١/١٧٣ والسيوطي في اللآلىء المصنوعة ١/ ٥٥.

ولا أحدث به إلا على طهارة متمكناً. ويقال: إنه أخذ ذلك عن سعيد بن المسيب. وقد كره قتادة ومالك وجماعة التحديث على غير طهارة، حتى كان الأعمش إذا كان على غيرها تيمم. ولا شك أن حرمته ﷺ وتعظيمه وتوفيره بعد مماته وعند ذكره، وذكر حديثه وسماع اسمه وسيرته كما كان في حياته والله أعلم.

ومنها: أنه يكره لقـارى حديثه أن يقوم لأحد، قال ابن الحاج في «المدخل»: لأنه قلة أدب مع النبي ﷺ وقلة احترام وعدم مبالاة أن يقطع حديثه لأجل غيره، فكيف لبدعة، وقد كان السلف لا يقطعون حديثه ولا يتحركون وإن أصابهم الضر في أبدانهم ويتحملون المشقة التي تنزل بهم إذ ذاك احتراماً لحديث نبيهم ﷺ.

وحسبك ما وقع لمالك ـ رحمه الله ـ في لسع العقرب سبع عشرة مرة، وهو لم يتحرك، وتحمله للسعها توقيراً لجناب حديثه ﷺ أن يكون يقرأ وهو يتحرك لضر أصابه، مع أنه معذور فيما وقع، فكيف بالحركة والقيام إذ ذاك لا لضـرورة بل للبدعة، لا سيما إذا انضاف إلى ذلك ما لا ينبغي من الكلام المعتاد. انتهى ملخصاً.

ومنها أن قراء حديثه لا تزال وجوههم نضرة، وأن قراء حديثه اختصوا بالتلقيب بالحفاظ، وأمراء المؤمنين من بين سائر العلماء.

ومنها أنه تثبت الصحبة لمن اجتمع به ﷺ لحظة، بخلاف التابعي مع الصحابي، فلا تثبت إلا بطول الاجتماع معه على الصحيح عند أهل الأصول، والفرق عظم منصب النبوة ونورها، فبمجرد ما يقع بصره على الأعرابي الجلف ينطق بالحكمة.

ومنها أن أصحابه كلهم عدول، لظواهر الكتاب والسنة، فلا يبحث عن عدالة أحد منهم، كما يبحث عن سائر الرواة. قال الله تعالى خطاباً للموجودين حينئذٍ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ [البقرة: ١٤٣] أي عدولاً، وقال ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه»[١]، وقال ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[٢] في آيات كثيرة وأحاديث تقتضي القول بتعديلهم.

---

(١) أخرجه أبو داود رقم الحديث (٤٦٥٨) والترمذي برقم (٣٨٦١) والحاكم في المستدرك (٤٧٨ ـ ٤٧٩) وابن ماجه برقم (١٦١) وابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ١٧٥ والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٢ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٤٦٣).

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب (٥٢) رقم الحديث (٢١٢) والترمذي برقم (٣٨٥٩ ـ ٥٢٢١) والبخاري برقم (٢٦٥٢ ـ ٣٦٥١ ـ ٦٤٢٩) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٣٧٨ و ٤٣٤ والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٢٢ والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٩ و ٢٠ وابن أبي شيبة في=

ولذلك: أجمع من يعتد به على ذلك، سواء في التعديل من لابس الفتنة منهم وغيره، لوجوب حسن الظن بهم، حملاً للملابس على الاجتهاد، ونظراً إلى ما تمهد لهم من المآثر، من امتثال أوامره ﷺ، وفتحهم الأقاليم، وتبليغهم عنه الكتاب والسنة، وهدايتهم الناس، ومواظبتهم على الصلوات والزكوات وأنواع القربات، مع الشجاعة والبراعة والكرم والأخلاق الحميدة التي لم تكن في أمة من الأمم المتقدمة، ولا تكون لأحد بعدهم مثلهم في ذلك. كل ذلك بحلول نظره ﷺ.

وأفضلهم عند أهل السنة إجماعاً: أبو بكر ثم عمر، وأما بعدهما: فالجمهور على أنه عثمان ثم علي. وسيأتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى في المقصد السابع.

ومنها أن المصلي يخاطبه بقوله: السلام عليك أيها النبي، ولا يخاطب غيره.

ومنها أنه كان يجب على من دعاه وهو في الصلاة أن يجيبه، ويشهد له حديث أبي سعيد بن المعلي: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ: فلم أجبه..[1] الحديث، وفيه: ألم يقل الله تعالى: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ [الأنفال: ٢٤]، فأجابته فرض، يعصي المرء بتركها.

وهل تبطل صلاته أم لا؟ صرح جماعة من أصحابنا الشافعية وغيرهم: أنها لا تبطل، وفيه بحث لاحتمال أن تكون إجابته واجبة مطلقاً، سواء كان المخاطب مصلياً أو غير مصل. أما كونه يخرج بالإجابة من الصلاة أو لا يخرج فليس في الحديث ما يستلزمه، فيحتمل أن تجب الإجابة ولو خرج المجيب من الصلاة، وإلى ذلك جنح بعض الشافعية، والله أعلم.

ومنها: أن الكذب عليه ليس كالكذب على غيره، ومن كذب عليه لم تقبل روايته أبداً وإن تاب، فيما ذكره جماعة من المحدثين.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن رجل عن سعيد بن جبير أن رجلاً كذب على النبي ﷺ، فبعث علياً والزبير وقال: «إذهبا فإن أدركتماه فاقتلاه»[2]. ولهذا حكى إمام

= المصنف ١٢/١٧٦ و ١٧٧ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٣٧٦٧) والهيثمي في موارد الظمآن (٢٢٨٥) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٤٤٩ ـ ٣٢٤٩٥ ـ ٣٢٤٥١).

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٩٦ ـ ٤٧٠٣) وأبو داود في سننه برقم (١٤٥٨) وفي النسائي ٢/١٣٩ والحاكم في المستدرك ١/٥٥٨ والبيهقي في السنن الكبرى ٢/٣٦٨ و ٧/٦٤ والسيوطي في الدر المنثور ١/٤ والطحاوي في مشكل الآثار ١/٤٦٧ و ٢/٧٧ والبغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق ١/٢١٩.

(٢) ذكره عبد الرزاق في مصنفه (٩٧٧).

الحرمين عن أبيه أن من تعمد الكذب على رسول الله ﷺ يكفر. لكن لم يوافقه أحد من الأئمة على ذلك. والحق أنه فاحشة عظيمة وموبقة كبيرة ولكن لا يكفر بها إلا إن استحله. وقال النووي: لم أر له في أصل المسألة دليلاً، ويجوز أن يوجه بأن ذلك جعل تغليظاً وزجراً بليغاً عن الكذب عليه ﷺ لعظم مفسدته فإنه يصير شرعاً مستمراً إلى يوم القيامة بخلاف الكذب على غيره والشهادة، فإن مفسدتهما قاصرة ليست عامة.

ثم قال: وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة ضعيف، مخالف للقواعد الشرعية. والمختار القطع بصحة توبته وقبول روايته بعدها إذا صحت توبته بشروطها المعروفة.

قال: فهذا هو الجاري على قواعد الشرع، وقد أجمعوا على صحة رواية من كان كافراً فأسلم، قال: وأجمعوا على قبول شهادته، ولا فرق بين الشهادة والرواية في هذا.

قال شيخنا: ويمكن أن يقال: فيما إذا كان كذبه في وضع حديث وحمل عنه ودوّن أن الإثم غير منفك عنه بل هو لاحق له أبداً، فإن من سن سنة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، والتوبة حينئذٍ متعذرة ظاهراً وإن وجد مجرد اسمها.

ومنها أنه معصوم من الذنوب كبيرها وصغيرها، عمدها وسهوها وكذلك الأنبياء.

ومنها أنه لا يجوز عليه الجنون لأنه نقص، ولا الإغماء الطويل الزمن، فيما ذكره الشيخ أبو حامد في تعليقه، وجزم به البلقيني في حواشي الروضة، وكذلك الأنبياء. ونبه السبكي على أن إغماءهم يخالف إغماء غيرهم، وإنما هو غلبة الأوجاع للحواس الظاهرة دون القلب، لأنه قد ورد أنه إنما تنام أعينهم دون قلوبهم، فإذا حفظت قلوبهم وعصمت من النوم الذي هو أخف من الإغماء، فمن الإغماء بطريق الأولى. قال السبكي: ولا يجوز عليهم العمى، لأنه نقص، ولم يعم نبي قط. وأما ما ذكر عن شعيب أنه كان ضريراً فلم يثبت، وأما يعقوب فحصلت له غشاوة وزالت، انتهى.

قال الرازي: في قوله تعالى: ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ [يوسف: ٨٤] لما قال: ﴿يا أسفى على يوسف﴾ [يوسف: ٨٤] غلبه البكاء، وعند غلبة البكاء يكثر الماء في العين، فتصير العين كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء، وقوله: ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ [يوسف: ٨٤] كأنه من غلبة البكاء، والدليل على صحة هذا القول: أن تأثير الحزن في غلبة البكاء لا في حصول العمى، فلما حملنا الابيضاض على غلبة البكاء كان هذا التعليل حسناً، ولو حملناه على العمى لم يحسن هذا التعليل، فكان ما ذكرناه أولى.

ثم قال: واختلفوا، فقال بعضهم: إنه كان قد عمي بالكلية، فالله تعالى جعله بصيرا في هذا الوقت، وقال آخرون: بل كان قد ضعف بصره من كثرة البكاء والأحزان بحيث

صار يدرك إدراكاً ضعيفاً، فلما ألقوا القميص على وجهه وبشر بحياة يوسف عظم فرحه وانشرح صدره وزالت أحزانه، فعند ذلك قوى بصره وزال النقصان عنه. انتهى. ومنها أن من سبه ﷺ أو انتقضه قتل.

واختلف هل يتحتم قتله في الحال، أو يوقف على استتابته؟ وهل الاستتابة واجبة أم لا؟ فمذهب المالكية: يقتل حداً لاردة: ولا تقبل توبته ولا عذره إن ادعى سهواً أو غلطاً، وعبارة شيخه م العلامة خليل في مختصره: «وإن سب نبياً أو ملكاً، [أو] عرض أو لعنه، أو عابه أو قذ ه، أو استخف بحقه، أو غيرّ صفته، أو ألحق به نقصاً وإن في [بدنه] أو خصلته أو غض م.، مرتبته أو وفور علمه أو زهده أو أضاف له ما لا يجوز عليه، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصه على طريق الذم، أو قيل له: بحق رسول الله، فلعن وقال أردت العقرب قتل ـ ولم يستتب ـ حداً، إلا أن يسلم الكافر، وإن ظهر أنه لم يرد ذمه لجهل أو سكر أو تهور»[1].

وهذا ذكره القاضي عياض في الشفاء[2] وغيره، واستدلوا له بالكتاب والسنة والإجماع:

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً﴾ [الأحزاب: ٥٧]، راللعنة من الله هي إبعاد الملعون عن رحمته وإحلاله في وبيل عقوبته، قال القاضي عياض: وإنما يستوجب اللعن من هو كافر، وحكم الكافر القتل.

والأذى: هو الشر الخفيف، فإن زاد كان ضرراً، كذا قاله الخطابي وغيره. وإطلاق الأذى في حقه تعالى إنما هو على سبيل المجاز لتعذر الحقيقة فيه. ويشهد لذلك الحديث الإلهي (يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني)[3] وهذا بخلاف جانب الرسول ﷺ.

فالأذى في حقه تعالى وحق رسوله كفر بشهادة هذه الآية، لأن العذاب المهين إنما يكون للكفار، وكذلك العذاب الأليم.

وقال تعالى: ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ [التوبة: ٦٥ و٦٦] قال القاضي عياض: قال أهل التفسير: كفرتم بقولكم في رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر مختصر العلامة خليل صفحة (٢٨٤).

(٢) انظر الشفا ٢/ ٢١٣.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر رقم الحديث (٥٥).

وأما السنة فروى أبو داود والترمذي: أن رسول الله ﷺ قال: «من لنا بابن الأشرف» وفي أخرى «من لكعب بن الأشرف» أي من ينتدب لقتله «فقد استعلن بعداوتنا وهجائنا» وفي رواية «فإنه يؤذي الله ورسوله»(١).

قال القاضي عياض: ووجه إليه من قتله غيلة دون دعوة، بخلاف غيره من المشركين، وعلل بأذاه له، فدل على أن قتله إياه لغير الإشراك بل للأذى.

وفي حديث مصعب بن سعد عند أبي داود: لما كان يوم الفتح أمَّن ﷺ الناس، إلا أربعة نفر فذكرهم ثم قال «وأما ابن سرح» فاختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله بايع عبدالله فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً، كل ذلك وهو يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه فقال «ما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين كففت يدي عن بيعته فيقتله» فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا؟ قال: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»(٢).

وفيه: أنه أمر بقتل عبدالله بن خطل، لأن ابن خطل كان يقول الشعر يهجو به النبي ﷺ ويأمر جاريتيه أن تغنيا به، وكذلك قتل جاريتيه(٣).

قالوا: فقد ثبت أنه أمر بقتل من آذاه، ومن تنقَّصه، والحق له ﷺ وهو مخير فيه، فاختار القتل لعدم الإطلاع على العفو، وليس لأمته بعده أن يسقطوا حقه ﷺ، فإنه لم يرد عنه الإذن في ذلك.

وأما الإجماع: فقال القاضي عياض: أجمعت الأمة على قتل منتقصه من المسلمين وسابه، فقال ابن المنذر: أجمع عوام أهل العلم على أن من سب النبي ﷺ يقتل، وممن قال ذلك: مالك بن أنس والليث وأحمد وإسحاق، وهو مذهب الشافعي، وقال الخطابي: لا أعلم أحداً من المسلمين اختلف في وجوب قتله إذا كان مسلماً. وقال محمد بن سحنون: أجمع العلماء على أن شاتم النبي ﷺ المنتقص له كافر، والوعيد جار

---

(١) الأحاديث: في البخاري برقم (٢٥١٠ ـ ٣٠٣١ ـ ٣٠٣٢ ـ ٤٠٣٧ ـ ٤٥٦٦) ومسلم برقم (١١٩) وفي سنن أبي داود (٢٧٦٨) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٤٠ و ٩/ ٨١ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٣/ (١٩٥ ـ ١٩٩) وللحاكم في المستدرك ٣/ ٤٣٤ وفي مشكل الآثار للطحاوي ١/ ٧٦ وفي كنز العمال (٢٩٨٦٨).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الجهاد باب (١١٧) رقم الحديث (٢٦٨٣) والنسائي في التحريم (١٤) وابن أبي شيبة في مصنفه ١٤/ ٤٩١ والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٦٨.

(٣) قال الزرقاني في شرح المواهب: «الصواب أن احداهما قتلت: وأسلمت الثانية. اهـ».

عليه بعذاب الله وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر. انتهى.

ومذهب الشافعية: أن ذلك ردة، تخرج من الإسلام إلى الكفر، فهو مرتد كافر قطعاً لا نزاع في ذلك عند الجمهور من أئمتنا، والمرتد يستتاب، فإن تاب وإلا قتل.

وفي الاستتابة قولان: أصحهما وجوبها؛ لأنه كان محترماً بالإسلام، وإنما عرضت له شبهة، فينبغي إزالتها، وقيل: تستحب لأنه غير مضمون الدم، فإن قلنا بالأول فتجب في الحال ولم يؤجل كغيره. وفي الصحيح حديث «من بدل دينه فاقتلوه»[1] وفي قول: يمهل ثلاثة أيام، فإن لم يتب وأصر ـ رجلاً كان أو امرأة ـ قتل، وإن أسلم صح إسلامه وترك لقوله تعالى: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة﴾ [التوبة: ٥] الآية.

وعن ابن عباس قال: أيما مسلم سب الله أو سب أحداً من الأنبياء فقد كذب رسول الله ﷺ وهي ردة يستتاب منها، فإن تاب وإلا قتل، وأيما معاهد سب الله أو سب أحداً من أنبيائه فقد نقض العهد فاقتلوه. «وأجيب» عما تقدم من أدلة المالكية:

فأما قوله تعالى: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾ [الأحزاب: ٥٧] الآية فليس فيه إلا كفر مؤذيه ﷺ، وأما كونه يقتل بعد التوبة والإسلام فلا دلالة فيه أصلاً، وأما ابن خطل فإنما قتل ولم يستتب للكفر والزيادة فيه بالأذى مع ما اجتمع فيه من موجبات القتل، ولأنه اتخذ الأذى ديدنا، فلا يقاس عليه من فرط منه فرطة ـ وقلنا بكفره بها ـ وتاب ورجع إلى الإسلام، فالفرق واضح. وكذلك قتل جاريتيه لأنهما جعلتا ذلك ديدنا مع ما قام بهما من صفة الكفر.

وقد روى البزار عن ابن عباس أن عقبة بن أبي معيط نادى: يا معشر قريش مالي أقتل من بينكم صبراً. فقال له النبي ﷺ «بكفرك وافترائك على رسول الله»[2] فذكر له سببين في تحتم قتله، وهذا في غاية الظهور. وأما قول الخطابي وغير: «لا أعلم أحداً من المسلمين اختلف في وجوب قتله إذا كان مسلماً» فمحمول على التقييد بعدم التوبة.

وأما سياق القاضي عياض لقصة الرجل الذي كذب على رسول الله ﷺ، وأنه بعث

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٩٢٢) والترمذي برقم (١٤٥٨) والنسائي ٧/ ١٠٤ وابن ماجة برقم (٢٥٣٥) وأبو داود برقم (٤٣٥١) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٢١٧ و ٢٨٢ و ٥/ ٢٣١ والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٩٥ والحاكم في المستدرك ٣/ ٥٣٨ والطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٣٣٠ والدارقطني في سننه ٣/ ١١٣ وابن أبي شيبة في مصنفه ١٠/ ١٣٩ وعبد الرزاق في المصنف برقم (٩٤١٣) والزيلعي في نصب الراية ٣/ ٤٠٧ والهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٦١ وابن عبد البر في التمهيد ٥/ ٣٠٤ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٨٧ ـ ٣٩١).

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٨٩ والشفا ٢/ ٤٨٩.

علياً والزبير ليقتلاه، فليس يفيد غرضاً في هذا المقام، لأن الظاهر أن هذا كذب، فيه إفساد وفتنة بين المؤمنين، لا سيما إن كافراً، فيكون من محاربي الله ورسوله، مع السعي في الأرض بالفساد، فيكون منحتم القتل، وإلا فليس مطلق الكذب عليه مما يوجب القتل.

وكذا سياقه حديث ابن عباس: هجت امرأة من خطمة[1] النبي ﷺ، فقال«من لي بها» فقال رجل من قومها: أنا يا رسول الله فنهض فقتلها فأخبر النبي ﷺ بذلك فقال: «لا ينتطح فيها عنزان»[2] أي لا يجري فيها خلف ولا نزاع، فإن في هذه الحكاية ونظائرها نظراً واضحاً لقيام الكفر بالمحكي عنهم والزيادة منهم، وقد أخبر ﷺ أنه لا عصمة لأحد من الناس بعد دعواهم إلى الإسلام إلا بالإسلام[3]، فكل منهم مهدر الدم إلا من عصم الله منهم بالإسلام. وإنما النافع له في مقام الاستدلال ذكر من طرأ عليه من المسلمين وصمة الارتداد بالسب على القول بكونه ردة، فرجع إلى الإسلام وتاب. هذا هو محل النزاع وموضع الاستدلال لكل من المتنازعين.

وأما ذكر كافر أصلي بلغته دعوة النبي ﷺ وامتنع من إجابته وحاربه بيده ولسانه فلا نزاع في إهدار دمه قطعاً، لا سيما وقد نقل عن هذه المرأة الكافرة أنها كانت تعيب الإسلام، وتؤذي النبي ﷺ وتحرض عليه، فاجتمع فيها موجبات القتل إجماعاً.

فقد تبين مما ساقه القاضي عياض أن أمره ﷺ بقتل سابه إنما نقل عن الكفرة، ولم ينقل أنه ﷺ قتل مسلماً بسببه، وإنما كان ذلك في أهل الكفر والعناد، فلو نقل فلا يتعين كونه حداً، لاحتمال أن يكون قتله كفراً، وقد قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ٤٨] فأعلمنا أن ما وراء الشرك في حيز إمكان المغفرة[4]، وقال تعالى: ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) هي عصماء بنت مروان اليهودية نسبت إلى بني خطمة لكونها زوجة يزيد بن زيد الخطمي الصحابي.

(٢) ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه ١٣/ ٩٩ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٤٩١).

(٣) راجع صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة برقم (٢٣) ودلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٠٦ وسنن سعيد بن منصور برقم (٢٤٧٤) وتهذيب خصائص عليّ للنسائي (١٤) والبداية والنهاية ٤/ ١٨٧ والبخاري في المغازي برقم (٣٨) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٦٥ ـ ٣٠١٣٠).

(٤) نقل ابن المنذر: الاتفاق على أن من سب النبي ﷺ صريحاً وجب قتله، ونقل أبو بكر الفارسي أحد أئمة الشافعية في كتاب الإجماع: إن من سب النبي ﷺ بما هو قذف صريح كفر باتفاق العلماء، فلو تاب لم يسقط عنه القتل لأن حد قذفه القتل وحد القذف لا يسقط بالتوبة ا. هـ. وعن ابن عباس أن رجلاً كانت له أم ولد له منها ابنان مثل اللؤلؤتين فكانت تشتم النبي ﷺ فينهاها فلا تنتهي ويزجرها فلا تنزجر فلما كان ذات ليلة ذكرت النبي ﷺ فما صبر أن قام إلى معول فوضعه في بطنها ثم اتكأ ـ

فإن قلت: هذا بالنظر إلى ظلم النفس وحقوق الله تعالى لا بالنظر إلى حقوق العباد، لأن حقوق الله تعالى مبنية على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المشاحة. وهذا في حق النبي ﷺ وليس لنا أن نسقطه لأنه لم يرد إذنه في ذلك بخلافه هو ﷺ فإن له ذلك.

فالجواب: لا بد لنا من نص على ذلك منه ﷺ، كأن يقول مثلاً: من سبني فاقتلوه، ولا تقبلوا له توبة ولا رجوعاً عن سبه، فإن نقل اتبعناه، ثم إنه من جهة النظر ينبغي إلحاق حقوق رسول الله ﷺ بحقوق الله، فكما أن حقوقه تعالى مبناها على المسامحة، كذلك حقوقه ﷺ، فإنه متخلق بأخلاق الله تعالى.

ومما عد من خصائصه أنه إذا قصده ظالم وجب على من حضره أن يبذل نفسه دونه حكاه النووي في زيادة الروضة عن جماعة من الأصحاب.

● ومن خصائصه ﷺ أنه كان ﷺ يخص من شاء بما شاء من الأحكام.

كجعله شهادة خزيمة[1] بشهادة رجلين. روى أبو داود عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عمه وكان من أصحاب رسول الله ﷺ أن النبي ﷺ ابتاع من أعرابي فرساً، فاستتبعه ليقبضه ثمن الفرس، فأسرع النبي ﷺ المشي، وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي يساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن رسول الله ﷺ قد ابتاعه، حتى زادوا على ثمنه.. الحديث فطفق الأعرابي يقول هلم شهيداً يشهد أني قد بعتك، فمن جاء من المسلمين يقول ويلك، إن النبي ﷺ لم يكن ليقول إلا الحق، حتى جاء خزيمة بن ثابت فاستمع المراجعة فقال: أنا أشهد، أنك قد بايعته... الحديث. وفيه، قال: فجعل النبي ﷺ شهادة خزيمة برجلين. وفي البخاري من حديث زيد بن ثابت قال: فوجدتها مع خزيمة الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادتين.

وعند الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ اشترى من أعرابي فرساً، فجحده الأعرابي، فجاء خزيمة فقال: يا أعرابي أنا أشهد

= عليها حتى انفذه فقال النبي ﷺ: «ألا أشهدوا أن دمها هدر». أخرجه الدارقطني ٣/ ١١٢ رقم الحديث (١٠٢ ـ ١٠٣) والقاعدة: أن كل عقدٍ أو فعل أو قول يدلُّ على استخفاف بالله أو كتبه أو رسله أو ملائكته أو شعائره أو معالم دينه أو أحكامه أو وعده أو وعيده كفر. فليحذر الإنسان من ذلك جهده على أي حال. ولنا قول الله تعالى ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ [التوبة: ٦٥ و ٦٦].

(١) هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الأنصاري أبو عمارة. صحابي توفي في صفين سنة (٣٧ هـ). الأعلام ٢/ ٣٠٥ الإصابة ٢/ ١١١ رقم الترجمة (٢٢٤٧).

عليك أنك بعته، فقال الأعرابي إذ شهد خزيمة فأعطني الثمن، فقال رسول الله ﷺ: «يا خزيمة إنا لم نشهدك، كيف تشهد؟» قال: أنا أصدقك على خبر السماء، ألا أصدقك على خبر ذا الأعرابي؟! فجعل رسول الله ﷺ يقول: «شهادته بشهادة رجلين» فلم يكن في الإسلام من تعدل شهادته شهادة رجلين غير خزيمة.

قال الخطابي: هذا الحديث حمله كثير من الناس على غير محمله، وتذرع به قوم من أهل البدع إلى استحلال الشهادة لمن عرف عندهم بالصدق على كل شيء ادعاه، وإنما وجه الحديث أنه ﷺ حكم على الأعرابي بعلمه، وجرت شهادة خزيمة مجرى التوكيد لقوله، والاستظهار على خصمه، فصار في التقدير بشهادة اثنين في غيرها من القضايا، انتهى.

ومن ذلك ترخيصه في النياحة لأم عطية، روى مسلم عنها «قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً... ولا يعصينك في معروف﴾ [الممتحنة: ١٢] قالت: كان منه النياحة، فقلت يا رسول الله إلا آل فلان فإنهم كانوا أسعدوني[١] في الجاهلية، فلا بد لي من أن أسعدهم، فقال: «إلا آل فلان» قال النووي: هذا محمول على الترخيص لأم عطية في آل فلان خاصة، وللشارع أن يخص من العموم ما شاء.

ومن ذلك: ترك الإحداد لأسماء بنت عميس، أخرج ابن سعد عن أسماء بنت عميس قالت: لما أصيب جعفر بن أبي طالب، قال لي رسول الله ﷺ: «تسلبي[٢] ثلاثاً ثم اصنعي ما شئت»[٣].

ومن ذلك: الأضحية بالعناق[٤] لأبي بردة بن نيار، رواه الشيخان من حديث البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر فقال: «من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب السنة، ومن نسك قبل الصلاة فتلك شاة لحم»، فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله، لقد نسكت قبل أن أخرج إلى الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم أكل وشرب فتعجلت وأكلت وأطعمت أهلي وجيراني، فقال رسول الله ﷺ: «تلك شاة

---

(١) الإسعاد: المعونة والمساعدة. انظر اللسان ٦/ ٢٦٢ مادة (سعد).

(٢) السلاب، والسلب: ثياب سود تلبسها النساء في المأتم واحدتها سلبة. وسلبت وتسلبت المرأة: إذا كانت محدًّا تلبس الثياب السود. انظر اللسان ٦/ ٣١٨ مادة (سلب).

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٧٠ والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٣٤٨ والقرطبي في تفسيره ٣/ ١٨١.

(٤) العناق: الأنثى من المعز وقال الأزهري: العناق الأنثى من أولاد المعزى إذا أتت عليها سنة وجمعها عنوق. أهـ. انظر اللسان ٩/ ٤٣٢ مادة (عنق).

لحم»، قال: فإن عندي عناقاً جذعة هي خير من شاتي لحم فهل تجزي عني؟ قال: «نعم ولن تجزي عن أحد بعدك»[1].

و «نيار» بكسر النون وتخفيف المثناة التحتية وآخره راء. وقوله «تجزي» بفتح أوله غير مهموز، أي تقضي. و «الجذع» بالجيم والذال المعجمة. وفي هذا الحديث تخصيص أبي بردة بإجزاء الجذع من المعز في الأضحية. ولكن وقع في عدة أحاديث التصريح بنظير ذلك لغير أبي بردة، ففي حديث عقبة بن عامر ـ عند البيهقي ـ: ولا رخصة فيها لأحد بعدك. قال البيهقي: إن كانت هذه الزيادة محفوظة كان هذا رخصة لعقبة كما رخص لأبي بردة.

قال الحافظ ابن حجر: وفي هذا الجمع نظر، لأن في كل منهما صيغة عموم، فأيهما تقدم على الآخر اقتضى انتفاء الوقوع للثاني، ويحتمل أن تكون خصوصية الأول نسخت بثبوت الخصوصية للثاني، ولا مانع من ذلك، لأنه لم يقع في السياق استمرار المنع لغيره صريحاً.

وفي كلام بعضهم: أن الذين ثبتت لهم الرخصة أربعة أو خمسة، واستشكل الجمع وليس بمشكل، فإن الأحاديث التي وردت في ذلك ليس فيها التصريح بالنفي إلا في قضية أبي بردة في الصحيح، وفي قصة عقبة بن عامر عند البيهقي، وأما ما عدا ذلك: فأخرج أبو داود وصححه ابن حبان من حديث زيد بن خالد أن النبي ﷺ أعطاه عتوداً جذعاً، فقال: «ضح به»، فقلت إنه جذع أفأضحي به؟ قال: «ضح به»[2] وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس أنه ﷺ أعطى سعد بن أبي وقاص جذعاً من المعز فأمره أن يضحي به. وأخرجه الحاكم من حديث عائشة، وفي سنده ضعف.

فلا منافاة بين ذلك وحديثي أبي بردة وعقبة، لاحتمال أن يكون ذلك في ابتداء الأمر، ثم تقرر الشرع بأن الجذع من المعز لا يجزي، واختص أبو بردة، وعقبة بالرخصة في ذلك. وإن تعذر الجمع بين حديث أبي بردة وحديث عقبة، فحديث أبي بردة أصح مخرجاً. وإن كان حديث عقبة عند البيهقي من مخرج الصحيح والله أعلم.

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب الأضاحي باب (٥) رقم الحديث (٢٨٠٠) والنسائي في العيدين (١٧) والضحايا (١٧) والبخاري كتاب العيدين باب (٥) رقم الحديث (٩٥٥).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الاضاحي باب (٥) رقم الحديث (٢٧٩٨) ومسلم باب (٢) رقم (١٥) والنسائي ٧/٢١٨ والترمذي برقم (١٥٠٠) وابن ماجه (٣١٣٨) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/٣٢ والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٢٧٠ والطبراني في المعجم الكبير ٥/٢٧٨ والتبريزي في مشكاة المصابيح برقم (١٤٥٦).

ومن ذلك: إنكاح ذلك الرجل بما معه من القرآن، فيما ذكره جماعة، وورد به حديث مرسل أخرجه سعيد بن منصور عن أبي النعمان الأزدي، قال: زوج رسول الله ﷺ امرأة على سورة من القرآن وقال: «لا يكون لأحد بعدك مهراً».

● ومنها أنه كان يوعك كما يوعك رجلان لمضاعفة الأجر.

● ومنها أن جبريل أرسل إليه ثلاثة في مرضه يسأله عن حاله، ذكره البيهقي وغيره.

● ومنها: أنه صلى عليه الناس أفواجاً أفواجاً بغير إمام، وبغير دعاء الجنازة المعروف ذكره البيهقي وابن سعد وغيرهما، وترك بلا دفن ثلاثة أيام كما سيأتي، وفرش له في لحده ﷺ قطيفة، والأمران مكروهان في حقنا، وأظلمت الأرض بعد موته كما سيأتي.

● ومنها: أنه لا يبلى جسده، وكذلك الأنبياء، رواه أبو داود وابن ماجه.

● ومنها: أنه لا يورث، فقيل لبقائه على ملكه، وقيل لمصيره صدقة، وبه قطع الروياني، ثم حكى وجهين في أنه هل يصير وقفاً على ورثته؟ وأنه إذا صار وقفاً هل هو الواقف؟ وجهان:

قال النووي في زيادات الروضة: الصواب الجزم بزوال ملكه، وأن ما تركه صدقة على المسلمين، لا يختص به الورثة. انتهى.

وقال في الشرح الصغير: المشهور أنه صدقة.

وذكر الرافعي في قسم الفيء أن الخمس كان له ﷺ ينفق منه على نفسه ومصالحه، ولم يكن يملكه ولا ينتقل إلى ورثته. وقال في باب الخصائص: إنه ملكه، ويجمع بينهما: بأن لجهة الإنفاق مادتين: مملوكة وغير مملوكة، والخلاف جار في إحداهما. انتهى والله أعلم.

وعلى هذا، فيباح له أن يوصي بجميع ماله للفقراء، ويمضي ذلك بعد موته بخلاف غيره فإنه لا يمضي مما أوصى به إلا الثلث بعد موته.

وكذلك الأنبياء لا يورثون، لما رواه النسائي من حديث الزبير مرفوعاً «إنا معاشر الأنبياء لا نورث»[1] وعلى هذا فيجاب عن قوله تعالى: ﴿وورث سليمان داود﴾ [النمل:

---

(1) أخرجه نحوه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٢٥ ـ ٤٨ ـ ١٦٢ ـ ١٧٩ ـ ١٩١ والترمذي في الشمائل ٢١٤ وابن سعد في الطبقات الكبرى ٢/ ٢٣٩ وانظر التمهيد لابن عبد البر ٨/ ١٧٥.

١٦]. وقوله: ﴿فهب لي من لدنك ولياً يرثني﴾ [مريم: ٥و ٦]. بأن المراد إرث النبوة والعلم.

● ومنها: أنه حي في قبره، ويصلي فيه بأذان وإقامة وكذلك الأنبياء، ولهذا قيل: لا عدة على أزواجه.

وقد حكى ابن زبالة[١]، وابن النجار أن الآذان ترك في أيام الحرة[٢] ثلاثة أيام وخرج الناس، وسعيد بن المسيب في المسجد، قال سعيد: فاستوحشت فدنوت إلى القبر فلما حضرت الظهر سمعت الأذان في القبر فصليت الظهر، ثم مضى ذلك الأذان والإقامة في القبر لكل صلاة حتى مضت الثلاث ليال، ورجع الناس وعاد المؤذنون فسمعت آذانهم كما سمعت الأذان في قبر النبي ﷺ، انتهى.

وقد ثبت أن الأنبياء يحجون ويلبون. فإن قلت: كيف يصلون ويحجون ويلبون وهم أموات في الدار الآخرة، وليست دار عمل؟

فالجواب: أنهم كالشهداء، بل أفضل منهم، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، فلا يبعد أن يحجوا ويصلوا، أو نقول: إن البرزخ ينسحب عليه حكم الدنيا في استكثارهم من الأعمال وزيادة الأجور، وأن المنقطع في الآخرة إنما هو التكليف، وقد تحصل الأعمال من غير تكليف على سبيل التلذذ بها، ولهذا ورد أنهم يسبحون ويقرؤون القرآن، ومن هذا سجود النبي ﷺ وقت الشفاعة.

وقد قال صاحب «التلخيص»: إن ماله ﷺ بعد موته قائم على نفقته زملكه، وعده من خصائصه. ونقل إمام الحرمين عنه أن ما خلفه بقي على ما كان في حياته، فكان ينفق منه أبو بكر على أهله وخدمه، وكان يرى أنه باق على ملك النبي ﷺ. فإن الأنبياء أحياء، وهذا يقتضي إثبات الحياة في أحكام الدنيا، وذلك زائد على حياة الشهيد.

والذي صرح به النووي: زوال ملكه ﷺ وأن ما تركه صدقة على جميع المسلمين لا يختص به ورثته. فإن قلت: القرآن ناطق بموته ﷺ، قال الله تعالى: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال ﷺ: «إني امرؤ مقبوض»[٣] وقال الصديق: فإن محمداً قد مات، وأجمع المسلمون على إطلاق ذلك.

فأجاب الشيخ تقي الدين السبكي، بأن ذلك الموت غير مستمر، وأنه ﷺ أحيي بعد

---

(١) هو محمد بن الحسن بن زبالة المخزومي، كذبوه ومات قبل المائتين.

(٢) الحرة: موقعة حصلت بظاهر المدينة بين أهل المدينة وبين عسكر يزيد بن معاوية سنة ثلاث وستين بسبب خلع أهل المدينة يزيد.

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٢/١٢٦ والساعاتي في منحة المعبود (٧٦).

الموت، ويكون انتقال الملك ونحوه مشروطاً بالموت المستمر، وإلا فالحياة الثانية حياة أخروية، ولا شك أنها أعلى وأكمل من حياة الشهداء، وهي ثابتة للروح بلا إشكال، وقد ثبت أن أجساد الأنبياء لا تبلىٰ، وعود الروح إلى الجسد ثابت في الصحيح لسائر الموتى فضلاً عن الشهداء، فضلاً عن الأنبياء، وإنما النظر في استمرارها في البدن، وفي أن البدن يصير حياً كحالته في الدنيا، أو حياً بدونها، وهي حيث شاء الله تعالى، فإن ملازمة الروح للحياة أمر عادي لا عقلي، فهذا مما يجوزه العقل، فإن صح به سمعٌ اتبع، وقد ذكره جماعة من العلماء.

ويشهد له: صلاة موسى في قبره، فإن الصلاة تستدعي جسداً حياً، وكذلك الصفات المذكورة في الأنبياء ليلة الإسراء، كلها صفات الأجسام، ولا يلزم من كونها حياة حقيقية أن تكون الأبدان معها كما كانت في الدنيا من الاحتياج إلى الطعام والشراب وغير ذلك من صفات الأجسام التي نشاهدها بل يكون لها حكم آخر، فليس في العقل ما يمنع إثبات الحياة الحقيقية لهم. وما الإدراكات كالعلم والسماع فلا شك أن ذلك ثابت لهم بل ولسائر الموتى، حكاه الشيخ زين الدين المراغي، وقال: إنه مما يعز وجوده وفي مثله فليتنافس المتنافسون.

● ومنها: أنه وكل بقبره ملك يبلغه صلاة المصلين عليه. رواه أحمد والنسائي والحاكم وصححه بلفظ «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام»[1] وعند الأصبهاني عن عمارة، «إن لله ملكاً أعطاه الله سمع العباد كلهم، فما من أحد يصلي علي إلا أبلغنيها»[2].

وتعرض أعمال أمته عليه، ويستغفر لهم، روى ابن المبارك عن سعيد بن المسيب «ليس من يوم إلا وتعرض على النبي ﷺ أعمال أمته غدوة وعشياً فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم».

● ومنها: أن منبره ﷺ على حوضه[3] كما في الحديث وفي رواية: «ومنبري على

---

(1) أخرجه النسائي ٣/ ٤٣ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٤٤١ ـ ٤٥٢ والدارمي ٢/ ٣١٧ والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٢١ والطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٢٧١ والهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٤ والبيهقي في شعب الايمان برقم (٣١١٦) والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٤٩٨ والعراقي في المغني ١/ ١٧٢ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٩٢٤ ـ ٢٢٦٧) والزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٤/ ٤١٩ ـ ٤٥٧ وفي الشفا ٢/ ١٨٣ والسيوطي في اللآلىء المصنوعة ١/ ١٤٦ والمتقي الهندي في كنز العمال (١٧٤٧).

(٢) أخرجه السيوطي في اللآلىء المصنوعة ١/ ١٤٧ وفي جمع الجوامع (٦٩٤٨) والذهبي في ميزان الاعتدال ٨٢٩ والمنذري نحوه ٢/ ٤٩٩.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الحج باب (٩٢) برقم (٥٠٠ ـ ٥٠٢) والبخاري برقم (١١٩٥ ـ ١٨٨٨ ـ =

ترعة من ترع الجنة» وأصل الترعة الروضة على المكان المرتفع خاصة، فإذا كان في المطمئن فهي روضة. ولم يختلف أحد من العلماء أنه على ظاهره وأنه حق محسوس موجود، فإن القدرة صالحة لا عجز فيها، وكل ما أخبر به الصادق ﷺ من أمور الغيب فالإيمان به واجب.

● ومنها أن ما بين منبره وقبره روضة من رياض الجنة، رواه البخاري بلفظ «ما بين بيتي ومنبري» وهذا يحتمل الحقيقة والمجاز.

أما الحقيقة: فأن يكون ما أخبر عنه ﷺ بأنه من الجنة مقتطعاً منها، كما أن الحجر الأسود منها[1]، وكذلك النيل والفرات من الجنة، وكذلك الثمار الهندية من الورق التي هبط بها آدم عليه السلام من الجنة، فاقتضت الحكمة الإلهية أن يكون في هذه الدار من مياه الجنة، ومن ترابها، ومن حجرها، ومن فواكهها، حكمة حكيم جليل.

وأما المجاز: فبأن يكون من إطلاق اسم المسبب على السبب، فإن ملازمة ذلك المكان للصلاة والعبادة سبب في نيل الجنة، قاله ابن أبي جمرة، وهو معنى قول بعضهم: لكون العبادة فيه تؤول إلى دخول العابد روضة الجنة. وهذا فيه نظر: إذ لا اختصاص لذلك بتلك البقعة على غيرها.

وفي كتاب «بهجة النفوس» لابن أبي جمرة أيضاً حكاية قول: أن تلك البقعة تنقل بعينها فتكون من الجنة، يعني روضة من رياضها. قال: والأظهر الجمع بين الوجهين مما يعني احتمال كونها تنقل إلى الجنة، وكون العمل فيها يوجب لصاحبه روضة في الجنة، ويأتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى في فصل الزيارة من المقصد الأخير إن شاء الله تعالى.

● ومنها: أنه ﷺ أول من ينشق عنه القبر. وفي رواية مسلم «أنا أول من تنشق عنه الأرض».

= ٦٥٨٨) والترمذي برقم (٣٩١٥) والنسائي ٢/ ٥٣ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٢٣٦ والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٢٤٧ وعبد الرزاق في المصنف (٥٢٤٣) والحميدي في مسنده (٢٩٠) والهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٨ وابن سعد في طبقاته ١/ ١٩٥ وابن عبد البر في التمهيد ٢/ ٢٨٥ والطحاوي في مشكل الآثار ٤/ ٦٩ وابن أبي حاتم الرازي في علل الحديث (٨٨٥ ـ ٢٦٩٤) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٨٣٥ ـ ٣٤٩٤٤).

(١) الحديث: في النسائي ٥/ ٢٢٦ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٠٧ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ١٩٥ وفي المغني للعراقي ١/ ٢٤٢ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٤/ ٢٧٦ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٤١٧ وفي كنز العمال (٣٤٧٢٦).

وهو أول من يفيق من الصعقة، قال ﷺ: «أنا أول من يرفع رأسه بعد النفخة فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور»(١) رواه البخاري. والظاهر أنه ﷺ لم يكن عنده علم بذلك حتى أعلمه الله تعالى، فقد أخبر عن نفسه الكريمة أنه ﷺ أول من ينشق عنه القبر. وهو أول من يجوز على الصراط(٢)، رواه البخاري من حديث أبي هريرة. وأنه يحشر في سبعين ألفاً من الملائكة، كما روي عن كعب الأحبار: ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألف ملك يحفون بقبره ﷺ يضربون بأجنحتهم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط سبعون ألف ملك، حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يوقرونه ﷺ(٣). الحديث رواه ابن النجار في تاريخ المدينة. وأنه يحشر راكب البراق، رواه الحافظ السلفي، كما ذكره الطبري.

ويكسى في الموقف أعظم الحلل من الجنة. رواه البيهقي بلفظ: «فأكسى حلة من الجنة لا يقوم لها البشر»(٤)، ورواه كعب بن مالك بلفظ: «يحشر الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل، ويكسوني ربي حلة خضراء»(٥) رواه البخاري، وهو عند ابن أبي شيبة بلفظ: «يحشر الناس على تل، وأمتي على تل» وعند الطبراني أيضاً حديث ابن عمر فيرقى هو - يعني محمداً ﷺ - وأمته على كوم فوق الناس، وأنه يقوم عن يمين العرش، رواه ابن مسعود عنه ﷺ وفيه: لا يقومه غيره، يغبطه فيه الأولون والآخرون.

● ومنها: أنه يعطى المقام المحمود، قال مجاهد: هو جلوسه ﷺ على العرش، وعن عبد الله بن سلام، على الكرسي، ذكرهما البغوي، وسيأتي ما قيل في ذلك في ذكر تفضيله ﷺ بالمقام المحمود إن شاء الله تعالى.

● ومنها أنه يعطى الشفاعة العظمى في فصل القضاء بين أهل الموقف، حين يفزعون إليه بعد الأنبياء، والشفاعة في إدخال قوم الجنة بغير حساب، وفي رفع درجات ناس في الجنة.

كما جوز النووي اختصاص هذه والتي قبلها به. ووردت الأحاديث به في التي قبل، وسيأتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى في المقصد الأخير، والله المعين.

● ومنها: أنه صاحب لواء الحمد، يوم القيامة، آدم فمن دونه تحته. رواه البزار.

---

(١) الحديث في البخاري برقم (٢٤١١ - ٣٤٠٨ - ٣٣٩٨ - ٤٦٣٨ - ٦٩١٧ - ٧٤٢٧).

(٢) الحديث في البخاري برقم (٨٠٦).

(٣) قال الزرقاني في شرح المواهب: وهو من الكتب القديمة ا. هـ.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٣ والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٣٧٩.

(٥) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار ١/ ٤٤٩ والقاضي عياض في الشفا ١/ ٤١٩.

وأنه أول من يقرع باب الجنة. روى مسلم من حديث المختار بن فلفل عن أنس قال: قال ﷺ: «أنا أكثر الناس تبعاً يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة»[1] وعنده أيضاً عن أنس قال ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن، بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك» ورواه الطبراني بزيادة فيه، قال: فيقوم الخازن فيقول: لا أفتح لأحد قبلك، ولا أقوم لأحد بعدك، وهذه خصوصية أخرى له ﷺ وهي: أن خازن الجنة لا يقوم لأحد غيره ﷺ، فقيامه له ﷺ فيه إظهار لمزيته ومرتبته، ولا يقوم لأحد بعده، بل خزنة الجنة يقومون في خدمته وهو كالملك عليهم، وقد أقامه الله تعالى في خدمة عبده ورسوله حتى مشى وفتح له الباب.

● ومنها أنه ﷺ أول من يدخل الجنة، قال ﷺ: «وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر»[2] رواه الترمذي.

● ومن خصائصه ﷺ الكوثر، نهر في الجنة يسيل من حوضه مجراه على الدر والياقوت، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج.

● ومنها الوسيلة، وهي أعلى درجة في الجنة.

وأما خصائص أمته ﷺ وزادها شرفاً، فاعلم أنه لما أنشأ الله سبحانه وتعالى العالم على غاية من الإتقان، وأبرز جسد نبينا ﷺ للعيان، وظهرت عنايته بأمته الإنسانية، بحضوره وظهوره فيها، وإن كان العالم الإنساني والناري كله أمته، ولكن لهؤلاء خصوص وصف، فجعلهم خير أمة أخرجت للناس، وجعلهم ورثة الأنبياء، وأعطاهم الاجتهاد في نصب الأحكام، فيحكمون بما أدى إليه اجتهادهم.

وكل من دخل في زمان هذه الأمة من الأنبياء بعد نبيها، كعيسى عليه السلام، أو قدر دخوله كالخضر، فإنه لا يحكم في العالم إلا بما شرعه محمد ﷺ في هذه الأمة، فإذا نزل سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام فإنما يحكم بشريعة نبينا ﷺ بإلهام أو اطلاع على الروح المحمدي أو بما شاء الله تعالى، فيأخذ عنه ما شرع الله له أن يحكم به في أمته، فلا يحكم في شيء من تحريم وتحليل إلا بما كان يحكم به نبينا ﷺ، ولا يحكم بشريعته التي أنزلت عليه في أوان رسالته ودولته، فهو عليه السلام تابع لنبينا ﷺ. وقد نبه

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان رقم الحديث (٣٣٠) والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٤ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٩٧ وأبو عوانة في مسنده ١/ ١٠٩ والبغوي في شرح السنة ١٥/ ١٦٦ وابن أبي شيبة في مصنفه ١١/ ٥٠٣ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب برقم (٣٦١٦) والدارمي في المقدمة (٨) والإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٨٢ و ٣/ ١٤٤.

على ذلك الترمذي الحكيم في كتاب ختم الأولياء، وأعرب عنه صاحب «عنقاء مغرب»[1]، وكذا الشيخ سعد الدين التفتازاني في شرح عقائد النسفي وصحح أنه يصلي بالناس ويؤمهم ويقتدي به المهدي لأنه أفضل منه، فإمامته أولى. انتهى.

فهو عليه الصلاة والسلام وإن كان خليفة في الأمة المحمدية، فهو رسول ونبي كريم على حاله، لا كما يظن بعض الناس أنه يأتي واحداً من هذه الأمة، نعم هو واحد من هذه الأمة لما ذكر من وجوب اتباعه لنبينا ﷺ والحكم بشريعته.

فإن قلت: قد ورد في صحيح مسلم قوله ﷺ: «ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية»[2] وأن الصواب في معناه: أنه لا يقبل الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام أو القتل، وهذا خلاف ما هو حكم الشرع اليوم، فإن الكتابي إذا بذل الجزية وجب قبولها ولم يجز قتله ولا إكراهه على الإسلام، وإذا كان كذلك، فكيف يكون عيسى عليه السلام حاكماً بشريعة نبينا ﷺ؟

فالجواب: أنه لا خلاف أن عيسى عليه السلام إنما ينزل حاكماً بهذه الشريعة المحمدية ولا ينزل نبياً برسالة مستقلة وشريعة ناسخة، بل هو حاكم من حكام هذه الأمة.

وأما حكم الجزية وما يتعلق بها فليس حكماً مستمراً إلى يوم القيامة، بل هو مقيد بما قبل نزول عيسى، وقد أخبر نبينا ﷺ بنسخه، وليس عيسى عليه السلام هو الناسخ، بل نبينا ﷺ هو المبين للنسخ، فدل على أن الامتناع في ذلك الوقت من قبول الجزية هو شرع نبينا ﷺ. أشار إليه النووي في شرح مسلم.

فإن قلت: ما المعنى في تغيير حكم الشرع عند نزول عيسى عليه السلام في عدم قبول الجزية؟

فأجاب ابن بطال: بأنا إنما قبلناها نحن لاحتياجنا إلى المال، وليس يحتاج عيسى عليه السلام عند خروجه إلى مال، لأنه يفيض في أيامه المال حتى لا يقبله أحد، فلا يقبل إلا القتل أو الإيمان بالله وحده. انتهى.

---

(١) هو اسم كتاب ألفه الشيخ محيي الدين محمد بن علي المعروف بابن عربي المتوفي بدمشق سنة (٦٣٨) «عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب». انظر كشف الظنون ٢/ ١١٧٣.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٢٢٢ ـ ٣٤٤٨) ومسلم برقم (٢٤٢) والامام أحمد بن حنبل ٢/ ٥٣٨ والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٢٤٤ و ٩/ ١٨٠ والطحاوي في مشكل الآثار ١/ ٢٧ والسيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢٤٢ وعبد الرزاق في المصنف (٢٠١٤٠) وأبو عوانة في المسند ١/ ١٠٤.

وأجاب الشيخ ولي الدين ابن العراقي: بأن قبول الجزية من اليهود والنصارى لشبهة ما بأيديهم من التوراة والإنجيل. وتعلقهم بزعمهم بشرع قديم، فإذا نزل عيسى عليه السلام زالت تلك الشبهة بحصول معاينته، فصاروا كعبدة الأوثان في انقطاع شبهتهم وانكشاف أمرهم، فعوملوا معاملتهم في أنه لا يقبل منهم إلا الإسلام، والحكم يزول بزوال علته. قال وهذا معنى حسن مناسب لم أر من تعرض له. قال: وهذا أولى مما ذكره ابن بطال. انتهى.

وكذلك من يقول من العلماء بنبوة الخضر، وأنه باق إلى اليوم، فإنه تابع لأحكام هذه الملة. وكذلك إلياس على ما صححه أبو عبد الله القرطبي أنه حي أيضاً. وليس في الرسل من يتبعه رسول له كتاب إلا نبينا ﷺ، وكفى بهذا شرفاً لهذه الأمة المحمدية زادها الله شرفاً.

فالحمد لله الذي خصنا بهذه الرحمة، وأسبغ علينا هذه النعمة، ومنَّ علينا بما عمنا به من الفضائل الجمة، ونوّه بنا في كتابه العزيز بقوله: ﴿كنتم خير أمة﴾ [آل عمران: ١١٠]، فتأمل قوله (كنتم) أي في اللوح المحفوظ، وقيل: كنتم في علم الله. فينبغي لمن هو من هذه الأمة المحمدية أن يتخلق بالأخلاق الزكية، ليثبت له ما لهذه الأمة الشريفة من الأوصاف المرضية، ويتأهل لما لها من الخيرية.

قال مجاهد: كنتم خير أمة أخرجت للناس إذا كنتم على الشرائط المذكورة، أي: تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر. وقيل: إنما صارت أمة محمد ﷺ خير أمة لأن المسلمين منهم أكثر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أفشى. وقيل: هذا لأصحاب محمد ﷺ، كما قال ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» وهذا يدل على أن أول هذه الأمة أفضل ممن بعدها. وإلى هذا ذهب معظم العلماء.

وأن من صحبه ﷺ ورآه ولو مرة من عمره أفضل من كل من يأتي بعده، وأن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل، هذا مذهب الجمهور.

وذهب أبو عمر بن عبد البر: إلى أنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة، وأن قوله ﷺ: «خير الناس قرني» ليس على عمومه بدليل ما يجمع القرن من الفاضل والمفضول، وقد جمع قرنه ﷺ جماعة من المنافقين المظهرين للإيمان، وأهل الكبائر الذين أقام عليهم وعلى بعضهم الحدود، وقد روى أبو أمامة أنه ﷺ قال: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى سبع مرات لمن لم يرني وآمن بي»[1].

وفي مسند أبي داود الطيالسي عن محمد بن أبي حميد عن زيد بن أسلم عن أبيه

---

(١) أخرجه الامام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٢٦٤ وابن عبد البر في الاستذكار ١/ ٢٣٦.

عن عمر قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فقال: «أتدرون أي الخلق أفضل إيماناً؟» قلنا: الملائكة، قال: «وحق لهم، بل غيرهم». قلنا: الأنبياء قال: «وحق لهم، بل غيرهم»، قال ﷺ: «أفضل: الخلق إيماناً قوم في أصلاب الرجال يؤمنون بي ولم يروني فهم أفضل الخلق إيماناً»(١).

وروي أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة كتب إلى سالم بن عبد الله أن اكتب إلي بسيرة عمر بن الخطاب لأعمل بها، فكتب إليه سالم: إن عملت بسيرة عمر فأنت أفضل من عمر، لأن زمانك ليس كزمان عمر، ولا رجالك كرجال عمر، قال: وكتب إلى فقهاء زمانه فكلهم كتب بمثل قول سالم. قال أبو عمر: فهذه الأحاديث تقتضي مع تواتر طرقها وحسنها، التسوية بين أول هذه الأمة وآخرها في فضل العمل، إلا أهل بدر والحديبية. ومن تدبر هذا الباب بان له الصواب، والله يؤتي فضله من يشاء. انتهى.

وإسناد حديث أبي داود الطيالسي عن عمر ضعيف فلا يحتج به، لكن روى أحمد والدارمي والطبراني عن أبي عبيدة ـ أي ابن الجراح ـ: يا رسول الله، أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك؟ قال «قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني»(٢) وإسناده حسن وصححه الحاكم.

والحق ما عليه الجمهور: أن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل لمشاهدة رسول الله ﷺ، والدلائل على أفضلية الصحابة على غيرهم كثيرة متظاهرة لا نطيل بذكرها وسيأتي بقية مباحث ذلك في فضل الصحابة من المقصد السابع إن شاء الله تعالى.

وقد خص الله تعالى هذه الأمة الشريفة بخصائص لم يؤتها أمة قبلهم، أبان بها فضلهم، والأخبار والآثار ناطقة بذلك.

فخرج أبو نعيم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى ـ عليه السلام ـ لما نزلت عليه التوراة وقرأها، فوجد فيها ذكر هذه الأمة، قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون، فاجعلها أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة أنا جيلهم في صدورهم يقرؤونها ظاهراً فاجعلها أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة يأكلون الفيء فاجعلها أمّتي، قال تلك أمة أحمد، قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة يجعلون الصدقة في بطونهم يؤجرون عليها فاجعلها أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة إذا همَّ أحدهم

---

(١) اخرجه العقيلي في الضعفاء ٢٣٨/٤ وابن عبد البر في الاستذكار ٢٣٨/١.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ١٧٥/٣ والطحاوي في مشكل الآثار ١٧٥/٣ والهيثمي في مجمع الزوائد نحوه ٦٥/١٠.

بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة وإن عملها كتبت له عشر حسنات فاجعلها أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة إذا همَّ أحدهم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، وإن عملها كتبت سيئة واحدة فاجعلها أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة يؤتون العلم الأول والعلم الآخر، فيقتلون المسيح الدجال، فاجعلها أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: يا رب فاجعلني من أمة أحمد، فأعطي عند ذلك خصلتين، فقال: يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين، قال: قد رضيت يا رب»[1].

وروى ابن طغر بك في «النطق المفهوم»[2] عن ابن عباس رفعه: قال موسى: يا رب، فهل في الأمم أكرم عليك من أمتي، ظللت عليهم الغمام، وأنزلت عليهم المنَّ والسلوى، فقال: سبحانه وتعالى: يا موسى، أما علمت أن فضل أمة محمد على سائر الأمم كفضلي على جميع خلقي؟ قال: يا رب فأرينهم، قال: لن تراهم، ولكن أسمعك كلامهم، فناداهم الله تعالى، فأجابوا كلهم بصوت واحد: لبيك اللهم لبيك، وهم في أصلاب آبائهم وبطون أمهاتهم فقال سبحانه وتعالى: صلاتي عليكم، ورحمتي سبقت غضبي، وعفوي سبق عذابي، استجيب لكم قبل أن تسألوني، فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله غفرت له ذنوبه. قال ﷺ: «فأراد الله أن يمن علي بذلك» فقال: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ [القصص: ٤٦]. أي أمتك حتى أسمعنا موسى كلامهم.

ورواه قتادة، وزاد: فقال موسى: يا رب، ما أحسن أصوات أمة محمد ﷺ أسمعني مرة أخرى.

وفي الحلية لأبي نعيم، عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله إلى موسى، نبيء بني إسرائيل أنه من لقيني وهو جاحد بأحمد أدخلته النار. قال: يا رب، ومن أحمد؟ قال: ما خلقت خلقاً أكرم علي منه، كتبت اسمه مع اسمي في العرش قبل أن أخلق السماوات والأرض، إن الجنة محرمة على جميع خلقي حتى يدخلها هو وأمته، قال: ومن أمته؟ قال: الحمادون، يحمدون صعوداً وهبوطاً وعلى كل حال. يشدون أوساطهم ويطهرون أطرافهم، صائمون بالنهار، رهبان بالليل، أقبل منهم اليسير، وأدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله، قال: اجعلني نبي تلك الأمة، قال: نبيها منها،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ١/ ١٤ والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٢٤.

(٢) اسم كتاب لأبي الفرج ابن الجوزي وهو من أغرب تصانيفه انظر كشف الظنون ٢/ ١٩٥٩.

قال: اجعلني من أمة ذلك النبي، قال: استقدمت، واستأخر، ولكن سأجمع بينك وبينه في دار الجلال»[1].

وعن وهب بن منبه قال: أوحى الله إلى شعيا: إني باعث نبياً أمياً، أفتح به آذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وأعيناً عمياً، مولده بمكة، ومهاجره طيبة، وملكه بالشام، عبدي المتوكل المصطفى المرفوع الحبيب المنتخب المختار، لا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح ويغفر، رحيماً بالمؤمنين، يبكي للبهيمة المثقلة، ولليتيم في حجر الأرملة، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا متزين بالفحش ولا قوال للخنا، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته، ولو يمشي على القصب الرعراع لم يسمع من تحت قدميه، أبعثه مبشراً ونذيراً. إلى أن قال: وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وتوحيداً لي، وإيماناً بي، وإخلاصاً لي، وتصديقاً لما جاءت به رسلي، وهم رعاة الشمس والقمر، طوبى لتلك القلوب والوجوه والأرواح التي أخلصت لي، ألهمهم التسبيح والتكبير والتحميد والتوحيد، في مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم، ويصفون في مساجدهم كما تصف الملائكة حول عرشي، هم أوليائي وأنصاري، أنتقم بهم من أعدائي عبدة الأوثان، يصلون لي قياماً وقعوداً وركعاً وسجوداً، ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاتي ألوفاً، ويقاتلون في سبيلي صفوفاً، أختم بكتابهم الكتب، وبشريعتهم الشرائع، وبدينهم الأديان، فمن أدركهم فلم يؤمن بكتابهم، ويدخل في دينهم وشريعتهم فليس مني، وهو مني بريء، وأجعلهم أفضل الأمم، وأجعلهم أمة وسطاً شهداء على الناس، إذا غضبوا هللوني، وإذا تنازعوا سبحوني، يطهرون الوجوه والأطراف، ويشدون الثياب إلى الأنصاف، ويهللون على التلال والأشراف، قربانهم دماؤهم، وأنا جيلهم في صدورهم، رهباناً بالليل ليوثاً بالنهار، طوبى لمن كان معهم، وعلى دينهم ومنهاجهم وشريعتهم، وذلك فضلي أوتيه من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم. رواه أبو نعيم.

وقد ذكر الإمام فخر الدين: أن من كانت معجزاته أظهر يكون ثواب أمته أقل، قال السبكي: إلا هذه الأمة، فإن معجزات نبيها أظهر وثوابها أكثر من سائر الأمم. ومن خصائص هذه الأمة إحلال الغنائم، ولم تحل لأمة قبلها، وجعلت لهم الأرض مسجداً ولم تكن الأمم تصلي إلا في البيع والكنائس، وجعل لهم ترابها طهوراً وهو التيمم. وفي رواية أبي أمامة عند البخاري: «وجعلت الأرض كلها لي ولأمتي مسجداً وطهوراً»[2] وفي رواية

---

(١) انظر حلية الأولياء ٦/ ٣٣ وما بعدها.

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٢٤٨.

مسلم من حديث حذيفة: «وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها طهوراً إذا لم نجد الماء»[1].

● ومن خصائص هذه الأمة الوضوء، فإنه لم يكن إلا للأنبياء دون أممهم، ذكره الحليمي، واستدل بحديث البخاري «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء»[2] لكن قال في فتح الباري: فيه نظر: لأنه ثبت في البخاري قصة سارة ـ عليها السلام ـ مع الملك الذي أعطاها هاجر: أن سارة لما همَّ الملك بالدنو منها قامت تتوضأ وتصلي، وفي قصة جريج الراهب أيضاً: أنه قام فتوضأ وصلى ثم كلم الغلام. فالظاهر أن الذي اختصت به هذه الأمة هو الغرة والتحجيل، لا أصل الوضوء.

وقد صرح بذلك في رواية لمسلم عن أبي هريرة مرفوعاً، قال: «لكم سيما ليست لأحد غيركم»[3] أي علامة. وغاية التحجيل: استيعاب العضدين والساقين والغرة: غسل مقدمات الرأس وصفحة العنق مع الوجه.

● ومنها مجموع الصلوات الخمس، ولم تجمع لأحد غيرهم، أخرج الطحاوي عن عبيد الله بن محمد بن عائشة قال: إن آدم لما تيب عليه عند الفجر صلى ركعتين فصارت الصبح، وفدى إسحاق عند الظهر، فصلى أربع ركعات فصارت الظهر، وبعث عزيراً عند العصر، فقيل له: كم لبثت قال: يوماً، فرأى الشمس فقال: أو بعض يوم فصلى أربع ركعات فصارت العصر، وغفر لداود عند المغرب، فقام يصلي أربع ركعات فجهد فجلس في الثالثة فصارت المغرب ثلاثاً. وأول من صلى العشاء الآخرة نبينا ﷺ.

وأخرج أبو داود في سننه، وابن أبي شيبة في مصنفه والبيهقي في سننه عن معاذ بن جبل قال: أخر رسول الله ﷺ صلاة العتمة ليلة حتى ظن الظان أنه قد صلى ثم خرج فقال: «أعتموا بهذه الصلاة فإنكم فضلتم بها على سائر الأمم ولم تصلها أمة قبلكم»[4].

● ومنها الاذان والإقامة.

---

(١) الحديث في صحيح مسلم المساجد رقم (٤) وفي شرح السنة للبغوي ٢/١١٣ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٢/١٠٤ و ١١/٤٣٥.

(٢) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٢/ ٣٦١ والسيوطي في جمع الجوامع برقم (٦٢٧٧) والمنذري في الترغيب ١/١٤٩ والتبريزي في المشكاة برقم (٢٩٠).

(٣) الحديث في صحيح مسلم طهارة رقم (٣٦ ـ ٣٧) وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/٥٠٢ وفي تفسير القرطبي ٦/١٠٧.

(٤) أخرجه أبو داود برقم (٤٢١) وأحمد في المسند ٥/٢٣٧ والبيهقي في السنن الكبرى ١/٤٥١ وأبو نعيم في حلية الأولياء ٩/٢٣٨ والسيوطي في الدر المنثور ١/٣٠٠ و ٢/٦٥ في كنز العمال (١٩٤٧٧).

● ومنها البسملة، قاله بعضهم فيما نقله الشيخ شهاب الدين الحلبي النحوي في تفسيره، قال: ولم ينزلها الله على أحد من الأمم قبلنا إلا على سليمان بن داود، فهي مما اختصت به هذه الأمة. انتهى.

● ومنها التأمين، روى الإمام أحمد من حديث عائشة قالت: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ استأذن رجل من اليهود، فذكر الحديث وفيه: أن النبي ﷺ قال: «إنهم لم يحسدونا على شيء كما حسدونا على الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام آمين»[1].

قال الحافظ ابن حجر: وهذا الحديث غريب لا أعرفه بهذه الألفاظ إلا من هذا الوجه، لكن لبعضه متابع حسن في التأمين، أخرجه ابن ماجه وصححه ابن خزيمة كلاهما من رواية سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «ما حسدتنا اليهود على شيء ما حسدتنا على السلام والتأمين»[2].

● ومنها الاختصاص بالركوع، عن علي رضي الله عنه قال: أول صلاة ركعنا فيها العصر، فقلت: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: «بهذا أمرت» رواه البزار والطبراني في الأوسط.

ووجه الاستدلال منه: أنه ﷺ صلى قبل ذلك الظهر، وصلى قبل فرض الصلوات الخمس قيام الليل، فكون الصلاة السابقة بلا ركوع قرينة لخلو صلاة الأمم السابقة منه. قاله بعض العلماء.

قال: وذكر جماعة من المفسرين في قوله تعالى: ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ [البقرة: ٤٣]. أن مشروعية الركوع في الصلاة خاص بهذه الأمة، وأنه لا ركوع في صلاة بني إسرائيل، ولذا أمرهم بالركوع مع أمة محمد ﷺ.

وهذا يعارضه قوله تعالى: ﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ [آل عمران: ٤٣]. المفسر بأنها أمرت بالصلاة في الجماعة بذكر أركانها مبالغة في المحافظة عليها. قالوا: وقدم السجود قبل الركوع إما لكونه كذلك في شريعتهم، أو للتنبيه على أن «الواو» لا توجب الترتيب. وقيل: المراد بالقنوت إدامة الطاعة، كقوله: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً﴾ [الزمر: ٩]. وبالسجود: الصلاة، لقوله: ﴿وأدبار السجود﴾

---

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٣٢٨.

(٢) ذكره نحوه ابن عبد البر في التمهيد ٧/ ١٥ وفي مصنف عبد الرزاق ٢٦٤٩ والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٥٢٧٦).

[ق: ٤٠]، وبالركوع: الخضوع والإخبات.

● ومنها الصفوف في الصلاة، كصفوف الملائكة، رواه مسلم من حديث حذيفة.

● ومنها تحية الإسلام لحديث عائشة السابق.

● ومنها الجمعة، قال ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً والنصارى بعد غد»(١) رواه البخاري.

● ومنها ساعة الإجابة التي في الجمعة، واختلف في تعيينها على أقوال تزيد على الثلاثين ذكرتها في «لوامع الأنوار في الأدعية والأذكار».

● ومنها: أنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله إليهم، ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبداً، وتزيين الجنة فيه، وخلوف أفواه الصائمين أطيب عند الله من ريح المسك، وتستغفر لهم الملائكة في كل يوم وليلة حتى يفطروا، وإذا كان آخر ليلة غفر لهم جميعاً. رواه البيهقي بإسناد لا بأس به بلفظ: أعطيت أمتي في شهر رمضان خمساً لم يعطهن نبي قبلي(٢) . . الحديث، و «تستغفر لهم الحيتان حتى يفطروا». رواه البزار. و «تصفد فيه مردة الشياطين» رواه أحمد والبزار.

● ومنها السحور، وتعجيل الفطر، رواه الشيخان. وإباحة الأكل والشرب والجماع ليلاً إلى الفجر، وكان محرماً على من قبلنا بعد النوم، وكذا كان في صدر الإسلام ثم نسخ.

● ومنها: ليلة القدر، كما قاله النووي في شرح المهذب.

وهل صيام رمضان من خصائص هذه الأمة أم لا؟ إن قلنا إن التشبيه الذي دلت عليه كاف «كما» في قوله تعالى: ﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ [البقرة: ١٨٣] على حقيقته فيكون رمضان كتب على من قبلنا. وذكر ابن أبي حاتم عن ابن عمر رفعه: «صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم» وفي إسناده مجهول. وإن قلنا المراد مطلق الصيام دون قدره ووقته فيكون التشبيه واقعاً على مطلق الصوم، وهو قول الجمهور.

● ومنها أن لهم الاسترجاع عند المصيبة، قال سعيد بن جبير: لقد أعطيت هذه الأ:

(١) الحديث أيضاً في المسند ٢/ ٢٤٩ و ٥٠٤ وفي الدارقطني ٢/ ٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٢٩٨ وفي دلائل النبوة أيضاً ٥/ ٤٧٥ وفي إتحاف السادة المتقين ٣/ ٢١٥ وفي كنز العمال (٣٤٤٧٥ ـ ٣٤٥١٧).

(٢) والحديث أيضاً في الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٩٢ وفي الدر المنثور للسيوطي ١/ ١٨٤ وفي كنز العمال (٢٣٧٠٩).

عند المصيبة ما لم تعط الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثله: إنا لله وإنا إليه راجعون. ولو أعطيت الأنبياء لأعطيه يعقوب عليه الصلاة والسلام إذ قال: ﴿يا أسفي على يوسف﴾ [يوسف: ٨٤].

● ومنها: أن الله تعالى رفع عنهم الإصرار الذي كان على الأمم قبلهم، قال الله تعالى: ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ [الأعراف: ١٥٧]. أي: ويخفف عنهم ما كلفوا به من التكاليف الشاقة، كتعيين القصاص في العمد والخطأ وقطع الأعضاء الخاطئة، وقطع موضع النجاسة، وقتل النفس في التوبة. وقد كان الرجل من بني إسرائيل يذنب الذنب فيصبح قد كتب على باب بيته: إن كفارته أن تنزع عينيك فينزعهما. وأصل الإصل: الثقل: الذي يأصر صاحبه، أي يحبسه من الحراك لثقله.

● ومنها أن الله تعالى أحل لهم كثيراً مما شدد على من قبلهم، ولم يجعل عليهم في الدين من حرج، كما قال تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: ٧٨]. أي ضيق بتكليف ما اشتد القيام به عليهم، إشارة إلى أنه لا مانع لهم عنه ولا عذر لهم في تركه، يعني من لم يستطع أن يصلي قائماً فليصل قاعداً، وأباح للصائم الفطر في السفر، والقصر فيه.

وقيل ذلك بأن جعل لهم من كل ذنب مخرجاً، وفتح لهم باب التوبة، وشرع لهم الكفارات في حقوقه تعالى، والأروش[1] والديات في حقوق العباد، قاله البيضاوي.

وروي عن ابن عباس أنه قال: الحرج ما كان على بني إسرائيل من الإصر والشدائد، وضعه الله عن هذه الأمة. وعن كعب، أعطى الله هذه الأمة ثلاثاً لم يعطهن إلا الأنبياء: جعلهم شهداء على الناس، وما جعل عليهم في الدين من حرج، وقال: ادعوني استجب لكم.

● ومنها: أن الله رفع عنهم المؤاخذة بالخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه، وحديث النفس[2]، وقد كان بنو إسرائيل إذا نسوا شيئاً مما أمروا به أو أخطؤوا عجلت لهم العقوبة، فحرِّم عليهم شيء من مطعم أو مشرب على حسب ذلك الذنب.

وقد قال ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[3] رواه

---

(١) الأرش في الجراحات وليس له قدر معلوم وهو دية الجراحات وسمي أرشاً لأنه من أسباب النزاع. راجع لسان العرب ١/ ١١٧ مادة (أرش).

(٢) رواه الشيخان وهو بلفظ: (إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به).

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه برقم (٢٠٤٥) وفي نصب الراية للزيلعي ٢/ ٦٤ وفي كشف الخفاء للعجلوني=

أحمد وابن حبان والحاكم وابن ماجه.

● ومنها أن الإسلام وصف خاص بهم، لا يشركهم فيه غيرهم إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لقوله تعالى: ﴿هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا﴾ [الحج: ٧٨]. ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [المائدة: ٣]. إذ لو لم يكن خاصاً بهم لم يكن في الامتنان عليهم بذلك فائدة.

وقد يجاب: بأن رضى الإسلام ديناً لهم، وتسمية إبراهيم أباهم بذلك، لا ينفي اتصاف غيرهم به. وفائدة ذلك: الإعلام بالإنعام عليهم بما أنعم به على غيرهم من الفضائل.

وقيل: لا يختص بهم، بل يطلق على غيرهم أيضاً، وهو اسم لكل دين حق لغة وشرعاً. كما أجاب به ابن الصلاح لقوله تعالى ـ حكاية عن وصية يعقوب ـ ﴿فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٢]. ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ [الذاريات: ٣٦] إلى غير ذلك. ولأن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب كثير من العلماء، وليس خاصاً بهذه الأمة، بل يوصف به كل من دخل في شريعة مقراً بالله وبأنبيائه، كما قال الراغب.

● ومنها: أن شريعتهم أكمل من جميع شرائع الأمم المتقدمة، وهذا لا يحتاج إلى بيانه لوضوحه. وانظر إلى شريعة موسى عليه السلام، فقد كانت شريعة جلال وقهر، أمروا بقتل نفوسهم، وحرمت عليهم الشحوم وذوات الظفر وغيرها من الطيبات، وحرمت عليهم الغنائم، وعجلت لهم من العقوبات ما عجل، وحملوا من الآصار والأغلال ما لم يحمله غيرهم.

وكان موسى عليه السلام من أعظم خلق الله هيبة ووقاراً وأشدهم بأساً وغضباً لله، وبطشاً بأعداء الله، فكان لا يستطاع النظر إليه.

وعيسى عليه السلام كان في مظهر الجمال، وكانت شريعته شريعة فضل وإحسان، وكان لا يقاتل ولا يحارب، وليس في شريعته قتال ألبتة، والنصارى يحرم عليهم في دينهم القتال، وهم به عصاة، فإن الإنجيل يأمر فيه: أن من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ومن نازعك ثوبك فأعطه رداءك، ومن سخرك ميلاً فامش معه ميلين[1]، ونحو هذا،

= ١/ ٥٢٢ وفي كنز العمال للمتقي الهندي (٣٤٤٦٠).

(١) انظر متى ٥/ ٣٩ ـ ٤١.

وليس في شريعتهم مشقة ولا إصر ولا أغلال. وأما النصارى فابتدعوا تلك الرّهبانية من قبل أنفسهم ولم تكتب عليهم.

وأما نبينا ﷺ فكان مظهر الكمال، الجامع لتلك القوة والعدل والشدة في الله، واللين والرأفة والرحمة فشريعته أكمل الشرائع، وأمته أكمل الأمم، وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات، ولذلك تأتي شريعته ﷺ بالعدل إيجاباً له وفرضاً، وبالفضل ندباً إليه واستحباباً، وبالشدة في موضع الشدة، وباللين في موضع اللين، ووضع السيف موضعه، ووضع الندى موضعه، فيذكر الظلم ويحرمه، والعدل ويأمر به، والفضل ويندب إليه في بعض آية، كقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ [الشورى: ٤٠]. فهذا عدل ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ [الشورى: ٤٠]. فهذا فضل ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ [الشورى: ٤٠]. فهذا تحريم للظلم.

وقوله: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ [النحل: ١٢٦]. فهذا إيجاب للعدل وتحريم للظلم ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ [النحل: ١٢٦] ندب إلى الفضل.

● وكذلك تحريم ما حرم على هذه الأمة صيانة وحمية، حرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع، فتحريمه عليهم رحمة، وعلى من كان قبلهم لم يخل من عقوبة، كما أشرت إليه قريباً. وهداهم لما ضلت عنه الأمم قبلهم كيوم الجمعة، كما سأذكره إن شاء الله تعالى في مقصد عباداته ﷺ، وتقدم ما يشهد له.

ووهب لهم من علمه وحلمه، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم، كما كمل لنبيهم من المحاسن ما فرقه في الأنبياء قبله، وكمل في كتابهم من المحاسن ما فرقه في الكتب قبله، وكذلك في شريعته. فهذه الأمة هم المجتبون، كما قال إلّهم: ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: ٧٨]. وجعلهم شهداء على الناس، فأقامهم في ذلك مقام الرسل الشاهدين على أممهم، أشار إليه ابن القيم.

● ومنها: أنهم لا يجتمعون على ضلالة. رواه أحمد في مسنده، والطبراني في الكبير، وابن أبي خيثمة في تاريخه عن أبي بصرة الغفاري مرفوعاً في حديث «سألت ربي أن لا تجتمع أمتي على ضلالة فأعطانيها»[1] ورواه ابن أبي عاصم والطبراني أيضاً من حديث أبي مالك الأشعري رفعه: «إن الله أجاركم من ثلاث» وذكر منها «وأن لا تجتمعوا على ضلالة».

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٤٨٨ وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (٨٧) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٧٩٠٤).

قال شيخنا: وبالجملة، فهو حديث مشهور المتن، ذو أسانيد كثيرة وله شواهد متعددة في المرفوع وغيره.

● ومنها: أن إجماعهم حجة وأن اختلافهم رحمة، وكان اختلاف من قبلهم عذاباً، روى البيهقي في المدخل في حديث من رواية سليمان بن أبي كريمة، عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «واختلاف أصحابي لكم رحمة»[1]. وجويبر: ضعيف جداً، والضحاك عن ابن عباس: منقطع.

وهو كما قال شيخ الإسلام ابن حجر: حديث مشهور على الألسنة، وقد أورده ابن الحاجب في المختصر في مباحث القياس بلفظ: اختلاف أمتي رحمة للناس. قال: وكثر السؤال عنه، وزعم كثير من الأئمة أنه لا أصل له، لكن ذكره الخطابي في غريب الحديث مستطرداً، وقال: اعترض على هذا الحديث رجلان، أحدهما ماجن والآخر ملحد، وهما: إسحاق الموصلي، وعمرو بن بحر الجاحظ وقالا جميعاً: لو كان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق عذاباً، قال: ثم تشاغل الخطابي برد هذا الكلام، ولم يقع في كلامه نص في عزو الحديث، ولكنه أشعر بأن له أصلاً عنده.

ومن حديث الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد قال: أهل العلم أهل توسعة، وما برح المفتون يختلفون، فيحل هذا ويحرم هذا، فلا يعيب هذا على هذا، أشار إليه شيخنا في المقاصد الحسنة.

ومنها أن الطاعون لهم شهادة ورحمة، وكان على الأمم عذاباً. رواه أحمد والطبراني في الكبير، عن حديث أبي عسيب مولى رسول الله ﷺ. ورجال أحمد ثقات ولفظه: «الطاعون شهادة لأمتي ورحمة لهم ورجز على الكافرين»[2].

● ومنها أنهم إذا شهد اثنان منهم لعبد بخير وجبت له الجنة[3]. وكان الأمم السالفة إذا شهد منهم مائة.

● ومنها أنهم أقل الأمم عملاً، وأكثرهم أجراً وأقصرهم أعماراً، وأوتوا العلم الأول والآخر، وآخر الأمم فافتضحت الأمم عندهم ولم يفتضحوا.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٦٨ والعراقي في المغني عن حمل الأسفه ١/ ٢٨ وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٢٨٥.

(٢) الحديث في الدارمي ٢/ ٢٠٧، وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٦/ ٣٩٢ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٣٣٤ وفي تفسير القرطبي ٣/ ٢٨٥ وفي كنز العمال (٢٨٤٣٧).

(٣) روى أحمد والبخاري والنسائي عن عمر مرفوعاً (أيما مسلم شهد له أربعة أدخله الله الجنة، قيل: وثلاثة؟ قال: وثلاثة، قيل واثنان، قال: واثنان...) والمقصود الثناء عليه بخير.

● ومنها: أنهم أوتوا الإسناد، وهو خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة، وسنة بالغة من السنن المؤكدة. وقد روينا من طريق أبي العباس الدغولي قال: سمعت محمد بن حاتم بن المظفر يقول: إن الله قد أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمها وحديثها إسناد موصول، إنما هو صحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، فليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل وبين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي اتخذوها عن غير الثقات.

وهذه الأمة الشريفة ـ زادها الله شرفاً بنبيها ـ إنما تنص الحديث عن الثقة المعروف في زمانه بالصدق والأمانة عن مثله حتى تتناهى أخبارهم، ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ، والأضبط فالأضبط، والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقصر مجالسة، ثم يكتبون الحديث من عشرين وجهاً وأكثر، حتى يهذبوه من الغلط والزلل، ويضبطوا حروفه ويعدوه عداً، فهذا من فضل الله على هذه الأمة، فنستودع الله تعالى شكر هذه النعمة وغيرها من نعمه.

وقال أبو حاتم الرازي[1]: لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله تعالى آدم أمناء يحفظون آثار الرسل إلا في هذه الأمة، انتهى.

● ومنها: أنهم أوتوا الأنساب والإعراب، قال أبو بكر محمد بن أحمد[2]: بلغني أن الله خص هذه الأمة بثلاثة أشياء لم يعطها من قبلها: الإسناد والأنساب والإعراب، انتهى. وهو مروي عن أبي علي الجياني[3] أيضاً.

● ومنها: أنهم أوتوا تصنيف الكتب، ذكره بعضهم. ولا تزال طائفة منهم ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله. رواه الشيخان.

● ومنها: أن فيهم أقطاباً وأوتاداً ونجباء وأبدالاً[4]. عن أنس مرفوعاً: «الأبدال

---

(١) هو محمد بن إدريس بن المنذر بن داود، أبو حاتم (١٩٥ ـ ٢٧٧ هـ). من حفاظ الحديث. ولد بالري وتوفي ببغداد. الأعلام ٦/٢٧، تهذيب التهذيب ٩/٣١، تاريخ بغداد ٢/٧٣ ومفتاح السعادة ٢/١٦٩.

(٢) هو محمد بن أحمد البغدادي، أبو بكر حافظ فاضل توفي سنة (٤٠٨٩).

(٣) هو الحسين بن محمد بن أحمد الغساني الجياني الأندلسي. أبو علي (٤٢٧ ـ ٤٩٨ هـ). عالم محدث توفي في قرطبة. الأعلام ٢/ ٢٥٥، وفيات الأعيان ١/١٥٨.

(٤) هذه مصطلحات صوفية تنقل بعض ما قاله الشارح في بيانها. الأقطاب جمع قطب: وهو الخليفة الباطن وسيد أهل زمانه سمي قطباً لجمعه جميع المقادمات والأحوال. والأوتاد: وهم أربعة في كل زمان، وهم العمد وهم في حكم الجبال في الأرض، ولذا سموا أوتاداً. والنجباء: سبعون ورتبتهم فوق النقباء ودون الأبدال الأبدال: جمع بدل، سموا بذلك لأنه إذا مات واحد أبدل مكانه آخر.

أربعون رجلاً وأربعون امرأة، كلما مات رجل أبدل الله رجلاً مكانه، وإذا ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة»[1] رواه الخلال[2] في «كرامات الأوليا».

ورواه الطبراني في الأوسط بلفظ: «لن تخلو الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمن عليه السلام، فبهم يسقون وبهم ينصرون، ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر»[3].

ورواه ابن عدي في كامله بلفظ: «البدلاء أربعون، اثنان وعشرون بالشام وثمانية عشر بالعراق، كلما مات منهم أحد أبدل الله مكانه آخر، فإذا جاء الأمر قبضوا كلهم، فعند ذلك تقوم الساعة»[4].

وكذا يروى كما عند أحمد في المسند، والخلال، من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: «لا يزال في هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات واحد أبدل الله تعالى مكانه رجلاً»[5].

وفي لفظ الطبراني ـ في الكبير ـ: «بهم تقوم الأرض وبهم يمطرون وبهم ينصرون».

ولأبي نعيم في الحلية، عن ابن عمر رفعه: «خيار أمتي في كل قرن خمسمائة، والأبدال أربعون، فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون، كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخر، وهم في الأرض كلها»[6].

وفي الحلية أيضاً عن ابن مسعود رفعه: «لا يزال أربعون رجلاً من أمتي، قلوبهم على قلب إبراهيم، يدفع الله بهم عن أهل الأرض، يقال لهم الأبدال، إنهم لم يدركوها بصلاة ولا بصوم ولا بصدقة»، قال: فيم أدركوها يا رسول الله؟ قال: «بالسخاء والنصيحة للمسلمين»[7].

---

(١) الحديث في الدر المنثور ٢/ ٧٦، وفي إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٨٥، وفي كشف الخفاء ١/ ٢٥ وفي كنز العمال (٣٤٥٩٧).

(٢) هو الحسن بن محمد بن الحسن بن علي، أبو محمد الخلال (٣٥٢ ـ ٤٣٩ هـ). فاضل من أهل بغداد. الأعلام ٢/ ٢١٣ تاريخ بغداد وكشف الظنون ١/ ٢٦.

(٣) الحديث في مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٦٣، وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٨/ ٣٨٥ وفي الحاوي للفتاوي ٢/ ٤٢٣ وفي الدر المنثور للسيوطي ١/ ٣٢٠ وفي كنز العمال (٣٤٦٠٣).

(٤) الحديث في جمع الجوامع للسيوطي (١٢٠٨٢) وفي إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٨٥ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٢٦ وفي كنز العمال (٣٤٦٠٩).

(٥) الحديث في إتحاف السادة المتقين للزبيد ٨/ ٩٨٦.

(٦) الحديث في إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٩٤ وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ١/ ٨ وفي كنز العمال (٣٤٥٩١).

(٧) الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٦٣ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٨٦،=

وعن معروف الكرخي[١]: من قال اللهم ارحم أمة محمد في كل يوم كتبه الله من الأبدال. وهو في الحلية بلفظ: «من قال في كل يوم عشر مرات اللهم أصلح أمة محمد، اللهم فرج عن أمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد كتب من الأبدال»[٢].

وعن غيره قال: من علامة الأبدال أن لا يولد لهم، ويروى في مرفوع معضل: «علامة أبدال أمتي أنهم لا يلعنون شيئاً أبداً».

وقال يزيد بن هارون: الأبدال هم أهل العلم، وقال الإمام أحمد: إن لم يكونوا أصحاب الحديث فمن هم؟.

وفي تاريخ بغداد للخطيب، عن الكتاني[٣] قال: النقباء ثلاثمائة، والنجباء سبعون، والبدلاء أربعون، والأخيار سبعة، والعمد أربعة، والغوث واحد، فمسكن النقباء المغرب، ومسكن النجباء مصر، ومسكن الأبدال الشام، والأخيار سياحون في الأرض، والعمد في زوايا الأرض ومسكن الغوث مكة، فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها النقباء ثم النجباء ثم الأبدال ثم الأخيار ثم العمد، فإن أجيبوا وإلاّ ابتهل الغوث، فلا يتم مسألته حتى تجاب دعوته، انتهى.[٤]

● ومنها أنهم يدخلون قبورهم بذنوبهم، ويخرجون منها بلا ذنوب، تمحص عنهم باستغفار المؤمنين لهم. رواه الطبراني ـ في الأوسط ـ من حديث أنس، ولفظه: قال قال رسول الله ﷺ: «أمتي أمة مرحومة تدخل قبورها بذنوبها، وتخرج من قبورها لا ذنوب عليها، تمحص عنها باستغفار المؤمنين لها»[٥].

= والسيوطي في الدر المنثور ١/ ٣٢ والعجلوني في كشف الخفا ١/ ٢٥ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٦١٢ـ ٣٤٦١٤).

(١) هو معروف بن فيروز الكرخي، أبو محفوظ. زاهد متصوف توفي ببغداد سنة (٢٠٠ هـ). الأعلام ٧/ ٢٦٩ وفيات الأعيان ٢/ ١٠٤ صفة الصفوة ٢/ ١٧٩ وتاريخ بغداد ١٣/ ١٩٩.

(٢) أورده أبو نعيم في الحلية ٨/ ٣٦٦.

(٣) هو عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن علي التميمي أبو محمد الكتاني (٣٨٩ ـ ٤٦٦ هـ) مؤرخ محدث. الأعلام ٤/ ١٣ وشذرات الذهب ٤/ ٣٢٥

(٤) قال السخاوي: خبر الأبدال له طرق عن أنس بألفاظ مختلفة كلها ضعيفة، ثم ساق ما ذكره المصنف ثم قال: وأحسن ما تقدم ما رواه أحمد من حديث شريح قال: ذكر أهل الشام عند علي وهو بالعراق فقالوا: العنهم يا أمير المؤمنين، قال: لا إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: البدلاء يكونون بالشام وهم أربعون رجلاً كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، يستسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب. رجاله من رواة الصحيح إلا شريحاً، وهو ثقة، انتهى.

(٥) الحديث ذكره الحاكم في المستدرك ٤/ ٤٤٤، والعجلوني في كشف الخفا ١/ ٢٢٩ والزبيدي في

● ومنها أنهم اختصوا في الآخرة بأنهم أول من تنشق عنهم الأرض من الأمم. رواه أبو نعيم عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ «وأنا أول من تنشق الأرض عني وعن أمتي ولا فخر».

● ومنها: أنهم يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء. رواه البخاري. والغرة: بياض في وجه الفرس. والتحجيل: بياض في قوائمه وذلك مما يكسبه حسناً وجمالاً.

فشبه ﷺ النور الذي يكون يوم القيامة في أعضاء الوضوء بالغرة والتحجيل، ليفهم أن هذا البياض في أعضاء الإنسان مما يزينه لا مما يشينه، يعني أنهم إذا دعوا على رؤوس الأشهاد نودوا بهذا الوصف، أو كانوا على هذه الصفة.

● ومنها أنهم يكونون في الموقف على مكان عال. رواه ابن جرير وابن مردويه من حديث جابر مرفوعاً بلفظ: «أنا وأمتي على كوم مشرفين على الخلائق، ما من الناس أحد إلا ودَّ أنه منا، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه بلغ رسالة ربه». وعند ابن مردويه من حديث كعب قال: «أنا وأمتي على تل».

● ومنها: أن سيماهم في وجوههم من أثر السجود. قال تعالى: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ [الفتح: ٢٩]. وهل هذه العلامة في الدنيا أو في الآخرة؟ قولان:

أحدهما: أنها في الدنيا، قال ابن عباس في رواية ابن أبي طلحة: السمت الحسن. وفي رواية مجاهد: ليست بالتي ترون، هي سمت الإسلام وسيماه وخشوعه. وقيل: الصفرة في الوجه من أثر السهر فتحسبهم مرضى وما هم بمرضى.

والقول الثاني: أنه في الآخرة يعني أن مواضع السجود من وجوههم يكون أشد بياضاً يوم القيامة، يعرفون بتلك العلامة أنهم سجدوا في الدنيا. رواه العوفي عن ابن عباس. وعن شهر بن حوشب[١]: تكون مواضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر، وقال عطاء الخراساني[٢]: دخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس.

● ومنها أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم. رواه أحمد والبزار.

إتحاف السادة المتقين ٩/ ١٧٥ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٤٥٤ ـ ٣٧٩٠٦).

(١) هو شهر بن حوشب الأشعري (٢٠ ـ ١٠٠ هـ). فقيه من رجال الحديث. الأعلام ٣/ ١٧٨ تهذيب التهذيب ٤/ ٣٦٩.

(٢) هو عطاء بن مسلم بن ميسرة الخراساني (٥٠ ـ ١٣٥ هـ) في المفسرين. الأعلام ٤/ ٢٣٥ وشذرات الذهب ١/ ١٩٢.

● ومنها أن نورهم يسعى بين أيديهم. أخرجه أحمد بإسناد صحيح(١).

● ومنها: أن لهم ما سعوا، وما يسعى لهم، وليس لمن قبلهم إلا ما سعى، قاله عكرمة. وأما قوله تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: ٣٩]. ففيها أجوبة:

أحدها: أنها منسوخة، روي ذلك عن ابن عباس، نسخها قوله تعالى: ﴿واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم﴾ [الطور: ٢١]. فجعل الولد الطفل في ميزان أبيه، ويشفع الله الآباء في الأبناء، والأبناء في الآباء، بدليل قوله تعالى: ﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾ [النساء: ١١].

الثاني: أنها مخصوصة بالكافر، وأما المؤمن فله ما سعى غيره. قال القرطبي: وكثير من الأحاديث يدل على هذا القول، وأن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره. وفي الصحيح عن النبي ﷺ «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»(٢) وقال ﷺ للذي حج عن غيره « حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة»(٣)، وعن عائشة أنها اعتكفت عن أخيها عبد الرحمن وأعتقت عنه.

وقال سعد للنبي ﷺ: إن أمي توفيت أفأتصدق عنها؟ قال: «نعم»، قال: فأي الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء»(٤).

وفي الموطأ عن عبد الله بن أبي بكر عن عمته أنها حدثته عن جدته: أنها جعلت على نفسها مشياً إلى مسجد قباء فماتت ولم تقضه، فأفتى عبد الله بن عباس: أنها تمشي عنها.

ومن المفسرين من قال: إن «الإنسان» في الآية، أبو جهل، ومنهم من قال: عقبة بن أبي معيط، منهم من قال: الوليد بن المغيرة، ومنهم من قال: إخبار عن شرع من قبلنا، وقد دل شرعنا أن الإنسان له سعيه، وما سعي له، ومنهم من قال: الإنسان بسعيه في الخير

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/١٩٩ والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصيام برقم (١٥٣) والبيهقي في السنن الكبرى ٤/٢٥٥، والدارقطني في سننه ٢/ ١٩٥ وابن حجر في تعليق التعليق (٦٩٧) وابن عبد البر في التمهيد ٩/٢٨ والزيلعي في نصب الراية ٢/ ٤٦٤ والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٣٨٢١).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه برقم (١٨١١) وابن عبد البر في التمهيد ٩/١٣٨، والطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٤٣ والهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٢٨٣.

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٦٨٤) والنسائي ٦/٢٥٤، ٢٥٥ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٥/ ٢٨٥ و ٦/ ٧ والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ١٨٥ والحاكم في المستدرك ١/ ٤١٤ والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٩٠ والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٧٣.

وحسن صحبته وعشرته اكتسب الأصحاب، وأسدى لهم الخير وتودد إليهم فصار ثوابهم له بعد موته من سعيه.

ومنهم من قال «الإنسان» في الآية للحي دون الميت. ومنهم من قال: لم ينف في الآية انتفاع الرجل بسعي غيره له، وإنما نفى ملكه لسعي غيره، وبين الأمرين فرق:

فقال الزمخشري في ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: ٣٩]. فإن قلت: أما صح في الأخبار الصدقة عن الميت والحج عنه؟ قلت: فيه جوابان.

أحدهما: أن سعي غيره لما لم ينفعه إلا مبنياً على سعي نفسه، وهو أن يكون مؤمناً مصدقاً، كان سعي غيره كأنه سعي نفسه لكونه تبعاً له، وقائماً مقامه.

والثاني: أن سعي غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه، ولكن إذا نواه له فهو في حكم الشرع كالنائب عنه، والوكيل القائم مقامه.

والصحيح من الأجوبة: أن قوله: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: ٣٩]. عام مخصوص بما تقدم من الأجوبة. وقد اختلف العلماء في ثواب القراءة، وهل يصل للميت؟. فذهب الأكثرون إلى المنع، وهو المشهور من مذهب الشافعي ومالك، ونقل عن جماعة من الحنفية.

وقال كثير من الشافعية والحنفية: يصل، وبه قال أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ بعد أن قال: القراءة على القبر بدعة، بل نقل عن الإمام أحمد: يصل إلى الميت كل شيء من صدقة وصلاة وحج واعتكاف وقراءة وذكر غير ذلك.

وذكر الشيخ شمس الدين القطان العسقلاني: أن وصول ثواب القراءة إلى الميت من قريب أو أجنبي هو الصحيح، كما تنفعه الصدقة والدعاء والاستغفار بالإجماع.

وقد أفتى القاضي حسين: بأن الاستئجار لقراءة القرآن على رأس القبر جائز، كالاستئجار للأذان وتعليماً لقرآن.

لكن قال الرافعي وتبعه النووي: عود المنفعة إلى المستأجر شرط في الإجارة، فيجب عود المنفعة في هذه الإجارة إلى المستأجر أو لميته، لكن المستأجر لا ينتفع بأن يقرأ الغير له، ومشهور أن الميت لا يلحقه ثواب القراءة المجردة، فالوجه تنزيل الاستئجار على صورة انتفاع الميت بالقراءة. وذكروا له طريقين:

أحدهما: أن يعقب القراءة بالدعاء للميت، فإن الدعاء يلحقه، والدعاء بعد القراءة أقرب إلى الإجابة وأكثر بركة.

والثاني: ذكر الشيخ عبد الكريم الشالوسي: أنه إن نوى القارىء بقراءته أن يكون ثوابها للميت لم يلحقه، لكن لو قرأ ثم جعل ما حصل من الأجر له، فهذا دعاء بحصول ذلك الأجر للميت فينتفع الميت.

قال النووي في زيادات الروضة: ظاهر كلام القاضي حسين صحة الإجارة مطلقاً وهو المختار، فإن موضع القراءة موضع بركة وتنزل الرحمة. وهذا مقصود: ينتفع الميت.

وقال الرافعي وتبعه النووي في الوصية: الذي يعتاد من قراءة القرآن على رأس القبر قد ذكرنا في باب الإجارة طريقين في عودة فائدتها إلى الميت. وعن القاضي أبي الطيب طريق ثالث: وهو أن الميت كالحي الحاضر، فترجى له الرحمة ووصول البركة إذ أهدى الثواب له القارىء.

وقال الشالوسي: إذا نوى بقراءته أن يكون ثوابها للميت لم يلحقه، إذ جعل ذلك قبل حصوله، وتلاوته عبادة البدن فلا تقع عن الغير، وإن قرأ ثم جعل ما حصل من الثواب للميت ينفعه، إذ قد جعل من الأجر لغيره، والميت يؤجر بدعاء الغير. لكن إطلاق أن الدعاء ينفع الميت، اعترض عليه بعضهم بأنه موقوف على الإجابة. ويمكن أن يقال: الدعاء للميت مستجاب ـ كما أطلقوا ـ اعتماداً على سعة فضل الله.

وقال الرافعي وتبعه النووي: يستوي في الصدقة والدعاء، الوارث والأجنبي. قال الشافعي: وفي وسع الله أن يثيب المتصدق أيضاً.

وقال الأصحاب: يستحب أن ينوي المتصدق الصدقة عن أبويه، فإن الله ينيلهما الثواب ولا ينقص من أجره شيئاً.

وذكر صاحب العدة: أنه لو أنبط عيناً أو حفر بئراً، أو غرس شجراً، أو وقف مصحفاً في حال حياته، أو فعل غيره بعد موته، يلحق الثواب بالميت.

وقال الرافعي والنووي: إن هذه الأمور إذا صدرت عن الحي فهي صدقات جارية يلحقه ثوابها بعد الموت، كما ورد في الخبر، ولا يختص الحكم بوقف المصحف، بل يلحق به كل وقف، وهذا القياس يقتضي جواز التضحية عن الميت، فإنها ضرب من الصدقة، لكن في التهذيب: أنه لا تجوز التضحية عن الغير بغير أمره، وكذا عن الميت إلا أن يكون أوصى به.

وقد روي عن علي أو غيره من الصحابة أنه كان يضحي عن النبي ﷺ بعد موته، وعن أبي محمد بن إسحاق السراج قال: ضحيت عن النبي ﷺ سبعين أضحية.

وأما إهداء القراءة إلى رسول الله ﷺ فلا يعرف فيه خبر ولا أثر، وقد أنكره جماعة

منهم الشيخ برهان الدين بن الفركاح لأن الصحابة لم يفعله أحد منهم.

وحكى صاحب «الروح»: أن من الفقهاء المتأخرين من استحبه، ومنهم من رآه بدعة، قالوا: والنبي ﷺ غني عن ذلك، فإن له أجر كل من عمل خيراً من أمته من غير أن ينقص من أجر العامل شيء.

قال الشافعي: ما من خير يعمله أحد من أمة النبي ﷺ إلا والنبي ﷺ أصل فيه.

قال في تحقيق النصرة: فجميع حسنات المسلمين وأعمالهم الصالحة في صحائف نبينا ﷺ زيادة على ما له من الأجر، مع مضاعفة لا يحصرها إلا الله تعالى، لأن كل مهتد وعامل إلى يوم القيامة يحصل له أجر، ويتجدد لشيخه مثل ذلك الأجر ولشيخ شيخه مثلاه، وللشيخ الثالث أربعة، وللرابع ثمانية وهكذا تضعيف كل مرتبة بعدد الأجور الحاصلة بعده الى النبي ﷺ.

وبهذا يعلم تفضيل السلف على الخلف. فإذا فرضت المراتب عشرة بعد النبي ﷺ، كان للنبي ﷺ من الأجر ألف وأربعة وعشرون، فإن اهتدى بالعاشر حادي عشر صار أجر النبي ﷺ ألفين وثمانية وأربعون، وهكذا كلما ازداد واحد يضاعف ما كان قبله أبداً، كما قال بعض المحققين، انتهى. ولله در القائل، وهو سيدي محمد وفا:

فلا حسن إلا من محاسن حسنه ولا محسن إلا له حسناته

وبهذا يجاب عن استشكال دعاء القارىء له ﷺ بزيادة التشريف مع العلم بكماله عليه الصلاة والسلام في سائر أنواع الشرف. فكأن الداعي لحظ أن قبول قراءته يتضمن لمعلمه نظير أجره، وهكذا حتى يكون للمعلم الأول ـ وهو الشارع ﷺ ـ نظير جميع ذلك.

ومن ذلك ما شرع عند رؤية الكعبة من قولهم: اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً، فثمرة الدعاء بذلك عائدة إلى الداعي، لاشتماله على طلب قبول القراءة، وهذا كما قالوا في الصلاة عليه ـ زاده شرفاً لديه ـ إن ثمرتها عائدة على المصلي، أشار لنحوه الحافظ ابن حجر.

● ومن خصائص هذه الأمة أنهم يدخلون الجنة قبل سائر الأمم. رواه الطبراني ـ في الأوسط ـ من حديث عمر بن الخطاب مرفوعاً: «حرمت الجنة على الأنبياء حتى أدخلها، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي»[١].

● ومنها: أنه يدخل منهم الجنة سبعون ألفاً بغير حساب رواه الشيخان، وعند

---

(١) الحديث في تذكرة الموضوعات للفتني (٢١٥) وفي كنز العمال (٣٢٠٤٩).

الطبراني والبيهقي في الشعب: «إن ربي وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفاً لا حساب عليهم، وإني سألت ربي المزيد فأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً»[1].

وبالجملة: فقد اختصت هذه الأمة بما لم يعطه غيرها من الأمم تكرمة لنبيها ﷺ وزيادة في شرفه، وتفصيل فضلها وخصائصها يستدعي سفراً بل أسفاراً، وذلك فضل الله، يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/٥٦٧ والطبراني في المعجم الكبير ١٧/١٢٧ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢١٠٤ ـ ٣٢١٠٦).

الإسراء والمعراج

المقصد الخامس: في تخصيصه ﷺ بخصائص المعراج والإسراء، وتعميمه بلطائف التكريم في حضرة التقريب بالمكالمة والمشاهدة والآيات الكبرى.

اعلم ـ منحني الله وإياك الترقي في معارج السعادات، وأوصلنا به إليه في حظائر الكرامات ـ أن قصة الإسراء والمعراج من أشهر المعجزات، وأظهر البراهين البينات، وأقوى الحجج المحكمات، وأصدق الأنباء، وأعظم الآيات، وأتم الدلالات الدالة على تخصيصه ﷺ بعموم الكرامات.

وقد اختلف العلماء في الإسراء هل هو إسراء واحد في ليلة واحدة؟ يقظة أو مناماً؟ أو إسراءان كل واحد في ليلة، مرة بروحه وبدنه يقظة، ومرة مناماً، أو يقظة بروحه وجسده؟ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم مناماً من المسجد الأقصى إلى العرش، أو هي أربع إسراءات؟

● احتج القائلون بأنه رؤيا منام ـ مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء وحي ـ بقوله تعالى: ﴿وما جعلنا الرُّءيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ [الإسراء: ٦٠]، لأن الرؤيا مصدر الحُلميَّة، وأما البصرية: فالرؤية بالتاء، وقد أنكر ابن مالك والحريري وغيرهما ـ كما أفاده الشيخ بدر الدين الزركشي ـ ورود «الرؤيا» للبصرية، ولحنوا المتنبي في قوله:

ورؤياك أحلى في العيون من الغمض

وأجيب: بأنه إنما قال «الرؤيا» لوقوع ذلك في الليل، وسرعة تقضيه كأنه منام، وبأن «الرؤيا» و «الرؤية» واحدة كقربى وقربة، ويشهد له قول ابن عباس في الآية ـ كما عند البخاري ـ: هي رؤيا عين أريها ﷺ ليلة أسري به. وزاد سعيد بن منصور عن سفيان في آخر الحديث: وليس رؤيا منام. ولم يصرح في رواية البخاري بالمرئي.

وعند سعيد بن منصور أيضاً من طريق أبي مالك قال: هو ما أري في طريقه إلى بيت المقدس وهذا مما يستدل به على إطلاق لفظ «الرؤيا» على ما يرى بالعين في اليقظة.

وهو يرد على من خطأ المتنبي. على أنه اختلف المفسرون في هذه الآية، فقيل: أي الرؤيا التي أريناك ليلة المعراج. قال البيضاوي ففسر الرؤيا بالرؤية. وقيل: رؤيا عام الحديبية، حين رأى أنه دخل مكة فصده المشركون وافتتن بذلك ناس. وقيل: رؤيا وقعة بدر. وسأل ابن النقبب شيخه أبا العباس القرطبي[1] عن الآية فقال: الصحيح أنها رؤية عين يقظة، أراه جبريل مصارع القوم ببدر، فأري النبي ﷺ الناس مصارعهم التي أراه جبريل، فتسامعت به قريش واستسخروا منه. انتهى.

● واحتج القائلون بأنه رؤيا منام أيضاً بقول عائشة: «ما فقدت جسده الشريف».

وأجيب: بأن عائشة لم تحدث به عن مشاهدة، لأنها لم تكن إذ ذاك زوجاً، ولا في سن من يضبط، أو لم تكن ولدت بعد على الخلاف في الإسراء متى كان. وقال التفتازاني: أي ما فقد جسده عن الروح، بل كان مع روحه، وكان المعراج للجسد والروح جميعاً. انتهى.

● واحتج القائلون بأنه بالجسد يقظة إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح، بقوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ [الإسراء: ١]، فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء الذي وقع التعجب به بعظيم القدرة، والتمدح بتشريف النبي ﷺ به، وإظهار الكرامة له بالإسراء. قالوا: ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فيكون أبلغ بالمدح.

وأجيب: بأن حكمة التخصيص بالمسجد الأقصى سؤال قريش له عنه على سبيل الامتحان عما شاهدوه وعرفوه من صفة بيت المقدس، وقد علموا أنه لم يسافر إليه، فيجيبهم بما عاين ويوافق ما يعلمونه، فتقوم الحجة عليهم، وكذلك وقع، ولهذا لم يسألوه عما رأى في السماء، إذ لا عهد لهم بذلك. وقال النووي في فتاويه: وكان الإسراء به ﷺ مرتين: مرة في المنام، ومرة في اليقظة.

وذكر السهيلي تصحيح هذا المذهب عن شيخه القاضي أبي بكر ابن العربي، وأن مرة النوم توطئة له وتيسير عليه، كما كان بدء نبوته الرؤيا الصادقة ليسهل عليه أمر النبوة، فإنه أمر عظيم تضعف عنه القوى البشرية، وكذلك الإسراء قد سهله الله عليه بالرؤيا، لأن هوله عظيم، فجاء في اليقظة على توطئة وتقدمة، رفقاً من الله بعبده وتسهيلاً عليه.

وقد جوز بعض قائلي ذلك أن تكون قصة المنام قبل المبعث، لأجل قول شريك

---

(١) هو أحمد بن عمر بن إبراهيم أبو العباس الأنصاري القرطبي (٥٧٨ ـ ٦٥٦ هـ) فقيه محدث يعرف بابن المزين توفي بالإسكندرية. الاعلام ١/١٨٦ نفح الطيب ٢/٦٤٣.

في رواية: «وذلك قبل أن يوحى إليه». واستشهدوا له بقول عائشة رضي الله عنها: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلى جاءت كفلق الصبح[1] وسيأتي البحث في ذلك إن شاء الله تعالى.

● واحتج القائلون بأنه أربع إسراءات يقظة بتعدد الروايات في الإسراء، واختلاف ما يذكر فيها، فبعضهم يذكر شيئاً لم يذكره الآخر، وبعضهم يسقط شيئاً ذكره الآخر.

وأجيب: بأنه لا يدل على التعدد، لأن بعض الرواة قد يحذف بعض الخبر للعلم به، أو ينساه. وقال الحافظ ابن كثير: من جعل كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب، ولم يحصل على مطلب. ولم ينقل ذلك عن أحد من السلف. ولو تعدد هذا التعدد لأخبر ﷺ به أمته، ولنقله الناس على التعدد والتكرار. انتهى.

وقد وقع في رواية عبثر بن القاسم - بموحدة ثم مثلثة بوزن جعفر - في رواية عن حصين بن عبد الرحمن، عند الترمذي والنسائي: لما أسري برسول الله ﷺ جعل يمر بالنبي ومعه الواحد، الحديث. فإن كان ذلك محفوظاً كان فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الإسراء، وأن الذي وقع بالمدينة أيضاً غير الذي وقع بمكة.

قال في فتح الباري: والذي يتحرر في هذه المسألة أن الإسراء الذي وقع بالمدينة ليس فيه ما وقع بمكة، من استفتاح أبواب السماء باباً باباً، ومن التقاء الأنبياء كل واحد في سماء، ولا المراجعة معهم، ولا المراجعة مع موسى فيما يتعلق بفرض الصلاة، ولا في طلب تخفيفها وسائر ما يتعلق بذلك. وإنما تكررت قضايا كثيرة سوى ذلك رآها ﷺ فمنها بمكة البعض، ومنها بالمدينة بعد الهجرة البعض، ومعظمها في المنام والله أعلم. انتهى.

وقال بعض العارفين: إن له ﷺ أربعة وثلاثين مرة، الذي أسري به منها إسراء واحد بجسمه، والباقي بروحه رؤيا رآها. انتهى. فالحق: أنه إسراء واحد، بروحه وجسده يقظة، في القصة كلها. إلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك، إذ ليس في العقل ما يحيله. قال الرازي: قال أهل التحقيق: الذي يدل على أنه تعالى أسرى بروح محمد ﷺ وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى القرآن والخبر: أما القرآن فهو

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب (٣) رقم الحديث (٤٩٥٦) ومسلم كتاب الايمان رقم (٢٥٢ - ٢٥٤) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦/١٥٣ و ٢٣٢.

قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ [الإسراء: ١]، وتقرير الدليل: أن «العبد» اسم للجسد والروح، فوجب أن يكون الإسراء حاصلاً بجميع الجسد والروح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى﴾ [العلق: ٩-١٠] ولا شك أن المراد هنا مجموع الروح والجسد، وأيضاً: قال سبحانه وتعالى في سورة الجن: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾ [الجن: ١٩]، والمراد: مجموع الروح والجسد وكذا هاهنا، انتهى.

واحتجوا أيضاً: بظاهر قوله ﷺ: «أسري بي» لأن الأصل في الأفعال أن تحمل على اليقظة حتى يدل دليل على خلافه. وبأن ذلك لو كان مناماً لما كان فيه فتنة للضعفاء، ولا استبعده الأغبياء. وبأن الدواب لا تحمل الأرواح وإنما تحمل الأجسام، وقد تواترت الأخبار بأنه أسري به على البراق. فإن قلت: ما الحكمة في كونه تعالى جعل الإسراء ليلاً؟

أجيب: بأنه إنما جعله ليلاً تمكيناً للتخصيص بمقام المحبة، لأنه تعالى اتخذه ﷺ حبيباً وخليلاً، والليل أخص زمان للمحبين لجمعهما فيه، والخلوة بالحبيب متحققة بالليل(١). قال ابن المنير: ولعل تخصيص الإسراء بالليل ليزداد الذين آمنوا إيماناً بالغيب وليفتتن الذين كفروا زيادة على فتنتهم. إذ الليل أخفى حالاً من النهار، قال: ولعله لو عرج به نهاراً لفات المؤمن فضيلة الإيمان بالغيب، ولم يحصل ما وقع من الفتنة على من شقي وجحد، انتهى.

وفي ذلك حكمة أخرى على طريقة أهل الإشارات، ذكرها العلامة ابن مرزوق، وهي: أنه قيل لأن الله تعالى لما محا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة انكسر قلب الليل، فجبر بأن أسري فيه بمحمد ﷺ. وقيل: افتخر النهار على الليل بالشمس فقيل له: لا تفتخر، إن كانت شمس الدنيا تشرق فيك فسيعرج شمس الوجود في الليل إلى السماء. وقيل: لأنه ﷺ سراج، والسراج إنما يوقد بالليل، وأنشد:

قلت يا سيدي تؤثر الليـ ـل على بهجة النهار المنير
قال لا أستطيع تغيير رسمي هكذا الرسم في طلوع البدور
إنما زرت في الظلام لكيما يشرق الليل من أشعة نوري

فإن قلت: أيما أفضل، ليلة الإسراء أو ليلة القدر؟ فالجواب: ـ كما قاله الشيخ أبو أمامة بن النقاش ـ أن ليلة الإسراء أفضل في حق النبي ﷺ، وليلة القدر أفضل في حق

---

(١) هذا التعليل غير مقنع كما أنه لا يليق بالله عز وجل فإنه تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾.

الأمة، لأنها لهم خير من عمل في ثمانين سنة لمن قبلهم، وأما ليلة الإسراء فلم يأت في أرجحية العمل فيها حديث صحيح ولا ضعيف. ولذلك لم يعينها النبي ﷺ لأصحابه، ولا عينها أحد من الصحابة بإسناد صحيح، ولا صح إلى الآن ولا إلى أن تقوم الساعة فيها شيء، ومن قال فيها شيئاً فإنما قاله من كيسه لمرجح ظهر له استأنس به، ولهذا تصادمت الأقوال فيها وتباينت، ولم يثبت الأمر فيها على شيء، ولو تعلق بها نفع للأمة - ولو بذرة - لبينه لهم نبيهم ﷺ، انتهى.

فإن قلت: هل وقع الإسراء لغيره ﷺ من الأنبياء؟ أجاب العارف عبد العزيز المهدوي: بأن مرتبة الإسراء بالجسم إلى تلك الحضرات العلية لم تكن لأحد من الأنبياء، إلا لنبينا ﷺ. انتهى.

وإنما قال تعالى: ﴿أسرى بعبده﴾ [الإسراء: ١] إشارة إلى أنه تعالى هو المسافر به، ليعلم أن الإسراء من عنده عز وجل هبة إلهية، وعناية ربانية، سبقت له ﷺ مما لم يخطر بسره، ولا اختلج في ضميره.

وأدخل «باء» المصاحبة في قوله تعالى: ﴿بعبده﴾ [الإسراء: ١] ليفيد أنه تعالى صحبه في مسراه، صحبة بالألطاف والعناية والإسعاف والرعاية، ويشهد له قوله ﷺ: «اللهم أنت الصاحب في السفر»[(١)].

وتأمل قوله تعالى: ﴿يسيركم في البر والبحر﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله ﴿أسرى بعبده﴾ [الإسراء: ١] يلح لك خصوصية مصاحبة الرسول ﷺ للحق دون عموم الخلق.

وقرن سبحانه وتعالى «التسبيح» بهذا المسرى، لينفي بذلك عن قلب صاحب الوهم ومن يحكم عليه خياله من أهل التشبيه والتجسيم ما يتخيله في حق الحق تعالى من الجهة والحد والمكان، ولذا قال: ﴿لنريه من آياتنا﴾ [الإسراء: ١] يعني ما رأى في تلك الليلة من عجائب الآيات، كأنه تعالى يقول: ما أسريت به إلا لنريه الآيات، لا «إلي» فإنه لا يحدني مكان، ونسبة الأمكنة إلي نسبة واحدة، فكيف أسري به إلي، وأنا عنده، وأنا معه أينما كان. ولله در القائل:

سبحان من أسرى إليه بعبده ... ليرى الذي أخفاه من آياته
كحضوره في غيبه وكسكره ... في صحوه والمحو في إثباته

(١) أخرجه أبو داود برقم (٢٥٩٨) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/٢٥٦ و ٥/٨٣ والحاكم في المستدرك ٢/٩٩ والبيهقي في السنن الكبرى ٥/٢٥٢ والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٢٩ وفي موارد الظمآن (٢٣٥٠) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٥-١٧٦١٦-١٧٦٣٦).

ويــرى الــذي عنــه تكــون ســره	فــي صنعــه إن شــاءه وهبــاتــه
ويــريــه مــا أسـدى لــه مــن جــوده	بــوجــوده والفقــد مــن هيئــآتــه
سبحــانــه مــن سيــد ومهيمــن	فــي ذاتــه وسمــاتــه وصفــاتــه

وأكده تعالى بقوله: ﴿ليلاً﴾ [الإسراء: ١] مع أن الإسراء لا يكون في اللسان العربي إلا ليلاً، لا نهاراً، ليرتفع الإشكال حتى لا يتخيل أنه أسري بروحه فقط، ويزيل من خاطر من يعتقد أن الإسراء ربما يكون نهاراً، فإن القرآن ـ وإن كان نزل بلغة العرب ـ فإنه خاطب به الناس أجمعين، أصحاب اللسان وغيرهم.

وقال البيضاوي تبعاً لصاحب الكشاف: وفائدته الدلالة بتنكيره على تقليل مدة الإسراء، ولذلك قرىء «من الليل» أي بعضه: كقوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ [الإسراء: ٧٩] وتعقبه القطب في حاشيته على الكشاف كما نبهت عليه في حاشية الشفاء.

والمعاريج ليلة الإسراء عشرة، سبع إلى السماوات، والثامن إلى سدرة المنتهى. والتاسع إلى المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام في تصاريف الأقدار، والعاشر إلى العرش والرفرف والرؤية وسماع الخطاب بالمكافحة والكشف الحقيقي.

وقد وقع له ﷺ في سني الهجرة العشرة ما كان فيه مناسبات لطيفة لهذه المعاريج العشرة، ولهذا ختمت سني الهجرة بالوفاة، وهي لقاء الحق جل جلاله، والانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، والعروج بالروح الكريمة إلى المقعد الصدق، وإلى الموعد الحق وإلى الوسيلة، وهي المنزلة الرفيعة. كما ختمت معاريج الإسراء باللقاء والحضور بحظيرة القدس.

وقد أفاد الإمام الذهبي أن الحافظ عبد الغني جمع أحاديث الإسراء في جزأين، ولم يتيسر لي الوقوف عليهما بعد الفحص. وقد صنف الشيخ أبو إسحاق النعماني ـ رحمه الله ـ في الإسراء والمعراج كتاباً جامعاً للأطناب بزيادة الرقائق والإشحان بفواضل الحقائق، ولم أقف عليه حالة كتابتي هذا المقصد الشريف.

ويرحم الله تعالى شيخ الإسلام والحفاظ الشهاب ابن حجر العسقلاني، فإنه قد جمع في كتابه «الفتح» كثيراً مما تشتت من طرق حديث الإسراء وغيره من الأحاديث، مع تدقيق مباحث فقهية، والكشف عن أسرار معاني كلمه وبدائع ألفاظه وحكمه. وكل من صنف في شيء من المنح النبوية، والمناقب المحمدية لا يستغني عن استجناء معارف اللطائف من رياض «عياض» والاستشفاء من أدواء المشكلات بدواء «شفائه» المبرىء

لمعضل الأمراض[1]. فالله تعالى يفيض عليه وعلى سائر علماء هذه الأمة سجال رحمته ورضوانه ويسكننا معهم في بحبوحة جناته.

وقد وردت أحاديث الإسراء من حديث أنس، وأبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وبريدة، وسمرة بن جندب، وابن عباس، وابن عمر، وابن مسعود، وابن عمرو، وحذيفة ابن اليمان، وشداد بن أوس، وصهيب، وعلي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، ومالك ابن صعصعة، وأبي أمامة، وأبي أيوب، وأبي حبة، وأبي ذر، وأبي سعيد الخدري، وأبي سفيان بن حرب، وأبي هريرة، وعائشة، وأسماء بنت أبي بكر، وأم هانيء، وأم سلمة، وغيرهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وفي تفسير الحافظ ابن كثير من ذلك ما يكفي ويشفي. وبالجملة: فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة الملحدون، ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ [الصف: ٨].

وقد روى البخاري، عن قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به [قال]:

(بينما أنا نائم في الحطيم ـ وربما قال: في الحِجر ـ مضطجعاً، إذ أتاني آت فقدَّ ـ قال: سمعته يقول: فشق ـ ما بين هذه إلى هذه. قال: فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته. فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً، فغسل قلبي، ثم حشي ثم أعيد.

ثم أتيت بدابة، دون البغل وفوق الحمار أبيض ـ فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم ـ يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قال: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل مرحباً به، فنعم المجيء جاء ففتح لنا، فلما خلصت إذا بيحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت فردا ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/١٧٦.

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه، فسلمت عليه فرد، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ والنبي الصالح، فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي.

ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه، قال: فسلمت عليه، فرد السلام، فقال: مرحباً بالإبن الصالح والنبي الصالح.

ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران: فالنيل والفرات.

ثم رفع إلي البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فاخترت اللبن، فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك.

ثم فرضت علي الصلاة، خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى، فقال: بم أمرت؟ قال: فقلت أمرت بخمسين، صلاة كل يوم، قال: أن أمتك لا تسطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضىٰ وأسلم. قال: فلما جاوزت ناداني مناد: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي)[١].

وفي رواية له: (ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري ثم أطبقه)[٢].

وفي رواية شريك: (فحشا به صدره ولغاديده)[٣] وهي بلام مفتوحة وغين معجمة، أي عروق حلقه، وفي النهاية: جمع لغدوده: وهي لحمة مشرفة عند اللهاة.

والشك في قوله: «ربما قال في الحجر» من قتادة، كما بينه أحمد عن عفان، ولفظه: (بينما أنا في الحطيم، وربما قال قتادة: في الحجر). والمراد بالحطيم هنا: الحجر.

ووقع عند البخاري في أول بدء الخلق بلفظ (بينما أنا عند البيت)[٤] وهو أعم. وفي رواة الزهري عن أنس عن أبي ذر (فرج سقف بيتي وأنا بمكة)[٥]. وفي رواية الواقدي بأسانيده: أنه أسري به من شعب أبي طالب.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار باب (٤٢) رقم الحديث (٣٨٨٧) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢٠٨/٤ وابن عبد البر في التمهيد ٣٨/٨ والبغوي في شرح السنة ٣٣٧/١٣ والسيوطي في الدر المنثور ١٤٠/٤ والبيهقي في دلائله ٣٧٧/٢ وابن الجوزي في المنتظم ٢٦/٣ وابن كثير في البداية والنهاية ١١٤/٣.

(٢) الحديث في البخاري برقم (٣٤٩).

(٣) أيضاً الحديث في البخاري برقم (٧٥١٧).

(٤) الحديث في البخاري برقم (٣٢٠٧).

(٥) فى البخاري برقم (٣٤٩).

وفي حديث أم هانىء ـ عند الطبراني ـ أنه بات في بيتها، قالت: ففقدته من الليل، فقال: «إن جبريل أتاني».

والجمع بين هذه الأقوال ـ كما في فتح الباري ـ أنه بات في بيت أم هانىء، وبيتها عند شعب أبي طالب، ففرج سقف بيته، وأضاف البيت إليه لكونه كان يسكنه، فنزل منه الملك فأخرجه من البيت إلى المسجد، فكان به مضطجعًا وبه أثر النعاس، ثم أخذه الملك فأخرجه من المسجد، فأركبه البراق. قال: وقد وقع في مرسل الحسن عند ابن إسحاق أن جبريل أتاه فأخرجه إلى المسجد فأركبه البراق، وهو يؤيد هذا الجمع.

فإن قيل: لم فرج سقف بيته ﷺ ونزل منه الملك، ولمّ لم يدخل عليه من الباب، مع قوله تعالى: ﴿وائتوا البيوت من أبوابها﴾ [البقرة: ١٨٩].

أجيب: بأن الحكمة من ذلك أن الملك أنصب من السماء انصبابة واحدة، ولم يعرج على شيء سواه، مبالغة في المفاجأة، وتنبيهًا له على أن الطلب وقع على غير ميعاد، كرامة لهﷺ.

وهذا بخلاف موسى عليه الصلاة والسلام، فكانت كرامته بالمناجاة عن ميعاد واستعداد بخلاف نبينا ﷺ فإنه حمل عنه ألم الإنتظار، كما حمل عنه ألم الإعتذار. ويؤخذ من هذا: أن مقام نبينا ﷺ بالنسبة إلى مقام موسى عليه السلام مقام المراد بالنسبة إلى مقام المريد. ويحتمل أن يكون توطئة وتمهيداً لكونه فرج عن صدره، فأراه الملك بإفراجه عن السقف ثم التأم السقف على الفور كيفية ما يصنع به، وقرب له الأمر في نفسه بالمثال المشاهد في بيته، لطفاً في حقهﷺ وتثبيتاً لصبره، والله أعلم.

●وقوله: (مضطجعاً) زاد في بدء الخلق (بين النائم واليقظان) وهو محمول على ابتداء الحال، ثم لما خرج به إلى باب المسجد فأركبه البراق، استمر في يقظته.

●وأما ما وقع في رواية شريك عنده أيضاً (فلما استيقظت) فإن قلنا بالتعدد فلا إشكال، وإلا حمل على أن المراد استيقظت: أفقت، يعني أنه أفاق مما كان فيه من شغل البال بمشاهدة الملكوت ورجع إلى العالم الدنيوي، فالمراد: الإفاقة البشرية من الغمرة الملكية.

● وقوله: (إذ أتاني آت) هو جبريل عليه السلام، وفي رواية شريك (أنه جاءه ثلاثة نفر، قبل أن يوحى إليه، وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ قال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم رئّانت تلك الليلة ـ أي كانت القصة الواقعه تلك الليلة ما ذكر هنا ـ فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه

ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلم يكلموه حتى احتملوه. . .).

وقد أنكر الخطابي قوله: (قبل أن يوحى إليه) وكذا القاضي عياض والنووي، وعبارة النووي: وقع في رواية شريك ـ يعني هذه ـ أوهام أنكرها العلماء، أحدها قوله: (قبل أن يوحى إليه) وهو غلط فلم يوافق عليه، وأجمع العلماء على أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء، فكيف يكون قبل الوحي. انتهى. فقد صرح هؤلاء بأن شريكاً تفرد بذلك.

لكن قال الحافظ ابن حجر: في دعوى التفرد نظر، فقد وافقه كثير بن خنيس ـ بالمعجمة ونون مصغراً ـ عن أنس، كما أخرجه سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في كتاب المغازي له من طريقه. قال: ولم يقع التعيين بين المجيئين، فيحمل على أن المجيء الثاني كان بعد الوحي، وحينئذٍ وقع الإسراء والمعراج. وإذا كان بين المجيئين مدة فلا فرق بين أن تكون تلك المدة ليلة واحدة أو ليالي أو عدد سنين وبهذا يرتفع الإشكال من رواية شريك، ويحصل به الوفاق أن الإسراء كان في اليقظة بعد البعثة وقبل الهجرة وسقط تشنيع الخطابي وغيره بأن شريكاً خالف الإجماع في دعواه أن المعراج كان قبل البعثة، وأقوى ما يستدل به على أن المعراج كان بعد البعثة، قوله في هذا الحديث نفسه: أن جبريل قال لبواب السماء إذ قال له: أبعث؟ قال: نعم، فإنه ظاهر في أن المعراج كان بعد البعثة.

● ووقع في رواية ميمون بن سياه ـ عند الطبراني ـ: فأتاه جبريل وميكائيل، فقالا: أيهم؟ وكانت قريش ينام حول الكعبة، فقال: أمرنا بسيدهم، ثم ذهبا، ثم جاؤوه وهم ثلاثة. وفي رواية مسلم: سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأتيت فانطلق بي. والمراد بالرجلين: حمزة وجعفر وكان النبي ﷺ نائماً بينهما.

● وقوله: «فقد» بالقاف والدال المهملة الثقيلة. «من ثغره» بضم المثلثة وسكون الغين المعجمة، وهو الموضع المنخفض الذي بين الترقوتين. «إلى شعرته» بكسر الشين المعجمة، أي شعر العانة الشريفة. وفي رواية مسلم: إلى أسفل بطنه. وفي رواية البخاري: إلى مراق البطن. وفي رواية شريك ـ عنده ـ: فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته ـ بفتح اللام وتشديد الموحدة ـ وهو موضع القلادة من الصدر.

وقد أنكر القاضي عياض في «الشفاء» وقوع شق صدره الشريف ليلة الإسراء، وقال: إنما كان وهو صبي قبل الوحي في بني سعد. ولا إنكار في ذلك ـ كما قاله الحافظ أبو الفضل العسقلاني رحمه الله ـ فقد تواترت الروايات به، وثبت شق الصدر أيضاً عند البعثة، كما أخرجه أبو نعيم في الدلائل، ولكل منها حكمة:

فالأول: وقع فيه من الزيادة كما عند مسلم من حديث أنس: فأخرج علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك. وكان هذا في زمن الطفولية، فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان. ولعل هذا الشق كان سبباً في إسلام قرينه المروي عند البزار من حديث ابن عباس. ويحتمل أن يكون إشارة إلى حظ الشيطان المباين كالعفريت الذي أراد أن يقطع عليه صلاته وأمكنه الله منه.

وأما شق الصدر عند المبعث، فلزيادة الكرامة، وليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي على أكمل الأحوال من التطهير.

وأما شقه عند إرادة العروج إلى السماء، فللتهيؤ للترقي إلى الملأ الأعلى، والثبوت في المقام الأسنىٰ، والتقوي لاستجلاء الأسماء الحسنىٰ، ولهذا لما لم يتفق لموسى عليه الصلاة والسلام مثل هذا التهيؤ لم تتفق له الرؤية، وكيف يثبت الرجل لما لا يثبت له الجبل؟! ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل، لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة، كما تقرر في شرعه ﷺ. ثم إن جميع ما ورد من شق الصدر، واستخراج القلب، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته، لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك.

قال العارف ابن أبي جمرة: فيه دليل على أن قدرة الله عز وجل لا يعجزها ممكن، ولا تتوقف لعدم شيء ولا لوجوده، وليست مربوطة بالعادة إلا حيث شاءته القدرة، لأنه ما يعهد ويعرف أن البشر مهما شق بطنه كله وانجرح القلب مات ولم يعش، وهذا النبي ﷺ قد شق بطنه المكرمة، حتى أخرج القلب فغسل، وقد شق بطنه كذلك أيضاً وهو صغير وشق قلبه وأخرجت منه نزغة الشيطان. ومعلوم أن القلب هما وصل له الجرح مات صاحبه، وهذا النبي ﷺ شق بطنه في هاتين المرتين، ولم يتألم بذلك، ولم يمت لما أن أراد الله تعالى أن لا يؤثر ما أجرى به العادة، أن يؤثر موت صاحبها، فأبطل تلك العادة. وقد رمي إبراهيم عليه الصلاة والسلام في النار فلم تحرقه، وكانت عليه برداً وسلاماً. انتهى.

وقد حصل من شق صدره الكريم إكرامه ﷺ بتحقيق ما أوتي من الصبر، فهو من جنس ما أكرم به إسماعيل الذبيح بتحقيق صبره على مقدمات الذبح شداً وكتفاً وتلاً للجبين، وإهواء بالمدية إلى المنحر فقال: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ [الصافات: ١٠٢]، ووفى بما وعد الله، فأكرمه الله بالثناء على صبره إلى الأبد.

ولا مرية أن الذي حصل من صبر نبينا ﷺ على شق الصدر أشق وأجل، لأن تلك مقدمات وهذه نتيجة، وتلك معاريض وهذه حقيقة، والمنحر مقتل وما أصابه من

إسماعيل إلا صورة القتل لا فعله، وشق صدر نبينا ﷺ واستخراج قلبه ثم شقه ثم كذا ثم كذا مقاتل عديدة وقعت كلها، ولكن انخرقت العادة ببقاء الحياة، فهذا الإبتلاء أعظم من ابتلاء الذبيح بما ذكر.

فإن قلت: إنما يتحقق الصبر لو كان هناك مشقة، فلعل العادة لما انخرقت في إبقاء الحياة انخرقت في رفع المشاق وحمل الآلام.

أجيب بأنه ورد في حديث شق صدره: فأقبل وهو منتقع اللون أو ممتقع اللون، بالميم بدل النون، وهو يدل على أن الصبر على مشقة المعاجلة المذكورة محقق. قال القاضي عياض: وأصل «انتقع» صار كلون النقع، والنقع الغبار، وهو شبيه بلون الأموات، وهذا يدل على غاية المشقة. وأما قول ابن الجوزي: فشقه وما شق عليه، فيحمل على أنه صبر صبر من لا يشق عليه. انتهى.

وكذلك الإبتلاء أيضاً من حيث السن، فإن ذلك وقع لنبينا ﷺ بعيد ما فطم، وأيضاً: فإنه كان منفرداً عن أمه ويتيماً من أبيه، واختطف من بين الأطفال، وفعل به ما فعل من الأفعال تسهيلا لما يلقاه في المآل، وتعظيماً لما يناله على الصبر من الثواب والثناء، ولهذا لما شج وجرح وكسرت رباعيته قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1]، زاده الله شرفاً. وقوله «ثم أتيت بطست من ذهب» إنما أتي بالطست لأنه أشهر آلات الغسل عرفًا.

فإن قلت: إن استعمال الذهب حرام في شرعه ﷺ فكيف استعمل الطست الذهب هنا؟

أجاب العارف ابن أبي جمرة: بأن تحريم الذهب إنما هو لأجل الإستمتاع به في هذه الدار، وأما في الآخرة فهو للمؤمنين خالصاً، لقوله ﷺ: «هو لهم في الدنيا وهو لنا في الآخرة» قال: ثم إن الإستمتاع بهذا الطست لم يحصل منه ﷺ وإنما كان غيره هو السائق له والمتناول لما كان فيه حتى وضعه في القلب المبارك. فسوقان الطست المبارك من هناك، وكونه كان من ذهب دال على ترفيع المقام فانتفى التعارض بدليل ما قررناه. انتهى.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ٤٤١ والطحاوي في مشكل الآثار ٣/ ١٨٩ والعراقي في المغني ١/ ٣١٣ ٣/ ٦٨ و ٢٨٣ والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٩٥ والطبراني في المعجم الكبير ٦/ ١٤٦ والزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٥/ ٥٤ و ٧/ ٩٣ والقاضي عياض في الشفاء ١/ ١٠٥ والبيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢١٥ والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٩٨٨٣ ـ ٣٥٥٦٣).

وتعقبه الحافظ ابن حجر: بأنه لا يكفي أن يقال: إن المستعمل له ممن لم يحرم عليه ذلك من الملائكة، لأنه لو كان قد حرم عليه استعماله لتنزه أن يستعمله غيره في أمر يتعلق ببدنه المكرم. ويمكن أن يقال: إن تحريم استعماله مخصوص بأحوال الدنيا، وما وقع في تلك الليلة كان الغالب أنه من أحوال الغيب، فيلحق بأحوال الآخرة، أو لعل ذلك قبل أن يحرم استعمال الذهب في هذه الشريعة. ويظهر ها هنا مناسبات: منها أنه من أواني الجنة، ومنها أنه لا تأكله النار ولا التراب، وأنه لا يلحقه الصدأ، ومنها أنه أثقل الجواهر فناسب قلبه ﷺ لأنه من أواني أحوال الجنة، ولا تأكله النار ولا التراب، وإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، ولا يلحقه الصدأ، وأنه أثقل من كل قلب عدل به، وفيه مناسبة أخرى وهي ثقل الوحي فيه. انتهى.

قلت: قوله: «ولعل ذلك قبل أن يحرم استعمال الذهب في هذه الشريعة». قد جزم هو في أول الصلاة من كتابه فتح الباري: بأن تحريم الذهب إنما وقع بالمدينة. وقال السهيلي وابن دحية: إن نظر إلى لفظ الذهب ناسب من جهة إذهاب الرجس عنه ولكونه عند الذهاب إلى ربه، وإن نظر إلى معناه، فلوضاءته ونقائه وصفائه. انتهى. والمراد بقوله: (مليء حكمة وإيماناً) أن الطست جعل فيها شيء يحصل به كمال الإيمان والحكمة، فسمي حكمة وإيماناً مجازاً. ويحتمل أن يكون على حقيقته، وتجسد المعاني جائز، كما أن سورة البقرة تجيء يوم القيامة كأنها ظلة، والموت في صورة كبش، وكذلك وزن الأعمال وغير ذلك. وقال البيضاوي: لعل ذلك من باب التمثيل، إذ تمثيل المعاني قد وقع كثيراً، كما مثلت له ﷺ الجنة والنار في عرض الحائط، وفائدته كشف المعنوي بالمحسوس.

وقال العارف ابن أبي جمرة: فيه دليل على أن الإيمان والحكمة جواهر محسوسات لا معاني، لأنه ﷺ قال عن الطست: إنه أتي به مملوءاً إيماناً وحكمة، ولا يقع الخطاب إلا على ما يفهم ويعرف، والمعاني ليس لها أجسام حتى تملأ، وإنما يمتلىء الإناء بالإجسام والجواهر، وهذا نص من الشارع ﷺ بضد ما ذهب إليه المتكلمون في قولهم: إن الإيمان والحكمة أعراض.

والجمع بين الحديث وما ذهبوا إليه، هو أن حقيقة أعيان المخلوقات التي ليس للحواس فيها إدراك، ولا من النبوة إخبار عن حقيقتها غير محققة، وإنما هي غلبة ظن، لأن للعقل ـ بالإجماع من أهل العقل المؤيدين بالتوفيق ـ حداً يقف عنده، ولا يتسلط فيما عدا ذلك، ولا يقدر أن يصل إليه، فهذا وما أشبهه منها، لأنهم تكلموا على ما ظهر لهم من الأعراض الصادرة عن هذه الجواهر التي ذكرها الشارع ﷺ في الحديث، ولم

يكن للعقل قدرة أن يصل إلى هذه الحقيقة التي أخبر بها ﷺ. فيكون الجمع بينهما أن يقال: ما قاله المتكلمون حق لأنه الصادر عن الجواهر وهو الذي يدرك بالعقل. والحقيقة ما ذكره ﷺ في الحديث.

ولهذا نظائر كثيرة بين المتكلمين وآثار النبوة، ويقع الجمع بينهما على الأسلوب الذي قررناه وما أشبهه. ثم مثل بمجيء الموت في هيئة كبش أملح، ثم بالأذكار والتلاوة، ثم قال: لأن ما ظهر منها هنا معان، وتوجد يوم القيامة جواهر محسوسات لأنها توزن، ولا يوزن في الميزان إلا الجواهر.

قال: وفي ذلك دليل لأهل الصوفية وأصحاب المعاملات[1] والتحقيق القائلين بأنهم يرون قلوبهم وقلوب إخوانهم، وإيمانهم وإيمان إخوانهم بأعين بصائرهم جواهر محسوسات، فمنهم من يعاين إيمانه مثل المصباح، ومنهم من يعاينه مثل الشمعة، ومنهم من يعاينه مثل المشعل وهو أقواها. ويقولون: بأنه لا يكون المحقق محققاً حتى يعاين قلبه بعين بصيرته، كما يعاين كفه بعين بصره فيعرف الزيادة فيه من النقصان[2].

فإن قيل: ما الحكمة في شق صدره الشريف ثم ملىء إيماناً وحكمة، ولمَ لم يوجد الله تعالى ذلك فيه من غير أن يفعل فيه ما فعل؟

أجاب العارف ابن أبي جمرة: بأنه ﷺ لما أعطي كثرة الإيمان والحكمة وقوي التصديق إذ ذاك، أعطي برؤية شق البطن والقلب عدم الخوف من جميع العادات الجارية بالهلاك، فحصلت له ﷺ قوة الإيمان من ثلاثة أوجه: بقوة التصديق، والمشاهدة، وعدم الخوف من العادات المهلكات فكمل له ﷺ بذلك ما أريد منه من قوة الإيمان بالله عز وجل، وعدم الخوف مما سواه. ولأجل ما أعطيه مما أشرنا إليه كان ﷺ في العالمين أشجعهم وأثبتهم وأعلاهم حالاً ومقالاً.

ففي العلوي: كان ـ كما أخبر ﷺ ـ أن جبريل لما وصل معه إلى مقامه قال: ها أنت وربك، وهذا مقامي لا أتعداه، فزج فيه ـ أي في النور ـ زجة ولم يتوان ولم يتلفت، فكان هناك في الحضرة كما أخبر عنه ربه عز وجل بقوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ [النجم: ١٧]. وأما حاله ﷺ في هذا العالم: فكان إذا حمي الوطيس في الحرب ركض بغلته في نحر العدو، وهم شاكون في سلاحهم، ويقول: أنا ابن عبد المطلب، أنا النبي

---

(١) ومنازل هذه المعاملات عشر: الرعاية والمراقبة والحرمة والإخلاص والتهذيب والاستقامة والتوكل والتفويض والثقة والتسليم.

(٢) كلام فيه نظر.

لا كذب. ثم إن العناية بتطهير قلبه المقدس، وإفراغ الإيمان والحكمة، فيه إشارة إلى مذهب أهل السنة في أن محل العقل ونحوه من أسباب الإدراكات كالنظر والفكر إنما هو القلب لا الدماغ، خلافاً للمعتزلة والفلاسفة.

وأما الحكمة في غسل قلبه المقدس بماء زمزم، فقيل لأن ماء زمزم يقوي القلب ويسكن الروع. قال الحافظ الزين العراقي: ولذلك غسل به قلبه ﷺ ليلة الإسراء ليقوى على رؤية الملكوت. واستدل شيخ الإسلام البلقيني، بغسل قلبه الشريف به على أنه أفضل من ماء الكوثر، قال: لأنه لم يكن يغسل قلبه المكرم إلا بأفضل المياه، وإليه يومىء قول العارف ابن أبي جمرة في كتابه «بهجة النفوس».

وأما قوله ﷺ: «فغسل صدري» فالظاهر أن المراد به القلب، كما في الراوية الأخرى، وقد يحتمل أن تحمل كل رواية على ظاهرها، ويقع الجمع بأن يقال: أخبر ﷺ مرة بغسل صدره الشريف ولم يتعرض لذكر قلبه، وأخبر مرة بغسل قلبه ولم يتعرض لذكر صدره، فيكون الغسل قد حصل فيهما معاً مبالغة في تنظيف المحل المقدس. ولا شك أن المحل الشريف كان طاهراً مطهراً وقابلاً لجميع ما يلقى إليه من الخير، وقد غسل أولاً وهو ﷺ طفل، وأخرجت من قلبه نزغة الشيطان، وإنما كان ذلك إعظاماً وتأهباً لما يلقى هناك، وقد جرت الحكمة بذلك في غير ما موضع مثل الوضوء للصلاة لمن كان متنظفاً، لأن الوضوء في حقه إنما هو إعظام وتأهب للوقوف بين يدي الله تعالى ومناجاته، فلذلك غسل جوفه الشريف هنا، وقد قال تعالى: ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ [الحج: ٣٢] فكان الغسل له ﷺ من تعظيم شعائر الله، وإشارة لأمته بالفعل بتعظيم شعائر الله، كما نص لهم عليه بالقول.

وأما قوله: (ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا) وفي رواية عنده في الصلاة (ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء). فظاهره: أنه استمر على البراق حتى عرج إلى السماء.

قال العارف ابن أبي جمرة: أفاد ذلك أنهم كانوا يمشون في الهواء، وقد جرت العادة بأن البشر لا يمشي في الهواء. سيما وقد كان راكباً على دابة من ذوات الأربع، لكن لما أن شاءت القدرة ذلك كان، فكما بسط الله تعالى لهم الأرض يمشون عليها، كذلك يمشون في الهواء، كل ذلك بيد قدرته، لا ترتبط قدرته تعالى بعادة جارية. وقد سئل ﷺ حين أخبر عن الأشقياء الذين يمشون على وجوههم يوم القيامة فقال ﷺ: الذي أمشاهم في الدنيا على أقدامهم قادر أن يمشيهم يوم القيامة على وجوههم[1]. انتهى.

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/٤٥٦.

وقد استدل بعضهم بهذا الحديث على أن المعراج كان في ليلة غير ليلة الإسراء إلى بيت المقدس، لكون الإسراء إليهم لم يذكر هنا. فأما المعراج ففي غير هذه الرواية من الأخبار أنه لم يكن على البراق، بل رقي في المعراج وهو السلم، كما وقع التصريح به في حديث عند ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ويمكن أن يقال: ما وقع هنا اختصار من الراوي، والإتيان بـ «ثم» المقتضية للتراخي لا ينافي وقوع الإسراء بين الأمرين المذكورين، وهما: الانطلاق والعروج. وحاصله: أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكره الآخر، وثابت البناني قد حفظ الحديث. ففي روايته عند مسلم: أنه أتى بيت المقدس فصلى فيه ثم عرج إلى السماء كما سيأتي إن شاء الله تعالى. وقد قيل: إن الحكمة في الإسراء به راكباً، مع القدرة على طي الأرض له، الإشارة إلى أن ذلك وقع تأنيساً له بالعادة، في مقام خرق العادة، لأن العادة جرت أن الملك إذا استدعى من يختص به بعث إليه بمركوب سني يحمله عليه في وفادته إليه.

وفي كلام بعض أهل الإشارات: لما كان ﷺ ثمرة شجرة الكون ودرة صدفة الوجود، وسرّ معنى كلمة «كن» ولم يكن بد من عرض هذه الثمرة بين يدي مثمرها رفعها إلى حضرة قربه، والطواف بها على ندمان حضرته، أرسل إليه أعز خدام الملك عليه، فلما ورد عليه قادماً، وافاه على فراشه نائماً، فقال له قم يا نائم، فقد هيئت لك الغنائم. قال: يا جبريل إلى أين؟ قال: يا محمد ارفع «الأين» من البين، إنما أنا رسول القدم أرسلت إليك لأكون من جملة الخدم، يا محمد أنت مراد الإرادة، الكل مراد لأجلك، وأنت مراد لأجله، أنت صفوة كأس المحبة، أنت درة هذه الصدفة، أنت شمس المعارف، أنت بدر اللطائف، ما مهدت الدار إلا لأجلك، ما حمي ذلك الحمى إلا لوصلك، وما روّق كأس المحبة إلا لشربك. فقال ﷺ: يا جبريل فالكريم يدعوني إليه، فما الذي يفعل بي؟ قال: ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: يا جبريل هذا لي، فما لعيالي وأطفالي؟ قال: ولسوف يعطيك ربك فترضى، قال: يا جبريل الآن طاب قلبي ها أنا ذاهب إلى ربي، ثم قال جبريل: يا محمد إنما جيء بي إليك الليلة لأكون خادم دولتك، وحاجب حاشيتك، وحامل غاشيتك، وجيء بالمركوب إليك لإظهار كرامتك، لأن من عادة الملوك إذا استزاروا حبيباً أو استودعوا قريباً وأرادوا ظهور إكرامه واحترامه أرسلوا أخص خدامهم وأعز نوابهم لنقل أقدامهم، فجئناك على رسم عادة الملوك وآداب السلوك، ومن اعتقد أنه وصل إليه بالخُطا فقد وقع بالخطأ، ومن ظن أنه محجوب بالغطا فقد حرم العطا. انتهى.

والحكمة في كون البراق دابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، ولم يكن على شكل

الفرس، إشارة إلى أن الركوب كان في سلم وأمن لا في حرب وخوف، أو لإظهار المعجزة بوقوع الإسراع الشديد بدابة لا توصف بذلك في العادة. وذكره بقوله: أبيض، باعتبار كونه مركوباً، أو عطفاً على لفظ البراق. واختلف في تسميته بذلك، فقيل: من البريق، وقال القاضي عياض: لكونه ذا لونين، يقال: شاة برقاء، إذا كان في خلال صوفها الأبيض طاقات سود، وقيل: من البرق، لأنه وصف بسرعة السير، ويحتمل أن لا يكون مشتقاً.

ووصفه بأنه يضع خطوه عند أقصى طرفه ـ بسكون الراء وبالفاء ـ أي يضع رجله عند منتهى ما يرى بصره. وقال ابن المنير: يقطع ما انتهى إليه بصره في خطوة واحدة، قال: فعلى هذا يكون قطع من الأرض إلى السماء في خطوة واحدة، لأن بصر الذي في الأرض يقع على السماء، فبلغ أعلى السماوات في سبع خطوات. انتهى.

وفي حديث ابن مسعود عند أبي يعلى والبزار ـ كما أفاده في الفتح ـ: إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه وإذا هبط ارتفعت يداه. وفي رواية لابن سعد عن الواقدي بأسانيده: له جناحان. قال الحافظ ابن حجر: ولم أرها لغيره.

وعند الثعلبي ـ بسند ضعيف ـ عن ابن عباس، في صفة البراق: له خد كخد الإنسان وعرف كعرف الفرس، وقوائم كالإبل، وأظلاف وذنب كالبقر، وكان صدره ياقوتة حمراء. وفي رواية أبي سعد[1] في «شرف المصطفى» فكان الذي أمسك بركابه جبريل وبزمام البراق ميكائيل.

وفي رواية معمر عن قتادة عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتي بالبراق ليلة أسري به مسرجاً ملجماً، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما حملك على هذا، ما ركبك خلق قط أكرم على الله منه، قال: فارفض عرقاً[2]. أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب وصححه ابن حبان.

وذكر ابن إسحاق عن قتادة: أنه لما شمس وضع جبريل ـ عليه السلام ـ يده على معرفته وقال: أما تستحي وذكر نحوه، لكنه مرسل لأنه لم يذكر أنساً. وفي رواية وثيمة عند ابن إسحاق: نعست حتى لصقت بالأرض فاستويت عليها. وفي رواية للنسائي وابن مردويه من طريق يزيد بن أبي مالك عن أنس نحوه موصولاً، وزاد: وكانت تسخر للأنبياء

---

(١) قال الزرقاني: هو عبد الرحمٰن بن الحسن الأصفهاني الحافظ المشهور المتوفى سنة (٣٠٧ هـ). ووصفه الذهبي في تاريخه بالحافظ. وفي كشف الظنون ٢/ ١٠٤٥ هو الحافظ أبو سعيد عبد الملك بن محمد النيسابوري (الخركوشي) المتوفى سنة (٤٠٦ هـ) بنيسابور.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ١٦٤ والترمذي برقم (٣١٣١).

قبله، ونحوه من حديث أبي سعيد عند ابن إسحاق.

وفيه دلالة على أن البراق كان معداً لركوب الأنبياء، خلافاً لمن نفى ذلك، كابن دحية، وأوّل قول جبريل: «فما ركبك أكرم على الله منه» أي: ما ركبك أحد قط، فكيف يركبك أكرم منه؟ فيكون مثل قول امرىء القيس:

على لاحب لا يهتدي لمناره

فيفهم أن له مناراً لا يهتدئ له، وليس المراد: إلا أنه لا منار له البتة فكيف يهتدي به، فتأمله. وقد جزم السهيلي بأن البراق إنما استصعب عليه لبعد عهد ركوب الأنبياء قبله. وقال النووي: قال صاحب مختصر العين، وتبعه صاحب التحرير: كان الأنبياء يركبون البراق. قال: وهذا يحتاج إلى نقل صحيح، انتهى وقد تقدم النقل بذلك.

قال في الفتح: ويؤيده ظاهر قوله: (فربطته بالحلقة التي كانت تربط بها الأنبياء) انتهى. فليتأمل فإنه ليس فيه فربطته بالحلقة التي كانت تربطه بها الأنبياء، وإنما قال: تربط بها الأنبياء وسكت عن ذكر المربوط ما هو؟ فيحتمل ـ كما قال ابن المنير ـ أن يكون غير البراق، ويحتمل أن يكون ارتباط الأنبياء أنفسهم بتلك الحلقة، أي تمسكهم بها، ويكون من جنس العروة الوثقى، انتهى.

ولكن وقع التصريح بذلك في حديث أبي سعيد عند البيهقي ولفظه: «فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربطها فيها» وقد وقع عند ابن إسحاق من رواية وثيمة في ذكر الإسراء: فاستصعب البراق وكانت بعيدة العهد بركوبهم، لم تكن ركبت في الفترة.

وفي مغازي ابن عائذ، من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب قال: البراق هي الدابة التي كان يزور إبراهيم عليها إسماعيل. وعلى هذا فلا يكون ركوب البراق من خصائصه ﷺ. نعم قيل: ركوبه مسرجاً ملجماً لم يرد لغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فإن قلت: ما وجه استصعاب البراق عليه؟

أجيب: بأنه تنبيه على أنه لم يذلل قبل ذلك، إن قلنا إنه لم يركبه أحد قبله، أو لبعد العهد بركوبه إن قلنا إنه ركب قبله. ويحتمل أن يكون استصعابه تيهاً وزهواً بركوبه ﷺ، وأراد جبريل «أبمحمد تستصعب» استنطاقه بلسان الحال أنه لم يقصد الصعوبة وإنما تاه زهواً لمكان الرسول ﷺ منه، ولهذا قال: فارفض عرقاً، فكأنه أجاب بلسان الحال متبرئاً من الاستصعاب، وعرق من خجل العتاب، ومثل هذا رجفة الجبل به حتى قال: (اثبت فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان)[1] فإنها هزة الطرب لا هزة الغضب. وكذلك البراق لما قال له جبريل: اسكن فما ركبك أحد أكرم على الله منه استقر وخجل من ظاهر

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٣٥٠.

الاستصعاب وتوجه الخطاب فعرق حتى غرق.

ووقع في حديث حذيفة عند الإمام أحمد قال: أتي رسول الله ﷺ بالبراق فلم يزل على ظهره هو وجبريل حتى انتهيا إلى بيت المقدس. وهذا لم يسنده حذيفة عن النبي ﷺ، فيحتمل أنه قاله عن اجتهاد، ويحتمل أن يكون قوله: «هو وجبريل» متعلقاً بمرافقته في السير، لا في الركوب. وقال ابن دحية معناه: وجبريل قائد أو سائق أو دليل، قال: وإنما جزمنا بذلك لأن قصة المعراج كانت كرامة للنبي ﷺ، فلا مدخل لغيره فيها.

وقد تعقب الحافظ ابن حجر التأويل المذكور: بأن في صحيح ابن حبان من حديث ابن مسعود: أن جبريل حمله على البراق رديفاً له، وفي رواية الحارث في مسنده: أتي بالبراق فركبه خلف جبريل فسار بهما. فهذا صريح في ركوبه معه، والله أعلم، انتهى.

وقد وقع في غير هذه الرواية بيان ما رآه في ليلة الإسراء، فمن ذلك:

ما وقع في حديث شداد بن أوس ـ عند البزار والطبراني، وصححه البيهقي في الدلائل ـ أنه أول ما أسري به مرَّ بأرض ذات نخل، فقال له جبريل: انزل فصل، فصلى، فقال: صليت بيثرب، ثم مر بأرض بيضاء فقال: انزل فصل، فصلى، فقال: صليت بمدين، ثم مر ببيت لحم فقال: انزل فصل، فنزل فصلى، فقال صليت حيث ولد عيسى[(١)].

وفي حديث أنس عند البيهقي في الدلائل: لما جاء جبريل بالبراق إليه ﷺ فكأنها أصرت أذنيها، فقال لها جبريل: مه يا براق، فوالله ما ركبك مثله، فسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجوز على جنب الطريق، فقال: «ما هذا يا جبريل»؟ قال: سر يا محمد، فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا هو بشيخ يدعوه متنحياً عن الطريق يقول: هلم يا محمد، فقال له جبريل: سر، وأنه مرَّ بجماعة فسلموا عليه فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال له جبريل: اردد عليهم السلام، فرد، الحديث. وفي آخره فقال له جبريل: أما العجوز التي رأيت جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا ما بقي من عمر تلك العجوز، والذي دعاك إبليس، والعجوز الدنيا، أما لو أجبتهما لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة، وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام[(٢)]، قال الحافظ عماد الدين ابن كثير: في ألفاظه نكارة وغرابة.

وفي حديث: أنه مر بموسى عليه السلام، وهو يصلي في قبره[(٣)]. قال أنس: ذكر

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٣٥٥ والطبراني في المعجم الكبير ٧/ ٣٣٩.

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣٦٢.

(٣) أخرجه مسلم من حديث حماد بن سلمة في الفضائل برقم (١٦٤) والنسائي كتاب قيام الليل رقم الحديث (١٥) والإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٤٤ و ٢٤٨ وفي البداية والنهاية ١/ ٢٩٦.

كلمة فقال: أشهد أنك رسول الله. ولا مانع أن الأنبياء عليهم السلام يصلون في قبورهم لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، فهم يتعبدون بما يجدون من دواعي أنفسهم، لا بما يلزمون به، كما يلهم أهل الجنة الذكر. وستأتي الإشارة إليه في حجة الوداع إن شاء الله تعالى.

وفي حديث أبي هريرة عند الطبراني والبزار: أنه ﷺ مرَّ على قوم يزرعون ويحصدون في كل يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال لجبريل عليه السلام: ما هذا؟ فقال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة إلى سبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه، وهو خير الرازقين، ثم مرَّ على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر، كلما رضخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة، ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع، وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الأنعام، يأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم، فقال: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدون زكاة أموالهم، وما ظلمهم الله وما ربك بظلام للعبيد. ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر، ولحم آخر نيء في قدر خبيث، فجعلوا يأكلون النيء الخبيث، ويدعون النضيج، فقال: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال جبريل: هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب، فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت عنده حتى تصبح. ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أمتك تكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها، وهو يريد أن يحمل عليها. ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد، كلما قرضت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم من ذلك شيء، قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء الفتنة، قال: ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها. ثم أتى على واد فوجد فيه ريحاً طيبة باردة، وريح مسك، وسمع صوتاً، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا صوت الجنة، تقول: رب آتني بما وعدتني، فقد كثرت غرفي واستبرقي وحريري وسندسي وعبقريي ولؤلؤي ومرجاني وفضتي وذهبي، وأكوابي وصحافي وأباريقي، ومراكبي، وعسلي ومائي ولبني وخمري، فآتني بما وعدتني، فقال: لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بي وبرسلي وعمل صالحاً، ولم يشرك بي شيئاً، ولم يتخذ من دوني أنداداً، ومن خشيني فهو آمن، ومن سألني أعطيته، ومن أقرضني أجزيته، ومن توكل علي كفيته، إنني أنا الله، لا إله إلا أنا،

لا أخلف الميعاد، قد أفلح المؤمنون، وتبارك الله أحسن الخالقين، قالت: رضيت، ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً، ووجد ريحاً منتنة فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا صوت جهنم، تقول: رب آتني ما دعوتني، فقد كثرت سلاسلي وأغلالي وسعيري وحميمي وغساقي وعذابي، وقد بعد قعري واشتد حري، فائتني بما وعدتني، قال: لك كل مشرك ومشركة وكافر وكافرة، وكل جبار عنيد لا يؤمن بيوم الحساب، قالت: رضيت. قال: فسار حتى أتى بيت المقدس.

وفي رواية أبي سعيد عند البيهقي: دعاني داعٍ عن يميني: انظرني أسألك، فلم أجبه، ثم دعاني آخر عن يساري كذلك فلم أجبه، وفيه: إذا امرأة حاسرة عن ذراعيها وعليها من كل زينة خلقها الله تعالى فقالت: يا محمد انظرني أسألك، فلم ألتفت إليها، وفيه أن جبريل قال له: أما الداعي الأول فهو داعي اليهود، ولو أجبته لتهودت أمتك، وأما الثاني فداعي النصارى، ولو أجبته لتنصرت أمتك، وأما المرأة فالدنيا. وفيه: أنه صعد إلى السماء الدنيا ورأى فيها آدم، وأنه رأى أخونه عليها لحم طيب ليس عليها أحد. وأخرى عليها لحم منتن عليها ناس يأكلون، قال جبريل: هؤلاء الذين يتركون الحلال ويأكلون الحرام، وفيه: أنه مرَّ بقوم بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خرَّ، وأن جبريل قال له: هم أكلة الربا، وأنه مرَّ بقوم مشافرهم كالإبل، يلتقمون حجراً، فيخرج من أسافلهم، وأن جبريل قال: إن هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، وأنه مرَّ بنساء تعلقن بثديهن وأنهن الزواني، وأنه مرَّ بقوم يقطع من جنوبهم اللحم فيطعمون وأنهم الغمازون[١] اللمازون[٢].

وفي حديث أبي هريرة - عند البزار والحاكم - أنه ﷺ صلى ببيت المقدس مع الملائكة، وأنه أتي هناك بأرواح الأنبياء فأثنوا على الله. وفيه قول إبراهيم: لقد فضلكم محمد.

وفي رواية عبد الرحمن بن هشام عن أنس: ثم بعث له آدم فمن دونه فأمهم تلك الليلة. وفي حديث أم هانىء عند أبي يعلى: ونشر لي رهط من الأنبياء، منهم إبراهيم وموسى وعيسى. وفي رواية أبي سلمة ثم حانت الصلاة فأممتهم. أخرجه مسلم. وفي

---

(١) الغمز الإشارة بالعين والحاجب والجفن قال الله تعالى: ﴿وإذا مروا بهم يتغامزون﴾.[المطففين: ٣٠] وقال ابن الأثير: وقد فسر الغمز في بعض الأحاديث بالإشارة كالرمز بالعين والحاجب واليد. انظر لسان العرب مادة (غمز) ١٠/ ١٢٠.

(٢) اللمز: كالغمز في الوجه. تلمزه بفيك بكلام خفي قال تعالى: ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾ [التوبة: ٥٨] ورجل لمزة: يعيبك في وجهك ورجل همزة: يعيبك بالغيب. وقال الزجاج: الهمزة اللمزة الذي يغتاب الناس ويغضُّهم. انظر لسان العرب مادة (لمز) ١٢/ ٣٢٦.

حديث أبي أمامة عند الطبراني في الأوسط: ثم أقيمت الصلاة فتدافعوا حتى قدموا محمداً ﷺ.

● وفي رواية ثابت البناني عن أنس عند مسلم قال: فربطته، يعني البراق، بالحلقة ـ وهي بإسكان اللام على الأشهر ـ التي تربط به الأنبياء ـ بضمير المذكر، إعادة على معنى الحلقة وهو الشيء، والمراد حلقة باب مسجد بيت المقدس. قاله صاحب التحرير ـ قال ﷺ: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة(١). أي اخترت اللبن الذي عليه بنيت الخلقة، وبه نبت اللحم ونشز العظم، أو اخترته لأنه الحلال الدائم في دين الإسلام بخلاف الخمر فحرام فيما يستقر عليه الأمر.

وقال النووي: المراد بالفطرة هنا، الإسلام والاستقامة، قال: ومعناه ـ والله أعلم ـ: اخترت علامة الإسلام والاستقامة، قال: وجعل اللبن علامة لكونه سهلاً طيباً طاهراً سائغاً للشاربين، سليم العاقبة، أما الخمر فإنها أم الخبائث، وجالبة لأنواع الشر في الحال والمآل، انتهى. وقال القرطبي: يحتمل أن يكون سبب تسمية اللبن فطرة لكونه أول شيء يدخل جوف المولود، ويشق أمعاءه، والسر في ميل النبي ﷺ إليه دون غيره لكونه مألوفاً له أولاً، انتهى. وإذا كانت الخمر مباحة ـ لأنها إنما حرمت بالمدينة والإسراء كان بمكة ـ فما وجه تعيينه ﷺ لأحد المباحين، وما وجه عد ذلك صواباً، وعد الآخر خطأ، وهما سواء في الإباحة؟

فيحتمل أن يكون توقاها تورعاً وتعريضاً بأنها ستحرم، وأنه لما وافق الصواب في علم الله تعالى قال له جبريل: أصبت الفطرة، أو أصبت أصاب الله بك، كما رويا. وإذا قلنا: بأنها كانت من خمر الجنة فيكون سبب تجنبها صورتها ومضاهاة الخمر المحرمة، أي في علم الله تعالى، وذلك أبلغ في الورع. ويستفاد منه: أن من اتخذ من ماء الرمان أو غيره، ولو ماء قراحاً، وضاهى به الخمر في الصورة وهيأه بالهيئة التي يتعاطاها أهل الشهوات من الاجتماعات والآلات فقد أتى منكراً، وإن كان لا يحد عليها. قاله ابن المنير. وينظر فيما يعمله كثير من فقراء اليمن وغيرهم بمكة المشرفة وجدة وغيرهما من ماء قشر البن ويسمونه بالقهوة، وهي اسم من أسماء الخمر(٢).

وفي حديث ابن عباس ـ عند أحمد ـ: فلما أتى المسجد الأقصى قام يصلي، فلما

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩).

(٢) والقهوة: الخمر سميت بذلك لأنها تقهي شاربها عن الطعام أي تذهب بشهوته وفي التهذيب: أي تشبعه. انظر لسان العرب مادة (قها) ١١/ ٣٣٧.

انصرف جيء بقدحين في أحدهما لبن، وفي الآخر عسل، فأخذ اللبن. وفي رواية البزار: بثلاثة أواني، وأن الثالث كان خمراً، وأن ذلك وقع ببيت المقدس، وأن الأول كان ماء، ولم يذكر العسل. وفي حديث شداد بن أوس: فصليت من المسجد حيث شاء الله، وأخذني من العطش أشد ما أخذني، فأتيت بإناءين أحدهما لبنٌ والآخر عسل، ثم هداني الله تعالى فأخذت اللبن. فقال شيخ بين يدي ـ يعني لجبريل ـ: أخذ صاحبك الفطرة. وقد كان إتيانه بالأواني مرتين، مرة عند فراغه من الصلاة، ومرة عند وصوله إلى سدرة المنتهى ورؤية الأنهار الأربعة. وممن صرح بأنه كان مرتين الحافظ عماد الدين بن كثير، وعلى هذا فيكون تكرار جبريل عليه السلام للتصويب حيث اختار اللبن تأكيداً للتحذير مما سواه.

وقد أنكر حذيفة ربط البراق بالحلقة، فروى أحمد والترمذي من حديث حذيفة قال: يحدثون أنه ربطه، أخاف أن يفر منه، وقد سخره له عالم الغيب والشهادة؟ وكذا أنكر حذيفة أيضاً صلاته ﷺ ببيت المقدس.

وتعقبه البيهقي وابن كثير: بأن المثبت مقدم على النافي، يعني من أثبت ربط البراق والصلاة في بيت المقدس معه زيادة علم على من نفى، فهو أولى بالقبول. ووقع ذلك في رواية بريدة عند البزار: لما كان ليلة أسري به، فأتى جبريل الصخرة التي ببيت المقدس فوضع أصبعه فيها فخرقها، فشد بها البراق، ونحوه للترمذي. وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي: حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربطها فيه، فدخلت أنا وجبريل بيت المقدس، فصلى كل واحد منا ركعتين.

وفي رواية ابن مسعود نحوه، وزاد: ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين ما بين قائم وراكع وساجد، ثم أذن مؤذن فأقيمت الصلاة فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا، فأخذ بيدي جبريل فقدمني فصليت بهم. وفي حديث ابن مسعود أيضاً ـ عند مسلم ـ: وحانت الصلاة فأممتهم. وفي حديث ابن عباس، عند أحمد: فلما أتى ﷺ الأقصى قام يصلي، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه. وفي حديث أبي سعيد: ثم سار حتى أتى بيت المقدس فنزل، فربط فرسه إلى صخرة، ثم دخل فصلى مع الملائكة، فلما قضيت الصلاة قالوا: يا جبريل من هذا معك؟ قال: هذا محمد رسول الله خاتم النبيين، قالوا: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قالوا: حياه الله من أخ وخليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة. ثم لقوا أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم. فقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: الحمد لله الذي اتخذني خليلاً، وأعطاني ملكاً عظيماً، وجعلني أمة قانتاً يؤتم بي، وأنقذني من النار، وجعلها علي برداً وسلاماً.

ثم إن موسى عليه الصلاة والسلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي كلمني تكليماً، واصطفاني، وأنزل علي التوراة، وجعل هلاك فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي، وجعل من أمتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون.

ثم إن داود عليه الصلاة والسلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي جعل لي ملكاً عظيماً، وعلمني الزبور، وألان لي الحديد، وسخر لي الجبار يسجن معي والطير وآتاني الحكمة وفصل الخطاب.

ثم إن سليمان عليه السلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي سخر لي الرياح، وسخر لي الشياطين، يعملون ما شئت من محاريب وتماثيل، وعلمني منطق الطير وآتاني من كل شيء فضلاً، وسخر لي جنود الشياطين والإنس والجن والطير، وآتاني ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، وجعل لي ملكاً طيباً ليس علي فيه حساب.

ثم إن عيسى عليه السلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي جعلني كلمته، وجعلني بمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، وعلمني الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعلني أخلق أي أسوي من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وجعلني أبرىء الأكمه والأبرص، وأحيي الموتى بإذن الله، ورفعني وطهرني وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم. فلم يكن للشيطان علينا سبيل.

قال: وإن محمداً ﷺ أثنى على ربه فقال: كلكم أثنى على ربه وأنا أثني على ربي: الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليّ الفرقان، فيه تبيان كل شيء، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتي أمة وسطاً، وجعل أمتي هم الأولون وهم الآخرون، وشرح لي صدري، ووضع عني وزري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحاً وخاتماً.

فقال إبراهيم: بهذا فضلكم محمد. ثم ذكر أنه عرج به إلى السماء الدنيا، ومن سماء إلى سماء. ذكره القاضي عياض في «الشفاء» مختصراً من حديث أبي هريرة من غير عزو[1]. ورواه البيهقي من حديث أبي سعيد الخدري، وهذا لفظه.

وفي رواية ابن أبي حاتم في تفسيره، عن أنس: فلما بلغ بيت المقدس، فبلغ المكان الذي يقال له: باب محمد، أتى إلى الحجر الذي به، فغمز جبريل بأصبعه فنقبه، ثم ربطها، ثم صعدا[2]، فلما استويا في سرحة المسجد قال جبريل: يا محمد، هل

---

(١) انظر الشفا ١/ ١٨١ والحديث أخرجه البزار وابن جرير وابن مردويه وابن أبي حاتم وأبو يعلى كلهم من حديث أبي هريرة.

(٢) قال الزرقاني في الشرح: أي مرا: وإلا فلا معنى للصعود هنا، وأكثر النسخ بإسقاطها.

سألت ربك أن يريك الحور العين؟ قال: نعم، قال: فانطلق إلى أولئك النسوة فسلم عليهن، قال: فسلمت عليهن فرددن علي السلام، فقلت لمن أنتن؟ فقلن: خيرات حسان، نساء قوم أبرار، نقوا فلم يدرنوا، وأقاموا فلم يظعنوا، وخلدوا فلم يموتوا، قال: ثم انصرفت فلم ألبث إلا يسيراً، حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة، قال فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا، فأخذ بيدي جبريل عليه السلام فقدمني فصليت بهم، فلما انصرفت قال لي جبريل: أتدري من صلى خلفك؟ قلت: لا، قال: صلى خلفك كل نبي بعثه الله.

قال القاضي عياض: يحتمل أن يكون ﷺ صلى بالأنبياء جميعاً في بيت المقدس، ثم صعد منهم من ذكر أنه ﷺ رآه في السماوات، ويحتمل أن يكون صلى بهم بعد أن هبط من السماء، فهبطوا أيضاً، والأظهر أن صلاته بهم في بيت المقدس كان قبل العروج. انتهى. وقال ابن كثير: صلى بهم ببيت المقدس قبل العروج وبعده، فإن في الحديث ما يدل على ذلك، ولا مانع منه، انتهى.

وقد اختلف في هذه الصلاة، هل هي فرض أو نفل؟ وإذا قلنا إنها فرض، فأي صلاة هي؟ قال بعضهم: الأقرب أنها الصبح، ويحتمل أن تكون العشاء، وإنما يتأتى على قول من قال: إنه صلى بهم قبل عروجه إلى السماء، وأما على قول من قال: إنه صلى بهم بعد العروج فتكون الصبح.

قال ابن كثير: ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه، لأنه لما مرَّ بهم في منازلهم جعل يسأل جبريل عنهم واحداً واحداً، وهو يخبره بهم، ثم قال: وهذا هو اللائق، لأنه أولاً كان مطلوباً إلى الجناب العلوي، ليفرض الله عليه وعلى أمته ما يشاء، ثم لما فرغ مما أريد به اجتمع هو وإخوانه من النبيين، ثم أظهر شرفه عليهم بتقديمه في الإمامة.

وفي رواية ابن إسحاق: أنه ﷺ قال: لما فرغت مما كان في بيت المقدس، أتي بالمعراج ولم أر قط شيئاً أحسن منه، وهو الذي يمد إليه الميت عينيه إذا احتضر، فأصعدني صاحبي فيه حتى انتهى إلى باب من أبواب السماء. وفي رواية كعب: فوضعت له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب حتى عرج هو وجبريل. وفي «شرف المصطفى» أنه أتي بالمعراج من جنة الفردوس، وأنه منضد عن يمينه ملائكة، وعن يساره ملائكة. وفي رواية أبي سعيد ـ عند البيهقي ـ ثم أتيت بالمعراج الذي تعرج عليه أرواح بني آدم، فلم ير الخلائق أحسن من المعراج، أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحاً إلى السماء، فإن ذلك عجبه بالمعراج.

وقد تقدم في حديث البخاري بالسابق: فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، قيل من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه قال: نعم. ولم يقل جبريل عليه السلام: أنا، حيث قيل له: من هذا؟ إنما سمى نفسه فقال: جبريل، لأن لفظ «أنا» فيه إشعار بالعظمة. وفي الكلام السائر: أول من قال «أنا» إبليس، فشقي، وأيضاً فقوله «أنا» مبهمة لافتقار الضمير إلى العود، فهي غير كافية في البيان. وعلى هذا فينبغي للمستأذن إذا قيل له من أنت؟ أن لا يقول: «أنا»، بل يقول: فلان.

وفي رواية للبخاري ومسلم: فعرج. وهو بفتح العين بمعنى صعد. وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي: حتى انتهى إلى باب من أبواب السماء يقال له: باب الحفظة، وعليه ملك يقال له إسماعيل تحت يده اثنا عشر ألف ملك.

وفي رواية شريك ـ عند البخاري أيضاً ـ ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب باباً من أبوابها، فناداه أهل السماء الدنيا: من هذا؟ قال: جبريل، قالوا: ومن معك قال: محمد. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قالوا: مرحباً وأهلاً، فيستبشر به أهل السماء، لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم، أي على لسان من شاء كجبريل.

ووقع في هذه الرواية أنه رأى في سماء الدنيا النيل والفرات عنصرهما. وظاهره يخالف حديث مالك بن صعصعة فإن فيه بعد ذكر سدرة المنتهى: فإذا في أصلها أربعة أنهار. ويجمع بينهما: بأن أصل نبعهما من تحت سدرة المنتهى ومقرهما في السماء الدنيا، ومنها ينزلان إلى الأرض. ووقع في هذه الرواية أيضاً: ثم مضى به في سماء الدنيا فإذا هو بنهر آخر، عليه قصور من لؤلؤ وزبرجد، وأنه الكوثر. وهو مما استشكل من رواية شريك، فإن الكوثر من الجنة، والجنة فوق السماء بالسابعة. ويحتمل أن يكون تقديره: ثم مضى في السماء الدنيا إلى السابعة فإذا هو بنهر.

ثم إن في قوله في الحديث «افتح» دلالة على أنه صادف أبواب السماء مغلقة، والحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ التنويه بقدره ﷺ، وتحقيق أن السماوات لم تفتح أبوابها إلا من أجله، ولو وجدها مفتوحة لم يتحرر أنها فتحت لأجله، فلما فتحت له تحقق ﷺ أن المحل مصون، وأن فتحه له كرامة وتبجيل.

وأما قوله في الحديث : «أرسل إليه؟» وفي رواية «بعث إليه؟» فيحتمل أن يكون استفهم عن الإرسال إليه للعروج إلى السماء، وهو الأظهر لقوله: «إليه» لأن أصل بعثته قد اشتهر في الملكوت الأعلى.

وقيل: سألوه تعجباً من نعمة الله عليه بذلك، واستبشاراً به، وقد علموا أن بشراً لا يترقى هذا الترقي إلا بإذن من الله تعالى، وأن جبريل لا يصعد إلا بمن أرسل إليه.

وقد قيل: إن الله تعالى أراد إطلاع نبيه على أنه معروف عند الملأ الأعلى، لأنهم قالوا: أبعث إليه؟ أو: أرسل إليه؟ فدل على أنهم كانوا يعرفون أن ذلك سيقع له، وإلا لكانوا يقولون: ومن محمد مثلاً؟ ولذلك أجابوا بقولهم: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، وكلامهم بهذه الصيغة أول دليل على ما ذكرناه من معرفتهم بجلالته وتحقيق رسالته، ولأن هذا أجل ما يكون من حسن الخطاب والترفيع، على المعروف من عادة العرب.

وأما قوله: «من معك؟» فيشعر بأنهم أحسوا به ﷺ، وإلا لكان السؤال بلفظ: أمعك أحد؟ وهذا الإحساس إما بمشاهدة لكون السماء شفافة، وإما بأمر معنوي كزيادة أنوار ونحوها. قاله الحافظ ابن حجر. ولعله أخذه من كلام العارف ابن أبي جمرة، حيث قال في «بهجته»: الثاني أن يكون سؤالهم له لما رأوا حين رأوا إقباله عليهم من زيادة الأنوار وغيرها من المآثر الحسان زيادة على ما يعهدونه منه. قال: وهذا هو الأظهر، كأنهم قالوا: من الشخص الذي من أجله هذه الزيادة معك؟ فأخبرهم بما أرادوا وهو تعيين الشخص باسمه حتى عرفوه، انتهى. وقد قال بعض العلماء: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ [النجم: ١٨] أنه رأى صورة ذاته المباركة في الملكوت فإذا هو عروس المملكة.

وأما قولهم له: «مرحباً به ولنعم المجيء جاء» فيحتمل أن يكونوا قالوه لما عاينوه من بركاته ﷺ التي سبقته للسماء مبشرة بقدومه. وفيه تقديم وتأخير، والتقدير: جاء فنعم المجيء مجيئه، وإنما لم يقل الخازن: مرحباً بك، بصيغة الخطاب، بل قال بصيغة الغيبة لأنه حياه قبل أن يفتح الباب، وقبل أن يصدر من النبي ﷺ خطاب، ويحتمل أن يكون حياه بصيغة الغيبة تعظيماً له، لأن «هاء» الغيبة ربما كانت أفخم من كاف الخطاب.

وأما قوله في الحديث: (فإذا رجل قاعد عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت لجبريل: من هذا ؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه. فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى)[1].

فالأسودة: بوزن أزمنة، هي الأشخاص. والنسم: ـ بالنون والسين المهملة

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤٩).

المفتوحتين ـ جمع نسمة، وهي الروح. وقد قال القاضي عياض: جاء أن أرواح الكفار في سجين، وأن أرواح المؤمنين منعمة في الجنة، يعني: فكيف تكون مجتمعة في سماء الدنيا؟ وأجاب: بأنه يحتمل أنها تعرض على آدم أوقاتاً، فوافق عرضها مرور النبي ﷺ، ويدل على كونهم في النار إنما هو في أوقات دون أوقات، قوله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً﴾ [غافر: ٤٦]. واعترض: بأن أرواح الكفار لا تفتح لها أبواب السماء، كما هو نص القرآن [الأعراف: ٤٠][1].

والجواب: ما أبداه هو احتمال أن الجنة كانت في جهة يمين آدم، والنار في جهة شماله: وكان يكشف له عنهما، ولا يلزم من رؤية آدم لها ـ وهو في السماء ـ أن تفتح لهم أبواب السماء ولا تلجها.

وفي حديث أبي هريرة عند البزار: فإذا عن يمينه باب تخرج منه ريح طيبة، وعن شماله باب تخرج منه ريح خبيثة، إذا نظر عن يمينه استبشر، وإذا نظر عن شماله حزن. وهذا ـ لو صح ـ لكان المصير إليه أولى من جميع ما تقم، ولكن سنده ضعيف. قاله الحافظ ابن حجر.

وأما قوله في الحديث: (ثم صعد بي، حتى أتى السماء الثانية، فقيل من هذا؟ قال: جبريل، ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم فقيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصنا إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت عليهما فردا، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. إلى قوله: ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه، قال: فسلمت عليه فرد السلام وقال مرحباً بالابن الصالح)[2].

فهذه الرواية موافقة لرواية ثابت عن أنس عند مسلم: أن في السماء الأولى؛ آدم، وفي الثانية يحيى وعيسى، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون وفي السادسة موسى وفي السابعة إبراهيم[3].

وخالف في ذلك ابن شهاب الزهري في روايته عن أنس عن أبي ذر ـ كما في أول

---

(١) وهو قوله ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء﴾.

(٢) أخرجه البخاري رقم الحديث (٣٨٨٧).

(٣) الحديث في صحيح مسلم كتاب الايمان برقم (٢٥٩).

الصلاة من البخاري أيضاً ـ أنه لم يثبت كيف منازلهم. وقال فيه: وإبراهيم في السماء السادسة. وفي رواية شريك عن أنس أن إدريس في الثانية وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وابراهيم في السادسة وموسى في السابعة، بتفضيل كلام الله[1]. وسياقه يدل على أنه لم يضبط منازلهم كما صرح به الزهري.

ورواية من ضبط أولى، ولا سيما في اتفاق قتادة وثابت، وقد وافقهما يزيد بن أبي مالك عن أنس، إلا أنه خالف في إدريس وهارون، فقال: هارون في الرابعة، وإدريس في الخامسة. ووافقهم أبو سعيد إلا أن في روايته: يوسف في الثانية، وعيسى ويحيى في الثالثة. والمشهور في الروايات: أن الذي في السابعة هو إبراهيم، وأكد ذلك في حديث مالك بن صعصعة: بأنه كان مسنداً ظهره إلى البيت المعمور. فمع التعدد: لا إشكال.

ومع الاتحاد فقد جمع: بأن موسى كان حالة العروج في السادسة وإبراهيم في السابعة على ظاهر حديث مالك بن صعصعة. وعند الهبوط: كان موسى في السابعة، لأنه لم يذكر في القصة أن إبراهيم كلمه في شيء مما يتعلق بما فرض على أمته من الصلاة، كما كلمه موسى عليه السلام، والسماء السابعة هي أول شيء انتهى إليه حالة الهبوط، فناسب أن يكون موسى بها، لأنه هو الذي خاطبه في ذلك، كما ثبت في جمع الروايات.

ويحتمل أن يكون لقي موسى في السادسة فأصعد معه إلى السابعة تفضيلاً له على غيره من أجل كلام الله تعالى، وظهرت فائدة ذلك في كلامه مع نبينا فيما يتعلق بأمر أمته في الصلاة. قاله في فتح الباري. وقال: إن النووي أشار إلى شيء من ذلك.

وفي رواية شريك عن أنس في قصة موسى: (لم أظن أن أحداً يرفع علي). قال ابن بطال: فهم موسى عليه السلام من اختصاصه بكلام الله تعالى له في الدنيا دون غيره من البشر: لقوله تعالى: ﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ [الأعراف: ١٤٤] أن المراد بالناس هنا: البشر كلهم، وأنه استحق بذلك أن لا يرفع عليه أحد، فلما فضل الله تعالى محمداً ﷺ بما أعطاه من المقام المحمود وغيره، ارتفع على موسى وغيره بذلك.

وفي حديث أبي سعيد قال موسى: يزعم بنو إسرائيل أني أكرم على الله، وهذا أكرم على الله مني. زاد الأموي في روايته: ولو كان هذا وحده هان، ولكن معه أمته، وهم أفضل الأمم عند الله.

وفي حديث مالك بن صعصعة: (فلما جاوزته ـ يعني موسى ـ بكى، فنودي: ما

---

(١) الحديث: أخرجه البخاري برقم (٧٥١٧).

يبكيك؟ قال: رب، هذا غلام بعثته بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل من أمتي).

ولم يكن بكاء موسى حسداً، معاذ الله، فإن الحسد في ذلك العالم منزوع من آحاد المؤمنين، فكيف بمن اصطفاه الله تعالى، بل كان آسفاً على ما فاته من الأجر الذي يترتب عليه رفع الدرجات له بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم، المستلزمة لتنقيص أجره، لأن لكل نبي بمثل أجر كل من اتبعه، ولهذا كان من اتبعه في العدد دون من اتبع نبينا ﷺ، مع طول مدتهم بالنسبة لمدة هذه الأمة.

وقال العارف ابن أبي جمرة: قد جعل الله تعالى في قلوب أنبيائه عليهم الصلاة والسلام الرأفة الرحمة لأمتهم، وركبهم على ذلك، وقد بكى نبينا ﷺ فقيل له: ما يبكيك؟ قال: «هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[1]، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أخذوا من رحمة الله أوفر نصيب، فكانت الرحمة في قلوبهم لعباد الله أكثر من غيرهم، فلأجل ما كان لموسى عليه السلام من الرحمة واللطف بكى إذ ذاك رحمة منه لأمته، لأن هذا وقت إفضال وجود وكرم، فرجا لعل أن يكون وقت القبول والإفضال فيرحم الله أمته ببركة هذه الساعة.

فإن قال قائل: كيف يكون هذا، وأمته لا تخلو عن قسمين: قسم مات على الإيمان، وقسم مات على الكفر، فالذي مات على الإيمان لا بد له من دخول الجنة، والذي مات على الكفر لا يدخل الجنة أبداً، فبكاؤه لأجل ما ذكر لا يسوغ، لأن الحكم فيهم قد مرّ ونفذ.

قيل: إن الله تعالى قدر قدره على قسمين، فقدر قدراً وقدر أن ينفذ على كل الأحوال، وقدر قدراً وقدر أن لا ينفذ، ويكون رفعه بسبب دعاء أو صدقة أو غير ذلك، فلأجل ما ركب في موسى عليه السلام من اللطف والرحمة بالأمة طمع لعل أن يكون ما اتفق لأمته من القدر الذي قدره الله تعالى وقدر ارتفاعه بسبب الدعاء والتضرع إليه، وهذا وقت يرجى فيه التعطف والإحسان من الله تعالى، لأنه وقت أسري فيه بالحبيب الكريم، ليخلع عليه خلع القرب والفضل الجسيم، فطمع الكليم لعل أن يلحق لأمته من هذا الخير العظيم نصيباً. وقد قال نبينا ﷺ: «إن لله نفحات فتعرضوا لنفحات الله»[2]. وهذه نفحة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز باب (٣٢) رقم الحديث [١٢٨٤ ـ ٥٦٥٥ ـ ٦٦٠٢ ـ ٦٦٥٥ ـ ٧٣٧٧ و ٧٤٤٨] ومسلم في كتاب الجنائز رقم الحديث (١١) وأحمد بن حنبل في المسند ١/٢٦٨ و ٥/٢٠٤، والبيهقي في السنن الكبرى ٤/٦٥ وفي مصنف عبد الرزاق (٦٦٧٠) والتبريزي في مشكاة المصابيح (١٧٢٣) والمتقي الهندي في كنز العمال (٤٢٩٠٢ ـ ٤٢٤٨١).

(٢) ذكر نحوه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٥/٤٠ والبيهقي في الاسماء والصفات ١٥٠ وابن عبد=

من النفحات فتعرض لها موسى، فكان أمراً قد قدر، والأسباب لا تؤثر إلا بما سبقت القدرة بأنها فيه تؤثر، وما كان قضاء نافذاً لا تؤثر فيه ولا ترده الأسباب، حتم قد لزم.

وفي بكائه عليه السلام وجه آخر، وهو البشارة لنبينا ﷺ وإدخال السرور عليه، وذلك قول موسى عليه السلام ـ الذي هو أكثر الأنبياء أتباعاً ـ: إن الذين يدخلون الجنة من أمة محمد ﷺ أكثر مما يدخلها من أمتي،

وأما قول موسى عليه السلام: (لأن غلاماً) ولم يقل غير ذلك من الصيغ، فإشارة إلى صغر سنه بالنسبة إليه. وفي القاموس: الغلام: الطار الشارب، والكهل ضده[1]. وقال الخطابي: العرب تسمي الرجل المستجمع السن غلاماً، ما دامت فيه بقية من القوة.

قال في فتح الباري: ويظهر لي أن موسى عليه السلام أشار إلى ما أنعم الله به على نبينا من استمرار القوة في الكهولة إلى أن دخل في أول سن الشيخوخة، ولم يدخل على بدنه هرم، ولا اعتراه في قوته نقص، حتى إن الناس في قدومه المدينة لما رأوه مردفاً أبا بكر، أطلقوا عليه اسم الشاب وعلى أبي بكر اسم الشيخ، مع كونه في العمر أسن من أبي بكر والله أعلم. وقد ذكرت ذلك في الهجرة من المقصد الأول.

وقد وقع في حديث أبي هريرة عند الطبراني في ذكر إبراهيم: فإذا هو برجل أشمط جالس عند باب الجنة على كرسي. وفي رواية مسلم من حديث ثابت عن أنس: ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعو ون إليه، وفيه: فإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن.

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي، وأبي هريرة عند الطبراني: فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله: قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وهذا ظاهره أن يوسف عليه السلام كان أحسن من جميع الناس، لكن روى الترمذي من حديث أنس: «ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت، وكان نبيكم أحسنهم وجهاً وأحسنهم صوتاً»[2]. فعلى هذا يحمل حديث المعراج على أن المراد غير النبي ﷺ.

= البر في التمهيد ٥/ ٣٣٩ والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣١٨ و ٤/ ٢٥ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦/ ٤٣٥.

(١) انظر القاموس المحيط ٤/ ١٥٨ مادة (علم).

(٢) ذكره ابن عدي في الكامل في الضعفاء ٢/ ٨٤٠ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦/ ٤٧٠ والعراقي في المغني ٢/ ٢٦٨.

ويؤيده قول من قال: إن المتكلم لا يدخل في عموم خطابه. وحمل ابن المنير حديث الباب على أن المراد: أن يوسف أعطي شطر الحسن الذي أوتيه نبينا ﷺ.

وأما قوله في الحديث عن إدريس: ثم قال: (مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح) فيحمل على أخوة النبوة والإسلام، لأنها تجمع الوالد والولد، وقال ابن المنير: وفي طريق شاذة: مرحباً بالابن الصالح، وهذه هي القياس، لأنه جده الأعلى. وقيل: إن إدريس الذي لقيه ليس هو الجد المشهور، ولكنه إلياس، فإن كان كذلك ارتفع الإشكال.

فإن قلت: م كان هؤلاء الأنبياء عليهم السلام في السماوات دون غيرهم من الأنبياء؟ وما وجا اختصاص كل واحد منهم بسماء تخصه؟ ولم كان في السماء الثانية بخصوصها اثنان

أجيب: عن الاقتصار على هؤلاء دون غيرهم من الأنبياء، بأنهم أمروا بملاقات نبينا ﷺ، فمنهم من أدركه في أول وهلة، ومنهم من تأخر فلحقه، ومنهم من فاته. وقيل: إشارة إلى ما سيقع له ﷺ مع قومه، من نظير ما وقع لكل منهم:

فأما آدم عليه السلام فوقع التنبيه بما وقع له من الخروج من الجنة إلى الأرض، بما سيقع لنبينا ﷺ من الهجرة إلى المدينة، والجامع بينهما ما حصل لكل منهما من المشقة. وكراهة فراق ما ألفه من الوطن، ثم كان عاقبة كل منهما أن يرجع إلى وطنه الذي خرج منه.

وبعيسى ويحيى ـ عليهما السلام ـ على ما وقع له أول الهجرة من عداوة اليهود وتماديهم على البغي عليه، وإرادتهم السوء به.

وبيوسف، بما وقع له من إخوته على ما وقع لنبينا ﷺ من قريش، من نصبهم الحرب له، وإرادتهم إهلاكه، وكانت العاقبة له، وقد أشار ﷺ إلى ذلك يوم الفتح بقوله لقريش: «أقول لكم كما قال يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1]، أي العتقاء. وبإدريس على رفيع منزلته عند الله تعالى. وبهارون على أن قومه رجعوا إلى محبته بعد أن آذوه.

وبموسى على ما وقع له من معالجة قومه، وقد أشار إلى ذلك ﷺ بقوله: «لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر». وبإبراهيم في استناده إلى البيت المعمور بما ختم له ﷺ في آخر عمره من إقامة مناسك الحج، وتعظيم البيت الحرام. وأجاب العارف ابن

(١) ذكره العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار ٣/ ١٧٩ .

أبي جمرة عن وجه اختصاص كل واحد منهم بسماء: بأن الحكمة في كون آدم في السماء الدنيا لأنه أول الأنبياء، وأول الآباء، وهو الأصل، ولأجل تأنيس النبوة بالأبوة. وأما عيسى فإنما كان في السماء الثانية لأنه أقرب الأنبياء إلى النبي ﷺ، ولا انمحت شريعة عيسى عليه السلام إلا بشريعة محمد ﷺ، ولأنه ينزل في آخر الزمان لأمة محمد ﷺ على شريعته ويحكم بها، ولهذا قال ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى»[1] فكان في الثانية لأجل هذا المعنى.

وإنما كان يحيى عليه السلام معه هناك لأنه ابن خالته، وهما كالشيء الواحد، فلأجل التزام أحدهما بالآخر كانا هناك معاً. وإنما كان يوسف عليه السلام في السماء الثالثة لأن على حسنه تدخل أمة محمد ﷺ الجنة، فأري له هناك لكي يكون ذلك بشارة له ﷺ فيسر بذلك. وإنما كان إدريس عليه السلام في السماء الرابعة لأنه هناك توفي ولم تكن له تربة في الأرض على ما ذكر[2].

وإنما كان هارون عليه السلام في السماء الخامسة لأنه ملازم لموسى عليه السلام، لأجل أنه أخوه وخليفته في قومه، فكان هناك لأجل هذا المعنى. وإنما لم يكن مع موسى في السماء السادسة لأن لموسى مزية وحرمة وهي كونه كليماً، واختص بأشياء لم تكن لهارون فلأجل هذا المعنى لم يكن معه في السادسة.

وإنما كان موسى عليه السلام في السماء السادسة لأجل ما اختص به من الفضائل، ولأنه الكليم، وهو أكثر الأنبياء أتباعاً بعد نبينا ﷺ.

وإنما كان إبراهيم عليه السلام في السماء السابعة لا نه الخليل والأب الأخير فناسب أن يتجدد للنبي ﷺ بلقياه أنس، لتوجهه بعد، إلى عالم آخر، وهو اختراق الحجب، وأيضاً لأنه الخليل، ولا أحد أفضل من الخليل إلا الحبيب، والحبيب ها هو قد علا ذلك المقام فكان الخليل فوق الكل لأجل خلته وفضله، وارتفع الحبيب فوق الكل لأجل ما اختص به بما زاد به عليهم، قال الله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾ [البقرة: ٢٥٣] فحصل لهم الكمال والدرجة الرفيعة وهي درجة الرسالة والنبوة، ورفعوا بعضهم فوق بعض بمقتضى الحكمة ترفيعاً للمرفوع دون تنقيص بالمنزول. انتهى فليتأمل.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل رقم الحديث (١٤٣) وأبو داود برقم (٤٦٧٥) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣١٩/٢ والحاكم في المستدرك ٥٩٢/٢ والهيثمي في مجمع الزوائد ٢١٤/٨ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٣٢) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٣٤٦).

(٢) قال الحافظ ابن حجر: «إن هذا من الإسرائيليات والله أعلم بصحته، وإن رفع إدريس وهو حي لم يثبت من طريق مرفوعة» والقصة هذه مروية عن كعب الأحبار.

وقد اختلف في رؤية نبينا ﷺ لهؤلاء الأنبياء عليهم السلام، فحمله بعضهم على رؤية أرواحهم إلا عيسى، لما ثبت من رفع جسده. وقد قيل في إدريس أيضاً ذلك.

وأما الذين صلوا معه في بيت المقدس، فيحتمل، الأرواح خاصة، ويحتمل: الأجساد بأرواحها.

وقيل: يحتمل أن يكون ﷺ عاين كل واحد منهم في قبره في الأرض على الصورة التي أخبر بها من الموضع الذي ذكر أنه عاينه فيه، فيكون الله عز وجل قد أعطاه من القوة في البصر والبصيرة ما أدرك به ذلك، ويشهد له رؤيته ﷺ الجنة والنار في عرض الحائط وهو محتمل لأن يكون ﷺ رآهما في ذلك الموضع أو مثل له صورتهما في عرض الحائط، والقدرة صالحة لكليهما.

وقيل: يحتمل أن يكون الله سبحانه وتعالى لما أراد بإسراء نبينا ﷺ، رفعهم من قبورهم لتلك المواضع إكراماً لنبيه ﷺ وتعظيماً له حتى يحصل له من قبلهم ما أشرنا إليه من الأنس والبشارة، وغير ذلك مما لم نشر إليه ولا نعلمه نحن. وكل هذه الوجوه محتمل، ولا ترجيح لأحدها على الآخر إذ القدرة صالحة لكل ذلك. انتهى.

وأما قوله في الحديث: (ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: وما هذا يا جبريل، قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران: فالنيل والفرات).

وفي رواية عند البخاري أيضاً: (فإذا في أصلها ـ أي سدرة المنتهى ـ أربعة أنهار). وعند مسلم: (يخرج من أصلها) وعنده أيضاً من حديث أبي هريرة: (أربعة أنهار من الجنة: النيل والفرات وسيحان وجيحان) فيحتمل: أن تكون سدرة المنتهى مغروسة في الجنة، والأنهار تخرج من أصلها، فيصح أنها من الجنة. ووقع في حديث شريك، كما عند البخاري في التوحيد: أنه رأى في السماء الدنيا نهرين يطردان، فقال له جبريل: هما النيل والفرات عنصرهما.

والجمع بينهما: أنه رأى هذين النهرين عند سدرة المنتهى مع نهري الجنة، ورآهما في السماء الدنيا دون نهري الجنة، وأراد بـ «العنصر» عنصر انتشارهما بسماء الدنيا، كذا قاله ابن دحية. ووقع في حديث شريك أيضاً: (ومضى به إلى السماء، وإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر، فقال: ما هذ يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك).

وروى ابن أبي حاتم عن أنس أنه ﷺ بعد أن رأى إبراهيم قال: ثم انطلق بي على ظهر السماء السابعة، حتى انتهى إلى نهر عليه جام الياقوت واللؤلؤ والزبرجد، وعليه طير خضر، أنعم طير رأيت، قال جبريل: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا فيه آنية الذهب والفضة يجري على رضراض من الياقوت والزمرد، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، قال: فأخذت من آنيته فاغترفت من ذلك الماء فشربت، فإذا هو أحلى من العسل وأشد رائحة من المسك.

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي: فإذا فيها عين تجري يقال لها السلسبيل، فينشق منها نهران: أحدهما الكوثر، والآخر يقال له نهر الرحمة، وسيأتي مزيد لما ذكر هنا من الكوثر في المقصد الأخير إن شاء الله تعالى.

وقد وقع في حديث ثابت عن أنس عند مسلم: (ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت. فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها)[1].

وقد جاء في حديث ابن مسعود عند مسلم أيضاً بيان سبب تسميتها بـ «سدرة المنتهى»، ولفظه: (لما أسري برسول الله ﷺ قال: انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض، فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها)[2].

وهو معنى قول ابن أبي جمرة: لأن إليها تنتهي الأعمال، ومن هناك ينزل الأمر والنهي وتتلقى الأحكام، وعندها تقف الحفظة وغيرهم لا يتعدونها، فكانت منتهى، لأن إليها ينتهي ما يصعد من السفلي، وما ينزل من العالم العلوي من أمر العلي.

وقال النووي: لأن علم الملائكة ينتهي إليها. ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله ﷺ. ولا يعارض قوله في حديث ابن مسعود هذا، أنها في السادسة، ما دل عليه بقية الأخبار أنه وصل إليها بعد أن دخل في السماء السابعة، لأنه يحمل على أن أصلها في السماء السادسة، وأغصانها وفروعها في السابعة، وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها، قاله في فتح الباري. وجاء في حديث أبي ذر عند البخاري في الصلاة: (فغشيها ألوان لا أدري ما هي).

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الايمان رقم الحديث (٢٥٩) والبخاري كتاب بدء الخلق (٦) والنسائي صلاة (١) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/١٢٨ و ٢١٠.

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٨٧ و ٣/ ١٤٩ و ٥/ ١٤٤.

وفي حديث ابن مسعود، المذكور عند مسلم، (قال الله تعالى: ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ [النجم: ١٦] قال: فراش من ذهب). وفي حديث يزيد بن أبي مالك عن أنس (جراد من ذهب). قال البيضاوي: وذكر الفراش وقع على سبيل التمثيل، لأن من شأن الشجر أن يسقط عليها الجراد وشبهه، وجعلها من الذهب حقيقة، والقدرة صالحة لذلك.

وفي حديث أبي سعيد وابن عباس (فغشيها الملائكة). وفي حديث علي (وعلى كل ورقة منها ملك). وفي رواية ثابت عن أنس عند مسلم (فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها). وفي رواية حميد عن أنس عند ابن مردويه: نحوه لكن قال: تحولت ياقوتاً، ونحو ذلك.

قال ابن دحية: واختيرت السدرة دون غيرها لأن فيها ثلاثة أوصاف: ظل مديد وطعم لذيذ، ورائحة زكية، فكانت بمنزلة الإيمان الذي يجمع القول والعمل والنية، فالظل بمنزلة العمل، والطعم بمنزلة النية، والرائحة بمنزلة القول.

وقال العارف ابن أبي جمرة: وهل الشجرة مغروسة في شيء أم لا؟ يحتمل الوجهين معاً، لأن القدرة صالحة لكليهما. فكما جعل الله في هذه الدار الأرض مقراً للشجر، كذلك يجعل الهواء لتلك مقراً، وكما رجع ﷺ يمشي في الهواء كما كان يمشي في الأرض، ولأن بالقدرة استقرت الأرض مع أنها على الماء، فلا مانع من أن تكون الشجرة في الهواء، ويحتمل أن تكون مغروسة بأرض، وأن تكون من تراب الجنة، والله قادر على ما يشاء.

وأما قوله ﷺ في الحديث: (ثم أتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال: «هي الفطرة التي أنت عليها». فيدل على أنه عرض عليه الآنية مرتين، مرة ببيت المقدس، ومرة عند وصوله سدرة المنتهى ورؤية الأنهار الأربعة

وأما الاختلاف في عدد الآنية وما فيها، فيحمل على أن بعض الروا؛ ذكر ما لم يذكره الآخر، ومجموعها أربعة أوانٍ، فيها أربعة أشياء من الأنهار الأربعة الـ ي رآها تخرج من أصل سدرة المنتهى.

ووقع في حديث أبي هريرة عند الطبري: سدرة المنتهى يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه، ومن خمر لذة للشاربين، ومن عسل مصفى. فلعله عرض عليه من كل نهر إناء وجاء عن كعب: أن نهر العسل نهر النيل، ونهر اللبن نهر جيحان، ونهر الخمر نهر الفرات، ونهر الماء نهر سيحان. ولنهر النيل فضائل

ولطائف أفردها بالتأليف غير واحد من الأئمة. ووقع في بعض الطرق: .أنه ﷺ صلى بالأنبياء في السماوات.

وأما قوله ﷺ في الحديث: (ثم رفع إلي البيت المعمور). فمعناه أنه أري له، وقد يحتمل أن يكون المراد الرفع والرؤية معاً، لأنه قد يكون بينه وبين البيت المعمور عوالم حتى لا يقدر على إدراكه، فرفع اليه وأمد في بصره وبصيرته حتى رآه.

وروى الطبري من حديث ابن أبي عروبة عن قتادة قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال: البيت المعمور مسجد في السماء بحذاء الكعبة لو خرَّ لخرَّ عليها، يدخله سبعون ألف ملك كل يوم، إذا خرجوا منه لم يعودوا.

وفي هذا دليل عظيم على قدرة الله تعالى، وأنه لا يعجزه شيء ممكن، لأن هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم هذا العدد العظيم منذ خلق الله تعالى الخلق إلى الأبد، ثم طائفة هذا اليوم لا ترجع إليه أبداً. ومع أنه قد روي أنه ليس في السماوات ولا في الأرض موضع شبر إلا وملك واضع جبهته هناك ساجداً، ثم البحار ما من قطرة إلا وبها ملك موكل، فإذا كانت السماوات والأرض والبحار هكذا، فهؤلاء الملائكة الذين يدخلون أين يذهبون؟ هذا من عظيم القدرة التي لا يشبهها شيء. وفي هذا دليل على أن الملائكة أكثر المخلوقات، لأنه إذا كان سبعون ألف ملك كل يوم تصلي في البيت المعمور على ما تقدم، ثم لا يعودون، مع أن الملائكة في السماوات والأرض والبحار.

وفي حديث أبي هريرة عند ابن مردويه وابن أبي حاتم: أن في السماء نهراً يقال له: الحيوان، يدخله جبريل كل يوم فينغمس فيه، ثم يخرج فينتفض، فيخرج منه سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة ملكاً، فهم الذين يصلون فيه، أي في البيت المعمور، ثم لا يعودون إليه. وإسناده ضعيف[1].

وذكر الإمام فخر الدين الرازي عند تفسير قوله تعالى: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ [النحل: ٨] أنه روى عن عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس أنه قال: إن عن يمين العرش نهراً من نور مثل السماوات السبع والأرضين السبع والبحار السبعة، يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر ويغتسل فيه، فيزداد نوراً إلى نوره وجمالاً إلى جماله، ثم ينتفض فيخلق الله من كل نقطة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك يدخل منهم كل يوم سبعون ألفاً، ثم لا يعودون إليه إلى أن تقوم الساعة. وقد روي أن ثم ملائكة يسبحون الله تعالى، فيخلق الله بكل تسبيحة ملكاً.

---

(١) في اللآلىء المصنوعة قوله: منكر لا أصل له.

هذا ما عدا الملائكة التي للتعبد، وما عدا الملائكة الموكلين بالنبات والأرزاق، والحفظة، والملك الموكل بتصوير ابن آدم، والملائكة الذين ينزلون في السحاب، والملائكة الذين يكتبون الناس يوم الجمعة، وخزنة الجنة، والملائكة الذين يتعاقبون، والذين يؤمنون على قراءة المصلي، والذين يقولون: ربنا ولك الحمد، والذين يدعون لمنتظر الصلاة، والذين يلعنون من هجرت فراش زوجها.

وروي أن في السماء الدنيا ـ وهي من ماء ودخان ـ ملائكة خلقوا من ماء وريح عليهم ملك يقال له الرعد، وهو ملك موكل بالسحاب والمطر، يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت.

وأن في الثانية ملائكة على ألوان شتى، رافعين أصواتهم يقولون: سبحان ذي العزة والجبروت، وأن فيها ملكاً نصف جسده من نار ونصف جسده من ثلج، فلا النار تذيب الثلج، ولا الثلج يطفىء النار، وهو يقول: يا من ألف بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين.

وأن في الثالثة ـ وهي من حديد ـ ملائكة ذوي أجنحة شتى ووجوه شتى وأصوات شتى، رافعي أصواتهم بالتسبيح يقولون: سبحانك أنت الحي الذي لا يموت، وهم صفوف قيام، كأنهم بنيان مرصوص، لا يعرف أحدهم لون صاحبه من خشية الله.

وأن في السماء الرابعة ـ وهي من نحاس ـ ملائكة يضعفون على ملائكة الثالثة، وكذلك كل سماء أكثر عدداً من التي تليها، وأن ملائكة السماء الرابعة قيام وركوع وسجود على ألوان شتى من العبادة، يبعث الله الملك منهم إلى أمر من أموره، فينطلق الملك ثم ينصرف فلا يعرف صاحبه الذي إلى جنبه من شدة العبادة وهم يقولون. سبوح قدوس، ربنا الرحمن الذي لا إله إلا هو.

وأن في الخامسة ـ وهي من فضة ـ ملائكة يزيدون على ملائكة الأربع سماوات، وهم سجود وركوع لم يرفعوا أبصارهم إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة قالوا: ربنا، لم نعبدك حق عبادتك.

وأن في السماء السادسة ـ وهي من ذهب ـ جند الله الأعظم الكروبيون، لا يحصر عددهم إلا الله تعالى، وعليهم ملك له سبعون ألف ملك جنده، وكل ملك منهم جنوده سبعون ألف ملك، وهم الذين يبعثهم الله في أموره إلى أهل الدنيا، رافعوا أصواتهم بالتسبيح والتهليل.

وأن في السابعة ـ وهي ياقوتة حمراء ـ من الملائكة ما يزيدون على ما تقدم،

وعليهم ملك مقدم على سبعمائة ألف ملك، منهم جنود مثل قطر السماء، وتراب الثرى والرمل والسهل، وعدد الحصى والورق، وعدد كل خلق في السماوات والأرض، ويخلق الله تعالى في كل يوم ما يشاء، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

وأن حملة العرش ثمانية يتجاوبون، لكل ملك منهم وجوه شتى وأعين شتى في جسده، لا يشبه بعضها بعضاً، رافعة أصواتهم بالتهليل، ينظرون إلى العرش لا يفترون، لو أن الملك منهم نشر جناحيه لطبق الدنيا بريشة من جناحه، لا يعلم عددهم إلا الله.

وحملة العرش ثمانية يتجاوبون بصوت حسن رخيم، تقول أربعة منهم: سبحانك اللهم وبحمدك على حلمك بعد علمك، وتقول أربعة: سبحانك اللهم وبحمدك على عفوك بعد قدرتك(١).

وقد روى الطبراني من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «على أي شيء أنت؟» قال على الريح والجنود، قال: «وعلى أي شيء ميكائيل؟» قال: على النبات والقطر، قال: «وعلى أي شي ملك الموت؟» قال: على قبض الأرواح، الحديث، وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وقد ضعف لسوء حفظه ولم يترك.

وروى الترمذي من حديث أبي سعيد مرفوعاً: «وزيراي من أهل السماء: جبريل وميكائيل»(٢) الحديث. وروى النقاش أن إسرافيل أول من سجد من الملائكة، وأنه جوزي بولاية اللوح المحفوظ. وفي كتاب «العظمة» لأبي الشيخ ابن حيّان من ذلك العجب العجاب، وعندي منه الجزء الثاني. وقد وقعت في غير رواية البخاري هنا زيادات فمنها:

ما وقع في رواية أبي سعيد الخدري عند البيهقي في دلائله: ثم صعدت إلى السماء السابعة فإذا إبراهيم الخليل ساند ظهره إلى البيت المعمور، كأحسن الرجال، ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم علي، وإذا بأمتي شطرين، شطر عليهم ثياب بيض كأنهم القراطيس، وشطر عليهم ثياب رمدة، قال: فدخلت البيت المعمور ودخل معي الذين عليهم الثياب البيض، وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمدة، فصليت أنا ومن معي في البيت المعمور.

وفي رواية الطبراني: فإذا هو برجل أشمط جالس على باب الجنة على كرسي،

---

(١) لم يعزه المؤلف ولا الزرقاني في شرحه ولكن أشار إلى بعض فقرات منه بأنها موضوعة.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب (١٦) رقم الحديث (٣٦٨٠) والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٦٥ والسيوطي في الدر المنثور ١/ ٩٤ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٦٧٩ ـ ٣٦١٤٨).

وعنده قوم بيض الوجوه أمثال القراطيس، وقوم في ألوانهم شيء، فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه وخرجوا وقد خلصت ألوانهم وصارت مثل ألوان البيض الوجوه، فقال: من هذا ومن هؤلاء الذين في ألوانهم شيء، وما هذه الأنهار التي دخلوا فيها وقد صفت ألوانهم؟ قال: هذا أبوك إبراهيم أول من شمط على الأرض، وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم، وأما هؤلاء النفر الذين في ألوانهم شيء فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتابوا فتاب الله عليهم، وأما الأنهار، فأولها رحمة، والثانية نعمة الله، والثالث وسقاهم ربهم شراباً طهوراً.

وفي رواية البخاري في الصلاة (ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام) الحديث. والمستوى: المصعد. وصريف الأقلام: ـ بفتح الصاد المهملة ـ تصويتها حالة الكتابة.

والمراد: ما تكتبه الملائكة من أقضية الله تعالى. والقدر المكتوب قديم، وإنما الكتابة حادثة، وظاهر الأخبار أن اللوح المحفوظ فرغ من كتابته، وجف القلم بما فيه قبل خلق السماوات والأرض، وإنما هذه الكتابة في صحف الملائكة كالفروع المنتسخة من الأصل، وفيها الإثبات والمحو على ما ذكر في الآية. وذكر ابن القيم: أن الأقلام اثنا عشر قلماً، وأنها متفاوتة في الرتب:

فأعلاها وأجلها قدراً، قلم القدر السابق، الذي كتب الله به مقادير الخلائق، كما في سنن أبي داود، عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله تعالى القلم، قال له: اكتب، قال: رب، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»[1] فهذا أول قلم وأجلها، وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذي أقسم الله به.

والقلم الثاني: قلم الوحي.

والقلم الثالث: قلم التوقيع عن الله ورسوله.

والرابع: قلم طب الأبدان الذي تحفظ به صحتها.

والخامس: قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم وبه تساس الممالك.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن برقم (٤٧٠٠) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣١٧/٥ والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٢٠٤ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٩٤) والهيثمي في مجمع الزوائد ١٢٨/٧ والسيوطي في جمع الجوامع (٦٣٧٥) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/ ٤٥٤ والطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٤٣٣ والمتقي الهندي في كنز العمال (٥٩٧ ـ ١٥١١٦ ـ ١٥١١٧).

والسادس: قلم الحساب، وهو الذي تضبط به الأموال، مستخرجها ومصرفها ومقاديرها، وهو قلم الأرزاق.

والسابع: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق وتنفذ به القضايا.

والثامن: قلم الشهادة التي تحفظ به الحقوق.

والتاسع: قلم التعبير، وهو كاتب وحي المنام وتفسيره وتعبيره.

والعاشر: قلم تواريخ العالم ووقائعه.

والحادي عشر: قلم اللغة وتفاصيلها.

والثاني عشر: القلم الجامع، وهو قلم الرد على المبطلين، ودفع شبه المحرفين.

فهذه الأقلام التي بها انتظام مصالح العالم. قال: ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به وأنه تعالىٰ أقسم به في كتابه. انتهى ملخصاً من كتاب «أقسام القرآن».

وقد وقع في رواية أبي ذر عند مسلم وغيره من الزيادة أيضاً: (ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك) الحديث.

والجنابذ: ـ بالجيم ثم النون المفتوحتين ثم ألف ثم موحدة ثم ذال معجمة ـ هي القباب. ويؤيده ما في «التفسير» من البخاري من حديث قتادة عن أنس: (لما عرج به ﷺ قال: أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ. وأما ما في «كتاب الصلاة» من البخاري (وإذا فيها حبائل اللؤلؤ) ـ بالمهملة والموحدة وآخره لام ـ فقال القاضي عياض وغيره: هو تصحيف. وفي حديث الإمام أحمد من رواية حذيفة: (فتحت لهما أبواب السماء، قال: فرأيت الجنة والنار). وفي حديث أبي سعيد: أنه عرضت عليه الجنة، وأن رمانها كأنه الدلاء، وإذا طيرها كأنه البخت، وأنه عرضت عليه النار، فإذا هي لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها. ووقع عند مسلم من طريق همام عن قتادة عن أنس: (بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، وإذا طينه مسك أذفر، فقال جبريل: هذا الكوثر).

وفي رواية أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه: أن إبراهيم عليه السلام قال للنبي ﷺ يا بني، إنك لاق ربك الليلة، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك في أمتك فافعل.

ووقع في حديث أبي سعيد الخدري، عند البيهقي: ثم صعد بي إلى السماء السابعة، قال: ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا كل ورقة منها تغطي هذه الأمة، وإذا

فيها عين تجري يقال لها: السلسبيل، فيشق منها نهران، أحدهما الكوثر، والآخر يقال له: الرحمة، فاغتسلت فيه فغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، ثم رفعت إلى الجنة، فاستقبلتني جارية، فقلت: لمن أنت يا جارية؟ قالت: لزيد بن حارثة. وفيه: فإذا رمانها أنه الدلاء عظماً، ثم عرضت علي النار، فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته، لو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها، ثم أغلقت دوني.

وفي الطبراني من حديث عائشة: لما كان ليلة أسري بي إلى السماء، أدخلت الجنة، فوقفت على شجرة من أشجار الجنة لم أر في الجنة أحسن منها، ولا أبيض منها، ولا أطيب منها ثمرة، فتناولت ثمرة من ثمارها فأكلتها فصارت نطفة في صلبي، فلما هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة. وهو حديث ضعيف[1]. وفيه التصريح بأن الإسراء كان قبل ولادة فاطمة، وهي ولدت قبل النبوة بسبع سنين وشيء، ولا ريب أن الإسراء كان بعد النبوة.

وذكر أبو الحسن بن غالب، فيما تكلم فيه على أحاديث الحجب السبعين والسبعمائة والسبعين ألف حجاب وعزاها لأبي الربيع بن سبع في شفاء الصدور من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال بعد أن ذكر مبدأ حديث الإسراء، كما ورد في الأمهات:

أتاني جبريل وكان السفير بي إلى ربي، إلى أن انتهى إلى مقام ثم وقف عند ذلك، فقلت: يا جبريل، في مثل هذا المقام يترك الخليل خليله؟ فقال: إن تجاوزته احترقت بالنور، فقال النبي ﷺ: يا جبريل، هل لك من حاجة؟ قال: يا محمد، سل الله أن أبسط جناحي على الصراط لأمتك حتى يجوزوا عليه، قال النبي ﷺ: ثم زج بي في النور زجاً، فخرق بي إلى السبعين ألف حجاب، ليس فيها حجاب يشبه حجاباً، وانقطع عني حس كل إنسي وملك، فلحقني عند ذلك استيحاش، فعند ذلك ناداني مناد بلغة أبي بكر: قف إن ربك يصلي، فبينا أنا أتفكر في ذلك فأقول: هل سبقني أبو بكر؟ فإذا النداء من العلي الأعلى، ادن يا خير البرية، ادن يا أحمد ادن يا محمد، ليدن الحبيب، فأدناني ربي حتى كنت كما قال تعالى: ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ [النجم: ٨ ـ ٩]. قال: وسألني ربي فلم أستطع أن أجيبه، فوضع يده بين كتفي ـ بلا تكييف ولا تحديد ـ فوجدت بردها بين ثديي، فأورثني علم الأولين والآخرين، وعلمني علوماً شتى، فعلم أخذ علي كتمانه إذ علم أنه لا يقدر على حمله أحد غيري، وعلم خيرني فيه، وعلمني القرآن فكان جبريل عليه السلام يذكرني به، وعلم أمرني بتبليغه إلى العام والخاص من

---

(١) قال الذهبي موضوع. وابن الجوزي.

أمتي. ولقد عاجلت جبريل عليه السلام في آية نزل بها علي، فعاتبني ربي وأنزل علي ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضىٰ إليك وحيه وقل رب زدني علماً﴾ [طه: ١١٤]، ثم قلت: اللهم إنه لما لحقني استيحاش قبل قدومي عليك سمعت منادياً ينادي بلغة تش[illegible] أبي بكر فقال لي: قف إن ربك يصلي[1]، فعجبت من هاتين، هل سبقني أبو بكر الى المقام؟ وإن ربي لغني عن أن يصلي، فقال تعالى: أنا الغني عن أن أصلي لأحد، وإنما أقول: سبحاني سبحاني، سبقت رحمتي غضبي، اقرأ يا محمد: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ [الأحزاب: ٤٣]، فصلاتي رحمة لك ولأمتك، وأما أمر صاحبك يا محمد، فإن أخاك موسى كان أنسه بالعصا، فلما أردنا كلامه قلنا: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى، قال هي عصاي﴾ [طه: ١٧ ـ ١٨]، وشغل بذكر العصا عن عظيم الهيبة. وكذلك أنت يا محمد، لما كان أنسك بصاحبك أبي بكر وأنك خلقت أنت وهو من طينة واحدة، وهو أنيسك في الدنيا والآخرة، خلقنا ملكاً على صورته يناديك بلغته ليزول عنك الاستيحاش، فلا يلحقك من عظيم الهيبة ما يقطعك عن فهم ما يراد منك. ثم قال الله تعالى: وأين حاجة جبريل؟ فقلت: اللهم إنك أعلم، فقال: يا محمد، قد أجبته فيما سأل، ولكن فيمن أحبك وصحبك.

وفي رواية: فتقدمت وجبريل على أثري، حتى انتهى بي إلى حجاب فراش الذهب فحرك الحجاب، فقيل من هذا؟ قال: أنا جبريل ومعي محمد ﷺ فقال الملك: الله أكبر، فأخرج يده من تحت الحجاب فاحتملني فوضعني بين يديه في أسرع من طرفة عين، وغلظ الحجاب مسيرة خمسمائة عام، فقال لي: تقدم يا محمد، فمضيت فانطلق بي الملك في أسرع من طرفة عين إلى حجاب اللؤلؤ، فحرك الحجاب، فقال الملك من وراء الحجاب: من هذا؟ فقال أنا فلان صاحب حجاب الذهب، وهذا محمد ﷺ رسول رب العزة معي، فقال: الله أكبر، فأخرج يده من تحت الحجاب فاحتملني حتى وضعني بين يديه، فلم أزل كذلك من حجاب إلى حجاب، حتى جاوزت سبعين حجاباً، غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام، فقال لي: تقدم يا محمد، فمضيت فانطلق بي الملك، ثم دلي لي رفرف أخضر يغلب ضوؤه ضوء الشمس، فالتمع بصري، ووضعت على ذلك الرفرف، ثم احتملت حتى وصلت إلى العرش، فأبصرت أمراً عظيماً لا تناله الألسن، ثم دلي لي قطرة من العرش، فوقعت على لساني، فما ذاق الذائقون شيئاً قط أحلى منها

---

(١) قال محمود الحوت البيروتي في «أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب» حديث: قف إن ربك يصلي، باطل.

فأنبأني الله بها نبأ الأولين والآخرين، ونور قلبي، وغشي نور عرشه بصري فلم أر شيئاً فجعلت أرى بقلبي ولا أرى بعيني، ورأيت من خلفي ومن بين كتفي، كما رأيت أمامي، الحديث. رواه والذي قبله في كتاب «شفاء الصدور» كما ذكره ابن غالب والعهدة عليه في ذلك.

وتكثير الحجب لم يرد في طريق صحيح، ولم يصح في ذلك غير ما في مسلم: (حجابه النور)[1]. والرفرف: البساط، وقيل إنه في الأصل ما كان من الديباج وغيره رقيقاً حسن الصنعة ثم اتسع فيه.

واعلم أن ما ذكر في هذا المحل الرفيع من الحجب فهو في حق المخلوق، لا في حق الخالق عز وجل، والله سبحانه وتعالى منزه عما يحجب، إذ الحجب إنما تحيط بمقدر محسوس، فالخلق كلهم محجوبون عنه تعالى بمعاني الأسماء والصفات والأفعال، وسائر المخلوقات من معاني الأنوار والظلمات كل له مقام من الحجب معلوم، وحظ من الإدراك والمعرفة مقسوم، وأقرب الخلق إلى الله تعالى الملائكة الحافون والكروبيون، وهم محجوبون بنور المهابة والعظمة والكبرياء والجلال والقدس والقيومية، حجب الذات بالصفات. وهم في الحجب عنه على طبقات مختلفات، كل على مقام معلوم ودرجات.

وبالجملة، فالمخلوقات كلها ما كانت حجاباً عن الخالق؟ فقوم حجبوا برؤية النعم عن المنعم، وبرؤية الأحوال عن المحول، وبرؤية الأسباب عن المسبب، وقوم حجبوا بالعلم عن المعلم وبالفهم عن المفهم، وبالعقل عن المعقل، وذلك كله من معنى حجاب النعم عن المنعم، والمواهب عن الواهب.

وقوم حجبوا بالشهوات المباحة، وقوم بالشهوات المحرمات والمعاصي والسيئات، وقوم حجبوا بالمال والبنين وزينة الحياة الدنيا. اللهم لا تحجب قلوبنا عنك في الدنيا ولا أبصارنا عنك في الآخرة يا كريم.

وقد ورد في الصحيح عن أنس قال: (لما عرج بي جبريل إلى سدرة المنهى. ودنا الجبار رب العزة جل جلاله فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى)[2] الحديث.

وهذا الدنو والتدلي المذكور في هذا الحديث وغيره من أحاديث المعراج غير الدنو

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الايمان برقم (٢٩٣).

(٢) الحديث في البخاري برقم (٧٥١٧) ولفظه: فأوحى الله فيما أوحى خمسين صلاة.

والتدلي المذكور في قوله تعالى في سورة النجم: ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ [النجم : ٨ و ٩]. وإن اتفقا في اللفظ . فإن الصحيح أن المراد في الآية جبريل ، لأنه الموصوف بما ذكر من أول السورة إلى قوله: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٤]. هكذا فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح.

قالت عائشة رضي الله عنها: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: «ذاك جبريل لم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين»[1]. ولفظ القرآن لا يدل على غير ذلك من وجوه.

أحدها: أنه قال: ﴿علمه شديد القوى﴾ [النجم: ٥]. وهذا جبريل الذي وصفه بالقوة في سورة التكوير.

الثاني: أنه قال: ﴿ذو مرة﴾ [النجم: ٦] أي حسن الخلق وهو الكريم الذي في سورة التكوير.

الثالث: أنه قال: ﴿فاستوى وهو بالأفق الأعلى﴾ [النجم: ٦ و ٧] وهو ناحية السماء العليا، وهذا استواء جبريل عليه السلام، وأما استواء الرب جل جلاله فعلى عرشه.

الرابع: أنه قال: ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ [النجم ٨ و ٩] فهذا دنو جبريل وقد نزل إلى الأرض حيث كان رسول الله ﷺ بها. وأما الدنو والتدلي في حديث المعراج فرسول الله ﷺ كان فوق السماوات فهناك دنى الجبار جل جلاله منه وتدلى.

الخامس: أنه قال: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى﴾ [النجم: ١٣ و ١٤] والذي عند سدرة المنتهى قطعاً هو جبريل، وبهذا فسره النبي ﷺ فقال: ذاك جبريل.

السادس: أن نفس الضمير في قوله: ﴿ولقد رآه﴾ [النجم: ١٣] وقوله: ﴿دنا فتدلى﴾ [النجم: ٨] وقوله: ﴿فاستوى﴾ [النجم: ٦] وقوله: ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ [النجم: ٧] واحد، فلا يجوز أن يخالف بين المفسرين من غير دليل.

السابع: أنه سبحانه وتعالى أخبر أن هذا الذي دنا فتدلى كان بالأفق الأعلى، وهو أفق السماء، بل تحتها فدنا من الأرض فتدلى من رسول الله ﷺ، ودنو الرب تبارك

---

(١) الحديث في صحيح مسلم كتاب الايمان رقم (٢٨٧) وفي مسند أبي عوانة ١/ ١٥٤ وفي الترمذي برقم (٣٢٧٨) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٢٣٦.

وتدليه ـ على ما في حديث شريك ـ كان فوق العرش لا إلى الأرض.

ثم نفى سبحانه وتعالى عن نبيه ﷺ بقوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ [النجم: ١٧] ما يعرض للرائي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء من التفاته يميناً وشمالاً، ومجاوزة بصره لما بين يديه، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام وفي تلك الحضرة إذ لم يلتفت جانباً ولم يمد بصره إلى غير ما أري من الآيات، وما هناك من العجائب، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطراقه وإقباله على ما أريه دون التفاته إلى غيره ودون تطلعه إلى ما لم يره مع ما في ذلك من ثبات الجأش وسكون القلب وطمأنينته، وهذا غاية الكمال.

وقال في «مدارج السالكين»: وفي هذه الآية أسرار عجيبة هي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر، صلوات الله وسلامه عليه، تواطأ هناك بصره وبصيرته وتوافقا وتصادقا، فما شاهده بصره فالبصيرة مواطئة له، وما شاهدته بصيرته فهو أيضاً حق مشهود بالبصر، فتواطأا في حقه، أي: ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره، ولهذا قرأها هشام وأبو جعفر ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ [النجم: ١١] بتشديد الذال، أي لم يكذب القلب البصر بل صدقه وواطأه بصحة الفؤاد والبصر، وكون المرئي المشاهد بالبصر والبصيرة حقاً. وقرأ الجمهور ﴿ما كذب الفؤاد﴾ [النجم: ١١] بالتخفيف، وهو متعد، و «ما رأى» مفعوله، أي: أي ما كذب قلبه ما رأت عيناه بل واطأه ووافقه.

فلمواطأة قلبه لقالبه، وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته، لم يكذب الفؤاد البصر، ولم يتجاوز البصر حده، ولم يمل عن المرئي فيزيغ، بل اعتدل البصر على المرئي لم يتجاوزه ولا مال عنه لما اعتدل القلب في الإقبال على الله بكليته والإعراض عما سواه، فإنه أقبل على الله بكليته وأعرض عما سواه، بكليته.

وللقلب زيغ وطغيان، كما أن للبصر زيغاً وطغياناً وكلاهما منتفٍ عن قلبه وبصره، فلم يزغ قلبه التفاتاً عن الله إلى غيره ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه، وهذا غاية الكمال والأدب مع الله تعالى الذي لا يلحقه فيه سواه، فإن عادة النفوس إذا أقيمت في مقام عال رفيع أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه، ألا ترى إلى موسى عليه السلام، لما أقيم مقام التكليم والمناجاة طلبت نفسه الرؤية، ونبينا ﷺ لما أقيم في ذلك المقام وفاه حقه، ولم يتلفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه البتة، ولأجل هذا ما عاقه عائق، ولا وقف به مراد، حتى جاوز السماوات السبع فلم تعقه إرادة منه لشيء، ولم تقف به دون كمال العبودية همة، ولهذا كان مركوبه في مسراه يسبق خطوه الطرف، فيضع قدمه عند

منتهى طرفه، مشاكلاً لحال راكبه وبعد شأوه الذي يسبق به العالم أجمع في سيره، فكان قدم البراق لا يتخلف عن موضع نظره، كما كان قدمه ﷺ لا يتخلف عن محل معرفته.

فلم يزل ﷺ في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مرتبة عبوديته له، حتى خرق حجب السماوات، وجاوز السبع الطباق، وجاوز سدرة المنتهى، ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين، فانصبت له هناك أقسام القرب انصباباً، وانقشعت سحائب الحجب ظاهراً وباطناً حجاباً حجاباً، وأقيم مقاماً غبطه فيه الأنبياء والمرسلون.

فإذا كان في المعاد أقيم مقاماً من القرب تاماً، يغبطه فيه الأولون والآخرون، واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله تعالى، ما زاغ البصر وما طغى، فأقامه في هذا العالم على أقوم صراط على الحق والهدى، وأقسم بكلامه القديم على ذلك في الذكر الحكيم فقال: ﴿يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم﴾ [يس: ١ ـ ٤] فإذا كان يوم المعاد أقامه على الصراط، فيسأل السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتى يجوزوا إلى جنات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ثم إن ما ذكر هنا من القرب والدنو، المراد به تأكيد المحبة والقربة، ورفع المنزلة والرتبة، قال جعفر الصادق: لما قرب الحبيب من الحبيب غاية القرب، نالته غاية الهيبة، فلاطفه الحق تعالى بغاية اللطف، وذلك قوله جل جلاله: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ [النجم: ١٠] أي كان ما كان وجرى ما جرى، وقال الحبيب للحبيب ما يقول الحبيب للحبيب: وألطف به الطاف الحبيب بالحبيب، فخفي السر ولم يطلع عليه أحد، ما أوحى إلا الذي أوحى.

وقال غيره في قوله: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ [النجم: ١٠] أبهمه لعظمه، فإن الإبهام قد يقع للتعظيم، فهو مبهم لا يطلع عليه بل يتعبد بالإيمان به. وقيل: بل هو مفسر بالأخبار الواردة، قال سعيد بن جبير: أوحى الله تعالى إليه ﷺ، ألم نجدك يتيماً فآويتك، ألم أجدك ضالاً فهديتك، ألم أجدك عائلاً فأغنيتك، ﴿ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك﴾ [الشرح: ١ ـ ٤]. وقيل: أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك. ذكره الثعلبي والقشيري. وقيل: أوحى الله إليه: خصصتك بحوض الكوثر، فكل أهل الجنة أضيافك بالماء، ولهم الخمر واللبن والعسل. ذكره القشيري. وذكر أيضاً: أنه أوحى إليه ما أوحى إلى الرسل لقوله تعالى: ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ [فصلت: ٤٣]. وقيل: أوحى إليه الصلوات الخمس.

وفي رواية أبي سعيد الخدري عند البيهقي: أن الله تعالى قال له صلوات الله وسلامه عليه: سل، فقال: إنك اتخذت إبراهيم خليلاً وأعطيته ملكاً عظيماً، وكلمت موسى تكليماً، وأعطيت داود ملكاً عظيماً، وألنت له الحديد، وسخرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً، وسخرت له الإنس والجن والشياطين، وسخرت له الرياح، وأعطيته ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرىء الأكمه والأبرص ويحيـي الموتى بإذنك، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن له عليهما سبيل. فقال له ربه تعالى: قد اتخذتك حبيباً، فهو مكتوب في التوراة: حبيب الرحمن، وأرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك، فلا أذكر إلا ذكرت معي، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمة وسطاً، وجعلت أمتك هم الأولون وهم الآخرون، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم، وجعلتك أول النبيين خلقاً وآخرهم بعثاً وأولهم يقضى له، وأعطيتك سبعاً من المثاني لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشي لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك الكوثر وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام والهجرة والجهاد والصلاة والصدقة وصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلتك فاتحاً وخاتماً. وفي إسناده أبو جعفر الرازي ضعفه بعضهم، وقال أبو زرعة: إنه متهم، وقال ابن كثير: الأظهر أنه سيء الحفظ.

وذكر الفخر الرازي عن والده قال: سمعت أبا القاسم سليمان الأنصاري يقول: لما وصل محمد ﷺ إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في المعارج، أوحى الله تعالى إليه: يا محمد بم شرفك؟ قال: يا رب، بنسبتي إليك بالعبودية. فأنزل الله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ [الإسراء: ١] فسماه تعالى بهذا الاسم لتحققه ﷺ بالاسم الأعظم واتصافه بجميع صفاته، فلا يصلح هذا الاسم بالحقيقة إلا له ﷺ وللأقطاب من بعده بتبعيته لا بالحقيقة، وإن أطلق على غيره مجازاً، ويرحم الله الأديب برهان الدين القيراطي فلقد أجاد حيث قال:

ودعتني بالعبد يوماً فقالوا ... قد دعته بأشرف الأسماء

ولبعض أهل الإشارات: كأن الله تعالى قال له: يا محمد، قد أعطيتك نوراً تنظر به جمالي، وسمعاً تسمع به كلامي، يا محمد، إني أعرفك بلسان الحال معنى عروجك إلي، يا محمد، أرسلتك إلى الناس شاهداً ومبشراً ونذيراً، والشاهد مطالب بحقيقة ما يشهد به، فأريك جنتي لتشاهد ما أعددت فيها لأوليائي، وأريك ناري لتشاهد ما أعددت

فيها لأعدائي، ثم أشهدك جلالي، وأكشف لك جمالي لتعلم أني منزه في كمالي عن الشبيه والنظير، والوزير والمشير، فرآه ﷺ بالنور الذي قواه من غير إدراك ولا إحاطة فرداً صمداً، لا في شيء، ولا من شيء، ولا قائماً بشيء، ولا على شيء، ولا مفتقراً إلى شيء، ليس كمثله شيء، فلما كلمه شفاها، وشاهده كفاحاً، فقيل له: يا محمد لا بد لهذه الخلوة من سر لا يذاع ورمز لا يشاع، فأوحى إلى عبده ما أوحى، فكان سراً من سر، لم يقف عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وأنشد لسان الحال:

بيـن المحبيـن سـر ليـس يفشيـه | قـول ولا قلـم فـي الكـون يحكيـه
سـر يمـازجـه أنـس يقـابلـه | نـور تحيـر فـي بحـر مـن التيـه .

ولما انتهى إلى العرش تمسك العرش بأذياله، وناداه بلسان حاله: يا محمد، أنت في صفاء وقتك من مقتك أشهدك جمال أحديته، وأطلعك على جلال صمديته، وأنا الظمآن إليه اللهفان عليه المتحير فيه لا أدري من أي وجه آتيه، جعلني أعظم خلقه، فكنت أعظمهم منه هيبة، وأكثرهم فيه حيرة، وأشهدهم منه خوفاً. يا محمد، خلقني فكنت أرعد لهيبة جلاله، فكتب على قائمتي، لا إله إلا الله فازددت لهيبة إسمه ارتعاداً وارتعاشاً، فكتب محمد رسول الله، فسكن لذلك قلقي، وهدأ روعي، فكان اسمك لقاحاً لقلبي، وطمأنينة لسري، فهذه بركة كتابة اسمك علي، فكيف إذا وقع جميل نظرك إلي، يا محمد أنت المرسل رحمة للعالمين، ولا بد لي من نصيب من هذه الرحمة، ونصيبي يا حبيبي أن تشهد لي بالبراءة مما نسبه أهل الزور إلي، وتقوله أهل الغرور علي، زعموا: أني أسع من لا مثيل له، وأحيط بمن لا كيفية له. يا محمد، من لا حدَّ لذاته، ولا عدَّ لصفاته كيف يكون مفتقراً إلي؟ أو محمولاً علي؟ إذا كان الرحمن اسمه، والاستواء صفته وصفته متصلة بذاته فكيف يتصل بي أو ينفصل عني؟ يا محمد، وعزلته، لست بالقريب منه وصلاً، ولا بالبعيد عنه فصلاً، ولا بالمطيق له حملاً، أوجدني رحمة منه وفضلاً، ولو محقني لكان حقاً منه، وعدلاً، يا محمد، أنا محمول قدرته، ومعمول حكمته.

فأجاب لسان حال سيدي، زاده الله فضلاً وشرفاً لديه، ووالى صلاته وسلامه عليه: أيها العرش إليك عني، أنا مشغول عنك، فلا تكدر علي صفوتي، ولا تشوش علي خلوتي، فما أعاره ﷺ منه طرفاً، ولا أقرأه من مسطور ما أوحي إليه حرفاً، ما زاغ البصر وما طغى.

وقد ورد في بعض أخبار الإسراء مما ذكره العلامة ابن مرزوق في شرحه لبردة المديح: أنه ﷺ لما كان من ربه تعالى قاب قوسين قال: اللهم إنك عذبت الأمم بعضهم بالحجارة وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالمسخ، فما أنت فاعل بأمتي؟ قال: أنزل عليهم الرحمة وأبدل سيئاتهم حسنات، ومن دعاني منهم لبيته، ومن سألني أعطيته، ومن توكل

علي كفيته، وفي الدنيا أستر على العصاة، وفي الآخرة أشفعك فيهم، ولولا أن الحبيب يحب معاتبة حبيبه لما حاسبت أمتك. ولما أراد ﷺ الانصراف قال: يا رب، لكل قادم من سفره تحفة، فما تحفة أمتي؟ قال الله تعالى: أنا لهم ما عاشوا، وأنا لهم إذا ماتوا، وأنا لهم في القبور، وأنا لهم في النشور.

واعلم أنه قد اختلف العلماء قديماً وحديثاً في رؤيته ﷺ لربه ليلة الإسراء. فروى البخاري من حديث مسروق قال: (قلت لعائشة: يا أمتاه، هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ [الأنعام: ١٠٣] ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب﴾ [الشورى: ٥١] ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾ [لقمان: ٣٤] ومن حدثك أنه كتم فقد كذب، ثم قرأت ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ [المائدة: ٦٧] الآية، [ولكن][1] رأى جبريل في صورته مرتين)[2].

وفي رواية مسلم (من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية). وقولها: «قف شعري» أي قام من الفزع، لما حصل عندها من هيبة الله، واعتقدته من تنزيهه واستحالة وقوع ذلك. قال النووي ـ تبعاً لغيره ـ: لم تنف عائشة وقوع الرؤية بحديث مرفوع، ولو كان معها لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية، وقد خالفها غيرها من الصحابة، والصحابي إذا قال قولاً وخالفه غيره منهم لم يكن ذلك القول حجة اتفاقاً، انتهى.

قال الحافظ أبو الفضل العسقلاني: جزمه بأن عائشة لم تنف الرؤية بحديث مرفوع، تبع فيه ابن خزيمة، وهو عجيب، فقد ثبت عنها في صحيح مسلم ـ الذي شرحه الشيخ ـ فعنده من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق، في الطريق المذكورة، قال مسروق: وكنت متكئاً فجلست، فقلت: ألم يقل الله: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ [النجم: ١٣].

فقالت: أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله ﷺ عن هذا فقلت: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ فقال: لا، إنما رأيت جبريل منهبطاً.

---

(١) هكذا في البخاري وفي الأصل [ولكنه].

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب (١) رقم الحديث (٤٨٥٥).

نعم، احتجاج عائشة ـ رضي الله عنها ـ بالآية، خالفها فيه ابن عباس. فأخرج الترمذي من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: (رأى محمد ربه، فقلت: أليس يقول الله: (لا تدركه الأبصار) [الأنعام: ١٠٣] قال: ويحك، ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره، وقد رأى ربه مرتين)(١). وقال القرطبي: «الأبصار» في الآية جمع محلى بالألف واللام، فيقبل التخصيص، وقد ثبت دليل ذلك سمعاً في قوله تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون﴾ [المطففين: ١٥] فيكون المراد: الكفار، بدليل قوله في الآية الأخرى: ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢ و ٢٣]، وإذا جازت في الآخرة جازت في الدنيا لتساوي الوقتين بالنسبة إلى المرئي، انتهى وهو استدلال جيد.

وقال القاضي عياض: رؤية الله تعالى جائزة عقلاً، وليس في العقل ما يحيلها، والدليل على جوازها: سؤال موسى ـ عليه السلام ـ لها، ثم قال: وليس في الشرع دليل قاطع على استحالتها ولا امتناعها، إذ كل موجود فرؤيته جائزة غير مستحيلة، ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣] لاختلاف التأويلات في الآية، انتهى.

وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن إسماعيل بن علية في تأويل هذه الآية قال: هذا في الدنيا. وقال آخرون: لا تدركه الأبصار، أي جميعها، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الدار الآخرة. وقال آخرون من المعتزلة، بمقتضى ما فهموا من هذه الآية: أنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة. فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك، مع ما ارتكبوه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢ و ٢٣] وقوله: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون﴾ [المطففين: ١٥] قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ: فدل هذا على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى. وأما السنة: فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس وجرير، وصهيب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ: أن المؤمنين يرون الله تبارك وتعالى في الدار الآخرة في العرصات، وفي روضات الجنات، جعلنا الله منهم. وقيل: المنفي في الآية، إدراك العقول: قال الحافظ ابن كثير: وهو غريب جداً، وخلاف ظاهر الآية.

وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك، فإن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم. ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي، ما هو؟ فقيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو، وإن رآه المؤمنون، كما أن من

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٣٢٧٩).

رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته، فالعظيم أولى بذلك، وله المثل الأعلى.
وقال آخرون: المراد بالإدراك الإحاطة، قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية: كما لا يلزم من عدم الرؤية عدم العلم. وفي صحيح مسلم (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك[1]) ولا يلزم من هذا عدم الثناء فكذلك هذا.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣] فقال: لو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا، صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً. قال ابن كثير: غريب، لا يعرف إلا من هذا الوجه ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة والله أعلم.

ومما نسب لإمام الحرمين في «لمع الأدلة» أنه قال: من أصحابنا من قال: إن الرب تعالى يُرى ولا يُدرَك، لأن الإدراك ينبي عن الإحاطة، ودرك الغاية، والرب جل جلاله تقدس عن الغاية والنهاية، ثم قال: فإن عارضوا بقوله تعالى في جواب موسى عليه السلام: ﴿لن تراني﴾ [الأعراف: ١٤٣] وزعموا: أن «لن» تفيد النفي على التأبيد، قلنا: هذه الآية أوضح الأدلة على جواز الرؤية، فإنها لو كانت مستحيلة لكان معتقد جواز الرؤية ضالاً وكافراً، وكيف يعتقد ما لا يجوز على الله تعالى من اصطفاه لرسالته واختاره لنبوته، وخصه بكرامته، وشرفه بتكليمه، وجعله أفضل أهل زمانه، وأيده ببرهانه، وكيف يجوز على الأنبياء الريب في أمر يتعلق بعلم الغيب. فيجب حمل الآية على أن ما اعتقد موسى عليه السلام جوازه جائز، لكن ظن أن ما اعتقد جوازه ناجز، فرجع النفي في الجواب إلى الإنجاز، وما سأل موسى عليه السلام ربه رؤيته في المآل، فصرف النفي إليه، والجواب يدل على قضية الخطاب، انتهى.

وقال البيضاوي: في هذه الآية دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة، لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال، وخصوصاً ما يقتضي الجهل بالله تعالى، ولذلك رده بقوله: ﴿لن تراني﴾ [الأعراف: ١٤٣] دون: لن أرى، انتهى.

ونقل القاضي عياض عن أبي بكر الهذلي، في الآية، أن المراد: ليس لبشر أن يطيق أن ينظر إليَّ في الدنيا، وأنه من نظر إليَّ مات. قال: وقد رأيت لبعض السلف والمتأخرين ما معناه: أن رؤيته تبارك وتعالى في الدنيا ممتنعة لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم، وكونها متغيرة، غرضاً للآفات والفناء، فلم تكن لهم قوة على الرؤية، فإذا كان في الآخرة وركبوا تركيباً آخر، ورزقوا قوى ثابتة باقية، وأتم أنوار أبصارهم وقلوبهم،

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة برقم (٢٢٢) والنسائي في قيام الليل (٥١) والترمذي في الدعوات (١١٢٠٧٥) ومالك في الموطأ في مس القرآن (٣١).

قووا بها على الرؤية. قال: وقد رأيت نحو هذا لمالك بن أنس ـ رحمه الله ـ قال: لم ير في الدنيا لأنه باق، ولا يرى الباقي بالفاني. فإذا كان في الآخرة رزقوا أبصاراً باقية، رؤي الباقي بالباقي، وهذا كلام حسن مليح، وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضعف القوة، فإذا قوى الله تعالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم تمتنع في حقه، انتهى.

والاستثناء في قوله: «إلا من حيث ضعف القوة» ينبغي أن يكون منقطعاً، على معنى: لكن من حيث ضعف القوة، وإلا فضعف القوة قصاراه أن يكون مانعاً، أي امتنع من جهة ضعف القوة لا من جهة كونه مستحيلاً، ويدل غلى هذا قوله: «فإذا قوى الله تعالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع في حقه». وقد وقع في صحيح مسلم ما يؤيد هذه التفرقة في حديث مرفوع فيه (واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا)[1]. واخرجه ابن خزيمة أيضاً من حديث أبي أمامة، ومن حديث عبادة بن الصامت.

فإن جازت الرؤية في الدنيا عقلاً فقد امتنعت شرعاً، لكن من أثبتها للنبي ﷺ له أن يقول: إن المتكلم لا يدخل في عموم كلامه. وفي كلام ابن كثير: أن في بعض كتب الله المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى لما سأله الرؤية، يا موسى، إنه لن يراني حي إلا مات. وقد جزم القشيري ـ في الرسالة ـ بأنها لا تجوز في الدنيا على جهة الكرامة، وادعى حصول الإجماع عليه. وحكى القاضي عياض امتناعها في الدنيا عن جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين. وقال القشيري أيضاً: سمعت الإمام أبا بكر بن فورك يحكي عن أبي الحسن الأشعري في ذلك قولين في كتاب الرؤية الكبير. انتهى.

وقد ذهبت عائشة وابن مسعود إلى أنه ﷺ لم ير ربه ليلة الإسراء. واختلف عن أبي ذر. وذهب جماعة إلى إثباتها. وحكى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن: أنه حلف أن محمداً رأى ربه. وأخرج ابن خزيمة عن عروة ابن الزبير إثباتها، وبه قال سائر أصحاب ابن عباس. وجزم به كعب الأحبار والزهري، وصاحبه معمر وآخرون وهو قول الأشعري وغالب أتباعه. ثم اختلفوا: هل رآه بعينيه أو بقلبه؟ وجاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة، وأخرى مقيدة، فيجب حمل مطلقها على مقيدها، فمن ذلك، ما أخرجه النسائي بإسناد صحيح، وصححه الحاكم أيضاً من طريق عكرمة عن ابن عباس قال أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ.

ومنها: ما أخرجه مسلم من طريق أبي العالية عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ما

(١) أخرج مسلم نحوه في كتاب الفتن برقم (٩٥) والترمذي برقم (٢٢٣٥).

كذب الفؤاد ما رأى﴾ [النجم: ١١] ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ [النجم: ١٣] قال: رآه بفؤاده مرتين. وله: من طريق عطاء عن ابن عباس قال: رآه بقلبه. وأصرح من ذلك: ما أخرجه ابن مردويه من طريق عطاء عن ابن عباس قال: لم يره رسول الله ﷺ بعينيه وإنما رآه بقلبه.

وعلى هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة، بأن يحمل نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب. لكن روى الطبراني في الأوسط بإسناد رجاله رجال الصحيح، خلا جهوّر بن منصور الكوفي، وجهور بن منصور قد ذكره ابن حبان في الثقات، عن ابن عباس أنه كان يقول: إن محمد ﷺ رأى ربه مرتين، مرة ببصره ومرة بفؤاده.

ثم المراد «برؤية الفؤاد» رؤية القلب، لا مجرد حصول العلم، لأنه ﷺ كان عالماً بالله على الدوام. بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت له في قلبه كما تخلق الرؤية بالعين لغيره، والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلاً، ولو جرت العادة بخلقها في العين. وروى ابن خزيمة بإسناد قوي عن أنس قال: (رأى محمد ربه) وفي مسلم من حديث أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال: (نور أنى أراه) أي حجابه نور فكيف أراه، ومعناه: أن النور منعني من الرؤية. وعند أحمد قال: (رأيت نوراً) ومن المستحيل أن تكون ذات الله تعالى نوراً، إذ النور من جملة الأعراض، والله تعالى يتعالى عن ذلك.

وعند ابن خزيمة عنه، قال: (رآه بقلبه ولم يره بعينه). وبهذا يتبين مراده في حديث أبي ذر بذكر النور، أي أن النور حال بينه وبين رؤيته له ببصره. وجنح ابن خزيمة في كتاب التوحيد إلى ترجيح الإثبات، وأطنب في الاستدلال بما يطول ذكره، وحمل ما ورد عن ابن عباس على أن الرؤية وقعت مرتين: مرة بقلبه ومرة بعينه.

ومما يعزى للأستاذ عبد العزيز المهدوي: أنه ﷺ لما رجع من سفر الإسراء، أخبر العوالم من حيث فلكهم مراتبهم، وسقى كل واحد من كأسه، وعلى قدر عقله، فخاطب الكفار، وهم آخر العوالم بما رأى في الطريق، وما كان في المسجد الأقصى على العيان وبما يعرفون، لأنهم في فلك الأجسام، حتى صدقوا بالإسراء، ثم ارتقى حتى حدث عن فلك السماء، وكذلك في كل سماء، وأخبر عما شاهد ورأى في كل فلك وما يليق أن يحدث به ـ أعني الصحابة ـ كلا على قدر مرتبته بلا ضيق ولا مزاحم إلى السماء السابعة، ولما وصل مقام جبريل تحدث عن الأفق المبين، وعما فوق إلى الدنو وإلى التدلي إلى بموضع الإيحاء عند حضرة إسقاط الصور والخلق، فأخبر بذلك أصحابه، فمنهم من قال: رأى جبريل بالأفق المبين، وبالأفق الأعلى، وصدق، ومنهم من قال برؤية الفؤاد والبصيرة

وصدق، وهي عائشة ومن معها، ومنهم من قال: بعيني رأسه رأى وصدق. فكل أخبر بما حدثه ﷺ من مقامه وسقاه من كأسه وما يليق به، فإذا صح هذا المعراج عرفت الأمر، ومقامات الرؤية والقائلين بذلك وقولهم الجميع الحق انتهى.

وممن أثبت الرؤية لنبينا ﷺ الإمام أحمد. فروى الخلال[1] في «كتاب السنن» عن المروزي: قلت لأحمد: إنهم يقولون إن عائشة قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، فبأي معنى يدفع قولها؟ قال: بقول النبي ﷺ: «(رأيت ربي)» فقول النبي أكبر من قولها.

وقد أنكر صاحب «الهدي» على من زعم أن أحمد قال: رأى ربه بعيني رأسه. قال: وإنما قال مرة: رأى محمد ربه، وقال مرة: بفؤاده. وحكى عن بعض المتأخرين: رأى بعيني رأسه. وهذا من تصرف الحاكي، فإن نصوصه موجودة انتهى.

وقد رجح القرطبي في «المفهم» قول الوقف في هذه المسألة، وعزاه لجماعة من المحققين، وقواه: بأنه ليس في الباب دليل قاطع، وغاية ما استدل به الطائفتان ظواهر متعارضة، قابلة للتأويل. قال: وليست المسألة من العمليات فيكتفى فيها بالأدلة الظنية، وإنما هي من المعتقدات فلا يكتفي فيها إلا بالدليل القطعي. والله أعلم.

وأما قوله في الحديث: (ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة في كل يوم). ففي رواية ثابت البناني عن أنس عند مسلم (ففرض الله علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة). ونحوه في رواية مالك بن صعصعة عند البخاري أيضاً. ويحتمل أن يقال: ذكر الفرض عليه يستلزم الفرض على الأمة، وبالعكس، إلا ما استثني من خصائصه.

وفي حديث ثابت عن أنس عند مسلم (فنزلت إلى موسى، فقال ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب، خفف عن أمتي، فحط عني خمساً، فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمساً، فقال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى، حتى قال: يا محمد هن خمس صلوات في اليوم والليلة، لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة. ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف،

---

(١) هو الحسن بن علي بن محمد الخلال الهذلي الحلواني أبو علي محمدث حافظ توفي سنة (٢٤٢ هـ) انظر معجم المؤلفين ٣/ ٢٦١.

فقلت: لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه).

وفي رواية النسائي عن أنس: فقال لي: إني يوم خلقت السماوات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك، وذكر مراجعته مع موسى، وفيه: فإنه فرض على بني إسرائيل صلاتان فما قاموا بهما. وقال في آخره: فخمس بخمسين، فقم بها أنت وأمتك. قال: فعرفت أنها عزمة من الله فرجعت إلى موسى فقال: ارجع، فلم أرجع.

فإن قلت: لم قال موسى عليه السلام لنبينا ﷺ: إن أمتك لا يطيقون ذلك، ولم يقل: أنت وأمتك لا تطيقون ذلك؟

أجيب: بأن العجز مقصور على الأمة لا يتعداهم إلى النبي ﷺ، فهو لما رزقه الله تعالى من الكمال يطيق ذلك وأكثر منه، وكيف لا وقد جعلت قرة عينه في الصلاة. قال العارف ابن أبي جمرة: والحكمة في تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء أنه ﷺ لما عرج به ورأى في تلك الليلة تعبد الملائكة، وأن منهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد، فجمع الله تعالى له ولأمته تلك العبادات كلها في ركعة يصليها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص.

وقد وقع من موسى عليه السلام من العناية بهذه الأمة في أمر الصلاة ما لم يقع لغيره، ووقعت الإشارة لذلك في حديث أبي هريرة عند الطبراني والبزار، قال ﷺ: «كان موسى أشدهم علي حين مررت، وخيرهم لي حين رجعت». وفي حديث أبي سعيد: فأقبلت راجعاً فمررت بموسى، ونعم الصاحب كان لكم، فسألني كم فرض عليك ربك. الحديث.

قال السهيلي: وأما اعتناء موسى عليه السلام بهذه الأمة، وإلحاحه على نبيها أن يشفع لها ويسأل التخفيف عنها، فكقوله ـ والله أعلم ـ حين قضي إليه الأمر بجانب الغربي، ورأى صفات أمة محمد ﷺ في الألواح، وجعل يقول: إني أجد في الألواح أمة صفتهم كذا، اللهم اجعلهم أمتي، فيقال له: تلك أمة أحمد، وهو حديث مشهور وقد تقدم ذكره في خصائص هذه الأمة. قال: فكان إشفاقه عليهم واعتناؤه بأمرهم كما يعتني بالقوم من هو منهم لقوله اللهم اجعلني منهم انتهى.

وقال القرطبي: الحكمة في أمر موسى بمراجعة النبي ﷺ في أمر الصلوات يحتمل أن تكون لكون أمة موسى عليه السلام كلفت من الصلوات ما لم يكلف به غيرها من الأمم قبلها، فثقلت عليهم، فأشفق موسى على أمة محمد ﷺ مثل ذلك، ويشير إليه قوله: إني جربت الناس قبلك. انتهى.

ووقع في كلام بعض أهل الإشارات: لما تمكنت نار المحبة من قلب موسى

أضاءت له أنوار نور الطور، فأسرع إليها ليقتبس فاحتبس، فلما نودي من النادي، اشتاق إلى المنادي، فكان يطوف في بني إسرائيل: من يحملني رسالة إلى ربي، ومراده أن تطول المناجاة مع الحبيب، فلما مر علينا نبينا ﷺ ليلة المعراج، ردده في أمر الصلوات ليسعد برؤية حبيب الحبيب.

وقال آخر: لما سأل موسى عليه السلام الرؤية، ولم تحصل له البغية، بقي الشوق يقلقه، والأمل يعلله، فلما تحقق أن سيدنا محمداً الحبيب منح الرؤية، وفتح له باب المزية، أكثر السؤال ليسعد برؤية من قد رأى. كما قيل:

واستنشق الأرواح من نحو أرضكم ... لعلي أراكم أو أرى من يراكم
وأنشد من لاقيت عنكم عساكم ... تجودون لي بالعطف منكم عساكم
فأنتم حياتي إن حييت وإن أمت ... فيا حبذا إن مت عبد هواكم

وقال آخر:

وإنما السر في موسى يردده ... ليجتلي حسن ليلى حين يشهده
يبدو سناها على وجه الرسول فيا ... لله در رسول حين أشهده

وقال آخر: لما جلس الحبيب في مقام القرب، دارت عليه كؤوس الحب، ثم عاد، وهلال ما كذب الفؤاد ما رأى بين عينيه، وسرٌّ فأوحى إلى عبده ما أوحى ملء قلبه وأذنيه، فلما اجتاز بموسى عليه السلام، قال لسان حاله لنبينا ﷺ:

يا وارداً من أهيل الحي يخبرني ... عن جيرتي شنف الأسماع بالخبر
ناشدتك الله يا راوي حديثهم ... حدث فقد ناب سمعي اليوم عن بصر

فأجاب لسان حال نبينا ﷺ يقول:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا ... سر أرق من النسيم إذا سرى
وأباح طرفي نظرة أملتها ... فغدوت معروفاً وكنت منكراً

فكل قوم يلحظون مذهبهم، وقد علم كل أناس مشربهم، والله بفضله وإحسانه يوالي انسجام سحائب عفوه ورضوانه على العارف الرباني أبي عبد الرحمن السلمي، فلقد أجاد إذ أفاد بما أفرد من لطائف المعراج حسبما جمعه من كلام أهل الإشارات، بأقوم منهاج.

وقد استدل العلماء بقوله في الحديث (فهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر فتلك خمسون): على عدم فرضية ما زاد على الصلوات الخمس، كالوتر. وعلى دخول النسخ قبل الفعل. قال ابن بطال وغيره: ألا ترى أنه عز وجل نسخ

الخمسين بالخمس قبل أن تصلى؟ ثم تفضل عليهم بأن أكمل لهم الثواب.

وتعقبه ابن المنير فقال: هذا ذكره طوائف من الأصوليين والشراح وغيرهم، وهو مشكل على من أثبت النسخ قبل الفعل كالأشاعرة، أو منعه كالمعتزلة. لكونهم اتفقوا جميعاً على أن النسخ لا يتصور قبل البلاغ. وحديث الإسراء وقع فيه النسخ قبل البلاغ، فهو مشكل عليهم جميعاً. اهـ.

فإن أراد قبل البلاغ لكل أحد فممنوع، وإن أراد قبل البلاغ إلى بعض الأمة فمسلَّم، لكن قد يقال: ليس هو بالنسبة إليهم نسخاً، لكن هو نسخ بالنسبة إلى النبي ﷺ لأنه كلف بذلك قطعاً، ثم نسخ بعد أن بلغه وقبل أن يفعله، فالمسألة صحيحة التصوير في حقه ﷺ.

ولما رجع ﷺ من سفر الإسراء، مر في طريقه بعير لقريش تحمل طعاماً، فيها جمل يحمل غرارتين: غرارة سوداء وغرارة بيضاء، فلما حاذى العير نفرت منه واستدارت وانصرع ذلك البعير.

وفي رواية: مر بعير قد أضلوا بعيراً لهم قد جمعه فلان. قال ﷺ: فسلمت عليهم فقال بعضهم: هذا صوت محمد. ثم أتى مكة قبل الصبح وأخبر قومه بما رأى، وقال لهم: إن من آية ما أقول لكم أني مررت بعيركم في مكان كذا وكذا، وقد أضلوا بعيراً لهم قد جمعه فلان، وأن مسيرهم ينزلون بمكان كذا وكذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان، فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حتى إذا كان قريب من نصف النهار أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه ﷺ.

وفي رواية البيهقي: سألوه آية، أخبرهم بقدوم العير يوم الأربعاء، فلما كان ذلك اليوم لم يقدموا حتى كادت الشمس أن تغرب، فدعا الله تعالى فحبس الشمس حتى قدموا كما وصف. وعن عائشة: لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناس كانوا آمنوا، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر فقالوا: هل لك إلى صاحبك، يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، قال: وقد قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك لقد صدق، قالوا: تصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح فقال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سمي الصديق. رواه الحاكم في المستدرك، وابن إسحاق. وزاد:

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، أحدثت هؤلاء أنك جئت بيت المقدس في هذه الليلة؟ قال: نعم، فقال: يا نبي الله صفه لي فإني قد جئته، قال

الحسن: فقال رسول الله ﷺ: فرفع لي المسجد حتى نظرت إليه، فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر، فيقول أبو بكر: صدقت، أشهد أنك رسول الله، كلما وصف له منه شيئاً.

وقول أبي بكر: صفه لي، لم يكن عن شك، فإنه صدقه من أول وهلة، ولكنه أراد إظهار صدقه لقومه، فإنهم كانوا يثقون بأبي بكر، فإذا طابق خبره ﷺ ما كان يعلم أبو بكر وصدقه كان حجة ظاهرة عليهم. وفي رواية البخاري (فجلا الله لي بيت المقدس) أي كشف الحجب بيني وبينه حتى رأيته. وفي رواية مسلم: (فسألوني عن أشياء لم أثبتها، فكربت كرباً شديداً لم أكرب مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به).

فيحتمل أن يكون حمل إلى أن وضع بحيث يراه، ثم أعيد، ففي حديث ابن عباس عند أحمد والبزار: فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع عند دار عقيل فنعته وأنا أنظر إليه.

وهذا أبلغ في المعجزة، ولا استحالة فيه، فقد أحضر عرش بلقيس في طرفة عين.

وأما ما وقع في حديث أم هانىء عند ابن سعد: فخيل إلي بيت المقدس، وطفقت أخبرهم عن آياته، فإن ثبت احتمل أن يكون مُثِل قريباً منه، كما قيل في حديث: (أريت الجنة والنار) ويؤول قوله: جيء بالمسجد، أي جيء بمثاله.

وفي حديث أم هانىء المذكور: أنهم قالوا له: كم للمسجد من باب، قال: ولم أكن عددتها قال: فجعلت أنظر إليه وأعدها أنظر إليه وأعدها باباً باباً.

وعند أبي يعلى: إن الذي سأله عن صفة بيت المقدس هو المطعم بن عدي، والد جبير بن مطعم.

وأشار ابن أبي جمرة: إلى أن الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس إظهار الحق للمعاند، لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلاً إلى البيان والإيضاح، حيث سألوه عن جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها، وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك، فلما أخبرهم بها حصل التحقيق أنه أسري به إلى بيت المقدس. وإذا صح البعض لزم تصحيح الباقي، فكان ذلك سبباً لقوة إيمان المؤمنين، وزيادة في شقاء من عاند وجحد من الكافرين، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فيما ورد في آي التنزيل من تعظيم قدره ﷺ

فيما ورد في آي التنزيل من تعظيم قدره ﷺ ورفعة ذكره، وشهادته تعالى بصدق نبوته، وثبوت بعثته، وقسمه تعالى على تحقيق رسالته، وعلو منصبه الجليل ومكانته، ووجوب طاعته، واتباع سنته، وأخذه تعالى له الميثاق على سائر النبيين فضلاً ومنة ليؤمنن به إن أدركوه ولينصرنه، والتنويه به في الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل بأنه صاحب الرسالة والتبجيل وغير ذلك.

اعلم أطلعني الله وإياك على أسرار التنزيل، ومنحنا بلطفه تبصرة تهدينا إلى سواء السبيل، أنه لا سبيل لنا أن نستوعب الآيات الدالة على ذلك، وما فيها من التصريح والإشارة إلى علو محله الرفيع ومرتبته، ووجوب المبالغة في حفظ الأدب معه، وكذلك الآيات التي فيها ثناؤه تعالى عليه وإظهار عظيم شأنه لديه، وقسمه تعالى بحياته، ونداؤه بـ «الرسول» وبـ «النبي» ولم يناده باسمه بخلاف غيره من الأنبياء، فناداهم بأسمائهم إلى غير ذلك مما يشير إلى أناقة قدره العلي عنده، وأنه لا مجد يساوي مجده. ومن تأمل القرآن العظيم وجده طافحاً بتعظيم الله تعالى لنبيه ﷺ. ويرحم الله ابن الخطيب الأندلسي حيث قال:

مدحتك آيات الكتاب فما عسى ... يثني على علياك نظم مديحي
وإذا كتاب الله أثنى مفصحاً ... كان القصور قصار كل فصيح

وهذا المقصد ـ أكرمك الله ـ يشتمل على عشرة أنواع:

النوع الأول

في آيات تتضمن تعظيم قدره ورفعة ذكره وجليل رتبته وعلو درجته على الأنبياء وتشريف منزلته[1]

قال الله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله﴾

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/١٣ وما بعدها.

[البقرة: ٢٥٣]. قال المفسرون: يعني موسى عليه السلام، كلمه بلا واسطة، وليس نصاً في اختصاص موسى عليه السلام بالكلام، فقد ثبت أنه تعالى كلم نبينا ﷺ أيضاً كما مر. فإن قلت: إذا ثبت أنه ﷺ كلمه ربه وقام به هذا الوصف، فلمَ لم يشتق له من من الكلام اسم الكليم، كما اشتق لموسى؟

أجيب: بأن اعتبار المعنى قد يكون لتصحيح الاشتقاق كاسم الفاعل فيطرد، بمعنى أن كل من قام به ذلك الوصف يشتق له منه اسم وجوباً، وقد يكون للترجيح فقط، كالكليم والقارورة فلا يطرد، وحينئذ فلا يلزم في كل من قام به ذلك الوصف أن يشتق له منه اسم، كما حققه القاضي عضد الدين[1]، وهذا ملخصه وتحريره، كما قاله الموسى سعد الدين التفتازاني. انتهى. وقوله: ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ [البقرة: ٢٥٣] يعني محمداً ﷺ رفعه الله تعالى من ثلاثة أوجه:

بالذات في المعراج.

وبالسيادة على جميع البشر.

وبالمعجزات لأنه ﷺ أوتي من المعجزات ما لم يؤته نبي قبله.

قال الزمخشري: وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفي لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتبه، والمتميز الذي لا يلتبس، انتهى. وقد بينت هذه الآية وكذا قوله تعالى: ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾ [الإسراء: ٥٥]. أن مراتب الرسل والأنبياء متفاوتة، خلافاً للمعتزلة القائلين: بأنه لا فضل لبعضهم على بعض، وفي هاتين الآيتين رد عليهم.

وقال قوم: آدم أفضل لحق الأبوة. وتوقف بعضهم فقال: السكوت أفضل. والمعتمد الذي عليه جماهير السلف والخلف: أن الرسل أفضل من الأنبياء، وكذلك الرسل بعضهم أفضل من بعض بشهادة هاتين الآيتين وغيرهما. ،

قال بعض أهل العلم ـ فيما حكاه القاضي عياض ـ: والتفضيل المراد لهم هنا في الدنيا، وذلك بثلاثة أحوال: أن تكون آياته ومعجزاته أظهر وأشهر، أو تكون أمته أزكى وأكثر، أو يكون في ذاته أفضل وأظهر، وفضله في ذاته راجع إلى ما خصه الله تعالى به من كرامته واختصاصه: من كلام أو خلة أو ما شاء الله من ألطافه وتحف ولايته واختصاصه، انتهى.

فلا مرية أن آيات نبينا ﷺ ومعجزاته أظهر وأبهر وأكثر وأبقى وأقوى، ومنصبه أعلى ودولته أعظم وأوفر وذاته أفضل وأظهر، وخصوصياته على جميع الأنبياء أشهر من

(١) هو عبد الرحمن بن أحمد الأيجي، المحقق، يروي تصانيف البيضاوي.

أن تذكر، فدرجته أرفع من درجات جميع المرسلين، وذاته أزكى وأفضل من سائر المخلوقين.

وتأمل حديث الشفاعة في المحشر، وانتهائها إليه، وانفراده هناك بالسؤدد، كما قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم، وأول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة»(١) رواه ابن ماجه. وفي حديث أنس عند الترمذي: (أنا أكرم ولد آدم يومئذ على ربي ولا فخر)(٢). لكن هذا لا يدل على كونه أفضل من آدم، بل من أولاده، فالاستدلال بذلك على مطلق أفضليته ﷺ على الأنبياء كلهم ضعيف. واستدل الشيخ سعد الدين التفتازاني لمطلق أفضليته ﷺ بقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ [آل عمران: ١١٠] قال: لأنه لا شك أن خيرية الأمة بحسب كمالهم في الدين، وذلك تابع لكمال نبيهم الذين يتبعونه.

واستدل الفخر الرازي ـ في المعالم ـ بأنه تعالى وصف الأنبياء بالأوصاف الحميدة، ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: ٩٠]، فأمره أن يقتدي بأثرهم، فيكون إتيانه به واجباً، وإلا فيكون تاركاً للأمر، وإذا أتى بجميع ما أتوا به من الخصال الحميدة فقد اجتمع فيه ما كان متفرقاً فيهم، فيكون أفضل منهم، وبأن: دعوته ﷺ في التوحيد والعبادة وصلت إلى أكثر بلاد العالم بخلاف سائر الأنبياء، فظهر أن انتفاع أهل الدنيا بدعوته ﷺ أكمل من انتفاع سائر الأمم بدعوة سائر الأنبياء، فوجب أن يكون أفضل من سائر الأنبياء. انتهى. وقد روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي آدم فمن سواه إلا تحت لوائي»(٣). وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً ـ عند البخاري ـ: (أنا سيد الناس يوم القيامة)(٤) وهذا يدل على أنه أفضل من آدم عليه السلام

---

(١) الحديث في سنن أبي داود برقم (٤٦٧٣) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٥٤٠ وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٣/ ٥٧.

(٢) الحديث في الدر المنثور للسيوطي ٦/ ١١٩ وفي تفسير القرطبي ٣/ ٢٦٣ وفي تفسير ابن كثير ٧/ ١٢ وفي زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٢٤٥ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ١٣ وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٩٦.

(٣) الحديث في مسلم كتاب الفضائل رقم (٣) وفي الترمذي برقم (٣١٤٨) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٨١ و ٣/ ٢ وفي الشفا ١/ ٣٩٩ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٧٤١ ـ ٥٧٦١) وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ٢٠٤ وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٩/ ٢٢٥ وفي كنز العمال (٣١٨٨١ ـ ٣٩٠٥٢).

(٤) الحديث في مسلم (٣٢٧) وفي البخاري (٤٧١٢) وفي الترمذي (٢٤٣٤) وفي المسند للإمام أحمد ابن حنبل ٢/ ٤٣٥ وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٥٧٣ وفي مشكاة المصابيح (٥٥٧٥) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٣٧٧ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٤٧٧ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ٥٧٢ وفي كنز العمال (٣٢٠٤٢ ـ ٣٩٠٥١).

ومن كل أولاده بل أفضل من الأنبياء، بل أفضل الخلق كلهم.

وروى البيهقي في فضائل الصحابة، أنه ظهر علي بن أبي طالب من البعد، فقال ﷺ: «هذا سيد العرب» فقالت عائشة: ألست بسيد العرب؟ فقال: «أنا سيد العالمين وهو سيد العرب» وهذا يدل على أنه أفضل الأنبياء، بل أفضل خلق الله كلهم. وقد روى هذا الحديث ـ أيضاً ـ الحاكم في صحيحه عن ابن عباس، لكن بلفظ: «أنا سيد ولد آدم، وعلي سيد العرب». وقال: إنه صحيح ولم يخرجاه.

وله شاهد من حديث عروة عن عائشة، وساقه من طريق أحمد ابن عبيد عن ناصح قال حدثنا الحسين عن علوان ـ وهما ضعيفان ـ عن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة بلفظ: «ادعوا لي سيد العرب» قالت: فقلت يا رسول الله ألست سيد العرب؟ فقال: وذكره[1]. وكذا أورده من حديث عمر بن موسى الوجيهي ـ وهو ضعيف أيضاً ـ عن أبي الزبير عن جابر مرفوعاً: «ادعوا لي سيد العرب» فقالت عائشة: ألست بسيد العرب وذكره. قال شيخنا: وكلها ضعيفة. بل جنح الذهبي إلى الحكم على ذلك بالوضع. انتهى.

ولم يقل ﷺ: أنا سيد الناس عجباً وافتخاراً على من دونه، حاشاه الله من ذلك، وإنما قاله ﷺ إظهاراً لنعمة الله تعالى عليه، وإعلاماً للأمة بقدر إمامهم ومتبوعهم عند الله تعالى، وعلو منزلته لديه، لتعرف نعمة الله عليه وعليهم. وكذا العبد إذ لاحظ ما هو فيه من فيض المدد، وشهده من عين المنة ومحض الجود، وشهد مع ذلك فقره إلى ربه في كل لحظة، وعدم استغنائه عنه طرفة عين أنشأ له ذلك في قلبه سحائب السرور، فإذا انبسطت هذه السحائب في سماء قلبه وامتلأ أفقه بها أمطرت عليه وابل الطرب بما هو فيه من لذيذ السرور، فإن لم يصبه وابل فطل، وحينئذ يجري على لسانه الافتخار من غير عجيب ولا فخر، بل فرح بفضل الله وبرحمته، كما قال تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ [يونس: ٥٨] فالافتخار على ظاهره، والافتخار والإنكسار في باطنه، ولا ينافي أحدهما الآخر، وإلى هذا المعنى يشير قول العارف الرباني سيد علي الوفائي في قصيدته التي أولها:

مــــن أنـــت مــــولاه حــــاشـــا	عـــــلاه أن يتــــــلاشــــا
والله يــــــا روح قلبـــــــي	لا مـــات مـــن بـــك عـــاشـــا
قـــوم لهـــم أنـــت ســـاقٍ	لا يــــرجعـــون عطـــاشـــا

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية ١/ ٦٣ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٦٤٤٨).

لا قــــص دهـــــر جنـــــاحــــا	لـــــــه وفــــــاؤك راشـــــا
بــــك النعيـــــم مقيـــــم	لمـــن وهبــــت انتعـــــاشــــا
ومــــن بحـــــولـــــك يقــــوى	لـــن يضعـــف الـــدهـــر جـــاشـــا
عبـــد لــــــه بـــــك عـــز	فكيــــف لا يتحـــــاشـــــا
حـــاشـــا وفـــاؤك يـــرمـــي	مـــن أنـــت مـــولاه حـــاشـــا

فإن قلت: فما الجمع بين هاتين الآيتين، وبين قوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٦].

والحديث الثابت في الصحيحين، عن أبي هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال اليهودي في قسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده فلطم اليهودي وقال: أي خبيث، وعلى محمد؟ فجاء اليهودي إلى رسول الله ﷺ واشتكى على المسلم فقال ﷺ: «لا تفضلوني على الأنبياء» وفي رواية (لا تفضلوا بين الأنبياء)[1]. وحديث أبي سعيد الخدري عند البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «لا تخيروا بين الأنبياء»[2]. وحديث ابن عباس عند البخاري ومسلم مرفوعاً (ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى)[3]. وحديث أبي هريرة عند الشيخين، (من قال: أنا خير من يونس ابن متى فقد كذب).

أجاب العلماء: بأن قوله عز وجل: ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ [البقرة: ١٣٦] يعني: في الإيمان بما أنزل إليهم والتصديق بهم، والإيمان بأنهم رسل الله وأنبياؤه، والتسوية بينهم في هذا لا تمنع أن يكون بعضهم أفضل من بعض. وأجابوا عن الأحاديث بأجوبة:

فقال بعضهم: أن نعتقد أن الله تعالى فضل بعضهم على بعض في الجملة. ونكف

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأنبياء باب (٣٥) رقم الحديث (٣٤١٤) ومسلم في كتاب الفضائل باب (٤٢) رقم الحديث (١٥٩) والطحاوي في مشكل الآثار ١/ ٤٥٢ والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٤٩٢ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٣٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الخصومات رقم الحديث (٢٤١٢ ـ ٣٣٩٨ ـ ٤٦٣٨ ـ ٦٩١٦ ـ ٦٩١٧ ـ ٧٤٢٧). ومسلم كتاب الفضائل رقم الحديث (١٦٠). وابن أبي شيبة في مصنفه ١١/ ٥٢٦.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٣٤١٦) ومسلم في كتاب الفضائل رقم الحديث (١٦٣) والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٤٩٥.

عن الخوض في تفصيل التفضيل بآرائنا، قال ابن طغر بك: فإن أراد هذا القائل أن نكف عن الخوض في تفصيل التفضيل بآرائنا فصحيح، وإن أراد أنا لا نذكر في ذلك ما فهمناه من كتاب الله وروي لنا من حديث رسول الله ﷺ فسقيم.

وقال آخر: تفضل من رفع الله درجته بخصائص الحظوة والزلفى، ولا نخوض في تفضيل بعضهم على بعض في سياسة المنذرين والصبر على الدين، والنهضة في أداء الرسالة، والحرص على هدى الضلاّل، فإن كلا منهم قد بذل في ذلك وسعه الذي لا يكلفه الله تعالى أكثر منه.

وقال آخر ـ مما حكاه القاضي عياض ـ: إن نهيه ﷺ عن التفضيل كان قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، فنهى عن التفضيل إذ يحتاج إلى توقيف، وإن من فضل بلا علم فقد كذب. قال الحافظ عماد الدين بن كثير: وفي هذا نظر. انتهى. ولعل وجه النظر من جهة معرفة المتقدم تاريخاً من ذلك. ثم رأيت في تاريخ ابن كثير أن وجه النظر ـ من جهة ـ أن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة، وما هاجر أبو هريرة إلا عام خيبر متأخراً، فيبعد أنه لم يعلمه بهذا إلا بعد هذا. وقال آخر: إنما قاله ﷺ عن طريق التواضع ونفي التكبر والعجب. قال القاضي عياض: وهذا لا يسلم من الاعتراض. وقيل: لا يفضل بينهم تفضيلاً يؤدي إلى تنقيص بعضهم أو الغض منه. وقيل: منع التفضيل في حق النبوة والرسالة، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيها على حد واحد، لا يتفاضل. وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والرتب، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما التفاضل بأمور أخر زائدة عليها، ولذلك منهم رسل وأولو عزم، انتهى، وهذا قريب من القول الثاني.

وقال ابن أبي جمرة في حديث يونس: يريد بذلك نفي التكييف والتحديد على ما قاله ابن خطيب الري، لأنه قد وجدت الفضيلة بينهما في عالم الحس، لأن النبي ﷺ أسري به إلى فوق السبع الطباق، ويونس نزل به إلى قعر البحر، وقد قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة» وقال ﷺ: «آدم ومن دونه تحت لوائي» وقد اختص ﷺ بالشفاعة الكبرى التي لم تكن لغيره من الأنبياء عليهم السلام. فهذه الفضيلة وجدت بالضرورة، فلم يبق أن يكون قوله ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن متى» إلا بالنسبة إلى القرب من الله سبحانه وتعالى والبعد، فمحمد صلوات الله وسلامه عليه وإن أسري به لفوق السبع الطباق واخترق الحجب، ويونس عليه الصلاة والسلام وإن نزل به لقعر البحر فهما بالنسبة إلى القرب والبعد من الله سبحانه وتعالى على حد واحد. انتهى. وهو مروي عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس وعزي نحوه لإمام الحرمين.

وقال ابن المنير: إن قلت إن لم يفضل على يونس باعتبار استواء الجهتين بالنسبة إلى وجود الحق تعالى، فقد فضله باعتبار تفاوت الجهتين في تفضيل الحق فإنه تعالى فضل الملأ الأعلى على الحضيض الأدنى، فكيف لا يفضله عليه الصلاة والسلام على يونس، فإن لم يكن التفضيل بالمكان فهو بالمكانة بلا إشكال. ثم قال: قلت لم ينه عن مطلق التفضيل، وإنما نهى عن تفضيل مقيد بالمكان يفهم منه القرب المكاني فعلى هذا يحمل جمعاً بين القواعد، انتهى.

واختلف هل البشر أفضل من الملائكة؟ فقال جمهور أهل السنة والجماعة: خواص بني آدم، وهم الأنبياء، أفضل من خواص الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وحملة العرش، والمقربون والكروبيون والروحانيون. وخواص الملائكة أفضل من عوام بني آدم ـ قال التفتازاني: بالإجماع بل بالضرورة ـ وعوام بني آدم أفضل من عوام الملائكة. فالمسجود له أفضل من الساجد، فإذا ثبت تفضيل الخواص على الخواص ثبت تفضيل العوام على العوام، فعوام الملائكة خدم عمال الخير، والمخدوم له فضل على الخادم، ولأن المؤمنين ركب فيهم الهوى والعقل، مع تسليط الشيطان عليهم بوسوسته، والملائكة ركب فيهم العقل دون الهوى لا سبيل للشيطان عليهم. فالإنسان ـ كما قاله في شرح العقائد ـ يحصل الفضائل والكمالات العلمية والعملية مع وجود العوائق والموانع من الشهوة والغضب وسنوح الحاجات الضرورية الشاغلة عن اكتساب الكمالات، ولا شك أن العبادة والكمالات مع الشواغل والصوارف أشق وأدخل في الإخلاص فتكون أفضل.

والمراد بعوام بني آدم ـ هنا ـ الصلحاء لا الفسقة، كما نبه عليه العلامة كمال الدين ابن أبي شريف المقدسي، قال: ونص البيهقي عليه في الشعب وعبارته: قد تكلم الناس قديماً وحديثاً في الملائكة والبشر، فذهب ذاهبون إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، وأن الأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة. انتهى.

وذهب المعتزلة والفلاسفة وبعض الأشاعرة إلى تفضيل الملائكة. وهو اختيار القاضي أبي بكر الباقلاني[1]، وأبي عبد الله الحليمي[2]، وتمسكوا بوجوه:

---

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر أبو بكر الباقلاني (٣٣٨ ـ ٤٠٣ هـ) قاض من علماء الكلام. توفي في بغداد. الاعلام ٦/١٧٦ وفيات الأعيان ١/٤٨١ تاريخ بغداد ٥/٣٧٩ الوافي بالوفيات ٣/١٧٧.

(٢) هو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الجرجاني أبو عبد الله (٣٣٨ ـ ٤٠٣ هـ) فقيه قاض رئيس أهل الحديث فيما وراء النهر، مولده في جرجان ووفاته في بخارى. الاعلام ٢/ ٢٣٥ الرسالة المستطرفة ٤٤ كشف الظنون ٢/ ١٨٧١.

الأول: أن الملائكة أرواح مجردة كاملة بالفعل مبرأة عن مبادىء الشرور والآفات كالشهوة والغضب، وعن ظلمات الهيولى والصورة، قوية على الأفعال العجيبة عالمة بالكوائن ماضيها وآتيها من غير غلط.

والجواب: أن مبنى ذلك على الأصول الفلسفية دون الأصول الإسلامية.

الثاني: أن الأنبياء مع كونهم أفضل البشر يتعلمون ويستفيدون منهم بدليل قوله تعالى: ﴿علمه شديد القوى﴾ [النجم: ٥] وقوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ [الشعراء: ١٩٣ و ١٩٤] ولا شك أن المعلم أفضل من المتعلم.

والجواب: أن التعليم من الله تعالى والملائكة إنما هم مبلغون.

الثالث: أنه أطرد في الكتاب والسنة تقديم ذكرهم على ذكر الأنبياء، وما ذلك إلا لتقدمهم في الشرف والرتبة.

والجواب: أن ذلك لتقدمهم في الوجود، أو لأن وجودهم أخفى فالإيمان بهم أقوى وبالتقديم أولى.

الرابع: قوله تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾ [النساء: ١٧٢]، فإن أهل اللسان يفهمون من ذلك أفضلية الملائكة على عيسى، إذ القياس في مثله الترقي من الأدنى إلى الأعلى، يقال: لا يستنكف من هذا الأمر الوزير ولا السلطان، ولا يقال: السلطان ولا الوزير. ثم لا قائل بالفصل بين عيسى عليه السلام وغيره من الأنبياء عليهم السلام.

والجواب: أن النصارى استعظموا المسيح بحيث يترفع أن يكون عبداً من عباد الله، بل ينبغي أن يكون ابناً له، لأنه مجرد لا أب له، وكان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، بخلاف سائر العباد من بني آدم، فرد عليهم بأنه لا يستنكف من ذلك المسيح ولا من هو أعلى منه في هذا المعنى وهم الملائكة الذين لا أب لهم ولا أم، ويقدرون بإذن الله على أفعال أقوى وأعجب من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى فالترقي والعلو إنما هو في أمر التجرد وإظهار الآثار القوية لا في مطلق الشرف والكمال، فلا دلالة على أفضلية الملائكة، انتهى.

ثم الملائكة بعضهم أفضل من بعض، وأفضلهم الروح الأمين جبريل، المزكى من رب العالمين، المقول فيه من ذي العزة ﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين﴾ [التكوير: ١٩و ٢٠ و٢١] فوصفه بسبع صفات، فهو أفضل الملائكة الثلاثة ـ الذين هم أفضل الملائكة على الإطلاق ـ وهم: ميكائيل وإسرافيل وعزرائيل.

وكذلك الرسل أفضل من الأنبياء، وكذلك الرسل بعضهم أفضل من بعض، ومحمد ﷺ أفضل الأنبياء والرسل، كما تقدم. وأول الأنبياء آدم وآخرهم نبينا محمد ﷺ. فأما نبوة آدم فبالكتاب الدال على أنه قد أمر ونهي، مع القطع بأنه لم يكن في زمنه نبي آخر، فهو بالوحي لا غير، وكذا السنة والإجماع، فإنكار نبوته على ما نقل عن البعض يكون كفراً[(١)].

وقد اختلف في عدد الأنبياء والمرسلين، والمشهور في ذلك ما في حديث أبي ذر عند ابن مردويه في تفسيره، قال: قلت يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً» قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: . «ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير»، قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: «آدم»، ثم قال: «يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم وشيث ونوح وخنوخ» وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم ـ، «وأربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر، وأول نبي من بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك»[(٢)]، وقد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان في كتاب «الأنواع والتقاسيم» وقد وسمه بالصحيح.

وخالفه ابن الجوزي فذكره في الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام. قال الحافظ ابن كثير: ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث، فالله أعلم. وروى أبو يعلى عن أنس مرفوعاً: كان من خلى من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي، ثم كان عيسى بن مريم، ثم كنت أنا والذين نص الله تعالى على أسمائهم في القرآن: آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم، ولوط وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب، وموسى وهارون ويونس، وداود وسليمان وإلياس واليسع، وزكريا ويحيى وعيسى. وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين والله أعلم.

وقال الله تعالى: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ [الشرح: ٤]. روى ابن جرير من حديث أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني جبريل عليه السلام» فقال: إن ربي وربك يقول: أتدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: «الله أعلم» قال: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي[(٣)].

---

(١) انظر شرح العقائد النسفية صفحة ١٦٧ للشيخ سعد الدين التفتازاني والفتاوى الهندية ٢/ ٢٠١ وفيها: «فيمن يقول آمنت بجميع أنبيائه ولا أعلم أن آدم نبي أم لا يكفر. .». وانظر أيضاً كتاب أصول الدين لعبد القاهر التميمي ١٥٧ و ١٥٩ ومراتب الإجماع لابن حزم صفحة ١٧٣. باب في الإجماع من الإعتقادات يكفر من خالفه بإجماع «وذكر أن آدم نبي».

(٢) ذكره أبو نعيم في الحلية ١/ ١٦٧.

(٣) ذكره الهيثمي في موارد الظمآن (١٧٧٢) وفي مجمع الزوائد ٨/ ٢٥٤ والطبري في التفسير ٣٠/ ١٥١ وابن كثير في التفسير ٨/ ٤٥٢.

وذكره الطبراني، وصححه ابن حبان. وروينا عن الإمام الشافعي قال: أخبرنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح: معناه لا أذكر إلا ذكرت معي، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، قال الإمام الشافعي يعني ـ والله أعلم ـ ذكره عند الإيمان بالله، والأذان، قال: ويحتمل ذكره عند تلاوة القرآن وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية انتهى. وقيل: رفعه بالنبوة. قاله يحيى بن آدم. وعن ابن عطاء: جعلتك ذكراً من ذكري. فمن ذكرك ذكرني، وعنه أيضاً: جعلت تمام الإيمان بذكري معك. وعن جعفر بن محمد الصادق: لا يذكرك أحد بالرسالة إلا ذكرني بالربوبية. قال البيضاوي: وأي رفعة مثل أن قرن اسمه باسمه في كلمتي الشهادة، وجعل طاعته طاعته، انتهى، يشير إلى قوله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [النساء: ٨٠] ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ [التوبة: ٦٢] ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ [النساء: ١٣] ﴿وأطيعوا الله والرسول﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقول قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، انتهى. فهو مذكور معه في الشهادة والتشهد، ومقرون ذكره بذكره في القرآن والخطب والآذان، ويؤذن باسمه في موقف القيامة. وأخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة رفعه: لما نزل آدم عليه السلام بالهند استوحش فنزل جبريل عليه السلام فنادى بالأذان: الله أكبر، الله أكبر مرتين، أشهد أن لا إله إلا الله مرتين، أشهد أن محمداً رسول الله مرتين، الحديث. وكتب اسمه الشريف على العرش وعلى كل سماء، وعلى الجنان وما فيها. رواه ابن عساكر. وأخرج البزار عن ابن عمر مرفوعاً: لما عرج بي إلى السماء، ما مررت بسماء إلا وجدت اسمي مكتوباً فيها: محمد رسول الله. وفي الحلية عن ابن عباس رفعه: ما في الجنة شجرة عليها ورقة إلا مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله. وأخرج الطبراني من حديث جابر مرفوعاً: كان نقش خاتم سليمان بن داود عليهما السلام لا إله إلا الله محمد رسول الله. وعزاه الحافظ ابن رجب[1] في كتاب أحكام الخواتيم لجزء أبي علي الخالدي، وقال: إنه باطل موضوع. وشق اسمه الكريم من اسمه تعالى، كما قال حسان:

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

---

(١) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي الدمشقي أبو الفرج زين الدين (٧٣٦ ـ ٧٩٥ هـ) حافظ للحديث من العلماء. ولد في بغداد وتوفي في دمشق. الاعلام ٣/ ٢٩٥ شذرات الذهب ٦/ ٣٣٩ الدرر الكامنة ٢/ ٣٢١ رقم الترجمة (٢٢٧٦) وفيه ولادته سنة (٧٠٦ هـ).

وسماه من أسمائه الحسنى بنحو سبعين اسماً، كما بينت ذلك في أسمائه صلوات الله وسلامه عليه، وصلى عليه في ملائكته، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه، فقال تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [الأحزاب: ٥٦] فأخبر عباده بمنزلة نبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، فيجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً.

وكتبه نبياً وآدم بين الروح والجسد، وختم به النبوة والرسالة، وأعلن بذكره الكريم في الأولين والآخرين، ونوه بقدره الرفيع حين أخذ الميثاق على جميع النبيين، وجعل ذكره في فواتح الرسائل وخواتمها، وشرف به المصاقع على المنابر، وزين بذكره أرباب الأقلام والمحابر، ونشر ذكره في الآفاق شرقاً وغرباً، براً وبحراً، حتى في السماوات السبع وعند المستوى وصريف الأقلام، والعرش والكرسي، وسائر الملائكة المقربين من الكروبين والروحانيين والعلويين والسفليين، وجعله في قلوب المؤمنين بحيث يستطيعون ذكره فترتاح أرواحهم، وربما تميل من طرب سماع اسمه أشباحهم:

وإذا ذكرتكمُ أميل كأنني ... من طيب ذكركمُ سقيت الراحا

كأنه تعالى يقول: أملأ الوجود كله من أتباعك، كلهم يثنون عليك، ويصلون عليك ويحفظون سنتك، بل ما من فريضة من فرائض الصلاة إلا ومعها سنة، فهم متمسكون في الفريضة بأمري، وفي السنة بأمرك، وجعلت طاعتي طاعتك، وبيعتي بيعتك، فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك، والمفسرون يفسرون معاني فرقانك، والوعاظ يبلغون بليغ وعظك، والملوك والسلاطين يقفون في خدمتك ويسلمون من وراء الباب عليك، ويمسحون وجوههم بتراب روضتك، ويرجون شفاعتك، فشرفك باق إلى أبد الآبدين، والحمد لله رب العالمين.

وقال تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ [طه: ١ ـ ٢]. اعلم أن للمفسرين في (طه) قولين، أحدهما: أنها من حروف التهجي، والثاني أنها كلمة مفيدة.

وعلى الأولى: قيل معناها، يا مطمع الشفاعة للأمة، ويا هادي الخلق إلى الملة، وقيل: «الطاء» في الحساب بتسعة والهاء بخمسة، فالجملة أربعة عشر، ومعناه: يا أيها البدر، وهذه الأقوال لا يجب أن يعتمد عليها إذ هي، كما قاله المحققون، من بدع المفسرين، ومثلها قول الواسطي، فيما حكاه القاضي عياض في «الشفاء»، أراد: يا طاهر يا هادي.

وأما على قول من قال: إنها كلمة مفيدة، ففيه وجهان: أحدهما، أن معناه: يا

رجل، وهو مروي عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة. قال سعيد بن جبير: بلسان النبطية، وقال قتادة: بلسان السريانية، وقال عكرمة: بلسان الحبشية. وقال البيضاوي: إن صح إن معناه: يا رجل فلعل أصله: يا هذا فتصرفوا فيه بالقلب والاختصار، انتهى.

وقال الكلبي: لو قلت في «عَكّ»[1] يا رجل، لم يجبك حتى تقول: طه. وقال السدي: معنى طه يا فلان. وقال الزمخشري: لعل «عكاً» تصرفوا في «يا هذا» كأنهم في لغتهم قالبون «الياء» «طاء» فقالوا: في «ياطاء» واختصروا هذا فاقتصروا على «ها»، وأثر الصيغة ظاهر لا يخفى في البيت المستشهد به:

إن السفاهة طه في خلائقكم ... لا قدس الله أخلاق الملاعين

قال في البحر: وقد كان قدم أن «طه» في لغة «عك» في معنى يا رجل، ثم تخوض وتجرأ على «عك» بما لا يقوله نحوي، وهو أنهم قلبوا «الياء» «طاء» وهذا لا يوجد في لسان العرب قلب «الياء» التي للنداء «طاء» وكذلك حذف اسم الإشارة في النداء وإقرار «ها» التي للتنبيه، انتهى.

وقيل: معناه يا إنسان. وقرىء (طه) بإسكان الهاء، على أنه أمر له ﷺ بأن يطأ الأرض بقدميه. وقد روي أنه ﷺ كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معاً، وأن الأصل «طاء» فقلبت همزته هاء، كما قالوا «هياك» في: إياك، و «هرقت» في: أرقت. ويجوز أن يكون الأصل من وطىء على ترك الهمزة، فيكون أصله «طا» يا رجل ثم أثبتت الهاء فيها للوقف. وعلى هذا يحتمل أن يكون أصل «طه»: طاها، والألف مبدلة من الهمزة والهاء كناية عن الأرض. لكن يرد ذلك: كتبهما على صورة الحرف.

وأما قوله تعالى: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ [طه: ٢] فذكروا في سبب نزولها أقوالاً:

أحدها: أن أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدي قالوا لرسول الله ﷺ: إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك، فقال ﷺ: «بل بعثت رحمة للعالمين» فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم، وتعريفاً له ﷺ بأن دين الإسلام والقرآن هو السلّم إلى نيل كل فوز، والسبب في إدراك كل سعادة، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها.

وثانيها: أنه ﷺ صلى بالليل حتى تورمت قدماه، فقال له جبريل: أبق على نفسك، فإن لها عليك حقاً. أي ما أنزلناه عليك لتنتهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة

---

(١) هو عكّ بن عدنان أخو معد. وهم باليمن وليس في لغتهم لفظ «رجل» ويقابلها لفظ «طه».

العظيمة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحاء. وروي أنه كان إذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام. وقال بعضهم: كان يسهر طول الليل. وتعقب: بأنه بعيد، لأنه ﷺ إن فعل شيئاً من ذلك فلا بد أن يكون قد فعله بأمر الله تعالى، وإذا فعله عن أمره فهو من باب السعادة لا من باب الشقاوة.

وثالثها: قال بعضهم: يحتمل أن يكون المراد، لا تشق على نفسك وتعذبها بالأسف على كفر هؤلاء، فإنما أنزلنا عليك القرآن لتذكر به من آمن، فمن آمن وأصلح فلنفسه، ومن كفر فلا يحزنك كفره، فما عليك إلا البلاغ، وهذا كقوله: ﴿لعلك باخع نفسك ألاَّ يكونوا مؤمنين﴾ [الشعراء: ٣] ﴿فلا يحزنك كفره﴾ [لقمان: ٢٣].

رابعها: أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة، وفي ذلك الوقت كان ﷺ مقهوراً مع أعدائه، فكأنه تعالى قال: لا تظن أنك تبقى على هذه الحالة، بل يعلو أمرك ويظهر قدرك، فإنا ما أنزلنا عليك القرآن لتبقى شقياً، بل تصير معظماً مكرماً، زاده الله تعالى تعظيماً وتكريماً وتشريفاً.

وقال تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ [الكوثر: ١] السورة. قال الإمام فخر الدين بن الخطيب: في هذه السورة كثير من الفوائد، منها: أنها كالتتمة لما قبلها من السور، وذلك لأن الله تعالى جعل سورة (والضحى) في مدح نبينا ﷺ، وتفصيل أحواله، فذكر في أولها ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته وهي قوله: ﴿ما ودعك ربك وما قلى، وللآخرة خير لك من الأولى، ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ [الضحى: ٣ ـ ٥] ثم ختمها كذلك بأحوال ثلاثة فيما يتعلق بالدنيا، وهي قوله تعالى: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً﴾ [الضحى: ٦ و٧] أي عن علم الحكم والأحكام ﴿فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى﴾ [الضحى: ٧ و ٨]. ثم ذكر في سورة ﴿ألم نشرح﴾ [الشرح: ١] أنه تعالى شرفه ﷺ بثلاثة أشياء وهي ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ أي: ألم نفسحه حتى وسع مناجاة الحق ودعوة الخلق، ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ [الشرح: ٢]. أي عناءك الثقيل ﴿الذي أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك﴾ وهكذا سورة سورة، حتى قال: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ [الكوثر: ١] أي أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها. وإذ أنعمنا عليك بهذه النعم فاشتغل بطاعتنا ولا تبال بقولهم. ثم إن الاشتغال بالعبادة إما أن يكون بالنفس وهو قوله: ﴿فصلِ لربك﴾، وإما بالمال وهو قوله: ﴿وانحر﴾ [الكوثر: ٢].

وتأمل قوله: ﴿إنا أعطيناك﴾ [الكوثر: ١] كيف ذكر بلفظ الماضي، ولم يقل: سنعطيك، ليدل على أن هذا الإعطاء حصل في الزمان الماضي، قال ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» ولا شك أن من كان في الزمان الماضي عزيزاً مرعي الجانب أشرف

ممن سيصير كذلك، كأنه تعالى يقول: يا محمد قد هيأنا أسباب سعادتك قبل دخولك في هذا الوجود، فكيف أمرك بعد وجودك واشتغالك بعبوديتنا يا أيها العبد الكريم، إنا لم نعطك هذا الفضل العميم لأجل طاعتك، وإنما اخترناك بمجرد فضلنا وإحساسنا من غير موجب. واختلف المفسرون في تفسير (الكوثر) على وجوه:

منها: أنه نهر في الجنة، وهذا هو المشهور والمستفيض عند السلف والخلف، فروى أنس أن رسول الله ﷺ قال: (بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طينه مسك إذفر)(1) رواه البخاري.

وقيل: الكوثر أولاده، لأن هذه السورة إنما نزلت رداً على من عابه ﷺ بعدم الأولاد، وعلى هذا فالمعنى: أنه يعطيه نسلاً يبقون على ممر الزمان. فانظر كم قتل من أهل البيت، ثم العالم ممتلىء منهم، ولم يتفق ذلك لنبي من الأنبياء غيره. وقيل: الكوثر الخير الكثير. وقيل: النبوة، وهي الخير الكثير. وقيل: علماء أمته، وقيل الإسلام، ولا ريب أنهما من الخير الكثير، فالعلماء ورثة الأنبياء، كما رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وأما «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» فقال الحافظ ابن حجر، ومن قبله الدميري والزركشي، أنه لا أصل له..نعم روى أبو نعيم في فضل العالم العفيف بسند ضعيف عن ابن عباس رفعه: أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد. وقيل: الكوثر كثرة الأتباع والأشياع.

وعن بعضهم: المراد بالكوثر العلم، وحمله عليه أولى لوجوه: أحدها أن العلم هو الخير الكثير، والثاني: إما أن يحمل الكوثر على نعم الآخرة أو على نعم الدنيا، قال: والأول غير جائز لأنه قال: إنا أعطيناك الكوثر، والجنة سيعطيها لا أنه أعطاها، فوجب حمل الكوثر على ما وصل إليه في الدنيا، وأشرف الأمور الواصلة إليه في الدنيا هو العلم والنبوة، فوجب حمل اللفظ على العلم، والثالث: أنه لما قال ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ [الكوثر: ١] قال عقبة: ﴿فصل لربك وانحر﴾ [الكوثر: ٢] والشيء الذي يتقدم على العبادة هو المعرفة، ولأن «الفاء» في قوله (فصلِ) للتعقيب، ومعلوم أن الموجب للعبادة ليس إلا العلم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/٢٠٧ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/٤٩٨ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٥٦٦) والمنذري في الترغيب والترهيب ٤/٥١٧ والعراقي في المغني ٤/ ٥١٣ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٩١٣٣).

وقيل الكوثر الخلق الحسن كما في حديث: ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة. رواه الطبراني. وعن ابن عباس: جميع نعم الله على نبيه ﷺ.

وبالجملة: فليس حمل الآية على بعض هذه النعم أولى من حملها على الباقي، فوجب حملها على الكل، ولذا روي أن سعيد بن جبير لما روى هذا القول عن ابن عباس قال له بعضهم: إن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه.

قال الإمام فخر الدين بن الخطيب: قال بعض العلماء: ظاهر قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ [الكوثر: ١] يقتضي أنه تعالى قد أعطاه ذلك الكوثر فيجب أن يكون الأقرب حمله على ما آتاه الله من النبوة والقرآن والذكر العظيم والنصر على الأعداء. وأما الحوض وسائر ما أعدّ له من الثواب فهو وإن جاز أن يقال: إنه داخل فيه لأن ما ثبت بحكم وعد الله فهو كالواقع، إلا أن الحقيقة ما قدمناه، لأن ذلك وإن أعدّ له فلا يصح أن يقال على الحقيقة إنه أعطاه الكوثر في حال نزول هذه السورة بمكة، ويحتمل أن يجاب عنه بأن من أقر لولده الصغير بشيء له، يصح أن يقال: أعطاه ذلك الشيء مع أن الصبي في ذلك الحال ليس أهلاً للتصرف. انتهى.

وقد روينا في صحيح مسلم من حديث أنس (بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا ما يضحكك أضحك الله سنك، يا رسول الله؟ قال: نزلت علي آنفاً سورة فقرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر﴾ [الكوثر: ١ ـ ٣]. ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي، عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي عليه يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك)[1]. وهذا تفسير صريح منه ﷺ بأن المراد بالكوثر ـ هنا ـ الحوض، فالمصير إليه أولى، وهذا هو المشهور كما تقدم: فسبحان من أعطاه هذه الفضائل العظيمة وشرفه بهذه الخصال العميمة، وحباه بما أفاضه عليه من نعمه الجسيمة.

وقد جرت عادة الله مع أنبيائه عليهم الصلاة والسلام أن يناديهم بأسمائهم الأعلام نحو: ﴿يا آدم اسكن﴾ [البقرة: ٣٥] ﴿يا نوح اهبط﴾ [هود: ٤٨] ﴿يا موسى إني أنا

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب الافتتاح رقم (٢١) ٢/ ١٣٤ ومسلم في كتاب الصلاة رقم الحديث (٥٣) وأبو داود في كتاب الصلاة أيضاً رقم الحديث (٧٨٤) والترمذي نحوه برقم (٢٥٤٢).

الله﴾ [القصص: ٣٠] ﴿يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك﴾ [المائدة: ١١٠]، وأما نبينا محمد ﷺ فناداه بالوصف الشريف من الإنباء والإرسال فقال: (يا أيها الرسول) (يا أيها النبي). ولله در القائل:

فـدعـا جميـع الـرسـل كـلاً بـاسمـه ودعـاك وحـدك بـالـرسـول وبـالنبـي

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: ولا يخفي على أحد أن السيد إذا دعا عبيده بأفضل ما أوجد لهم من الأوصاف العلية والأخلاق السنية ودعا الآخرين بأسمائهم الأعلام التي لا تشعر بوصف من الأوصاف، ولا بخلق من الأخلاق، أن منزلة من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعز عليه وأقرب إليه ممن دعاه باسمه العلم، وهذا معلوم بالعرف: أن من دعي بأفضل أوصافه وأخلاقه كان ذلك مبالغة في تعظيمه واحترامه. انتهى.

وانظر ما في نحو قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة: ٣٠] من ذكر «الرب» تعالى وإضافته إليه ﷺ، وما في ذلك من التنبيه على شرفه واختصاصه بخطابه، وما في ذلك من الإشارة اللطيفة، وهي أن المقبل عليه بالخطاب، له الحظ الأعظم، والقسم الأوفر من الجملة المخبر بها إذ هو في الحقيقة أعظم خلفائه. ألا ترى إلى عموم رسالته ودعائه، وجعله أفضل أنبيائه، أمَّ بهم ليلة إسرائه، وجعل آدم فمن دونه يوم القيامة تحت لوائه، فهو المقدم في أرضه وسمائه، وفي دار تكليفه وجزائه.

وبالجملة: فقد تضمن الكتاب العزيز من التصريح بجليل رتبته، وتعظيم قدره، وعلو منصبه، ورفعة ذكره ما يقضي بأنه استولى على أقصى درجات التكريم، ويكفي إخباره تعالى بالعفو عنه وملاطفته قبل ذكر العتاب في قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك، لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣]. وتقديم ذكره على الأنبياء تعظيماً له، مع تأخره عنهم في الزمان في قوله تعالى: ﴿ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم﴾ [الأحزاب: ٧] وإخباره بتمني أهل النار طاعته في قوله تعالى: ﴿يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا﴾ [الأحزاب: ٦٦]، وهذا بحر لا ينفد وقطر لا يعد.

النوع الثاني

في أخذ الله الميثاق له على النبيين فضلا ومنة ليؤمنن به إن أدركوه ولينصرنه[1]

قال الله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٤٣.

رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ [آل عمران: ٨١] الآية. أخبر تعالى أنه أخذ الميثاق على كل نبي بعثه، من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى محمد ﷺ أن يصدق بعضهم بعضاً، قاله الحسن وطاووس وقتادة. وقيل معناه: أنه تعالى أخذ الميثاق من النبيين وأممهم، واستغنى بذكرهم عن ذكر الأمم.

وعن علي بن أبي طالب وابن عباس: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن محمد ﷺ ـ وهو حي ـ ليؤمنن به ولينصرنه. وما قاله قتادة والحسن وطاووس لا يضاد ما قاله علي وابن عباس، ولا ينفيه بل يستلزمه ويقتضيه.

وقيل معناه: أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كانوا يأخذون الميثاق من أممهم بأنه إذا بعث محمد ﷺ أن يؤمنوا به وأن ينصروه، واحتج له بأن الذين أخذ الله الميثاق منهم يجب عليهم الإيمان بمحمد ﷺ عند مبعثه، وكان الأنبياء عند مبعث محمد ﷺ من جملة الأموات، والميت لا يكون مكلفاً، فتعين أن يكون الميثاق مأخوذاً على الأمم. وقالوا: ويؤكد هذا، أنه تعالى حكم على الذين أخذ عليهم الميثاق بأنهم لو تولوا لكانوا فاسقين، وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء، وإنما يليق بالأمم.

[وأجاب الفخر الرازي]: بأن يكون المراد من الآية أن الأنبياء لو كانوا في الحياة لوجب عليهم الإيمان بمحمد ﷺ. ونظيره قوله تعالى ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ [الزمر: ٦٥]، وقد علم الله تعالى أنه لا يشرك قط، ولكنه خرج هذا الكلام على سبيل التقدير والفرض، وقال تعالى: ﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦] وقال في الملائكة: ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم﴾ [الأنبياء: ٢٩] مع أنه تعالى أخبر عنهم بأنهم ﴿لا يسبقونه بالقول﴾ [الأنبياء: ٢٧] وبأنهم ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ [النحل: ٥٠]، فكل ذلك خرج على سبيل الفرض والتقدير. وإذا نزلت هذه الآية على أن الله تعالى لما أوجب على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ لو كانوا في الأحياء، وأنهم لو تركوا ذلك لكانوا في زمرة الفاسقين، فلأن يكون الإيمان بمحمد ﷺ واجباً على أممهم من باب أولى. فكان صرف هذا الميثاق إلى الأنبياء أقوى في تحصيل المقصود.

وقال السبكي في هذه الآية: إنه ﷺ على تقدير مجيئهم في زمانه يكون مرسلاً إليهم. فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق، من زمن آدم إلى يوم القيامة، وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته، ويكون قوله ﷺ: «وبعثت إلى الناس كافة» لا يختص به الناس في زمانه إلى يوم القيامة، بل يتناول من قبلهم أيضاً، وإنما أخذ له المواثيق على الأنبياء ليعلموا إنه المتقدم عليهم، وأنه نبيهم ورسولهم. وفي أخذ المواثيق ـ وهي في

معنى الاستخلاف، ولذلك دخلت «لام» القسم في ﴿لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ [آل عمران: ٨١] ـ لطيفة: وهي كأنها أيمان البيعة التي تؤخذ للخلفاء، ولعل أيمان الخلفاء أخذت من هنا.

فانظر إلى هذا التعظيم العظيم للنبي ﷺ من ربه تعالى، فإذا عرف هذا فالنبي محمد ﷺ نبي الأنبياء، ولهذا ظهر ذلك في الآخرة جميع الأنبياء تحت لوائه. وفي الدنيا كذلك ليلة الإسراء صلى بهم، ولو اتفق مجيئه في زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم وعلى أممهم اتباعه والإيمان به ونصرته، وبذلك أخذ الله الميثاق عليهم، فنبوته عليهم ورسالته إليهم معنى حاصل لهم في حياتهم، وإنما أمره يتوقف على اجتماعهم معه، فتأخر ذلك الأمر راجع إلى وجودهم لا إلى عدم اتصافهم بما يقتضيه. وفرق بين توقف الفعل على قبول المحل وتوقفه على أهلية الفاعل، فهاهنا لا توقف من جهة الفاعل، ولا من ذات النبي ﷺ الشريفة، وإنما هو من جهة وجود العصر المشتمل عليه، فلو وجد في عصرهم لزمهم اتباعه بلا شك، ولهذا يأتي عيسى عليه السلام في آخر الزمان على شريعته، وهو نبي كريم على حاله، لا كما يظن بعض الناس أنه يأتي واحداً من هذه الأمة، نعم هو واحد من هذه الأمة لما قلنا من اتباعه للنبي ﷺ، وإنما يحكم بشريعة نبينا ﷺ بالقرآن والسنة، وكل ما فيهما من أمر ونهي، فهو متعلق به كما يتعلق بسائر الأمة، وهو نبي كريم على حاله لم ينقص منه شيء.

وكذلك لو بعث النبي ﷺ في زمانه أو في زمان موسى وإبراهيم ونوح وآدم كانوا مستمرين على نبوتهم ورسالتهم إلى أممهم، والنبي ﷺ نبي عليهم ورسول إلى جميعهم، فنبوته ورسالته أعم وأشمل وأعظم. وتتفق مع شرائعهم في الأصول، لأنها لا تختلف، وتقدم شريعته ﷺ فيما عساه يقع الاختلاف فيه من الفروع، إما على سبيل التخصيص، وإما على سبيل النسخ، أو: لا نسخ ولا تخصيص بل تكون شريعة النبي ﷺ في تلك الأوقات بالنسبة إلى أولئك الأمم ما جاءت به أنبياؤهم ، وفي هذا الوقت بالنسبة إلى هذه الأمة الشريفة، والأحكام تختلف باختلاف الأشخاص والأوقات، وبهذا بان لنا معنى حديثين كانا خفيا عنا:

أحدهما: قوله ﷺ: «بعثت إلى الناس كافة»، كنا نظن أنه من زمانه إلى يوم القيامة، فبان أنه إلى جميع الناس أولهم وآخرهم.

والثاني: قوله ﷺ: كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»، كنا نظن أنه بالعلم، فبان أنه زائد على ذلك، وإنما يفترق الحال بين ما بعد وجود جسده ﷺ وبلوغه الأربعين، وما قبل ذلك بالنسبة إلى المبعوث إليهم وتأهلهم لسماع كلامه لا بالنسبة إليه ولا إليهم، لو تأهلوا

قبل ذلك، وتعليق الأحكام على الشروط قد يكون بحسب المحل القابل، وقد يكون بحسب الفاعل المتصرف فهاهنا التعليق إنما هو بحسب المحل القابل، وهو المبعوث إليهم وقبولهم سماع الخطاب والجسد الشريف الذي يخاطبهم بلسانه.

وهذا كما يوكل الأب رجلاً في تزويج ابنته إذا وجدت كفءاً، فالتوكيل صحيح وذلك الرجل أهل للوكالة، ووكالته ثابتة، وقد يحصل توقف التصرف على وجود الكفء، ولا يوجد إلا بعد مدة، وذلك لا يقدح في صحة الوكالة وأهلية الوكيل، انتهى.

النوع الثالث

في وصفه له ﷺ بالشهادة وشهادته له بالرسالة(1)

قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ عند بناء البيت الحرام ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩]. فاستجاب الله دعاءهما، وبعث في أهل مكة رسولاً منهم بهذه الصفة من ولد إسماعيل الذي دعا مع أبيه إبراهيم عليهما السلام بهذا الدعاء. فإن قلت: من أين علم أن الرسول هنا المراد به محمد ﷺ؟

فالجواب من وجوه:

أحدها: إجماع المفسرين وهو حجة.

والثاني: قوله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى»(2) قالوا: وأراد بالدعوة هذه الآية، وبشارة عيسى هي ما ذكر في سورة الصف من قوله: ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ [الصف: ٦].

الثالث: إن إبراهيم إنما دعا بهذا الدعاء بمكة لذريته الذين كانوا بها وبما حولها، ولم يبعث الله تعالى إلى من بمكة إلا محمداً ﷺ. وقد امتن الله تعالى على المؤمنين ببعث هذا النبي منهم على هذه الصفة فقال تعالى: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم

---

(١) المصدر السابق ١/ ٢٣.

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١/ ١٣٩ و ٥/ ٢٠٧ والبيهقي في دلائل النبوة ١/ ٦٩ وابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ١١٩ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٣٣ ـ ٣١٨٨٩) وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ١/ ٣٩.

رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [آل عمران: ١٦٤] الآية، فليس لله منة على المؤمنين أعظم من إرساله محمداً ﷺ يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وإنما كانت النعمة على هذه الأمة بإرساله أعظم النعم، لأن النعمة به ﷺ تمت بها مصالح الدنيا والآخرة، وكمل بسببها دين الله الذي رضيه لعباده.

وقوله: ﴿من أنفسهم﴾ [آل عمران: ١٦٤] يعني أنه بشر مثلهم، وإنما امتاز عليهم بالوحي. وقرىء في الشواذ (من أنفسهم) ـ بفتح الفاء ـ يعني من أشرفهم، لأنه من بني هاشم، وبنو هاشم أفضل قريش، وقريش أفضل العرب، والعرب أفضل من غيرهم. ثم قيل: لفظ (المؤمنين) عام، ومعناه خاص في العرب، لأنه ليس حي من أحياء العرب إلا وقد ولده، وخص المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون به أكثر، فالمنة عليهم أعظم.

فإن قلت: هل العلم بكونه ﷺ بشراً، ومن العرب، شرط في صحة الإيمان، أو هو من فروض الكفاية.

أجاب الشيخ ولي الدين بن العراقي: بأنه شرط في صحة الإيمان. قال: فلو قال شخص: أومن برسالة محمد ﷺ إلى جميع الخلق، ولكني لا أدري هل هو من البشر أو الملائكة، أو من الجن، أو لا أدري أهو من العرب أو العجم، فلا شك في كفره لتكذيبه للقرآن وجحده ما تلقته قرون الإسلام خلفاً عن سلف، وصار معلوماً بالضرورة عند الخاص والعام، ولا أعلم في ذلك خلافاً. فلو كان غبياً لا يعرف ذلك وجب تعليمه إياه، فإن جحده بعد ذلك حكمنا بكفره. انتهى. فإن قلت: هل هو ﷺ باق على رسالته إلى الآن؟

أجاب أبو المعين النفسي[1]: بأن الأشعري قال: إنه ﷺ الآن في حكم الرسالة، وحكم الشيء يقوم مقام أصل الشيء، ألا ترى أن العدة تدل على ما كان من أحكام النكاح. انتهى. وقال غيره: إن النبوة والرسالة باقية بعد موته ﷺ حقيقة، كما يبقى وصف الإيمان بعد موته، لأن المتصف بالنبوة والرسالة، والإيمان هو الروح وهي باقية لا تتغير بموت البدن. انتهى. وتعقب: بأن الأنبياء أحياء في قبورهم، فوصف النبوة باق للجسد والروح معاً.

وقال القشيري: كلام الله تعالى لمن اصطفاه: أرسلتك أن تبلغ عني، وكلامه تعالى قديم، فهو ﷺ قبل أن يوجد كان رسولاً. وفي حال كونه وإلى الأبد رسولاً، لبقاء الكلام

---

(١) هو ميمون بن محمد بن محمد بن معبد بن مكحول أبو المعين النسفي الحنفي (٤١٨ ـ ٥٠٨ هـ) من علماء الكلام. الأعلام ٧/ ٣٤١ معجم المطبوعات ١٨٥٤ كشف الظنون ٣٣٧ و ١٨٤٥.

وقدمه، واستحالة البطلان على الإرسال الذي هو كلام الله تعالى. ونقل السبكي في طبقاته، عن ابن فورك أنه قال إنه ﷺ حي في قبره، رسول الله أبد الآباد على الحقيقة لا المجاز. انتهى.

وقال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [الجمعة: ٢].

والمراد بالأميين: العرب، تنبيهاً لهم على قدر هذه النعمة وعظمها حيث كانوا أميين، لا كتاب لهم، وليس عندهم شيء من آثار النبوة، كما عند أهل الكتاب، فمنَّ الله تعالى عليهم بهذا الرسول وبهذا الكتاب، حتى صاروا أفضل الأمم وأعلمهم، وعرفوا ضلالة من ضل قبلهم من الأمم. وفي كونه ﷺ منهم فائدتان:

إحداهما: أن هذا الرسول كان أيضاً أمياً كأميّة المبعوث إليهم، لم يقرأ كتاباً قط ولم يخطه بيمينه، كما قال تعالى: ﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ولا خرج عن ديار قومه فأقام عند غيرهم حتى تعلم منهم، بل لم يزل أمياً بين أمة أمية لا يكتب ولا يقرأ حتى بلغ الأربعين من عمره، ثم جاء بعد ذلك بهذا الكتاب المبين، وهذه الشريعة الباهرة، وهذا الدين القيم الذي اعترف حذاق أهل الأرض ونظارها أنه لم يقرع العالم ناموس أعظم منه، وفي هذا برهان عظيم على صدقه ﷺ.

والفائدة الثانية: التنبيه على أن المبعوث منهم وهم الأميون، وخصوصاً أهل مكة، يعرفون نسبه وشرفه وصدقه وأمانته وعفته، وأنه نشأ بينهم معروفاً بذلك، وأنه لم يكذب قط، فكيف كان يدع الكذب على الناس ثم يفتري الكذب على الله عز وجل؟ هذا هو الباطل. ولذلك سأل هرقل عن هذه الأوصاف واستدل بها على صدقه فيما ادعاه من النبوة والرسالة.

وقد قال الله تعالى خطاباً له: ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ [الأنعام: ٣٣]. ويروى أن رجلاً قال: والله يا محمد ما كذبتنا قط فنتهمك اليوم ولكنا إن نتبعك نتخطف من أرضنا، فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح عن ابن عباس. وعن مقاتل: كان الحارث بن عامر يكذب النبي ﷺ في العلانية، فإذا خلا مع أهل بيته قال: ما محمد من أهل الكذب. ويروى أن المشركين كانوا إذا رأوه ﷺ قالوا: إنه لنبي. وعن علي: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله تعالى الآية. والمعنى: أنهم ينكرونه مع العلم بصحته. إذ الجحد هو الإنكار مع العلم.

فإن قلت: فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك﴾ [الأنعام: ٣٤]؟ أجيب: بأنه على طريق الجحد، وهو يختلف باختلاف أحوالهم في

الجهل، فمنهم من وقع منه ذلك لجهله، فحيث علم آمن، ومنهم من علم وأنكر كفراً وعناداً كأبي جهل. فيكون المراد بقوله فإنهم لا يكذبونك، قوماً مخصوصين منهم لا كلهم، وحينئذٍ فلا تعارض.

وروي أن أبا جهل لقيه فصافحه فقيل له: أتصافحه؟ فقال: والله إني لأعلم أنه نبي، ولكن متى كنا تبعاً لبني عبد مناف؟ فأنزل الله الآية، رواه أبي حاتم. والقرآن كله مملوء بالآيات الدالة على صدق هذا الرسول الكريم، وتحقيق رسالته، فكيف يليق بكمال الله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك ويؤيده، ويعلي كلمته ويرفع شأنه، ويجيب دعوته ويهلك عدوه، ويظهر على يده من الآيات والبراهين والأدلة ما يضعف عن مثله قوى البشر، وهو مع ذلك كاذب عليه، مفترٍ ساعٍ في الأرض بالفساد؟؟ ومعلوم أن شهادته سبحانه وتعالى على كل شيء، وقدرته على كلِّ شيء، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبىٰ ذلك كل الإباء، ومن ظن ذلك به وجوزه عليه فهو من أبعد الخلق عن معرفته إن عرف منه بعض صفاته كصفة القدرة وصفة المشيئة.

والقرآن كله مملوء من هذه الطريق، وهذه طريقة الخاصة، بل خاصة الخاصة الذين يستدلون بالله على أفعاله، وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله. وإذا تدبرت القرآن رأيته ينادي على ذلك ويبديه ويعيده لمن له فهم وقلب واعٍ عن الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]، أفتراه سبحانه وتعالى يخبر أن كماله وحكمه يأبى أن يقرَّ من تقول عليه بعض الأقاويل، بل لا بد أن يجعله عبرة لعباده، كما جرت بذلك سننه في المتقولين عليه.

وقال تعالى: ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ [الشورى: ٢٤] هاهنا انتهى جواب الشرط. ثم أخبر خبراً جازماً غير معلق بأنه يمحو الباطل ويحق الحق. وقال تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ [الأنعام: ٩١]، فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره، ولا عرفه كما ينبغي ولا عظمه كما يستحق، فكيف من ظن أن الله ينصر الكاذب المفتري عليه، ويؤيده ويظهر على يديه الأيات والأدلة؟ وهذا في القرآن كثير يستدل تعالى بكماله المقدس وأوصافه وجلاله على صدق رسوله، وعلى وعده ووعيده، ويدعو عباده إلى ذلك.

وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله: ﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك

الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون. قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ [العنكبوت: ٥١و ٥٢]، فأخبر سبحانه أن الكتاب الذي أنزله يكفي من كل آية، ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله، وأن الله سبحانه أرسل به رسوله، وفيه بيان ما يوجب لمن اتبعه السعادة، وينجيه من العذاب. ثو قال: ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السموات والأرض﴾ [العنكبوت: ٥٢] فإذا كان سبحانه عالماً بجميع الأشياء كانت شهادته أصدق شهادة وأعدلها، فإنها شهادة بعلم تام محيد بالمشهود به، وهو سبحانه وتعالى يذكر علمه عند شهادته وقدرته، وملكه عند مجازاته، وحكمته عند خلقه، وأمره ورحمته عند ذكر إرسال رسله، وحلمه عند ذنوب عباده. فتأمل ورود أسمائه الحسنى في كتابه، وارتباطها بالخلق والأمر والثواب والعقاب. انتهى.؟وقال تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾ [الأحزاب: ٤٥ و ٤٦]. أي شاهداً على الواحدانية، وشاهداً في الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراط، وشاهداً في الآخرة بأحوال الدنيا، وبالطاعة والمعصية والصلاح والفساد، وشاهداً على الخلق يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ [البقرة: ١٤٣]. كأنه تعالى يقول: يا أيها المشرّف من قبلنا، إنا أرسلناك شاهداً بوحدانيتنا ومشاهداً كمال فردانيتنا، تبشر عبادنا عنا، وتحذرهم مخالفة أمرنا، وتعلمهم مواضع الخوف منا، وداعياً الخلق إلينا، وسراجاً يستضيئون بك، وشمساً تبسط شعاعك على جميع من صدقك وآمن بك، ولا يصل إلينا إلا من اتبعك وخدمك وقدمك، فبشر بفضلنا وطولنا عليهم وإحساننا إليهم.

ولما كان الله تعالى قد جعله ﷺ شاهداً على الوحدانية، والشاهد لا يكون مدعياً، فالله تعالى لم يجعل النبي في مسألة الواحدانية مدعياً لها، لأن المدعي من يقول شيئاً على خلاف الظاهر، والوحدانية أظهر من الشمس، والنبي ﷺ كان ادعى النبوة، فجعل الله تعالى نفسه شاهداً له في مجازاة كونه شاهداً له تعالى فقال سبحانه: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾ [المنافقون: ١]، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلاً، قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ [الرعد: ٤٣] فاستشهد على رسالته بشهادة الله له. وكذلك قوله تعالى: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة، قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾ [النساء: ١٦٦] وقوله: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾ [المنافقون: ١] وقوله: ﴿محمد رسول الله﴾ [الفتح: ٢٩]، فهذا كله منه تعالى شهادة لرسوله قد

أظهرها وبينها، وبين صحتها غاية البيان بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم بكونه سبحانه شاهداً لرسوله.

وقال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾ [الفتح: ٢٨]. فيظهر ظهورين: ظهوراً بالحجة والبيان، وظهوراً بالنصر والغلبة والتأييد حتى يظهر على مخالفيه ويكون منصوراً.

ومن شهادته تعالى أيضاً ما أودعه في قلوب عباده من التصديق الجازم، واليقين الثابت والطمأنينة بكلامه ووحيه، فإن الله تعالى فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له، والطمأنينة والسكون إليه ومحبته، وفطرها على بغض الكذب والباطل والنفور عنه وعدم السكون إليه، ولو بقيت الفطرة على حالها لما آثرت على الحق سواه، ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحبت غيْره. ولهذا ندب الحق سبحانه إلى تدبر القرآن، فإن كل من تدبره أوجب له علماً ضرورياً ويقيناً جازماً أنه حق، بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق قال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [محمد: ٢٤]، فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان، وعلمت علماً ضرورياً كسائر الأمور الوجدانية باللذة والألم أنه من عند الله، تكلم به حقاً، وبلغه رسوله جبريل إلى رسوله محمد ﷺ. فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد. انتهى ملخصاً من مدارج السالكين.

وقال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨]. ففي هذه الآية دلالة على أنه ﷺ مبعوث إلى كافة الثقلين. وقالت العيسوية من اليهود - وهم أتباع عيسى الأصبهاني -: إن محمداً صادق مبعوث إلى العرب، غير مبعوث إلى بني إسرائيل.

ودليلنا على إبطال قولهم هذه الآية، لأن قوله: ﴿يا أيها الناس﴾ خطاب يتناول كل الناس، ثم قال: ﴿إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨] وهذا يقتضي كونه مبعوثاً إلى جميع الناس. وأيضاً: فلأنا نعلم بالتواتر أنه كان يدعي أنه مبعوث إلى الثقلين. فإما أن تقول: كان رسولاً حقاً، أو ما كان كذلك، فإن كان رسولاً حقاً امتنع الكذب عليه، ووجب الجزم بكونه صادقاً في كل ما يدعيه، فلما ثبت بالتواتر وبظاهر هذه الآية أنه كان يدعي كونه مبعوثاً إلى جميع الثقلين، وجب كونه صادقاً، وذلك يبطل قول من يقول: إنه كان مبعوثاً إلى العرب فقط، لا إلى بني إسرائيل. وإذا ثبت هذا فنقول: قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨]

من الناس من يقول إنه عام دخله التخصيص، ومنهم من أنكر ذلك. أما الأولون فقالوا: دخله التخصيص من وجهين:

الأول: أنه رسول إلى الناس إذا كانوا من جملة المكلفين، فأما إذا لم يكونوا من جملة المكلفين لم يكن رسولاً إليهم، وذلك لأنه ﷺ قال: «رفع القلم عن ثلاث: عن الصبي حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق»[1] رواه ابن جرير عن ابن عباس.

والثاني: أنه رسول إلى من وصله خبر وجوده، وخبر معجزاته وشرائعه، حتى يمكنه عند ذلك متابعته. أما لو قدرنا حصول قوم في طرف من أطراف الأرض لم يبلغهم خبره وخبر معجزاته وشرائعه حتى لا يمكنهم عند ذلك متابعته فلا يكونون مكلفين بالإقرار بنبوته. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[2] رواه مسلم. ومفهومه: أن من لم يسمع ﷺ ولم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور، على ما تقرر في الأصول أنه لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح. وفي هذا الحديث نسخ الملل كلها برسالة نبينا ﷺ.

وقال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل، أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير﴾ [المائدة: ١٩]. خاطب تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمداً خاتم النبيين الذي لا نبي بعده ولا رسول. بل هو المعقب لجميعهم، ولهذا قال تعالى: ﴿على فترة من الرسل﴾ [المائدة: ١٩] أي بعد مدة متطاولة، ما بين إرساله وعيسى بن مريم.

وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة كم هي؟ فقال النهدي وقتادة في رواية عنه: ستمائة سنة. ورواه البخاري عن سلمان الفارسي. وعن قتادة: خمسمائة وستون سنة، وقال الضحاك: أربعمائة وبضع وثلاثون سنة، وعن الشعبي ـ فيما ذكره ابن عساكر ـ تسعمائة وثلاث وثلاثون سنة. قال الحافظ عماد الدين بن كثير: والمشهور أنها ستمائة

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦/ ١٠٠ والنسائي ٦/ ١٥٦ وأبو داود برقم (٤٤٠٢) والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٩ و ٤/ ٣٨٩ والبغوي في شرح السنة ٩/ ٢٢١ وابن الجارود في المنتقى برقم (٨٠٨) والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٥٦ و ٣/ ٨٣ و ٦/ ٢٠ والمتقي الهندي في كنز العمال (١٠٣٠٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الايمان رقم الحديث (٢٤٠).

سنة، قال: وكانت هي الفترة بين عيسى بن مريم، آخر أنبياء بني إسرائيل، وبين محمد آخر النبيين من بني آدم على الإطلاق، كما في البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أنا أولى الناس بابن مريم [والأنبياء أولاد علات][1] ليس بيني وبينه نبي»[2] وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي يقال له: خالد بن سنان، كما حكاه القضاعي وغيره.

والمقصود: أن الله بعث محمداً على فترة من الرسل وطموس من السبل وتغير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم والنفع به أعم. وفي حديث عند الإمام أحمد مرفوعاً: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من بني إسرائيل»[3] وفي لفظ مسلم «من أهل الكتاب». فكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم، حتى بعث الله محمداً ﷺ فهدى به الخلائق، وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وتركهم على المحجة البيضاء، والشريعة الغراء، صلوات الله وسلامه عليه.

وقال تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ [التوبة: ١٢٨]. أي: عزيز عليه عنتكم، أي إثمكم بالشرك والمعاصي، حريص عليكم أن تهتدوا. قال الحسن: عزيز عليه أن تدخلوا النار، حريص عليكم أن تدخلوا الجنة، ومن حرصه ﷺ علينا أنه لم يخاطبنا بما يريد إبلاغه إلينا، وفهمنا إياه على قدر منزلته، بل على قدر منزلتنا، وإلى هذا أشار صاحب البردة بقوله:

لم يمتحنا بما تعيى العقول به ... حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

أي لم نتحير ولم نشك فيما ألقاه إلينا. وقال: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ولا رحمة مع التكليف بما لا يفهم. ومن حرصه ﷺ على هدايتنا أنه كان كثيراً ما يضرب المثل بالمحسوس ليحصل الفهم، وهذه سنة القرآن، ومن تتبع الكتاب والسنة رأى من ذلك العجب العجاب، ولما ساوى الله سبحانه وتعالى بين الناس في حرص رسوله ﷺ على إسلامهم، خص المؤمنين برأفته ورحمته لهم.

---

(١) ليست في الأصل وهي في البخاري.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٤٤٢) وأبو داود برقم (٤٦٧٥) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٤٠٦ ومسلم في كتاب الفضائل (١٤٣) والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٩٢ والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢١٤ والمتقي الهندي في كنزه (٣٢٣٤٦).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الجنة (٦٣) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/ ١٦٢ والطبراني في المعجم الكبير ١٧/ ٣٥٩.

وقال تعالى: ﴿من أنفسكم﴾ [التوبة: ١٢٨] ولم يقل: من أرواحكم، فقيل يحتمل أن يكون مراده: أنه منا بجسده المنفس، لا بروه المقدس، ويرحم الله القائل:

إذا رمت مدح المصطفى شغفاً به ... تبلد ذهني هيبة لمقامه
فأقطع ليلي ساهر الجفن مطرقاً ... هوى فيه أحلى من لذيذ منامه
إذا قال فيه الله جل جلاله ... رؤوف رحيم في سياق كلامه
فمن ذا يجاري الوحي والوحي معجز ... بمختلفيه نثره ونظامه

تنبيه: أما قول القاضي عياض بعد ذكره الآية:

«ثم وصفه بعدُ بأوصاف حميدة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة، من حرصه على هدايتهم، ورشدهم وإسلامهم، وشدة ما يعنتهم ويضربهم في دنياهم وأخراهم، وعزته عليه...». فهو وإن كان المقصد صحيحاً، ففي ظاهره شيء، لأنه يوهم أن قوله «وشدة ما يعنتهم» معطوف على متعلق المصدر الذي هو «الحرص» فيكون مخفوضاً به.

ومما يقوي هذا التوهم قوة إعطاء الكلام، أن الضمير الأول من قوله «وعزته عليه» عائد على النبي ﷺ، والضمير الثاني عائد على الله عز وجل، فلا تبقى «الشدة» إلا أن تكون معطوفة على متعلق المصدر. ولا يخفى ما في هذا.

وقد تأوله بعض العلماء هلى حذف مضاف أي: وكراهة شدة ما يعنتهم، أو نحو ذلك من المضافات. والأولى ـ أو الصواب، إن شاء الله تعالى ـ أن تكون «الشدة» معطوفة على نفس المصدر الذي هو «الحرص» ويكون قوله «وعزته» معطوفاً على «وشدة» والضمير فيه راجع إلى الموصول وهو «ما» في قوله «ما يعنتهم» والهاء الثانية في «عليه» عائدة على النبي ﷺ. انتهى.

وقال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. يجوز أن يكون «رحمة» مفعولاً له، أي لأجل الرحمة، ويجوز أن ينتصب على الحال مبالغة في أن جعله نفس الرحمة، وإما على حذف مضاف أي: ذا رحمة، أو بمعنى: راحم. قاله السمين(١).

وقال أبو بكر بن طاهر ـ فيما ذكره القاضي عياض ـ: زين الله تعالى محمداً ﷺ بزينة الرحمة، فكان كونه رحمة، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق، فمن أصابه

(١) هو أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي أبو العباس شهاب الدين المعروف بالسمين. مفسر عالم بالعربية والقراءات. توفي سنة (٧٥٦ هـ). الاعلام ١/ ٢٧٤ غاية النهاية ١/ ١٥٢ الدرر الكامنة ١/ ٣٣٩ رقم الترجمة (٨٤٦).

شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب، انتهى.

وقال ابن عباس: رحمة للبر والفاجر، لأن كل نبي إذا كذب أهلك الله من كذبه. ومحمد أخّر من كذبه إلى الموت أو إلى القيامة. وأما من صدقه فله الرحمة في الدنيا والآخرة. وقال السمرقندي: رحمة للعالمين يعني: الجن والإنس. وقيل: لجميع الخلق للمؤمن رحمة بالهداية، ورحمة للمنافق بالأمان من القتل، ورحمة للكافر بتأخير العذاب. فذاته ﷺ - كما قيل - رحمة تعم المؤمن والكافر، قال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال: ٣٣]، وقال ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة»[1] رواه الدارمي والبيهقي في «الشعب» من حديث أبي هريرة. وقال بعض العارفين: الأنبياء خلقوا كلهم من الرحمة، ونبينا ﷺ عين الرحمة، ولقد أحسن القائل:

غنيمة عمر الكون بهجة عيشه ... سرور حياة الدهر فائدة الدهر
هو النعمة العظمى هو الرحمة التي ... تجلى بها الرحمن في السر والجهر

فبيانه ﷺ ونصحه رحمة، ودعاؤه واستغفاره رحمة، فرزِقَ ذلك منْ قبله، وحرمه من رده. فإن قلت: كيف كان رحمة، وقد جاء بالسيف واستباحة الأموال؟ فالجواب: من وجهين:

أحدهما: أنه إنما جاء بالسيف، لمن استكبر وعاند، ولم يتفكر ولم يتدبر، ومن أوصاف الله تعالى: الرحمن الرحيم، ثم هو منتقم من العصاة، وقد قال تعالى: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً﴾ [ق: ٩] ثم قد يكون سبباً للفساد.

وثانيهما: أن كل نبي من الأنبياء قبل نبينا إذا كذبه قومه أهلك الله المكذبين بالخسف والمسخ والغرق، وقد أخر الله تعالى عذاب من كذب نبينا إلى الموت، أو إلى القيامة. لا يقال: إنه تعالى قال: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ [التوبة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ليعذب الله المنافقين﴾ [الأحزاب: ٧٣]، لأنا نقول: تخصيص العام لا يقدح فيه.

وفي «الشفاء» للقاضي عياض: وحكى أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: «هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟» قال: نعم، كنت أخشى العاقبة فأمنت، لثناء الله تعالى عليَّ بقوله

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ١/ ١٥٨ والسيوطي في الجامع الصغير ١/ ٣٤٨ وفي الدر المنثور ٤/ ٣٤٢ والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٥٧ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٦٢ وابن سعد في طبقاته ١/ ١٥١ وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٤/ ١٥٤٦.

عز وجل: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين﴾ [التكوير: ٢٠و٢١][(١)]. انتهى.

وذكره السمرقندي في تفسيره بلفظ. وذكر أن النبي ﷺ قال لجبريل يقول الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فهل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم، أصابني من هذه الرحمة شيء، كنت أخشى عاقبة الأمر فأمنت بك، لثناء الله تعالى عليَّ في قوله: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾ [التكوير: ٢٠].

وهذا يقتضي أن محمداً ﷺ أفضل من جبريل، وهو الذي عليه الجمهور، خلافاً لمن زعم أن جبريل أفضل واستدل: بأن الله تعالى وصف جبريل بسبعة أوصاف من صفات الكمال في قوله: ﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]، ووصف محمداً ﷺ بقوله: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ [التكوير: ٢٢]. ولو كان محمد ﷺ مساوياً لجبريل في صفات الفضل أو مقارباً له لكان وصف محمداً بمثل ذلك.

وأجيب: بأنا متفقون على أن لمحمد ﷺ فضائل أخرى سوى ما ذكر في هذه الآية، وعدم ذكر الله تعالى لتلك الفضائل هنا لا يدل على عدمها بالإجمال، وإذا ثبت أن لمحمد ﷺ فضائل أخر زائدة فيكون أفضل من جبريل.

وبالجملة: فإفراد أحد الشخصين بالوصف لا يدل ألبتة على انتفاء تلك الأوصاف عن الثاني، وإذا ثبت بالدليل القرآني أنه ﷺ رحمة للعالمين، والملائكة من جملة العالمين، وجب أن يكون أفضل منهم، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بطريق الأولى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس، كما قدمنا ذلك في أسمائه الشريفة من المقصد الثاني. وبذلك وردت الأحاديث عنه ﷺ:

فروى أحمد من حديث أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال: «مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً، فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لبنة فلم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه، ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة»[(٢)] ورواه الترمذي عن بندار عن أبي عامر العقدي، وقال: حديث حسن،

---

(١) قال السيوطي: لم أجده مخرجاً في شيء من كتب الحديث.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٦١٣) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١٣٨/٥ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٨١).

صحيح. وفي حديث أنس بن مالك مرفوعاً: (إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي)[1] رواه الترمذي وغيره. وفي حديث جابر مرفوعاً: (مثلي ومثل الأنبياء، كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، وأنا موضع هذه اللبنة، ختم بي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام) رواه أبو داود الطيالسي، وكذا البخاري ومسلم. وفي حديث أبي سعيد الخدري: (فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة). رواه مسلم. وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: (وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون).

فمن تشريف الله تعالى له ﷺ ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر الله في كتابه، ورسوله في السنة المتواترة عنه، أنه لا نبي بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل، ولو تحذق وتشعبذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات[2]، فكلها محال وضلالة عند أولي الألباب. ولا يقدح في هذا نزول عيسى بن مريم عليه السلام بعده، لأنه إذا نزل كان على دين نبينا ﷺ ومنهاجه، مع أن المراد: أنه آخر من نبيء. قال أبو حيان: ومن ذهب إلى أن النبوة مكتسبة لا تنقطع، أو إلى أن الولي أفضل من النبي فهو زنديق يجب قتله والله أعلم.

النوع الرابع

في التنويه به ﷺ في الكتب السالفة كالتوراة والإنجيل بأنه صاحب الرسالة والتبجيل[3]

قال الله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وهذ يدل على أنه لو لم يكن مكتوباً لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبول قوله، لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفرات، والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله، وينفر الناس عن قبول مقاله، فلما قال لهم ﷺ هذا دل على أن ذلك النعت كان مذكوراً في التوراة والإنجيل. وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته.

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٢٢٧٢) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢٦٧.

(٢) قال في القاموس المحيط: النيرنج: أخذ كالسحر وليس به. ١/ ٢١٧ مادة (النورج).

(٣) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٧٠.

لكن أهل الكتاب كما قال الله تعالى: [وإن فريقاً منهم ليكتمون][1] الحق وهم يعلمون﴾ [البقرة: ١٤٦] و ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ [المائدة: ١٣]، وإلا فهم - قاتلهم الله - قد عرفوا محمداً ﷺ كما عرفوا أبناءهم، ووجدوه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، لكنهم حرفوهما وبدلوهما ليطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

فدلائل نبوة نبينا ﷺ في كتابيهما - بعد تحريفهما - طافحة، وأعلام شريعته ورسالته فيهما لائحة، وكيف يغني عنهم إنكارهم، وهذا اسم النبي ﷺ بالسريانية «مشفح»، فمشفح، محمد بغير شك، واعتباره أنهم يقولن «شفحا لاها» إذا أرادوا أن يقولوا: الحمد لله، وإذا كان الحمد، شفحا، فمشفح: محمد، ولأن الصفات التي أقروا بها هي وفاق لأحواله وزمانه، ومخرجه ومبعثه وشريعته ﷺ، فليدلونا على من هذه الصفات له، ومن خرجت له الأمم من بين يديه، وانقادت له واستجابت لدعوته. ومن صاحب الجمل الذي هلكت بابل وأصنامها به؟

على أنا لو لم نأت بهذه الأنباء والقصص من كتبهم، ألم يك فيما أودع الله عز وجل القرآن دليل على ذلك؟ وفي تركهم جحد ذلك وإنكاره - وهو يقرعهم به - دليل على اعترافهم له؟ فإنه يقول: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) [الأعراف: ١٥٧] ويقول حكاية عن المسيح: ﴿إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ [الصف: ٦]. ويقول: ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ [آل عمران: ٧١] ويقول: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ [البقرة: ١٤٦]، وكانوا يقولون لمخالفيهم عند القتال: هذا نبي قد أظل مولده، ويذكرون من صفته ما يجدون في كتابهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حسداً وخوفاً على الرياسة. ويحتمل أنهم كانوا يظنون أنه من بني إسرائيل فلما، بعثه الله من العرب، من نسل إسماعيل عظم ذلك عليهم، وأظهروا التكذيب، فلعنة الله على الكافرين.

وقد كان ﷺ يدعوهم إلى اتباعه وتصديقه، فكيف يجوز أن يحتج بباطل من الحجج، ثم يحيل ذلك على ما عندهم وما في أيديهم، ويقول من علامة نبوتي وصدقي أنكم تجدوني عندكم مكتوباً وهم لا يجدونه كما ذكر؟! أو ليس ذلك مما يزيدهم عنه بعداً، وقد كان غنياً أن يدعوهم بما ينفرهم، ويستميلهم بما يوحشهم. وقد أسلم من

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

أسلم من علمائهم كعبد الله بن سلام[1]، وتميم الداري[2]، وكعب[3]، وقد وقفوا منه على مثل هذه الدعاوى.

وقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق محمد بن حمزة بن عبد الله بن سلام عند جده عبد الله بن سلام: أنه لما سمع بمخرج النبي ﷺ بمكة، خرج فلقيه، فقال له النبي ﷺ: «أنت ابن سلام عالم أهل يثرب؟» قال: نعم، قال: «ناشدتك الله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد صفتي في كتاب الله» قال: انسب ربك يا محمد، فارتج النبي ﷺ فقال له جبريل: ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]، فقال ابن سلام: أشهد أنك رسول الله، وإن الله مظهرك ومظهر دينك على الأديان، وإني لأجد صفتك في كتاب الله: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة المعوجة، حتى يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً.

فصل

وقوله: «ليس بفظ ولا غليظ» موافق لقوله تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولا يعارض قوله: ﴿واغلظ عليهم﴾ [التوبة: ٧٣] لأن النفي محمول على طبعه الكريم الذي جبل عليه، والأمر محمول على المعالجة، أو النفي بالنسبة إلى المؤمنين والأمر بالنسبة إلى الكفار والمنافقين كما هو مصرح به في نفس الآية. و«قلوباً غلفاً»: أي مغشاة مغطاة، واحدها: أغلف، ومنه غلاف السيف وغيره.

وأخرج البيهقي وأبو نعيم عن أم الدرداء ـ امرأة أبي الدرداء ـ قالت: قلت لكعب، كيف تجدون صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: كنا نجده موصوفاً فيها: محمد رسول الله اسمه المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، وأعطي المفاتيح، ليبصر الله به أعيناً عوراً، ويسمع به آذاناً صماً، ويقيم به ألسنة معوجة، حتى يشهدوا أن

---

(١) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي أبو يوسف. صحابي توفي في المدينة سنة (٤٣ هـ). الاعلام ٤/ ٩٠ والاصابة رقم الترجمة (٤٧٢٥).

(٢) هو تميم بن أوس بن خارجة الداري أبو رقية. صحابي. مات بفلسطين سنة (٤٠ هـ). الأعلام ٢/ ٨٧ صفة الصفوة ١/ ٣١٠.

(٣) أي كعب الأحبار.

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يعين المظلوم ويمنعه من أن يستضعف.

وفي البخاري: عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ قال: (أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً)(١).

وعند ابن إسحاق: ولا صخب في الأسواق، ولا متزين بالفحش، ولا قوال للخنا، أسدده بكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، ثم أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة معقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأسمي به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين قلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس.

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: قدم الجارود فأسلم فقال: والذي بعثك بالحق لقد وجدت وصفك في الإنجيل، ولقد بشر بك ابن البتول. وأخرج ابن سعد قال: لما أمر إبراهيم بإخراج هاجر حمل على البراق، فكان لا يمر بأرض عذبة سهلة إلا قال: انزل ها هنا يا جبريل، فيقول: لا، حتى أتى مكة فقال جبريل: انزل يا إبراهيم، قال: حيث لا ضرع ولا زرع؟ قال: نعم، ها هنا يخرج النبي الذي من ذرية ابنك الذي تتم به الكلمة العليا. وفي التوراة ـ مما اختاره بعد الحذف والتبديل والتحريف، مما ذكره ابن ظفر في «البشر» وابن قتيبة في «أعلام النبوة» ـ: تجلى الله من سينا، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران. و«سينا» هو الجبل الذي كلم الله فيه موسى. و«ساعير» هو الجبل الذي كلم الله فيه عيسى، وظهرت فيه نبوته. وجبال «فاران» هو اسم عبراني ـ وليست ألفه الأولى همزة ـ هي جبال بني هاشم التي كان رسول الله ﷺ يتحنث في أحدها وفيه فاتحة الوحي، وهو أحد ثلاثة جبال، أحدها: أبو قبيس، والمقابل له قعيقعان إلى بطن الوادي، والثالث: الشرقي فاران، ومنفتحه الذي يلي قعيقعان إلى بطن الوادي، وهو شعب بن هاشم، وفيه مولده ﷺ على أحد الأقوال.

---

(١) الحديث في البخاري برقم (٤٨٣٨).

قال ابن قتيبة: وليس بهذا غموض، لأن تجلي الله من سينا، إنزاله التوراة على موسى عليه السلام بطور سيناء، ويجب أن يكون إشراقه من «ساعير» إنزاله على عيسى الإنجيل، وكان المسيح يسكن من ساعير أرض الخليل، بقرية تدعى ناصرة، وباسمها سمي من اتبعه نصارى، فكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله على المسيح الإنجيل فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران بإنزاله القرآن على محمد ﷺ، وهي جبال مكة، وليس بين المسلمين وأهل الكتاب في ذلك اختلاف في أن فاران هي مكة.

وإن أدعي أنها غير مكة قلنا: أليس في التوراة: إن الله أسكن هاجر واسماعيل فاران؟ وقلنا: دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران، والنبي الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح، أو ليس «استعلن» و«علن» بمعنى واحد، وهو ما ظهر وانكشف. فهل تعلمون ديناً ظهر ظهور الإسلام، وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوه.

وفي التوراة أيضاً ـ مما ذكره ابن ظفر ـ خطاباً لموسى، والمراد به الذين اختارهم لميقات ربه الذين أخذتهم الرجفة خصوصاً، ثم بني إسرائيل عموماً: والله ربك يقيم نبياً من إخوتك، فاستمع له كالذي سمعت ربك في حوريت يوم الإجتماع حين قلت لا أعود اسمع صوت الله ربي لئلا أموت، فقال الله لي: نعم ما قالوا، وسأقيم لهم نبياً مثلك من إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه فيقول لهم كل شيء أمرته به، وأيما رجل لم يطع من تكلم باسمي فإني أنتقم منه. قال: وفي هذا الكلام أدلة على نبوة محمد ﷺ:

فقوله: «نبياً من إخوتهم»، وموسى وقومه من بني إسحاق، وإخوتهم بنو إسماعيل، ولو كان هذا النبي الموعود به من بني إسحاق لكان من أنفسهم لا من إخوتهم.

وأما قوله: «نبياً مثلك» وقد قال في التوراة: لا يقوم في بني إسرائيل أحد مثل موسى، وفي ترجمة أخرى: مثل موسى لا يقوم في بني إسرائيل أبداً. فذهبت اليهود إلى أن هذا النبي الموعود به هو يوشع بن نون، وذلك باطل، لأن يوشع لم يكن كفؤاً لموسى عليهما السلام، بل كان خادماً له في حياته، ومؤكداً لدعوته بعد وفاته، فتعين أن يكون المراد به محمداً ﷺ فإنه كفؤ موسى لأنه مماثله في نصب الدعوة، والتحدي بالمعجزة، وشرع الأحكام، وإجراء النسخ على الشرائع السالفة.

وقوله تعالى: «اجعل كلامي في فمه» فإنه واضح في أن المقصود به محمد ﷺ لأن معناه أوحي إليه بكلامي، فينطق به على نحو ما سمعه، ولا أنزل صحفاً ولا ألواحاً لأنه أمي، لا يحسن أن يقرأ المكتوب.

وفي الإنجيل - مما ذكره ابن طغر بك في «الدر المنظم» قال يوحنا في إنجيله عن المسيح أنه قال: أنا أطلب من الأب أن يعطيكم «فار قليط» آخر يثبت معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقتلوه.

وهو عند ابن ظفر بلفظ: إن أحببتموني فاحفظوا وصيتي، وأنا أطلب إلى أبي فيعطيكم «فار قليط»[1] آخر يكون معكم الدهر كله.

قال: فهذا صريح بأن الله تعالى سيبعث إليهم من يقوم مقامه، فينوب عنه في تبليغ رسالة ربه وسياسة خلقه منابه، وتكون شريعته باقية مخلدة أبداً، فهل هذا إلا محمد ﷺ؟ انتهى. ولم يذكر فصول «الفارقليط» - كما أفاده ابن طغر بك - سوى يوحنا، دون غيره من نقله الأناجيل. وقد اختلف النصارى في تفسير «الفارقليط». فقيل هو: الحامد، وقيل: المخلص.

فإن وافقناهم على أنه المخلص أفضىٰ بنا الأمر إلى أن المخلص رسول يأتي لخلاص العالم، وذلك من غرضنا، لأن كل نبي مخلص لأمته من الكفر، ويشهد له قول المسيح في الإنجيل: إني قد جئت لخلاص العالم، فإذا ثبت أن المسيح هو الذي وصف نفسه بأنه مخلص العالم، وهو الذي سأل الأب أن يعطيهم «فارقليط» آخر، ففي مقتضى اللفظ ما يدل على أنه قد تقدم فارقليط أول حتى يأتي آخر.

وإن تنزلنا معهم على القول بأنه: الحامد، فأي لفظ أقرب إلى أحمد ومحمد من هذا؟

قال ابن ظفر: وفي الإنجيل - مما ترجموه - ما يدل على أن الفارقليط: الرسول، فإنه قال: إن هذا الكلام الذي تسمعونه لي ر. ،و لي، بل الأب أرسلني بهذا الكلام لكم، وأما «الفارقليط» روح القدس الذي يرسله أبي باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم كلما قلته لكم.

فهل بعد هذا بيان؟ أليس هذا صريحاً في أن «الفارقليط» رسول يرسله الله، وهو روح القدس، وهو يصدق بالمسيح، ويظهر اسمه أنه رسول حق من الله، وليس بإله، وهو يعلم الخلق كل شيء، ويذكرهم كل ما قاله المسيح عليه السلام لهم، وكل ما أمرهم به من توحيد الله.

وأما قوله «أبي» فهذه اللفظة مبدلة محرفة، وليست منكرة الإستعمال عند أهل

---

(١) قال ثعلب: «البارقليط الذي يفرق بين الحق والباطل» الشفا ١/ ٢٣٤ وبهامشه: وقيل معناه الحامد وقيل الحماد وقيل الحمد. وأكثر النصارى على أن معناه المخلص.

الكتابين، إشارة إلى الرب سبحانه، لأنها عندهم لفظة تعظيم، يخاطب بها المتعلم معلمه الذي يستمد منه العلم. ومن المشهور مخاطبة النصارى عظماء دينهم بالآباء الروحانية، ولم تزل بنو إسرائيل وبنو عيصو يقولون نحن أبناء الله بسوء فهمهم عن الله تعالى.

وأما قوله «يرسله أبي باسمي» فهو إشارة إلى شهادة المصطفى ﷺ له بالصدق والرسالة، وما تضمنه القرآن من مدحه عما افتري في أمره. وفي ترجمة أخرى للإنجيل، أنه قال: «الفارقليط» إذا جاء وبخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه، ما يسمع يكلمهم به، ويسوسهم بالحق، ويخبرهم بالحوادث. وهو عند ابن طغر بك لفظ: فإذا جاء روح الحق، ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع، ويخبركم بكل ما يأتي، وهو يمجدني لأنه يأخذ مما هو لي ويخبركم. فقوله «ليس ينطق من عنده» وفي الرواية الأخرى: «ولا يقول من تلقاء نفسه بل يتكلم بكل ما يسمع» أي: من الله الذي أرسله، وهذا كما قال تعالى في حقه ﷺ: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم: ٣ و ٤].

وقوله: «وهو يمجدني» فلم يمجده حق تمجيده إلا محمد ﷺ، لأنه وصفه بأنه رسول الله، وبرأه وبرأ أمه ـ عليهما السلام ـ مما نسب إليهما، وأمر أمته بذلك.

قال ابن ظفر: فمن ذا الذي وبخ العلماء على كتمان الحق، وتحريف الكلم عن مواضعه، وبيع الدين بالثمن البخس، ومن ذا الذي أنذر بالحوادث وأخبر بالغيوب إلا محمد ﷺ، ولله در أبي محمد عبد الله الشقراطيسي حيث قال في قصيدته المشهورة:

توراة موسى أتت عنه فصدقها	إنجيل عيسى بحق غير مفتعل
أخبار أحبار أهل الكتب قد وردت	عما رأوا ورووا في الأعصر الأول

ويعجبني قول العارف الرباني أبي عبد الله بن النعمان.

هذا النبي محمد جاءت به	توراة موسى للأنام تبشر
وكذاك إنجيل المسيح موافق	ذكراً لأحمد معرب ومذكر

ويرحم الله ابن جابر حيث قال:

لمبعثه في كل جيل علامة	على ما جلته الكتب من أمره الجلي
فجاء به إنجيل عيسى بآخر	كما قد مضت توراة موسى بأول

وفي الدلائل للبيهقي عن الحاكم ـ بسند لا بأس به ـ عن أبي أمامة الباهلي عن هشام بن العاص الأموي قال: بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام، فذكر الحديث، وأنه أرسل إليهم ليلاً، قال: فدخلنا عليه، فدعا بشيء كهيئة

الربعة العظيمة مذهبة فيها بيوت صغار عليها أبواب، ففتح واستخرج حريرة سوداء، فنشرها فإذا فيها صورة حمراء، فإذا رجل ضخم العينين عظيم الأليتين، لم أر مثل طول عنقه، وإذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله تعالى، قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا آدم عليه السلام، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء، وإذا فيها صورة بيضاء، فإذا رجل أحمر العينين ضخم الهامة حسن اللحية، فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا نوح عليه السلام، قال: ثم فتح باباً آخر وأخرج حريرة فإذا فيها صورة بيضاء، وإذا فيها . والله رسول الله ﷺ، قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، محمد رسول الله ونبينا، قال: وا ، إنه لهو، ثم قام قائماً ثم جلس وقال: إنه لهو؟ قلنا: نعم إنه لهو كأنك تنظر إليه فأمس ـ ساعة ينظر إليها، ثم قال: أما والله إنه لآخر البيوت، ولكني عجلته لكم لأنظر ـ عندكم. الحديث، وفيه ذكر الأنبياء: إبراهيم وموسى وعيسى وسليمان وغيرهم. قال: فقلنا له: من أين لك هذه الصور؟ فقال: إن آدم عليه السلام سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده فأنزل الله عليه صورهم، فكان في خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال.

وفي زبور داود عليه السلام، من مزمور أربعة وأربعين: فاضت النعمة من شفتيك، من أجل هذا باركك الله إلى الأبد، تقلد أيها الجبار بالسيف، فإن شرائعك وسنتك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونة، وجميع الأمم يخرون تحتك.

فهذا المزمور ينوه بنبوة محمد ﷺ، فالنعمة التي فاضت من شفتيه هي القول الذي يقوله، وهو الكتاب الذي أنزل عليه والسنة التي سنها.

وفي قوله: «تقلد سيفك أيها الجبار» دلالة على أنه النبي العربي، إذا ليس يتقلد السيوف أمة من الأمم سوى العرب، فكلهم يتقلدونها على عواتقهم. وفي قوله «فإن شرائعك وسنتك» نص صريح عى أنه صاحب شريعة وسنة، وأنها تقوم بسيفه. و«الجبار» الذي يجبر الخلق بالسيف على الحق ويصرفهم عن الكفر جبراً.

وعن وهب بن منبه قال: قرأت في بعض الكتب القديمة، قال الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي، لأنزلنَّ على جبال العرب نوراً يملأ ما بين المشرق والمغرب، ولأخرجن من ولد إسماعيل نبياً أمياً يؤمن به عدد نجوم السماء ونبات الأرض، كلهم يؤمن بي رباً، وبه رسولاً، ويكفرون بملل آبائهم ويفرون منها، قال موسى: سبحانك وتقدست أسماؤك، لقد كرمت هذا النبي الكريم وشرفته، قال الله: يا موسى، إني أنتقم من عدوه في الدنيا والآخرة، وأظهر دعوته على كل دعوة، وأذل من خالف شريعته، بالعدل زينته، وللقسط أخرجته، وعزتي لأستنقذن به أمماً من النار، فتحت الدنيا

بإبراهيم وأختمها بمحمد، فمن أدركه ولم يؤمن به ولم يدخل في شريعته فهو من الله بريء. ذكره ابن ظفر وغيره.

النوع الخامس
في آيات تتضمن أقسامه تعالى على تحقيق رسالته وثبوت ما أوحى إليه من آياته وعلو رتبته الشريفة ومكانته

وهذا النوع ـ أعزك الله ـ لخصت أكثره من كتاب أقسام القرآن للعلامة ابن القيم، مع زيادات من فرائد الفوائد. فاعلم أنه تعالى أقسم بأمور على أمور، وإنما أقسم بنفسه الموصوفة بصفاته، وآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وأقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته[1]. ثم إنه تعالى تارة يذكر جواب القسم وهو الغالب. وتارة يحذفه. وتارة يقسم على أن القرآن حق. وتارة على أن الرسول حق. وتارة على أن الجزاء والوعد والوعيد حق.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون، لا يمسه إلا المطهرون﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٩].

والثاني: كقوله تعالى: ﴿يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين﴾ [يس: ١ ـ ٣].

والثالث: كقوله: ﴿والذاريات ذروا﴾ إلى قوله: ﴿وإن الدين لواقع﴾ [الذاريات: ١ ـ ٦].

وهذه الأمور الثلاثة متلازمة، فمتى ثبت أن الرسول حق، ثبت أن القرآن حق، وثبت المعاد، ومتى ثبت أن القرآن حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به، ومتى ثبت أن الوعد والوعيد حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به. وفي هذا النوع خمسة فصول.

الفصل الأول
في قسمه تعالى على ما خصه به من الخلق العظيم وحباه من الفضل العميم

قال الله تعالى: ﴿ن والقلم وما يسطرون. ما أنت بنعمة ربك بمجنون. وإن لك لأجراً غير ممنون. وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: ١ ـ ٤].

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ٣١/١ وما بعدها.

﴿ن﴾ [القلم: ١] من أسماء الحروف كـ ﴿الم﴾ [البقرة: ١] و ﴿المص﴾ [الأعراف: ١] و ﴿ق﴾ [ق: ١].

واختلف فيها، فقيل هي أسماء للقرآن، وقيل: أسماء للسور. وقيل: أسماء لله، ويدل عليه أن علياً رضي الله عنه كان يقول: يا ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١]، يا ﴿حم عسق﴾ [الشورى ١ و ٢] كما قيل، ولعله أراد يا منزلهما. وقيل: إنه سر استأثر الله بعلمه، وقد روي عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة ما يقرب منه، ولعلهم أرادوا أنها أسرار بين الله ورسوله، لم يقصد بها إفهام غيره، إذ يبعد الخطاب بما لا يفيد.

وهل المراد بقوله تعالى هنا: «ن» اسم الحوت، وهل المراد به الجنس أو البهموت وهو الذي عليه الأرض؟

وقيل: المراد به الدواة وهو مروي عن ابن عباس، ويكون هذا قسماً بالدواة والقلم، فإن المنفعة بهما بسبب الكتابة عظيمة، فإن التفاهم تارة يحصل بالنطق وتارة بالكتابة.

وقيل: إن «ن» لوح من نور تكتب فيه الملائكة ما يأمرهم به الله. رواه معاوية بن قرة مرفوعاً. والحق أنه اسم للسورة، وأقسم الله تعالى بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحي، وقيد بن الدين، وأثبتت به الشريعة، وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد، وقام في الناس أبلغ خطيب وأفصحه وأنفعه لهم وأنصحه، وواعظاً تشفي مواعظه القلوب من السقم، وطبيباً يبرىء بإذن بارئه من أنواع الألم على تنزيه نبيه ورسوله محمد المحمود في كل أفعاله وأقواله مما غمصته أعداؤه الكفرة به، وتكذيبهم له بقوله تعالى: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ [القلم: ٢].

وكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء قاطبة عن معارضته، وكلّت عن مماثلته، وعرفّهم من الحق ما لا تهتدي إليه عقولهم، بحيث أذعنت له عقول العقلاء، وخضعت له ألباب الألباء، وتلاشت في جنب ما جاء به، بحيث لم يسعها إلا التسليم له، والانقياد والإذعان طائعة مختارة، فهو الذي كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي.

ثم أخبر تعالى عن كمال حالتي نبيه ﷺ في دنياه وآخرته فقال: ﴿وإن لك لأجراً غير ممنون﴾ [القلم: ٣] أي: ثواباً غير منقطع، بل هو دائم مستمر، ونكر الأجر للعظيم، أي أجراً عظيماً لا يدركه الوصف ولا يناله التعبير.

ثم أثنى عليه بما منحه فقال: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: ٤] وهذه من

أعظم آيات نبوته ورسالته، ولقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن» ومن ثم قال ابن عباس وغيره: أي على دين عظيم، وسمى الدين خلقاً لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة وإرادات زاكية وأعمال ظاهرة وباطنة موافقة للعدل والحكمة والمصلحة، وأقوال مطابقة للحق، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات فتكتسب النفس بها أخلاقاً هي أزكى الأخلاق وأشرفها وأفضلها. وهذه كانت أخلاقه ﷺ المقتبسة من القرآن، فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلاً وتبييناً، وعلومه علوم القرآن، وإراداته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره، فترجمت أم المؤمنين ـ لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول، وحسن تعبيرها ـ عن هذا كله بقولها: «كان خلقه القرآن»، وفهم السائل عنها هذا المعنى فاكتفى به واشتفى.

ولما وصفه تعالى بأنه على خلق عظيم قال: ﴿فستبصر ويبصرون، بأيكم المفتون﴾ [القلم: ٥ ـ ٦] أي فسترى يا محمد وسيرى المشركون كيف عاقبة أمرك، فإنك تصير معظماً في القلوب، ويصيرون أذلاء مغلوبين، وتستولي عليهم بالقتل والنهب[1].

الفصل الثاني
في قسمه تعالى على ما أنعم به عليه وأظهره من قدره العلي لديه

قال الله تعالى: ﴿والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى﴾ [الضحى: ١ ـ ٣] السورة. أقسم تعالى على إنعامه على رسوله ﷺ وإكرامه له وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد. وأقسم تعالى بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته ووحدانيته، وحكمته ورحمته، وهما الليل والنهار، وفسر بعضهم ـ كما حكاه الإمام فخر الدين ـ الضحى بوجهه ﷺ والليل بشعره، قال: ولا استبعاد فيه.

وأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل، للمقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمداً ربُّه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

---

(١) النهب في اللغة: الغنيمة. انظر لسان العرب ١٤/٢٩٨ مادة (نهب).

وأيضاً فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم لا يتركهم في ظلمة الجهل والغي بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم، فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه. وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ، والجلالة التي على معانيها.

ونفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه، والتوديع: الترك، والقلى: البغض، أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أبغضك منذ أحبك، وحذف «الكاف» من «قلا» اكتفاء بكاف ودعك، ولأن رؤوس الآيات بالياء فأوجب اتفاق الفواصل حذفها.

وهذا يعم كل أحواله، وإن كل حالة يرقيه إليها هي خير له مما قبلها، كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها، ثم وعده بما تقربه عينه وتفرح به نفسه، وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى. وهذا يعم ما يعطيه من القرآن والهدى والنصر والظفر بأعدائه يوم بدر وفتح مكة، ودخول الناس في الدين أفواجاً، والغلبة على بني قريظة والنضير، وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب، وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن، وقذف في قلوب أعدائه من الرعب، ونشر الدعوة، ورفع ذكره وإعلاء كلمته، وما يعطيه بعد مماته، وما يعطيه في موقف القيامة من الشفاعة والمقام المحمود، وما يعطيه في الجنة من الوسيلة والدرجة الرفيعة والكوثر. وقال ابن عباس: يعطيه ألف قصر من لؤلؤ أبيض، ترابها المسك وفيها ما يليق بها.

وبالجملة: فقد دلت هذه الآية على أنه تعالى يعطيه ﷺ كل ما يرضيه. وأما ما يغتر به الجهال من أنه لا يرضى واحد من أمته في النار، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار، فهو من غرور الشيطان لهم ولعبه بهم، فإنه صلوات الله وسلامه عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى، وهو سبحانه يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة، ثم يحد لرسول الله ﷺ حداً يشفع فيهم ـ كما سيأتي في المقصد الأخير إن شاء الله تعالى ـ ورسوله ﷺ أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن تدخل أحداً من أمتي النار أو تدعه فيها، بل ربه تبارك وتعالى يأذن له فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه، ولا يشفع في غير من أذن له ورضيه.

ثم ذكره سبحانه نعمه عليه من إيوائه بعد يتمه، فقال: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾ [الضحى: ٦] وذهب بعضهم إلى أن معنى اليتيم من قولهم: درة يتيمة، أي: ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير فآواك إليه وأغناك بعد الفقر. ثم أمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر فنهاه أن يقهر اليتيم، وأن ينهر السائل، وأن يكتم

النعمة، بل يحدث بها، فإن من شكر النعمة الحديث بها. وقيل المراد بالنعمة النبوة، والتحدث بها: تبليغها.

الفصل الثالث
في قسمه تعالى على تصديقه ﷺ فيما أتى به من وحيه وكتابه وتنزيهه عن الهوى في خطابه

قال الله تعالى: ﴿والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى﴾ [النجم: ١ ـ ٣]. أقسم تعالى بالنجم على تنزيه رسوله وبراءته مما نسبه إليه أعداؤه من الضلال والغي. واختلف المفسرون في المراد بالنجم بأقاويل معروفة. منها: «النجم» على ظاهره، وتكون «أل» لتعريف العهد في قول، ولتعريف الجنس في آخر، وهي النجوم التي يهتدى بها. فقيل: الثريا إذا سقطت وغابت، وهو مروي عن ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة وعطية. والعرب إذا أطلقت النجم تريد به الثريا. وعن ابن عباس في رواية عكرمة: النجوم التي ترمى بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع، وهذا قول الحسن، وعن السدي الزهري، وعن الحسن أيضاً النجوم إذا سقطت يوم القيامة.

وقيل المراد به النبت الذي لا ساق له، و «هوى» أي سقط على الأرض. وقيل: القرآن، رواه الكلبي عن ابن عباس، لأنه نزل نجوماً على رسول الله ﷺ وهو قول مجاهد ومقاتل والضحاك. وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين: هو محمد ﷺ «إذا هوى» أي نزل من السماء ليلة المعراج. وأظهر الأقوال ـ كما قاله ابن القيم ـ أنها النجوم التي ترمى بها الشياطين، ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله تعالى آية وحفظاً للوحي من استراق الشياطين. على أن ما أتى به رسوله حق وصدق لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه، بل قد حرس بالنجم إذا هوى رصداً بين يدي الوحي، وحرساً له، وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور. وفي المقسم به دليل على المقسم عليه. وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله: بالنجم إذا هوى، ولا تسمية نزوله هوياً، ولا عهد في القرآن بذلك، فيحمل هذا اللفظ عليه. وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت. وليس بالبين أيضاً القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيامة. بل هذا مما يقسم الرب عليه، ويدل عليه بآياته، فلا يجعله نفسه دليلاً لعدم ظهوره للمخاطبين ولا سيما منكرو البعث، فإنه سبحانه إنما يستدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه، ثم إن بين المقسم به والمقسم عليه من المناسبة ما لا يخفى.

فإن قلنا إن المراد النجوم التي هي للاهتداء فالمناسبة ظاهرة، وإن قلنا إن المراد الثريا فلأنه أظهر النجوم عند الرائي، لأنه لا يشتبه بغيره في السماء، بل هو ظاهر لكل أحد، والنبي ﷺ تميز عن الكل بما منح من الآيات البينات، ولأن الثريا إذا ظهرت من المشرق حان إدراك الثمار، وإذا ظهرت من المغرب قرب أواخر الخريف فتقل الأمراض، والنبي ﷺ لما ظهر قل الشرك والأمراض القلبية.

وإن قلنا إن المراد بها القرآن فهو استدلال بمعجزته ﷺ على صدقه وبراءته، وأنه ما ضل ولا غوى، وإن قلنا إن المراد النبات، فالنباب به نبات القوى الجسمانية وصلاحها، والقوى العقلية أولى بالصلاح، وذلك بالرسل وإيضاح السبل. وتأمل كيف قال تعالى: ﴿ما ضل صاحبكم﴾ [النجم: ٢] ولم يقل: ما ضل محمد، تأكيداً لإقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ولا ضلال، ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط، وقد نبه تعالى على هذا المعنى بقوله عز وجل: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم﴾ [المؤمنون: ٦٩]. ثم نزه نطق رسوله ﷺ أن يصدر عن هوى فقال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم: ٣ و ٤] ولم يقل: وما ينطق بالهوى، لأن نفي نطقه عن الهوى أبلغ، فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به، فيتضمن هو الأمرين: نفي الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن النطق نفسه، فنطقه بالحق ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي والضلال.

ثم قال تعالى: ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم: ٤] فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، أي: ما نطقه إلا وحي يوحى، وهذا أحسن من جعل الضمير عائداً إلى القرآن، فإن نطقه بالقرآن والسنة، وإن كليهما وحي، قال الله تعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ [النساء: ١١٣] وهما القرآن والسنة. وذكر الأوزاعي[1] عن حسان بن عطية[2] قال: كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياها.

ثم أخبر تعالى في وصف من علمه الوحي والقرآن بما يعلم أنه مضاد لأوصاف

---

(١) هو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي أبو عمرو (٨٨ ـ ١٥٧ هـ) فقيه زاهد. توفي في بيروت. الاعلام ٣/ ٣٢٠ وفيات الأعيان ١/ ٢٧٥ وحلية الأولياء ٦/ ١٣٥ رقم الترجمة (٣٥٤) وشذرات الذهب ١/ ٢٤١.

(٢) هو حسان بن عطية المحاربي فقيه عابد توفي بعد (١٢٠ هـ). حلية الأولياء ٦/ ٧٠ رقم الترجمة (٣٣٠).

الشيطان معلم الضلال والغواية فقال: ﴿علمه شديد القوى﴾ [النجم: ٥] وهو جبريل، أي قواه العلمية والعملية كلها شديدة، ولا شك أن مدح المعلم مدح للمتعلم. فلو قال: علمه جبريل ولم يصفه لم يحصل للنبي ﷺ به فضيلة ظاهرة. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾ [التكوير: ٢٠] كما سيأتي البحث فيه إن شاء الله تعالى.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن تصديق فؤاده لما رأته عيناه. وأن القلب صدق العين، وليس كمن رأى شيئاً على خلاف ما هو به، فكذب فؤاده بصره، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد، وعلم أنه كذلك. وفي حديث قصة الإسراء مزيد لما ذكرته هنا، والله الموفق والمعين.

وقال تعالى: ﴿فلا أقسم بالخنس، الجوار الكنس﴾ إلى قوله: ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ [التكوير: ١٥ ـ ٢٥]. أي: لا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم. أو: أقسم، و «لا» مزيدة للتأكيد، وهذا قول أكثر المفسرين بدليل قوله تعالى: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ [الواقعة: ٧٦]. قال الزمخشري: والوجه أن يقال هي للنفي، أي أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظاماً له، فكأنه بإدخال حرف النفي يقول: إن إعظامي بإقسامي كلا إعظام، يعني أنه يستأهل فوق ذلك.

أقسم سبحانه وتعالى بالنجوم في أحوالها الثلاثة: في طلوعها وجريانها وغروبها، وبانصرام الليل وإقبال النهار عقيبه من غير فصل، فذكر سبحانه وتعالى حالة ضعف هذا وإدباره، وحالة قوة هذا وتنفسه وإقباله، يطرد ظلمة الليل بتنفسه، فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته أن القرآن قول رسول كريم، وهو هنا جبريل، لأنه ذكر صفته قطعاً بعد ذلك بما يعينه به.

وأما ﴿رسول كريم﴾ في «الحاقة» [٤٠] فهو محمد ﷺ. فأضافه إلى الرسول الملكي تارة، وإلى البشري أخرى، وإضافته إليهما إضافة تبليغ، لا إضافة إنشاء من عندهما، ولفظ «الرسول» يدل على ذلك، فإن الرسول هو الذي يبلغ كلام من أرسله، فهذا صريح في أنه كلام من أرسل جبريل ومحمداً ﷺ، فجبريل تلقاه عن الله، ومحمد ﷺ تلقاه عن جبريل. وقد وصف الله تعالى رسوله الملكي في هذه السورة بأنه كريم يعطي أفضل العطايا، وهي العلم والمعرفة والهداية والبر والإرشاد، وهذا غاية الكرم. «ذو قوة» كما قال في النجم: ﴿علمه شديد القوى﴾ [النجم: ٥] فيمنع بقوته الشياطين أن يدنوا منه وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، وروي أنه رفع قريات قوم لوط الأربع على قوادم جناحه حتى سمع أهل السماء نباح كلابها وأصوات بنيها. عند ذي العرش مكين، أي متمكن المنزلة، وهذه العندية عندية الإكرام والتشريف والتعظيم. مطاع ثم، في ملائكة

الله المقربين، يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه، أمين على وحي الله ورسالته، فقد عصمـه الله من الخيانة والزلل.

فهذه خمس صفات تتضمن تزكية سند القرآن، وأنه سماع محمد ﷺ من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين، فناهيك بهذا السند علواً وجلالة، فقد تولى الله تزكيته بنفسه، ثم نزه رسوله البشري وزكاه مما يقول فيه أعداؤه فقال: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ [التكوير: ٢٢] وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه، وإن قالوا بألسنتهم خلافه فهم يعلمون أنهم كاذبون.

ثم أخبر عن رؤيته ﷺ لجبريل عليه السلام، وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج يرى بالعيان ويدرك بالبصر، خلافاً لقوم؛ فحقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان لا في العيان، وهذا مما خالفوا فيه جميع الرسل وأتباعهم، وخرجوا به عن جميع الملل، ولهذا كان تقرير رؤية النبي ﷺ لجبريل أهم من تقرير رؤيته لربه تبارك وتعالى، فإن رؤيته ﷺ لجبريل هي أصل الإيمان الذي لا يتم إلا باعتقادها، ومن أنكرها كفر قطعاً، وأما رؤيته لربه تعالى فغايتها أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق. وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره، فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب سبحانه أعظم من رؤية جبريل، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها ألبتة.

ثم نزه تعالى رسوليه كليهما صلى الله عليهما وسلم، أحدهما بطريق النطق، والثاني بطريق اللزوم عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو الضنة والبخل والتبديل والتغيير الذي يوجب التهمة، فقال: ﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ [التكوير: ٢٤] فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين: أدائها من غير كتمان وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان. والقراءتان كالآيتين، تضمنت إحداهما ـ وهي قراءة الضاد ـ تنزيهه عن البخل، فإن الضنين: البخيل، يقال: ضننت به أضن، بوزن: بخلت أبخل ومعناه، وقال ابن عباس: ليس ببخيل بما أنزل الله، وقال مجاهد: لا يضن عليهم بما يعلم.

وأجمع المفسرون على أن الغيب ها هنا: القرآن والوحي. قال الفراء: يقول الله تعالى: يأتيه غيب من السماء وهو منفوس فيه، فلا يضنن به عليكم. وهذا معنى حسن جداً، فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس، ولا سيما عمن لا يعرف قدره، ومع هذا فالرسول ﷺ لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفس شيء وأجله. وقال أبو علي الفارسي: المعنى يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده ويخفيه حتى يأخذ عليه حلواناً.

وأما قراءة من قرأ (بظنين) بالظاء فمعناه: المتهم، يقال: ظننت زيداً بمعنى اتهمته وليس هو من الظن الذي هو الشعور والإدراك، فإن ذلك يتعدى إلى مفعولين، والمعنى: وما هذا الرسول على القرآن بمتهم، بل هو أمين فيه لا يزيد فيه ولا ينقص منه. وهذا يدل على أن الضمير فيه يرجع إلى محمد ﷺ، لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالأمانة ثم قال ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ [التكوير: ٢٢] ثم قال: وما هو: أي وما صاحبكم بمتهم ويخيل فنفى سبحانه عن رسوله ﷺ ذلك كله، وزكى سند القرآن أعظم تزكية. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وقال تعالى: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٠] الآية. أقسم تعالى بالأشياء كلها، ما يبصرون منها وما لا يبصرون، وهذا أعمّ قسم وقع في القرآن، فإنه يعم العلويات والسفليات، والدنيا والآخرة، وما يرى وما لا يرى ويدخل في ذلك الملائكة كلهم والجن والإنس والعرش والكرسي وكل مخلوق، وذلك من آيات قدرته وربوبيته، ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية ودليل على صدق رسوله ﷺ، وأن ما جاء به هو من عند الله تعالى وهو كلامه تعالى، لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن، وأنه حق ثابت كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق، كما قال تعالى: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾ [الذريات: ٢٣] فكأنه سبحانه وتعالى يقول: إن القرآن حق كما أن ما تشاهدونه من الخلق وما لا تشاهدونه حق موجود، ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره «نفسه» ومبدأ خلقه ونشأته وما يشاهد من أحواله ظاهراً وباطناً، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب سبحانه وثبوت صفاته وصدق ما أخبر به رسوله ﷺ، ومن لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم يخالط بشاشة الإيمان قلبه.

ثم أقام سبحانه البرهان القاطع على صدق رسوله، وأنه لم يتقول عليه فيما قاله، وأنه لو تقول عليه وافترى لما أقره ولعاجله بالإهلاك، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر من تقول عليه وافترى عليه، وأضل عباده واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم، فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأقدر القادرين أن يقر على ذلك، بل كيف يليق به أن يؤيده وينصره ويعليه ويظهره ويظفره بهم، فيسفك دماءهم ويستبيح أموالهم وأولادهم وبلادهم ونساءهم قائلاً إن الله أمرني بذلك، وأباحه لي؟ بل كيف يليق به أن يصدق بأنواع التصديق كلها، فيصدقه بإقراره، وبالآيات المستلزمة لصدقه، ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها، فكل آية على انفرادها مصدقة له، ثم يقيم الدلائل القاطعة على أن هذا قوله وكلامه، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله، فمن أعظم المحال وأبطل

الباطل، وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين أن يفعل ذلك.

والمراد بالرسول الكريم هنا محمد ﷺ ـ كما قدمته ـ لأنه لما قال: إنه لقول رسول كريم ذكر بعده أنه ليس بقول شاعر ولا كاهن، والمشركون ما كانوا يصفون جبريل عليه السلام بالشعر والكهانة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٩]. قيل المراد بـ «الكتاب المكنون» اللوح المحفوظ.

قال ابن القيم: والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة﴾ [عبس) ١٣ ـ ١٦] قال مالك: أحسن ما سمعت في هذه أنها مثل الذي في «عبس»، قال: ومن المفسرين من قال: إن المراد أن المصحف لا يمسه إلا طاهر، والأول أرجح لأن الآية سيقت تنزيهاً للقرآن أن تتنزل به الشياطين، أن محله لا تصل إليه، كما قال تعالى: ﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون﴾ [الشعراء: ٢١٠ و ٢١١] وأيضاً:

فإن قوله ﴿لا يمسُّه﴾ [الواقعة: ٧٩] بالرفع، فهذا خبر لفظاً ومعنى، ولو كان نهياً لكان مفتوحاً. ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره إلى معنى النهي، والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته، وليس ها هنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي، انتهى ملخصاً.

وهذا الذي قاله ابن القيم قد تمسك به جماعة منهم داود، بأنه يجوز مس المصحف للمحدث. وقد أجاب ابن الرفعة في «الكفاية» عن أدلتهم المزخرفة فقال ما نصه: القرآن لا يصح مسه، فعلم أن المراد به الكتاب الذي هو أقرب المذكورين، ولا يتوجه النهي إلى اللوح المحفوظ لأنه غير منزل، ومسه غير ممكن، ولا يمكن أن يكون المراد بالمطهرين الملائكة، لأنه قد نفى وأثبت فكأنه قال: يمسه المطهرون ولا يمسه غير المطهرين، والسماء ليس فيها غير مطهر بالإجماع، فعلم أن المراد: المطهرين من الآدميين، ويبين ذلك ما روي أنه ﷺ قال في كتاب عمرو بن حزم المروي في الدارقطني وغيره: «ولا تمس القرآن إلا وأنت على طهر»[1] ثم قال، فإن قيل: قد قال الواحدي أن

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه باب في نهي المحدث عن مس القرآن ١٠/ ١٢٢ رقم الحديث (٦) والحاكم في المستدرك ٣/ ٤٨٥ والطبراني في المعجم الكبير ٣/ ٢٣٠ والهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢٧٦ والزيلعي في نصب الراية ١/ ١٩٨ والبيهقي في السنن الكبرى نحوه ١/ ٨٧ وفي كنز العمال برقم (٢٨٢٩).

أكثر أهل التفسير على أن المراد اللوح المحفوظ، وأن المطهرين الملائكة، ثم (لو صح ما قلتم لم يكن فيها دليل لأن قوله ﴿لا يمسُّه﴾ [الواقعة: ٧٩] بضم السين، ليس ينهي عن المراد ولو كان نهياً لكان بفتح السين، فهو إذاً خبر.

قلنا: أما قول «أكثر المفسرين» فهو معارض بقول الباقين، والمرجع إلى الدليل. وأما كون المراد بالآية الخبر، فجوابه: أنا نقول: اللفظ لفظ الخبر ومعناه النهي، وهو كثير في القرآن، قال الله تعالى: ﴿لا تضارَّ والدة بولدها﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ﴿والمطلقات يتربصن﴾ [البقرة: ٢٢٨]. انتهى.

وأجاب العلامة البساطي[1] في شرحه لمختصر الشيخ خليل: بأن (يمسه) مجزوم، وضم السين لأجل الضمير، كما صرح به جماعة، وقالوا: إنه مذهب البصريين، ومنهم ابن الحاجب في «شافيته» انتهى.

وقد ذكر هذا العلامة شهاب الدين أحمد بن يوسف بن محمد بن مسعود الحلبي الشافعي، المشهور بـ «السمين»، مع زيادة إيضاح وفوائد فقال في «لا» هذه وجهان، الثاني: أنها ناهية، والفعل بعدها مجزوم، لأنه لو فكَّ عن الإدغام لظهر ذلك فيه كقوله تعالى: ﴿لم يمسسهم سوء﴾ [آل عمران: ١٧٤] ولكنه أدغم، ولما أدغم حرك آخره بالضمة لأجل «هاء» ضمير المذكر الغائب، ولم يحفظ سيبويه في نحو هذا إلا الضم. وفي الحديث (إنا لم نردَّه عليك إلا أنا حرم)[2] وإن كان القياس جواز فتحه تخفيفاً. قال: وبهذا الذي ذكرته يظهر فساد رد من رد بأنه لو كان نهياً لكان يقال: (لا يمسَّه) بالفتح، لأنه خفي عليه جواز ضم ما قبل الهاء في هذا النحو، لا سيما على رأي سيبويه فإنه لا يجيز غيره.

الفصل الرابع
في قسمه تعالى على تحقيق رسالته

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يس، والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين﴾ [يس: ١ - ٣] الآية. أعلم أن كل سورة بدأ الله تعالى فيها بحروف التهجي كان في أوائلها الذكر أو

---

(١) هو يوسف بن خالد بن نعيم بن مقدم بن محمد بن حسن الطائي البساطي. أبو المحاسن، جمال الدين (٧٤١ - ٨٢٩ هـ). فقيه نحوي أديب. الضوء اللامع ١٠/ ٣١٢ نيل الابتهاج ٣٥٣ معجم المؤلفين ١٣/ ٢٩٥.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٨٥٠) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/ ٣٨ و ٧١ وفي الموطأ برقم (٣٥٣) والشافعي في المسند ٨٤ وابن عبد البر في التمهيد ٩/ ٥٤.

الكتاب أو القرآن إلا «نون». ثم إن في ذكر هذه الحروف في أوائل السور أموراً تدل على أنها غير خالية عن الحكمة، لكن علم الإنسان لا يصل إليها إلا إن كشف الله له سر ذلك.
واختلف المفسرون في معنى (يس) على أقوال:

أحدها: أنه يا إنسان، بلغة طيء، وهذا قول ابن عباس والحسن وعكرمة والضحاك وسعيف بن جبير، وقيل: بلغة الحبشة، وقيل: بلغة كلب، وحكى الكلبي أنها بالسريانية.

قال الإمام فخر الدين: وتقريره هو أن تصغير إنسان: أنيسين، وكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال (يس)، وعلى هذا فيكون الخطاب مع محمد ﷺ ويدل عليه قوله تعالى ﴿إنك لمن المرسلين﴾ [يس: ٣].

وتعقبه أبو حيان: بأن الذي نقل عن العرب في تصغير إنسان: أنيسيان ـ بياء بعدها ألف ـ فدل على أن أصله: إنسيان، لأن التصغير يرد الأشياء إلى أصولها، لا يعلم أنهم قالوا في تصغيره أنيسين، وعلى تقدير أنه يصغر كذلك فلا يجوز ذلك إلا أن يبنى على الضم لأنه منادى مقبل عليه، ومع ذلك فلا يجوز لأنه تحقير، ويمتنع ذلك في حق النبوة. انتهى.

قال السمين: وهذا الاعتراض الأخير صحيح، فقد نصوا على أن التصغير لا يدخل في الأسماء المعظمة شرعاً، ولذلك يحكى أن ابن قتيبة لما قال في «المهيمن» إنه مصغر من «مؤمن» والأصل: مؤتمن، فأبدلت الهمزة هاء، قيل له: هذا يقرب من الكفر، فليتق الله قائله، انتهى.

وقيل معنى (يس) يا محمد، قال ابن الحنفية والضحاك. وقيل: يا رجل، قاله أبو العالية. وقيل: هو اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة. وعن أبي بكر الوراق: يا سيد البشر. وعن جعفر الصادق: أن أراد يا سيد، مخاطبة للنبي ﷺ وفيه من تعظيمه وتمجيده ما لا يخفى. وعن طلحة عن ابن عباس: أنه قسم أقسم الله تعالى به، وهو من أسمائه. وعن كعب: أقسم الله به قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام: يا محمد إنك لمن المرسلين. ثم قال: ﴿والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين﴾ [يس: ٢ و ٣] وهو رد على الكفار حيث قالوا: ﴿لست مرسلاً﴾ [الرعد: ٤٣] فأقسم الله تعالى باسمه وكتابه: إنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده وعلى طريق مستقيم من إيمانه، أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق. قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له لله صلى الله عليه وسلم.

الفصل الخامس
في قسمه تعالى بمدة حياته ﷺ وعصره وبلده

قال الله تعالى: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ [الحجر: ٧٢]. والعَمر والعُمر واحد، ولكنه في القسم يفتح لكثرة الاستعمال، فإذا أقسموا قالوا: لعمرك القسم. قال النحويون: ارتفع قوله (لعمرك) بالإبتداء، والخبر محذوف، والمعنى: قسمي، فحذف الخبر لأن في الكلام دليلاً عليه، وباب القسم يحذف منه الفعل نحو: تالله لأفعلن، والمعنى: أحلف بالله، فتحذف «أحلف» لعلم المخاطب بأنك حالف.

قال الزجاجي[1]: من قال: لعمر الله كأنه حلف ببقاء الله، ومن ثم قال المالكية والحنفية: ينعقد بها اليمين، لأن بقاء الله من صفات ذاته. وعن مالك: لا يعجبني الحلف بذلك. وقال الإمام الشافعي وإسحاق: لا يكون يميناً إلا بالنية، وعن أحمد كالمذهبين، والراجح عنه كالشافعي. واختلف فيمن المخاطب في الآية على قولين:

أحدهما: أن الملائكة قالت للوط عليه السلام ـ لما وعظ قومه وقال: ﴿هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾ [الحجر: ٧١] ـ: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ [الحجر: ٧٢]، أي يتحيرون، فكيف يعقلون قولك، ويلتفتون إلى نصيحتك؟!

والثاني: أن الخطاب لرسول الله ﷺ، وأنه تعالى أقسم بحياته، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض. قال ابن عباس: ما خلق الله، وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ [الحجر: ٧٢] يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا إنهم لفي سكرتهم يعمهون. رواه ابن جرير

ومراده بقوله: «وما سمعت الله»؛ سمعت كلامه المتلو في الكتب المنزلة. ورواه البغوي في تفسيره بلفظ: وما أقسم الله بحياة أحد إلا بحياته[2]، وما أقسم بحياة أحد غيره، وذلك يدل على أنه أكرم خلق الله على الله، وعلى هذا فيكون قسمه تعالى بحياة محمد ﷺ كلاماً معترضاً في قصة لوط.

قال القرطبي: وإذا أقسم الله تعالى بحياة نبيه فإنما أراد بيان التصريح لنا: أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته. وقد قال الإمام أحمد فيمن أقسم بالنبي ﷺ ينعقد به يمينه وتجب

---

(١) هو عبد الرحمن بن إسحاق النهاوندي الزجاجي أبو القاسم. شيخ العربية في عصره. توفي في طبرية سنة (٣٣٧ هـ). الاعلام ٣/ ٢٩٩ وفيات الاعيان ١/ ٢٧٨ بغية الوعاة ٢٩٧.
(٢) انظر تفسير البغوي ٣/ ٤٥.

الكفارة بالحنث، واحتج بكونه ﷺ أحد ركني الشهادة. وقال ابن خويز منداد[1]: واستدل من جوز الحلف به ﷺ بأن أيمان المسلمين جرت من عهده ﷺ أن يحلفوا به ﷺ حتى إن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا خاصم أحدهم صاحبه قال له: احلف لي بحق ما حواه صاحب القبر، أو بحق صاحب هذا القبر، أو بحق ساكن هذا القبر، يعني النبي ﷺ.

وقال الله تعالى: ﴿لا أقسم بهذا البلد، وأنت حل بهذا البلد﴾ [البلد: ١و ٢] الآية. أقسم تعالى بالبلد: الأمين، وهي مكة أم القرى بلده ﷺ، وقيده بحلوله ﷺ فيه إظهاراً لمزيد فضله، وإشعاراً بأن شرف المكان بشرف أهله. قاله البيضاوي. ثم أقسم بالوالد وما ولد، وهو فيما قيل: إبراهيم وإسماعيل، وما ولد: محمد ﷺ، وعلى هذا فتتضمن السورة القسم به في موضعين، وقيل المراد به آدم وذريته، وهو قول الجمهور من المفسرين.

وإنما أقسم تعالى بهم لأنهم أعجب خلق الله على وجه الأرض لما فيهم من البيان والنظر واستخراج العلوم، وفيهم الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى والأنصار لدينه، وكل ما في الأرض من مخلوق خلق لأجلهم، وعلى هذا فقد تضمن القسم أصل المكان وأصل السكان، فمرجع البلاد إلى مكة، ومرجع العباد إلى آدم.

وقوله: ﴿وأنت حل﴾ [البلد: ٢] هو من: الحلول، ضد الظعن، فيتضمن إقسامه تعالى ببلده المشتمل على عبده ورسوله، فهو خير البقاع واشتمل على خير العباد فقد جعل الله تعالى بيته هدى للناس، ونبيه إماماً وهادياً لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه. وقيل: المعنى أنت مستحل قتلك وإخراجك من هذا البلد الأمين الذي يأمن فيه الطير والوحش، وقد استحل فيه قومك حرمتك. وهذا مروي عن شرحبيل بن سعد.

وعن قتادة: ﴿وأنت حل﴾ [البلد: ٢] أي لست بآثم، وحلال لك أن تقتل بمكة من شئت. وذلك أن الله تعالى يفتح عليه مكة وأهلها، وما فتحت على أحد قبله، فأحل ما شاء وحرم ما شاء، فقتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة وغيره، وحرم دار أبي سفيان. فإن قلت: هذه السورة مكية، ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ [البلد: ٢] إخبار عن الحال، والواقعة التي ذكرت في آخر مدة هجرته إلى المدينة، فكيف الجمع بين الأمرين؟

أجيب: بأنه قد يكون اللفظ للحال، والمعنى مستقبل، كقوله تعالى ﴿أنك ميت

---

(١) هو محمد بن أحمد أبو بكر تفقه على الأبهري وله كتاب كبير في الخلاف وكتاب في أصول الفقه وكتاب في أحكام القرآن، ولم يكن بالجيد النظر ولا قوي الفقه.

وإنهم ميتون﴾ [الزمر: ٣٠]. وعلى كل حال فهذا متضمن للقسم ببلد رسول الله ﷺ، ولا يخفى ما فيه من زيادة التعظيم ، وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن أقسم بحياتك دون سائر الأنبياء، ولقد بلغ من فضيلتك عنده أن أقسم بتراب قدميك فقال: ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ [البلد: ١].

وقال تعالى: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾ [العصر: ١ و ٢]. اختلف في تفسير العصر على أقوال:

فقيل: هو الدهر، لأنه مشتمل على الأعاجيب، لأنه يحصل فيه السراء والضراء، والصحة والسقم وغير ذلك. وقيل: ذكر العصر الذي بمضيه ينقضي عمرك، فإذا لم يكنى في مقابلته كسب صار ذلك عين الخسران، ولله در القائل.

إنـــا لنفـــرح بـــالأيـــام نقطعهـــا   وكـــل يـــوم مضـــى نقـــص مـــن الأجـــل

وفي تفسير الإمام فخر الدين والبيضاوي وغيرهما: أنه أقسم بزمان الرسول ﷺ. قال الإمام الرازي: واحتجوا له بقوله ﷺ؛ «إنمـا مثلكم ومثل من كان قبلكم مثل رجل استأجر أجراء، فقال: من يعمل لي من الفجر إلى الظهر بقيراط، فعملت اليهود، ثم قال من يعمل لي من الظهر إلى العصر بقيراط، فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لي من العصر إلى المغرب بقيراطين فعملتم، فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل أجراً، فقال الله تعالى: وهل نقصت من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء، فكنتم أقل عملاً وأكثر أجراً[1]» رواه البخاري.

قالوا: فهذا الحديث دل على أن العصر هو عصره ﷺ الذي هو فيه، فيكون على هذا أقسم تعالى بزمانه في هذه الآية، وبمكانه في قوله: ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ [البلد: ٢]، وبعمره في قوله ﴿لعمرك﴾ [الحجر: ٧٢]، فكأنه قال: وعصرك وبلدك وعمرك، وذلك كله كالظرف له، فإذا وجب تعظيم الظرف فكيف حال المظروف، قال: ووجه القسم كأنه تعالى قال: ما أعظم خسرانهم إذا أعرضوا عنك. انتهى.

---

(١) الحديث في البخاري برقم (٢٢٦٨ ـ ٢٢٦٩) وفي الترمذي في كتاب الأدب (٨٢) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/١١١.

النوع السادس
في وصفه تعالى له ﷺ بالنور والسراج المنير

اعلم أن الله تعالى قد وصف رسوله ﷺ بـ «النور» في قوله تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ [المائدة: ١٥]، وقيل المراد: القرآن. ووصفه ﷺ أيضاً بـ «السراج المنير» في قوله تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦].

والمراد: كونه هادياً مبيناً كالسراج الذي يري الطريق ويبين الهدى والرشاد، فبيانه أقوى وأتم وأنفع من نور الشمس، وإذا كان كذلك وجب أن تكون نفسه القدسية أعظم في النورانية من الشمس، فكما أن الشمس في عالم الأجسام تفيد النور لغيرها ولا تستفيد من غيرها فكذا نفس النبي ﷺ تفيد الأنوار العقلية لسائر الأنفس البشرية، ولذلك وصف الله الشمس بأنها سراج حيث قال: ﴿وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾ [الفرقان: ٦١].

وكما وصف الله رسوله بأنه نور، وصف نفسه المقدسة بذلك فقال: ﴿الله نور السموات والأرض﴾ [النور: ٣٥]، فليس فيهما نور إلا الله، ونوره القدسي هو سر الوجود والحياة والجمال والكمال، وهو الذي أشرق على العالم فأشرق على العوالم الروحانية، وهم الملائكة، فصارت سرجاً منيره، يستمد منها من هو دونها بجود الله تعالى، ثم سرى النور إلى عالم النفوس الإنسانية، ثم طرحته النفوس على صفحات الجسوم، فليس في الوجود إلا نور الله الساري إلى الشيء منه بقدر قبوله ووسع استعداده ورحب تلقيه.

والنور في الأصل: كيفية يدركها الباصر أولاً، وبواسطتها سائر المبصرات، كالكيفية الفائضة من النيرين ـ الشمس والقمر ـ على الأجرام الكثيفة المحاذية لهما، وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى إلا بتقدير مضاف، كقولك: زيد كرم، بمعنى: ذو كرم، أو بمعنى منور السماوات والأرض، فإنه تعالى نورهما بالكواكب، وما يفيض عنها من الأنوار، وبالملائكة والأنبياء من قولهم للرئيس الفائق في التدبير: نور القوم، لأنهم يهتدون به في الأمور، ويؤيد هذا القول قراءة علي بن أبي طالب وزيد بن علي وغيرهما (نوَّر) فعلاً ماضياً، و (الأرضَ) بالنصب. وقوله: (مثل نوره) أي: مثل هداه سبحانه وتعالى. وأضاف النور إلى السماوات والأرض إما دلالة على سعة إشراقه، وفشو إضاءته حتى تضيء له السماوات والأرض، وإما لإرادة أهل السماء والأرض، وأنهم يستضيئون به.

وعن مقاتل: أي مثل الإيمان في قلب محمد كمشكاة فيها مصباح، فالمشكاة نظير صدر عبد الله، والزجاجة نظير جسد محمد ﷺ، المصباح نظير الإيمان والنبوة في قلب محمد ﷺ. وعن غيره: المشكاة نظير إبراهيم، والزجاجة نظير إسماعيل عليهما السلام، والمصباح جسد محمد ﷺ، والشجرة: النبوة والرسالة.

وعن أبي سعيد الخراز[1]: المشكاة: جوف محمد ﷺ، والزجاجة قلبه، والمصباح النور الذي جعله الله في قلب محمد ﷺ. وعن كعب وابن جبير: النور الثاني هنا محمد ﷺ. وعن سهل بن عبد الله: مثل نور محمد إذ كان مستودعاً في الأصلاب كمشكاة صفتها كذا وكذا، وأراد بالمصباح قلبه وبالزجاجة صدره، أي كأنه كوكب دري لما فيه من الإيمان والحكمة.

توقد من شجرة مباركة، أي من نور إبراهيم، وضرب المثل بالشجرة المباركة.

وقوله: ﴿يكاد زيتها يضيء﴾ [النور: ٣٥] أي تكاد نبوة محمد تبين للناس قبل كلامه، حكى هذا القول الأخير القاضي أبو الفضل اليحصبي والفخر الرازي، لكنه عن كعب الأحبار.

وعن الضحاك: يكاد محمد يتكلم بالحكمة قبل الوحي. قال عبد الله بن رواحة:

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... كانت بديهته تنبيك بالخبر

لكن التفسير الأول في هذه الآية هو المختار، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾ [النور: ٣٤] فإذا كان المراد بقوله (مثل نوره) أي مثل هداه كان ذلك مطابقاً لما قبله.

[واختلفوا في هذه التشبيه. أو هو مشبه جملة بجملة، لا يقصد فيها إلى تشبيه جزء بجزء، ومقابلة شيء بشيء، أو مما قصد منه ذلك؟ أي: مثل نور الله، الذي هو هداه وإتقانه صنعة كل مخلوق، وبراهينه الساطعة، على الجملة كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة التي هي أبلغ صفات النور الذي بين يدي الناس، أي: مثل نور الله في الوضوح كهذا الذي هو منتهاكم أيها البشر.

وقيل: هو من التشبيه المفصل، المقابل جزء بجزء، قد رده على تلك الأقوال الثلاثة.

---

(١) هو أحمد بن عيسى الخراز أبو سعيد من مشايخ الصوفية. توفي سنة (٢٨٦ هـ وقيل ٢٧٧ هـ). الاعلام ١/ ١٩١ شذرات الذهب ٢/ ١٩٢.

أي: مثل نوره في محمد ﷺ، أو في المؤمنين، أو في القرآن والإيمان كمشكاة، فالمشكاة هو الرسول أو صدره، والمصباح هو النبوة وما يتصل بها من علمه وهداه، والزجاجة قلبه، والشجرة المباركة الوحي، والملائكة رسل الله إليه، وشبه الفضل به بالزيت وهو الحجج والبراهين والآيات التي تضمنها الوحي.

وعلى قول: «المؤمنين»، فالمشكاة صدره، والمصباح الإيمان والعلم، والزجاجة قلبه، والشجرة القرآن، وزيتها هو الحجج والحكمة التي تضمنتها.

وعلى قول: «الإيمان والقرآن»، أي مثل الإيمان والقرآن في صدر المؤمنين وفي قلبه كمشكاة.

وأما الضمير على قول المؤمنين في قراءة أبي المذكورة في بعض التفاسير، ففيه إشكال من حيث الإفراد، وعن أبي: هو عائد على المؤمنين، وفي قراءته: مثل نور المؤمنين، وفي رواية عنه: مثل نور من آمن به. وعن الحسن: يعود على القرآن والإيمان][1].

النوع السابع
في آيات تتضمن وجوب طاعته واتباع سنته

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله﴾ [الأنفال: ٢٠] وقال تعالى: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾ [آل عمران: ١٣٢]. وقال تعالى: ﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ [آل عمران: ٣٢]. قال القاضي عياض: فجعل طاعته طاعة رسوله، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب.

وقال تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [النساء: ٨٠]. يعني: من أطاع الرسول لكونه رسولاً مبلغاً إلى الخلق أحكام الله فهو في الحقيقة ما أطاع إلا الله، وذلك في الحقيقة لا يكون إلا بتوفيق الله. ﴿ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ [النساء: ٨٠] فإن من أعماه الله عن الرشد وأضله عن الطريق فإن أحداً من الخلق لا يقدر على إرشاده. وهذه الآية من أقوى الأدلة على أن الرسول معصوم في جميع الأوامر والنواهي، وفي كل ما يبلغه عن الله، لأنه لو أخطأ في شيء منها لم تكن طاعته طاعة الله تعالى، وأيضاً وجب أن يكون معصوماً في جميع أفعاله، لأنه تعالى أمر بمتابعته في قوله:

(١) زيادة نقلاً عن النسخة المطبوعة.

﴿واتبعوه﴾ [الأعراف: ١٥٨]، والمتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير، فثبت أن الانقياد له في جميع أقواله وأفعاله إلا ما خصه الدليل طاعة له، وانقياد لحكم الله تعالى. وقال الله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ [النساء: ٦٩] الآية. وهذا عام في المطيعين لله من أصحاب الرسول ومن بعدهم، وعام في المعية في هذه الدار، وإن فاتت فيها معية الأبدان.

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية أن ثوبان، مولى رسول الله ﷺ كان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه، وعرف الحزن في وجهه، فسأله رسول الله ﷺ عن حاله فقال: يا رسول الله، ما بي وجع، غير أني إذا لم أرك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة حتى ألقاك، فذكرت الآخرة بحيث لا أراك هناك، لأني إذا دخلت الجنة فأنت تكون في درجات النبيين، وإن أنا لم أدخل الجنة فحينئذٍ لا أراك أبداً، فنزلت هذه الآية.

وذكر ابن أبي حاتم عن أبي الضحى عن مسروق، قال أصحاب محمد: يا رسول الله ما ينبغي لنا أن نفارقك، فإنك لو قدْ متَّ لرفعت فوقنا ولم نرك، فأنزل الله الآية. وذكر عن عكرمة مرسلاً، قال: أتى فتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لنا منك نظرة في الدنيا ويوم القيامة لا نراك لأنك في الجنة في الدرجات العلى، فأنزل الله هذه الآية فقال له رسول الله ﷺ: «أنت معي في الجنة»[1]. وذكر فيها أيضاً روايات أخر ستأتي إن شاء الله تعالى في مقصد محبته ﷺ.

لكن قال المحققون: لا ننكر صحة هذه الروايات، إلا أن سبب نزول هذه الآية يجب أن يكون شيئاً أعظم من ذلك، وهو الحث على الطاعة والترغيب فيها، فإنا نعلم أن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ، فهذه الآية عامة في حق جميع المكلفين، وهو أن كل من أطاع الله وأطاع الرسول فقد فاز بالدرجات العالية والمراتب الشريفة عنده تعالى.

ثم إن ظاهر قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول﴾ [النساء: ٦٩] أنه يكفي الاكتفاء بالطاعة الواحدة، لأن اللفظ الدال على الصفة يكفي في جانب الثبوت حصول ذلك المسمى مرة واحدة، لكن لا بد أن يحمل على غير ظاهره، وأن تحمل الطاعة على

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٧١ وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٢٠٣ وابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٢١٥.

فعل جميع المأمورات وترك جميع المنهيات، إذ لو حملناه على الطاعة الواحدة لدخل فيه الفساق والكفار، لأنهم قد يأتون بالطاعة الواحدة.

قال الرازي: قد ثبت في أصول الفقه أن الحكم المذكور عقب الصفة مشعر بكون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف، وإذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿من يطع الله﴾ [النساء: ٦٩] أي في كونه إلَهاً، وطاعة الله في كونه إلَهاً هي معرفته والإقرار بجلالته وعزته وكبريائه وصمديته، فصارت هذه تنبيهاً على أمرين عظيمين من أحوال المعاد:

فالأول: أن منشأ جميع السعادات يوم القيامة إشراف الروح بأنوار معرفة الله، فكل من كانت هذه الأنوار في قلبه أكثر، وصفاؤها أقوى كان إلى السعادة أقرب، وإلى الفوز بالنجاة أوصل.

والثاني: أن الله تعالى ذكر في الآية السابقة وعد أهل الطاعة بالأجر العظيم والثواب الجزيل، ثم ذكر في هذه الآية وعدهم بكونهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وليس المراد بكون من أطاع الله وأطاع الرسول مع النبيين والصديقين كون الكل في درجة واحدة، لأن هذا يقتضي التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضول، وذلك لا يجوز، فالمراد كونهم في الجنة بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر، وإن بعد المكان، لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضاً، وإذا أرادوا الرؤية والتلاقي قدروا على ذلك، فهذا هو المراد من هذه المعية، وقد ثبت وصح عنه ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب»، وثبت عنه أيضاً أنه قال: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا نزلتم منزلاً إلا وهم معكم حبسهم العذر»(١)، فالمعية والصحبة الحقيقية إنما هي بالسر والروح لا بمجرد البدن، فهي بالقلب لا بالقالب، ولهذا كان النجاشي معه ﷺ ومن أقرب الناس إليه، وهو بين النصارى بأرض الحبشة، وعبد الله بن أبي من أبعد الخلق عنه، وهو معه في المسجد، وذلك أن العبد إذا أراد بقلبه أمراً من طاعة أو معصية أو شخص من الأشخاص فهو بإرادته ومحبته معه لا يفارقه، فالأرواح تكون مع الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وبينها وبينهم من المسافة الزمانية والمكانية بعد عظيم.

وقال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾ [آل عمران: ٣١]. وهذه الآية الشريفة تسمى: آية المحبة، قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله فأنزل الله آية المحبة ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني﴾ [آل عمران: ٣١] وقال تعالى: ﴿يحببكم الله﴾ [آل عمران: ٣١] إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها،

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب (٣٥) وابن ماجه في كتاب الجهاد برقم (٢٧٦٤ ـ ٢٧٦٥).

فدليلها وعلامتها اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم، فما لم تحصل المتابعة فلا محبة لكم حاصلة، ومحبته لكم منتفية، فجعل سبحانه اتباع رسوله ﷺ مشروطاً بمحبتهم لله، وشرطاً لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود تحقق شرطه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل حينئذ ثبوت محبتهم لله وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله ﷺ فدل على أن متابعة الرسول هي حب الله ورسوله وطاعة أمره، ولا يكفي ذلك في العبودية حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فلا يكون شيء أحب إليه من الله ورسوله، ومتى كان شيء عنده أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفر لصاحبه ألبتة ولا يهديه الله، قال الله تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [التوبة: ٢٤]، فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه، أو معاملة أحد منهم على معاملة الله ورسوله، فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإن قال بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بما ليس هو عليه. انتهى ملخصاً من كتاب «مارج السالكين»، وسيأتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى في مقصد محبته ﷺ.

وقال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ [الأعراف: ١٥٨]. أي إلى الصراط المستقيم، فجعل رجاء الاهتداء أثر الأمرين، الإيمان بالرسول واتباعه، تنبيهاً على أن من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو في الضلالة، فكل ما أتى به الرسول ﷺ يجب علينا اتباعه إلا ما خصه الدليل.

وقال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾ [التغابن: ٨] يعني القرآن، فالإيمان به ﷺ واجب متعين على كل أحد. لا يتم إيمان إلا به ولا يصح إسلام إلا معه، قال تعالى: ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً﴾ [الفتح: ١٣] أي ومن لم يؤمن بالله ورسوله فهو من الكافرين، وإنا أعتدنا للكافرين سعيراً.

وقال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ [النساء: ٦٥] الآية. معناه: فوربك، كقوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ [الحجر: ٩٢] و «لا» مزيدة للتأكيد لمعنى القسم، كما في ﴿لئلا يعلم﴾ [الحديد: ٢٩] ولا يؤمنون جواب. أقسم الله

تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول في جميع أموره، ويرضى بجميع ما حكم به، وينقاد له ظاهراً وباطناً، سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفهم، كما ورد في الحديث: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)، وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول ﷺ لا يكون مؤمناً، وعلى أنه لا بد من حصول الرضى بحكمه في القلب، وذلك بأن يحصل الجزم والتيقن في القلب بأن الذي يحكم به ﷺ هو الحق والصدق، فلا بد من الانقياد باطناً وظاهراً، وسيأتي مزيد بيان لذلك إن شاء الله تعالى في مقصد محبته ﷺ. ثم إن ظاهر الآية يدل على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس، لأنه يدل على أنه يجب متابعة قوله وحكمه، وأنه لا يجوز العدول عنه إلى غيره.

وقوله: ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت﴾ [النساء: ٦٥] مشعر بذلك، لأنه متى خطر بقلبه قياس يقتضي ضد مدلول النص فهناك يحصل الحرج في النفس، فبين تعالى أنه لا يكمل إيمانه إلا بعد أن لا يلتفت إلى ذلك الحرج ويسلم إلى النص تسليماً كلياً، قاله الإمام فخر الدين. وجوز غيره تخصيص الكتاب والسنة بالقياس، وبه صرح العلامة التاج بن السبكي في جمع الجوامع.

النوع الثامن
فيما يتضمن الأدب معه ﷺ

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ [الحجرات: ١]. فمن الأدب أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى ويأذن كما أمر الله تعالى بذلك في هذه الآية، وهذا باق إلى يوم القيامة لم ينسخ. فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته، لا فرق بينهما عند كل ذي عقل سليم. قال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء، حتى يقضيه الله تعالى على لسانه. وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون رسول الله ﷺ. وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر، ولا تنهوا حتى ينهى.

وانظر أدب الصديق ـ رضي الله عنه ـ معه ﷺ في الصلاة، إذ تقدم بين يديه كيف تأخر وقال: ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ، كيف أورثه مقامه والإمامة بعده، فكان ذلك التأخر إلى خلفه، وقد أومأ إليه أن اثبت مكانك، سعياً إلى قدام بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام تنقطع فيها أعناق المطي.

ومن الأدب معه ﷺ أن لا ترفع الأصوات فوق صوته، كما قال تعالى: ﴿يا أيها

الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾ [الحجرات: ٢]. قال الرازي: أفاد أنه ينبغي أن لا يتكلم المؤمن عنده ﷺ كما يتكلم العبد عند سيده، لأن العبد ادخل في قوله تعالى: ﴿كجهر بعضكم لبعض﴾ [الحجرات: ٢] لأنه للعموم، فلا ينبغي أن يجهر المؤمن للنبي ﷺ كما يجهر العبد للسيد، وإلا كان قد جهر له كما يجهر بعضكم لبعض.

قال: ويؤيد ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ [الأحزاب: ٦]، والسيد ليس أولى عند عبده من نفسه، حتى لو كانا في مخمصة ووجد العبد ما لو لم يأكله لمات لا يجب عليه بذله لسيده، ويجب البذل للنبي ﷺ، ولو علم العبد أن بموته ينجو سيده لا يلزمه أن يلقي نفسه في التهلكة لإنجاء سيده، ويجب لإنجاء النبي ﷺ، فكما أن العضو الرئيس أولى بالرعاية من غيره، لأن عند خلل القلب مثلاً لا يبقى لليدين والرجلين استقامة، فلو حفظ الإنسان نفسه وترك النبي ﷺ لهلك هو أيضاً بخلاف العبد والسيد. انتهى. وإذا كان رفع الأصوات فوق صوته موجباً لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به.

واعلم أن في الرفع والجهر استخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحبط، وذلك إذا انضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة. وروي أن أبا بكر رضي الله عنه، لما نزلت هذه الآية قال: والله يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار، وأن عمر رضي الله عنه كان إذا حدثه حدّثه كأخي السرار ما كان يسمع النبي ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه.

وقد روي أن أبا جعفر أمير المؤمنين ناظر مالكاً في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله عز وجل أدب قوماً فقال: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ [الحجرات: ٢] ومدح قوماً فقال: ﴿إن الذي يغضون أصواتهم﴾ [الحجرات: ٣] الآية، وذم قوماً فقال: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾ [الحجرات: ٤] الآية. وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً، فاستكان لها أبو جعفر.

ومن الأدب أن لا يجعل دعاؤه كدعاء بعضنا بعضاً، قال تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ [النور: ٦٣] وفيه قولان للمفسرين:

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه كما يدعو بعضكم بعضاً، بل قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، مع التوقير والتواضع، فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أي دعاؤكم الرسول.

والثاني: إن المعنى، لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضاً، إن شاء

أجاب وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بد من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة، فإن المبادرة إلى إجابته واجبة، والمراجعة بغير إذنه محرمة، فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي دعاءه إياكم، وقد تقدم في الخصائص من المقصد الرابع عن مذهب الشافعي أن الصلاة لا تبطل بإجابته ﷺ.

ومن الأدب معه ﷺ أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع من خطبة أو جهاد، أو رباط، لم يذهب أحد مذهباً في حاجة له حتى يستأذنه، كما قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾ [النور: ٦٢]. فإذا كان هذا مذهباً مقيداً لحاجة عارضة لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه، فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين، أصوله وفروعه، دقيقه وجليله، هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه؟ ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [النحل: ٤٣].

ومن الأدب معه ﷺ أنه لا يستشكل قوله، بل تستشكل الآراء بقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال مخالف، يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول وعن الصواب معزول، ولا يتوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد، فكل هذا من قلة الأدب معه، وهو عين الجراءة عليه.

ورأس الأدب معه ﷺ كمال التسليم له والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسميه صاحبه معقولاً، أو يسميه شبهة، أو شكاً، أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالات أذهانهم، فيوحد التحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما وحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل، فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما، توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا يتحاكم إلى غيره، ولا يرضى بحكم غيره، انتهى ملخصاً من «المدارج» والقرآن مملوء بالآيات المرشدة إلى الأدب معه ﷺ فلتراجع.

النوع التاسع
في آيات تتضمن رده تعالى بنفسه المقدسة على عدوه ﷺ ترفيعاً لشأنه

قال الله تعالى: ﴿ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ [القلم: ١ ـ ٢] لما قال المشركون: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ [الحجر: ٦]، أجاب تعالى عنه عدوه بنفسه من غير واسطة، وهكذا سنة الأحباب، فإن الحبيب إذا سمع من يسب حبيبه تولى بنفسه ـ منتصراً له ـ جوابه، فهنا تولى الحق سبحانه وتعالى

جوابهم بنفسه منتصراً له، لأن نصرته تعالى أتم من نصرته وأرفع لمنزلته، ورده أبلغ من رده وأثبت في ديوان مجده.

فأقسم تعالى بما أقسم به من عظيم آياته على تنزيه رسوله وحبيبه وخليله مما غمصته أعداؤه الكفرة بـه وتكذيبهم له بقوله: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ [القلم: ٢] وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون، هو أو هم؟ وقد علموا هم والعقلاء ذلك في الدنيا، ويزداد علمهم به في البرزخ، وينكشف ويظهر كل الظهور في الآخرة بحيث يتساوى الخلق كلهم في العلم به. وقال تعالى: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ [التكوير: ٢٢].

ولما رأى العاصي بن وائل السهمي النبي ﷺ يخرج من المسجد وهو يدخل فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا، وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد، فلما دخل العاصي قالوا: من ذا الذي كنت تحدث معه، قال: ذلك الأبتر، يعني النبي ﷺ، وكان قد توفي ابن لرسول الله ﷺ من خديجة، فرد الله تعالى عليه، وتولى جوابه بقوله: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ [الكوثر: ٣] أي عدوك ومبغضك هو الذليل الحقير.

ولما قالوا: ﴿أفترى على الله كذباً﴾ [سبأ: ٨] قال الله تعالى: ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾ [سبأ: ٨]. ولما قالوا: ﴿لست مرسلاً﴾ [الرعد: ٤٣] أجاب الله تعالى عنه فقال: ﴿يس، والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين﴾ [يس: ١ ـ ٣]. ولما قالوا: ﴿أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون﴾ [الصافات: ٣٦] رد الله تعالى عليهم فقال: ﴿بل جاء بالحق وصدق المرسلين﴾ [الصافات: ٣٧] فصدقه ثم ذكر وعيد خصمائه فقال: ﴿إنكم لذائقو العذاب الأليم﴾ [الصافات: ٣٨]. ولما قالوا: ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ [الطور: ٣٠] رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ [يس: ٦٩].

ولما حكى الله عنهم قولهم: ﴿إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون﴾ [الفرقان: ٤] سماهم الله تعالى كاذبين بقوله: ﴿فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾ [الفرقان: ٤]. قال: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾ [الفرقان: ٦]. ولما قالوا: يلقيه إليه شيطان قال الله تعالى: ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ [الشعراء: ٢١٠] الآية ولما تلا عليهم نبأ الأولين قال النضر بن الحارث ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ [الأنفال: ٣١] قال الله تعالى: تكذيباً لهم ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله﴾ [الإسراء: ٨٨].

ولما قال الوليد بن المغيرة: ﴿إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر﴾

[المدثر: ٢٤ و ٢٥] قال الله تعالى: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ [الذاريات: ٥٢] تسلية له عليه الصلاة والسلام. ولما قالوا: محمد قلاه ربه، رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ [الضحى: ٣].

ولما قالوا: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ [الفرقان: ٧] قال الله تعالى: ﴿وما أرسلناك قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ [الفرقان: ٢٠]. ولما حسدته أعداء الله اليهود على كثرة النكاح والزوجات، وقالوا: ما همته إلا النكاح، رد الله تعالى عليهم عن رسوله ونافح عنه فقال: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ [النساء: ٥٤].

ولما استبعدوا أن يبعث الله رسولاً من البشر بقولهم الذي حكى الله عنهم: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً﴾ [الإسراء: ٩٤] وجهلوا أن التجانس يورث التآنس، وأن التخالف يورث التباين. قال الله تعالى: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ [الإسراء: ٩٥] أي لو كانوا ملائكة لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة، لكن لما كان أهل الأرض من البشر وجب أن يكون رسولهم من البشر.

فما أجل هذه الكرامة، وقد كانت الأنبياء إنما يدافعون عن أنفسهم، ويردون على أعدائهم، كقول نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿يا قوم ليس بي ضلالة﴾ [الأعراف: ٦١]، وقول هود ﴿ليس بي سفاهة﴾ [الأعراف: ٦٧] وأشباه ذلك.

النوع العاشر
في إزالة الشبهات عن آيات وردت في حقه ﷺ متشابهات

قال الله تعالى: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ [الضحى: ٧]. اعلم أنه قد اتفق العلماء على أنه ﷺ ما ضل لحظة واحدة قط، وهل هو جائز عقلاً على الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ قبل النبوة؟ قالت المعتزلة: هو غير جائز عقلاً لما فيه من التنفير. وعند أصحابنا: أنه جائز في العقول، ثم يكرم الله من أراد بالنبوة، إلا أن الدليل السمعي قام على أن هذا الجائز لم يقع لنبي، قال الله تعالى: ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾ [النجم: ٢] قاله الإمام فخر الدين.

وقال الإمام أبو الفضل اليحصبي في الشفاء: والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته، والتشكك في شيء من ذلك، وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن

الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف، ونفحات ألطاف السعادة، ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نبيء و اصطفي ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك، ومستند هذا الباب النقل[1].

ثم قال: وقد استبان لك بما قررناه ما هو الحق من عصمته ﷺ عن الجهل بالله وصفاته، أو كونه على حالة تنافي العلم بشيء من ذلك كله جملة بعد النبوة عقلاً وإجماعاً، وقبلها سمعاً ونقلاً، ولا بشيء مما قررناه من أمور الشرع وأداه عن ربه من الوحي قطعاً، عقلاً وشرعاً، وعصمته عن الكذب وخلف القول منذ نبأه الله وأرسله، قصداً وغير قصد، واستحالة ذلك عليه شرعاً وإجماعاً، نظراً وبرهاناً، وتنزيهه عنه قبل النبوة قطعاً، وتنزيهه عن الكبائر إجماعاً، وعن الصغائر تحقيقاً، وعن استدامة السهو والغفلة، واستمرار الغلط والنسيان عليه فيما شرعه للأمة، وعصمته في كل حالاته من رضى وغضب، وجد ومزح، ما يجب لك أن تتلقاه باليمين، وتشد عليه يد الضنين، فإن من يجهل ما يجب للنبي ﷺ، أو يجوز أو يستحيل عليه، ولا يعرف صور أحكامه لا يأمن أن يعتقد في بعضها خلاف ما [هي] عليه، ولا ينزهه عما لا يجوز أن يضاف إليه، فيهلك من حيث لا يدري، ويسقط في هوة الدرك الأسفل من النار، إذ ظن الباطل به واعتقاد ما لا يجوز عليه يحل صاحبه دار البوار[2].

وقد استدل بعض الأئمة على عصمتهم من الصغائر، بالمصير إلى امتثال أفعالهم واتباع آثارهم وسيرتهم مطلقاً. وجمهور الفقهاء على ذلك من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة في غير التزام قرينة بل مطلقاً عند بعضهم، وإن اختلفوا في حكم ذلك، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يكن الاقتداء بهم في أفعالهم، إذ ليس كل فعل من أفعاله يتميز مقصده من القربة والإباحة والخطر والمعصية. انتهى. واختلف في تفسير هذه الآية على وجوه كثيرة:

أحدها: وجدك ضالاً عن معالم النبوة. وهو مروي عن ابن عباس والحسن والضحاك وشهر بن حوشب، ويؤيده قوله تعالى ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ [الشورى: ٥٢] أي ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان، قاله السمرقندي، وقال بكر القاضي: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام، فقد كان ﷺ قبل مؤمناً بتوحيده، ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل، فازداد بالتكاليف إيماناً[3]، وسيأتي آخر هذا النوع مزيد لذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ٢/١٠٩.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٧٢ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١١٣.

الثاني: من معنى قوله: (ضالاً) ما روي مرفوعاً مما ذكره الإمام فخر الدين: أنه ﷺ قال: «ضللت عن جدي عبد المطلب وأنا صبي حتى كاد الجوع يقتلني فهداني الله».

الثالث: يقال: ضل الماء في اللبن إذا صار مغموراً، فمعنى الآية: كنت مغموراً بين الكفار بمكة فقواك الله حتى أظهرت دينه.

الرابع: أن العرب تسمى الشجرة الفريدة في الفلاة ضالة، كأنه تعالى يقول: كانت تلك البلاد كالمفازة ليس فيها شجرة تحمل ثمر الإيمان بالله تعالى ومعرفته إلا أنت، فأنت شجرة فريدة في مفازة الحمد.

الخامس: قد يخاطب السيد، والمراد قومه، أي وجد قومك ضالين فهداهم بك وبشرعك.

السادس: أي محباً لمعرفتي، وهو مروي عن ابن عطاء، والضال: المحب، كما قال تعالى: ﴿إنك لفي ضلالك القديم﴾ [يوسف: ٩٥] أي محبتك القديمة، ولم يريدوا هاهنا: في الدين، إذ لو قالوا ذلك في نبي الله لكفروا[١].

السابع: أي وجدك ناسياً فذكرك، وذلك ليلة المعراج نسي ما يجب بأن يقال بسبب الهيبة، فهداه تعالى إلى كيفية الثناء حتى قال: لا أحصي ثناء عليك.

الثامن: أي وجدك بين أهل ضلال فعصمك من ذلك وهداك للإيمان وإلى إرشادهم[٢].

التاسع: أي وجدك متحيراً في بيان ما أنزل إليك، فهداك لبيانه، كقوله: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ [النحل: ٤٤] وهذا مروي عن الجنيد[٣].

العاشر: عن علي أنه ﷺ قال: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد، ثم ما هممت بعدهما بشيء حتى أكرمني الله برسالته». قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى بأعلى مكة: لو حفظت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب، فخرجت حتى أتيت أول دار من دور أهل مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير فجلست أنظر إليهم وضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك فضرب الله علي أذني

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١١٢.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١١٢.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١١٣.

فما أيقظني إلا مسُّ الشمس، ثم ما هممت بعدهما بسوء حتى أكرمني الله بزسالته»[1].

وأما قوله تعالى: ﴿ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك﴾ [الشرح: ٢و ٣]. فقد احتج بها جماعة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين المجوزين للصغائر على الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وبظواهر كثيرة من القرآن والحديث، إن التزموا ظواهرها أفضت بهم - كما قال القاضي عياض - إلى تجويز الكبائر، وخرق الإجماع، وما لا يقول به مسلم، فكيف وكلما احتجوا به منها مما اختلف المفسرون في معناه، وتقابلت الاحتمالات في مقتضاه. وجاءت الأقاويل فيها للسلف بخلاف ما التزموه من ذلك. فإذا لم يكن مذهبهم إجماعاً، وكان الخلاف فيما احتجوا به قديماً، وقامت الدلالة على خطأ قولهم، وصحة غيره، وجب تركه والمصير إلى ما صح، انتهى. وقد اختلف في هذه الآية:

فقال أهل اللغة: الأصل فيه أن الظهر إذا أثقله الحمل سمع له نقيض، أي صوت كصوت المحامل والرحال، وهذا مثل لما كان يثقل على رسول الله ﷺ من أقداره. وقيل: المراد منه تخفيف أعباء البنوة التي يثقل الظهر القيام بأمرها، وحفظ موجباتها، والمحافظة على حقوقها، فسهل الله ذلك عليه، وحط عنه ثقلها بأن يسرها عليه حتى تيسرت له. وقيل الوزر: ما كان يكرهه من تغييرهم لسنة الخليل عليه السلام، وكان لا يقدر على منعهم إلى قواه الله تعالى وقال له: ﴾ [اتبع ملة إبراهيم﴾ [النحل: ١٢٣].

وقيل: معناه عصمناك من الوزر الذي أنقض ظهرك لو كان ذلك الذنب حاصلاً، فسمى الله العصمة «وضعاً» مجازاً، ومن ذلك ما في الحديث أنه ﷺ حضر وليمة فيها دف ومزامير قبل البعثة فضرب الله على أذنه فما أيقظه إلا حر الشمس من الغد. وقيل: ثقل شغل سرك وحيرتك وطلب شريعتك، حتى شرعنا لك ذلك. وقيل معناه: خففنا عليك ما حملت بحفظنا لما استحفظت وحفظ عليك، ومعنى (أنقض) أي كاد ينقضه. قال القاضي: فيكون المعنى على من جعل ذلك لما قبل النبوة: اهتمام النبي ﷺ بأمور فعلها قبل نبوته وحرمت عليه بعد النبوة فعدها أوزاراً وثقلت عليه وأشفق منها[2]. وقيل: إنها ذنوب أمته صارت كالوزر عليه، فأمنه الله تعالى من عذابهم في العاجل بقوله: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال: ٣٣] ووعده الشفاعة في الآجل.

وأما قوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: ٢]. فقال

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٢٦ والقاضي عياض في الشفا ١/ ١٣٦ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٤٣٨).

(٢) انظر الشفا ٢/ ١٥٨.

ابن عباس: أي أنك مغفور لك غير مؤاخذ بذنب أن لو كان. وقال بعضهم: أراد غفران ما وقع وما لم يقع، أي أنك مغفور لك. وقيل: المراد ما كان عن سهو وغفلة وتأويل، حكاه الطبري واختاره القشيري. وقيل: ما تقدم لأبيك آدم وما تأخر من ذنوب أمتك، حكاه السمرقندي والسلمي عن ابن عطاء[1]. وقيل: المراد أمته وقيل المراد بالذنب ترك الأولى، كما قيل: حسنات الأبرار سيآت المقربين، وترك الأولى ليس بذنب، لأن الأولى وما يقابله مشتركان في إباحة الفعل.

وقال السبكي: قد تأملتها ـ يعني الآية ـ مع ما قبلها وما بعدها فوجدتها لا تحتمل إلا وجهاً واحداً، وهو تشريف النبي ﷺ من غير أن يكون هناك ذنب، ولكنه أريد أن يستوعب في الآية جميع أنواع النعم ـ من الله على عباده ـ الأخروية، وجميع النعم الأخروية شيئآن: سلبية وهي غفران الذنوب، وثبوتية وهي لا تتناهى، أشار إليها بقوله ﴿ويتم نعمته عليك﴾ [الفتح: ٢]، وجميع النعم الدنيوية شيئآن: دينية وأشار إليها بقوله ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ [الفتح: ٢]، ودنيوية وهي قوله: ﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ [الفتح: ٣]، فانتظم بذلك تعظيم قدر النبي ﷺ بإتمام أنواع نعم الله تعالى عليه المتفرقة في غيره، ولهذا جعل ذلك غاية للفتح المبين الذي عظمه وفخمه بإسناده إليه بنون العظمة[2]، وجعله خاصاً بالنبي ﷺ بقوله: (لك) وقد سبق إلى نحو هذا ابن عطية فقال؛ وإنما المعنى التشريف بهذا الحكم، ولم تكن ذنوب ألبتة.

ثم قال: وعلى تقدير الجواز لا شك ولا ارتياب أنه لم يقع منه ﷺ، وكيف يتخيل خلاف ذلك ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم: ٣ ـ ٤][3]. وأما الفعل: فإجماع الصحابة على اتباعه والتأسي به في كل ما يفعله من قليل أو كثير، أو صغير أو كبير لم يكن عندهم في ذلك توقف ولا بحث، حتى أعماله في السر والخلوة يحرصون على العلم بها وعلى اتباعها، علم بهم أو لم يعلم، ومن تأمل أحوال الصحابة معه ﷺ استحيى من الله أن يخطر بباله خلاف ذلك، انتهى.

وأما قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ [الأحزاب: ١]. فلا مرية أنه ﷺ أتقى الخلق، والأمر بالشيء لا يكون إلا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به، إذ لا يصلح أن يقال للجالس اجلس، ولا للساكت اسكت، ولا يجوز عليه

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٥٧.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» الفتح (١).

(٣) لم يذكر المصنف من كلام السبكي قوله: وأحواله ﷺ منقسمة إلى قول وفعل: أما القول فقال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ [النجم: ٣] وأما الفعل. . .

أن لا يبلغ، ولا أن يخالف أمر ربه، ولا أن يشرك، ولا أن يطيع الكافرين والمنافقين، حاشاه الله من ذلك، وإنما أمره الله تعالى بتقوى توجب استدامة الحضور.

وأجاب بعضهم عن هذا أيضاً بأنه ﷺ كان يزداد علمه بالله تعالى، ومرتبته، حتى كان حاله ﷺ فيما مضى بالنسبة إلى ما هو فيه ترك للأفضل، فكان له في كل ساعة تقوى تتجدد.

وقيل: المراد دم على التقوى. فإنه يصح أن يقال للجالس: اجلس هاهنا إلى أن آتيك، وللساكت: قد أصبت فاسكت تسلم، أي دم على ما أنت عليه. وقيل: الخطاب مع النبي ﷺ والمراد أمته، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ [الأحزاب: ٢]، ولم يقل بما تعمل.

وأما قوله تعالى: ﴿فلا تطع المكذبين﴾ [القلم: ٨]. فاعلم أنه تعالى لما ذكر ما عليه الكفار في أمره ﷺ، ونسبته إلى ما نسبوه إليه، مع ما أنعم الله به عليه من الكمال في أمر الدين والخلق العظيم، أتبعه بما يقوي قلبه ويدعوه إلى التشديد مع قومه، وقوى قلبه بذلك مع قلة العدد وكثرة الكفار، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل فقال: ﴿فلا تطع المكذبين﴾ [القلم: ٨] والمراد رؤساء الكفار من أهل مكة، وذلك أنهم دعوه إلى دينهم، فنهاه الله أن يطيعهم، وهذا من الله تهييج للتشديد في مخالفتهم.

وأما قوله تعالى: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ [يونس: ٩٤]، الآية فاعلم أن المفسرين اختلفوا فيمن المخاطب بهذا: فقال قوم المخاطب به النبي ﷺ، وقال آخرون: المخاطب به غيره. فأما من قال بالأول فاختلفوا على وجوه:

الأول: أن الخطاب مع النبي ﷺ في الظاهر والمراد غيره، كقوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ [الطلاق: ١] وكقوله: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ [الزمر: ٦٥]، وكقوله لعيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ [المائدة: ١١٦] ومثل هذا معتاد، فإن السلطان إذا كان له أمير، وكان تحت راية ذلك الأمير جمع، فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص فإنه لا يوجه خطابه إليهم، بل يوجهه إلى ذلك الأمير ليكون ذلك أقوى تأثيراً في قلوبهم.

الثاني: قال الفراء: علم الله تعالى أن رسوله ﷺ غير شاك، ولكن هذا كما يقول الرجل لولده: إن كنت ابني فبرني، ولعبده: إن كنت عبدي فأطعني.

الثالث: أن يقال لضيق الصدر شاك، يقول: إن ضقت ذرعاً بما تعاني من تعنتهم

وأذاهم فاصبر واسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك كيف صبر الأنبياء على أذى قومهم، وكيف كان عاقبة أمرهم من النصر، فالمراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما في الكتب المتقدمة، وأن القرآن مصدق لم فيها، أو تهييج الرسول ﷺ وزيادة تثبيته، أو يكون على سبيل الفرض والتقدير، لا إمكان وقوع الشك له، ولذلك قال ﷺ «لما نزلت هذه الآية: والله لا أشك ولا أسأل»[1].

وأما الوجه الثاني ـ وهو أن المخاطب غيره ﷺ ـ فتقريره: أن الناس كانوا في زمانه ﷺ فرقاً ثلاثة: المصدقون به، والمكذبون له، والمتوقفون في أمره الشاكون فيه فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب فقال: فإن كنت في شك أيها الإنسان مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان نبينا ﷺ فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ [الإنفطار: ٦] و ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح﴾ [الإنشقاق: ٦] ﴿وإذا مس الإنسان ضر﴾ [الزمر: ٨] فإن المراد «بالإنسان» هنا الجنس، لا إنسان بعينه، فكذا هنا، ولما ذكر الله تعالى لهم ما يزيل ذلك الشك حذرهم من أن يلحقوا بالقسم الثاني وهم المكذبون فقال: ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾ [يونس: ٩٥].

وأما قوله تعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين﴾ [الأنعام: ١١٤]. أي في أنهم لا يعلمون ذلك، أو يكون المراد: قل لمن امترى يا محمد، لا تكونن من الممترين فليس الخطاب له وأنه ﷺ يخاطب به غيره. وقيل غير ذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ [الأنعام: ٣٥]. فقال القاضي عياض: لا يلتفت إلى قول من قال: لا تكونن ممن يجهل أن الله لو شاء لجمعهم على الهدى، إذا فيه إثبات الجهل بصفة من صفاته تعالى، وذلك لا يجوز على الأنبياء، والمقصود وعظهم أن لا يتشبهوا في أمورهم بسمات الجاهلين، وليس في الآية دليل على كونه على تلك الصفة التي نهاه الله عن الكون عليها، فأمره الله تعالى ﷺ بالتزام الصبر على إعراض قومه، ولا يخرج عند ذلك فيقارب حال الجاهل بشدة التحسر[2] حكاه أبو بكر بن فورك.

وقيل: معنى الخطاب لأمته ﷺ، أي فلا تكونوا من الجاهلين. حكاه أبو محمد

---

(١) ذكره ابن جرير عن قتادة مرسلاً لكن بدون قسم.

(٢) انظر الشفا للقاضي عياض ٢/١٠٧.

مكي، قال: ومثله في القرآن كثير، وكذلك قوله تعالى: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض﴾ [الأنعام: ١١٦] فالمراد غيره، كما قال تعالى: ﴿إن تطيعوا الذين كفروا﴾ [آل عمران: ١٤٩] وقوله تعالى: ﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ [الشورى: ٢٤] و﴿لئن أشركت لحبطن عملك﴾ [الزمر: ٦٥] وما أشبه ذلك فالمراد غيره، وأن هذه حال من أشرك والنبي ﷺ لا يجوز عليه هذا، والله تعالى ينهاه عما يشاء ويأمره بما يشاء، كما قال تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ [الأنعام: ٥٢] الآية، وما طردهم ﷺ وما كان من الظالمين(١).

وأما قوله تعالى: ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ [يوسف: ٣]. فليس بمعنى قوله ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ [يونس: ٧]، وإنما المعنى: لمن الغافلين عن قصة يوسف، إذ لم تخطر ببالك، ولم تقرع سمعك قط، فلم تعلمها إلا بوحينا(٢).

وأما قوله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله﴾ [الأعراف: ٢٠٠] الآية. فمعناه: يستخفَّك غضب يحملك على ترك الإعراض عنهم.

والنزغ: أدنى حركة تكون، كما قاله الزجاج. فأمره الله تعالى أنه متى تحرك عليه غضب علىٰ عدوه، أو رام الشيطان من إغرائه به وخواطر أدنى وساوسه ما لم يجعل له سبيل إليه أن يستعيذ به تعالى منه، فيكفي أمره، ويكون سبب تمام عصمته، إذ لم يسلط عليه بأكثر من التعرض له، ولم يجعل له قدرة عليه. وكذلك لا يصح أن يتصور له الشيطان في صورة الملك ويلبس عليه، لا في أول الرسالة ولا بعدها [والإعتماد في ذلك دليل المعجزة](٣) بل لا يشك النبي أن ما يأتيه من الله هو الملك ورسوله حقيقة إما بعلم ضروري يخلقه الله له أو ببرهان يظهر لديه كما قدمته في المقصد الأول عند البعثة، لتتم كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته.

وأما قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ [الحج: ٥٢] الآية. فأحسن ما قيل فيها ما عليه جمهور المفسرين: أن التمني المراد به هنا: التلاوة، وإلقاء الشيطان فيها إشغاله بخواطر وأذكار من أمور الدنيا للتالي حتى يدخل عليه الوهم والنسيان فيما تلاه، أو يدخل غير ذلك على أفهام السامعين من التحريف وسوء التأويل ما يزيله الله وينسخه ويكشف لبسه ويحكم آياته.

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٠٩.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١١٤.

(٣) ليست في الأصل: ولكنها في الأصل المنقول عنه. راجع الشفاء ٢/ ١٢٠.

قاله القاضي عياض، وقد تقدم في المقصد الأول مزيد لذلك.

قال في الشفاء: وأما قوله ﷺ حين نام عن الصلاة يوم الوادي: «إن هذا وادٍ به شيطان»[1] فليس فيه ذكر تسلطه عليه ولا وسوسته له، بل إن كان بمقتضى ظاهره فقد بين أمر ذلك الشيطان بقوله: إن الشيطان أتى بلالاً، فلم يزل يهديه[2] كما يهدي الصبي حتى نام، فاعلم أن تسلط الشيطان في ذلك الوادي إنما كان على بلال الموكل بكلاءة الفجر، هذا إن جعلنا قوله «إن هذا وادٍ به شيطان» تنبيهاً على سبب النوم عن الصلاة، وأما إن جعلناه تنبيهاً على سبب الرحيل عن الوادي وعلة لترك الصلاة به، وهو دليل مساق حديث زيد بن أسلم فلا اعتراض به في هذا الباب، لبيانه وارتفاع إشكاله.

قال عياض: وأما قوله تعالى: ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى﴾ [عبس: ١و ٢] الآيات، فليس فيها إثبات ذنب له ﷺ. بل إعلام الله له أن ذلك المتصدي له من لا يتزكى، وأن الصواب والأولى كان لو كشف له حال الرجلين لاختار الإقبال على الأعمى وفعل النبي ﷺ لما فعل وتصديه لذلك الكافر كان طاعة لله، وتبليغاً عنه، واستئلافاً له، كما شرعه الله [له] لا معصية ولا مخالفة له، وما قصة الله عليه من ذلك إعلام بحال الرجلين، وتوهين أمر الكافر عنده، والإشارة إلى الإعراض عنه بقوله: ﴿وما عليك ألا يزكى﴾ [عبس: ٧][3] أي ليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام، أي لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم أن تعرض عمن أسلم بالإشتغال بدعوتهم، إن عليك إلا البلاغ.

وقد كان ابن أم مكتوم يستحق التأديب والزجر، لأنه ـ وإن فقد بصره ـ كان يسمع مخاطبة الرسول ﷺ لأولئك الكفار، وكان يعرف بواسطة استماع تلك الكلمات شدة اهتمامه ﷺ بشأنهم، فكان إقدامه على قطع كلامه ﷺ إيذاء له ﷺ وذلك معصية عظيمة. فثبت أن فعل ابن أم مكتوم كان ذنباً ومعصية، وأن الذي فعله الرسول الله ﷺ كان هو الواجب المتعين. وقد كان ﷺ مأذوناً له في تأديب أصحابه، ولكن ابن أم مكتوم بسبب عماه استحق مزيد الرفق به.

وأما قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لمَ أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣] الآية. فروى ابن أبي حاتم عن مسعر عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة،

---

(١) الحديث في الموطأ (١٤) وفي مشكاة المصابيح ٦٨٧ وفي التمهيد لابن عبد البر ٥/ ٢٠٣ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٧٣.

(٢) يهديه: يسكنه وينومه من هدأت الصبي إذا وضعت عليه يدك لينام.

(٣) إلى هنا انتهى كلام القاضي عياض انظر الشفاء ٢/ ١٦١.

وكذا قال مورق العجلي[1] وغيره. وقال قتادة: عاتبه الله كما تسمعون ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال: ﴿فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فائذن لمن شئت منهم﴾ [النور: ٦٢] ففوض الأمر إلى رأيه ﷺ.

وقال عمرو بن ميمون:[2] اثنتان فعلهما الرسول ﷺ لم يؤمر فيها بشيء: إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من الأسرى، فعاتبه الله كما تسمعون. وأما قول بعضهم إن هذه الآية تدل على أنه وقع من الرسول ذنب لأنه تعالى قال: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣] والعفو يستدعي سالفة ذنب، وقوله الآخر: ﴿لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣] استفهام بمعنى الإنكار، فاعلم: أنا لا نسلم أن قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك﴾ [التوبة: ٤٣] يوجب ذنباً، ولم لا يقال إن ذلك يدل على مبالغة الله تعالى في توقيره وتعظيمه، كما يقول الرجل لغيره إذا كان عظيماً عنده: عفا الله عنك، ما صنعت في أمري ورضي الله عنك ما جوابك عن كلامي، وعافاك الله ألا عرفت حقي، فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلا زيادة التبجيل والتعظيم، وليس (عفا) هنا بمعنى: غفر، بل كما قال ﷺ: «عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق»[3] ولم تجب عليهم قط، أي لم يلزمكم ذلك. ونحوه للقشيري قال: وإنما يقول العفو لا يكون إلا عن ذنب من لا يعرف كلام العرب، قال: ومعنى عفا الله عنك أي لم يلزمك ذنباً.

وأما الجواب عن الثاني فيقال: إما أن يكون صدر من الرسول ﷺ ذنب أم لا؟ فإن قلنا: لا، امتنع على هذا التقدير أن يكون قوله: ﴿لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣] إنكاراً عليه، وإن قلنا إنه قد صدر عنه ذنب ـ وحاشاه الله من ذلك ـ فقوله: ﴿عفا الله عنك﴾ [التوبة: ٤٣] يدل على حصول العفو، وبعد العفو يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه، فثبت أنه على جميع التقادير يمتنع أن يقال: إن قوله: ﴿لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣] يدل على كون الرسول مذنباً، وهذا جواب كاف، شاف قاطع، وعند هذا يحمل قوله لم أذنت لهم على ترك الأولى والأكمل. بل لم يعد هذا أهل العلم معاتبة، وغلطوا من ذهب إلى ذلك. قال نفطويه[4]: ذهب ناس إلى أن النبي ﷺ معاتب بهذه الآية، وحاشاه الله من

---

(١) هو مورق العجلي تابعي توفي سنة (١٠١ هـ). شذرات الذهب ١/ ١٢٢.

(٢) هو عمرو بن ميمون بن مهران الجزري فقيه توفي سنة (١٤٥ هـ). شذرات الذهب ١/ ٢١٦.

(٣) أخرجه الترمذي في الزكاة برقم (٦٢٠). وابن ماجه برقم (١٧٩٠ ـ ١٨١٣) والدارمي زكاة (٧). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ١٢١ و ١٣٢ ١٤٥ ـ ١٤٦ ـ ١٤٨ والقاضي عياض في الشفا ٢/ ٣٦.

(٤) هو إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي العتكي أبو عبد الله (٢٤٤ ـ ٣٢٣ هـ). نحوي فقيه. توفي=

ذلك، بل كان مخيراً، فلما أذن لهم أعلمه الله أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا لنفاقهم، وأنه لا حرج عليه في الإذن.

وأما قوله تعالى في أسارى بدر: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾ إلى قوله: ﴿عظيم﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨]. فروى مسلم من أفراده من حديث عمر بن الخطاب قال: لما هزم الله المشركين يوم بدر، وقتل منهم سبعون وأسر سبعون، استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً، فقال أبو بكر: يا نبي الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال: قلت والله ما أرى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنني من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، فأخذ منهم الفداء، فما كان من الغد غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان فقلت يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباكيت، فقال النبي ﷺ: «أبكي للذي عرض علي أصحابك من الفداء، لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة، لشجرة قريبة فأنزل الله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾ إلى قوله ﴿عظيم﴾ [الأنفال: ٦٧ و٦٨]»[(١)].

وقوله: ﴿حتى يثخن في الأرض﴾ [الأنفال: ٦٧]: أي يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه، ويعز الإسلام ويستولي أهله. وليس في هذا إلزام ذنب للنبي ﷺ، بل فيه بيان ما خص به وفضِّل من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكأنه قال: ما كان هذا لنبي غيرك. قال ﷺ «أحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي». وأما قوله: ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ [الأنفال: ٦٧] فقيل المراد بالخطاب من أراد ذلك منهم وتجرد، غرضه لعرض الدنيا وحده، والإستكثار منها، وليس المراد بهذا النبي ﷺ ولا علية أصحابه.

بل قد روي عن الضحاك أنها نزلت حين انهزم المشركون يوم بدر واشتغل الناس

= ببغداد (لقب بنفطويه تقريباً لاسم سيبويه). الاعلام ١/ ٦١ وفيات الاعيان ١/ ١١ إنباه الرواة ١/ ١٧٦ شذرات الذهب ٢/ ٢٩٨.

(١) الحديث في صحيح مسلم كتاب الجهاد برقم (٥٨) وفي تفسير الطبري ١٠/ ٣١ وفي نصب الراية للزيلعي ٣/ ٤٠٢ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٤/ ٢٩٢ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ١٣٧.

بالسلب وجمع الغنائم عن القتال حتى خشي عمر أن يعطف عليهم العدو.

ثم قال تعالى: ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ [الأنفال: ٦٨] فاختلف المفسرون في معنى هذه الآية: فقيل معناها لولا أنه سبق مني أن لا أعذب أحداً إلا بعد النهي لعذبتكم، فهذا ينفي أن يكون أمر الأسرى معصية. وقيل: لولا إيمانكم بالقرآن، وهو الكتاب السابق، فاستوجبتم به الصفح لعقوبتم على الغنائم. وقيل: لولا أنه سبق في اللوح المحفوظ أنها حلال لكم لعقوبتم. وهذا كله ينفي الذنب والمعصية، لأن من فعل ما أحل له لم يعص، قال الله تعالى: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ [الأنفال: ٦٩].

وقيل: بل كان ﷺ قد خير في ذلك، وقد روي عن علي قال: جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ يوم بدر فقال: «خير أصحابك في الأساري إن شاؤوا القتل وإن شاؤوا الفداء على أن يقتل منهم في العام المقبل مثلهم فقالوا الفداء ويقتل منا[1]» وهذا دليل على أنهم لم يفعلوا إلا ما أذن لهم فيه. لكن بعضهم مال إلى أضعف الوجهين مما كان الأصلح غيره من الإثخان والقتل فعوتبوا على ذلك وبين لهم ضعف اختيارهم وتصويب اختيار غيرهم، وكلهم غير عصاة ولا مذنبين.

قال القاضي بكر بن العلاء: أخبر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتب له من إحلال الغنائم والفداء، وقد كان قبل هذا فادى في سرية عبد الله بن جحش التي قتل فيها ابن الحضرمي بالحكم بن كيسان وصاحبه، فما عتب الله ذلك عليهم، وذلك قبل بدر بأزيد من عام، فهذا كله يدل على أن فعل النبي ﷺ في شأن الأساري كان على تأويل وبصيرة على ما تقدم قبل ذلك مثله فلم ينكره الله عليه. لكن الله تعالى أراد لعظم أمر بدر وكثرة أسرارها ـ والله تعالى أعلم ـ إظهار نعمته وتأكيد منته بتعريفهم ما كتبه في اللوح المحفوظ من حل ذلك لا على وجه عتاب أو إنكار أو تذنيب[2] قاله القاضي عياض.

وأما قوله تعالى: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ [الإسراء: ٧٤ ـ ٧٥] الآية.

فالمعنى: لولا أن ثبتناك لقاربت أن تميل إلى اتباع مرادهم، لكن أدركتك عصمتنا فمنعت أن تقرب فضلا عن أن تركن إليهم. وهو صريح في أنه ﷺ ما همَّ بإجابتهم مع قوة الدواعي إليها، فالعصمة بتوفيق الله وحفظه، ولو قاربت لأذقناك ضعف الحياة

(١) هو في الترمذي كتاب السير باب (١٨) رقم الحديث (١٥٦٧).

(٢) انظر الشفا للقاضي عياض ٢/ ١٥٩ وما بعدها.

وضعف الممات، أي ضعف ما يعذب به في الدارين بمثل هذا الفعل غيرك، لأن خطأ الخطير أخطر، وقد أعاذه الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه. ومما يعزي للحريري مما يؤيد ذلك قوله:

أنحوي هذا العصر ما هي لفظة ... جرت في لساني جرهم وثمود
إذا استعملت في صورة الجحد أثبتت ... وإن أثبتت قامت مقام جحود

وفسر الأول وهو النفي المثبت بنحو ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ [البقرة: ٧١] والثاني وهو الثبوت المنفي بنحو قوله تعالى ﴿لقد كدت تركن﴾ قالوا: وهو ﷺ ثبت قلبه ولم يركن.

وأما قوله تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾[الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]. فالمعنى: لو افترى علينا بشيء من عند نفسه لأخذنا منه باليمين وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه، وقد أعاذه الله من التقول عليه. فإن قلت: لا مرية أنه يعفى للمحب ولصاحب المحاسن والإحسان العظيم ما لا يعفى لغيره، ويسامح بما لا يسامح به غيره، كما قال الشاعر:

وإذا الحبيب أتي بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

ولا شك أن نبينا ﷺ هو الحبيب الأعظم ذو المحاسن والإحسان الأكبر، فما هذه العقوبة المضاعفة والتهديد الشديد الوارد إن وقع منه ما يكره، وكم من راكن إلى أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه لم يعبأ به كأرباب البدع ونحوهم؟

فالجواب: أنه لا تنافي بين الأمرين، فإن من كملت عليه نعمة الله، واختصه منها بما لم يختص به غيره، وأعطاه منها ما لم يعط غيره، فحباه بالإنعام وخصه بمزيد القرب والإكرام اقتضت حالته من حفظ مرتبة القرب والولاية والإختصاص أن تراعى مرتبته عن أدنى مشوش وقاطع، فلشدة الإعتناء به ومزيد تقريبه واتخاذه لنفسه واصطفائه على غيره تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم ونعمه عليه أكمل، فالمطلوب منه فوق المطلوب من غيره، فهو إذا غفل أو أخل بمقتضى مرتبته نبه بما لم ينبه عليه البعيد، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك البعيد أيضاً، فيجتمع في حقه الأمران. وإذا أردت معرفة اجتماعهما وعدم تناقضهما فالواقع شاهد بذلك، فإن الملك يسامح خاصته وأولياءه بما لا يسامح به من ليس في منزلتهم، ويؤاخذهم بما لا يؤاخذ به غيرهم. وأنت إذا كان لك عبدان أو ولدان أحدهما أحب إليك من الآخر وأقرب إلى قلبك وأعز عليك عاملته بهذين الأمرين، واجتمع في حقه المعاملتان بحسب قربه منك، وحبك له وعزته، فإذا نظرت إلى إكمال إحسانك إليه وإتمام نعمك عليه اقتضت معاملته بما لم تعامل به من هو دونه

من التنبيه وعدم الإهمال. وإذا نظرت إلى محبته لك وطاعته وخدمته وكمال عبوديته ونصحه، وهبت له وسامحته وعفوت عنه بما لا تفعله مع غيره. فالمعاملتان بحسب ما بينك وبينه.

وقد ظهر اعتبار هذا المعنى في الشرع، حيث جعل حد من أنعم عليه بالتزويج إذا تعداه إلى الزنا الرجم، وحد من لم يعطه هذه النعمة الجلد، وكذلك ضاعف الحد على الحر الذي قد ملكه نفسه وأتم عليه نعمته·ولم يجعله مملوكاً لغيره، وجعل حد العبد المنقوص بالرق ـ الذي لم يجعل له هذه النعمة ـ نصف ذلك. فسبحان من بهرت حكمته في خلقه.

فللّــــه ســــر تحـــــت كـــــل لطيفـــــة فـــأخـــو البصـــائـــر غـــائـــص يتعقـــل

انتهى ملخصاً.

وأما قوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ [الشورى: ٥٢]. فقيل: معناه ما كنت تدري الإيمان على التفصيل الذي شرع لك في القرآن. وقال أبو العالية: هو بمعنى الدعوة إلى الإيمان، لأنه كان قبل الوحي لا يقدر أن يدعو إلى الإيمان بالله تعالى. وقيل: معناه أنه ما كان يعرف الإيمان حين كان في المهد وقبل البلوغ. حكاه الماوردي والواحدي والقشيري. وقيل: إنه من باب حذف المضاف، أي ما كنت تدري أهل الإيمان، أي من الذي يؤمن، أبو طالب، أو العباس، أو غيرهما. وقيل: المراد به شرائع الإيمان ومعالمه وهي كلها إيمان، وقد سمى الله الصلاة بقول: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ [البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم إلى بيت المقدس، فيكون اللفظ عاماً والمراد الخصوص. قاله ابن قتيبة وابن خزيمة. وقد اشتهر في الحديث أنه ﷺ كان يوحد الله ويبغض الأوثان ويحج ويعتمر. وروى أبو نعيم وابن عساكر عن علي قال: قيل للنبي ﷺ هل عبدت وثناً قط؟ قال لا، قيل: فهل شربت خمراً قط؟ قال: لا، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر. وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان.

وعن عائشة: كانت قريش ومن دان دينها، وهم الحمس، يقفون بمزدلفة ويقولون: نحن أهل الحرم رواه الشيخان. وكان رسول الله ﷺ في الجاهلية يقف بعرفات دونهم توفيقاً من الله تعالى. رواه البيهقي وأبو نعيم من حديث جبير بن مطعم. وقد ورد أن العرب لم يزالوا على بقايا من دين إسماعيل، كحج البيت والختان والغسل من الجنابة، وكان ﷺ لا يقرب الأوثان ويعيبها، ولا يعرف شرائع الله التي شرعها لعباده على لسانه، فذلك قوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ [الشورى: ٥٢] ولم يرد الإيمان الذي هو الإقرار بالله، لأن آباءه الذين ماتوا على الشرك كانوا يؤمنون بالله ويحجون مع شركهم، والله أعلم.

في وجوب محبته واتباع سنته والاهتداء بهديه وطريقته وفرض محبة آله وأصحابه وقرابته وعترته وحكم الصلاة والتسليم عليه زاده الله فضلاً وشرفاً لديه

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول
في وجوب محبته واتباع سنته والاقتداء بهديه وسيرته ﷺ

أعلم أن المحبة ـ كما قال صاحب «المدارج» ـ هي المنزلة التي يتنافس فيها المتنافسون، وإليها يشخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات ، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام. واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيه، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا أبداً بدونها واصليها، وتبوئهم من مقاعد الصدق إلى مقامات لم يكونوا لولا هي داخليها، وهي مطايا القوم التي سراهم في ظهورها دائماً إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب، تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قدر الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب، فيا لها من نعمة على المحبين سابغة، لقد سبق القوم السعاة وهم على ظهور الفرش نائمون، ولقد تقدموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون

مـــن لـــي بمثـــل سيـــرك المـــدلـــل تمشـــى رويـــداً وتجـــي فـــي الأول

أجابوا مؤذن الشوق إذ نادى بهم حي على الفلاح، في الأول أنفسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم، وكان بذلهم بالرضى والسماح، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج

والغدو والرواح، ولقد حمدوا عند وصولهم مسراهم، وإنما بحمد القوم السرى عند الصباح.

وقد اختلفوا في تعريف المحبة، وعباراتهم وإن كثرت فليست في الحقيقة ترجع إلى اختلاف مقال، وإنما هي اختلاف أحوال، وأكثرها يرجع إلى ثمرتها دون حقيقتها. وقد قال بعض المحققين: حقيقة المحبة عند أهل المعرفة، من المعلومات التي لا تحد، وإنما يعرفها من قامت به وجداناً لا يمكن التعبير عنه. وهكذا كقول صاحب مدارج السالكين ـ تبعاً لغيره ـ: والمحبة لا تحد بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة.

وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذا الستة، وتنوعت بهم العبارات، وكثرت الإشارات بحسب الإدراك والمقام والحال. وقد وضعوا لمعناها حرفين مناسبين للمسمى غاية المناسبة: [الحاء] التي هي من أقصى الحلق، و «الباء» الشفهية التي هي نهايته، فللحاء الابتداء، وللباء الانتهاء، وهذا شأن المحبة وتعلقها بالمحبوب، فإن ابتداءها منه وانتهاءها إليه.

وقد أعطوا «الحب» حركة الضم التي هي أشد الحركات وأقواها مطابقة لشدة حركة مسماه وقوتها، وأعطوا «الحِبّ» وهو المحبوب حركة الكسر لخفتها من الضمة، وخفة المحبوب وذكره على قلوبهم وألسنتهم. فتأمل هذا اللطف والمناسبة العجيبة بين الألفاظ والمعاني تطلعك على قدر هذه اللغة، وإن لها شأناً ليس لسائر اللغات. وهذا بعض رسوم وحدود قيلت في المحبة بحسب آثارها وشواهدها، والكلام على ما يحتاج إلى الكلام عليه منها.

فمنها: موافقة الحبيب في المشهد والمغيب. وهذا موجبها ومقتضاها. ومنها: محو المحب لصفاته وإثبات المحب للذاته، وهذا من أحكام الفناء في المحبة، وهي أن تمحى صفات المحب وتفنى في صفات محبوبه وذاته، وهذا يستدعي بياناً أتم من هذا لا يدركه إلا من أفناه وارد المحبة عنه وأخذه منه.

ومنها: استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك، وهو لأبي يزيد، وهو أيضاً من أحكامها وموجباتها وشواهدها. والمحب الصادق لو بذل لمحبوبه جميع ما يقدر عليه لاستقله واستحيا منه، ولو ناله من محبوبه أيسر شيء لاستكثره واستعظمه.

ومنها: استكثار القليل من جنايتك، واستقلال الكثير من طاعتك. وهو قريب من

الأول لكنه مخصوص بما من المحب. ومنها: معانقة الطاعة ومباينة المخالفة، وهو لسهل بن عبد الله، وهو أيضاً حكم المحبة وموجبها.

ومنها أن تهب كلك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء. وهو لسيدنا أبي عبد الله القرشي[1]، وهو أيضاً من موجبات المحبة وأحكامها. والمراد أن تهب إرادتك وعزماتك وأفعالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحبه، وتجعلها حبساً في مرضاته ومحابه، ولا تأخذ منها لنفسك إلا ما أعطاكه، فتأخذه منه له. ومنها: أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب، وكمال المحبة يقتضى ذلك، فإنه ما دامت في القلب بقية لغيره ومسكن لغيره فالمحبة مدخولة.

ومنها: أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك. وهو للشبلي[2]، ومراده: احتقارك لنفسك واستصغارها أو يكون مثلك ممن يحبه. ومنها: غض طرف المحب عما سوى المحبوب غيرة، وعن المحبوب هيبة، وهذا يحتاج إلى إيضاح، أما الأول فظاهر، وأما الثاني: فإن غض طرف القلب عن المحبوب مع كمال محبته كالمستحيل، ولكن عند استيلاء سلطان المحبة يقع مثل هذا، وذلك من علامات المحبة المقارنة للهيبة والتعظيم.

ومنها: ميلك إلى الشيء بكليتك ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سراً وجهراً ثم علمك بتقصيرك في حبه. قال الجنيد: سمعت الحارث المحاسبي[3] يقول ذلك. ومنها: سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه، ثم السكر الذي يحصل عند المشاهدة لا يوصف، وأنشد بعضهم:

فأسكر القوم دور الكأس بينهم　　　لكن سكري نشا من رؤية الساقي

ومنها: سفر القلب في طلب المحبوب، ولهج اللسان بذكره على الدوام، أما سفر

---

(١) هو محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو عبد الله القرشي الهاشمي (٥٤٤ ـ ٥٩٩ هـ). زاهد. اندلسي الاصل. توفي في القدس. الاعلام ٥/٣١٩ شذرات الذهب ٤/٣٤٢.

(٢) هو دلف بن جحدر الشبلي أبو بكر (٢٤٧ ـ ٣٣٤ هـ) ناسك والي. وفاته ببغداد. اختلف في اسمه ونسبه فقيل: دلف بن جعفر وقيل جحدر بن دلف ودلف بن جعترة ودلف بن جعونة وجعفر بن يونس. الاعلام ٢/٣٤١ وفيات الاعيان ١/١٨٠ والنجوم الزاهرة ٣/٢٨٩ صفة الصفوة ٢/٢٥٨ حلية الأولياء ١٠/٣٦٦ رقم الترجمة (٦٤٦) المنتظم ١٤/٥٠ رقم الترجمة (٢٤٨١) تاريخ بغداد ١٤/٣٨٩ والبداية والنهاية ١١/٢١٥.

(٣) هو الحارث بن أسد المحاسبي أبو عبد الله، صوفي عالماً بالأصول والمعاملات واعظ. توفي في بغداد سنة (٢٤٣ هـ). الاعلام ٢/١٥٣ صفة الصفوة ٢/٢٠٧ حلية الأولياء ١٠/٧٣ رقم الترجمة (٤٦٥) وفيات الاعيان ١/١٢٦ تاريخ بغداد ٨/٢١١ وفيه قيل: إن الحارث تكلم في شيء من الكلام فهجره أحمد بن حنبل فاختفى في دار ببغداد ومات فيها. ولم يصل عليه إلا أربعة نفر.

القلب في طلبه فهو الشوق إلى لقائه، وأما لهج اللسان بذكره فلا ريب أن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

ومنها: الميل إلى ما يوافق الإنسان، كحب الصور الجميلة والأصوات الحسنة وغير ذلك من الملاذ التي لا يخلو كل طبع سليم عن الميل إليها لموافقتها له، أو لاستلذاذه بإدراكه بحاسته، أو يكون حبه لذلك لموافقته له من جهة إحسانه إليه وإنعامه عليه، فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، كما رواه أبو نعيم في الحلية وأبو الشيخ وغيرهما[1] فإذا كان الإنسان يحب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفاً فانياً منقطعاً، أو استنقذه من هلكة أو مضرة لا تدوم، فما بالك بمن منحه منحاً لا تبيد ولا تزول ووقاه من العذاب الأليم ما لا يفنى ولا يحول.

وإذا كان المرء يحب غيره على ما فيه من صور جميلة وسيرة حميدة، فكيف بهذا النبي الكريم والرسول العظيم الجامع لمحاسن الأخلاق والتكريم، المانح لنا جوامع المكارم والفضل العميم، فقد أخرجنا الله به من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وخلصنا به من نار الجهل إلى جنات المعارف والإيقان، فهو السبب لبقاء مهجنا البقاء الأبدي في النعيم السرمدي، فأي إحسان أجل قدراً وأعظم خطراً من إحسانه إلينا، فلا منة ـ وحياته ـ لأحد بعد الله كما له علينا، ولا فضل لبشر كفضله لدينا.

فكيف ننهض ببعض شكره، أو نقوم من واجب حقه بمعشار عشره، فقد منحنا الله به منح الدنيا والآخرة، وأسبغ علينا نعمه باطنة وظاهرة، فاستحق أن يكون حظه من محبتنا له أوفى وأزكى من محبتنا لأنفسنا وأولادنا وأموالنا وأهلينا والناس أجمعين، بل لو كان في منبت كل شعرة منا محبة تامة له صلوات الله وسلامه عليه لكان ذلك بعض ما يستحقه علينا.

وقد روى أبو هريرة أنه ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده»[2] رواه البخاري.

وقدم الوالد للأكثرية، لأن كل أحد له والد، من غير عكس، وفي رواية النسائي

---

(١) الحديث في الحلية لأبي نعيم ٤/ ١٢١. وقال السخاوي هو باطل موقوفاً ومرفوعاً. وفي تذكرة ابن عبد الهادي: قال مهنا سألت أحمد ويحيى عن هذا الحديث فقالا: ليس له أصل وهو موضوع.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٤) ومسلم برقم (٧٠) والنسائي ٨/ ١١٤ وابن ماجه (٦٧) والامام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٢٠٧ و ٢٧٥ و ٢٧٨ وعبد الرزاق في مصنفه (١٠٣٢١) والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٨٦ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٩/ ٥٤٧ والدارمي ٢/ ٣٠٧ والبغوي في شرح السنة ١/ ٥٠.

تقديم الولد على الوالد وذلك لمزيد الشفقة، وزاد في رواية عبد العزيز بن صهيب عن أنس (والناس أجمعين)، وفي صحيح ابن خزيمة: (من أهله وماله) بدل (من والده وولده) وذكر الوالد والولد أدخل في المعنى لأنهما أعز على العاقل من الأهل والمال، بل ربما يكونان أعز من نفسه، ولذا لم يذكر «النفس» في حديث أبي هريرة، وذكر الناس بعد الوالد والولد من عطف العام على الخاص.

قال الخطابي: والمراد بالمحبة هنا، حب الاختيار لا حب الطبع. وقال النووى: فيه تلميح إلى قضية النفس الأمارة والمطمئنة، فإن من رجح جانب المطمئنة كان حبه للنبي ﷺ راجحاً، ومن رجح جانب الأمارة كان حكمه بالعكس.

وفي كلام القاضي عياض: أن ذلك شرط في صحة الإيمان، لأنه حمل المحبة على معنى التعظيم والإجلال. وتعقبه صاحب المفهم: بأن ذلك ليس مراداً، لأن اعتقاد الأعظمية ليس مستلزماً للمحبة، إذ قد يجد الإنسان إعظام شيء مع خلوه من محبته. قال: فعلى هذا من لم يجد من نفسه ذلك الميل لم يكمل إيمانه، وإلى هذا يومىء قول عمر في الحديث الذي رواه البخاري في «الإيمان والنذور» من حديث عبد الله ابن هشام أن عمر بن الخطاب قال للنبي ﷺ: لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلى نفسي التي بين جنبي، فقال النبي ﷺ «لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي، فقال له النبي ﷺ: «الآن يا عمر»(١). فهذه المحبة ليست باعتقاد الأعظمية فقط. فإنها كانت حاصلة لعمر قبل ذلك قطعاً.

وفي رواية فقال ﷺ: «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك» قال بعض الزهاد: تقدير الكلام، لا تصدق في حبي حتى تؤثر رضاي على هواك وإن كان فيه الهلاك.

وأما وقوف عمر في أول أمره، واستثناؤه نفسه، فلأن حب الإنسان نفسه طبع، وحب غيره اختيار بتوسط الأسباب، وإنما أراد ﷺ منه حب الاختيار، إذ لا سبيل إلى قلب الطباع وتغييرها عما جبلت عليه. وعلى هذا فجواب عمر أولاً كان بحسب الطبع، ثم تأمل فعرف بالاستدلال أن النبي ﷺ أحب إليه من نفسه لكونه السبب في نجاتها من الهلكات في الدنيا والآخرة، فأخبره بما اقتضاه الاختيار، فلذلك حصل الجواب بقوله (الآن يا عمر) أي الآن عرفت فنطقت بما يجب.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٦٣٢) والقاضي عياض في الشفا ١٩/٢ والمتقي الهندي في كنز العمال (١٣٨٦).

وإذا كان هذا شأن نبينا محمد ﷺ عبد الله ورسوله في محبتنا له ووجوب تقديمها على محبة أنفسنا وأولادنا ووالدينا والناس أجمعين، فما الظن بمحبة الله تعالى ووجوب تقديمها على محبة ما سواه، ومحبة الله تعالى تختص عن محبة غيره في قدرها وصفتها، وإفراده سبحانه وتعالى بها، فإن الواجب له من ذلك أن يكون أحب إلى العبد من ولده ووالده، بل من سمعه وبصره ونفسه التي بين جنبيه، فيكون إلهه الحق، ومعبوده أحب إليه من ذلك كله. والشيء قد يحب من وجه دون وجه، وقد يحب لغيره وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده، ولا تصلح الألوهية إلا له تعالى. والتأله هو المحبة والطاعة والخضوع.

ومن علامات الحب المذكور لرسول الله ﷺ أن يعرض الإنسان على نفسه أنه لو خير بين فقد غرض من أغراضه وفقد رؤية النبي ﷺ أن لو كانت ممكنة، فإن كان فقدها أشد عليه من فقد شيء من أغراضه فقد اتصف بالأحبية المذكورة لرسول الله ﷺ، ومن لا فلا.

قال القرطبي: كل من آمن بالنبي ﷺ إيماناً صحيحاً لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة، غير أنهم متفاوتون، فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظ الأوفى، ومنهم من يأخذ بالحظ الأدنى، كمن كان مستغرقاً في الشهوات محجوباً في الغفلات في أكثر الأوقات، لكن الكثير منهم إذا ذكر النبي ﷺ اشتاق إلى رؤيته بحيث يؤثرها على أهله وماله وولده ويبذل نفسه في الأمور الخطيرة ويجد رجحان ذلك من نفسه وجداناً لا تردد فيه. وقد شوهد من هذا الجنس من يؤثر زيارة قبره ورؤية مواضع آثاره على جميع ما ذكر، لما وقر في قلوبهم من محبته، غير أن ذلك سريع الزوال لتوالي الغفلات، انتهى.

فكل مسلم في قلبه محبة الله ورسوله، لا يدخل في الإسلام إلا بها، والناس متفاوتون في محبته ﷺ بحسب استحضار ما وصل إليهم من جهته عليه الصلاة والسلام من النفع الشامل لخير الدارين والغفلة عن ذلك. ولا شك أن حظ الصحابة رضي الله عنهم في هذا المعين أتم، لأن هذا ثمرة المعرفة وهم بها أعلم.

وقد روى ابن إسحاق ـ كما حكاه في الشفاء ـ أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً، هو بحمد الله كما تحبين، فقالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل تعني: صغيرة.

ورواه البيهقي في الدلائل، وذكره صاحب اللباب بلفظ: لما قيل يوم أحد قتل

محمد ﷺ وكثرت الصوارخ بالمدينة، خرجت امرأة من الأنصار، فاستقبلت بأخيها وابنها وزوجها وأبيها قتلى، لا تدري بأيهم استقبلت، فكلما مرت بواحد منهم صريعاً قالت: من هذا؟ قالوا: أخوك وأبوك وزوجك وابنك قالت: فما فعل النبي ﷺ؟ فيقولون: أمامك، حتى ذهبت إلى رسول الله ﷺ فأخذت بناحية ثوبه ثم جعلت تقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا أبالي إذا سلمت من عطب. وكذا رواه ابن أبي الدنيا بنحوه مختصراً.

وقال عمرو بن العاص ما كان أحـد أحب إلي من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال علي بن أبي طالب: كان رسول الله ﷺ أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ.

ولما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة ـ بفتح الدال المهملة وكسر المثلثة وتشديد النون ـ من الحرم ليقتلوه قال له أبو سفيان بن حرب: أنشدك بالله يا زيد أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة وأني جالس في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً.

وروي ـ مما ذكره القاضي عياض ـ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله لأنت أحب إلي من أهلي ومالي، وإني لأذكرك فما أصبر حتى أجيء فأنظر إليك، وإني ذكرت موتي وموتك فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وأني إن دخلتها لا أراك، فأنزل الله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ [النساء: ٦٩] فدعا به فقرأها عليه.

قال: وفي حديث آخر: كان رجل عند النبي ﷺ ينظر إليه لا يطرف، فقال: «ما بالك»؟ فقال: بأبي أنت وأمي، أتمتع بالنظر إليك، فإذا كان يوم القيامة رفعك الله بتفضيله، فأنزل الله الآية.

وذكره البغوي في تفسيره بلفظ: نزلت ـ أي الآية ـ في ثوبان مولى رسول الله ﷺ، وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم قد تغير لونه يعرف الحزن في وجهه، فقال رسول الله ﷺ: «ما غير لونك؟» فقال: يا رسول الله، ما بي مرض ولا وجع غير أني إن لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة، فأخاف أن لا أراك، لأنك ترفع مع النبيين، وأني إن دخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من

منزلتك، وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبداً، فنزلت هذه الآية[1] وكذا ذكره الواحدي في «أسباب النزول»، وعزاه للكلبي عن ثوبان[2].

وقال قتادة: قال بعض أصحاب النبي ﷺ: كيف يكون الحال في الجنة وأنت في الدرجات العلى ونحن أسفل منك فكيف نراك؟ فأنزل الله الآية. وذكره ابن ظفر في «ينبوع الحياة»[3] بلفظ: إن عامر الشعبي قال: إن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ فقال: والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من نفسي ومالي وولدي وأهلي، ولولا أن آتيك فأراك لرأيت أن أموت أو قال أن سوف أموت، وبكى الأنصاري، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبكاك»[4]؟ قال: بكيت أن ذكرت أنك ستموت ونموت، فترفع مع النبيين، ونكون نحن إن دخلنا الجنة دونك، فلم يحر النبي ﷺ إليه، بمعنى أي: لم يرجع إليه بقول، فأنزل الله الآية.

قال: وذكر مقاتل بن سليمان مثل هذا، وقال: هو عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري الذي رأى الأذان. وذكر أيضاً: أن عبد الله ابن زيد هذا كان يعمل في جنة له فأتاه ابنه فأخبره أن النبي ﷺ قد توفي فقال اللهم أذهب بصري حتى لا أدري بعد حبيبي محمد أحداً، فكف بصره.

واعلم أنه لا يمكن أن يجتمع في القلب حبان، فإن المحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب، فليختر المرء لنفسه إحدى المحبتين فإنهما لا يجتمعان في القلب، والإنسان عند محبوبه كائناً ما كان كما قيل:

أنت القتيل بأي من أحببته   فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي[5]

ولبعض الحكماء: كما أن الغمد لا يتسع لعضبين فكذلك القلب لا يتسع لحبين، ولذلك لازم إقبالك على من تهواه إعراضك عن كل شيء سواه، فمن داهن في المحبة أو داجى، فقد عرض لمدى الغيرة أوداجاً، فمحبة الرسول ﷺ ـ بل تقديمه في الحب على الأنفس والآباء والأبناء ـ لا يتم الإيمان إلا بها، إذ محبته من محبة الله.

وقد حكي عن أبي سعيد الخراز ـ مما ذكره القشيري في رسالته ـ أنه قال: رأيت

---

(١) انظر تفسير البغوي ١/ ٣٥٨ وانظر تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٣/ ٣٨٣.

(٢) انظر أسباب النزول للواحدي صفحة ٩٥.

(٣) هو كتاب في التفسير لأبي عبد الله ابن ظفر محمد بن محمد الصقلي المتوفي سنة (٥٦٨ هـ). كشف الظنون ٢/ ٢٠٥٢.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/ ١٨٢.

(٥) هو قول ابن الفارض.

النبي ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله اعذرني فإن محبة الله شغلتني عن محبتك، فقال لي: «يا مبارك من أحب الله فقد أحبني». وقيل إن ذلك وقع لامرأة من الأنصار معه ﷺ يقظة، ولابن أبي المجد[1]:

ألا يا محب المصطفى زد صبابة | وضمخ لسان الذكر منك بطيبه
ولا تعبأن بالمبطلين فإنما | علامة حب الله حب حبيبه

وكذلك كل حب في الله ولله، كما في الصحيحين، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[2]، فعلق ذوق الإيمان بالرضى بالله رباً، وعلق وجدان حلاوته بما هو موقوف عليه ولا يتم إلا به، وهو كونه سبحانه أحب الأشياء إلى العبد هو ورسوله، فمن رضي الله رباً رضيه الله له عبداً.

ومعنى بحلاوة الإيمان: استلذاذ الطاعات وتحمل المشقات في الدين، ويؤثر ذلك على أغراض الدنيا، ومحبة العبد لله تعالى تحصل بفعل طاعته وترك مخالفته، وكذلك الرسول، قاله النووي. وقال غيره: معناه أن من استكمل الإيمان علم أن حق الله ورسوله أكد عليه من حق والده وولده وجميع الناس، لأن الهدى من الضلال، والخلاص من النار، إنما كان على لسان رسوله.

وفي قوله ﷺ: «(حلاوة الإيمان)» استعارة تخييلية، فإنه شبه رغبة المؤمن في الإيمان بشيء حلو، وأثبت له لازم ذلك الشيء وأضافه إليه، وفيه تلميح إلى قصة المريض والصحيح، لأن المريض الصفراوي يجد طعم العسل مراً، والصحيح يذوق حلاوته على ما هي، وكلما نقصت القوة شيئاً ما، نقص ذوقه بقدر ذلك.

وقال العارف ابن أبي جمرة: واختلف في الحلاوة المذكورة هل هي محسوسة أو معنوية، فحملها قوم على المعنى وهم الفقهاء، وحملها قوم على المحسوس وأبقوا اللفظ على ظاهره من غير أن يتأولوه وهم أهل الصفة، أو قال الصوفة. قال: والصواب

---

(١) هو إبراهيم بن أبي المجد بن قريش بن محمد (٦٣٣ ـ ٦٧٦ هـ) يتصل نسبه بالحسين السبط. صوفي تفقه على مذهب الشافعي. الاعلام ١/ ٥٩ طبقات الشعراني ١/ ١٤٣ خطط مبارك ١١/ ٧.

(٢) الحديث في مسلم كتاب الايمان برقم (٦٧) وفي النسائي ٨/ ٩٤ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٠٣ و ١٧٤ و ٢٣٠ وفي موارد الظمآن للهيثمي ٢٨٥ وفي مصنف عبد الرزاق (٢٠٣٢٠) وفي مجمع الزوائد ١/ ٥٥ وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ٥٤٧ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ١٤ وفي حلية الأولياء ١/ ٢٧ و ٢/ ٢٨٨ وفي كنز العمال (٤٣٢١٢).

معهم في ذلك والله أعلم، لأن ما ذهبوا إليه أبقوا لفظ الحديث على ظاهره من غير تأويل. قال: ويشهد إلى ما ذهبوا إليه أحوال الصحابة والسلف الصالح وأهل المعاملات، فإنه حكي عنهم أنهم وجدوا الحلاوة محسوسة.

فمن ذلك: حديث بلال حين صنع به ما صنع في الرمضاء إكراهاً على الكفر، وهو يقول أحد أحد، فمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان. وكذلك أيضاً عند موته، أهله يقولون: واكرباه، وهو يقول : واطرباه، غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه، فمزج مرارة الموت بحلاوة اللقاء وهي حلاوة الإيمان.

ومنها حديث الصحابي الذي سُرق فرسه بليل وهو في الصلاة، فرأى السارق حين أخذه فلم يقطع لذلك صلاته، فقيل له في ذلك فقال: ما كنت فيه ألذ من ذلك، ولا ذاك إلا لحلاوة الإيمان التي وجدها محسوسة في وقته ذلك.

ومنها حديث الصحابيين اللذين جعلهما ﷺ في بعض مغازيه من قبل العدو، وقد أقبل فرآهما، فكبل الجاسوس القوس ورمى الصحابي فأصابه، فبقي على صلاته ولم يقطعها، ثم رماه ثانية فأصابه فلم يقطع لذلك صلاته، ثم رماه ثالثة فأصابه، فعند ذلك أيقظ صاحبه وقال: لولا أني خفت على المسلمين ما قطعت صلاتي[1]. ولا ذاك إلا لشدة ما وجد فيها من الحلاوة التي أذهبت عنه ما يجد من ألم السلاح. قال: ومثل هذا حكي عن كثير من أهل المعاملات. انتهى.

وحديث هذين الصحابيين ذكره البخاري في صحيحه في باب «من لم ير الوضوء إلا من المخرجين» بلفظ: ويذكر عن جابر أن النبي ﷺ كان في غزوة «ذات الرقاع» فرمي رجل بسهم فنزفه الدم فركع وسجد ومضى في صلاته، وقد وصله ابن إسحاق في المغازي فقال: حدثني صدقة بن يسار عن عقيل عن جابر عن أبيه مطولاً، وأخرجه أحمد وأبو داود والدارقطني وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم، كلهم من طريق ابن إسحاق. قال في فتح الباري، وشيخه «صدقة» ثقة، وعقيل ـ بفتح العين ـ لا أعرف راوياً عنه غير صدقة، ولهذا لم يجزم به البخاري، أو لكونه اختصره، أو للخلاف في ابن إسحاق. وأخرجه البيهقي في الدلائل من وجه آخر، وسمى أحدهما: عباد بن بشر

(١) الحديث في دلائل النبوة للبيهقي ٣/٣٧٨ وفي البخاري نحوه (باب ٣٤ كتاب الوضوء). وفي سنن أبي داود كتاب الطهارة باب (٧٩) رقم الحديث (١٩٨) وفي مسند الامام أحمد بن حنبل ٣/٣٤٤ وفي المستدرك للحاكم ١/١٥٦ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/١٤٠ و ٩/١٥٠ وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢٥٠) وفي البداية والنهاية ٤/٨٧ وفي سنن الدارقطني ١/٢٢٤ رقم الحديث (١) باب جواز الصلاة مع خروج الدم السائل من البدن.

الأنصاري، وعمار بن ياسر من المهاجرين، والسورة الكهف.

وإنما قال: (مما سواهما) ولم يقل «ممن» ليعم من يعقل ومن لا يعقل وفي قوله: (وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) دليل على أنه لا بأس بهذه التثنية، وأما قوله للذي خطب فقال: «ومن يعصهما» «بئس الخطيب أنت»[1] فليس بمن هذا، لأن المراد في الخطب الإيضاح، وأما هاهنا فالمراد الإيجاز في اللفظ ليحفظ، ويدل عليه أن النبي ﷺ قال في موضع آخر: «(ومن يعصهما فلا يضر إلا نفسه)»[2]. وقيل: إنه من تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [النساء: ٥٩] فأعاد (أطيعوا) الصوم، في مقصد عباداته عليه الصلاة والسلام.

ومن محاسن الأجوبة في الجمع بين هذا الحديث وقصة الخطيب، أن تثنية الضمير هنا للإيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين، لا كل واحدة منهما، فإنها وحدها لاغية إذا لم ترتبط بالأخرى، فمن يدعي حب الله مثلاً ولا يحب رسوله لا ينفعه ذلك، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران: ٣١] فأوقع متابعته مكتنَفَة بين قطري محبة العباد لله، ومحبة الله للعباد. وأما أمر الخطيب بالإفراد فلأن كل واحد من العصيانين مستقل باستلزام الغواية، إذ العطف في تقدير التكرير، والأصل استقلال كل واحد من المعطوفين في الحكم، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [النساء: ٥٩] فأعاد (أطيعوا) في الرسول ولم يعده في أولي الأمر، لأنهم لا استقلال لهم في الطاعة كاستقلال الرسول. انتهى ملخصاً من كلام البيضاوي والطيبي، كما في فتح الباري.

وفي الصحيح: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً)[3]. قال في بالمدارج: فأخبر أن للإيمان طعماً، وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب. وقد عبر النبي ﷺ عن إدراك حقيقة الإيمان والإحسان وحصوله للقلب ومباشرته له بالذوق تارة وبالطعام والشراب أخرى، وبوجدان الحلاوة تارة، كما قال «ذاق». وقال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان)، ولما نهاهم عن الوصال قالوا: إنك تواصل فقال: (إني لست كهيئتكم، إني أطعم وأسقى)[4] وقد غلظ حجاب

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الجمعة برقم (٤٨) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٢٥٦/٤ و ٣٧٩ والحاكم في المستدرك ٢٨٩/١ والبيهقي في السنن الكبرى ٨٦/١ و ٢١٦/٣ والطحاوي في مشكل الآثار ٢٩٦/٤ والقرطبي في التفسير ٢٣٢/١٤. والحديث في سنن أبي داود برقم (١٠٩٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب (٢٢٣) رقم الحديث (١٠٩٧).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٥٦).

(٤) الحديث في مسلم (٧٧٤) وفي سنن أبي داود برقم (٢٣٦٠) وفي موطأ مالك برقم (٣٠٠) وفي

من ظن أن هذا طعام وشراب حسي للفم، وسيأتي تحقيق الكلام إن شاء الله تعالى في الصوم، في مقصد عباداته عليه الصلاة والسلام.

والمقصود أن ذوق حلاوة الإيمان أمر يجده القلب تكون نسبته إليه كذوق حلاوة الطعام إلى الفم، وذوق حلاوة الجماع إلى اللذة، كما قال ﷺ: «حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك»[1].

وللإيمان طعم وحلاوة يتعلق بهما ذوق ووجد، ولا تزول الشبه والشكوك إلا إذا وصل العبد إلى هذه الحالة، فيباشر الإيمان قلبه حقيقة المباشرة، ، فيذوق طعمه ويجد حلاوته.

وقال العارف الكبير تاج الدين بن عطاء الله: يعني في هذا الحديث إشارة إلى أن القلوب السليمة من أمراض الغفلة والهوى تتنعم بملذوذات المعاني كما تتنعم النفوس بملذوذات الأطعمة، وإنما ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً لأنه لما رضي بالله رباً استسلم له وانقاد لحكمه، وألقى قياده إليه، فوجد لذاذة العيش وراحة التفويض، ولما رضي الله رباً كان له الرضى من الله، وإذا كان له الرضى من الله أوجده الله حلاوة ذلك ليعلم ما منَّ به عليه، وليعرف إحسانه عليه، ولما سبقت لهذا العبد العناية خرجت له العطايا من خزائن المنن، فلما واصلته أمداد الله وأنواره عوفي قلبه من الأمراض والأسقام، فكان سليم الإدراك، فأدرك لذاذة الإيمان وحلاوته لصحة إدراكه وسلامة ذوقه. وقوله ﷺ: «وبالإسلام ديناً» لأنه إذا رضي بالإسلام ديناً فقد رضي به المولى، ولازمُ من رضي بمحمد نبياً أن يكون له ولياً، وأن يتأدب بآدابه ويتخلق بأخلاقه زهداً في الدنيا وخروجاً عنها، وصفحاً عن الجناة وعفواً عمن أساء إليه، إلى غير ذلك من تحقيق المتابعة قولاً وفعلاً، وأخذاً وتركاً، وحباً وبغضاً، فمن رضي بالله استسلم له، ومن رضي بالإسلام عمل له، ومن رضي بمحمد ﷺ تابعه، ولا يكون واحد منها إلا بكلها، إذ محال أن يرضى بالله رباً ولا يرضى بالإسلام ديناً، أو يرضى بالإسلام ديناً ولا يرضى بمحمد نبياً، وتلازم ذلك بيّن لا خفاء فيه. انتهى ملخصاً.

واعلم أن محبة الله على قسمين: فرض وندب.

= تجريد التمهيد لابن عبد البر (٥٨٠) وفي تاريخ أصبهان لأبي نعيم ٢/ ٢٧٢.

(١) الحديث في صحيح مسلم برقم (١١١) وفي صحيح البخاري كتاب الطلاق برقم (٥٣١٧) والنسائي ٦/ ١٤٦ رقم الحديث (١٧٠٢) وفي ابن ماجه (١٩٣٣) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٣٤ و ٣٧ و ١٩٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٣٣٣ و ٣٧٤ وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١١٤ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٤/ ٢٧٤ وفي الدر المنثور للسيوطي ١/ ٢٨٤.

فالفرض: المحبة التي تبعث عل امتثال الأوامر والانتهاء عن المعاصي، والرضو بما يقدره، فمن وقع في معصية من فعل محرم أو ترك واجب فلتقصيره في محبة الله حيث قدم هوى نفسه، والتقصير يكون مع الاسترسال في المباحات والاستكثار منها فيورث الغفلة المقتضية للتوسع في الرجاء فيقدم على المعصية، أو تستمر الغفلة فيقع. وهذا الثاني يسرع إلى الإقلاع مع الندم.

والندب: أن يواظب على النوافل ويجتنب الوقوع في الشبهات، والمتصف بذلك في عموم الأوقات والأحوال نادر.

وفي البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى أنه قال: (ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه - وفي رواية: بشيء أحب إلي من أداء ما افترضته عليه - ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي سمع به، وبصهر الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته)(١).

ويستفاد من قوله: (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي..) أن أداء الفرائض أحب الأعمال إلى الله تعالى. وعلى هذا فقد استشكل كون النوافل تنتج المحبة ولا تنتجها الفرائض؟

وأجيب: بأن المراد من النوافل إذا كانت مع الفرائض، مشتملة عليها ومكملة لها، ويؤيده: أن في رواية أبي أمامة «ابنَ آدم، إنك لا تدرك ما عندي إلا بأداء ما افترضته عليك»، أو يجاب: بأن الإتيان بالنوافل لمحض المحبة لا لخوف العقاب على الترك، بخلاف الفرائض. وقال الفاكهاني: معنى الحديث أنه إذا أدى الفرائض، وداوم على إتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرهما أفضى ذلك إلى محبة الله تعالى. وقد استشكل أيضاً: كيف يكون الباري جل وعلا «سمع العبد وبصره» إلخ.

وأجيب بأجوبة:

منها: أنه ورد على سبيل التمثيل، والمعنى: كنت كسمعه وبصره في إيثاره أمري، فهو يحب طاعتي ويؤثر خدمتي كما يحب هذه الجوارح.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق رقم الحديث (٦٥٠٢) والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٤٦، و ١٠/ ٢١٩ وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٨/ ٤٧٧ وفي الاتحافات السنية (٥).

ومنها: أن المعنى أن كليته مشغولة بي، فلا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضيني، ولا يرى ببصره إلا ما أمرته به.

ومنها: أن المعنى، كنت له في النصرة كسمعه وبصره ويده ورجله في المعاونة على عدوه.

ومنها: أنه على حذف مضاف، أي: كنت حافظ سمعه الذي يسمع به، فلا يسمع إلا ما يحل سماعه، وحافظ بصره كذلك الخ. قال الفاكهاني.

قال: ويحتمل معنى آخر أدق من الذي قبله: وهو: أن يكون بمعنى مسموعه، لأن المصدر قد جاء بمعنى المفعول، مثل: فلان أملي، بمعنى: مأمولي، والمعنى: أنه لا يسمع إلا ذكري ولا يلتذ إلا بتلاوة كتابي ولا يأنس إلا بمناجاتي، ولا ينظر إلا في عجائب ملكوتي، ولا يمد يده إلا فيما فيه رضاي، ورجله كذلك.

وقال غيره: اتفق العلماء ـ ممن يعتد بقولهم ـ على أن هذا مجاز وكناية عن نصرة العبد وتأييده وإعانته، حتى كأنه سبحانه تنزل عنده منزلة الآلات التي يستعين بها، ولهذا وقع في رواية: «فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي». قال: والاتحادية زعموا أنه على حقيقته، وأن الحق عين العبد، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

وقال الخطابي: عبر بذلك عن سرعة إجابة الدعاء، والنجح في الطلب، وذلك أن مساعيَ الإنسان كلها إنما تكون بهذه الجوارح المذكورة. وعن أبي عثمان الحيري[1] ـ أحد أئمة الطريق ـ قال: معناه كنت أسرع إلى قضاء حوائجه من سمعه في الإسماع وعينه في النظر، ويده في اللمس ورجله في المشي. كذا أسنده عنه البيهقي في «الزهد»[2].

وحمله بعض أهل الزيغ على ما يدعونه، من أن العبد إذا لازم العبادة الظاهرة والباطنة حتى [يصفى][3] من الكدورات، أنه يصير في معنى الحق، تعالى الله عن ذلك، وأنه يفنى عن نفسه جملة، حتى يشهد أن الله هو الذاكر لنفسه، والموحد لنفسه، والمحب لنفسه، وأن هذه الأسباب والرسوم تصير عدماً صرفاً. وعلى هذه الأوجه كلها فلا متمسك فيه للاتحادية ولا القائلين بالوحدة المطلقة، لقوله في بقية الحديث (ولئن

---

(١) هكذا في جميع النسخ وضبطه الشارح الزرقاني وفي فتح الباري المنقول عنه: الجيزي. صحب يحيى بن معاذ. قال الخطيب: كان مجاب الدعوة. مات بنيسابور سنة(٢٩٨ هـ).

(٢) انظر الزهد الكبير للبيهقي صفحة ٢٧٣ رقم الحديث (٧٠٢).

(٣) كذا في فتح الباري وفي الأصل (تصفى).

سألني)، زاد في رواية عبد الواحد (عبدي). انتهى ملخصاً.

قال العلامة ابن القيم: يتضمن هذا الحديث الشريف الإلهي - الذي حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه والمراد به - حصر أسباب محبته في أمرين، أداء فرائضه، والتقرب إليه بالنوافل، وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوباً لله، فإذا صار محبوباً لله أوجبت محبة الله له محبة أخرى منه لله فوق المحبة الأولى، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه، وملك عليه روحه، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه ألبتة، فصار ذكر محبوبه وحبه مثله الأعلى مالكاً لزمام قلبه، مستولياً على روحه استيلاء المحبوب على محبه الصادق في محبته التي قد اجتمعت قوى محبه كلها له، ولا ريب أن هذا المحب إن سمع بمحبوبه وإن أبصر أبصر به، وإن مشى مشى به، فهو في قلبه ونفسه، وأنيسه وصاحبه. والباء - هنا - باء المصاحبة، وهي مصاحبة لا نظير لها، ولا تدرك بمجرد الإخبار عنها والعلم بها، فالمسألة حالية[1] لا علمية محضة.

قال: ولما حصلت الموافقة من العبد لربه في محابه، حصلت موافقة الرب لعبده في حوائجه ومطالبه فقال: «ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» أي كما وافقني في مرادي بامتثال أوامري، والتقرب إلي بمحابي، فأنا أوافقه في رغبته ورهبته فيما يسألني أن أفعله به، وفيما يستعذ بي أن يناله. وقوي أمر هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى تردد الرب سبحانه في إماتة عبده لأنه يكره الموت، والرب تعالى يكره ما يكره عبده، ويكره مساءته فمن هذه الجهة يقتضي أن لا يميته ولكن مصلحته في إماتته، فإنه ما أماته إلا ليحييه، ولا أمرضه إلا ليصحه، ولا أفقره إلا ليغنيه، ولا منعه إلا ليعطيه، ولم يخرجه من الجنة في صلب أبيه آدم إلا ليعاد إليها على أحسن أحواله، فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواه، انتهى.

وقال الخطابي: التردد في حق الله غير جائز، والبداء عليه في الأمور غير سائغ، ولكن له تأويلان:

أحدهما: أن العبد قد يشرف على الهلاك في أيام عمره من داء يصيبه، أو فاقة تنزل به، فيدعو الله فيشفيه منها، ويدفع عنه مكروهها، فيكون ذلك من فعله كتردد من يريد أمراً ثم يبدو له فيه فيتركه ويعرض عنه، ولا بد له من لقائه إذا بلغ الكتاب أجله، لأن الله تعالى قد كتب الفناء على خلقه، واستأثر بالبقاء لنفسه.

(١) أي: حال من أحوال النفس يدركها من قامت به.

والثاني: أن يكون معناه: ما رددت رسلي في شيء أنا فاعله كترديدي إياهم في قبض نفس عبدي المؤمن، كما روي في قصة موسى عليه الصلاة والسلام[1]، وما كان من لطمه عين ملك الموت، وتردده إليه مرة بعد أخرى. قال: وحقيقة المعنى ـ على الوجهين ـ عطف الله على العبد، ولطفه به، وشفقته عليه. ؟وقال الكلاباذي ما حاصله: إنه عبر عن صفة الفعل بصفة الذات، يعني باعتبار متعلقها، أي عن الترديد بالتردد، وجعل متعلق الترديد اختلاف أحوال العبد من ضعف ونصب إلى أن تنتقل محبته في الحياة إلى محبته للموت، فيقبض على ذلك.

قال: وقد يحدث الله تعالى في قلب عبده من الرغبة فيما عنده والشوق إليه والمحبة للقائه ما يشتاق معه إلى الموت، فضلاً عن إزالة الكراهة عنه، انتهى.

وبالجملة: فلا حياة للقلب إلا بمحبة الله ومحبة رسوله، ولا عيش إلا عيش المحبين الذين قرت أعينهم بحبيبهم وسكنت نفوسهم إليه واطمأنت قلوبهم به، واستأنسوا بقربه وتنعموا بمحبته، ففي القلب طاقة لا يسدها إلا محبة الله ورسوله ومن لم يظفر بذلك فحياته كلها هموم وغموم وآلام وحسرات.

قال صاحب المدارج: ولن يصل العبد إلى هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية حتى يعرف الله ويهتدي إليه بطرق توصله إليه، ويحرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة، فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة، فينجذب إليها بكليته، ويزهد في التعلقات الفانية، ويدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات الظاهرة والباطنة، ثم يقوم حارساً على قلبه فلا يسامحه بخطرة يكرهها الله تعالى، ولا بخطرة فضول لا تنفعه، فيصفو لذلك قلبه بذكر ربه ومحبته والإنابة إليه، ويخرج من بين بيوت طبعه ونفسه، إلى فضاء الخلوة بربه وذكره، كما قال.

وأخرج من بين البيوت لعلني ... أحدث عنك النفس في السر خاليا

فحينئذٍ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه وطلبه والشوق إليه، فإذا صدق في ذلك رزق محبة الرسول، واستولت روحانيته على قلبه، فجعله إمامه واستاذه ومعلمه وشيخه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهاديه، فيطالع سيرته ومبادي أموره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه وآدابه وحركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، إلى غير ذلك مما منحه الله تعالى، مما ذكرت بعضه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه، فإذا رسخ في قلبه ذلك فتح

---

(١) القصة متفق عليها من حديث أبي هريرة مرفوعاً. انظر قصص الأنبياء لابن كثير ٢/ ١٨٠.

عليه من ربه بحيث إذا قرأ السورة شاهد قلبه ماذا أنزلت فيه، وماذا أريد بها، وحظه المختص به منها، من الصفات والأخلاق والأفعال المذمومة، فيجهد في التخلص منها، كما يجتهد في تحصيل الشفاء من المرض المخوف.

ولمحبة الرسول ﷺ علامات: أعظمها الاقتداء به، واستعمال سنته، وسلوك طريقته، والاهتداء بهديه وسيرته، والوقوف مع ما حدَّ لنا من شريعته. قال الله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران: ٣١] فجعل تعالى متابعة الرسول ﷺ آية محبة العبد ربه، وجعل جزاء العبد على حسن متابعة الرسول محبة الله تعالى إياه، وقد قال الحكيم ـ وهو محمود الوراق ـ[1] كما أفاده المحاسبي في كتابه «القصد والرجوع»:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع[2]

وهذه المحبة تنشأ من مطالعة منة الله عليه من نعمه الظاهرة والباطنة، فبقدر مطالعة ذلك تكون قوة المحبة. ومن أعظم مطالعة منة الله على عبده منة تؤهله لمحبته ومعرفته ومتابعة حبيبه ﷺ، وأصل هذا نور يقذفه الله تعالى في قلب ذلك العبد، فإذا دار ذلك النور أشرقت له ذاته، فرأى في نفسه وما أهلت له من الكمالات والمحاسن، فعلت به همته، وقويت عزيمته، وانقشعت عنه ظلمات نفسه وطبعه، لأن النور والظلمة لا يجتمعان إلا ويطرح أحدهما الآخر، فوقعت الروح حينئذ بين الهيبة والأنس إلى الحبيب الأول.

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأول منزل[3]

وبحسب هذا الإتباع توجب المحبة والمحبوبية معاً، ولا يتم الأمر إلا بهما، فليس الشأن أن تحب الله، بل الشأن أن يحبك الله، ولا يحبك إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهراً وباطناً، وصدقته خبراً، وأطعته أمراً، وأجبته دعوة، وآثرته طوعاً، وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبة غيره من الخلق وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم تكن كذلك فلا

---

(١) هو محمود بن حسن الوراق. شاعر توفي نحو (٢٢٥ هـ). الاعلام ٧/١٦٧ فوات الوفيات ٤/٧٩ رقم الترجمة (٥٠٧) تاريخ بغداد ١٣/٨٧ طبقات ابن المعتز ٣٦٧.

(٢) ذكره القاضي عياض في الشفا ٢/٩.

(٣) هو قول لأبي تمام الطائي.

تتعن، فلست على شيء. وتأمل قوله تعالى: ﴿فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران: ٣١] أي الشأن في أن الله تعالى يحبكم، لا في أنكم تحبونه، هذا لا ينالونه إلا باتباع الحبيب.

وقال المحاسبي في كتاب «القصد والرجوع»: وعلامة محبة العبد لله عز وجل اتباع مرضاة الله، والتمسك بسنن رسوله ﷺ، فإذا ذاق العبد حلاوة الإيمان، ووجد طعمه، ظهرت ثمرة ذلك على جوارحه ولسانه، فاستحلى اللسان ذكر الله تعالى وما والاه، وأسرعت الجوارح إلى طاعة الله، فحينئذ يدخل حب الإيمان في القلب كما يدخل حب الماء البارد الشديد برده في اليوم الشديد الحر للظمآن الشديد عطشه، فيرتفع عنه تعب الطاعة لاستلذاذه بها، بل تبقى الطاعات غذاء لقلبه وسروراً له، وقرة عين في حقه ونعيماً لروحه، يلتذ بها أعظم من اللذات الجسمانية، فلا يجد في أوراد العبادة كلفة.

وفي الترمذي عن أنس مرفوعاً: (ومن أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة)[1]. وعن ابن عطاء: من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب في أوامره ونواهيه، وأفعاله وأخلاقه. وقال أبو إسحاق الرقي[2] ـ من أقران الجنيد: ـ علامة محبة الله إيثار طاعته ومتابعة نبيه ﷺ. وعن غيره: ولا يظهر على أحد شيء من نور الإيمان إلا باتباع السنة ومجانبة البدعة. فأما من أعرض عن الكتاب والسنة، ولم يتلق العلم من مشكاة الرسول ﷺ بدعواه علماً لدنيا أوتيه فهو من لدن النفس والشيطان، وإنما يعرف كون العلم لدنيا روحانياً بموافقته لما جاء به الرسول عن ربه تعالى، فالعلم اللدني نوعان: لدني رحماني ولدني شيطاني، والمحك هو الوحي، ولا وحي بعد الرسول ﷺ.

وأما قصة موسى مع الخضر فالتعلق بها في تجويز الإستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد وكفر، يخرج عن الإسلام، موجب لإراقة الدم، والفرق: أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولم يكن الخضر مأموراً بمتابعته، ولو كان مأموراً بها لوجب عليه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه. ولهذا قال له: أنت موسى نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم[3]، ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين، فرسالته عامة للجن والإنس في كل زمان، ولو كان موسى وعيسى حيين لكانا من أتباعه.

---

(١) الحديث في الترمذي كتاب العلم باب (١٦) رقم الحديث (٢٦٧٨) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٢) هو إبراهيم بن داود القصار كان من جلة مشايخ الشام من أقران الجنيد عمر. توفي سنة (٣٢٦ هـ). المنتظم ١٣/ ٣٧٤ رقم الترجمة (٢٣٩٠).

(٣) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ٢/ ١٣١.

فمن ادعى أنه مع محمد كالخضر مع موسى، أو جوز ذلك لأحد من الأمة، فليجدد إسلامه، وليتشهد بشهادة الحق، فإنه مفارق لدين الإسلام بالكلية، فضلاً عن أن يكون من خاصة أولياء الله تعالى. وإنما هو من أولياء الشيطان وحلفائه ونوابه.

والعلم اللدني الرحماني هو ثمرة العبودية والمتابعة لهذا النبي الكريم. عليه أزكى الصلاة وأتم التسليم، وبه يحصل الفهم في الكتاب والسنة بأمر يختص به صاحبه كما قال علي بن أبي طالب، وقد سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه. فهذا هو العلم اللدني الحقيقي. فاتباع هذا النبي الكريم حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض النفوس، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين.

ومن علامة محبته: أن يرضى مدعيها بما شرعه، حتى لا يجد في نفسه حرجاً مما قضى. قال الله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ [النساء: ٦٥]، فسلب اسم الإيمان عن من وجد في صدره حرجاً من قضائه ولم يسلم له. قال شيخ المحققين وإمام العارفين، تاج الدين بن عطاء الله الشاذلي ـ أذاقنا الله حلاوة مشربه ـ: في هذه الآية دلالة على أن الإيمان الحقيقي لا يحصل إلا لمن حكم الله ورسوله ﷺ على نفسه قولاً وفعلاً وأخذاً وتركاً، وحباً وبغضاً، ويشتمل ذلك على حكم التكليف وحكم التعريف، والتسليم والإنقياد واجب على كل مؤمن في كليهما. فأحكام التكليف: الأوامر والنواهي المتعلقة باكتساب العباد. وأحكام التعريف: هو ما أورده عليك من فهم المراد. فتبين من هذا: أنه لا يحصل لك حقيقة الإيمان إلا بأمرين: الإمتثال لأمره، والإستسلام لقهره.

ثم إنه سبحانه لم يكتف بنفي الإيمان عمن لم يحكم، أو حكم ووجد الحرج في نفسه، حتى أقسم على ذلك بالربوبية الخاصة برسوله ﷺ رأفة وعناية وتخصيصاً ورعاية، لأنه لم يقل: فلا والرب، وإنما قال: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ [النساء: ٦٥] ففي ذلك تأكيد بالقسم، وتأكيد في القسم، علماً منه سبحانه بما النفوس منطوية عليه من حب الغلبة ووجود النصرة سواء كان الحق عليها أو لها، وفي ذلك إظهار لعنايته برسوله ﷺ، إذ جعل حكمه حكمه، وقضاءه قضاءه، فأوجب على العباد الإستسلام لحكمه، والإنقياد لأمره، ولم يقبل منهم الإيمان بإلهيته حتى يذعنوا لأحكام رسوله ﷺ، لأنه كما وصفه به ربه ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]، فحكمه حكم الله، وقضاؤه قضاء الله، كما قال: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ [الفتح: ١٠] وأكد ذلك بقوله: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ [الفتح: ١٠].

وفي الآية إشارة أخرى إلى تعظيم قدره، وتفخيم أمره ﷺ وهي قوله تعالى: ﴿وربك﴾ [النساء: ٦٥] فأضاف نفسه إليه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿كهيعص، ذكر رحمة ربك عبده زكريا﴾ [مريم: ١، ٢] فأضاف الحق سبحانه نفسه إلى محمد، وأضاف زكريا إليه ليعلم العباد فرق ما بين المنزلتين وتفاوت ما بين الرتبتين.

ثم إنه تعالى لم يكتف بالتحكيم الظاهر فيكونوا به مؤمنين، بل اشترط فقدان الحرج ـ وهو الضيق ـ من نفوسهم في أحكامه ﷺ، سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفها، وإنما تضيق النفوس لفقدان الأنوار، ووجود الأغيار، فعنه يكون الحرج وهو الضيق، والمؤمنون ليسوا كذلك، إن نور الإيمان ملأ قلوبهم فاتسعت وانشرحت، فكانت واسعة بنور الواسع العليم، ممدودة بوجود فضله العظيم، مهيأة لواردات أحكامه مفوضة له في نقضه وإبرامه. انتهى.

وقال سهل بن عبد الله: من لم ير ولاية الرسول عليه في جميع الأحوال، ويرى نفسه في ملكه لم يذق حلاوة سنته، لأنه ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه». وروينا عن سيدنا العارف الكبير أبي عبد الله القرشي أنه قال: حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت، ولا يبقى لك منك شيء. انتهى. فمن آثر هذا النبي الكريم على نفسه، كشف الله له عن حضرة قدسه، ومن كان معه بلا اختيار ظهرت له خفايا حقائق أسرار أنسه.

ومن علامات محبته ﷺ نصر دينه بالقول والفعل، والذب عن شريعته، والتخلق بأخلاقه في الجود والإيثار، والحلم والصبر والتواضع وغيرها، مما ذكرته في أخلاقه العظيمة، وتقدم في كلام العارف ابن عطاء الله مزيد لذلك قريباً. فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان، ومن وجدها استلذ بالطاعات، وتحمل المشاق في الدين، وآثر ذلك على أغراض الدنيا.

لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لا دعى الخلي حرقة الشجي، فتنوع المدعون في الشهود، فقيل لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران: ٣١]، فتأخر أكثرهم وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة، بتزكية ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ [المائدة: ٥٤]. فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فهلموا إلى بيعة ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ [التوبة: ١١١]، فلما عرفوا عظمة ذلك المشتري وفضل الثمن وجلالة من أجري على يده عقد التبايع، عرفوا قدر السلعة، وأن

لها شأناً عظيم، فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها بثمن بخس، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي، من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم؛ قد صارت نفوسكم وأموالكم لنا، رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعافها معها ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠].

ومن علامات محبته ﷺ التسلي عن المصائب، فإن المحب يجد في هذه المحبة ما ينسيه المصائب، ولا يجد في مسها ما يجد غيره، حتى كأنه قد اكتسى طبيعة ثانية ليست طبيعة الخلق، بل يقوى سلطان المحبة حتى يلتذ بكثير من المصائب أعظم من التداذ الخلي بحظوظه وشهواته، والذوق والوجود شاهد بذلك. فكرب المحبة موجود ممزوج بالحلاوة فإن فقد تلك الحلاوة اشتاق إلى ذلك الكرب كما قيل:

تشكى المحبون الصبابة ليتني ... نُحلت بما يلقون من بينهم وحدي
فكانت لقلبي لذة الحب كلها ... فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

ومن علامات محبته ﷺ كثرة ذكره، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره. ولبعضهم: المحبة دوام الذكر للمحبوب، ولآخر: ذكر المحبوب على عدد الأنفاس. ولغيره: للمحب ثلاث علامات: أن يكون كلامه ذكر المحبوب، وصمته فكراً فيه، وعمله طاعة له. وقال المحاسبي: علامة المحبين كثرة الذكر للمحبوب على طريق الدوام، لا ينقطعون ولا يملون ولا يفترون، وقد أجمع الحكماء على أن من أحب شيئاً أكثر من ذكره، فذكر المحبوب هو الغالب على قلوب المحبين لا يريدون به بدلاً ولا يبغون عنه حولاً، ولو قطعوا عن ذكر محبوبهم لفسد عيشهم، وما تلذذ المتلذذون بشيء ألذ من ذكر المحبوب. انتهى.

فالمحبون قد اشتغلت قلوبهم بلزوم ذكر المحبوب عن اللذات، وانقطعت أوهامهم عن عارض دواعي الشهوات، ورقت إلى معادن الذخائر وبغية الطلبات، وربما تزايد وجد المحب، وهاج الحنين وباح الأنين، وتحركت المواجيد، وتغير اللون، واستبسلت الجوارح، وفتر البدن واقشعر الجلد، وربما صاح، وربما بكى، وربما شهق وربما وَله وربما سقط، ولسيدي محمد وفا:

إذا أباح دم المهجور هاجره ... باح المحب بما تخفي ضمائره
أيكتم الحب صب باح مدمعه ... لما جرى بالذي تخفي سرائره
كأنما قلبه أجفان مقلته ... ودمعه في أماقيه خواطره
يا جيرة الجزع هل من جيرة لفتى ... عليه في حكمه قد جار جائره

آه وكم لي على خطب الهوى خطب — من الغرام به تعلو منابره
مهفهف أبلج بدر على غصن — تخفي البدور إذا لاحت بوادره
مطرز الخد بالريحان في ضرج — مورد آسه تزهو أزاهره
مكحل الخلق ما تحصى خصائصه — منضر الحسن قد قلت نظائره

وربما زاد الوجد على المحب فقتله. أول نقد أثمان المحبة بذل الروح، فما للمفلس الجبان وسَوْمها؟! بدم المحب يباع وصلهم، تالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فينفقها بالنسيئة المعسرون، لقد أسيمت للعرض في سوق من يزيد، فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون وقام المحبون ينظرون أيهم يصلح أن يكون ثمناً فدارت السلعة بينهم ووقعت في يد **﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾** [المائدة: ٥٤].

فذكره ﷺ جلاء قلوبنا، وشفاء صدورنا، وحلاوة ألسنتنا في جميع الحالات، على اختلاف الأوقات والساعات، يتشرّف بذكره في جميع العبادات، وفي الجمع والجماعات، والخطب والصلوات، وسائر التقلبات والتصرفات، حتى في المعاطاة والمبايعات، وعقود المصالحات، واستفتاح المعاقدات والمعاهدات، وخصوصاً عند الأذكار والدعوات، فإن بها وُلُوجها في أبواب الإجابات.

ومن علامات محبته ﷺ تعظيمه عند ذكره، وإظهار الخشوع والخضوع والإنكسار مع سماع اسمه، فكل من أحب شيئاً خضع له، كما كان كثير من الصحابة بعده إذا ذكروه خشعوا واقشعرت جلودهم وبكوا، وكذلك كان كثير من التابعين فمن بعدهم يفعلون ذلك محبة وشوقاً وتهيباً وتوقيراً. قال أبو إبراهيم التجيبي[1]: واجب على كل مؤمن متى ذكره، أو ذكر عنده، أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته، ويأخذ في هيبته وإجلاله، بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه ويتأدب بما أدبنا الله به.

وكان أيوب السختياني[2] إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى نرحمه. وكان جعفر بن محمد كثير الدعابة والتبسم، فإذا ذكر النبي ﷺ اصفر لونه. وكان عبد الرحمن بن القاسم إذا ذكر النبي ﷺ ينظر إلى لونه كأنه قد نزف منه الدم، وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول

(١) هو إسحاق بن إبراهيم بن مسرة أبو إبراهيم التجيبي (٢٥٧ ـ ٣٥٢ هـ) فقيه مالكي. توفي بطليطلة في رجب لعشر بقين منه. انظر الديباج المذهب ١/ ٢٩٦ ومعجم المؤلفين ٢/ ٢٢٩ وفيه قول باختلاف وفاته فقيل (٣٥٤) وكشف الظنون (١٤٦٧) وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٠/ ١٦٣.

(٢) هو أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني البصري أبو بكر (٦٦ ـ ١٣١ هـ). تابعي فقيه زاهد من حفاظ الحديث. الاعلام ٢/ ٣٨ حلية الأولياء ٣/ ٣ رقم الترجمة (٢٠١).

الله ﷺ. وكان عبد الله بن الزبير إذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع. وكان الزهري من أهنأ الناس وأقربهم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنك ما عرفته ولا عرفك. وكان صفوان بن سليم من المتعبدين المجتهدين، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه.

وكان قتادة إذا سمع الحديث، أخذه البكاء والعويل والزويل. أشار إلى ذلك القاضي عياض(١). ومن علامات محبته ﷺ كثرة الشوق إلى لقائه، إذ كل حبيب يحب لقاء حبيبه. ولبعضهم: المحبة الشوق إلى المحبوب، وعن معروف الكرخي(٢): المحبة ارتياح الذات لمشاهدة الصفات، أو مشاهدة أسرار الصفات، فيرى بلوغ السؤل ولو بمشاهدة الرسول. ولهذا كانت الصحابة رضي الله عنهم إذا اشتد بهم الشوق وأزعجتهم لواعج المحبة قصدوا رسول الله ﷺ واشتفوا بمشاهدته، وتلذذوا بالجلوس معه والنظر إليه والتبرك به ﷺ.

وعن عبدة بنت خالد بن معدان(٣): ما كان خالد يأوي إلى فراش إلا وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار يسميهم ويقول: هم أصلي وفصلي، وإليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم، فعجل رب قبضي إليك حتى يغلبه النوم. ولما احتضر بلال نادت امرأته، واحَرَّباه فقال: واطرباه، غداً ألقى الأحبة، محمداً وصحبه. إذا ذاق المحب طعم المحبة اشتاق وتأججت نيران الحب والطلب في قلبه، ويجد الصبر عن محبوبه من أعظم كبائره كما قيل:

والصبر يحمد في المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يحمد

وعن زيد بن أسلم(٤): خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة يحرس فرأى مصباحاً في بيت فإذا عجوز تنفش صوفاً وتقول:

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ٢/ ٤٢.

(٢) هو معروف بن فيروز الكرخي أبو محفوظ. زاهد متصوف. ولد ببغداد وتوفي فيها سنة (٢٠٠ هـ). الاعلام ٧/ ٢٦٩ طبقات الصوفية ٨٣ وفيات الاعيان ٢/ ١٠٤ صفة الصفوة ٢/ ١٧٩ طبقات الحنابلة ١/ ٣٨١ تاريخ بغداد ١٣/ ١٩٩.

(٣) هو خالد بن معدان بن أبي كرب الكلاعي أبو عبد الله. تابعي عابد. أصله من اليمن وأقام في حمص الشام توفي سنة (١٠٤ هـ) الاعلام ٢/ ٢٩٩ وتاريخ دمشق ٥/ ٨٦.

(٤) هو زيد بن أسلم العدوي العمري أبو أسامة أو أبو عبد الله فقيه مفسر توفي سنة (١٣٦ هـ). الاعلام ٣/ ٥٦ تذكرة الحفاظ ١/ ١٣٢ رقم الترجمة (١١٨).طبقات المفسرين للداوودي ١/ ١٨٢ رقم الترجمة (١٧٥) شذرات الذهب ١/ ١٩٤.

علـــى محمـــد صـــلاة الأبـــرار صلـــى عليـــه الطيبـــون الأخيـــار
قـد كنـت قـوامـاً بكـاء بـالأسحـار يـا ليـت شعـري والمنـايـا أطـوار
هل تجمعني وحبيبي الدار

تعني النبي ﷺ، فجلس عمر يبكي[1]، ثم قام إلى باب خيمتها فقال: السلام عليكم، ثلاث مرات فقال لها: أعيدي علي قولك، فأعادته بصوت حزين، فبكى وقال لها: وعمر لا تنسينه يرحمك الله، فقالت: وعمر فاغفر له يا غفار.

ويحكى أنه رؤيت امرأة مسرفة على نفسها، بعد موتها، فقيل لها: ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لي، قيل: بماذا؟ قالت بمحبتي للنبي ﷺ وشهوتي النظر إليه، فنوديت: من اشتهى النظر إلى حبيبنا فنستحي أن نذله بعتابنا، بل نجمع بينه وبين من يحبه.

ومن علامات محبته ﷺ حب القرآن الذي أتى به، واهتدى به وتخلق به، وإذا أردت أن تعرف ما عندك وعند غيرك من محبة الله ورسوله فانظر محبة القرآن من قلبك، والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإنه من المعلوم أن من أحب محبوباً كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه، كما قيل:

إن كنـــت تـــزعـــم حبـــي فلـــم هجـــرت كتـــابـــي
أمـــا تـــأملـــت مـــا فيـ ـــه مـــن لـــذيـــذ خطـــابـــي

ويروى أن عثمان بن عفان قال: لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه. قال النبي ﷺ لعبد الله بن مسعود: «اقرأ علي» قال: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ فقال «إني أحب أن أسمعه من غيري». فاستفتح وقرأ سورة النساء حتى بلغ ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ [النساء: ٤١] قال: «حسبك»، فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله ﷺ تذرفان من البكاء.[2] رواه البخاري..

وهذا يجده من سمع الكتاب العزيز بأذن قلبه، قال الله تعالى: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ٢/٢٢؛

(٢) أخرجه البخاري بألفاظ متقاربة في كتاب فضائل القرآن باب (٣٢) رقم الأحاديث (٥٠٤٩ ـ ٥٠٥٠ ـ ٥٠٥٥ ـ ٥٠٥٦). ومسلم برقم ٢٤٧ و ٢٤٨ والترمذي برقم (٣٠٢٥) وابن ماجه برقم (٤١٩٤) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ٣٨٠ و ٤٣٣ والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٢٣١ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٢١٩٥) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٤/٤٩٨ والسيوطي في الدر المنثور ٢/ ١٦٣ وأبي نعيم في حليته ٧/ ٢٠٣ وأبو داود في سننه برقم (٣٦٦٨) والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٨٢٦).

إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾ [المائدة: ٨٣]. قال صاحب «عوارف المعارف» ـ أذاقنا الله حلاوة مشربه ـ: هذا السماع هو السماع الحق، الذي لا يختلف فيه اثنان من أهل الإيمان، محكوم لصاحبه بالهداية، وهذا سماع ترد حرارته على برد اليقين، فتفيض العين بالدمع، لأنه تارة يثير حزناً، والحزن حار، وتارة يثير شوقاً، والشوق حار، وتارة يورث ندماً، والندم حار، فإذا أثار السماع هذه الصفات، من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين بكى وأبكى، لأن الحرارة والبرودة إذا اضطربتا عصرتا ماء، فإذا ألمَّ السماع بالقلب تارة يخف إلمامه فيظهر أثره في الجسد ويقشعر منه الجلد، قال الله تعالى: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾ [الزمر: ٢٣]، وتارة يعظم وقعه ويتصوب أثره ـ أي يقصد ـ نحو الدماغ فتندفق منه العين بالدمع، وتارة يتصوب أثره إلى الروح، فتموج منه الروح موجاً، ويكاد يضيق عنه نطاق القالب، فيكون من ذلك الصياح والاضطراب، وهذه كلها أحوال يجدها أربابها من أصحاب الأحوال.

وقد كان ابن عمر، رضي الله عنهما، ربما مر بآية في ورده فتخنقه العبرة ويسقط ويلزم البيت اليوم واليومين حتى يعاد ويحسب مريضاً.

وقد كان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى الأشعري يقولون: يا أبا موسى ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يسمعون.

فلمحبي السماع القرآني من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني، فإذا رأيت الرجل ذوقه ووجده وطربه ونشأته في سماع الأبيات دون سماع الآيات، وفي سماع الألحان دون سماع القرآن كما قيل: نقرأ عليك الختمة وأنت جامد كالحجر، وبيت من الشعر ينشد تميل كالنشواني، فاعلم أن هذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله ورسوله، أدام الله لنا حلاوة محبته، ولا سلك بنا في غير سبيل سنته، بمنه ورحمته.

ومن علامات محبته ﷺ محبة سنته، وقراءة حديثه، فإن من دخلت حلاوة الإيمان في قلبه إذا سمع كلمة من كلام الله تعالى، أو من حديث رسوله ﷺ تشربتها روحه وقلبه ونفسه، ويقول:

أشم منك نسيماً لست أعرفه ... أظن لمياء جرت فيك أردانا[1]

---

(١) لمياء: صفة لأنثى قامت بشفتها اللمى، وهي سمرة تستحسن، والأردان جمع ردن: ثوب خز وغزل.

فتعمه تلك الكلمة وتشمله، فتصير كل شعرة منه سمعاً، وكل ذرة منه بصراً، فيسمع الكل بالكل ويبصر الكل بالكل ويقول:

لـي حبيـب خيـالـه نصـب عينـي ... سـره فـي ضمـائـري مـدفـون
إن تـذكـرتـه فكلـي قلـوب ... أو تـأملتـه فكلـي عيـون

فحينئذ يستنير قلبه، ويشرق سره، وتتلاطم عليه أمواج التحقيق عند ظهور البراهين، ويرتوي بري عطف محبوبه، الذي لا شيء أروى لقلبه من عطفه عليه، ولا شيء أشد للهيبه وحريقه من إعراضه عنه، ولهذا كان عذاب أهل النار باحتجاب ربهم عنهم أشد عليهم من العذاب الجسماني، كما أن نعيم أهل الجنة برؤيته تعالى وسماع خطابه ورضاه وإقباله أعظم من النعيم الجسماني، لا حرمنا الله ذوق حلاوة هذا المشرب.

ومن علامات محبته ﷺ أن يلتذ محبه بذكره الشريف ويطرب عند سماع اسمه المنيف، وقد يوجب له ذلك سكراً يستغرق قلبه وروحه وسمعه. وسبب هذا السكر اللذة القاهرة للعقل، وسبب اللذة إدراك المحبوب ﷺ، فإذا كانت المحبة قوية وإدراك هذا المحبوب قوياً كانت اللذة بإدراكه تابعة لقوة هذين الأمرين. فإن كان العقل قوياً مستحكماً لم يتغير لذلك، وإن كان ضعيفاً حدث السكر المخرج له عن حكمه. وقد حدوا السكر بأنه: سقوط التمالك في الطرب، كأنه يبقى في السكران بقية يلتذ بها ويطرب، فلا يتمالك صاحبها، ولا يقدر أن يفنى معها.

وقد يكون سبب السكر قوة الفرح بإدراك المحبوب، بحيث يختلط كلامه وتتغير أفعاله، بحيث يزول عقله ويعربد أعظم من عربدة شارب الخمر. وربما قتله سكر هذا الفرح بسبب طبيعي، وهو انبساط دم القلب وهلة واحدة انبساطاً غير معتاد، والدم هو حائل الحار الغريزي، فيبرد القلب بسبب انبساط الدم عنه فيحدث الموت

ومن هذا قول سكران الفرح ـ بوجود راحلته في المفازة بعد أن استشعر الموت ـ: اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة فرحه[1]، وسكرة الفرح فوق سكرة الشراب

---

(١) إعلم أن الله واجب تعظيمه في حال الرضا وفي حال الغضب. ويحرم الاستخفاف به في الحالين. وعلى هذا أجمع المسلمون. ولذلك لا يوجد في الكتب المؤلفة في المذاهب الأربعة التفريق بين من يسب الله تعالى في حال الرضا ومن يسب في حال الغضب في الحكم بالتكفير، ولم يوجد من أحد منهم استثناء لحالة الغضب!. وإنما استثنوا الحالات الثلاث المعلومة وهي:

١ ـ من نطق بكلمة الكفر في حال الاكراه بالقتل ونحوه.

٢ ـ وحال غيبوبة العقل.

فصور في نفسك حال فقير معدم، عاشق للدنيا أشد العشق، ظفر بكنز عظيم، فاستولى عليه آمناً مطمئناً، كيف تكون سكرته؟ أو من غاب عنه غلامه بمال عظيم مدة سنين، حتى أضرَّ به العدم، فقدم عليه من غير انتظار له بماله كله، وقد كسب أضعافه، كيف تكون سكرته؟

ومن أقوى أسباب ما نحن فيه سماع الأصوات المطربة بالإنشادات بالصفات النبوية المغربة المعربة إذا صادفت محلاً قابلاً فلا تسأل عن سكرة السامع، وهذا السكر يحدث عندها من جهتين: إحداهما أنها في نفسها توجب لذة قوية ينغمر منها العقل، الثانية: أنها تحرك النفس إلى نحو محبوبها وجهته، فتحصل بتلك الحركة والشوق والطلب مع التخيل للمحبوب واحضاره في النفس، وإدناء صورته إلى القلب واستيلائها على الفكرة لذة عظيمة تغمر القلب، فتجتمع لذة الألحان ولذة الأشجان، فتسكر الروح سكراً عجيباً أطيب وألذ من سكر الشراب، وتحصل له به نشأة ألذ من نشأة الشراب.

وقد ذكر الإمام أحمد وغيره: أن الله تعالى يقول لداود: مجدني بذلك الصوت الذي كنت تمجدني به في الدنيا، فيقول: كيف وقد أذهبته فيقول: أنا أرده عليك، فيقوم عند ساق العرش ويمجده، فإذا سمع أهل الجنة صوته استفرغ نعيم أهل الجنة. وأعظم من ذلك: إذا سمعوا كلام الرب جل جلاله وخطابه لهم، فإذا انضاف إلى ذلك رؤية وجهه الكريم الذي يغنيهم للذة رؤيته عن رؤية الجنة ونعيمها، فأمر لا تدركه العبارة ولا تحيط به الإشارة، وهذه صفة لا تلج كل أذن، وصيب لا تحيا به كل أرض، وعين لا يشرب منها كل وارد، وسماع لا يطرب عليه كل سامع، ومائدة لا يجلس عليها كل طفيلي، أشار إليه في المدارج.

فمن اتصف بهذه العلامات التي ذكرتها فهو كامل المحبة لله ورسوله، ومن خالف بعضها فهو ناقص المحبة، ولا يخرج عن اسمها بدليل قوله ﷺ للذي حده في الخمر - لما لعنه بعضهم وقال: ما أكثر ما يؤتى به - فقال: ﷺ«لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»[1]، فيخبر أنه يحب الله ورسوله مع وجود ما صدر عنه. وفيه الرد على من زعم

= ٣ - وحال سبق اللسان. ومعلوم أن سبق اللسان يحصل في حال الرضا والغضب. وهذه الحالات الثلاث رداً على بعض الجاهلين المتعالين القائلين أن سب الله تعالى لا يكون كفراً إذا صدر في حال الغضب والعياذ بالله.

راجع الفتاوى الخانية روضة الطالبين، الشفا للقاضي عياض وقد ذكر في آخر كتابه جملة من الألفاظ المكفرة فليراجع من أراد الاستزادة.

(١) ذكره ابن سعد في طبقاته ٣/ ٣٧٥ وعبد الرزاق في مصنفه (١٣٥٥٢ - ١٧٠٨٢) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٩/ ٦٢٠ والمتقي الهندي في كنز العمال (١٣٧٤٩).

أن مرتكب الكبيرة كافر، لثبوت النهي عن لعنه، وثبوت الأمر بالدعاء له. وفيه أنه لا تنافي بين ارتكاب النهي وثبوت محبة الله ورسوله في قلب المرتكب، وأن من تكررت منه المعصية لا تنزع منه محبة الله ورسوله. ويحتمل أن يكون استمرار ثبوت محبة الله ورسوله في قلب العاصي مقيداً بما إذا ندم على وقوع المعصية، أو إذا أقيم عليه الحد، فكفر عن ذنبه المذكور، بخلاف من لم يقع منه ذلك فإنه يخشى بتكرار الذنب أن ينطبع على قلبه حتى يسلب منه ذلك الحب، نسأل الله العفو والثبات على محبته وسلوك سنته برحمته ومنّه.

تنبيه: قد اختلف العلماء، أيما أرفع درجة المحبة أو درجة الخلة؟

فحكى القاضي عياض: أن بعضهم جعلهما سواء، فلا يكون الحبيب إلا خليلاً، ولا الخليل إلا حبيباً، لكنه خص إبراهيم بالخلة ومحمداً ﷺ بالمحبة، وقال بعضهم: درجة الخلة أرفع واحتج بقوله ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر»[1] فلم يتخذه وقد أطلق المحبة لفاطمة وابنيها وأسامة. انتهى.

وهذا هو الظاهر من المعنى الأخص، لأن المحبة مأخوذة من معنى الخلة، لكن يرد ما روي في قصة الإسراء في مناجاته ﷺ لربه تعالى حيث قال له تعالى: يا محمد سل، فقال: يا رب إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليماً، فقال له تعالى: ألم أعطك خيراً من هذا. إلى قوله: واتخذتك حبيباً، أو ما في معناه، رواه البيهقي. بنحوه، وهذا يعطي أن درجة المحبة أرفع.

وقد احتج من قال بتفضيل مقام المحبة على الخلة بفروق كثيرة، ذكر القاضي عياض في الشفاء منها نقلاً عن الإمام أبي بكر بن فورك عن بعض المتكلمين نبذة:

منها: أن الخليل يصل بالواسطة، من قوله تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾ [الأنعام: ٧٥]، والحبيب يصل إليه به، من قوله تعالى: ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ [النجم: ٩].

ومنها: أن الخليل قال: ﴿ولا تخزني﴾ [الشعراء: ٨٧]، والحبيب قيل له: ﴿يوم لا يخزي الله النبي﴾ [التحريم: ٨].

ومنها: أن الخليل قال في المحنة: ﴿حسبي الله﴾ [الزمر: ٣٨ والتوبة: ١٢٩] والحبيب قيل له: ﴿يا أيها النبي حسبك الله﴾ [الأنفال: ٦٤].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٦٥٤) والسيوطي في الحاوي للفتاوى ٢/٥٤ والقاضي عياض في الشفا ١/٤١٢ وابن كثير في البداية والنهاية ٥/٢٢٩ وابن الجوزي في الموضوعات ١/٣٦٧.

ومنها: أن الخليل هو الذي تكون مغفرته في حد الطمع، من قوله: ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ [الشعراء: ٨٢]، والحبيب الذي مغفرته في حد اليقين، من قوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: ٢].

وفي كتابي «تحفة السامع والقاري بختم حجج البخاري» وجوه أخر غير ما حكاه القاضي عياض.

وفي كلها نظر واضح كما بينته في حاشية الشفاء، وذلك أن مقتضى الفرق بين الشيئين أن يكون في حد ذاتيهما، يعني باعتبار مدلولي «خليل» و «حبيب» وما حكاه القاضي عياض، وذكرته في التحفة، يقتضي تفضيل ذات محمد ﷺ ذات إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. لا يقال باعتبار ثبوت وصف الخلة له فيلزم ذلك. لأنا نقول: كل منهما ثابت له وصف الخلة والمحبة. إذ لا يسلب عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وصف المحبة لا سيما والخلة أخص من المحبة، ولا يسلب عن نبينا ﷺ وصف الخلة لا سيما وقد ثبت في حديث أبي هريرة قول الله تعالى له: (إني اتخذتك خليلاً)[1]. وقد قام الإجماع على فضل نبينا ﷺ على جميع الأنبياء، بل هو أفضل خلق الله تعالى مطلقاً.

أما قوله: إن الخليل يصل بالواسطة فلا يفيد غرضاً في هذا المقام الذي هو بصدده، وليس المراد به قطعاً إلا الوصول إلى المعرفة، إذ الوصول الحسي يمتنع على الله تعالى.

وأما قوله: والحبيب يصل إليه به، فالوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا به حبيباً كان أو خليلاً. وأما قوله: الخليل هو الذي تكون مغفرته في حد الطمع الخ... فإنه لا يصح أن يكون على جهة التفسير للخليل، ولا تعلق له بمعناه. وقصارى ما ذكره: أنه يعطي تفضيل نبينا ﷺ على إبراهيم عليه الصلاة والسلام في حد ذاته من غير نظر إلى ما جعله علة معنوية في ذلك من وصف المحبة والخلة. والحق: أن الخلة أعلى وأكمل وأفضل من المحبة.

قال ابن القيم: وأما ما يظنه بعض الغالطين أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله ومحمداً حبيب الله فمن جهله. فإن المحبة عامة والخلة خاصة والخلة نهاية المحبة. قال: وقد أخبر النبي ﷺ أن الله اتخذه خليلاً، ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب وغيرهم. وأيضاً فإنه تعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب المتقين ويحب المقسطين، وخلته خاصة بالخليلين. قال: وإنما هذا من قلة العلم والفهم عن الله ورسوله. انتهى.

---

(١) عن أبي هريرة في المعراج.

وقال الشيخ بدر الدين الزركشي في شرحه لبردة الأبوصيري: وزعم بعضهم أن المحبة أفضل من الخلة وقال: محمد حبيب الله وإبراهيم خليل الله. وضعف: بأن الخلة خاصة، وهو توحيد المحبة، والمحبة عامة، قال الله تعالى: ﴿إن الله يحب التوابين﴾ [البقرة: ٢٢٢] قال: وقد صح أن الله اتخذ نبينا خليلاً فقال: إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً. انتهى.

تنبيه: والخليل مشتق من الخلة - بالفتح - وهي الحاجة، أو الخلة - بالضم - وهي المودة الحاصلة، أو من الخلل، قال ثعلب سمي خليلاً لأن مودته تتخلل القلب، وأنشد:

قـــد تخللـــت مسلـــك الـــروح منـــي وبـــــدا سمـــــي الخليـــــل خليـــــلا

وقال الراغب: الخلة - بالفتح -: الاختلال العارض للنفس، إما لشهرتها بشيء أو لحاجتها إليه، ولهذا فسّر الخلة بالحاجة، والخلة - بالضم - إما لأنها تتخلل النفس أو تتوسطها، وإما لأنها تخل النفس فتؤثر فيها تأثير السهم في الرمية، وإما لفرط الحاجة إليها.

الفصل الثاني
في حكم الصلاة عليه والتسليم فريضة وسنة وفضيلة وصفة ومحلاً

قال الله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [الأحزاب: ٥٦]. قال أبو العالية: معنى صلاة الله على نبيه ثناؤه عليه عند الملائكة، ومعنى صلاة الملائكة عليه الدعاء.

قال في فتح الباري: وهذا أولى الأقوال، فيكون معنى صلاة الله تعالى عليه ثناؤه عليه وتعظيمه، وصلاة الملائكة وغيرهم طلب ذلك له من الله تعالى، والمراد طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة. وعن ابن عباس: أن معنى صلاة الملائكة الدعاء بالبركة. وروى ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان[1] قال: صلاة الله مغفرته وصلاة الملائكة الاستغفار.

---

(١) هو مقاتل بن حيان النبطي أبو بسطام البلخي الخراز. حافظ. انظر تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٤ رقم الترجمة (١٦٨) وطبقات المفسرين للداوودي ٢/ ٣٢٩ رقم الترجمة (٦٤١) وميزان الاعتدال ٤/ ١٧١.

وقال الضحاك بن مزاحم: صلاة الله رحمته، وفي رواية عنه: مغفرته، وصلاة الملائكة الدعاء. أخرجهما إسماعيل القاضي عنه، وكأنه يريد الدعاء بالمغفرة ونحوها. وقال المبرد: الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة رقة تبعث على استدعاء الرحمة.

وتعقب: بأن الله غاير بين الصلاة والرحمة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ [البقرة: ١٥٧]، ولذلك فهم الصحابة المغايرة من قوله تعالى: ﴿صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [الأحزاب: ٥٦] حتى سألوه عن كيفية الصلاة مع تقدم ذكر «الرحمة» في تعليم السلام، حيث جاء بلفظ: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وأقرهم النبي ﷺ، فلو كانت الصلاة بمعنى الرحمة لقال لهم، قد علمتم ذلك في السلام. وجوز الحليمي أن تكون الصلاة بمعنى السلام عليه، وفيه نظر. وقيل: صلاة الله على خلقه تكون خاصة وتكون عامة، فصلاته على أنبيائه هي ما تقدم من الثناء والتعظيم، وصلاته على غيرهم الرحمة، فهي التي وسعت كل شيء.

وحكى القاضي عياض: عن بكر القشيري أنه قال: الصلاة على النبي ﷺ من الله تشريف وزيادة تكرمة، وعلى من دون النبي رحمة. وبهذا يظهر الفرق بين النبي ﷺ وبين سائر المؤمنين حيث قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وقال قبل ذلك في السورة المذكورة: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ومن المعلوم أن القدر الذي يليق بالنبي ﷺ من ذلك أرفع مما يليق بغيره. والإجماع منعقد على أن في هذه الآية من تعظيم النبي ﷺ والتنويه به ما ليس في غيرها.

وقال الحليمي في «الشعب»، معنى الصلاة على النبي ﷺ تعظيمه، فمعنى قولنا: اللهم صل على محمد، عظم محمداً، والمراد تعظيمه في الدنيا بإعلاء ذكره وإظهار دينه وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بإجزال مثوبته، وتشفيعه في أمته، وإبداء فضيلته بالمقام المحمود، وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى ﴿صلوا عليه﴾ [الأحزاب: ٥٦] ادعوا ربكم بالصلاة عليه. انتهى. ولا يعكر عليه عطف آله وأزواجه وذريته عليه، فإنه لا يمتنع أن يدعى لهم بالتعظيم إذ تعظيم كل أحد بحسب ما يليق به.

وما تقدم عن أبي العالية أظهر، فإنه يحصل به استعمال لفظ الصلاة بالنسبة إلى الله تعالى، وإلى ملائكته وإلى المؤمنين المأمورين بذلك بمعنى واحد، ويؤيده أنه لا خلاف في جواز الترحم على غير الأنبياء: واختلف في جواز الصلاة على غير الأنبياء، ولو كان معنى قولنا: اللهم صل على محمد: ارحم محمداً، أو ترحم على محمد، جاز لغير الأنبياء، وكذا لو كان بمعنى البركة، وكذلك الرحمة، لسقط الوجوب في التشهد عند من

يوجبه بقول المصلي في التشهد: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. ويمكن الانفصال عنه بأن ذلك وقع بطريق التعبد فلا بد من الاتيان به، ولو سبق الاتيان بما يدل عليه. فإن قلت: في أي وقت وقع الأمر بالصلاة عليه ﷺ؟

فالجواب ـ كما قال أبو ذر الهروي ـ: أنه وقع في السنة الثانية من الهجرة، وقيل ليلة الإسراء، وقيل: إن شهر شعبان شهر الصلاة على رسول الله ﷺ، لأن آية الصلاة ـ يعني ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ [الأحزاب: ٥٦] نزلت فيه. والله أعلم.

قال الحليمي: والمقصود بالصلاة عليه ﷺ التقرب إلى الله تعالى بامتثال أمره تعالى، وقضاء حق النبيّ ﷺ علينا. وتبعه ابن عبد السلام، فقال في الباب الثامن من كتابه المسمى «بشجرة المعارف»[(١)]: ليست صلاتنا على النبي ﷺ شفاعة له، فإن مثلنا لا يشفع لمثله، ولكن الله أمرنا بمكافأة من أحسن إلينا، فإن عجزنا عنها كافأناه بالدعاء، فأرشدنا الله ـ لما علم عجزنا عن مكافأة نبينا ـ إلى الصلاة عليه. وذكر نحوه عن الشيخ أبي محمد المرجاني. وقال ابن العربي: فائدة الصلاة عليه ترجع إلى الذي يصلي عليه، لدلالة ذلك على نصوح العقيدة وخلوص النية، وإظهار المحبة، والمداومة على الطاعة والاحترام للواسطة الكريمة ﷺ.

واختلف في حكم الصلاة عليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على أقوال:

أحدها: أنها تجب في الجملة بغير حصر، لكن أقل ما يحصل به الإجزاء مرة.

الثاني: يجب الإكثار منها، من غير تقييد بعدد، قاله القاضي أبو بكر بن بكير[(٢)] بن المالكية، وعبارته ـ كما قاله القاضي عياض ـ: افترض الله تعالى على خلقه أن يصلوا على نبيه ﷺ ويسلموا تسليماً، ولم يجعل ذلك لوقت معلوم، فالواجب أن يكثر المرء منها ولا يغفل عنها.

الثالث: تجب كل ما ذكر، قاله الطحاوي وجماعة من الحنفية، والحليمي، وجماعة من الشافعية، وقال ابن العربي: إنه الأحوط، وكذا قاله الزمخشري. واستدلوا لذلك بحديث: (من ذكرت عنده فلم يصل علي فمات فدخل النار فأبعده الله) أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة. وحديث: (رغم أنف من ذكرت عنده فلم يصل علي) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، وصححه الحاكم. وحديث: (شقي عبد ذكرت عنده فلم يصل علي) أخرجه الطبراني من حديث جابر. لأن الدعاء بـ «الرغم والإبعاد والشقاء»

---

(١) انظر كشف الظنون ٢/١٠٢٧.

(٢) انظر أخبار القضاة لوكيع ٣/٣٢١.

يقتضي الوعيد، والوعيد على الترك من علامات الوجوب. ومن حيث المعنى: إن فائدة الأمر بالصلاة عليه مكافأته على إحسانه، وإحسانه مستمر، فتتأكد إذا ذكر.

واستدلوا أيضاً: بقوله تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ [النور: ٦٣] فلو كان إذا ذكر لا يصلى عليه كان كآحاد الناس وأجاب من لم يوجب ذلك بأجوبة، منها:

أنه قول لا يعرف عن أحد من الصحابة ولا التابعين، فهو مخترع. ولو كان ذلك على عمومه للزم المؤذن إذا أذن أن يصلي عليه، وكذا سامعه، وللزم القارىء إذا مر بآية فيها ذكره ﷺ في القرآن، وللزم الداخل في الإسلام إذا تلفظ بالشهادتين ولكان في ذلك من المشقة والحرج ما جاءت الشريعة السمحة المطهرة بخلافه، ولكان الثناء على الله تعالى كلما ذكر أحق بالوجوب، ولم يقولوا به.

وقد أطلق القدوري[1] وغيره من الحنفية: أن القول بوجوب الصلاة كلما ذكر مخالف للإجماع المنعقد قبل قائله، لأنه لا يحفظ عن أحد من الصحابة أنه خاطب النبي ﷺ فقال: يا رسول الله صلى الله عليك، ولأنه لو كان كذلك لما تفرغ لعبادة أخرى.

وأجابوا عن الأحاديث: بأنها خرجت مخرج المبالغة في تأكيد ذلك وطلبه، وفي حق من اعتاد ترك الصلاة عليه ديدنا. وبالجملة: فلا دلالة على تكرر وجوب ذلك بتكرر ذكره ﷺ في المجلس الواحد، انتهى ملخصاً، والله أعلم.

، الرابع: في كل مجلس مرة ولو تكرر ذكره مراراً. حكاه الزمخشري.

الخامس: في كل دعاء، حكاه أيضاً.

السادس: أنها من المستحبات، وهو قول ابن جرير الطبري، وادعى الإجماع على ذلك، واحتج على ذلك مع ورود صيغة الأمر بذلك، بالاتفاق من جميع المتقدمين والمتأخرين من علماء الأمة، أن ذلك غير مستلزم فرضيتها حتى يكون تارك ذلك عاصياً، فدل على أن الأمر فيه للندب، ويحصل الامتثال لمن قاله ولو كان خارج الصلاة.

قال في فتح الباري: وما ادعاه من الإجماع معارض بدعوى غيره الإجماع على مشروعية ذلك في الصلاة، إما بطريق الوجوب، وإما بطريق الندب، ولا يعرف عن السلف لذلك مخالف، إلا ما أخرجه ابن أبي شيبة والطبراني عن إبراهيم النخعي أنه كان يرى أن قول المصلي في التشهد: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته مجزىء عن

---

(١) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان أبو الحسين القدوري (٣٦٢ ـ ٤٢٨ هـ) فقيه حنفي ولد ومات في بغداد. الاعلام ١/ ٢١٢ وفيات الأعيان ١/ ٢١ النجوم الزاهرة ٥/ ٢٤.

الصلاة، ومع ذلك: إنما ادعى إجزاء السلام عن الصلاة.

السابع: تجب في العمر مرة في الصلاة أو غيرها، ككلمة التوحيد، قاله أبو بكر الرازي من الحنفية.

الثامن: تجب في الصلاة من غير تعيين المحل، ونقل ذلك عن أبي جعفر الباقر.

التاسع: تجب في التشهد، وهو قول الشعبي وإسحاق بن راهويه.

العاشر: تجب في القعود آخر الصلاة، بين قول التشهد وسلام التحلل، قاله الشافعي ومن تبعه. واستدل لذلك بما رواه أصحاب السنن، وصححه الترمذي وابن خزيمة والحاكم عن أبي مسعود البدري: أنهم قالوا يا رسول الله: أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا عليك في صلاتنا فقال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد» الحديث. ومعنى قولهم: أما السلام عليك فقد عرفناه، هو الذي في التشهد، الذي كان قد علمهم إياه كما يعلمهم السورة من القرآن. وفيه: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، ورواه الشافعي في مسنده عن أبي هريرة بمثله. وقد احتج بهذه الزيادة جماعة من الشافعية، منهم ابن خزيمة، والبيهقي، لإيجاب الصلاة عليه ﷺ بعد التشهد وقبل السلام.

وقال الشافعي في الأم: فرض الله الصلاة على رسول الله ﷺ بقوله: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [الأحزاب: ٥٦] ولم يكن فرض الصلاة عليه في موضع أولى منه في الصلاة، ووجدنا الدلالة عن النبي ﷺ بذلك: أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثنا صفوان بن سليم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أنه قال: يا رسول الله، كيف نصلي عليك - يعني في الصلاة - قال: «تقولون اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم» الحديث. أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثني سعيد بن إسحاق ابن كعب بن عجرة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ أنه كان يقول في الصلاة: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم» الحديث.

قال الشافعي: فلما روي أن النبي ﷺ كان يعلمهم التشهد في الصلاة، وروي أنه علمهم كيف يصلون عليه في الصلاة، لم يجز أن نقول: التشهد في الصلاة واجب والصلاة فيه غير واجبة.

وقد تعقب بعض المخالفين هذا الاستدلال من أوجه:

أحدها: ضعف إبراهيم بن محمد بن أبي يحيـى، والكلام فيه مشهور.

الثاني: على تقدير صحته فقوله في الأول: يعني في الصلاة، لم يصرح بالقائل «يعني».

الثالث: قوله في الثاني: «أنه كان يقول في الصلاة» وإن كان ظاهره أن المراد الصلاة المكتوبة، لكنه يحتمل أن يكون المراد بقوله في الصلاة، أي في صفة الصلاة عليه، وهو احتمال قوي، لأن أكثر الطرق عن كعب بن عجرة يدل على أن السؤال وقع عن صفة الصلاة لا عن محلها.

الرابع: ليس في الحديث ما يدل على تعيين ذلك في التشهد، خصوصاً بينه وبين السلام. وقد أطنب قوم من متأخري المالكية وغيرهم في التشنيع على الشافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة وزعم أنه تفرد بذلك.

وحكى الإجماع على خلافه جماعة، منهم أبو جعفر الطبري والطحاوي وابن المنذر والخطابي.

وحكى القاضي عياض في الشفاء مقالاتهم. وقد عاب عليه غير واحد، وقالوا: كان ينبغي سكوته عنها، لأن مبنى تأليفه «الشفاء» على كمال المبالغة في تعظيمه ﷺ، وأداء حقوقه، والقول بوجوب الصلاة عليه في الصلاة من غرض المبالغة في تعظيمه، وقد استحسن هو القول بطهارة فضلاته، مع أن الأكثر على خلافه، لكنه استجاده لما فيه من الزيادة في تعظيمه، وكيف ينكر القول بوجوب الصلاة عليه وهو من جنس الصلاة ومقتضياتها، وإذا شرع السلام فيها على نفس المصلي وعلى عباد الله الصالحين، فكيف لا تجب الصلاة على سيد المرسلين؟

وقد انتصر جماعة كثيرة من العلماء الأعلام للشافعي، كالحافظ عماد الدين بن كثير، والعلامة ابن القيم، وشيخ الإسلام والحفاظ أبي الفضل بن حجر، وتلميذه شيخنا الحافظ والعلامة أبي أمامة بن النقاش وغيرهم ممن يطول عدهم.

واستدلوا لذلك بأدلة نقلية ونظرية، ودفعوا دعوى الشذوذ، فنقلوا القول بالوجوب عن جماعة من الصحابة، منهم ابن مسعود، وأبو مسعود والبدري وجابر بن عبد الله، ونقله أصحاب الشافعي عن عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، ومن التابعين: الشعبي، فيما رواه البيهقي كما سيأتي، وأبو جعفر الباقر، ومقاتل.

وأخرج الحاكم ـ بسند قوي ـ عن ابن مسعود قال: يتشهد الرجل ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يدعو لنفسه. قال الحافظ ابن حجر: وهذا أقوى شيء يحتج به للشافعي، فإن ابن مسعود ذكر أن النبي ﷺ علمهم التشهد في الصلاة، وأنه قال: ثم ليتخير من

الدعاء ما شاء، فلما ثبت عن ابن مسعود الأمر بالصلاة عليه قبل الدعاء، دل على أنه اطلع على زيادة ذلك بين التشهد والدعاء، واندفعت حجة من تمسك بحديث ابن مسعود في دفع ما ذهب إليه الشافعي وادعى مثل ما ذكره القاضي عياض قال، وهذا تشهد ابن مسعود الذي علمه له النبي ﷺ ليس فيه ذكر الصلاة عليه.

وفي جزء الحسن بن عرفة، وأخرج المعمري[1] في عمل اليوم والليلة عن ابن عمر ـ بسند جيد ـ قال: لا تكون صلاة إلا بقراءة وتشهد وصلاة عليّ. وأخرج البيهقي في الخلافيات ـ بسند قوي ـ عن الشعبي، وهو من كبار التابعين، قال: كنا نُعلم التشهد، فإذا قال: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، يحمد ربه ويثني عليه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل حاجته. وفي حديث أبي جعفر، عن ابن مسعود، مرفوعاً: «من صلى صلاة لم يصل فيها علي وعلى أهل بيتي لم تقبل منه». قال الدارقطني: والصواب أنه من قول أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين: لو صليت صلاة لم أصل فيها على النبي ﷺ وعلى أهل بيته لرأيت أنها لا تتم، لكن راويه عن أبي جعفر جابر الجعفي وهو ضعيف. كذا في الشفاء.

وقد وافق الشافعي من فقهاء الأمصار أحمد في إحدى الروايتين عنه، وعمل به أخيراً، كما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقي[2]، فيما ذكره الحافظ ابن كثير، وأوجب إسحاق بن راهويه الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان، والمشهور عن أحمد أنها تبطل بتركها عمداً أو سهواً، وعليه أكثر أصحابه، حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال في الصلاة عليه: صلى الله عليه وسلم، كما علمهم أن يقولوا لما سألوه، كما ذكره ابن كثير، ووافق الخرقي[3] إسحاق في التقييد بالعمد دون السهو.

والخلاف أيضاً عند المالكية كما ذكره ابن الحاجب في سنن الصلاة، ثم قال: على الصحيح، فقال شارحه ابن عبد السلام: يريد أن في وجوبها قولين، وهو ظاهر كلام

---

(١) هو الحسن بن علي بن شبيب المعمري أبو علي. قاض من حفاظ الحديث. توفي ببغداد سنة (٢٩٥ هـ). الاعلام ٢/ ٢٠٠ تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٦٧ رقم الترجمة (٦٨٧) تاريخ بغداد ٧/ ٣٦٩ العبر ٢/ ١٠١.

(٢) هو عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري أبو زرعة الدمشقي حافظ من رجال الحديث توفي في دمشق سنة (٢٨٠ هـ). الاعلام ٣/ ٣٢٠ تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٢٤ رقم الترجمة (٦٥١) شذرات الذهب ٢/ ١٧٧ النجوم الزاهرة ٣/ ٨٧ العبر ٢/ ٦٥ التهذيب ٦/ ٢٣٦.

(٣) هو عمر بن الحسين بن عبد الله الخرقي أبو القاسم فقيه من الحنابلة توفي في دمشق سنة (٣٣٤ هـ). الاعلام ٥/ ٤٤ وفيات الاعيان ١/ ٣٧٩ النجوم الزاهرة ٣/ ١٧٨ تاريخ بغداد ١١/ ٢٣٤ مفتاح السعادة ١/ ٤٣٨.

الإمام ابن المواز[١] وبه صرح عنه ابن القصار[٢]، وعبد الوهاب[٣]، كما في الشفاء بلفظ: إنه يراها فريضة في الصلاة كقول الشافعي، قال: وحكى أبو يعلى العبدي[٤] عن المذهب فيها ثلاثة أقوال في الصلاة: الوجوب، والسنة، والندب. ورأيت مما يعزى للقاضي أبي بكر بن العربي في «سراج المريدين»[٥]: قال ابن المواز والشافعي: الصلاة على النبي ﷺ من فرائض الصلاة وهو الصحيح. انتهى.

وقد يلزم القائل الحنفية بوجوب الصلاة عليه كلما ذكر كالطحاوي، ونقله السروجي[٦] في شرح الهداية عن أصحاب المحيط والعقد والتحفة من كتبهم أن يقولوا بوجوبها في التشهد لتقدم ذكره ﷺ في آخر التشهد في قوله: وأشهد أن محمداً رسول الله، لكن لهم أن يلتزموا ذلك ولا يجعلونه شرطاً في صحة الصلاة. ولم يخالف الشافعي أحد من أصحابه في ذلك. بل قال بعض أصحابنا بوجوب الصلاة على الآل، كما حكاه البندنيجي[٧] والدارمي، ونقله إمام الحرمين والغزالي قولاً عن الشافعي، قال الحافظ ابن كثير: والصحيح أنه وجه، على أن الجمهور على خلافه، والقول بوجوبه ظهور للحديث.

وأما مخالفة الخطابي من أصحاب الشافعي فلا يعتد به لمقتضى الآمر المحمول

---

(١) هو محمد بن إبراهيم بن زياد المواز أبو عبد الله فقيه مالكي توفي سنة (٢٨١ هـ). الاعلام ٥/ ٢٩٤ شذرات الذهب ٢/ ١٧٧ الوافي بالوفيات ١/ ٣٣٥.

(٢) هو علي بن أحمد البغدادي المعروف بابن القصار أبو الحسن فقيه أصولي قاض توفي سنة (٣٩٨ هـ). انظر الديباج ٢/ ١٠٠ وترتيب المدارك ٤/ ٦٠٢ وفيه أن وفاته سنة (٣٧٨ هـ) وشجرة النور الزكية ١/ ١٩٢ ايضاح المكنون ٢/ ١٣٣.

(٣) هو عبد الوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي أبو محمد (٣٦٢ ـ ٤٢٢ هـ) قاض فقيه مالكي. ولد في بغداد وتوفي في مصر. الاعلام ٤/ ١٨٤ فوات الوفيات ٢/ ٤١٩ رقم الترجمة (٣١٤) وفيات الأعيان ٢/ ٣٨٧ شذرات الذهب ٣/ ٢٢٣ تاريخ بغداد ١١/ ٣١ النجوم الزاهرة ٤/ ٢٧٦ مرآة الجنان ٣/ ٤١ ترتيب المدارك ٤/ ٦٩١ الديباج ٢/ ٢٦ شجرة النور الزكية ١/ ١٠٣ حسن المحاضرة ١/ ٣١٤ البداية والنهاية ١٢/ ٣٢.

(٤) هو أحمد بن محمد أبو يعلى العبدي من البصرة إمام المالكية في وقته. الديباج المذهب ١/ ١٧٥ الصلة ١/ ٨٧.

(٥) انظر كشف الظنون ٢/ ٩٨٤.

(٦) هو الإمام أحمد بن إبراهيم السروجي أبو العباس قاضي مصر حنفي المذهب توفي سنة (٧١٠ هـ) انظر كشف الظنون ٢/ ٢٠٣٣.

(٧) هو محمد بن هبة الله بن ثابت أبو نصر البندنيجي (٤٠٧ ـ ٤٩٥ هـ) فقيه شافعي يعرف بفقيه الحرم. وفاته باليمن. الاعلام ٧/ ١٣٠ كشف الظنون ٥٧٥ هدية العارفين ٢/ ٧٨ معجم المؤلفين ١٢/ ٨٩.

على الوجوب إجماعاً، وأولى أحواله الصلاة ولا مانع من احتمال كونه مراداً. وأما قوله: ولا أعلم له فيها قدوة، فيقال عليه: لا ريب أن الشافعي قدوة يقتدى به، والمقام مقام اجتهاد، فلا افتقار له فيه إلى غيره. وأما قوله في «الشفاء»: والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة عمل السلف الصالح قبل الشافعي وإجماعهم عليه. ففيه نظر، لأنه إن أراد بالعمل الاعتقاد فيحتاج إلى نقل صريح عنهم بأن ذلك ليس بواجب، وأنى يوجد ذلك؟

وأما قوله: وقد شنع الناس عليه - يعني الشافعي - في هذه المسألة جداً، فلا معنى له، وأي شناعة في ذلك؟ ولم يخالف فيه نصاً ولا إجماعاً ولا قياساً ولا مصلحة راجحة. بل القول بذلك من محاسن مذهبه، ولا ريب أن القائل بجواز ترك الصلاة على أفضل خلق الله في الصلاة التي هي رأس العبادة المطلوب فيها الخضوع واستحضار شارعها والثناء عليه أولى بالتشنيع. وأما نقله الإجماع فقد تقدم ما فيه. وأما قوله: إن الشافعي اختار تشهد ابن مسعود، فلم يقل به أحد، والشافعي إنما اختار تشهد ابن عباس كما سيأتي إن شاء الله تعالى في مقصد عباداته.

وقد استدل للوجوب بما أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وصححه، وكذا ابن خزيمة وابن حبان والحاكم من حديث فضالة بن عبيد قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو في صلاته، لم يحمد الله ولم يصل على النبي ﷺ فقال: «عجل هذا»، ثم دعاه إليه فقال: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بالحمد لله والثناء عليه، ثم ليصل على النبي ﷺ ثم ليدع بما شاء»[1].

قلت: ومما يعد من كرامات إمامنا الشافعي وسره الساري، أن القاضي عياضاً ساق هذا الحديث بسنده من طريق الترمذي من غير أن يطعن في سنده بعد قوله: «فصل في المواطن التي تستحب فيها الصلاة على النبي ﷺ ويرغب» من ذلك: في تشهد الصلاة، وذلك بعد التشهد وقبل الدعاء. وهذا الحديث - كما ترى - من أعظم الأدلة لنا. فإن قال قائل: ليس لكم فيه دلالة لأنه قال: سمع فيه رجلاً يدعو في صلاته، ولم يقل في تشهده.

فيجاب: بأنه يلزم على هذا أن القاضي عياضاً ساقه في غير محله، لأنه عقد

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٣٤٧٧) وفي سنن أبي داود برقم (١٤٨١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٨/٦ وفي المستدرك للحاكم ١/ ٢٣٠ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٤٨/٢ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٨/ ٣٠٧ وفي نصب الراية للزيلعي ١/ ٤٢٦ و ٢/ ٢٧٢ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٧٧/٣ وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ٤١ وفي موارد الظمآن للهيثمي (٥١٠).

الفصل ـ كما قدمته ـ لبيان مواطن استحباب الصلاة. ثم قال: ومن ذلك في تشهد الصلاة.

وفي «مصابيح» البغوي، من حديث فضالة بن عبيد هذا ما يدل على أنه كان في التشهد، ولفظه: قال دخل رجل فقال اللهم اغفر لي وارحمني، فقال رسول الله ﷺ: «عجلت أيها المصلي، إذا صليت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله، ثم صل عليّ، ثم ادعه»[1].

وفي قوله: «عجلت» استلواح فوات الكمال عن الحقيقة المجزئة، إذ لو كانت مجزئة لما حسن اللوم والتعليم بصيغة الأمر، فإن قيل إنه في مقام تعليم المستحبات إذ لو كان في الواجبات لأمره بالإعادة، كما أمر المسيء صلاته، فيجاب: بأن في قوله هذا غنية عن الأمر بالإعادة، لأنه حيث علمه ما هو الواجب علم قطعاً أنه لم يأت به أولاً فلم يكن آتياً به فوجبت إعادته، وهم أهل الفهم والعرفان. فإن قال: إن قوله «فقعدت» يحتمل أن يكون عطفاً على مقدر، تقديره: إذا صليت وفرغت فقعدت للدعاء فاحمد الله.

فيجاب: بأن الأصل عدمه، وإنما هو عطف على المذكور، أي: إذا كنت في الصلاة فقعدت للتشهد فاحمد الله، أي أثن عليه بقولك، التحيات لله الخ والله أعلم.

وقال الجرجاني من الحنفية وغيره: لو كانت فرضاً للزم تأخير البيان عن وقت الحاجة، لأنه ﷺ علمهم التشهد وقال: «فليتخير من الدعاء ما شاء، ولم يذكر الصلاة عليه».

وأجيب: باحتمال أن لا تكون فرضت حينئذ. وقال الحافظ زين الدين العراقي في شرح الترمذي: قد ورد هذا الصحيح بلفظ: ثم ليتخير، و «ثم» للتراخي، فدل على أنه كان هناك شيء بين التشهد والدعاء، انتهى. وقد أطنب الشيخ أبو أمامة بن النقاش في تفسيره في الانتصار للشافعي في هذه المسألة، مما يطول ذكره، فالله يثيبه على قصده الجميل.

وأما صفة الصلاة عليه ﷺ، (فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية؟ إن النبي ﷺ خرج علينا، فقلنا يا رسول الله، قد علمنا

---

(١) الحديث في النسائي ٣/ ٤٤ وفي الترمذي (٣٤٧٦) وفي المعجم الكبير للطبراني ١٨/ ٣٠٨ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ١٥٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٩٣٠) وفي الترغيب والترهيب ٢/ ٤٨٧ وفي كنز العمال (٣٤٦١).

كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي. فإن قلت: كيف يطابق قوله: (اللهم صل على محمد) قول: (كما صليت على آل إبراهيم)؟

أجاب القاضي عياض: بأن «آل» مقحم، كما في قوله ﷺ في أبي موسى: «إنه أعطي مزماراً من مزامير آل داود»[1]، ولم يكن له آل مشهور بحسن الصوت. وقد روى هذا الحديث ابن أبي حاتم بلفظ: لما نزلت ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [الأحزاب: ٥٦] قال: قلنا يا رسول الله، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبرهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد». وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول: وعلينا معهم.

وعن أبي حميد الساعدي: (أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»)[2] رواه الإمام أحمد.

وعن أبي مسعود الأنصاري قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة فقال له بشر بن سعد أمرنا الله أن نصلي عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم»، رواه مالك ومسلم وغيرهما.

فإن قلت: ما موقع التشبيه في قوله: (كما صليت على إبراهيم)، مع أن المقرر أن المشبه دون المشبه به؟ والواقع هنا عكسه، لأن محمداً ﷺ وحده أفضل من إبراهيم ومن آل إبراهيم، ولا سيما وقد أضيف إليه آل محمد، وقضية كونه أفضل أن تكون الصلاة

---

(١) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن برقم (٥٠٤٨) ومسلم كتاب المسافرين برقم (٢٣٥) والترمذي في المناقب (٥٥) وابن ماجه في الاقامة برقم (١٣٤١). والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٣٦٩ و ٤٥٠ و ٥/ ٣٤٩.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٤٢٤.

المطلوبة له أفضل من كل صلاة حصلت أو تحصل لغيره. فقد أجاب العلماء عنه بأجوبة كثيرة:

منها: أنه ﷺ قال ذلك قبل أن يعلم أنه أفضل من إبراهيم. وقد أخرج مسلم حديث أنس: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا خير البرية، قال: «ذاك إبراهيم»[1]. وتعقب: بأنه لو كان كذلك لغير صيغة الصلاة عليه بعد أن علم أنه أفضل.

ومنها: أنه قال ذلك تواضعاً، وشرع ذلك لأمته ليكتسبوا بذلك الفضيلة.

ومنها: أن التشبيه إنما هو لأصل الصلاة بأصل الصلاة، لا للقدر بالقدر، فهو كقوله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح﴾ [النساء: ١٦٣]، وهو كقول القائل: أحسن إلى ولدك كما أحسنت إلى فلان، ويريد بذلك أصل الإحسان لا قدره، ومنه قوله تعالى: ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ [القصص: ٧٧]، ورجح هذا القول القرطبي في «المفهم»[2].

ومنها: أن قوله: (اللهم صلى على محمد) مقطوع عن التشبيه، فيكون التشبيه متعلقاً بقوله: (وعلى آل محمد) وتعقب: بأن غير الأنبياء لا يمكن أن يساووا الأنبياء، فكيف يطلب لهم صلاة مثل الصلاة التي وقعت لإبراهيم والأنبياء من آله. ويمكن الجواب عنه: بأن المطلوب الثواب الحاصل لهم، لا جميع الصفات التي كانت سبباً للثواب.

وقد نقل العمراني[3] في «البيان»[4] عن الشيخ أبي حامد أنه نقل هذا الجواب عن نص الشافعي. واستبعد ابن القيم صحة ذلك عن الشافعي، لأنه مع فصاحته ومعرفته بلسان العرب لا يقول هذا الكلام المستلزم هذا التركيب الركيك البعيد من كلام العرب،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب (٤١) رقم الحديث (١٥٠) وأبو داود برقم (٤٦٧٢) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١٧٨/٣ و ١٨٤ وابن أبي شيبة في مصنفه ٥١٨/١١ والبيهقي في دلائل النبوة ٤٩٧/٥ والسيوطي في الدر المنثور ١١٦/١ والقاضي عياض في الشفا ٢٦٥/١ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٤٨٩٦) والقرطبي في تفسيره ٤٩/١٠ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٥٧٢).

(٢) كتاب المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي المتوفي سنة (٦٥٦ هـ). انظر كشف الظنون ٥٥٧/١.

(٣) هو يحيى بن سالم (أبي الخير) بن أسعد بن يحيى أبو الحسين العمراني (٤٨٩ ـ ٥٥٨ هـ) فقيه الشافعية في بلاد اليمن. توفي بذي سيفال باليمن. الاعلام ١٤٦/٨ مرآة الجنان ٣٠٨/٣ طبقات الشافعية الكبرى ٤/ ٣٢٤ وفيه اختلاف بسيط في اسمه.

(٤) انظر كشف الظنون ١/ ٢٦٤.

كذا قال. وتعقبه الحافظ ابن حجر فقال: ليس التركيب المذكور ركيكاً، بل التقدير: اللهم صل على محمد وصل على آل محمد كما صليت الخ، فلا يمتنع الشبيه بالجملة الثانية.

ومنها: رفع المقدمة المذكورة أولاً، وهي أن المشبه به يكون أرفع من المشبه، وأن ذلك ليس مطرداً، بل قد يكون التشبيه بالمثل، بل بالدون، كما في قوله تعالى: ﴿مثل نوره كمشكاة﴾ [النور: ٣٥]، وأين يقع نور المشكاة من نوره تعالى؟ ولكن لما كان المراد من المشبه به أن يكون شيئاً ظاهراً واضحاً للسامع حسن تشبيه النور بالمشكاة، وكذا هنا: لما كان تعظيم إبراهيم وآل إبراهيم بالصلاة عليهم مشهوراً واضحاً عند جميع الطوائف حسن أن يطلب لمحمد وآل محمد بالصلاة عليهم مثل ما حصل لإبراهيم وآل إبراهيم، ويؤيد ذلك ختم الطلب المذكور بقوله (في العالمين) أي كما أظهرت الصلاة على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين، ولهذا لم يقع (في العالمين) إلا في ذكر إبراهيم دون ذكر آل محمد على ما وقع في الحديث الذي وردت فيه، وهو حديث أبي مسعود الأنصاري الذي ذكرته.

وهذا معنى قول الطيبي: وليس التشبيه المذكور من باب إلحاق الناقص بالكامل، لكن من باب إلحاق ما لم يشتهر بما اشتهر. وقال النووي: أحسن الأجوبة ما نسب إلى الشافعي: أن التشبيه لأصل الصلاة أو للمجموع بالمجموع.

وقال ابن القيم ـ بعد أن زيف أكثر الأجوبة إلا تشبيه المجموع بالمجموع ـ: وأحسن منه أن يقال: هو ﷺ من آل إبراهيم. وقد ثبت ذلك عن ابن عباس في تفسير قوله: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم آل عمران على العالمين﴾ [آل عمران: ٣٣] قال: محمد من آل إبراهيم، فكأنه أمرنا أن نصلي على محمد وعلى آل محمد خصوصاً بقدر ما صلينا عليه مع إبراهيم وآل إبراهيم عموماً، فيحصل لآله ما يليق بهم، ويبقى الباقي كله له، وذلك القدر أزيد مما لغيره من آل إبراهيم. وتظهر حينئذ فائدة التشبيه، وأن المطلوب له بهذا اللفظ أفضل من المطلوب بغيره من الألفاظ.

وقال الحليمي: سبب هذا التشبيه أن الملائكة قالت في بيت إبراهيم: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ [هود: ٧٣] وقد علم أن محمداً وآل محمد من أهل بيت إبراهيم، فكأنه قال: قولوا اللهم أجب دعاء الملائكة الذين قالوا ذلك في محمد وآل محمد كما أجبتها عندما قالوها في آل إبراهيم الموجودين حينئذ، ولذلك ختم بما ختم به الآية وهو قوله إنك حميد مجيد.

ومما يعزى للعارف الرباني أبي محمد المرجاني أنه قال: وسر قوله ﷺ (كما صليت على إبراهيم، وكما باركت على إبراهيم) ولم يقل: كما صليت على موسى، لأن موسى عليه الصلاة والسلام كان التجلي له بالجلال، فخر موسى صعقاً، والخليل إبراهيم كان التجلي له بالجمال، لأن المحبة والخلة من آثار التجلي بالجمال؛ فلهذا أمرهم صلوات الله وسلامه عليه أن يصلوا عليه كما صلى على إبراهيم، فيسألوا له التجلي بالجمال، وهذا لا يقتضي التسوية فيما بينه وبين الخليل صلوات الله وسلامه عليهما، لأنه إنما أمرهم أن يسألوا له التجلي بالوصف الذي تجلى به للخليل عليه الصلاة والسلام، فالذي يقتضيه الحديث المشاركة في الوصف الذي هو التجلي بالجمال، ولا يقتضي التسوية في المقامين ولا الرتبتين، فإن الحق سبحانه يتجلى بالجمال لشخصين بحسب مقاميهما، وإن اشتركا في وصف التجلي بالجمال، فيتجلى لكل واحد منهما بحسب مقامه عنده، ورتبته منه ومكانته، فيتجلى للخليل عليه الصلاة والسلام بالجمال بحسب مقامه، ويتجلى لسيدنا محمد ﷺ بالجمال بحسب مقامه، فعلى هذا يفهم الحديث. انتهى. فإن قلت: ما المراد بآل محمد في هذا الحديث؟

فالجواب: إن الراجح أنهم من حرمت عليهم الصدقة، كما نص عليه الشافعي، واختاره الجمهور، ويؤيده قوله ﷺ للحسن بن علي: («إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة»)[1] وقيل: المراد بآل محمد أزواجه وذريته. وقيل: المراد بهم جميع الأمة أمة الإجابة. حكاه أبو الطيب الطبري عن بعض الشافعية، ورجحه النووي في شرح مسلم، وقيده القاضي حسين بالانقياد منهم، وعليه يحمل كلام من أطلق، ويؤيده ما رواه تمام في فوائده، والديلمي عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ: من آل محمد؟ فقال: «كل تقي من أمة محمد»، زاد الديلمي: ثم قرأ: ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾ [الأنفال: ٣٤]، وإسنادهما ضعيف، لكن ورد ما يشهد لذلك في الصحيحين كحديث (إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين) انتهى ملخصاً.

وقد استدل العلماء بتعليمه ﷺ لأصحابه هذه الكيفية بعد سؤالهم عنها، بأنها أفضل كيفيات الصلاة عليه، لأنه لا يختار لنفسه إلا الأشرف الأفضل. ويترتب على ذلك: أنه لو حلف أن يصلي على النبي ﷺ أفضل الصلاة، فطريق البر أن يأتي بذلك، هكذا صوبه النووي في «الروضة»، بعد ذكر حكاية الرافعي عن إبراهيم المروزي أنه قال: يبر إذا قال: كلما ذكره الذاكرون، وكلما سها عن ذكره الغافلون. قال النووي: وكأنه أخذ ذلك

---

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٠٠ و ٣/ ٤٩٠ و ٦/ ٣٩٠ وفي المعجم الكبير للطبراني ٣/ ٧٦ و ١١/ ٦٩ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٢١٥.

من كون الشافعي ذكر هذه الكيفية ـ يعني في خطبة «الرسالة» له ـ ولكن بلفظ «غفل» بدل «سها».

وقال الأذرعي: «إبراهيم» المذكور كثير النقل من تعليقة القاضي حسين، ومع ذلك فالقاضي قال في طريق البر؛ أن يقول: اللهم صل على محمد كما هو أهله ويستحقه، وكذا نقله البغوي في تعليقه. ولو جمع بينها فقال ما في الحديث، وأضاف إليه أثر الشافعي، وما قاله القاضي لكان أشمل. ولو قيل: إنه يعمد إلى جميع ما اشتملت عليه الروايات الثابتة فيستعمل منها ذكراً يحصل به البر لكان حسناً.

وعن ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا تشهد أحدكم في الصلاة فليقل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمداً وآل محمد، كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[1]، رواه الحاكم. وقد يستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي ﷺ، كما هو قول الجمهور، ويعضده حديث الأعرابي الذي قال: اللهم ارحمني وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً، فقال له رسول الله ﷺ «لقد تحجرت واسعاً»[2] وحكى القاضي عياض عن جمهور المالكية منعه قال: وأجازه أبو محمد بن أبي زيد. انتهى. وسيأتي ما في ذلك من البحث إن شاء الله تعالى في المقصد التاسع عند الكلام على التشهد.

وعن سلامة الكندي أن علياً كان يعلم الناس الدعاء ـ وفي لفظ: يعلم الناس الصلاة على رسول الله ﷺ ـ فيقول: اللهم داحي المدحوات، وبارىء المسموكات، اجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك، ورأفة تحننك، على محمد عبدك ورسولك، الفاتح لما أغلق، الخاتم لما سبق، والمعلن الحق بالحق، والدامغ لجيشات الأباطيل، كما حمّل فاضطلع بأمرك بطاعتك، مستوفزاً في مرضاتك، واعياً لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً على نفاذ أمرك، حتى أورى قبساً لقابس آلاء الله، تصل بأهله أسبابه، به هديت القلوب، بعد خوضات الفتن والإثم، وأبهج موضحات الأعلام، ونائرات الأحكام، ومنيرات الإسلام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك نعمة ورسولك بالحق رحمة، اللهم افسح له في عدنك، واجزه مضاعفات الخير

---

(١) قال المصنف في المقصد التاسع: «اغتر قوم بتصحيحه فوهموا لأنه من رواية يحيى بن السباق وهو مجهول عن رجل مبهم».

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣٨٠) والنسائي ٣/ ٢٤ والترمذي برقم (١٤٧) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٢/ ٢٣٩ و ٢٨٣ والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٤٢٨ والحميدي في مسنده (٩٣٨) وعبد الرزاق في مصنفه (١٦٥٨) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٩٩ ـ ٤٩٣٦).

من فضلك، مهنئات له غير مكدرات، من فوز ثوابك المحلول، وجزيل عطائك المعلول، اللهم أعلِ على بناء الناس بناءه، وأكرم مثواه لديك ونزله، وأتمم له نوره، واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة، ومرضي المقالة، ذا منطق عدل، وخطة فصل، وبرهان عظيم. حديث موقوف، رواه الطبراني لكن قال الحافظ ابن كثير: في سنده نظر، قال: وقال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي(1): سلامة الكندي هذا ليس بمعروف، ولم يدرك علياً، كذا قال.

وقوله: «داحي المدحوات»: أي باسط الأرضين، وكل شيء بسطته ووسعته فقد دحوته. «وبارىء المسموكات»: أي خالق السماوات، وكل شيء رفعته وأعليته فقد سمكته. «والدافع لجيشات الأباطيل»: أي المهلك لما نجم وارتفع منها وفار. وأصل «الدمغ» من الدماغ، دمغه: أصاب دماغه، و «جيشات» من جاش إذا ارتفع. «واضطلع»: افتعل من الضلاعة، وهي القوة. «وأورى قبساً لقابس»: أي أظهر نوراً من الحق لطالبه. «وآلاء الله»: نعم الله. «تصل بأهله»: أي أهل ذلك القبس وهو الإسلام والحق أسبابه، وأهله المؤمنون. «وبه هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم»: أي هديت بعد الكفر والفتن لموضحات الأعلام. «ونائرات» و «المنيرات»: الواضحات، يقال: نار الشيء، وأنار إذا وضح. «وشهيدك يوم الدين»: يريد الشاهد على أمته يوم القيامة. «وبعيثك نعمة»: أي مبعوثك، فعيل بمعنى مفعول. «وافسح له»: أي وسع له. «وفي عدنك»: أي في جنة عدن. «والمعلول»: من العلل وهو الشرب بعد الشرب، يريد أن إعطاءه مضاعف، كأنه يعل به عباده، أي: يعطيهم عطاء بعد عطاء. «وأعل على بناء الناس» وفي رواية: البانين، أي ارفع فوق أعمال العاملين عمله. «وأكرم مثواه»: أي منزله. «ونزله»: رزقه. «والخطة»: بضم الخاء المعجمة، الأمر والقصة. «والفصل»: القطع.

وعن عبد الله بن مسعود قال: إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه، فقالوا له علمنا، قال: قولوا اللهم اجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين محمد عبدك

---

(1) هو يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف أبو الحجاج جمال الدين بن الزكي أبي محمد القضاعي المزي. (٦٥٤ ـ ٧٤٢ هـ) محدث حافظ. ولد بظاهر حلب وتوفي في دمشق. الاعلام ٨/٢٣٦ وطبقات الشافعية للإسنوي (١٦٨) الدرر الكامنة ٤/٤٥٧ رقم الترجمة (١٢٦١) النجوم الزاهرة ١٠/٧٦ تذكرة الحفاظ ٤/١٤٩٨ رقم الترجمة (١١٧٦) شذرات الذهب ٦/١٣٦ مفتاح السعادة ٢/٢٢٤.

ورسولك، إمام الخير، ورسول الرحمة، اللهم ابعثه مقاماً محموداً، يغبطه فيه الأولون والآخرون، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. حديث موقوف، رواه ابن ماجة.

وعن رويفع بن ثابت الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: من صلى على محمد، وقال: اللهم أنزله المقعد الصدق المقرب عندك يوم القيامة، وجبت له شفاعتي. رواه الطبراني. قال ابن كثير: وإسناده حسن ولم يخرجوه. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل: اللهم صل على محمد النبي الأمي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد[1]» رواه أبو داود. وعن طاووس: سمعت ابن عباس يقول: اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى، وارفع درجته العليا، وأعطه سؤله في الآخرة والأولى، كما آتيت إبراهيم وموسى. رواه إسماعيل القاضي. قال ابن كثير: وإسناده جيد قوي صحيح. وأما المواطن التي تشرع فيها الصلاة عليه ﷺ:

فمنها: التشهد الأخير، وهي واجبة فيه، كما قدمنا، وفي وجوبها في التشهد الأول قولان، أظهرهما المنع، لبنائه على التخفيف، بل هي سنة، وفي استحباب الصلاة على الآل في التشهد الأول القولان، وفي وجوبها في الأخير رأيان: أصحهما المنع، بل هي سنة تابعة، وأقلها اللهم صل على محمد، وكذا: صلى الله على محمد، وأقلها على الآل: وآله. وقال في «الكفاية» بإعادة «على».

ومنها: خطبة الجمعة، وكذا غيرها من الخطب، فلا تصح خطبتا الجمعة إلا بها، لأنها عبادة، وذكر الله فيها شرط، فوجب ذكر الرسول فيها كالأذان والصلاة، وهذا مذهب الشافعي وأحمد.

ومنها: عقب إجابة المؤذن، لما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاصي، أن رسول الله ﷺ قال: «(إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة)»[2] وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٩٨٢) والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ١٥١ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٣/ ٢٩٠ والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢١٦ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٩٣٢) والمتقي الهندي في كنز العمال (٢١٧٥ ـ ٣٤٨١).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الصلاة برقم (١١) وأبو داود برقم (٥٢٣) والترمذي برقم (٣٦١٤) والنسائي=

حديث كعب بن علقمة، وذكره بلفظ «الرجاء» وإن كان متحقق الوقوع أدباً وإرشاداً منه وتذكيراً بالخوف، وتفويضاً إلى الله بحسب مشيئته، وليكون الطالب للشيء بين الرجاء والخوف. وقوله: «حلت عليه الشفاعة» أي وجبت، وقيل غشيته ونزلت به.

تنبيه: قال شيخنا في «المقاصد الحسنة»: حديث «الدرجة الرفيعة» المدرج فيما يقال بعد الأذان، لم أره في شيء من الروايات، وأصل الحديث عند أحمد والبخاري والأربعة عن جابر مرفوعاً: (من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة)[1]: قال وكأن من زادها اغتر بما وقع في بعض نسخ «الشفاء» من حديث جابر المشار إليه، لكن مع زيادتها في هذه النسخة المعتمدة علم عليها كاتبها بما يشير إلى الشك فيها، ولم يرها في سائر نسخ الشفاء، بل في الشفاء عقد لها فصلاً في مكان آخر ولم يذكر فيه حديثاً صريحاً، وهو دليل لغلطها. انتهى والله أعلم.

ومنها: أول الدعاء وأوسطه وآخره، لما روى أحمد من حديث جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «(لا تجعلوني كقدح الراكب، فإن الراكب يملأ قدحه ثم يضعه ويرفع متاعه فإذا احتاج إلى شراب شرب، أو الوضوء توضأ، وإلا أهراقه، ولكن اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره)»[2].

ومنها: وهو من أكدها، عقب دعاء القنوت، لما رواه أحمد وأهل السنن، وابن جرير وابن حبان والحاكم، من حديث أبي الجوزاء، عن الحسن بن علي قال: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: (اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي

= ٢/ ٢٥ وصحيح خزيمة (٤١٨) والبغوي في شرح السنة ٢/ ٢٨٤ والعراقي في المغني ١/ ٣١٢ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٦٥٧). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٣/ ٦١ و ٥/ ٤٩ والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٠٩٩٨ ـ ٢١٠٠٦).

(١) أخرجه النسائي ٢/ ٢٧ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٣٥٤ والبخاري في كتاب الآذان باب (٨) رقم الحديث (٦١٤ ـ ٤٧١٩). والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٤١٠ والطبراني في المعجم الصغير ١/ ٢٤٠ والمنذري في الترغيب والترهيب ١/ ١٨٥ والبغوي في شرح السنة ٢/ ٢٨٤ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٦٥٩) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٣/ ٦ و ٥/ ٥٠ والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٩٨ والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٠٩٨٦).

(٢) الحديث في مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ١٥٥ وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٤٢ وفي مصنف عبد الرزاق (٣١١٧). وفي تذكرة الموضوعات للفتني (٨٨) وفي كنز العمال (٢٢٥٢ ـ ٣١١٧).

ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، [ولا يعز من عاديت][1] تباركت ربنا وتعاليت)[2] وزاد النسائي في سننه: وصلى الله على النبي، وسيأتي في المقصد التاسع البحث في ذلك إن شاء الله تعالى.

ومنها: أثناء تكبيرات العيدين، لما روى إسماعيل القاضي أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة، خرج عليهم الوليد بن عقبة فقال: إن هذا العيد قد دنا، فكيف التكبير فيه؟ فقال عبد الله: تبتدىء فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة، وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ، ثم تدعو وتكبر، وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع، ثم تقوم فتكبر وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ، ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تركع. فقال حذيفة وأبو موسى صدق أبو عبد الرحمن. قال ابن كثير: إسناده صحيح.

ومنها: عند دخول المسجد والخروج منه، لما رواه أحمد عن فاطمة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد ثم قال: «اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك»، وإذا خرج صلى على محمد ثم قال: «اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك»[3].

ومنها: في صلاة الجنازة، فإن السنة أن يقرأ الفاتحة بعد إحدى التكبيرات، وبعد الأولى أولى، وأن يصلي على النبي ﷺ بعد الثانية، ويدعو للميت بعد الثالثة، وبعد الرابعة يقول: «اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده»[4]. وفي ذلك حديث رواه الشافعي والنسائي.

ومنها: عند التلبية، لما رواه الشافعي والدارقطني عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال: كان يؤمر الرجل إذا فرغ من تلبيته أن يصلي على النبي ﷺ على كل حال.

ومنها: عند الصفا والمروة، لما روى إسماعيل القاضي عن عمر ابن الخطاب أنه قال: إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعاً، وصلوا عند المقام ركعتين، ثم ائتوا الصفا فقوموا عليه من حيث ترون البيت فكبروا سبع تكبيرات، تكبيراً بعد حمد لله وثناء عليه، وصلاة

(١) قال الزرقاني في شرح المواهب: زيادة للطبراني في المعجم الكبير.
(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٩٩/١ و ٢٠٠ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٣٠٠/٢.
(٣) الحديث في ابن ماجه برقم (٧٧١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٨٢/٦ وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٩١/٥ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٤٠٦/١٠ وفي كنز العمال (١٧٩٦٢ ـ ٢٣١٠٩).
(٤) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٧١/٦ وفي إتحاف السادة المتقين ١٠٣/٥ وفي المعجم الكبير للطبراني ٦٠/١٢.

على النبي ﷺ ومسألة لنفسك، وعلى المروة مثل ذلك. قال ابن كثير: إسناده حسن جيد قوي.

ومنها: عند الاجتماع والتفرق، لما روى الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيه إلا كان عليه ترة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم»[1].

وروى إسماعيل القاضي عن أبي سعيد قال: ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب[2].

ومنها: عند الصباح والمساء، لما روى الطبراني من حديث أبي الدرداء مرفوعاً: من صلى علي حين يصبح عشراً، وحين يمسي عشراً، أدركته شفاعتي يوم القيامة»[3].

ومنها: عند الوضوء، لحديث ابن ماجة عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا وضوء لمن لم يصل على النبي ﷺ».

ومنها: عند طنين الأذن، لحديث أبي رافع عند ابن السني مرفوعاً: «إذا طنت أذن أحدكم فليذكرني، وليصل علي وليقل ذكر الله من ذكرني بخير»[4].

ومنها: عند نسيان الشيء، لحديث أبي موسى المديني، بسند فيه ضعف، عن أنس يرفعه: «إذا نسيتم شيئاً فصلوا علي تذكروه إن شاء الله تعالى».

ومنها: بعد العطاس، كما ذهب إليه أبو موسى المديني وجماعة، ونازعهم في ذلك آخرون، وقالوا: هذا موطن يفرد فيه ذكر الله تعالى، كالأكل والشرب والوقاع ونحو ذلك.

ومنها: عند زيارة قبره الشريف، لحديث أبي داود عن أبي هريرة: أن رسول الله

---

(١) الحديث في موارد الظمآن للهيثمي (٢٣٢١) وفي تفسير ابن كثير ٦/ ٤٦٠ وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ٩ وفي شرح السنة للبغوي ٥/ ٢٧ و ٢٨ وفي الترمذي (٣٣٨٠) وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٢١٨ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٤٠٩ وفي كنز العمال (١٨١١ ـ ٢٥٤٦٢).

(٢) روى النسائي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: «لا يجلس قوم مجلساً ثم لا يصلون فيه على رسول الله إلا كان عليهم حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب».

(٣) الحديث في الترغيب والترهيب للمنذري ١/ ٤٥٨ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ١٢٠ وفي المغني للعراقي ١/ ٣٣٨ وفي إتحاف السادة المتقين ٣/ ٢٨٩ و ٥/ ٥١ و١٣٢. وفي كنز العمال (٢١٦٤).

(٤) قال السخاوي: سنده ضعيف وقال العقيلي لا أصل له، وقال ابن الجوزي موضوع. وقال الحافظ الهيثمي: إسناد الطبراني في الكبير حسن.

ﷺ قال: «ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام»[1]. وروى ابن عساكر: «من صلى علي عند قبري سمعته» وورد الأمر بالإكثار منها يوم الجمعة وليلتها، فعن أوس بن أوس الثقفي قال: قال رسول الله ﷺ: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق الله آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فاكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي»، قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت ـ يعني: وقد بليت ـ قال: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»[2]، رواه أحمد وأبو داود والنسائي. وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني.

قال الحافظ ابن كثير: وقد روى البيهقي من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجمعة ويوم الجمعة، ولكن في إسناده ضعف. فإن قلت: ما الحكمة في خصوصية الإكثار من الصلاة عليه ﷺ يوم الجمعة وليلتها؟

أجاب ابن القيم بأن رسول الله ﷺ سيد الأنام، ويوم الجمعة سيد الأيام، فللصلاة عليه فيه مزية ليست لغيره، مع حكمة أخرى، وهي أن كل خير نالته أمته في الدنيا والآخرة فإنما نالته على يده ﷺ، فجمع الله لأمته بين خيري الدنيا والآخرة، وأعظم كرامة تحصل لهم فإنها تحصل لهم يوم الجمعة، فإن فيه بعثهم إلى منازلهم وقصورهم في الجنة، وهو يوم المزيد لهم إذا دخلوا الجنة، وهو يوم عيدهم في الدنيا، ويوم فيه يسعفهم الله تعالى بطلباتهم وحوائجهم، ولا يرد سائلهم، وهذا كله إنما عرفوه وحصل لهم بسببه وعلى يده، فمن شكره وحمده وأداء القليل من حقه ﷺ أن يكثر من الصلاة عليه في هذا اليوم وليلته.

وأما فضيلة الصلاة عليه ﷺ فقد ورد التصريح بها في أحاديث قوية، لم يخرج البخاري منها شيئاً، أمثلها ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ «من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشراً»[3].

---

(١) الحديث في سنن أبي داود في كتاب المناسك برقم (٢٠٤١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/٥٢٧ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٥/٢٤٥ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/١٦٢ وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٤/٤١٩ وفي كنز العمال للمتقي الهندي (٢٢٠٠).

(٢) الحديث في سنن أبي داود برقم (١٠٤٧) وفي النسائي ٣/٩١ وفي سنن ابن ماجه (١٠٨٥ ـ ١٦٣٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/٣١١ و ٤/٨ وفي سنن الدارمي كتاب الصلاة (٢٠٦) وفي مستدرك الحاكم ١/٢٧٨ وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/٣٣٨ وفي موارد الظمآن للهيثمي (٥٥٠) وفي كنز العمال (٢٢٠٢ ـ ٢٢٠٣٧).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة (٧٠) والنسائي ٣/٥٠ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/٣٧٢ وأبو داود (١٥٣٠) وابن أبي شيبة في مصنفه ٢/٥١٧ والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٦٢=

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ لحاجة، فلم يجد أحداً يتبعه، فأتاه عمر بمطهرة من خلفه، فوجد النبي ﷺ ساجداً، فتنحى عنه حتى رفع النبي ﷺ رأسه، فقال: «أحسنت يا عمر حين وجدتني ساجداً فتنحيت عني، إن جبريل أتاني فقال: من صلى عليك من أمتك واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، ورفعه عشر درجات». رواه الطبراني وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح قال ابن كثير: وقد اختار هذا الحديث الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المستخرج على الصحيحين».

وعن أبي طلحة أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى في وجهه، فقالوا: يا رسول الله إنا لنرى السرور في وجهك، فقال: «إنه أتاني الملك فقال: يا محمد، أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول: إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً، قال: بلى»[1]، رواه الدرامي وأحمد وابن حبان والحاكم والنسائي، واللفظ له.

وعن عامر بن ربيعة، أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى علي صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلي علي، فليقلَّ عبد من ذلك أو ليكثر». رواه أحمد وابن ماجه من حديث شعبة.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي: من صلى على رسول الله ﷺ صلاة صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة، فليقل عبد من ذلك أو ليكثر، رواه أحمد. والتخيير بعد الإعلام بما فيه الخيرة في المختبر فيه على جهة التحذير من التفريط في تحصيله، وهو قريب من معنى التهديد. وروى الترمذي، أن أبي ابن كعب قال: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئت»، قلت: الربع؟ قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير لك»، قلت: فالنصف؟ قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير لك»، قلت: فالثلثين؟ قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير لك»، قلت: أجعل لك صلاتي كلها، قال: «إذن تكفى همك، ويغفر ذنبك». ثم قال: هذا حديث حسن.

فهذا ما يتعلق بالصلاة، وأما السلام فقال النووي: يكره إفراد الصلاة عن السلام، واستدل بورود الأمر بهما معاً في الآية، يعني قوله تعالى ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وتعقبوه: بأن النبي ﷺ علم أصحابه التسليم قبل تعليمهم الصلاة، كما هو مصرح به في قولهم: يا

= والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢١٨ وكنز العمال (٢١٦٢ ـ ٢٢٠٦).

(١) الحديث في النسائي ٣/ ٤٤ وفي المستدرك للحاكم ٢/ ٤٢٠ وفي تفسير ابن كثير ٦/ ٤٥٧.

رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك، وقوله ﷺ بعد أن علمهم الصلاة والسلام: «كما قد علمتم»، فأفراد التسليم مدة قبل الصلاة عليه. لكن قال في فتح الباري: إنه يكره أن يفرد الصلاة ولا يسلم أصلاً، أما لو صلى في وقت، وسلم في وقت آخر فإنه يكون ممتثلاً.

وقال أبو محمد الجويني من أصحابنا: السلام بمعنى الصلاة، فلا يستعمل في الغائب ولا يفرد به غير الأنبياء، فلا يقال: علي عليه السلام، سواء في هذا الأحياء والأموات، وأما الحاضر فيخاطب به فيقال: سلام عليك، أو عليكم، أو السلام عليك أو عليكم، وهذا مجمع عليه انتهى.

وقد جرت عادة بعض النساخ أن يفردوا علياً وفاطمة رضي الله عنهما بالسلام، فيقولوا: عليه أو عليها السلام من دون سائر الصحابة في ذلك، وهذا وإن كان معناه صحيحاً لكن ينبغي أن يساوي بين الصحابة رضي الله عنهم في ذلك، فإن هذا من باب التعظيم والتكريم، والشيخان وعثمان أولى بذلك منهما، أشار إليه ابن كثير.

وأما الصلاة على غير النبي ﷺ فاختلف فيها. وأخرج البيهقي بسند واه من حديث بريدة رفعه: «لا تتركن في التشهد الصلاة علي وعلى أنبياء الله». وأخرج إسماعيل القاضي بسند ضعيف من حديث أبي هريرة «صلوا على أنبياء الله». وأخرج الطبراني من حديث ابن عباس رفعه: «إذا صليتم علي فصلوا على أنبياء الله، فإن الله بعثهم كما بعثني».

وثبت عن ابن عباس اختصاص ذلك بالنبي ﷺ. أخرجه ابن أبي شيبة من طريق عثمان عن عكرمة عنه قال: «ما أعلم الصلاة تنبغي على أحد من أحد إلا على النبي ﷺ». وسنده صحيح. وحكي القول به عن مالك، وجاء نحوه عن عمر بن عبد العزيز. وقال سفيان: يكره أن يصلي إلا على نبي. وعن بعض شيوخ مذهب مالك: لا يجوز أن يصلي إلا على محمد. قالوا: وهذا غير معروف عن مالك، وإنما قال: أكره الصلاة على غير الأنبياء وما ينبغي لنا أن نتعدى ما أمرنا به. وخالفه يحيى بن يحيى[1] فقال: لا بأس به، واحتج بأن الصلاة دعاء بالرحمة، فلا تمنع إلا بنص أو إجماع.

وأما الصلاة على غير الأنبياء، فإن كان على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث:

---

(١) هو يحيى بن يحيى بن أبي عيسى كثير بن وسلاس الليثي أبو محمد (١٥٢ ـ ٢٣٤ هـ). فقيه عالم. توفي بقرطبة. الاعلام ٨/ ١٧٦ نفح الطيب ١/ ٣٣٢ وفيات الأعيان ٢/ ٢١٦ الديباج (٣٥٠).

اللهم صل على محمد وآل محمد ونحوه، فهو جائز بالإجماع. وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم.

فقال قائلون بجواز ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ [الأحزاب: ٤٣] وبقوله: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ [البقرة: ١٥٧]، وبقوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم﴾ [التوبة: ١٠٣]، وبحديث عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللهم صل عليهم»، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى». أخرجه الشيخان.

وقال الجمهور من العلماء: لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة، لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال أبو بكر صلى الله عليه وسلم. أو: قال علي صلى الله عليه وسلم، وإن كان المعنى صحيحاً، كما لا يقال: قال محمد عز وجل، وإن كان عزيزاً جليلاً، لأن هذا من شعار ذكر الله عز وجل. وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم، ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبي أوفى. وهذا مسلك حسن.

وقال آخرون: لا يجوز ذلك، لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء، يصلون على من يعتقدون فيهم، فلا يقتدى بهم في ذلك. ثم اختلف المانعون من ذلك: هل هو من باب التحريم، أو كراهة التنزيه، أو خلاف الأولى؟ على ثلاثة أقوال، حكاها النووي في كتاب «الأذكار»، ثم قال: والصحيح الذي عليه الأكثرون، أنه مكروه كراهة تنزيه، لأنه شعار أهل البدع، وقد نهينا عن شعارهم.

الفصل الثالث
في ذكر محبة أصحابه ﷺ وآله وقرابته وأهل بيته وذريته

قال الطبري: اعلم أن الله تعالى لما اصطفى نبيه ﷺ على جميع من سواه، وخصه بما عمه به من فضله الباهر وحباه، أعلى ببركته من انتمى إليه نسباً أو نسبة، ورفع من انطوى عليه نصرة وصحبة، وألزم مودة قرباه كافة بريته، وفرض محبة جملة أهل بيته المعظم وذريته، فقال تعالى: ﴿أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ [الشورى: ٢٣]. ويروي أنها لما نزلت قالوا: يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء؟ قال: «علي وفاطمة وإبناهما»[1]. وقال تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت

(١) قال الولي العراقي: في إسناده حسين الأشقر شيعي مختلف فيه.

ويطهركم تطهيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣]. وقد اختلف في المراد بأهل البيت في هذه الآية:

فروى، ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس قال: نزلت في نساء النبي ﷺ وروى ابن جرير عن عكرمة، أنه كان ينادي في السوق ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ [الأحزاب: ٣٣] قال: نزلت في نساء النبي ﷺ.

قال الحافظ ابن كثير: وهذا يعني: ما في الآية نص في دخول أزواجه ﷺ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً، إما وحده على قول، أو مع غيره على الصحيح. وقيل: المراد النبي ﷺ.

قال عكرمة: من شاء باهلته[1] أنها نزلت في نساء النبي ﷺ. فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن ففي هذا نظر فإنه قد ورد في ذلك أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك. فروى الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ جاء ومعه علي وحسن وحسين آخذ كل واحد منهما بيده، حتى دخل فأدنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه ـ أو قال: كساءه ـ ثم تلا هذه الآية ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ [الإحزاب: ٣٣] وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق». زاد في رواية ابن جرير، فقلت: وأنا يا رسول الله من أهلك، قال: وأنت من أهلي. قال واثلة: وإنها أرجى ما أرتجي.

وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان في بيتها، إذ جاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة، فدخلت عليه بها، فقال: «ادعي زوجك وابنيك» قالت: فجاء علي وحسن وحسين فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وتحته كساء، قالت: وأنا في الحجرة أصلي، فينزل الله عز وجل هذه الآية ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣] قالت: فأخذ فضل الكساء فغشاهم به ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وحامتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»، قالت: فأدخلت رأسي من البيت فقلت وأنا معكم يا رسول الله فقال: «إنك إلى خير، إنك إلى خير»[2] رواه أحمد في إسناده من لم يسم وبقية إسناده ثقات. وقوله: «حامتي» بالتشديد، أي خاصتي.

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: نزلت هذه الآية في خمسة: فيَّ وفي علي

---

(١) باهلته: أي لاعنته. بأن يجعل اللعنة على الكاذب.

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٢٩٢ وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ١٩٨.

وحسن وحسين وفاطمة ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣] رواه ابن جرير، ورواه أحمد في المناقب، والطبراني.

وعن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد أيها الناس، إنما أنا بشر مثلكم، يوشك أن يأتيني رسول ربي عز وجل فأجيبه، وإني تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله عز وجل، فيه الهدى والنور، فتمسكوا بكتاب الله عز وجل، وخذوا به، وحث فيه ورغب فيه ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله عز وجل في أهل بيتي»، ثلاث مرات. فقيل لزيد: من أهل بيته؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قاتل: بلى، إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس. قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم[1]، خرجه مسلم. و«الثقل» محركة كما في القاموس كل شيء نفيس مصون، قال: ومنه حديث (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي)[2]، وهي بكسر المهملة وسكون المثناة الفوقية. والأخذ بهذا الحديث أحرى، وليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هن مع أهله، ولا يشك من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في الآية الكريمة، فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال بعد هذا كله ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ [الأحزاب: ٣٤]. وهذا اختيار ابن عطية[3] بعد أن نقل أن الجمهور على أنهم: علي وفاطمة والحسن والحسين. قال: وحجة الجمهور قوله تعالى: ﴿عنكم، ويطهركم﴾ [الأحزاب: ٣٣] بـ «الميم» ولو كان للنساء خاصة لقال: عنكن.

وأجيب بأن الخطاب بلفظ التذكير وقع على سبيل التغليب، فيكون المراد به كالمراد بـ «آل» في حديث كيفية الصلاة عليه السابق ذكره، على قول من فسره به، كما قدمته مع غيره قريباً في الفصل السابق، والله أعلم. ولله در القائل:

يا آل بيت رسول الله حبكم ... فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم الفضل أنكم ... من لم يصل عليكم لا صلاة له

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة (٣٦). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ٣٦٧ والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ١٤٨ و ٧/ ٣٠ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٦١٣١). والسيوطي في جمع الجوامع (٤٣٤١).

(٢) انظر القاموس المحيط ٣/ ٣٥٣ مادة (ثقل).

(٣) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي (٤٨١ ـ ٥٤٢ هـ) أبو محمد. فقيه مفسر عارف بالأحكام والحديث. توفي «بلورقة» بالأندلس من بلاد تدمير. الاعلام ٣/ ٢٨٢ نفح الطيب ١/ ٥٩٣ قضاة الأندلس ١٠٩ بغية الملتمس (٣٧٦) بغية الوعاة ٢٩٥.

وأخرج أحمد عن أبي سعيد معنى حديث زيد بن أرقم السابق مرفوعاً بلفظ: (إني أوشك أن أدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا بماذا تخلفوني فيهما)[1] وعترة الرجل ـ كما قاله الجوهري ـ : أهله ونسله، ورهطه الأدنون، أي الأقارب. وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: (يا أيها الناس ارقبوا محمداً في أهل بيته) رواه البخاري. والمراقبة للشيء: المحافظة عليه، يقول: احفظوهم فلا تؤذوهم.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ـ كما في البخاري أيضاً ـ (لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي) وهذا قاله على سبيل الاعتذار لفاطمة من منعه إياها ما طلبته منه من تركة النبي ﷺ، وقد جرى منه على موجب الإيمان، لأنه ﷺ شرط الأحبية فيه على النفس والمال والولد، كما ذكرته في الفصل الأول من هذا المقصد. ثم إنه ﷺ أثبت لأقاربه ما أثبت لنفسه من ذلك فقال: «من أحبهم فبحبي أحبهم» وحثنا على ذلك شفقة منه علينا صلوات الله وسلامه عليه وعليهم، ولقد أحسن القائل:

رأيت ولائي آل طه فريضة	على رغم أهل البعد يورثني القربى
فما طلب المبعوث أجرًا على الهدى	بتبليغه إلا المودة في القربى

ـ وفي الترمذي ـ وقال: حديث حسن غريب ـ: «أحبوا الله لما يغذوكم به، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي بحبي»[2]. وفي المناقب لأحمد: من أبغض أهل البيت فهو منافق. وروى ابن سعد: من صنع إلى أحد من أهل بيتي معروفاً، فعجز عن مكافأته في الدنيا، فأنا المكافئ له في يوم القيامة..

والمراد بالقرابة من ينتسب إلى جده الأقرب، وهو عبد المطلب، ممن صحب النبي ﷺ، أو رآه من ذكر وأنثى، وهم:

● علي وأولاده: الحسن والحسين ومحسن وأم كلثوم من فاطمة رضي الله عنها.

● وجعفر بن أبي طالب وأولاده: عبد الله، وعون، ومحمد، ويقال إنه كان لجعفر ابن أبي طالب ابن اسمه أحمد.

---

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٧ وفي طبقات ابن سعد ٢/ ١٥٠ وفي كنز العمال (٩٤٤).

(٢) الحديث في الترمذي (٣٨٧٩) وفي المستدرك للحاكم ٣/ ١٤٩ وفي المعجم الكبير للطبراني ٣/ ٣٩ وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٣/ ٢١١.

● وعقيل بن أبي طالب، وولده مسلم بن عقيل.

● وحمزة بن عبد المطلب، وأولاده: يعلى، وعمارة، وأمامة.

● والعباس بن عبد المطلب، وأولاده الذكور العشرة، وهم: الفضل، وعبد الله، وقثم، وعبيد الله، والحارث، ومعبد، وعبد الرحمن، وكثير، وعون، وتمام، وفيه يقول العباس رضي الله عنه:

تمـــوا بتمـــام فصـــاروا عشـــرة يـــا رب فـــاجعلهـــم كـــرامًـــا بـــررة

ويقال: إن لكل منهم رؤية، وكان له من الإناث: أم حبيبة، وآمنة، وصفية، وأكثرهم من لبابة أم الفضل.

● ومعتب بن أبي لهب، والعباس ابن أبي لهب[1]، وكان زوج آمنة بنت العباس.

● وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب، وأخته ضباعة، وكانت زوج المقداد بن الأسود.

● وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وابنه جعفر.

● ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وابناه: المغيرة والحارث، ولعبد الله بن الحارث هذا رؤية. وكان يلقب «ببة» بموحدتين، الثانية ثقيلة.

● وأميمة وأروى وعاتكة وصفية بنات عبد المطلب، أسلمت صفية وصحبت، وفي الباقيات خلاف، والله أعلم.

وفي البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»[2] وفي لفظ أخر (أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى) أي نازلاً مني منزلة هارون من موسى. والباء زائدة.

وقال الطيبي: معنى الحديث: أنت متصل بي نازل مني منزلة هارون من موسى. وفيه تشبيه مبهم بينه بقوله: (إلا أنه لا نبي بعدي) فعرف أن الاتصال بينهما ليس من جهة النبوة، بل من جهة ما دونها وهو الخلافة، ولما كان هارون المشبه به، إنما كان خليفة في حياة موسى، دل ذلك على تخصيص خلافة علي النبي ﷺ بحياته والله أعلم. وأما ما

---

(١) صوابه: العباس بن عتبة بن أبي لهب الهاشمي. كما في الاصابة ٤/ ٣٠ رقم الترجمة (٤٤٩٩).

(٢) الحديث في مسلم (٣٠) وفي الترمذي (٣٧٣٠) وفي ابن ماجه (١٢١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ١٧٩ وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٤/ ٣٤٥. وفي اتحاف السادة المتقين ٢/ ٢٢٧ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٠٩.

استدل به من هذا الحديث على استحقاق علي للخلافة دون غيره من الصحابة، فإن هارون كان خليفة موسى، فأجيب: بأن هارون لم يكن خليفة موسى إلا في حياته لا بعد موته، لأنه مات قبل موسى باتفاق. أشار إلى ذلك الخطابي.

وأما حديث الترمذي والنسائي (من كنت مولاه فعلي مولاه)[1] فقال الشافعي: يعني بذلك ولاء الإسلام، كقوله تعالى ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ [محمد: ١١] وقول عمر: أصبحت مولى كل مؤمن، أي ولي كل مؤمن. وطرق هذا الحديث كثيرة جداً، استوعبها ابن عقدة[2] في كتاب مفرد، وكثير من أسانيدها صحاح وحسان.

وروي أنه ﷺ قال «من آذى علياً فقد آذاني»[3] خرجه أحمد. وأخرج المخلص الذهبي: «من أحب علياً فقد أحبني». وقد ذكر النقاش: أن قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ [مريم: ٩٦] نزلت في علي. وقال محمد بن الحنفية: لا تجد مؤمناً إلا وهو يحب علياً وأهل بيته. وقال أبو حيان في «البحر»: ومن الغريب ما أنشدنا الإمام اللغوي رضي الدين أبو عبد الله بن يوسف الأنصاري الشاطبي لزبينا ابن إسحاق النصراني الرسعني:

عدي وتيم لا أحاول ذكرهم ... بسوء ولكني محب لهاشم
وما يعتريني في علي ورهطه ... إذا ذكروا في الله لومة لائم
يقولون ما بال النصارى تحبهم ... وأهل النهى من أعرب وأعاجم
فقلت لهم أني لأحسب حبهم ... سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

وقالت عائشة رضي الله عنها: كانت فاطمة أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وزوجها أحب الرجال إليه. رواه الترمذي. وفي البخاري: (إن فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني)[4] و «البضعة» بفتح الباء الموحدة، وحكي ضمها وكسرها أيضاً،

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٣٧١٣) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٨٤ و ١٥٢ وفي المستدرك للحاكم ٣/ ١١٠ وفي سنن ابن ماجه (١٢١) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٧/ ١٧ وفي حلية الأولياء ٤/ ٢٣ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٣٧٩ وفي كنز العمال (٣٢٩٠٤ ـ ٣٦٥١٥).

(٢) هو أحمد بن محمد بن سعيد ابن عقدة الكوفي أبو العباس: (٢٥٠ ـ ٣٣٢ هـ). حافظ. زيدي مولده ووفاته بالكوفة. الاعلام ١/ ٢٠٧ تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٣٩ رقم الترجمة (٨٢٠) تاريخ بغداد ٥/ ١٤ العبر ٢/ ٢٣٠.

(٣) الحديث في المستدرك للحاكم ٣/ ١٢٢ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٧٥ وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢٢٠٢) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٩٥ وفي كنز العمال (٣٢٩٠١ ـ ٣٦٤٤٥).

(٤) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٣٢٦ وفي كنز العمال (٣٤٢١٢ ـ ٣٤٢٤٢).

وبسكون المعجمة، أي قطعة لحم. واستدل به السهيلي على أن من سبها فإنه يكفر.

وفي الترمذي من حديث أسامة بن زيد ـ وقال حسن غريب ـ إنه ﷺ قال في حسن وحسين «اللهم إني أحبهما فأحبهما، وأحب من يحبهما»(١). وخرجه مسلم من حديث أبي هريرة في الحسن خاصة، زاد أبو حاتم فما كان أحد أحب إلي من الحسن بعد ما قال ﷺ ما قال.

وفي حديث أبي هريرة أيضاً عند الحافظ السلفي قال: ما رأيت الحسن بن علي قط إلا فاضت عيناي دموعاً، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج يوماً وأنا في المسجد فأخذ بيدي واتكأ علي حتى جئنا سوق قينقاع، فنظر فيه ثم رجع حتى جلس في المسجد ثم قال: «ادع ابني»، قال: فأتى الحسن بن علي يشتد حتى وقع في حجره، فجعل رسول الله ﷺ يفتح فمه، ثم يدخل فمه في فمه ويقول: «اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه»، ثلاث مرات.

وفي الترمذي من حديث أنس، أنه ﷺ كان يشمهما ويضمهما إليه، وقال: «من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة»(٢)، رواه أحمد، وقال الترمذي: «كان معي في الجنة»، وقال: حديث غريب. وليس المراد بالمعية هنا المعية من حيث المقام، بل من حيث رفع الحجاب، وتقدم نحوه في قوله تعالى: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾ [النساء: ٦٩] في المقصد السادس.

وفي حديث أبي زهير بن الأرقم عن رجل من الأزد أنه ﷺ قال في الحسن «من أحبني فليحبه، فيبلغ الشاهد الغائب». وفي البخاري: (هما ريحانتاي من الدنيا). وكان ﷺ يمص لسان الحسن أو شفته، رواه أحمد.

وعن عقبة بن الحارث قال: رأيت أبا بكر، وحمل الحسن وهو يقول: بأبي شبيه بالنبي، ليس شبيهاً(٣) بعلي. وعلي يضحك. وعن محمد بن سيرين عن أنس: كان ـ يعني الحسين ـ أشبههم برسول الله ﷺ. رواهما البخاري.

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٣٧٨٢) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٤٤٦ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٢٣٣ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٧٦١) وفي المعجم الكبير للطبراني ٣/ ٣٩ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٣/ ١٠٤٥ كنز العمال (٣٤٢٥٥ ـ ٣٧٦٩٧).

(٢) الحديث في الترمذي برقم (٣٧٣٣) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٧٦ وفي كنز العمال (٣٤١٦١).

(٣) الذي في البخاري: «ليس شبيه بعلي» وقال في فتح الباري. قال ابن مالك، كذا وقع برفع «شبيه» على أن «ليس» حرف عطف وهو مذهب كوفي.

وعنده من رواية الزهري عن أنس (لم يكن أحد أشبه بالنبي ﷺ من الحسن بن علي) وهذا قد يعارضه قول علي في صفة النبي ﷺ: (لم أر قبله ولا بعده مثله)، أخرجه الترمذي في الشمائل كما تقدم في المقصد الثالث، وأجيب: بأن يحمل النفي على عموم الشبه، والإثبات على معظمه.

وقول أنس: (لم يكن أحد أشبه بالنبي ﷺ من الحسن بن علي) قد يعارض رواية ابن سيرين عنه السابقة (كان الحسين ـ يعني بالياء ـ أشبههم بالنبي ﷺ) ويمكن الجمع بأن يكون أنس قال ما وقع في رواية الزهري في حياة الحسن، لأنه كان يومئذ أشد شبهاً بالنبي ﷺ من أخيه الحسين. وأما ما وقع في رواية ابن سيرين فكان بعد ذلك، أو المراد بمن فضل عليه الحسين في الشبه، كان من عدا الحسن، ويحتمل أن يكون كل منهما كان أشد شبهاً به في بعض أعضائه، فقد روى الترمذي وابن حبان من طريق هانىء بن هانىء عن علي قال: الحسن أشبه رسول الله ﷺ ما بين الرأس إلى الصدر، والحسين أشبه النبي ﷺ ما كان أسفل من ذلك.

وقد عدوا من كان له شبه بالنبي ﷺ سوى الحسن والحسين، جعفر بن أبي طالب، وقد قال ﷺ لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي»[1] قال الترمذي: حسن صحيح. وابنه عبد الله بن جعفر. وقثم بن العباس بن عبد المطلب. وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب. ومسلم بن عقيل بن أبي طالب. ومن غير بين هاشم: السائب بن يزيد المطلبي، الجد الأعلى للإمام الشافعي. وعبد الله بن عامر بن كريز ـ بضم الكاف وفتح الراء ـ وكابس بن ربيعة رجل من أهل البصرة، وجه إليه معاوية، وقبله بين عينيه وأقطعه قطيعة، وكان أنس إذا رآه بكى. فهؤلاء عشرة، ونظمهم شيخ الأسلام الحافظ أبو الفضل ابن حجر فقال:

شبه النبي لعشر سائب وأبي ... سفيان والحسنين الطاهرين هما
وجعفر وابنه ثم ابن عامر هم ... ومسلم كابس يتلوه مع قثما

وعدهم بعضهم: سبعة وعشرين. وممن كان يشبهه أيضاً: فاطمة ابنته، وإبراهيم ولده. وولدا جعفر، عبد الله ـ السابق ذكره ـ وأخوه عون. وكان يشبهه أيضاً من أهل

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٣٧٦٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/٩٨ و ٤/٣٤٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٨/٥ وفي المستدرك للحاكم ٣/١٢٠ وفي مصنف عبد الرزاق (٢٠٣٩٤) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٣٧٧) وفي تفسير ابن كثير ٦/٣٧٩ وفي المغني للعراقي ٢/٣١ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٤/١٧٣ وفي إتحاف السادة المتقين ٥/٣٠٧ وفي كنز العمال (٣٣١٩٦ـ ٣٦٩٠٦).

البيت غير هؤلاء: إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب. ويحيى بن القاسم بن محمد بن جعفر بن علي بن الحسين بن علي، وكان يقال له: الشبيه. قال الشريف محمد بن أسعد النسابة في الزورة الأنيسة لمشهد السيدة نفيسة أنه كان ليحيى هذا موضع خاتم النبوة شامة قدر بيضة الحمامة، تشبه خاتم النبوة، وكان إذا دخل الحمام ورآه الناس صلوا على النبي ﷺ وازدحموا عليه يقبلون ظهره تبركاً، ولذا وصف بالشبيه. والقاسم بن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب. وعلي بن علي بن نجاد بن رفاعة الرفاعي، شيخ بصري من أتباع التابعين. والمراد بالشبه هنا، الشبه في البعض، وإلا فتمام حسنه ﷺ منزه عن الشريك، كما قال الأبوصيري ـ رحمه الله ـ وأجاد:

منزه عن شريك في محاسنه ... فجوهر الحسن فيه غير منقسم

كما أشرت إليه في أول المقصد الثالث.

وقد أطلت المقال، وإنما جرني إلى ذلك ذكر حمل الصديق للحسن على عاتقه، المشعر بالإكرام من أفضل البشر بعد النبيين، لأهل البيت المحمدي، وحملهم على الأعناق، ولا سيما مع قوله ـ رضي الله عنه ـ لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي، فلما تضمن هذا الحديث ذلك الشبه الكريم جرني الكلام إليه، وهذا وقع لي كثير في هذا المجموع لكنه لا يخلو عن فرائد الفوائد.

وقد روي أنه ﷺ قال: «العباس بن عبد المطلب مني وأنا منه، لا تؤذوا العباس فتؤذني، من سب العباس فقد سبني» أخرجه البغوي(1) في معجمه. وقال ﷺ للعباس أيضاً «والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله، ثم قال: أيها الناس، من آذى عمي فقد آذاني، فإنما عم الرجل صنو أبيه» رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وفي قوله: «لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم» الإشارة إلى الإيمان الحقيقي المنجي، وهو التصديق القلبي، وبين المحبة والإيمان ارتباط من جهة أن المحبة ميل القلب إلى المحبوب، والإيمان التصديق القلبي، فيجتمعان في القلب، وجعلهما متلازمين، فيلزم من نفي أحدهما نفي الآخر، ثم علل هذه المحبة بكونها لله ولرسوله، فلا عبرة بمحبة تكون لغير ذلك، ثم جعل أذاه كأذى نفسه، لأنه عضوه وعصبه، ثم عظم مقامه بتنزيله منزلة الأب، فكما أنه يجب على الولد تعظيم والده والقيام بحقوقه فكذلك

---

(1) هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان أبو القاسم البغوي (٢١٣ ـ ٣١٧ هـ) حافظ عالم بالحديث. مولده ووفاته ببغداد. الأعلام ٤/١١٩ وتذكرة الحفاظ ٢/٧٣٧ رقم الترجمة (٧٣٨) شذرات الذهب ٢/ ٢٧٥ تاريخ بغداد ١٠/ ١١١ العبر ٢/ ١٧٠.

عمه، فقال: «وإنما عم الرجل صنو أبيه» وهو بكسر الصاد المهملة وسكون النون، أي: مثل أبيه، قال ابن الأثير: وأصله أن تطلع نخلتان من عرق واحد، يريد أن أصل العباس وأصل أبي واحد، انتهى.

وجلله ﷺ وبنيه بكساء ثم قال: «اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنباً، اللهم احفظه في ولده»(1) رواه الترمذي وقال: حسن غريب. وبين ابن السري في روايته: أن بنيه الذين جللوا بالكساء كانوا ستة: الفضل وعبد الله وعبيد الله وقثم ومعبد وعبد الرحمن. قال: وغطاهم بشملة له سوداء مخططة بحمرة وقال: «اللهم إن هؤلاء أهل بيتي وعترتي فاسترهم من النار كستري لهم بهذه الشملة» قال: فلم يبق في البيت مدرة ولا باب إلا أمن.

وروى أنه ﷺ قال لعقيل بن أبي طالب: «إني أحبك حبين، حباً لقرابتك مني، وحباً لما كنت أعلم من حب عمي لك»(2) قال الطبري: أخرجه أبو عمر، والبغوي. وروى الدارقطني أنه ﷺ قال يوم حنين: «أبو سفيان بن الحارث خير أهلي، أو من خير أهلي». وأخرج الحاكم وصححه عن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار»(3).

أعلم أنه قد اشتهر استعمال أربعة ألفاظ يوصفون بها:

الأولى: آله عليه الصلاة والسلام.

والثانية: أهل بيته.

والثالثة: ذوو القربى.

والرابعة: عترته.

فأما الأولى: فذهب قوم إلى أنهم هم أهل بيته، وقال آخرون: هم الذين حرمت عليهم الصدقة وعوضوا عنها خمس الخمس، وقال قوم: من دان بدينه وتبعه فيه.

وأما اللفظة الثانية، وهي أهل بيته، فقيل من ناسبه إلى جده الأدنى، وقيل من اجتمع معه في رحم، وقيل من اتصل به بنسب أو سبب.

---

(1) الحديث في الترمذي برقم (٣٧٦٢) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٦١٤٩) وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٧٦٨) وفي كنز العمال (٣٣٤٤٣).

(2) الحديث في كنز العمال (٣٣٦١٨).

(3) الحديث في المستدرك للحاكم ٣٥٢/٤ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٢٩٦/٧ وفي كنز العمال (٣٤٢٠٤).

وأما اللفظة الثالثة: وهي ذوو القربى، فروى الواحدي في تفسيره بسنده عن ابن عباس قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ [الشورى: ٢٣] قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمرنا الله تعالى بمودتهم؟ قال: «علي وفاطمة وابناهما».

وأما اللفظة الرابعة: وهي عترته، فقيل العشيرة، وقيل الذرية، فأما العشيرة فهي الأهل الأولون، وأما الذرية: فنسل الرجل، وأولاد بنت الرجل ذريته، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ومن ذريته داود﴾ إلى قوله: ﴿وعيسى﴾ [الأنعام: ٨٤ و ٨٥]، ولم يتصل عيسى بإبراهيم إلا من جهة أمه مريم.

فهذه الذرية الطاهرة، قد خصوا بمزايا التشريف، وعموا بواسطة السيدة فاطمة بفضل منيف، وألبسوا رداء الشرف، ومنحوا بمزيد الإكرام والتحف. وقد وقع الاصطلاح على اختصاصهم من بين ذوي الشرف كالعباسيين والجعافرة بالشطفة الخضراء، لمزيد شرفهم.

والسبب في ذلك ـ كما قيل ـ أن المأمون(١) أراد أن يجعل الخلافة في بني فاطمة فاتخذ لهم شعاراً وألبسهم ثياباً خضراً ـ لكون السواد شعار العباسيين، والبياض شعار سائر المسلمين في جمعهم ونحوها، والأحمر ومختلف في كراهته، والأصفر شعار اليهود بآخرة. ثم انثنى عزمه عن ذلك، ورد الخلافة لبني العباس، فبقي ذلك شعار الأشراف العلويين من الزهراء، لكنهم اختصروا الثياب إلى قطعة من ثوب أخضر توضع على عمائمهم شعاراً لهم ثم انقطع ذلك إلى أواخر القرن الثامن.

قال في حوادث سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة من «أنباء الغمر بأبناء العمر»: وفيها أمر السلطان الأشرف أن يمتازوا عن الناس بعصائب خضر على العمائم، ففعل ذلك بمصر والشام وغيرهما، وفي ذلك يقول الأديب أبو عبد الله بن جابر الأندلسي.

جعلوا لأبناء الرسول علامة ... إن العلامة شأن من لم يشهر
نور النبوة في كريم وجوههم ... يغني الشريف عن الطراز الأخضر

وللأديب شمس الدين الدمشقي رحمه الله:

أطراف تيجان أتت من سندس ... خضر بأعلام على الأشراف

(١) هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور أبو العباس (١٧٠ ـ ٢١٨ هـ). الخليفة العباسي السابع. توفي بالقرب من طرسوس. الاعلام ٤/ ١٤٢ تاريخ بغداد ١٠/ ١٨٣ فوات الوفيات ٢/ ٢٣٥ رقم الترجمة (٢٣٨).

والأشـــرف السلطـــان خصهـــمُ بهـــا شـــرفـــاً ليفـــرقهـــم مـــن الأطـــراف

والأشرف السلطان هو شعبان بن حسن بن الناصر محمد بن قلاوون(١).

[في محبة الصحابة]

وأما الصحابة رضوان الله عليهم، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ [الفتح: ٢٩] إلى آخر السورة. لما أخبر سبحانه وتعالى أن سيدنا محمداً ﷺ رسوله حقاً من غير شك ولا ريب، قال: محمد رسول الله، وهذا مبتدأ وخبر. وقال البيضاوي وغيره: جملة مبينة للمشهود به، يعني قوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ إلى قوله: ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ [الفتح: ٢٨]، قال: ويجوز أن يكون «رسول الله» صفة، و «محمد» خبر مبتدأ محذوف انتهى.

وهذه الآية مشتملة على كل وصف جميل.

ثم ثنّى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ [الفتح: ٢٩]، كما قال تعالى: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ [المائدة: ٥٤] فوصفهم بالشدة والغلظة على الكفار، والرحمة والبر بالأخيار. ثم أثنى عليهم بكثرة الأعمال مع الإخلاص التام، ﴿تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا﴾ [الفتح: ٢٩]، فمن نظر إليهم أعجبه سمتهم وهديهم، لخلوص نياتهم، وحسن أعمالهم.

قال مالك: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا» وصدقوا، فإن هذا الأمة المحمدية، خصوصاً الصحابة، لم يزل ذكرهم معظماً في الكتب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه﴾ [الفتح: ٢٩] أي أفراخه ﴿فآزره﴾ [الفتح: ٢٩] أي شده وقواه ﴿فاستغلظ﴾ [الفتح: ٢٩] شب فطال ﴿فاستوى على سوقه يعجب الزراع﴾ [الفتح: ٢٩] قوته وغلظه وحسن منظره. فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطأ مع الزرع ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ [الفتح: ٢٩].

ومن هذا الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله ـ في رواية عنه ـ تكفير الروافض الذين

---

(١) هو شعبان بن حسين ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، أبو المعالي ناصر الدين (٧٥٤ ـ ٧٧٨ هـ). مات خنقاً. الاعلام ٣/ ١٦٣، الدرر الكامنة ٢/ ١٩٠ رقم الترجمة (١٩٣٦).

يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظه الصحابة فهو كافر، وقد وافقه على ذلك جماعة من العلماء. والأحاديث في فضائل الصحابة كثيرة، ويكفي ثناء الله عليهم ورضاه عنهم، وقد وعدهم الله مغفرة وأجراً عظيماً، ووعد الله حق وصدق لا يخلف، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم. و «من» في قوله «منهم» لبيان الجنس ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظمياً﴾ [الفتح: ٢٩].

واختلف في مريف الصحابي:

فقيل: من ٥.حب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين. وإليه ذهب البخاري، وسبقه إليه شيخه ابن المديني[١]، رعبارته ـ كما قال شيخنا ـ من صحب النبي ﷺ أو رآه ولو ساعة من نهار فهو من أصحابا . انتهى. وهذا هو الراجح. والتقييد بـ «الإسلام» يخرج من صحبه أو رآه من الكفار، ولو اتفق إسلامه بعد موته.

لكن يرد على التعريف: من صحبه أو رآه مؤمناً به ثم ارتد بعد ذلك، ولم يعد إلى الإسلام، كعبيد الله بن جحش[٢]، فإنه ليس بصحابي اتفاقاً، وكذلك ابن خطل[٣]، وربيعة بن أمية بن خلف الجمحي[٤] وهو ممن أسلم في الفتح وشهد حجة الوداع وحدث عن النبي ﷺ بعد موته، ثم لحقه الخذلان ـ والعياذ بالله ـ في خلافة عمر فلحق بالروم وتنصر بسبب شيء أغضبه وقد أخرج له الإمام أحمد في مسنده، وإخراجه له مشكل ولعله لم يقف على قصة ارتداده، فينبغي أن يزاد في التعريف: ومات على ذلك.

فلو ارتد ثم عاد إلى الإسلام، لكنه لم ير النبي ﷺ ثانياً بعد عوده، فالصحيح أنه معدود في الصحابة، لإطباق المحدثين على عد الأشعث بن قيس ونحوه ممن وقع له ذلك، وإخراجهم أحاديثهم في المسانيد.

---

(١) هو علي بن عبد الله بن جعفر السعدي، المديني البصري، أبو الحسن (١٦١ ـ ٢٣٤ هـ). محدث حافظ. توفي في سامراء. الاعلام ٤/٣٠٣، تاريخ بغداد ٤٥٨/١١ مفتاح السعادة ١٦٣/٢ تذكرة الحفاظ ٤٢٨/٢ رقم الترجمة (٤٣٦) شذرات الذهب ٨١/٢.

(٢) كان أسلم وهاجر إلى الحبشة ولكنه تنصر فيها ومات على نصرانيته. انظر السيرة النبوية لابن هشام ٦/٤. والاصابة ٥/١.

(٣) هو رجل من بني تيم بن غالب كان مسلماً بعثه النبي ﷺ على الصدقة فقتل مولى كان معه يخدمه ثم ارتد مشركاً وكانت له قينتان [فرتنى وصاحبتها] وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ بقتلهما معه. انظر السيرة النبوية لابن هشام ٥٢/٤.

(٤) قال في الاصابة: أن عمر غرب ربيعة بن أمية بن خلف في الخمر إلى خيبر فلحق بهرقل فتنصر. فقال عمر: لا أغرب بعده أحداً أبداً. راجع ٢٢٣/٢ رقم الترجمة (٢٧٤٦).

لكن قال الحافظ زين الدين العراقي: إن في ذلك نظراً كبيراً، فإن الردة محبطة للعمل عند أبي حنيفة، ونص عليه الشافعي في الأم، وإن كان الرافعي قد حكى عنه أنها إنما تحبط بشرط اتصالها بالموت، وحينئذ فالظاهر أنها محبطة للصحبة المتقدمة، أما من رجع إلى الإسلام في حياته ﷺ كعبد الله بن أبي سرح فلا مانع من دخوله في الصحبة بدخوله الثاني في الإسلام.

وهل يشترط في الرائي أن يكون بحيث يميز ما رآه، أو يكتفي بمجرد حصول الرؤية؟ قال الحافظ ابن حجر: محل نظر، وعمل من صنف في الصحابة يدل على الثاني، فإنهم ذكروا مثل محمد بن أبي بكر الصديق، وإنما ولد قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثة أشهر وأيام، كما ثبت أن أمه أسماء بنت عميس ولدته في حجة الوداع قبل أن تدخل مكة، وذلك في أواخر ذي القعدة سنة عشرة من الهجرة.

ومنهم من بالغ فكان لا يعد في الصحابة إلا من صحب الصحبة العرفية. وروي عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يعد في الصحابة إلا من أقام مع النبي ﷺ سنة فصاعداً، أو غزا معه غزوة فصاعداً. والعمل على خلاف هذا القول. ومنهم من اشترط في ذلك أن يكون حين اجتماعه به بالغاً، وهو مردود أيضاً، لأنه يخرج مثل الحسن بن علي ونحوه من أحداث الصحابة.

وأما التقييد بالرؤية فالمراد به عند عدم المانع منها، فإن كان كابن أم مكتوم الأعمى فهو صحابي جزماً، فالأحسن أن يعبر بـ «اللقاء» بدل الرؤية ليدخل فيه ابن أم مكتوم ونحوه.

قال الحافظ زين الدين العراقي: قولهم «من رأى النبي ﷺ» هل المراد رآه في حال نبوته، أو أعم من ذلك، حتى يدخل من رآه قبل النبوة ومات قبل النبوة على دين الحنيفية كزيد بن عمرو بن نفيل، فقد قال النبي ﷺ: «أنه يبعث أمة وحده»، وقد ذكره في الصحابة أبو عبد الله بن منده، وكذلك لو رآه قبل النبوة ثم غاب عنه وعاش إلى بعد زمن البعثة، وأسلم ثم مات ولم يره، ولم أرَ من تعرض لذلك، ويدل على أن المراد: رآه بعد نبوته، أنهم ترجموا في الصحابة لمن ولد للنبي ﷺ كابراهيم وعبد الله، ولم يترجموا لمن ولد قبل النبوة ومات قبلها كالقاسم، انتهى.

وهل يختص جميع ذلك ببني آدم، أم يعم غيرهم من العقلاء؟ محل نظر. أما الجن، فالراجح دخولهم لأن النبي ﷺ بعث إليهم قطعاً، وهم مكلفون، فيهم العصاة والطائعون، فمن عرف اسمه منهم لا ينبغي التردد في ذكره في الصحابة، وإن كان ابن

الأثير عاب على أبي موسى فلم يستند في ذلك إلى حجة[1]، وأما الملائكة فيتوقف عدهم في ذلك على ثبوت البعثة إليهم، فإن فيه خلافاً بين الأصوليين، حتى نقل بعضهم الإجماع على ثبوته، وعكس بعضهم.

وهذا كله فيمن رآه في قيد الحياة الدنيوية، أما من رآه بعد موته وقبل دفنه[2] فالراجح أنه ليس صحابياً، وإلا لعد من اتفق أنه رأى جسده المكرم وهو في قبره المعظم، ولو في هذه الأعصار، وكذلك من كشف له من الأولياء عنه ﷺ فرآه كذلك على طريق الكرامة كما قدمت مباحثه في خصوصياته ﷺ من المقصد الرابع، إذ حجة من أثبت الصحبة لمن رآه قبل دفنه أنه مستمر الحياة، وهذه الحياة ليست دنيوية، وإنما هي أخروية لا تتعلق بها أحكام الدنيا، وأما من رآه في المنام، وإن كان قد رآه حقاً. فذلك فيما يرجع إلى الأمور المعنوية، لا الأحكام الدنيوية، فلذلك لا يعد صحابياً، ولا يجب عليه أن يعمل بما أمره به في تلك الحالة.

وقد أجمع جمهور العلماء من السلف والخلف على أنهم خير خلق الله، وأفضلهم بعد النبيين وخواص الملائكة المقربين، لما روى البخاري من حديث عبد الله أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» وله من حديث عمران بن حصين (خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً.

قال في فتح الباري: والقرن أهل زمان واحد متقارب، اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة، ويطلق على مدة من الزمان، واختلفوا في تحديدها، من عشرة أعوام إلى مائة وعشرين، لكن لم أر من صرح بالتسعين ولا بمائة وعشرة، وما عدا ذلك فقد قال به قائل، وقال صاحب المحكم: هو القدر المتوسط من أعمار أهل كل زمن، وهذا أعدل الأقوال. والمراد بقرن النبي ﷺ في هذا الحديث الصحابة، وتقدم في أول المقصد الأول حديث (بعثت من خير قرون بني آدم) وفي رواية بريدة عند أحمد (خير هذه الأمة القرن الذي بعثت فيهم).

وقد ضبط الأئمة من الحفاظ آخر من مات من الصحابة على الإطلاق بلا خلاف أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي، كما جزم به مسلم، وكان موته سنة مائة على الصحيح،

---

(١) عاب الحافظ ابن الأثير في أسد الغابة على أبي موسى المديني ذلك وليس بمعيب، قال ابن حزم: قد علمنا الله أن نفراً من الجن آمنوا وسمعوا منه ﷺ فهم صحابة فضلاء.

(٢) كما وقع ذلك لأبي ذؤيب الهذلي كما قال في الإصابة ٣/ ٢١٠ ترجمة الشماخ (٣٩١٣).

وقيل سنة سبع ومائة، وقيل سنة عشر ومائة، وهو الذي صححه الذهبي، وهو مطابق لقوله ﷺ ـ قبل وفاته بشهر ـ : (على رأسة مائة سنة لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها اليوم أحد)، وفي رواية مسلم (أرأيتكم ليلتكم، هذه، فإنه ليس من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة)[1].

وأما ما ذكر أن عكراش بن ذؤيب عاش بعد يوم الجمل مائة سنة فذلك غير صحيح، وإن صح فمعناه أنه استكمل المائة بعد الجمل، لا أنه بقي بعدها مائة سنة، كما نص عليه الأئمة، وأما ما ذكر أيضاً من أمر «بابارتن»[2] ونحوه فإن ذلك لا يروج على من له أدنى مسكة من العقل، كما قاله الأئمة. وأما آخر الصحابة موتاً بالإضافة إلى النواحي فقد أفردهم ابن منده.

وأما قوله: (ثم الذين يلونهم) فهم أهل القرن الذين بعدهم، وهم التابعون، ثم الذين يلونهم وهم أتباع التابعين. واقتضى هذا الحديث أن تكون الصحابة أفضل من التابعين، والتابعون أفضل من أتباع التابعين. لكن هل هذه الفضيلة بالنسبة إلى المجموع أو الأفراد؟

والذي ذهب إليه ابن عبد البر هو الأول، كما قدمت ذلك في خصائص هذه الأمة من المقصد الرابع، واحتج لذلك ـ سوى ما تقدم ـ بحديث (مثل أمتي مثل المطر، لا يدري آخره خير أم أوله) قال الحافظ ابن حجر: وهو حديث حسن، له طرق وقد يرتقي بها إلى درجة الصحة.

وقد روى ابن أبي شيبة من حديث عبد الرحمن بن جبير بن نفير ـ أحد التابعين ـ بإسناد حسن قال: قال رسول الله ﷺ: «ليدركن المسيح أقواماً إنهم لمثلكم أو خير، ثلاثاً، ولن يخزي الله أمة أنا أولها والمسيح آخرها»[3].

وروى أبو داود والترمذي من حديث أبي ثعلبة ـ رفعه ـ: (تأتي أيام للعامل فيها أجر خمسين، قيل: منهم أو منا يا رسول الله؟ قال: بل منكم) وهو شاهد لحديث (مثل أمتي مثل المطر لا يدري أوله خير أم آخره) لكن حديث (للعامل منهم أجر خمسين

---

(١) الحديث في مسلم كتاب فضائل الصحابة (٢١٧ ـ ٢١٨ ـ ٢١٩) وفي الترمذي برقم (٢٢٥١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٩٣ /٣ ٣٤٥.

(٢) قال الذهبي في تجريده: رتن الهندي شيخ ظهر بعد الستمائة بالمشرق وادعى الصحبة، فسمع منه الجهال، أو لا وجود له، بل اختلق اسمه بعض الكذابين، وإنما ذكرته تعجباً.

وقال في الميزان: رتن وما أدراك ما رتن شيخ دجال بلا ريب ظهر بعد الستمائة.

(٣) الحديث في مصنف ابن أبي شيبة ٥/ ٢٩٩ باختلاف يسير وفي فتح الباري ٧/ ٦.

منكم) لا يدل على أفضلية غير الصحابة، لأن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة، وأيضاً: الأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلى ما يماثله في ذلك العمل.

فأما ما فاز به من شاهد النبي ﷺ من فضيلة المشاهدة، فلا يعدله فيها أحد، ولا ريب أن من قاتل معه أو في زمانه بأمره، أو أنفق شيئاً من ماله بسببه، لا يعدله أحد في الفضل بعده كائناً من كان، قال الله تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾ [الحديد: ١٠]، وكذلك من ضبط الشرع المتلقى عنه وبلغه لمن بعده. فمحصل النزاع يتمحض فيمن لم يحصل له إلا مجرد المشاهدة، وقد ظهر أنه فاز بما لم يفز به من لم يحصل له ذلك. وبهذا يمكن تأويل الأحاديث المتقدمة.

ثم إن الصحابة على ثلاث أصناف: الأول: المهاجرون، الثاني: الأنصار وهم الأوس والخزرج وحلفاؤهم ومواليهم، الثالث: من أسلم يوم الفتح. قال ابن الأثير في «الجامع»: والمهاجرون أفضل من الأنصار، وهذا على سبيل الإجمال، وأما على سبيل التفصيل، فإن جماعة من سباق الأنصار أفضل من جماعة من متأخري المهاجرين وإنما سباق المهاجرين أفضل من سباق الأنصار، ثم هم بعد ذلك متفاوتون، فرب متأخر في الإسلام أفضل من متقدم عليه، مثل عمر بن الخطاب وبلال ابن رباح.

وقد ذكر العلماء للصحابة ترتيباً على طبقات، وممن قسمهم كذلك الحاكم في «علوم الحديث»:

الطبقة الأولى: قوم أسلموا بمكة أول البعث، وهم سباق المسلمين، مثل: خديجة بنت خويلد، وعلي بن أبي طالب، وأبي بكر الصديق، وزيد بن حارثة، وبقية العشرة، وقد تقدم الخلاف في أول من أسلم في المقصد الأول.

الطبقة الثانية: أصحاب دار الندوة، بعد إسلام عمر بن الخطاب حمل النبيَّ ﷺ ومن معه من المسلمين إلى دار الندوة، فأسلم لذلك جماعة من أهل مكة.

الطبقة الثالثة: الذين هاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم من أذى المشركين أهل مكة، منهم: جعفر بن أبي طالب، وأبو سلمة بن عبد الأسد.

الطبقة الرابعة: أصحاب العقبة الأولى، وهم سباق الأنصار إلى الإسلام، وكانوا ستة، وأصحاب العقبة الثانية من العام المقبل، وكانوا اثني عشر، وقد قدمت أسماء أهل العقبتين في المقصد الأول.

الطبقة الخامسة: أصحاب العقبة الثالثة، وكانوا سبعين من الأنصار، منهم: البراء

بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة.

الطبقة السادسة: المهاجرون الذين وصلوا إلى النبي ﷺ بعد هجرته وهو بقباء قبل أن يبني المسجد وينتقل إلى المدينة.

الطبقة السابعة: أهل بدر الكبرى. قال ﷺ لعمر في قصة حاطب بن أبي بلتعة[1]: (وما يدريك، لعل الله اطلع على هذه العصابة من أهل بدر فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»)[2] رواه مسلم.

الطبقة الثامنة: الذين هاجروا بين بدر والحديبية.

الطبقة التاسعة: أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا بالحديبية تحت الشجرة، قال ﷺ: «لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد»[3] رواه مسلم.

الطبقة العاشرة: الذين هاجروا بعد الحديبية وقبل الفتح، كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، ومثل بعضهم بأبي هريرة لكن قال الحافظ العراقي، لا يصح التمثيل به، فإنه هاجر قبل الحديبية، عقيب خيبر بل في أواخرها.

الطبقة الحادية عشر: الذين أسلموا يوم الفتح، وهم خلق كثير، فمنهم من أسلم طائعاً، ومنهم من أسلم كارهاً ثم حسن إسلام بعضهم، والله أعلم بهم.

الطبقة الثانية عشر: صبيان أدركوا النبي ﷺ ورأوه عام الفتح وبعده في حجة الوداع وغيرهما، كالسائب بن يزيد. ثم انقطعت الهجرة بعد الفتح على الصحيح من الأقوال.

وأما عدة أصحابه ﷺ، فمن رام حصر ذلك رام أمراً بعيداً، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الله تعالى، لكثرة من أسلم من أول البعثة إلى أن مات النبي ﷺ، وتفرقهم في البلدان والبوادي. وقد روى البخاري أن كعب بن مالك قال في قصة تخلفه عن غزوة تبوك: وأصحاب رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ، يعني الديوان، لكن قد جاء ضبطهم في بعض مشاهده كتبوك.

وقد روي أنه سار عام الفتح في عشرة آلاف من المقاتلة، وإلى حنين في اثني عشر ألفاً، وإلى حجة الوداع في تسعين ألفاً، وإلى تبوك في سبعين ألفاً، وقد روي أنه قبض

---

(1) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٤١.

(2) الحديث في صحيح البخاري برقم (٣٠٨١ ـ ٤٢٧٤) وفي مسلم (١٦١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٧٩ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٣٨٤ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ٩٩.

(3) الحديث في البداية والنهاية لابن كثير ٤/ ١٧٣ باختلاف يسير.

عن مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً، والله أعلم بحقيقة ذلك.

ثم إن أفضلهم على الإطلاق عند أهل السنة إجماعاً أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما. عن ابن عمر قال: كنا نخير بين الناس في زمان رسول الله ﷺ فنخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان بن عفان. رواه البخاري. وفي رواية عبيد الله بن عمر عن نافع: كنا في زمان النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً ثم عمر ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ فلا نفاضل بينهم. رواه البخاري أيضاً. وقوله: «لا نعدل بأبي بكر أحداً» أي لا نجعل له مثيلاً.

ولأبي داود من طريق سالم عن ابن عمر: كنا نقول ـ ورسول الله ﷺ حي ـ: أفضل أمة النبي ﷺ بعده أبو بكر ثم عمر ثم عثمان[1]. زاد الطبراني في رواية: فيسمع رسول الله ﷺ ذلك فلا ينكره.

وروى خيثمة بن سليمان في «فضائل الصحابة» من طريق سهيل ابن أبي صالح عن أبيه عن ابن عمر: كنا نقول: إذا ذهب أبو بكر وعمر وعثمان استوىٰ الناس، فيسمع النبي ﷺ ذلك فلا ينكره. وفي ذلك تقديم عثمان بعد أبي بكر وعمر. وأهل السنة على أن علياً بعد عثمان. وذهب بعض السلف إلى تقديم علي على عثمان. وممن قال به سفيان الثوري.

وقيل: لا يفضل أحدهما على الآخر، ونقل ذلك عن مالك في المدونة، وتبعه جماعة منهم يحيى بن القطان. وقال ابن معين: من قال أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وعرف علي سابقته وفضله فهو صاحب سنة، ولا شك أن من اقتصر على عثمان ولم يعرف لعلي فضله فهو مذموم.

وقد ادعى ابن عبد البر أن حديث الاقتصار على الثلاثة: أبي بكر وعمر وعثمان خلاف قول أهل السنة أن علياً أفضل الناس بعد الثلاثة. وتعقب: بأنه لا يلزم من سكوتهم إذ ذاك عن تفضيله عدم تفضيله، فالمقطوع به عند أهل السنة: القول بأفضلية أبي بكر ثم عمر ثم اختلفوا فيمن بعدهما، فالجمهور على تقديم عثمان، وعن مالك الوقف، والمسألة اجتهادية، ومستندها أن هؤلاء الأربعة اختارهم الله لخلافة نبيه، وإقامة دينه، فمنزلتهم عنده بحسب ترتيبهم في الخلافة.

وقال الإمام أبو منصور البغدادي: أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة تمام العشرة، يعني: طلحة والزبير وسعداً وسعيداً وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة عامر بن الجراح.

---

(١) راجع سنن أبي داود رقم (٤٦٢٧ ـ ٤٦٢٨).

وقد روى الترمذي عن سعيد بن زيد أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عشرة في الجنة، أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص» فعد هؤلاء التسعة وسكت عن العاشر، فقال له القوم ننشدك الله، من العاشر؟ فقال: نشدتموني بالله، سعيد ابن زيد في الجنة، يعني نفسه[1].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أنه خرج إلى المسجد، فسأل عن النبي ﷺ فقالوا: وجه هاهنا، فخرجت في أثره حتى دخل بئر أريس[2]، فجلست عند الباب، وبابها من جريد، حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته، فتوضأ فقمت إليه، فإذا هو جالس على بئر أريس وتوسط قفها، فجلست عند الباب فقلت: لأكونن بواباً للنبي ﷺ اليوم، فجاء أبو بكر، فدفع الباب فقلت من هذا؟ فقال: أبو بكر، فقلت على رسلك ثم ذهبت إلى رسول الله ﷺ فقلت: هذا أبو بكر يستأذن، فقال: «ائذن له وبشره بالجنة»، فأقبلت حتى قلت لأبي بكر: ادخل، ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة، فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه في القف ودلى رجليه في البئر كما صنع رسول الله ﷺ وكشف عن ساقيه، ثم رجعت فجلست، وقد تركت أخي يتوضأ ويلحقني[3]، فقلت: إن يرد الله بفلان خيراً ـ يريد أخاه ـ يأت به، فإذا بإنسان يحرك الباب، فقلت: من هذا؟ قال: عمر ابن الخطاب، فقلت على رسلك، ثم جئت إلى النبي ﷺ فقلت: هذا عمر بن الخطاب يستأذن، فقال: «ائذن له وبشره بالجنة»، فقلت: ادخل ويبشرك رسول الله ﷺ بالجنة، فجلس مع رسول الله ﷺ في القف عن يساره ودلى رجليه في البئر، فرجعت وقلت: إن يرد الله بفلان خيراً يأت به، فجاء إنسان فحرك الباب، فقلت من هذا؟ فقال: عثمان بن عفان، فقلت على رسلك، وجئت إلى النبي ﷺ فأخبرته فقال: «ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه»، فجئت فقلت: ادخل ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة على بلوى تصيبك، فدخل فوجد القف قد ملىء، فجلس وجاهه من الصف الآخر[4]. قال شريك:

---

(١) الحديث في سنن أبي داود برقم (٤٦٤٩) وفي الترمذي (٣٧٤٨) وفي المستدرك للحاكم ٣/٣١٦ و ٤٤٠ وفي كنز العمال (٣٣١٠٥).

(٢) بئر بالمدينة معروفة. انظر معجم ما استعجم ١/١٤٣ ومعجم البلدان ١/٢٩٨.

(٣) قال الحافظ: كان له أخوان، أبو رهم وأبو بردة.

(٤) الحديث في البخاري برقم (٣٦٧٤) وفي مسلم برقم (٢٩) وفي الترمذي (٣٧١٠) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/١٦٥ وفي مجمع الزوائد ٩/٥٦ و ٧٣ وفي المعجم الكبير ١٢/٣٢٧ وفي حلية الأولياء ١/٥٨ و ٣/٢٤ وفي مشكل الآثار ٢/٨٤ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/١٧٨ وفي تفسير القرطبي ١٢/٢١٦ وفي كنز العمال (٣٦٣١٧).

قال سعيد بن المسيب: فأولتها قبورهم. رواه أحمد ومسلم وأبو حاتم وأخرجه البخاري.

وأخرج أبو داود نحوه عن أبي سلمة عن نافع بن عبد الحارث الخزاعي قال: دخل رسول الله ﷺ حائطاً من حوائط المدينة، فقال لبلال: «أمسك علي الباب»، فجاء أبو بكر فاستأذن.. فذكر نحوه. قال الطبراني: وفي حديث أن نافع بن الحارث هو الذي كان يستأذن. وهذا يدل على تكرر القصة، لكن صوب الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر عدم التعدد، وأنها عن أبي موسى، ووَهَّم القول بغيره. وأنشد لنفسه:

لقد بشر الهادي من الصحب زمرة ... بجنات عدن كلهم فضله اشتهر
سعيد زبير سعد طلحة عامر ... أبو بكر عثمان بن عوف علي عمر

ولأبي الوليد بن [الشحنة](1):

أسماء عشر رسول الله بشرهم ... بجنة الخلد عمن زانها وعمر
سعد سعيد علي عثمان طلحة بو ... بكر ابن عوف ابن جراح الزبير عمر

فإن قلت: من اعتقد في الخلفاء الأربعة الأفضلية على الترتيب المعلوم، ولكن محبته لبعضهم تكون أكثر، هل يكون آثماً به أم لا؟

فأجاب شيخ الإسلام الولي بن العراقي: أن المحبة قد تكون لأمر ديني، وقد تكن لأمر دنيوي، فالمحبة الدينية لازمة للأفضلية، فمن كان أفضل كانت محبتنا الدينية له أكثر، فمتى اعتقدنا في واحد منهم أنه أفضل ثم أحببنا غيره من جهة الدين أكثر كان تناقضاً، نعم إن أحببنا غير الأفضل أكثر من محبة الأفضل لأمر دنيوي كقرابة وإحسان فلا تناقض في ذلك ولا امتناع، فمن اعترف بأن أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، لكنه أحب علياً أكثر من أبي بكر مثلاً، فإن كانت المحبة المذكورة محبة دينية فلا معنى لذلك، إذ المحبة الدينية لازمة للأفضلية كما قررناه، وهذا لم يعترف بأفضلية أبي بكر إلا بلسانه، وأما بقلبه فهو مفضل لعلي لكونه أحبه محبة دينية زائدة على محبة أبي بكر، وهذا لا يجوز، وإن كانت المحبة المذكورة محبة دنيوية لكونه من ذرية علي أو لغير ذلك من المعاني فلا امتناع والله أعلم. انتهى.

وقد روى الطبري في «الرياض» وعزاه للملاء في «سيرته» عن أنس مرفوعاً، «إن الله افترض عليكم حب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي كما افترض الصلاة والزكاة والصوم

(1) هو محمد بن محمد أبو الوليد محب الدين ابن الشحنة الحلبي (٧٤٩ ـ ٨١٥ هـ). فقيه حنفي أديب عالم. مولده ووفاته بحلب. الاعلام ٧/ ٤٤ سير اعلام النبلاء ٥/ ١٦١ الضوء اللامع ١٠/ ٣.

والحج، فمن أنكر فضلهم فلا تقبل منه الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج».

وأخرج الحافظ السلفي في «مشيخته» من حديث أنس مرفوعاً: «حب أبي بكر واجب على أمتي».

وأخرج الأنصاري عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا بكر، ليت أني لقيت إخواني» فقال أبو بكر: يا رسول الله، نحن إخوانك، قال: «لا، أنتم أصحابي، إخواني الذين لم يروني، وصدقوا بي وأحبوني، حتى إني لأحب إلى أحدهم من ولده ووالده»، قالوا: يا رسول الله، أما نحن إخوانك؟ قال: لا، بل أنتم أصحابي، ألا تحب يا أبا بكر قوماً أحبوك بحبي إياك؟» قال: فأحبهم ما أحبوك بحبي إياك.

فمحبة من أحبه الرسول ﷺ كآل بيته وأصحابه رضي الله عنهم علامة على محبة رسول الله ﷺ، كما أن محبته ﷺ علامة على محبة الله تعالى. وكذلك عداوة من عاداهم وبغض من أبغضهم وسبهم. فمن أحب شيئاً أحب من يحب، وأبغض من يبغض، قال الله تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله﴾ [المجادلة: ٢٢] فحب آله بيته ﷺ وأصحابه وأولاده وأزواجه من الواجبات المتعينات، وبغضهم من الموبقات المهلكات.

ومن محبتهم وجوب توقيرهم، وبرهم والقيام بحقوقهم، والإقتداء بهم بأن يمشي على سنتهم وآدابهم وأخلاقهم، والعمل بأقوالهم مما ليس للعقل فيه مجال، وحسن الثناء عليهم بأن يذكروا بأوصافهم الجملية على قصد التعظيم. فقد أثنى الله تعالى عليهم في كتابه المجيد، ومن أثنى الله عليه فهو واجب الثناء، والإستغفار لهم، قالت عائشة: (أمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله ﷺ فسبوهم) رواه مسلم. وفائدة المستغفر لهم عائدة عليه. قال سهل بن عبد الله التستري: لم يؤمن بالرسول ﷺ من لم يوقر أصحابه ولم يعزّ أوامره.

ومما يجب أيضاً: الإمساك عما شجر بينهم، أي وقع بينهم من الإختلاف، والإضراب عن أخبار المؤرخين وجهلة الرواة، وضلال الشيعة والمبتدعين، القادحة في أحد منهم، قال ﷺ «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا»[1]، وأن يلتمس لهم مما نقل من ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات، ويخرج لهم أصوب المخارج، إذ هم أهل

---

(١) الحديث في المعجم الكبير ٢/ ٩٣ وفي مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٢ و ٢٢٣ وفي الدر المنثور ٣/ ٣٥ وفي إتحاف السادة المتقين ٢/ ٤٢ و ٢٢٣ و ٨/ ٥٥ و ٩/ ٤٠٢ وفي المغني عن حمل الأسفار ١/ ٣٠ و ٤١٤ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٦/ ٢١٧٢ وفي كنز العمال (٩٠١). وقال ابن رجب: روي من وجوه في أسانيدها كلها مقال.

ذلك كما هو في مناقبهم، ومعدود من مآثرهم، مما يطول إيراد بعضه.

وما وقع بينهم من المنازعات والمحاربات فله محامل وتأويلات، فسبهم والطعن فيهم إذا كان مما يخالف الأدلة القطعية كفر، كقذف عائشة رضي الله عنها، وإلا فبدعة وفسق. قال ﷺ: «أيها الناس احفظوني في أختاني وأصهاري وأصحابي، لا يطالبنكم الله بمظلمة أحد منهم، فإنها ليست مما يوهب»(١). رواه الخِلَعي(٢).

وقال ﷺ: «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً من بعدي، من أحبهم فقد أحبني، ومن أبغضهم فقد أبغضني، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه الله»(٣) رواه المخلص الذهبي. [أبو طاهر محمد بن عبد الرحمن الذهبي]. وهذا الحديث ـ كما قال بعضهم ـ خرج مخرج الوصية بأصحابه على طريق التأكيد والترغيب في حبهم، والترهيب عن بعضهم. وفيه إشارة إلى أن حبهم من الإيمان، وبغضهم كفر، لأنه إذا كان بغضهم بغضاً له كان كفراً بلا نزاع، للحديث السابق (لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه).

وهذا يدل على كمال قربهم منه بتنزيلهم منزلة نفسه، حتى كأن أذاهم واقع عليه وواصل إليه ﷺ. و«الغرض»: الهدف الذي يرمي فيه. فهو نهي عن رميهم مؤكداً ذلك بتحذيرهم الله منه، وما ذاك إلا لشدة الحرمة. وروي مرفوعاً: «من سب أحداً من أصحابي فاجلدوه»(٤). خرجه تمام في فوائده. وقال مالك بن أنس وغيره ـ فيما ذكره القاضي عياض ـ: من أبغض الصحابة فليس له في فيء المسلمين حق. قال: ونزع بآية الحشر ﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ [الحشر: ١٠] الآية. وقال: من غاظه أصحاب محمد فهو كافر، قال الله تعالى: ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ [الفتح: ٢٩] والله أعلم.

---

(١) الحديث في إتحاف السادة المتقين ٧/ ٤٩١ وفي تاريخ ابن عساكر ٦/ ١٢٩ وفي مجمع الزوائد ٩/ ١٥٧.

(٢) هو علي بن الحسن بن الحسين بن محمد أبو الحسن الخلعي الشافعي (٤٠٥ ـ ٤٩٢ هـ). فقيه شافعي مولده ووفاته بمصر. الاعلام ٤/ ٢٧٣، وفيات الاعيان ١/ ٣٣٨ كشف الظنون (٧٢٢ ـ ١٢٩٧).

(٣) الحديث في الترمذي برقم (٣٨٦٢) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٥٤ و ٥٧ وفي حلية الأولياء ٨/ ٢٨٧ وفي إتحاف السادة المتقين ٢/ ٤٢ و ٢٢٣ وفي شرح السنة للبغوي ١٤/ ٧٠ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٤/ ١٤٨٥ وفي جمع الجوامع (٩٦٥٧ ـ ٩٦٥٨) وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢٢٨٤) وفي الشفا ٢/ ٦٠ و ١١٨ و ٦٥١ وفي مشكاة المصابيح (٦٠٠٥) وفي ميزان الاعتدال (٤٤١٢) وفيه: في الحديث اضطراب. وفي كنز العمال (٣٢٤٨٣ ـ ٣٢٥٣٠).

(٤) الحديث في مجمع الزوائد ١٠/ ٢١ وفي كنز العمال (٣٢٥٤١).

فهرس المحتويات

المقصد الثالث

الفصل الأول

في كمال خلقته وجمال صورته ﷺ وشرفه وكرمه ٥

الفصل الثاني

فيما أكرمه الله تعالى به من الأخلاق الزكية وشرفه به
من الأوصاف المرضية ٨٣

الفصل الثالث

فيما تدعو ضرورته إليه ﷺ من غذائه وملبسه ومنكحه وما يلحق ذلك
وفيه أربعة أنواع ١١٦

النوع الأول

في عيشه ﷺ في المأكل والمشرب ١١٦

النوع الثاني

في لباسه ﷺ وفراشه ١٤٨

النوع الثالث

في سيرته ﷺ في نكاحه ١٧٨

النوع الرابع

في نومه ﷺ ١٨٥

المقصد الرابع

الفصل الأول

في معجزاته ﷺ ١٩١

تعريف المعجزة بالدليل ١٩١

حديث القصعة ٢٣٩

الفصل الثاني
فيما خصّه الله تعالى به من المعجزات وشرفه به على سائر الأنبياء
من الكرامات والآيات البينات ٢٤٣
المقصد الخامس
الإسراء والمعراج ٣٣٩
المقصد السادس
فيما ورد في آي التنزيل من تعظيم قدره ﷺ ٣٩٩
النوع الأول
في آيات تتضمن تعظيم قدره ورفعة ذكره وجليل رتبته وعلو درجته
على الأنبياء وتشريف منزلته ٣٩٩
النوع الثاني
في أخذ الله الميثاق له على النبيين فضلاً ومنة ليؤمنن به إن أدركوه ولينصرنه ٤١٤
النوع الثالث
في وصفه له ﷺ بالشهادة وشهادته له بالرسالة ٤١٧
النوع الرابع
في التنويه به ﷺ في الكتب السالفة كالتوراة والإنجيل بأنه صاحب الرسالة
والتبجيل ٤٢٨
النوع الخامس
في آيات تتضمن أقسامه تعالى على تحقيق رسالته وثبوت ما أوحى إليه من آياته
وعلو رتبته الشريفة ومكانته ٤٣٦
الفصل الأول
في قسمه تعالى على ما خصه به من الخلق العظيم وحباه من الفضل العميم ٤٣٦
الفصل الثاني
في قسمه تعالى على ما أنعم به عليه وأظهره من قدره العلي لديه ٤٣٨
الفصل الثالث
في قسمه تعالى على تصديقه ﷺ فيما أوتي به وحيه وكتابه وتنزيهه
عن الهوى في خطابه ٤٤٠
الفصل الرابع
في قسمه تعالى على تحقيق رسالته ٤٤٦

الفصل الخامس

في قسمه تعالى بمدة حياته ﷺ وعصره وبلده ٤٤٨

النوع السادس

في وصفه تعالى له ﷺ بالنور والسراج المنير ٤٠١

النوع السابع

في آيات تتضمن وجوب طاعته واتباع سننه ٤٥٣

النوع الثامن

فيما يتضمن الأدب معه ﷺ ٤٥٧

النوع التاسع

في آيات تتضمن رده تعالى بنفسه المقدسة على عدوه ﷺ ترفيعاً لشأنه ٤٥٩

النوع العاشر

في إزالة الشبهات عن آيات وردت في حقه ﷺ متشابهات ٤٦١

المقصد السابع

الفصل الأول

في وجوب محبته واتباع سنته والاقتداء بهديه وسيرته ﷺ ٤٧٥

الفصل الثاني

في حكم الصلاة عليه والتسليم فريضة وسنة وفضيلة وصفة ومحلاً ٥٠٤

الفصل الثالث

في ذكر محبة أصحابه ﷺ وآله وقرابته وأهل بيته وذريته ٥٢٧